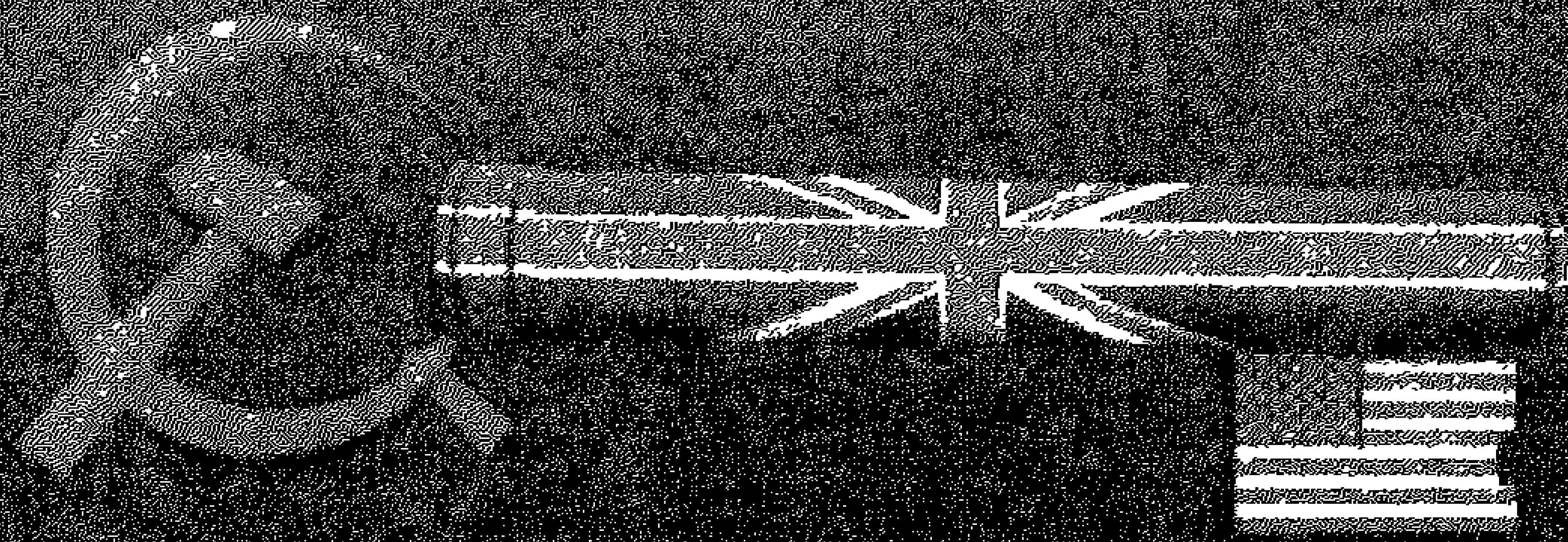
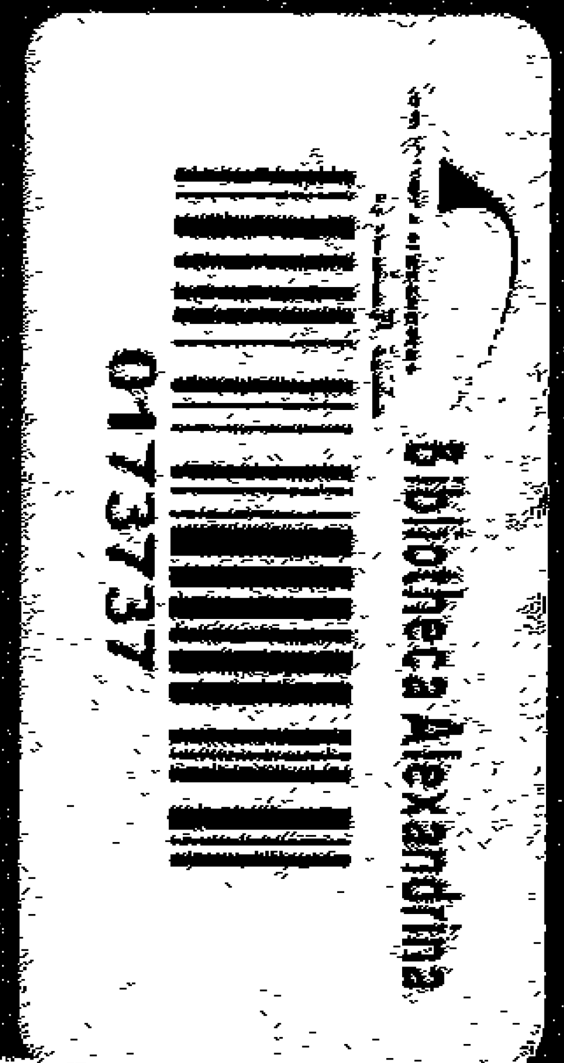


بيتر رايت

صائد الجواسيس

مُراجَعة :
سمير عزّت نصّار

ترجمة :
هيثم علي حجازي



الترجمة الكاملة

الأهلية للنشر والتوزيع

صائد
الجواسيس

اهداءات ٢٠٠١

ا.صلاح راتب

القاهرة

بيتر رايت

صائد الجواسيس

ترجمة:
هيثم حجازي

مُراجعة:
سمير عزّت نصّار



* المؤلف : بيتر رايت
* الكتاب : صائد الجواسيس
* ترجمة : هيثم علي حجازي
* مراجعة : سمير عزت نصار
* الناشر : الاهلية للنشر والتوزيع
هاتف : ٦٣٨٦٨٨ – ٦٥٧٤٤٥
ص . ب : ٧٧٧٢
عمان – الاردن
* الطبعة الأولى / ١٩٨٩
الترجمة الكاملة لكتاب :

Spycatcher
Peter Wright
With Paul Greengrass
First pulblished by William Heinemann / Austratia

تمهيد

لعدة سنوات خلت ، كنت افكر دوماً ما الذي سوف يكون عليه اليوم الاخير .

ففي كانون الثاني من عام ١٩٧٦ كان عليّ أن أعود ثانية للانخراط في العالم الحقيقي بعد أن أمضيت عقدين من الزمن في العمل في الاستخبارات البريطانية / الشعبة (م آي ٥) كنت خلالها في المراتب العليا لهذا الجهاز .

وللمرة الأخيرة غادرت محطة المترو في شارع (ايوستون) . وفي حين كنت أسير باتجاه ساحة الطرف الأغر ، كانت أشعة الشمس الشتائية تلمع في السماء . بعد نحو خمسين ياردة دخلت الى أحد المباني الواقعة بين كلية للفنون وبين احدى المستشفيات . ولم يكن هذا المبنى يحمل أي يافطات تدل عليه ، ولم يكن يبدو انه المقر الرئيسي لقيادة مكتب مكافحة التجسس البريطانية .

أبرزت هويتي لرجل الأمن الذي كان يقف بحذر في ردهة الاستقبال ، ثم اتجهت الى أحد المصاعد المخصصة لكبار الضباط ، والتي تقلهم الى الطابق السادس . وعبر الممر ، سرت بصمت ، متجهاً الى غرفتي المجاورة لجناح المدير العام .

كان الصمت يخيم على غرف المكاتب ، ومن بعيد كانت تتناهى الى سمعي أصوات ضجيج قطارات الانفاق التي تقل الناس الى مراكز عملهم في منطقة (ويست إند) . فتحت باب غرفتي ، وأمامي مباشرة كان كل ما يحتاجه ضابط المخابرات من معدات أساسية في مهنته : طاولة مكتب ، وجهازا هاتف ، أحدهما مخصص للمكالمات الخارجية ، وفي أحد جوانب الغرفة كانت هناك خزانة معدنية خضراء اللون (خزنة) على واجهتها الامامية قفل كبير . نزعت معطفي ، ثم بدأت بشكل آلي أرتب أموري . لقد شاهدت الكثير من الضباط المتقاعدين يحاولون خلال حفلات الكوكتيل الحصول على شيء من المعلومات والاشاعات ولذلك فانني قررت ان أضع نهاية شريفة لي ، حيث اعتزمت على

بدء حياة جديدة من خلال تربية الخيول في استراليا .

أدرت قفل باب الخزنة الحديدية على الارقام السرية ، ثم فتحت الباب . كانت هناك في المقدمة مجموعة من الملفات التي كتبت عليها عبارة "سري للغاية " وخلفها مباشرة كانت هناك مجموعة من الصنـــاديق الصغيــرة المــرتبة بعناية . على مدار سنوات خدمتي اطلعت على آلاف التقارير ، اما هذه ، فانها سوف تكون آخر ما أطلع عليه من ملفات . لقد كانت عبارة عن مجموعة من التقارير الروتينية التي يقدمها العملاء ، وآخر تقارير شعبة الكومبيوتر ، وآخر التحليلات المتعلقة بالجيش الجمهوري الايرلندي السري . ان الملفات دائماً بحاجة الى الاجابة عليها ، وبالطبع ليست لدي إجابة اقدمها . لقد أرسل اليّ بواسطة ضابط شاب ملف للدبلوماسيين الروس فهل استطعت التعرف على هذا الضابط ؟ لست متأكداً . كان هذا الملف يتضمن قضية عمـــيل مزدوج ، وبقيت هذه القضية مثار أخذ و ردّ لعدة سنوات ، فهل لدي الآن أي آراء حول هذا الموضوع ؟ ايضا ، لست متأكداً ، لانك حينما تعمل في مجال الاستخبارات فإن كل قضية تبدو مختلفة عن غيرها ، في حين انها جميعاً تبدو متشابهة حينما تترك العمل في هذه المهنة . وبعناية ، كتبت الأحرف الأولى من اسمي على الملفات ، ثم قمت بتسليمها الى سكرتيرتي ، لتقوم بدورها بتسليمها الى قسم السجلات .

بعد أن تناولت طعام الغذاء تفرغت للعمل في تلك الصناديق ، فبدأت أسحبها من داخل الخزنة واحــداً إثـــر الآخر . كان الصندوق الاول يحتوي على معلومات فنية تتعلق بأجهزة الاستقبال اللاسلكية ، وبالميكروفونات ، وهي تعود الى فترة عملي التي قضيتها في الخمسينات كأول ضابط علمي في شعبة (م آي ٥) . واتخذت ما يلزم من اجراءات من أجل تسليمها الى الدائرة الفنية ، التي جاءني رئيسها بعد حوالي الساعة ليقدم لي آيات الشكر . لقد كان هذا الرجل يشبه الانسان العالِم الذي يعمل في الخدمة الحكومية ، فهو أنيق ، وحذر ، ويبحث عن المال باستمرار .

أخبرته قائلا : " ان هذه الاشياء التي كنت أحتفظ بها هي مجرد لمامات متفرقة ... إنني لا أعتقد أن هناك ثمة فائدة منها ، فنحن الآن في عصر الاقمار الصناعية ، أليس كذلك ؟ " فأجابني وقد بـــدت عليــه علائـم الارتباك :" كلا ، فانني سأجد متعة في قراءتها " . لم يكن بيننا أي توائم أو اتفاق ، فقد كنا من عالمين مختلفين : كان يعمل على عقد الصفقات لصالح وزارة الدفاع في حين كنت أجهل كل شيء عن مجال عمله . تصافحنا ، ثم تابعت تفريغ خزنتي الحديدية .

كانت بقية الصناديق تحتوي على اوراق تجمعت لدي بعد انضمامي الى ادارة مكافحة التجسس عام ١٩٦٤ حينما كانت عملية البحث عن الجواسيس في جهاز الاستخبارات البريطانية في أوجها . اما محتويات هذه الاوراق فقد كانت عبارة عن مجموعة من الملاحظات المدونة بخط اليد ، وأخرى مطبـــوعـــة علـــى الآلة الكاتبة ، تدور جميعها حول أسماء المشتبه بهم ، وتفاصيل التهم الموجهة

اليهـــم ، والأحكام الصادرة بحقهم ، وكل هذه الامور تشكل ما يمكن تسميته بأخبار الجاسوسية . هنا – وسط هذه المطاردة اللانهائية للقضايا التي بدأت واضحة وانتهت على شكل غامض – تكمن خيوط حياتي العملية .

ثم جاءت سكرتيرتي ، وقامت بتسليمي مجلدين أزرقين وهي تقول : " هذه هي يومياتك " وقمنا معاً بوضعهما في الكيس الموجود بجانب مكتبي – الذي يحتوي على المواد التي سيتم احراقها – الى أن يحين موعد " طقوس الحريق " . بعدها توجهت نحو المكاتب العاديـة ، وقام الضابط الموجود هناك بتسليمي ملفاً يتضمن مجموعة من التعليمات السرية ، فأخذت بتوقيع الاوراق الصغيرة الموجودة في هذا الملف ، وتلا ذلك قيامي بتسليم ذلك الضابط شيفرة المخابرات ومخابرات القمر الصناعي ، ثم قمت بتسليمـه مـا كـان بحوزتي من اوراق تتضمن الكثير من التعليمات . ان عملية الحصول على الأسرار و الاحتفاظ بها هي عملية شخصية جداً ، في حين ان التخلص منها هو عملية بيروقراطية مزعجة . ولقد كانت كل جرة قلم تعمل على اغلاق الباب قليلا ، حتى انه خلال نصف ساعة فقط تم اغلاق الباب كلياً والى الأبد على العالم السري الذي عشت فيه لسنوات طويلة .

مـع حلـول الظـلام كنت داخـل سيارة أجرة في طريقي نحو مباني (م آي ٥) القديمة في (ليكونفيلد هاوس) في حي (مايفير) . كانت تلك الادارة في طريقها الى الانتقال الى مكاتبها الجديدة في شارع (كرزون) في حين بقيت في المبنى القديم – حيث ستقام لي حفلة وداع – مجموعة من الموظفين .

دلفت الى المبنى القديم ، وعادت بي الذاكرة الى الوراء . فوسط هذه المكاتب القديمة والممرات الخشبية تم اصطيـاد (فيلبي) و (بيرغس) و (ماكلين) و (بلنت) . وهنا ايضاً قمنا بخوض اكثر معـارك (م آي ٥) سرية ضد اولئك المشتبه بهم في أوساط الاستخبارات . ولقد حامت شكوكنا حول (السير روجـر هوليس) المدير العام السابق لشعبة (م آي ٥) الذى لم نتمكن أبداً من اثبات التهمة عليه . ورفض اصدقاء (هوليس) هذا الاتهام ، ولفترة امتدت على مدار عشر سنوات قامت القطيعة والحزازات بين الطرفين على غرار ما وقع بين لاهوتيي العصور الوسطى ، وما حكم تلك الحروب من ميول وأهواء وتحامل .

وخلال الفتـرة الواقعـة على امتداد السبعينات أخذ ابطال تلك الحرب بالتقاعد واحداً اثر الاخر ، حتى تم أخيراً الانتقال الى المكاتب الجديدة ، وكان ذلك اشارة الى بدء نهاية الحرب . غير انني لا أزال – خلال تجـوالي في ممرات ليكونفيلد هاوس – اشعر بالاحساس المادي العميق للخيانة ، والمطاردة ، ورائحة القتل .

كانت حفلة الوداع التي أقيمت من أجلي هادئة ولطيفة ، وتحدث الناس بأشياء جميلة . اما

المدير العام (السير ميشال هانلي) فقد ألقى كلمة رائعة ، وأخيراً تسلمت بطاقات بهذه المناسبة ، وقد كتبت عليها بخط اليد كلمات الوداع . ولقد كتب اللورد (كلانمورس) وهو من كبار المسؤولين عن عملاء (م آي ٥) ان " رحيلي هو خسارة محزنة جداً ولا يمكن تعويضها" غير انني كنت الخاسر الحقيقي .

في تلك الليلة نمت في أحد الطوابق العليا في مكاتب (غوور ستريت) وكنت أصحو أحياناً على أصوات القطارات التي وصلت الى محطة (ايوستون) . وفي صباح اليوم التالي ارتديت ملابسي ، وحملت حقيبتي التي كانت فارغة لأول مرة ، ثم هبطت الى الطابق الارضي واتجهت نحو الباب . صافحت رجل الشرطة الذي كان يقوم بحراسة المبنى مودعاً ، وخطوت نحو الشارع . لقد انتهت هنا سيرة حياتي المتعلقة بالاستخبارات ... انها خسارة محزنة جداً ، ولا يمكن تعويضها .

١

بدأت القصة كلها في يوم من أيام الربيع التي تذكرك بفصل الشتاء ، وكان ذلك عام ١٩٤٩ . كـان المطــر ينهمــر مثل الطَّرَقات على سطح المختبر المصنوع من مواد البناء الجاهزة والواقع في (غــريت بــادو) فــي منطقـــة (اسكس) حيــث كنت أعمل بوظيفة عالم بحري مرتبط مع شركة (ماركوني) . كان جهاز مراقبة الذبذبة الكهربائية ينبض أمامي كأنه سبب المشكلة ، وعلى عرض طاولة ذات منصب كانت هناك كتلة هائلة من الاوراق التي تحتوي على العمليات الحسابية بهدف ايجاد تصميم لجهاز رادار يكون قادراً على اكتشاف الغواصات الموجودة في اعماق البحر البعيدة . ولم يكن الأمر بمثـــل هـــذه السهولة خاصة وانني كنت قد بدأت العمل في هذا المشروع منذ سنين . رن جرس الهاتـــف ، وكـــان المتحـــدث على الطرف الآخر والذي (موريس رايت) كبير المهندسين في شركة (ماركوني) .

بادرنـــي قائـــلاً : " ان فـــريـــدي براندريت يريد رؤيتنا " ، ولم يكن في الأمر أي جديد لأن (براندريت) كان رئيس الهيئة العلمية البحرية الملكية ، وهو الآن كبير علماء وزارة الدفاع ، وله اهتمامه الشخصي بالتأخير الحاصل في تقدم المشروع الذي أعمل فيه . وكان من الضرورة بمكان اتخاذ قرار حول امكانية تمويل انتاج نظام مبدئي رغم انه سيكون مكلفاً خاصة وان بحوث الدفاع خلال فترة ما بعد الحرب كانت تشكل معركة لا نهاية لها ضد عمليات التمويل المنهكة . وهكذا ، فانني قمت بالاستعداد لخوض مناوشات كلامية مطولة .

وفي الواقع ، فانني رحبت بالفرصة التي لاحت لي كي أتحدث مع (براندريت) بشكل مباشر .

فقد كان صديقا قديماً للعائلة ، كما أنني ، و والدي ، عملنا معه في مختبر بحوث الادميرالية خلال الحرب ، واعتقدت انه ربما كانت هناك فرصة للحصول على وظيفة جديدة .

في اليوم التالي ، وفي جو ممطر كنا نركب السيارة متوجهين الى (لندن) ، وقمنا بايقاف السيارة بالقرب من مكتب (براندريت) الكائن في (ستوروزغيت) . بدت لنا (الوايت هول) رمادية وباهتة في حين كانت التماثيل المهملة هنا وهناك لا تتناسب مع عالم يتغير بسرعة . أما (كليمنت آتلي) فقد كان لا يزال يعد " بالاسنان ، والنظارات " * غير ان فصل الشتاء كان قاسياً ، والناس يشعرون بالقلق المتزايد نتيجة التقشف . اما نشوة انتصار عام ١٩٤٥ فلم تلبث ان تلاشت نتيجة الاستياء والحزن .

فـــي مكتـــب (براندريت) الخارجي عرّفنا السكرتيرة باسمينا ، وكانـت هناك حركة نشطة في (الوايت هول) إذ لم نكن أول من وصل . وقمت بتحية بعض الوجوه المألوفة ، فقد كان هناك عدد من العلماء الذين يعملون في عدد من المختبرات التابعة للهيئة ، وبدا لي ان الأمر هو اكثر من مجرد كونه اجتماعاً روتينيا ، ورأيت ان هناك رجلين قد انزويا بنفسيهما بعيداً عن هذا الحشد .

قال أحدهمـــا بشكل مفاجيء ، وقد كان قصيراً : " اعتقد انكما السيدان رايت " وأضاف بلهجة عسكـــرية حـــادة " أنا الكـــولونيل مالكـــولم كمنـــغ من وزارة الحـــربية ، وهـــذا هـــو زميلي هيو وينتربورن " وتقـــدم شخـــص آخـــر غير مألوف ، فتابع (كمنغ) قائلا " وهذا جون هنري أحد اصدقائنا من وزارة الخارجية ".. استخدم (كمنغ) الرموز العجيبة التي تستخدمها (الوايت هول) للتمييز بين عملائها السريين واعتقدت انه مهما كان نوع الحديث الذي سيدور في هذا الاجتماع ، الاّ انه لن يكون هناك مجـــال لمناقشـــة موضوع الحرب ضد الغـــواصات خاصة وان هناك بين المجتمعين رجال من (م آي ٥) و (م آي ٦) ولم يلبث (براندريت) ان ظهر أمام مكتبه ، ودعانا للدخول .

مثلما كان صيته واسعاً ، كذلك كانت غرفة مكتبه : سقف عال ، ونوافذ مرتفعة ، الامر الذي جعل طاولة المكتب تبدو صغيرة . اشار لنا باتجـــاه طاولـــة الاجتماعات وقد وضعت عليها المحابر والنشافات . كان (براندريت) قصيراً نسبياً ، ومع هذا فهو رجل ذو طاقة وحيوية و واحد من تلك النخبـــة المختارة و المفضلـــة - أمثال : (ليندمان) و (تيزارد) و (كوكروفت) - والتي كانت مهمتها تزويد بريطانيا بكافة الاحتياجات العلمية والتقنية من اجل خوض غمار الحرب العالمية الثانية . ولما كان (براندريت) قد عمل مساعداً لمدير فرع البحوث العلمية في الادميرالية ، ونائباً لمدير الهيئة العلمية البحرية الملكية في وقت لاحق فانه كان مسؤولاً الى حد كبير عن تجنيد العلماء وادخالهم في الخدمة الحكومية خلال الحرب . وعلى الرغم من انه لم يكن يتمتع بموهبة كعالم ، الا انه كان قـادراً على

* المقصود بها المستقبل الواعد و المشرق (المترجم)

فهم الدور الحيوي الذي يمكن لهؤلاء العلماء ان يقوموا به . وكانت سياسته ترمي الى حفز الشباب وحثهم كلما كان ذلك ممكناً . ولما كان يحظى بثقة رؤساء الهيئـة ، فانه تمكن من الحصول على كافة الموارد الضرورية لتمكين هؤلاء الشباب من تحقيق انجازاتهم على افضل وجه .

مع نهاية سنوات الاربعينات كانت بريطانيا التي خرجت منهكة من الحرب تستعد لخوض حرب جديدة اطلق عليها اسم الحرب الباردة . وقد وقع الاختبار بالطبع على (براندريت) كي يقدم نصائحه من أجل الحصول على افضل طريقة لاعادة إحياء الهيئة العلمية مرة ثانية ، فكان ان تم تعيينه بوظيفة نائب المستشار العلمي لوزير الدفاع ، ثم خلف السير (جون كوكروفت) ليصبح المستشار العلمي وكذلك رئيس لجنة سياسة بحوث الدفاع ، وذلك عام ١٩٥٤ .

حينما جلسنا في مقاعدنا ، بدأ (براندريت) حديثه قائلاً : " اعتقد ايها السادة انه من الواضح لنا تماما اننا الآن نخوض حرباً قد بدأت منذ الاحداث التي وقعت في برلين خلال السنة الماضية "

وأوضح (براندريت) ان حصار الروس لـ (برلين) ، والجسر الجوي الغربي الذي تلا ذلك قد تركا أثرهما العميق على التفكير الدفاعي . وتابع " ان هذه الحرب سوف تكون حرباً مع الجواسيس لا مع الجنود وخلال فترة قصيرة جداً على أقل تقدير .... وقد بحثت مع السير (بيرسي سيليتوي) المدير العام لجهاز الأمن قضية أين نقف الآن من هذه الحرب ... ولنكـــن صريحـــين ، فان الوضع ليس جيداً " .

ولخص لنا (براندريت) المشكلة المتمثلة في انه اصبح من الصعوبة بمكان متابعة عملائنا الموجودين خلف الستار الحديدي بشكل ناجع ، وان هناك نقصاً حاداً في المعلومات الاستخباراتية حول نوايا الاتحاد السوفييتي وحلفائه ، ولذلك فان الابتكارات العلمية والتقنية أصبحت ضرورة ملحة لسد هذه الفجوة .

وتابع قائلا : " لقد بحثت هذه القضية بشكل موجز مع بعضكم هنا مثل : الكولونيل (كمنغ) من جهاز الأمن و (بيتر ديكسون) مندوب شعبة (م آي ٦) وقد قمت بتشكيل هذه اللجنة من أجل تحديد الخيارات ، وبدء العمل فوراً . وقد اقتـرحت ايضـــا علـــى السيـر (بيرسي) الاستفادة من خدمات عالم شاب للمساعدة في عملية إعداد البحوث . وأعتزم طرح اسم (بيتر رايت) الذي يعرفه بعضكم . انه يعمل الآن في مختبر هيئة البحوث الالكترونية وسيعمل معنا على أساس العمل الاضافي الى أن نقرر كيف سيكون العمل " . ونظر اليّ (براندريت) قائلاً : " ستفعل هذا من أجلنا ، أليس كذلك يا (بيتر) ؟ " . وقبل أن أتفوه بكلمة اتجه نحو والـــدي قائـــلاً : " ومن الواضح فاننا سنكون بحاجة لمساعدة شركة (ماركوني) ولهذا ، فانني قمت بتسميتك عضواً في هذه اللجنة " (كان والدي

معروفاً دائماً باسم (ماركوني) وذلك داخل الاوساط البحرية تماماً كما كانت شركة (ماركوني) معروفة باسمها في السابق) .

هكـــذا هـــو دائمـــاً (براندريت) يصـــدر الدعوات وكأنها أوامر ، فتلتزم بها آلية العمل في (الوايت هول) بشكل تام ، حتى انها تبدو وكأنها صورة طبق الاصل منه .

وخلال فتـــرة ما بعد الظهر قمنا بدراسة الافكار ومناقشتها : كان مندوبا شعبتي (م آي ٥) و (م آي ٦) صامتين باستمرار ، حتى انني اعتقدت ان تحفظ رجال المخابرات في الكلام أمام الغرباء هو أمر طبيعي . وقام كل واحد من العلماء المتواجدين بتقديم تقرير موجز مرتجل عن أي بحث علمي في مختبره يمكن ان يفي بمتطلبات المخابرات . وكان من الواضح ان مراجعة متطلبات هيئة الاستخبارات من الناحية التقنية – وبشكل كاف – هي بحاجة الى وقت طويل ، غير انه كان من الواضح ايضاً انهم يريدون بشكل فوري وعاجل تقنيات تنصت جديدة لا تتطلب الدخول الى المباني .

كان جهاز الأمن السوفييتي محكماً ، ولذلك فان عملية تحقيق اختراق – باستثناء اختراق الجـــدران المشتـــركة أو حينما يتم اجراء ترميمات في سفارة ما – هي امكانية ضئيلة . ومع مرور الوقت ، كان قد تجمع لدينا عشرون اقتراحاً تتعلق بالمجالات التي يمكن ان يكون البحث فيها مفيداً .

وطلب مني (براندريت) ان أقوم باعداد ورقة عمل تتضمن هذه الاقتراحات . واخيراً انفضّ الاجتماع .

بينما كنت أغادر الاجتماع ، تقدم مني رجل ، وقام بتقديم نفسه ، وكان هو (جون تيلر) من الدائرة الفنية في مكتب البريد . لقد تكلم هذا الرجل خلال الاجتماع بشكل مفصل حول عمل مكتب البريد في مجال التنصت . ثم قال لي : " سوف نعمل معاً في هذا المجال " . وبينما كنا نتبادل أرقام هواتفنا ، تابع : " سأتصل بك خلال الاسبوع القادم " .

فـــي طريق عودتنا الى (غريت بادو) كنت أتناقش بحماسة مع والدي حول ما دار في الاجتماع . ولقد كان من الامور الرائعة ، والتي لا يمكن التنبؤ بها الاّ بشكل نادر تلك الطريقة التي كانـــت تعمل بها (الـــوايت هـــول) خلال الحرب أو بعدها . ولقد كنت في الحقيقة منتشيا بالفرصة التي لاحت لي للهرب من مجال العمل في الحرب ضد الغواصات ، وبالتالي متابعة العمل في مجـــالات الاستخبـــارات ، ذلك العمـــل الـــذي استمـــر لمـــدة اربعة عقود ونصف العقد في أوساط عائلتنا .

٢

بدأ والدي العمل في شركة (ماركوني) بعد تخرجه من الجامعة عام ١٩١٢ ، وبدأ العمل كمهندس من أجل تحسين طريقة اكتشاف إشارات اجهزة الاتصال اللاسلكية . وقد استطاع هو والكابتن (هـ . ج . راوند) تطوير جهاز استقبال مفرغ يجعل امكانية اعتراض الاتصالات طويلة المدى أمراً ممكنا لأول مرة .

قبل بدء الحرب العالمية الأولى بيومين ، وبينما كان يعمل في أجهزة الاستقبال هذه في المختبر القديم التابع لشركة (ماركوني) في (هول ستريت) الواقع في منطقة (كلمسفورد) تأكد له أنه يلتقط الاشارات الخاصة بالاسطول الالماني . وتوجه وهو يحمل أول مجموعة من هذه الاشارات الى مدير التشغيل في شركة (ماركوني) وهو (اندرو غراي) الصديق الشخصي للكابتن (رويغي هول) رئيس دائرة الاستخبارات البحرية .

كـــان (هول) هو الشخصية المسيطرة على الاستخبارات البريطانية خلال الحرب العالمية الاولى ، كما كان مسؤولاً عن مهاجمة الشيفرات الالمانية من الغرفة رقم ٤٠ في مبنى الادميرالية . وقد عمل على ترتيب رحلة يقوم بها والدي الى محطة (ليفربول ستريت) . وقد قام والدي بهذه الرحلة وهو يجلس على مصطبة قاطرة استؤجرت خصيصا لهذه الغاية . بعد دراسة الموضوع ألـــح علـــى شركـــة (ماركوني) ان تخلي سبيل والدي حتى يقوم ببناء محطات اعتراض وتحديد اتجاهات لصالح البحرية البريطانية .

اما المشكلة الرئيسية التي واجهت الاستخبارات البحرية عند اندلاع الحرب العالمية الاولى فقد

تمثلت في كيفية اكتشاف تحركات الاسطول الالماني وحركته في عرض البحار في الوقت المناسب لتمكين الاسطول البريطاني المتواجد في (سكابا فلو) من اعتراضه . وكانت الاستخبارات البحرية تعـرف ان الاسطـول الالمانـي حينما يتوقف عن الابحار فانه يتوضع عند الجانب الشرقي لقناة (كييل) . واعتقد (هول) ان من الممكن اكتشاف اتصالات القائد العام الالماني اللاسلكية من على ظهر بارجته وذلك أثناء عبور الاسطول الالماني قناة (كييل) في طريقه نحو بحر الشمال .

وبدأ والدي العمل لتصميم أداة حساسة بشكل كاف . وأخيراً تمكن من تطوير جهاز تحديد اتجاهات " لا دَوْري* " باستطاعته تحديد الاشارة المطلوبة بدقة متناهية من بين الاشارات الاخرى المتداخلة معها . واستغرق الأمر عدة سنوات قبل ان يصبح هذا الجهاز جاهزاً للاستخدام ، غير انه أصبح فيما بعد جهازاً له أهميته في الحرب ضد الزوارق الحربية . وحتى هذا اليوم ، فان اجهزة تحديد الاتجاهات هي أجهزة " لا دَوْريّة " .

في عام ١٩١٥ – وقبل ان يتم وضع هذا النظام موضع الاستخدام بشكل كامل – اقترح والدي على (هول) ان يتم نصب جهاز تحديد الاتجاهات في كريستيانيا (اوسلو حاليا) كافضل حل . فقد كانت النرويج في تلك الفترة على الحياد ، ولم يكن بالامكان استخدام السفارة البريطانية خشية ان يلفت ذلك الامر نظر الألمان . وهنا سأل (هول) والدي فيما اذا كان على استعداد للذهاب الى هناك وادارة محطة سرية لشعبة (م آي ٦) . وخلال أيام قليلة كان والدي في طريقه الى النرويج متخذاً لنفسه صفة تاجر متنقل لبيع الادوية الزراعية . وأقام هناك في فندق صغير يقع في شارع فرعي في (كريستيانيا) وقام باستئجار غرفة على السطح (روف) عالية بشكل كاف لنصب جهاز تحديد الاتجاهات وتشغيله دون إثارة اي شبهات .

وقامت محطة (م آي ٦) الموجودة في السفارة بتزويده بأجهزة الاتصال وقطع الغيار ، غير ان هذا الأمر كان بمنتهى الخطورة ، فان مجرد حيازته لأجهزة الاستقبال هذه هو أمر كاف لافتضاح أمره في النهاية . انه ليس من افراد البعثة الدبلوماسية مما يعني امكانية انكاره فيما لو القي القبض عليه . وفي أحسن الأحوال فانه سوف يسجن حتى نهاية الحرب ، أما أسوأ الاحتمالات فانه سيكون قد خاطر بمعرفة نوايا الاستخبارات الالمانية .

استمرت العملية بشكل ناجح لمدة ستة شهور ، تمكن خلالها سلاح البحرية البريطاني من الحصول على التحذيرات المبكرة لنوايا الاسطول الالماني . وذات صباح ، توجه والدي لتناول طعام الافطار . جلس على الطاولة التي اعتاد الجلوس عليها ثم نظر بشكل فجائي عبر الشارع ليرى ملصقاً جـديـداً معلقاً علـى الجدار المـواجه . لقد كانـت صورته مع اعلان عن مكافأة لكل مـن يسهل

---

*لا دوري : غير منتظم (المترجم)

عملية القبض عليه .

وكان قد رتب طريق الهرب مع (م آي ٦) قبل بدء العملية . أنهى فطوره بسرعة ، وعاد الى غـــرفته . وبحذر شديد خبّأ جهاز اللاسلكي في الحقيبة ، ووضعها تحت السرير ، ثم جمع وثائق السفر ، وجواز السفر ، وهوية البحرية ، كما ترك مبلغاً كبيراً من المال على أمل ان يشجع هذا الأمر صاحب الفندق على نسيانه .

علاوة على ذلك ، فانه عوضاً عن أن يسلك طريق الساحل السويدي الذي يفترض ان المسؤولين النرويجيين سيعتقدون ان هربه سيكون منه ، فانه اتجه نحو الجنوب الغربي . وعلى بعد حوالي عشرة أميال من الساحل ، جلس على صخرة بالقرب من الطريق . وفي وقت لاحق ، تقدم منه ضابط من البحرية البريطانية ، وسأله عمن يكون ، فقام والدي بتعريفه بنفسه ، فأخذه الضابط الى قارب ليتم تسفيره على مدمرة بريطانية .

وبعد مرور عدد من السنوات ، وحينما آن أوان إحالتي على التقاعد ، حاولت الحصول على تفصيـــلات هــــذه العمليـــة مـــن ملفات (م آي ٦) حيث كنت قد اتخذت بعض الترتيبات مع السير (موريس اولدفيلد) رئيس شعبة (م آي ٦) آنذاك ، من أجل قضاء يوم في قسم السجلات عندهم للبحث عن أوراق هذه العملية . غير انني لم اتمكن من الحصول على شيء حيث انه تم اتلاف كافة السجلات روتينيا قبل سنوات .

ولدت عام ١٩١٦ في منزل جدتي لأمي في (شسترفيلد) حيث ذهبت والدتي للاقامة أثناء وجود والدي في النرويج من أجل عملية (م آي ٦) . في تلك الليلة كانت هناك غارة قام بها منطاد على منطقة (شيفيلد) المجاورة ، وقد ولدت قبل موعدي (خديج) . ولم تكن هناك أسرّة في المستشفيات بسبب وطأة الحرب ، غير ان أمي عملت على ابقائي حياً بواسطة حضانة.قامت باعدادها على عجل من المرطبانات الزجاجية الكيماوية اضافة الى زجاجات الماء الساخن .

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد والدي ثانية للعمل في شركة (ماركوني) فأصبح تحت حماية (ماركوني) نفسه ، وعين رئيساً لقسم البحوث . وانتقلنا الى منزل اكبر بالقرب من البحر بجوار منطقة (فينتون) . غير ان هذا الأمر لم يدم الاّ بضعة من الشهور ، وذلك حينما انتقلنا الى منزل في ضواحي (كلمسفورد) . لقد كان هذا المنزل يشبه مصنعاً مهجوراً للاجهزة اللاسلكية . كانت أجهزة الاستقبال اللاسلكية المعطلة ، وكذلك الصناديق الملأى بقطع الدارات الكهربائية موجودة في كل زاوية من زوايا البيت . وكان والدي حساساً ، عاطفياً ، مزاجياً وفناناً اكثر منه مهندساً . ومما أذكره من البـــدايات انـــه اعتـــاد ان يأخـــذني معه الى الحديقة او الحقول الفسيحة الموجودة على شواطيء (اسكس) لتعليمـــي أسرار اللاسلكي . وكان يمضي الساعات وهو يشرح لي عن الصمامات

والبلورات ، ويريني كيفية ادارة قرص الجهاز بدقة حتى تتحول الاصوات المشوشة الى اشارات واضحـــة . كمــا علمنـــي أيضاً كيف اقوم باجراء تجاربي الخاصة ، ولا أزال أذكر إعجابه واعتــزازه بـــي حينمـــا أقوم بعرض مهاراتي الاولية أمام ضيوفنا ، مثل السير (آرثر ايدنغتون) و (ج . ج ثومسون) .

وكان لشعبة (م آي ٦) علاقات وثيقة مع شركة (ماركوني) بعد الحرب العالمية الاولى كما ان والدي كان قد حافظ على علاقته بهم . وكان (ماركوني) يمتلك قسماً يتعلق بالبحر مسؤولاً عن تركيب الاجهزة اللاسلكية في السفن ، وتجهيزها بالطواقم الفنية . وبذلك ، فان شركة (ماركوني) كانت غطاء مناسباً لشعبة (م آي ٦) من حيث ايجاد بعض الترتيبات مع والدي لتمكين ضابط معين من العمل كعامل لاسلكي على ظهر سفينة تزور منطقة معينة لديهم اهتمام بها .

اما الأدميرال (هول) فقد كان يزورنا في منزلنا دائماً ، وكثيراً ما كان هو و والدي يختفيان في الكوخ الأخضر معاً لساعات من الزمن يقومان خلالها ببحث بعض التطورات الجديدة . ايضاً فإن والـــدي كــان علــى معرفة بالكابتن (مانسفيلد كمنغ) أول رئيس لشعبـة (م آي ٦) . وكان معجباً بـ (كمنـــغ) الـــى حد بعيد نظراً لشجاعته ولقدرته التقنية . اما الكابتن (فرنون كيل) مؤسس شعبة (م آي ٥) فان معرفة والدي به كانت أقل الاّ انه لم يكن يحبه . لقد كان خريجو جامعتي (اوكسفورد) و (كامبـــردج) يميليـــون الـــى العمـــل مع شعبـــة (م آي ٥) أو (م آي ٦) وقد كان والدي ميالاً للعمل مع (م آي ٦) .

وخلال سنوات العشرينات كانت شركة (ماركوني) واحدة من اكثر الاماكن في العالم إثارة و جـــذبـاً للعلمـــاء للعمـــل . امـــا (ماركـــونـــي) والذي يعرفه كل شخص بالاحرف الاولى من اسمه (ج . م) فقد كانت له مقدرة اختيار الناس بشكل بارع ، وكانت لديه ايضاً الشجاعة الكافية لاستثمار ما يراه مناسباً . اما النجاح الاكبر الذي حققه فقد تمثل باختراعه لنظام الاشارة اللاسلكية قصيرة الموجة بحيث أصبح باستطاعته الادعاء بانه أول من أرسى أسس الاتصالات الحديثة . وكشأن بقية الانجازات البريطانية الأخرى ، فان هذا الاختراع قد نُفّذ رغم معارضة الحكومة البريطانية وكبار العلماء في ذلك الوقت .

قبل الحرب العالمية الاولى كانت بريطانيا قد قررت وجوب اقامة نظام لاسلكي طويل الموجة ليحل مكان النظام السلكي الذي كان بمثابة الوسيلة الاساسية للاتصال مع اجزاء الامبراطورية ، غير أن هذا القرار لم يدخل حيز التنفيذ خلال الحرب . لكن (ماركوني) كان يؤمن بامكانية ايجاد نظام ارسال قصير الموجة يغطي مسافات بعيدة باستخدام الاشارات اللاسلكية خاصة و ان استخدام الاشارات اللاسلكية قصيرة الموجة يحقق امكانية أو طاقة ارسال اكبر ، وباقصى سرعة . وعلى الرغم

من التقدم الذي حصل خلال الحرب في عمليات الاتصال اللاسلكية فان وجهة نظر (ماركوني) كانت عام ١٩٢٢ موضع سخرية اللجنة الملكية التي وصفتها بأنها " علم غير ناضج " حتى ان أحد الاعضاء توصل الى نتيجة مفادها ان الاتصالات اللاسلكية هي فن ولّى زمانه .

وأعلن (ماركوني) التحدي ، وذلك حينما عرض - مجانا - بناء أي وسيلة اتصال عبر العالم شريطة ان تقوم الحكومة البريطانية بالتوقف عن تطوير نظام الموجة الطويلة حتى يتم اختبار نظام الاشـــارات اللاسلكية ، و ان تقوم الحكومة البريطانية ايضا باعتماده في حال نجاح التجربة . وقبلت الحكومة بذلك ، وحددت الشروط القاسية التي استطاعت وضعها في العقد . فقد كان من بين هذه الشروط طلب اقامة اتصال من (غريمسبي) الى (سيدني) في استراليا وبسرعة ٢٥٠ كلمة في الدقيقة على مدار اثنتـــي عشـــرة ساعـــة خلال فتـــرة التجـــارب ، وباستخـــدام طاقـــة كهربائية حدها الاقصى ٢٠ كيلو واط ، وأخيراً ، ان يتم انجاز هذا العمل خلال سنة واحدة .

لقد كانت هذه المواصفات مواصفات مرعبة ، فالاتصال اللاسلكي كان لا يزال في مراحله الأولى ، والمعلومات عن امكانية توليد الطاقة بتردد ثابت قليلة . وكان من المستحيل ان يتم انجاز هذا المشروع دون أي تعهد بالالتزام من قبل الفـــريق الفني فـــي شركـــة (ماركوني) والمكون من : والدي والكابتن (هـ . ج . راوند) و (سي . س . فرانكلين) . لقد كان (ماركوني) يتمتع بموهبة خاصة في ايجاد العلماء المبرزين الذين يقومون بتثقيف انفسهم بانفسهم . فعلى سبيل المثال ، تمكن من اكتشاف (فرانكلين) الذي كان يقوم بزخرفة المصابيح الكهربائية المقوّسة في مصنع (إبسويش) مقابل بضعة شلنات اسبوعياً . وخلال سنوات قليلة لمع نجمه حتى أصبح أبرز العلماء في الشركة .

ان اقامة نظام الاتصال المقترح بين (غريمبسي) و (سيدني) قد أدهش أصحاب صناعة أجهـــزة الاتصال اللاسلكية . وقد روى لنا والدي مؤخراً ما دار بينه وبين رئيس وكالة الاتصالات آنذاك (ديفيد سارنوف) خلال جولة لهما في شارع (برودواي) وذلك حينما كان المشروع في ذروته :

سأل (سارنوف) والدي : " هل جُنَّ (ماركوني) ؟ ان هذا المشروع سيكون نهايته .. انه لن ينجز أبداً " .

فأجابه والدي : " ان (ج . م) و (فرانكلين) يعتقدان انه سيتم انجازه " .

قال (سارنوف) : " حسناً ، بامكانك أن ترفس مؤخرتي ، و تدحرجني على امتداد طريق برودواي اذا حصل ذلك " .

ومرت ثلاثة شهور ، وكان النظام قد بدأ العمل في الوقت المتعاقد عليه ، حيث عمل باستطاعة اثنتي عشرة ساعة لمدة سبعة أيـــام ، وبسرعة ٣٥٠ كلمة في الدقيقة ، وبرأيي فانه كان احد الانجازات التقنية لهذا القرن . وشعر والدي بالأسف فقط لأنه لم تتح له فرصة رفس مؤخرة (سارنوف) ودحرجته

على امتداد طريق (برودواي) .

هكذا قضيت فترة شبابي وسط هذه الأجواء المثيرة . وقد كنت أعاني باستمرار من الاعتلال الصحي ، حيث أصبت بشلل الاطفال ، الأمر الذي اضطرني الى وضع الارجل الحديدية في ساقي الـــى ان بلغت العشرين من عمري . غير انه كان هناك ما يعوضني عما أصبت به . ففي كل يوم تقريباً ، وحينما يكون والدي في البيت ، فانه يأتي لاصطحابي من المدرسة الى مختبره ، حيث أقضي الساعات وأنا أراقبه ومساعديه في حين كان السباق من (غريمسبي) الى (سيدني) قد بدأ ينفض شيئاً فشيئاً . لقد علمني ذلك درساً حفظته طوال حياتي : في القضايا الكبيرة والهامة ، من النادر جداً ان لا يخطيء الخبراء .

كانت الآمال قد بدأت تتفتح امام عائلة (رايت / عائلتي) مع بداية سنوات الثلاثينات ولذلك فاننـــا لـــم نشعـــر بالازمـــة الاقتصادية العالمية المتنامية الاّ نادراً . فقد التحقت بكلية المطران فـــي (ستورتفورد – وهي مدرسة صغيرة ومستقلة) حيث بدأ نجمي بالظهور على المستوى الاكاديمي ، إذ شفيت من الاعتلال الصحي الذي لازمني منذ مولدي . وعدت الى البيت لقضاء عطلة الصيف عام ١٩٣١ بعد أن حصلت على شهادة النجاح بتفوق في كافة المواد . وكنت على وشك الانتقال الى المرحلة الجامعية فيما بعد ، وأنا أتوقع الحصول على منحة جيدة في جامعة (اوكسفورد) أو (كامبردج) .

بعـــد مـــرور اسبـــوع ، بدأ عالمي بالانهيار ، فذات مساء ، عاد والدي ليبلغنا انه قد صرف من الخدمـــة ، وكـــذلك الأمـــر بالنسبـــة لـ (فرانكلين) . ومرت أيام قبل أن يحاول هو شرح ما حدث ، ومرت سنين قبل أن أفهم ما حدث .

في نهاية سنوات العشرينات اندمج (ماركوني) مع شركات الكوابل نتيجة اعتقاد مفاده انه من خلال التعاون معهم فقط فان الاتصالات اللاسلكية ستحصل على الاستثمار الضروري لضمان ظهور انها الطريقة الرئيسية الوحيدة للاتصالات بين أنحاء العالم . ومع ازدياد الانهيار الاقتصادي أصبحت الاجهزة اللاسلكية تشكل تهديدا متنامياً لمصالح أصحاب صناعات الاتصالات السلكية الذين كانوا يهيمنون على الشركة الجديدة ، فتم إحداث تخفيضات ضخمة في بحوث الاتصال اللاسلكي وتجهيزات الانـــظمة الجديدة . امـــا (ماركوني) الذي طعن في السن ، وتكالب عليه المرض ، فقد انكفأ الى ايطاليا ، ولم يتمكن حتى بتدخل واحد من جانبه ان يحقق أي تغيير في موقف الادارة الجديدة . اما والدي ، و (فرانكلين) وآخرون ، فقد صرفوا من الخدمة . وخلال السنوات العشر التالية ركد الاتصال اللاسلكي طويل الموجة ، ومرت عائلتنا بسنوات صعبة .

وخلال شهور قليلة كان والدي قد انزلق الى تيار الادمان على الكحول ، ولم يعد بمقدوره تقديم

ما يكفي لابقاء ولديه في المدرسة . ولما كنت أنا الاكبر سناً ، وقد حصلت على الشهادة المدرسية ، فانه كان لا بد لي من التوقف عن متابعة الدراسة . وقد أدت تلك الصدمات التي واجهتها الى انتكاس في حالتي الصحية ، واصابتي بالتلعثم المزمن الذي منعني في أحيان كثيرة من الكلام . وهكذا فانني في ذلك الصيف تحولت من طالب مدرسة مأمون المستقبل الى رجل لا مستقبل له على الاطلاق .

ولقـــد كان لقرار مغادرتي المدرسة وآثاره الصحية التي انعكست عليّ ما جعل والدي يشعر بالذنب ، فانغمس اكثر في عالم الادمان على الشراب ، اما امي فقد حاولت التغلب على المشاكل والصعاب بقدر ما تستطيع . غير ان ما كنا نعانيه من عوز في الدخل و المكانة الرفيعة ، جعل امي تعيش حياة العزلة شيئاً فشيئاً حتى أصبح زوارنا الوحيدون اولئك المرضات اللواتي تم استدعاؤهن للابقاء على حياة والدي بعد ان دخل في نوبة الاغراق في تعاطي المسكرات .

بعد مرور سنوات ، وحينما بدأت بالبحث عن عمل لدى (م آي ٥) كان الشباب الانكليزي من ابناء الطبقة كريمة الحسب قد ادمنوا الشيوعية خلال سنوات الثلاثينات ، حتى ان هذه الفترة من حياتي كانت مثار اهتمامي ، إذ استمتع هؤلاء حتى الثمالة بالامتيازات وبالثقافة التي حرمت منها ، في حين ان عائلتي كانت تعاني من نزوات الرأسمالية . فقد عانيت في البداية من آثار الانهيار والكساد الاقتصادي في حين انهم اتجهوا نحو التجسس ، فأصبحت الصياد ، وأصبحوا هم الطريدة .

أما تفصيل ذلك الأمر فهو بسيط . كان العام هو ١٩٣٢ ، وليست لدي اي مؤهلات ، وكنت في الخامسة عشرة من عمري ، وأنا بحاجة الى العمل ، وليس لدي الاّ القليل من الوقت لتعاطي الفلسفة السياسية ، لذلك نشرت اعلاناً في صحيفة (التايمز) بحثاً عن أي عمـــــــل . وكان اول رد وصلني من امرأة تدعى (مارغريت لي) كانت تدير مزرعة صغيرة اسمها (أكنادارويك) في منطقة (بلوكتون) بالقرب من (وستررووس) في اسكتلندا . هكذا أصبحت عامل مزرعة وبدون أجر ، مقابل حصولي على مأوى وعلى طعام . ووسط تلال اسكتلندا ، وسمائها الممتدة ، بدأت شيئاً فشيئاً باستعادة ما كان قد فاتني ، ومع مرور الوقت اكتشفت اكبر حب في حياتي ، ألا وهو الزراعة .

لقد كانت (مارغريت لي) مثالية ، وأرادت أن تدير مزرعتها لتكون بمثابة مركز تدريب للشبان القادمين من الاحياء الفقيرة في (لندن) بحيث تمكنهم من الحصول على عمل بوظيفة مدراء مزارع . وفي ضوء ذلك الواقع ، فان تلك الفكرة لم تر النور ، فقررت عوضاً عن ذلك ان تقوم بكتابة رواية عن الحياة في (أكنادارويك) فأخذت بالكتابة ، في حين كنت أقوم بمتابعة أمور المزرعة . وحينما كان يحل الليل ، وعندما أنهي عملي الروتيني ، كانت تطلب مني أن أقوم بقراءة ما كتبته بصوت عال حتى تمكنت مـــن السيطـــرة على علة التلعثم الموجودة عندي ، وتخلصت منها . وفي النهاية صدرت روايتها بعنوان (النسيج الخشن في الاراضي المرتفعة) فحققت نجاحاً كبيراً .

في ربيع عام ١٩٣٥ قام ملاّك ارض جشع بطردنا من (أكناداروك) بسبب مطالبته لنا باجرة تزيد على ما كان بامكاننا دفعه ، فانتقلنا الى مزرعة أخرى أرخص في منطقة (كورنوول) وسارت حياتنا بشكل أفضل مما كانت عليه . وكان طموحي في تلك الفترة هو أن أصبح عالما زراعياً أبحث في تقنيات انتاج الاغذية . ولكن بسبب دراستي المحدودة ، فانه لم تكن أمامي أي آمال في الحصول على منحـــة دراسية ، بسبب عدم وجود منح خلال سنوات الثلاثينات . وفي النهاية ، وبمساعدة بسيطة من (مارغريت) ومن خلال قيامي ببعض الصفقات الذكية في تجارة الخنازير ، اضافة الى علاقة عائلية جيـــــدة مع مدير كلية (سانت بيتر) في (اوكسفورد) تمكنت من جمع مبلغ كاف من المال للحصول على مقعد في مدرسة الاقتصاد الزراعي . وبعد مرور سنة ، دخلت جامعة (اوكسفورد) ثم اقترنت بزوجتي (لويس) . كان ذلك عام ١٩٣٨ ، والاجواء تعبق برائحة الحرب . وكغيرنا من الشباب كان لدينا شعور بأن الفراق آت عن قريب .

وفي الوقت الذي دخلت فيه جامعة (اوكسفورد) كان والدي قد بدأ بترميم دمار ست سنوات سابقة من الادمان على الكحول . وبناء على الحاح من والدتي عاد للعمل ثانية في شركة (ماركوني) بوظيفة مستشار . والى حد ما – كما أعتقد – فان والدي كان مصاباً بخيبة امل نتيجة تيقنه من أن الحرب ستكون وشيكة الوقوع ثانية . وكان متلهفاً لتقديم مساعدته كما فعل عام ١٩١٥ ، ولذلك فانه تحدث مع السيـــر (فــريـــدريك بــرانـــدريت) الـــذي كان يعمل في الهيئة العلمية البحرية . وقد أخبر (براندريت) والدي بصراحة ان سمعته فيما يتعلق بالادمان على الكحول تحول دون امكانية تعيينه في منصب رفيع ، ولذلك فانه عرض عليه العمل في منصب ضابط علمي عادي لفترة تجربة . والحقيقة فانني معجب بوالدي الى حد بعيد من أجل هذا . فقد ضحّى بنصف ما كان يحصل عليه مـن شركـــة (ماركوني) فيما لو عمل بوظيفة مستشار، وها هو الآن يعمل على منصة التجارب مع علماء يصغرونه بعشرين سنة . ولم يشر البتة الى انه كان رئيس قسم البحوث في شركة (ماركوني) . وكان يخامرني شعور ان والدي تواق الى التكفير عن الماضي ، ولكنه ايضا كان يؤمن بصدق ان الحرب على الأبواب وان على كل شخص ان يساهم في الجهد المشترك .

ولقد عملت خبرته الطويلة في مجال الاتصالات عبر الأثير على ازدهار حياته العملية ثانية وبشكل سريع ، حيث أسندت اليه مهمة القيام بالتطوير التقني لاجهزة الاعتراض Y– المعترضات التقنية للاتصالات الالمانية – وأصبح فيما بعد عالما رئيسياً في مؤسسة اشارات الادميرالية . وها هو مرة أخرى ينخرط في اللعبة الكبرى ، فيكتشف شبابه ثانية . مع حلول عام ١٩٤٣ كان قد أصبح مسؤولاً عن وضع خطط الاشارات اللاسلكية المتعلقة باليوم – د * ، وكانت تلك مهمة جسيمة . غيـر انه

* اليوم د : هو يوم نزول قوات الحلفاء في شمال فرنسا يوم ٦ حزيران ١٩٤٤ (المترجم)

كـــان بعـــد كـل يوم عمل ، يجلس ساعات أمام جهاز اللاسلكي ، ويستمع الى ذبذبات اشارة موريس ، فيقوم بتسجيلها وتحليلها لتكون جاهزة في اليوم التالي . وغالبا ما كنت اعتقد أن أسعد لحظات حياته ، هي تلك اللحظات التي يقضيها وهو منكب على تلك المجموعة من الاجهزة ، وقد أحاطت السماعات برأســه ، محاولاً أن يتفهم أسرار الكون الالكتروني .

مـــع انـــدلاع الحـــرب ، أغلقـــت مـــدرسة الاقتصاد الزراعي أبوابها ، وأصبح استاذي (سكوت واتسون) عالماً رئيسياً في وزارة الزراعة ، فاصطحب معه غالبية المجموعة من الطلاب من أجل البدء في تنفيذ المهمة الحيوية المتمثلة في اعداد التموين الغذائي للبلاد . وغدوت الشخص الوحيد في الاسرة الذي لم ينخرط في المجهود الحربي بشكل أو بآخر . فقد انضم أخي الى مختبر هيئة البحـــوث الالكترونية ، في حين كانت اختي تعمل مع (رينز) كعاملة اعتراض [عملتْ فيما بعد مع (ر. ف . جونز) في مشروع سيغينت ثـــم تزوجت من (روبرت ستون) رئيس مختبر هيئة البحوث الالكترونية] . وكـــان أن كتبـــت الـــى (براندريت) علـــى أمل ان يكون لديّ مكان ما في الادميرالية . ولدهشتي ، فقد تسلمت منه برقية يدعوني فيها الى مكتبه .

كان (براندريت) يعرفني منذ عدة سنوات ، فقد كان مزارعاً ممتازاً نجح في تربية الابقار الفريزيان ، كما كان مهتماً جداً بتجاربي في (أكناداروك) وسألني عما اعتقد انه يمكنني القيام به من عمل في الادميرالية ، فشرحت له ان تلك السنوات التي قضيتها وأنا أراقب والدي فيُ عمله قد أعطتني خلفية جيدة في مجال الالكترونيات وبنفس القدر الذي يمكن أن أحصل عليه من الدراسة في الجامعة . وخلال عشرة دقائق اتخذ ما يلزم من ترتيبات لأجلي وذلك لبدء العمل في مختبر بحوث الادميرالية في الاسبوع التالي .

كـــان القســـم الـــذي التحقـــت فيـــه للعمل وهو مختبر بحوث الادميرالية ، يشرف عليه (ستيفن بترووث) والذي يدعى – لأسباب مجهولة – باسم (سام) . كان طويلا ، نحيلاً ، ذا شعر غزير أجعد داكن اللون ، يدخن الغليون باستمرار ، ويعمل كالمجنون ، وقد جمع حوله فريقاً غير عادي من العلماء الشباب الموهوبين مثل : (ماسي) و (غن) و (ويغلزوورث) و (باتس) و (كريك) . حينما وصلت الى المختبر أحسست بقلق عارم بسبب قلة مؤهلاتي . كنت كل ليلة أجلس على طاولة المطبخ في بيتنا الصغير في (هامبتون ويك) لأقوم بدارسة الفيزياء المتقدمة من الكتب المدرسية في حين كانت القنابل الالمانية تتساقط حولنا . الاّ ان (بترووث) كان معينا لا ينضب من التشجيع ، فالفشل عنده هو القوة الكبرى . كان يعمل بصمت ويترك الشهرة للآخرين . وحينما انتهت الحرب ، كانت مكافاته على عبقريته وعمله الصامت تافهة .

اما ما قدمه مختبر بحوث الادميرالية من أجل كسب الحرب فانه لم يقدر حق قدره . وكانت

إحدى المشاكل الملحة التي تواجه بريطانيا عند اندلاع الحرب هي مشكلة الالغام المغناطيسية ، فبدأ مختبـــر بحـــوث الادميرالية العمل على تطوير انظمة إزالة المغنطة وذلك لتحييد المجال المغناطيسي لسفننا ، وبالتالي حمايتها . وبدون وجود نظام فعّال حقيقي ، فان مقدرتنا على متابعة القتال عام ١٩٤٠ كانت موضع نقاش ومثار شكوك .

ففـــي (دنكرك) على سبيل المثال ، كانت آلاف الألغام تفترش مياه السواحل الضحلة ، وكان (هتلر) على قناعة بان هذه الالغام ستحول دون اجلاء القوات البريطانية . اما (بتروورث) فكان يعلم ان الالغام الالمانية تعمل حينما يكون القطب الشمالي متجهاً نحو الاسفل ولذلك ، فقد اقترح ان نقوم بمغنطة سفننا بحيث يكون القطب الجنوبي متجهاً نحو الاسفل الأمر الذي سيمكن سفننا من تنفير هذه الالغـــام . وقـــد باشرت الادميرالية العمل في برنامج مكثف عاكس لمغناطيسية كل السفن المتجهة نحو (دنكرك) . وكانت النتيجة اننا لم نفقد ولا سفينة بسبب هذه الألغام .

وحينما كانت الحرب في ذروتها ، لم تكن هناك خيارات كافية ، فكان على الشباب ان يقدموا ابداعاتهم . فبعد قضية (دنكرك) بفترة قصيرة طُلب مني ومن عالم شاب آخر من مختبر بحوث الادميرالية اسمه (راي غوساج) أن نقوم بازالة مغنطة البارجة الحربيـــة (اميرة ويلز) التي كانت راسية في رصيف جاف ، حيث كان من المقرر لها أن تحمل في رحلتها التالية (ونستون تشرشل) الى مؤتمر الاطلنطي مع (روزفلت) . لقد بنيت هذه البارجة في (بلفاست) في حوض بناء السفن ، وقد ترك مجالها المغناطيسي يدور حولها اكثر من دورانه من النهاية الى النهاية ، وقد كانت عملية ازالة المغناطيسية الاصلية فاشلة وبذلك كانت تعتبر غير آمنة .

عملنا أنا و (غوساج) على ايجاد نظام محسن يتم بموجبه تفريغ مجالها المغناطيسي وذلك بلَفّ أسلاك ضخمة حولها ، ثم قمنا بعدها بشحن هذه الكابلات بواسطة بطارية غواصة . استغرقت العملية كلها عدة ايام ، وتطلب تنفيذ ذلك استخدام كافة رجال طاقم البارجة . وفي حين كنا نقوم بمراقبة التنفيذ من الحوض الجاف في (روزيث) كان مئات من الرجال يعملون وفقاً لتعليماتنا على الرغم من انني و (غوساج) كنا في منتصف العشرينات من عمرنا .

إن العلم في زمن الحرب يتمثل عادة في عملية الارتجال في تطويع المواد وحل المشكلة من قبلك بأسرع ما يمكنك من الوقت ، اكثر من كونه تخطيطاً لخمس أو عشر من السنوات القادمة حيث يكون الأمر حينذاك متأخراً . وقد عملت الحرب على تهيئتي لاصبح فنياً استخباراتياً . فقد علمتني قيمة الارتجال ، وأرتني أيضاً كيف تكون فعالية العمليات حينما يقوم العمال بالاستماع الى الشباب مع وجـــود الايمان بالعلم المبدع العملي . غير ان ما يؤسف له ، ان هذا الاتجاه قد توقف بعد انتهاء الحرب ، اذ ان اللجان – التي عهد اليها بهذه المهمة – قد بدأت بالضغط على الحياة في انكلترا .

واعتباراً من عام ١٩٤٢ بدأت العمل في انظمة الكشف عن مضادات الغواصات الصغيرة . وقد كانت هذه الانظمة تستخدم بنجاح في حماية الموانيء خلال عمليات الانزال في شمال افريقيا وفي شمال غرب اوروبـا فيمـا بعـــد . وقد جرني هذا العمل الى الانخراط في عملية اغراق البارجة الالمانية الكبيرة (تريبتز) التي كانت راسية في (التنفجورد) وتشكل خطراً مستمراً على الملاحة البريطانية . وتم تخطيط عملية اغراق هذه البارجة باستخدام الغواصات البحرية الصغيرة . وكنا نعلم ان الالمانيين يقومون بحماية (التنفجورد) بواسطة انظمة اكتشاف الالغام البحرية ، والتي تتألف من حزم سلكية متوضعة في قاع البحر تقوم بالتقاط الذبذبات المغناطيسية للمراكب المارة . وقد كانت هذه الانظمة بسيطة بالمقارنة مع تلك التي عملت على تطويرها في مختبر بحوث الادميرالية ، ولذلك طلب مني ايجاد أفكار جديدة لازالة مغناطيسية غواصاتنا الصغيرة لتمكينها من الوصول الى (التنفجورد) دون ان يتم اكتشافها .

ان المشاكل الفنية لعملية ازالة مغناطيسية الغواصة البحرية هي اكثر صعوبة من تلك المتعلقة بالسفن ، غير انني فـــي النهايـــة ، اكتشفت انه في حال وضع مجال الكتروني ممغنط على امتداد الغواصة ، وتزويده بكمية صحيحة من التيار سوف يعمل على تحييد الدارات الكهربائية لانظمة اكتشاف الغواصات البحرية الموجودة في قاع البحر . وتوصلت ايضاً الى نتيجة مفادها انه اذا مر المركب من خلال عاصفة مغناطيسية ، فان هذا الأمر سيؤدي الى ازدياد فرص عدم اكتشافها بنسبة تتراوح بين ١٠ - ١٠٠ وتوجهت الى مرصد المغناطيسية في (اسكداليمور) ووجدت انهم لديهم فرصة جيدة للتنبؤ بعاصفة ذات حجم كاف ، وبذلك قدمت ما اكتشفته الى سلاح البحرية .

في عام ١٩٤٤ سارت الغواصة (X كرافت) المزالة مغناطيسيا تحت غطاء عاصفة مغناطيسيـة . وبشجـاعة فائقــة ، قام الطاقم بوضع المتفجرات تحت البارجة (تريبتز) وقاموا باعطابها ، وتم في ذلك اليوم ايضاً الاستيلاء على ثلاث سفن . لكن الشجاعة ربما لن يكون لها أي قيمة دون وجود الارضية الفنية لمختبر بحوث الادميرالية .

مع نهاية الحرب ، بدأت حياتي تدخل مرحلة جديدة بشكل كامل . وعلى الرغم من ان الزراعة بقيت حبي الاول ، فانه كان مقدراً عليّ ان لا أعود اليها ثانية . وعوضاً عنها تقدمت للمنافسة للعمل في الهيئة العلمية المدنية التي كان يترأسها (سي . بي . سنو) . وكان الهدف من ايجادها هو فرز وتصنيف العلماء من بين مئات المجندين خلال فترة الحرب . ونجحت في ذلك اذ حصلت على ٢٩٠ علامة من ٣٠٠ ، وقد هنأني (بتروورث) بحرارة . لقد جنيت ثمار تلك الليالي التي سهرتها في قراءة الكتب المدرسية ، رغم ان الفضل يعود في جزء كبير اليه .

وعاد والدي ليصبح رئيس المهندسين في شركة (ماركوني) عام ١٩٤٦ ، كما انني بدأت العمل

كضابط علمي رئيسي في مختبر هيئة البحوث الالكترونية في نفس السنة . وعلى امتداد السنوات الاربع التالية عملنا سوية عن قرب دون ان نتحدث عن محن وتجارب سنوات الثلاثينات ، حتى كانت تلك المكالمـــة الهاتفيـــة من السيـــر (فرد ريك براندريت) عام ١٩٤٩ والتي أدخلت شعبة (م آي ٥) في حياتي .

٣

بعد مرور عدة أيام على اللقاء الاول الذي تم في مكتب (براندريت) عام ١٩٤٩ ، تلقيت مكالمة هاتفيـــة مـــن (جون تيلر) يـــدعـــوني فيها للقـــدوم الى (لندن) ، واقتـــرح ان نلتقي في حديقة (سانت جيمس) حيث تقابلنا على الجسر المواجه لقصر (بكنغهام) . وقد صدمت بتلك الطريقة الغريبة التي يتم فيها القيام بأعمال تتعلق بالأمن القومي ، ونحن نتجول بين البط والأوز ونتوقف بين الفينة والاخرى لنطالع انعكاس صورة أجسامنا في بركة الماء .

كان (تيلر) صغير القامة ، وله شارب رفيع وأشيب ، ذا وجه جاد . وهو أحد ضباط الاتصالات في جيش (مونتغمري) خلال حملته في الشمال الافريقي . وعلى الرغم من انه الآن يعمل فنيا في مكتب البريد ، الاّ انه لا زال يحتفظ بمشيته العسكرية الحادة . وهو يقوم بالاشراف على البحث الفني – كما كان يسمى سابقا – لصالح الشعبتين (م آي ٥) و (م آي ٦) وذلك من مختبره الكائن داخل وحدة التحقيق الخاصة الموجودة في مكتب بريد (دوليس هيل) . وقد حاول ان يفهمني انه المسؤول عن العمـــل بيننـــا ، وأخبـــرني بشكل فـــظ انه بصرف النظر عن قيامي بزيارة قصيرة واحدة الى مقر (م آي ٥) في (ليكونفيلد هاوس) لمقابلة الكولونيل (كمنغ) فانه يتوجب عليّ التعامل من خلاله باعتباره وسيطاً . ولم يكن متشجعاً للبحث في موضوع " الوظيفة " بل انه عمد فقط الى اعلامي أنني سوف أمنح لقب " مستشار علمي من الخارج " ولذلك فانه لن تدفع لي اي أجور لقاء عملي . وعلى امتداد عدد من السنوات واصلنا لقاءاتنا في حديقة (سانت جيمس) بمعدل مرة في الشهر للحديث فـــي موضوع التقارير المكتوبة حول القضايا الفنية التي كنت أصنفها في ملفات ، وأقوم بتسليمها

الى (سي . و . رايت) سكرتير لجنة (براندريت) وقد أصبح (رايت) فيما بعد نائب سكرتير في وزارة الدفاع .

وقمنا أنا و (تيلر) بتقسيم العمل الفني ، وكان على مكتب البريد ان يكثف البحث في موضوع استخدام الاشعة الحمراء من أجل المراقبة ، في حين بدأت باستخدام موارد مختبر هيئة البحوث الالكترونية لتطوير الميكروفونات ، والبحث عن طرق للحصول على انعكاسات الاصوات من خلال أثاث المكاتب . وكنت على دراية بالأسس الفنية للتردد (طنين الاصوات) من خلال عملي في مجال مضادات الغواصات . فحينما تصطدم الامواج الصوتية بالسطوح المشدودة مثل النافذة أو خزانة الملفات تنبعث آلاف الاصـــوات . وهنــا تكمن البراعة في اكتشاف النقطة التي يكون فيها التشويش في حده الأدنى ، فتتم عملية التقاط الموجات الصوتية على انها حديث مسموع .

فــي يــوم مـــن أيـــام عـــام ١٩٥١ تلقيـــت مكالمـــة هاتفيـــة مـــن (تيلر) وكـــان متـــوتـــراً بشكـــل واضـــح حيث قال لي لاهثاً : " لقد هُزمنا . . . هل يمكننا ان نلتقي بعد ظهر اليوم ؟ " .

والتقيته ذلك اليوم على مقعد في احدى الحدائق مقابل وزارة الخارجية ، حيث أخبرني كيف أن ملحق سلاح الجو البريطاني في سفارتنا في (موسكو) كان يستمع على جهاز الاستقبال WHF في مكتبه الذي اعتاد ان يراقب منه حركة الطائرات العسكرية الروسية حينما سمع فجأة صوته ينبعث من جهاز الاستقبال واضحاً وعالياً . وإذ تأكد للملحق انه تم اختراقه بشكل ما سارع الى ارسال تقرير حـــول هـــذه القضيـــة . وبحثت مع (تيلر) اي نوع من الميكروفونات من الممكن ان يكون قد استخدم ، واتخذ ما يلـــزم من ترتيبات لتمكـــين (دون بيلي / المهندس في هيئة الاتصال اللاسلكي الدبلوماسي) من التحقيق في الأمر . وقد أعلمت (بيلي) قبل سفره الـــى (موسكو) عن افضل طريقة لكشف الجهاز . وللمرة الاولى تأكد لي كم هي الاستخبارات البريطانية بحاجة الى الخبرات الفنية ، فلم تكن لديهم حتى المعدات المناسبة ، وكان عليّ ان أعطي (بيلي) معداتي الخاصة . وتم تفتيش السفارة بشكل كامل ، غير انه لم يتم العثور على شيء . ومن المؤكد ان الروس قد علموا بانه تم اكتشافهم ، فقاموا بالتخلص من الجهاز .

ومن خلال الاسئلة التي طرحتها على (بيلي) بعد عودته ، كان من الواضح لي أن هذا الجهاز ليس ميكروفون جهاز ارسال عادي ، باعتبار ان هناك اشارات لاسلكية قوية يتم ارسالها بشكل واضح حينما يكون الجهاز يعمل . وتكهنت ان الروس – مثلنا – كانوا يقومون باجراء التجارب على بعض انواع الاجهزة المتعلقة بالتردد . وثبتت صحة كلامي خلال ستة من الشهور حينما دعاني (تيلر) الى حديقة (سانت جيمس) لاجتماع طارىء .

أخبـــرني ان عمـــال التنظيفات * في وزارة الخارجية الامريكية كانوا يقومون بشكل روتيني " بتنظيف " مكتب السفير الامريكي في (موسكو) استعداداً لزيارة وزير الخارجية الامريكي ، وقد استخدموا مولد اشارات متناغمة لتوليد ما يعرف بـ " التأثير الدائري المتكرر " والذي يشبه الصوت المنبعث من محطة الراديو حينما تحدث شخصاً على الهاتف في حين ان جهاز الراديو أو التلفزيون عنده في البيت يعملان . وقد اكتشف " التأثير الدائري المتكرر " وجود جهاز صغير مخبأ في الشعار الكبير للولايات المتحدة الموجود على الحائط خلف طاولة مكتب السفير .

كان تردد التأثير الدائري المتكرر يصل الى ١٨٠٠ ميغاهيرتز ، وافترض الامريكيون ان ذبذبة التشغيل في الجهاز يجب ان تكون نفس الذبذبة . غير ان الاختبارات التي أجريت أظهرت ان ذلك الجهاز كان غير مستقر وغير حساس حينما يعمل على هذه الذبذبة . وفي غمرة من اليأس توجه الامريكيون الى البريطانيين طلباً للمساعدة في حل لغز كيف يعمل هذا " الشيء " كما كانوا يدعونه .

امـــا (براندريت) فقد اتخـــذ بعض الترتيبات لاعطائي مختبراً اميناً جديداً في مكان ما في (غريت بادو) وقام (تيلر) واثنان من الامريكيين باحضار الشيء بعناية . كان الجهاز ملفوفاً بالقطن الطبي وقد وضع داخل صندوق خشبي صغير يشبه صندوق قطع الشطرنج . كان طوله حوالي ثمانية انشات ، وفـــي أعلاه يوجد أنتين يفضي الى فجوة . وداخل الفجوة كانت هناك قطعة معدنية مفلطحة (تشبه الفطر) لها قمة مسطحة يتم ضبطها لتقوم بتزويد الجهاز بالطاقة المتقلبة . وخلف القطعة المعدنية كان هناك غشاء رقيق مهمته استقبال الكلام ، وعلى ما يبدو فانه كان مثقوباً . وقد أوضح الامريكيان أن أحد علمائهم قد أدخل يده خطأً عبر هذا الغشاء .

ولم يكن لهذه الازمة أن تأتي الاّ في أحرج الاوقات لدي ، فنظام الاكتشاف المضاد للغواصات البحرية كان يسير في مرحلة الاختبارات الحاسمة ، ويتطلب ساعات طويلة من الاهتمام . غيـــر انني كنت كل ليلة ، وكل عطلة اسبوعية ، أشق طريقي عبر الحقول الواقعة خلف مباني شركة (ماركوني) لأصل الى كوخ (نيسن) المهجور . وبقيت أعمل هناك لمدة عشرة أسابيع لحل هذا اللغز.

وكان من الواجب عليّ في البدء ان أعمل على إصلاح الغشاء ، سيما وان الشيء كان يحمل ما يشير الى ان هذا الجهاز قد تعجل الروس في وضعه قيد العمل للتأكد مسبقاً من انه تم زرعه قبل زيارة وزير الخارجية الامريكي . ومن الواضح انهم استخدموا نوعاً من الميكروسكوبات الدقيقة لوضع الغشاء فـــي مكانه ، وذلك لان الغشاء كان يتمزق في كل مرة كنت أحاول فيها تثبيته باستخدام الملاقط الصغيرة . وأخيراً ، ومن خلال التجربة والخطأ عملت على وضع الغشاء أولاً ثم تثبيته فيما بعد . ولم تكن النتيجة دقيقة تماماً، ولكن الجهاز أخذ يعمل .

---

* المقصود بعمال التنظيفات رجال الامن الامريكيون الذين يقومون بتمشيط المكتب بحثاً عن أجهزة التجسس (المترجم)

قمت فيما بعد بقياس طول الانتين وذلك في محاولة من أجل تقدير الطريقة التي يرجّع الصدى بواسطتها . وقد تبين أن تردد ١٨٠٠ ميغاهيرتز هو الذبذبة الصحيحة . ولكنني حينما وضعت الجهاز قيد العمل ووجهت اليه الاصوات من خلال مولد اشارات صوتية ، كان – وكما وصف الامريكيون ذلك من قبل – من المستحيل ان يؤالف الاصوات بشكل فعّال . ولكن بعد مرور اربع عطل اسبوعية تأكد لي اننا جميعاً نفكر في هذا الجهاز بشكل معكوس . فقد افترضنا جميعاً ان الصفيحة المعدنية يجب ان تكون مفتوحة تماماً الى الخارج من أجل زيادة التردد (الطنين) لكن الصحيح كان هو انه كلما كانت الصفيحة اقرب الى شكل قطعة الفطر المعدنية كلما كانت حساسية الجهاز اكبر . وقمت بتثبيت الصفيحة بالشكل الصحيح ، ثم أدرت جهاز ارسال الاشارات بذبذبة مقدارها ٨٠٠ ميغاسايكل ، فبدأ الشيء يصدر صوتاً عالياً . واتصلت بوالدي هاتفياً ، وأنا في حالة من الاثارة، فقلت له : " لقد جعلت الشيء يعمل " فأجابني " أعلم ذلك ... ان الصوت يمزق طبلتي اذني" .

وبدأت أشرح عن هذا الشيء الى كل من (تيلر) الذي حضر وبرفقته الكولونيل (كمنغ) و (هيو وينتربورن) والامريكيان . وحضر والدي ايضاً وبصحبته عالم آخر من شركة (ماركوني) يدعى (ر .ج . كيمب) وهو عالم ثقف نفسه بنفسه ، ويشغل الان منصب رئيس قسم البحوث . قمت بنصب الجهاز أمام حائط الكوخ ، وأعددت جهاز استقبال آخر في غرفة مجاورة ، وبذلك فإن الاصوات المنبعثة من جهاز توليد الاصوات يمكن ان تسمع في الغرفة عندما يعمل الجهاز .

ضبطت مؤشر الجهاز على تردد ٨٠٠ ميغاسايكل وبدأت أشرح لهم السر. وقف الامريكيان مشدوهين من بساطة الجهاز . اما (كمنغ) و (وينتربورن) فقد كانا معتدين ويشعران بالاعتزاز . لقد جرى كل هذا مباشرة بعد كارثة قضية (بيرغس) و (ماكلين) . فقد أدّى لجوء هذين الدبلوماسيين من وزارة الخارجية الى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥١ الى إثارة الغضب والشعور بالأهانة في الاوساط الامريكية ، وقد تأكد لي انه من الأهمية بمكان بالنسبة لهم ضرورة ابراز التفوق البريطاني بأي شكل من الاشكال ، حتى ان (كيمب) قد أشبع غروره ، وأعلن ان المسألة هي مسألة وقت أمام شركة (ماركوني) حتى تحصل على عقد لتطوير هذا الجهاز .

وسأل (كمنغ) : " كم من الوقت يلزم حتى يصبح بامكاننا استخدام مثل هذا الجهاز ؟ " .

وأوضحنا له ، أنا و (كيمب) ان الأمر قد يستغرق سنة على الاقل حتى يكون بين ايدينا جهاز يمكن الاعتماد عليه .

ثم قال (كيمب) مخاطباً (كمنغ) : " أعتقد انه بامكاننا ان نقدم المبنى وتوابعه يا (مالكولم) ... وهناك مجال لأن يعمل شخص واحد تحت إمرة (بيتر) وسيصبح بامكانك الحصول على نموذج ... ولكن بعد ذلك ، يجب عليك ان تحصل على التمويل " .

أجابه (كمنغ) : " حسناً ، من المستحيل بالنسبة لنا أن ندفع شيئاً كما تعلم ، لأن وزارة المالية لن توافق أبداً على توسيع المخصصات المالية السرية " .

رفع (كيمب) حاجبيه . وكان من الواضح ان (كمنغ) قد خاض مثل هذا النقاش كثيراً من قبل للحصول على تسهيلات للاشيء .

وتدخلت قائلاً : " اذا كانت الحكومة جادة في قضية تطوير أشياء تقنية لشعبة (م آي ٥) و (م آي ٦) فان عليهم بالتأكيد أن يخصصوا الاموال ضمن تصويت علني على ذلك ". ورد (كمنغ) هازاً رأسه : " انهم لا يرغبون بذلك ... فنحن غير موجودين في الواقع" . ونظر إليّ وكأن فكرة مفاجئة خطرت على باله : " الآن ، ربما يمكنك ان تحادث الادميرالية نيابة عنا ، وان تطلب مساعدتهم لنا في التصويت العلني ... " .

وكانت هذه هي بدايتي في التعامل مع الطرق الغريبة للحصول على التمويل الخاص بالاستخبارات . وكان هذا الامر مشكلة لازمتني حتى سنوات الستينات . فعوضاً عن الحصول على مصادر تمويلية لمتطلباتنا الفنية ، فان جهاز الاستخبارات كان مجبراً خلال فترة ما بعد الحرب على الاستجداء من القوات المسلحة . ومن وجهة نظري ، كان هذا من أهم الاسباب التي ساهمت في الاداء غير المحكم لجهاز الاستخبارات البريطاني في الفترة التي تلت الحرب مباشرة .

غير أنني – وكما طلب إليّ – بدأت حث الادميرالية على تحمل نفقات تطوير ميكروفون جديد ، وحددت موعداً لمقابلة خليفة (براندريت) رئيس الهيئة العلمية البحرية (السير وليام كوك) الذي أعرفه جيداً . كان هذا الرجل نحيلاً ، ذا شعر أحمر ، وعيون زرقاء نفاذة ، اضافة لكونه ولوعا بالمشاريع والبرامج الكبيرة ، كونه مسؤولاً لامعاً ويتقيد بالافكار الايجابية . وقد تعاملت معه اول مرة بعد الحرب ، حينما طلب مني أن أعمل تحت إمرته في مشروع تجريبي لانتاج الأشعة الزرقاء ، والذي ألغي في النهاية حينما أصيب (السير بن لوكسباير) العالم الرئيسي في وزارة التموين بأزمة ضمير. ومن المثير للسخرية ان (كوك) نفسه قد أخذ يشكك في الاسلحة النووية لأسباب سياسية وعملية اكثر من كونها أسبابا اخلاقية . وقد شعر ان بريطانيا كانت متسرعة في انتاج القنبلة A ، وأحس بمخاوف ان تفقد البحرية البريطانية أهميتها بشكل حتمي نتيجة تطور علم الصواريخ المعاصر . كما انه كان متأكداً – كما أتوقع – ان استحواذ هاجس القنبلة علينا كان مضحكاً الى حد الوهن أمام تنامي التفوق الروسي والامريكي . وقد كانت هذه الفكرة العارضة هي الفكرة التي آمن بها قطاع واسع من العلماء الذين كانوا يعملون في المستويات الدنيا في الهيئات أثناء سنوات الخمسينات .

وقد أوضحت (للسير كوك) ان الميكروفون الجديد يمكن ان يقدم للاستخبارات ميزات لا حصر لها ويمكن لسلاح البحرية بالتالي ان يستفيد منها بالطبع ، وذلك في حال موافقتهم على تمويل

المشــروع . وابتســـم لهـــذا التبرير الواضح ، وفي نهاية اللقاء وافق على تزويدنا بستة علماء من كادره ، وعلى تمويل بناء مبنى مختبر مقترح في شركة (ماركوني) لتنفيذ المشروع فيه .

وخلال ثمانية عشر شهراً كنا على استعداد للاعلان عن انتاج أول نموذج أطلق عليه اسم حركي هو (ساتير) وأمام باب مقر قيادة شعبة (م آي ٥) في (ليكونفليد هاوس) كنا أنا و (كيمب) نعرّف بأنفسنا . استقبلنا (هيو وينتربورن) واصطحبنا الى مكتب بسيط في الطابق الخامس ، وعرّفنا على رجل طويل القامة ، محدودب الظهر ، يرتدي بذلة مخططة وعلى شفتيه ابتسامة صغيرة .

قال لنـــا :" أنـــا روجــر هـــــوليس" وقام من خلف طاولة مكتبه وصافحني بقوة ، ثم تابع قائلاً : " أخشى ان المدير العام لن يتمكن من التواجد معنا هذا اليوم من أجل هذا الأمر ، ولذلك سأكون بديلاً عنه باعتباري نائبه " .

ان وجه (هوليس) لا يشجع على اي حديث قصير . اما مكتبه الذي لاشيء عليه فانه يدل على انه رجل يؤمن بالعمل الفوري السريع ، ولذلك عرضت عليه الجهاز دون أي تأخير . كانت معي حقيبة فـــي داخلهـــا معـــدات جهاز الارسال التي ستستخدم في تشغيــــــل (ساتير) كما كان هناك هوائيان مموهان على شكل مظلتين يمكن فتحهما لتكونا بمثابة صحن استقبال وارسال . وقمنا بوضع (ساتير) في أحد الطوابق التابعة لشعبة (م آي ٥) ويقع في شارع (ساوث أودلي) في حين وضعنا المظلتين فـــي مكتب (هوليس) . وكانت التجربة ناجحة ، اذ سمعنا كل شيء بدءاً من الحديث التجـــريبي ، وانتهاء بصوت دوران المفتاح فـــي قفــل الباب . وكان (هــوليس) يردد أثناء التجربة " مدهش يا بيتر " ثم يتابع ونحن نستمع " انه السحر" في حين كان (كمنغ) في الخلف يطلق الضحكات المكبوتة .

وتأكد لي فيما بعد ان ضباط (م آي ٥) كانوا طوال فترة الحرب يتقوقعون على انفسهم في المباني القديمة ، وقلما كانوا يختبرون اثارة التقدم التقني. بعد انتهاء التجربة وقف (هوليس) خلف طاولة مكتبه ، وألقى كلمة قصيرة شكلية عن روعة هذا اليوم بالنسبة لجهاز الاستخبارات ، وكيف ان ما تم تحقيقه هو ماكان يفكر به (براندريت) عندما قام بتشكيل فريق العمل . وكان يخامر الجميع شعور اكثر منه شعور بالزهو والتفوق ، وكأن الخدم قد وجدوا جوهرة التاج المفقودة في حديقة الورود .

ولقد أثبت (ساتير) انه نجاح باهر ، اذ سرعان ما طلب الامريكيون انتاج اثني عشر جهازاً علاوة على أنهم – وبكل وقاحة – قاموا بتصوير المخططات وانتاج عشرين جهازاً آخرين . وعلى امتداد سنـــوات الخمسينـــات إلـــى أن تـــم وضـــع جهـــاز آخـــر مكانـــــه ، استخـــدم البريطانيون ، الامريكيون ، الكنديون ، والاستراليون هذا الجهاز باعتباره واحداً من افضل وسائل الحصول على تغطية سرية . لكن ماهو مهم بالنسبة لي هو ان تطوير (ساتير) قد أرسى أسس

اعتمادي كعالم لدى (م آي٥) . ومنذ ذلك الوقت كانت تتم استشارتي بشكل أساسي ومنتظم في كافة الامور المتعلقة بمشاكلهم الفنية المتزايدة وواصلت تعاملي مع (كمنغ) حصراً ، وبدأت أعرف القليل عن دائـــرته المسمـــاة (الفرع أ) والتي كانت تتكون من أربعة أقسام تخضع لاشرافه : القسم الاول وهو (أ ١) ويقوم بتزويد (م آي ٥) بالمواد اللازمة ، بدءاً من الميكروفونات وانتهاء بآلات فتح الاقفال . اما القسم (أ ٢) فقد كان بمثابة الدائرة الفنية التي تضم أشخاصاً مثل (هيو وينتربورن) الذي كان يتصرف بالمواد التي يؤمنها القسم (أ١) . ويشكل القسم (أ ٣) ما يمكن تسميته بشرطة الارتباط مع الفرع الخاص ، في حين ان القسم (أ ٤) كان بمثابة الامبراطورية المتنامية (المراقبة) المسؤولة عن تعقب الدبلوماسيين الأجانب وغيرهم في شوارع (لندن) .

أخطـــأ (كمنغ) خطـــأ فادحاً حينما تطرق الامر الى القضايا التقنية ، فقد كان يرى ان دائرة (الفرع أ) يجب ان تشرف على ما يتعلق بالعلم ، وليس العكس ، وبالتالي فان الجهاز كله قد حرم لفتـــرة طـــويلة من الحداثة . وطالما كنا نبحث في المتطلبات التقنية المحدودة فان علاقتنا كانت مثمرة ، غير انه كان من الواضح ايضاً انه عاجلاً أو آجلاً فاننا سنصبح على أرضية لا يمكنني من خلالها اســـداء المشورة الى (م آي ٥) ما لم أحظ بثقته أو بثقة (هيو وينتربورن) . فعلى سبيل المثال ، كان (وينتربورن) يسألني دائماً اذا كانت لدي أفكار تتعلق باعتراض المكالمات الهاتفية . وقد أوضحت له انه من المستحيل العمل في هذه القضية ما لم أكن على معرفة بالتقنيات المستخدمة وقتها .

و عنـــدها كـــان (كمنـــغ) يضـــرب علـــى الطاولـــة بيـــديه بعصبيـــة ، ويقول مثيراً (وينتربورن) : " حسنـــاً ، فقـــد وصلنـــا الآن الى منطقة سرية جداً ، أرى انه يجب علينا ان نبتعد عنها " .

والأمر نفسه حدث مع قسم المراقبة ، فقد كانت المشكلة الاساسية التي تواجه (م آي ٥) خلال سنوات الخمسينات هي كيفية اكتشاف ومتابعة الروس الذين أخذ عددهم يزداد في شوارع (لندن) دون افتضاح أمرها (م آي ٥) .

وقد سألني (كمنغ) ذات مرة وكأن الحل موجود في جيبي :" هل لديك افكار يابيتر؟ " فاقترحت عليه أن من الضروري أن أطلع ضمن الحد الادنى الممكن ، على نظام عملية المراقبة وأجابني (كمنغ) وقتها انه سيبحث فيما يمكنه ترتيبه ، ولم أسمع بعدها شيئاً عن هذا الأمر .

لكن – ورغم الصعوبات – كان من الواضح أن (م آي ٥) قد اكتشفت أنني مفيد لهم . فمع حلول عام ١٩٥٤ كنت أقضي يومين كاملين اسبوعياً في (ليكونفليد هاوس) . وبعـــد جلسة طويلة ذات مـــرة دعانـــي (كمنـــغ) لتناول طعام الغذاء في النادي الذي يتردد عليه . سرنا معاً عبر حديقة (سانت جيمس) ثم اتجهنا عبر شارع (بول مول) الى نادي (إن آند أوت كلاب) فيما كان (كمنغ)

يلوح المظلة التي اعتاد أن يحملها . وقد تأكد لي حينما جلسنا – رغم انني أتعامل مع (كمنغ) منذ خمس سنـــوات – ان هــــذه هي المرة الاولى التي نقيم فيها علاقة شخصية بيننا . كان (كمنغ) قصيـــر القامـــــة ، وليـــس لـــديه الكثيـــر من المهارات العقلية ، غير انه كان شديد الولاء لشعبة (م آي ٥) . وعلى غـــرار رجال الشرطة في روايات (جون بوتشان) كان يبدو وكأنه يطارد البطـــل على انه وغد . كان ضابطاً في فرقة رماة البنادق ، وينتمي الى التقاليد العسكرية القديمة في (م آي ٥) التـــي تعـــود بأصولها الى مؤسسها (فيرنون كيل) . كانت تربطه بأول رئيس لشعبة (م آي ٦) الكابتن (مانسفيلد كمنغ) صلة القرابة وهذا ما أرادني ان أكون على علم به منذ بداية لقائنا ، يضـــاف الـــى ذلك انـــه كـــان المسؤول عن تجنيد المدير العام الحالي لشعبة (م آي ٥) وهو (السير ديك غولد سميث وايت) . فقد صادف ان قاما باصطحاب مجموعة من الأولاد لقضاء عطلة في أحد المخيمات وكان ذلك خلال إحدى سنوات الثلاثينات ، ولم يكن (وايت) سعيداً بعمله كمدّرس ، فما كان من (كمنغ) الاّ أن حثه على التقدم بطلب للعمل لدى (م آي ٥) . وقد أثبت (وايت) انه ضابط استخبـارات متألق ، يتمتـع بقوة حدس ، وسرعان ما بزّ معلّمه ، غير ان الدَّيْن الذي كان يدين به الى (كمنغ) قد خدم هذا الأخيربشكل جيد خلال سنوات الخمسينات .

كان (كمنغ) يمتلك ثروة جمعها بنفسه ، حيث كانت لديه ملكية خاصة في (سسكس) فكان يبدو في البلدة ملاّك أرض ، في حين يصبح الجاسوس في المدينة ، وربما يعود هذا الى أيام طفولته في فـــرق الكشافـــة ، والتي لا تزال كامنة فيه . وفي الحقيقة ، فانه كرس معظم وقته وهو ينظم سجلات (م آي ٥) ويقوم بتنفيذ الاعمال الادارية الروتينية الأخرى ، اضافة الى معايشته – بصعوبة – للنخبة الجامعية الموهوبة الذين عملوا في جهاز المخابرات خلال الحرب . لكن (كمنغ) كان يمتلك موهبة واحدة مدهشة : فقد استطاع ان يقيم عدداً اسطورياً من الصلات ، ليست كتلك الصلات التي أقامها مع أصدقائه في النادي ، وانما هي صلات في كافة الاماكن الغريبة . فاذا ماكان المكتب بحاجة الى امرأة بساق واحدة تقوم بعمل الغسيل ، وتتكلم اللغة الصينية ، فان (كمنغ) كان هو الوحيد القادر على الاتيان بمثلها ، وحينما أصبح منصب مدير (الفرع أ) شاغراً ، فان (كمنغ) ايضاً كان هو الوحيد الذي يمكن ان يتسلمه بالطبع .

طلب (كمنغ) بيض السمّان ، ثم سألني قليلاً عن تاريخ حياتي . استمع إليّ بطريقة توحي بعدم الاهتمام أثناء الطعام ، إلى أن طلب في النهاية كأسين من البراندي ، ثم بدأ الحديث عن الهدف من ضيافته لي .

سألنـــي : " لقـــد أردت أن أعرف منك يا (بيتر) كيف رأيت الأمور تسير في جهاز المخابرات ، وأعني من الناحية التقنية ؟ "

كان يخامرني شعور بما كان يريد أن يطرحه ، ولذلك فقد قررت ان هذا هو الوقت المناسب لأقول ما يدور في خلدي ، فأجبته بصراحة : " لا مفر لك حتى تقوم بتعيين عالم يقوم بحل المشاكل و تضعه في صورة ما يجري بشكل كامل" . وتوقفت عن الحديث بينما كان النادل يقدم البراندي ، ثم تابعت : " ويجب عليك ان تمنحه حق الاطلاع على القضايا التي يقوم الضبـاط بمعالجتها ، وان يكون لـه الحق في المساعدة فـي تخطيط وتحليل العمليات كمـا يفعلون " .

رفع (كمنغ) كأسه ، وشرب ما فيه برقة ، ثم قال : " أوافقك ... ولقد توصلنا جميعاً الى هذه النتيجة ، ولكن من الصعوبة بمكان العثور على الشخص المناسب . ان (جونس) * يلعب دوراً للحصول على هذا المنصب ، ولكن إذا وافقنا عليه ، فانه سيعمل على المطالبة بالاشراف على المكان كله في اليوم التالي" . ووافقته على ذلك .

كنـت فـي فتـرة مـا قـد أشرت أمام (وينتربورن) الى أنني معني بالانضمام الى جهـاز الاستخبـارات لأعمل هناك بشكل كامل في حال وجود شاغر مناسب ، ولذلك فقد طرحت على (كمنـغ) السـؤال التالي : " اعتقد ان (هيو) قد أخبرك أنني مهتم بالانضمام الى جهاز الاستخبارات ؟ " . وأجابني " حسناً ، تلك هي المشكلة يا (بيتر) فهناك اتفاق مع الوايت هول بعدم استخدامنا لموظفيهم وبالعكس ، وببساطة فاننا لا نستطيع أن نقوم بتجنيدك من هناك حتى ولو كنت متطوعاً " وأفرغ (كمنغ) بقية كأسه ، ثم تابع : " بالطبع ، اذا تركت سلاح البحرية ، فان كثيراً من الاشياء يمكن ان تتغير ..." .

هذا هو (كمنغ) الذي عرفته ، يريدني أن أبدأ بالخطوة الأولى ، فطرحت قضية إحالتي على التقاعد من الادميرالية ، اذ أنني سأفقد تقاعد اربعة عشر عاما فيما اذا استقلت من العمل ، وعلى النقيض من (كمنغ) فانه لم يكن لدي أي دخل خاص لأعتمد عليه . ونقر (كمنغ) بلطف على كأس البراندي ، وظهر عليه شعور بالدهشة انني طرحت الموضوع ، فقال لي : " انني متأكد من انك تدرك ان هـذه فـرصة عظيمـة أمامك يا بيتر " ثم توقف ، وعاد بعدها الى واحد من الموضوعات المحببة اليه ، إذ قال :

" اننا لسنا جهازاً مدنياً ، وعليك ان تكون مستعداً كي تكون واثقا بنا . هناك دائماً قضية التصويت السري ، ولا أعتقد انه يمكننا ان نتقدم بالتزامات خطية ، غير انني متأكد من انه حينما يحين الـوقت فاننـا سـوف نكون قادرين علـى ترتيب شيء ما . اننا لا نحب رؤية معانـاة رجالنا

---

* ر . ف . جونس عمل عن قرب مع (تشرشل) في الاستخبارات العلمية خلال الحرب ، وقد كانت اسهاماته لامعة ، لكنه ليس موضع ثقة الوايت هول بسبب ما يتميز به من تفرد واستقلالية . ومثله مثل الاخرين لم يسمح له بان يترك آثاره ايام السلم كما فعل أيام الحرب .

وانت تعلم ذلك " .

بعـــد ان انتهينا مـــن تناول طعام الغـــذاء خرجنا من جو الجلود الفاخرة والبراندي في (إن آند أوت كلاب) الى أضواء ورطوبة حي (البيكاديللي) .

قال لي (كمنغ) : " ستخبرني عن قرارك بترك الادميرالية أليس كذلك يا بيتر ؟ ... وفي الوقت نفسه سأعمل على جس النبض في أوساط المدراء " .

تصافحنا ، ثم مشى بخطوات واسعة باتجاه (ليكونفيلد هاوس) فيما كان يتأبط مظلته . كان طـــرح (كمنغ) للموضوع مصادفة سعيدة ، فبرنامج الحرب المضادة للغواصات كان على وشك النهايـــة ، وكانت الادميرالية تواقة الى نقلي الى (بورتسماوث) للقيام بعمل جديد هناك كنت لا أرغب به . في الوقت ذاته ، كانت شركة (ماركوني) قد تعاقدت على تطوير مشروع الاشعة الزرقاء بالتعاون مع شركة الكهرباء الانكليزية . وقد عرض عليّ (اريك ايستوود) نائب رئيس مختبر (ماركوني) العمل على هندسة نظام قيادة وتحكم للاشعة الزرقاء . وخلال شهر ، كنت قد تركت العمل في الادميرالية ، ثم انضممت الى شركة (ماركوني) كعالم رئيسي رفيع المستوى فيها .

وقـــد وجدت ان البحث في مجال الصواريخ مضعف للمعنويات تماماً . وقد كان السبب في ذلك ، الى حد ما ، انني كنت آمل بالانضمام الى (م آي ٥) خلال فترة وجيزة . ولم اكن وحدي متيقناً من أن برنامج الصواريخ يبدو وكأنه لن يتم أبداً . لقد كان حماقة ، ومَعْلَماً من معالم خداع الذات البريطانية . وفي أي حال من الاحوال ، فان هذا النوع من العلم كان سلبياً في النهاية . لماذا تقضي سنوات عمرك لتطويرسلاح تأمل وتدعو الله ان لا يتم استخدامه ؟ .

اتصـــلت هاتفيا مع (كمنغ) وأخبرته انني تركت العمل في الادميرالية ، وانتظرت خطوته التالية . وأخيراً ، وبعد ستـــة شهور ، تلقيت دعوة ثانية لتناول طعام الغذاء . اما الضيافة فقد بدت أقل سخاء مما كانت عليه في المرة الماضية ، وقد تكلم (كمنغ) في صلب الموضوع مباشرة قائلاً :

" لقد بحثت اقتراحك مع أعضاء المجلس ، ونحن نرغب بأن تكون معنا . لكننا سنتعرض الى بعض الصعوبات مع الوايت هول فيما اذا أخذناك كعالم ، اذ اننا لم نعين عالماً من قبل ، وهذا مما سيعقد الأمور وما سنقترحه عليك هو ان تنضم الينا كضابط عادي ، وسنرى ما الذي سوف يمكنك ان تفعله " .

أوضحت لـ (كمنغ) انني لست سعيداً جداً باقتراحه ، فالاختلاف الوحيد – كما أراه – هو انه سيدفع لي مرتبا على أساس درجة عالم رئيسي (أو ضابط عادي) وليس على أساس وضعي الحالي كعالم رفيع المستوى ، مما يعني في النهاية وجود فرق يقدر بخمسمائة جنيه سنويا . وهناك أيضاً مسألة المبدأ التي أثارها والدي حينما حادثته بالأمر ، اذ قال لي : " لا تذهب ما لم يتم تعيينك على

أساس أنـــك عالم ... فاذا ما قبلت بتسوية على أساس ذلك فانك أبداً لن تكون قادراً على العمل كعالم ، وعندها ستتوقف عند مرتبة ضابط يقوم بالاعمال الروتينية دون أن تشعر بذلك " .

وقـــد فـــوجيء (كمنغ) برفضي ، ولم يبذل اي محاولة لحثي على القبول . وسرعان ما غادر ، مدعيا ارتباطه بموعد مهم فـــــي (ليكونفيلد هاوس) .

بعد شهر من ذلك اليوم ، وفيما كنت في مختبري في (غريت بادو) تلقيت دعوة للذهاب الى مكتب (كيمب) حيث وجدت هناك كلاً من (كمنغ) و (وينتربورن) الذي كان يبتسم ابتسامة عريضة .

قال (كيمب) : "حسناً يا (بيتر) على ما يبدو فانني سأخسرك أخيراً . ان (مالكولم) يريد أن يأخذك كعـــالم أول فـــــي (م آي ٥) " . وقد أخبرني (وينتربورن) فيما بعد ان (كمنغ) قد ذهـــــب لمقابلة (كيمب) وليسأله كم عليه ان يدفع لي ، فأجابه (كيمب) الذي كان على معرفة بحرص (كمنغ) على توفير بضع جنيهات من الأموال الحكومية : " انه نفس المبلغ الذي يمكنني ان انضم اليكم بموجبه .. انه أجر عادل " .

" بالطبــع سيكون هناك مجلس ، ولكنها مسألة شكلية " هكذا أخبرني (كمنغ) . صافحتهم جميعاً ، وعدت الى مختبري كي أستعد لحياة جديدة في الظلال .

٤

بعد مرور أربعة أيام ، كنت في طريقي الى (ليكونفيلد هاوس) لمقابلة اللجنة التي تقوم باختيار الموظفين . فُتحت الطاقة الزجاجية ، وأطلت منها عينان أنعمتا النظر فيّ بدقة .ُوعلى الرغم من أن وجهي كان مألوفاً لديهم ، الاّ انني كنت لا أزال بحاجة للحصول على إذن للدخول . وهكذا ، كان عليّ ان أنتظر بطول أناة ، في حين كان رجل الشرطة يتصل هاتفيا مع (كمنغ) لترتيب أمر أرسال شخص يرافقني .

قال لي المرافق وهو يضغط على زر المصعد : " ستبدأ بزيارة المدير العام اليوم ، أليس كذلك يا سيدي ؟ " . فُتحت الابواب الحديدية وهي تصدر صوتاً شديداً . لقد كان هذا المصعد من الطراز القديم والذي يعمل على شكل رافعة موضوعة داخل صندوق معـــدني . كان يصدر قعقعة و أزيزاً أثناء صعوده في المبنى . وأخذت أعد الطوابق التي مررنا بها حتى وصلنا الى الطابق الخامس ، حيث يتواجد هناك كبار مدراء (م آي ٥) وضباطهم .

ســـرنا قليلاً في المر ، ثم دخلنا غرفة كبيرة مستطيلة الشكل ، وهي غرفة سكرتارية المدير العام . كانت الغرفة تشبه أي سكرتارية اخرى من سكرتيريات ضباط (الوايت هول) حيث السكرتيرات اللواتي عرفن الايام الحلوة ، وملابس التويد * ، وصوت الآلات الكاتبة . اما ما كان يميز المكان فهو مجموعة من الخزائن الحديدية موضوعة امام الشباك . وفي منتصف الجدار البعيد كان هناك الباب المؤدي الى غرفة مكتب المدير العام .ّان طول المكتب الخارجي قد صمم على هذا النحو بشكل متعمـــد

* التويد : نسيج صوفي خشن (المترجم)

وذلك مـن أجل احبـاط اي محاولة اقتحام للمكتب ، حيث ان ذلك يمنح المدير العام بعض الوقت لتشغيل القفل الاوتوماتيكي الموجود على باب غرفته قبل أن يتمكن أي شخص من الدخول . حينما أضيء الضوء الأخضر الموجود على أعلى باب غرفة المدير ، اصطحبتني السكرتيرة عبر هذه المسافة الممتدة ، وأدخلتني الى المدير .

كان مكتب المدير منيراً ومنعشاً . اما الأثاث القديم المصنوع من خشب الجوز ، والمقاعد ذات المساند الجلدية ، فقد جعلت المكتب يبدو وكأنه يقع في شارع (بوند) وليس في (الوايت هول) . اضافة الى ذلك ، فقد كانت هناك صور لثلاثة من المدراء العامين السابقين تطل محدقة بشكل صارم في الغرفة من على أحد الجدران . وعلى الجانب الآخر كان أعضاء مجلس ادارة (م آي ٥) يجلسون خلف طاولة الاجتماعات اللماعة . وقد عرفت من بين اولئك الرجال كلا من (كمنغ) و (هوليس) . اما الآخرون فلم يكن لي بهم سابق معرفة .

دعاني المدير العام (السير ديك غولد سميث وايت) للجلوس . وكنت قد التقيته خلال واحدة من زياراتي المتعددة الـى مكتـب (كمنغ) غير انني لا أستطيع الادعاء انني أعرفه جيداً . ومما يدعو الى السخرية انه كان ايضاً في كلية المطران في (ستورتفورد) حيث سجل الرقم القياسي في سباق الميل ولكن ذلك كان قبل دخولي تلك الكلية . كان طويل القامة نحيلاً ، ذا عين ثاقبة ، وتدل قسماته على انـه يتمتـع بالصحـة . كان فيـه شـيء من (ديفيد نيفن) من حيث آداب السلوك الانكليزية الصارمة ، والفتنة البسيطة ، واحساس بالاناقة التي لا شائبة فيها . وللحقيقة ، ومن خلال مقارنته مع أعضاء مجلسه ، فانه سافل تماماً .

حينما جلسنا ، افتتح المقابلة بعبارة شكلية ، اذ قال لي : " سيد رايت ، لقد سمعت انك ترغب بالانضمام الينا ، فهل لك أن توضح أسباب ذلك ؟ " .

وبـدأت الحديث عن بعض الاعمال التي قمت بها لصالح جهاز المخابرات ، وأكدت مثلما فعلت ذلك من قبل مع (كمنغ) على انه من الصعوبة بمكان بالنسبة لي أن أقدم المزيد ما لم أكن داخل الجهاز ، وأحظى بالثقة الكاملة .

أجابني : " أعتقد أنني أتحدث باسم جميع مدرائي حينما أؤكد لك اننا لا نفكر بضم عالم الينا دون أن نقدم له كافة الوسائل الضرورية لقيامه بعمله . وسوف تعلم كل شيء " . وهز (كمنغ) رأسه موافقاً . ثم تابع (وايت) قائلاً :

" ومـع ذلك ، اعتقـد انيـه يجـب ان يكـون واضحاً لك ان جهاز الأمن ليس كسائر دوائر (الوايت هول) التي تعرفها . ففي حال انضمامك الينا ، لن تكون مؤهلاً للترفيع " .

وقد أوضح لي ان الانضمام الى جهاز الاستخبارات يكون عادة في سن اكبر من السن التي

تؤهل للعمل في الجهاز المدني ، اضافة الى انه يستتبع ذلك مجموعة من الاعمال تتضمن تدريباً عاماً للضابط في كافة فروع (م آي ٥) المختلفة ، وان بضعة من الضباط العاديين هم الذين خطوا الخطوة التالية نحو مناصب عليا محدودة (في النهاية مساعد مدير) في حين ان عدداً أقل لا زالت أمامهم فرص حقيقية للارتقاء والوصول الى ادارة واحدة من المديريات الست . وبدخولي في مرتبة الضباط العليا للقيام بعمل متخصص كبير ، جعلتُ من المستحيل وجود اي فرصة أمامي للحصول على مرتبة مدير . وقد أخبرت أعضاء المجلس بصراحة ، انه ، بما انني ميال الى العزلة اكثر من ميلي الى مناصب الرئاسة ، فان هذا الأمر لن يخيفني على الاطلاق .

ثم تحدثنا قليلاً عن الاندماج مع (الوايت هول) وهو ما أحسست انه ضرورة ملحة في المجال التقني ، وبعد عشرين دقيقة بدأت الاسئلة بالتوقف . وأخيراً لخّص (ديك وايت) الموقف قائلاً :

" من وجهة نظري ، سيد (رايت) لست متأكداً من أننا نريد حيوانا مثلك في جهاز الأمن " ثم توقف ليقدم لنا خاتمة كلامه قائلا:" ولكن اذا كان لديك استعداد للمحاولة ، فاننا مستعدون أيضاً " .

هكذا بدأ التصلب بالانحسار ، ونهض بقية أعضاء المجلس من خلف الطاولة وتحدثنا لبضع دقائـــق . وبينما كنت أهـــم بالمغادرة دعاني (ديك وايت) الى طاولة مكتبه الموجودة في نهاية الغرفة ، وقال لي :

" بيتر ، سأدعك تبدأ العمل في القسم (أ ٢) مع (هيو وينتربورن) وبالطبع فان (مالكولم) سيكون مسؤولاً عن ترتيب المهمـــات ، غير اني أخبرته أنني أتعجل موضوع ان تقضي أغلب وقتك في متابعة قضايا الفرع د – المشكلة السوفييتية " .

ونقر باصابعه برفق على المذكرة الموجودة على طاولة مكتبه ، وأخذ يحدق عبر النافذة باتجاه مجمع السفـــارة الروسية فـــي (كينسنغتون) ثم تابع قائلاً : " لم نربح هذه المعركة بعد بأي طريقة من الطرق " ثم أغلق المذكرة بحركة مفاجئة ، وتمنى لي حظاً سعيــداً .

بعد ان تناولت طعام الغذاء عاودت طريقي عبر الطابق الخامس لاجراء مقابلة روتينية مع مدير دائـــرة المـــوظفين (جون ماريوت) . كان (ماريوت) يعمل خلال الحرب سكرتيراً للجنة الصليب المزدوج ، وهي الجهاز الذي كان وراء النجاح الباهر لشعبة (م آي ٥) خلال الحرب ، وذلك من خلال تجنيد عشرات من العملاء المزدوجين داخل الاستخبارات النازية . وبعد انتهاء الحرب عمل لدى جهاز استخبارات الأمن لشؤون الشرق الاوسط ، قبل ان يعود الى (ليكونفيلد هاوس) . وقد كان بيروقراطياً موثوقاً به .

قال لي وهو يصافحني على طريقة الماسونيين وبشكل مميز : " اريد ان أتحدث معك ، انها بعض التفاصيل الشخصية ، وشيء من هذا القبيل " وهنا ادركت لماذا كان والدي – وكان ايضا

ماســـونيا – ميالاً لأنضم الى الأخوة حينما بحثت معه أولاً موضوع العمل لدى (م آي ٥) بشكل كامل (متفرغ) ، ثم أضاف : " نريد ان نتأكد من انك لست شيوعياً ، انك تفهم ذلك " . قال هذه الجملة وكأنه من المستحيل ان يكون هناك مثل هذا الأمر في أوساط (م آي ٥) . ولقد كنت أدرك تماماً في الاسابيع الأخيرة التي سبقت اللقاء الأخير مع (كمنغ) ان هناك رجل بوليس متقاعد يعمل لدى سكرتارية المدير العام قد أجرى استعلاماً شخصياً عني في شركة (ماركوني) . وبمعزل عن هذه المقابلة ، لم أكن عرضة لأي تحقيق أو استقصاء آخر . وبالفعل ، وعلى الرغم من أن هذه الفترة كانت هـــي الفتـــرة التي اعلنت فيهـــا (م آي ٥) عن برامـــج التدقيق والاستقصاء الصارمة من خلال (الوايت هول) فانه لم يتم وضع أي برنامج نظامي داخل (م آي ٥) حول هذا الموضوع الاّ في منتصف سنوات الستينات .

لم يكن على طاولة مكتب (ماريوت) اي شيء ، ولذلك افترضت انه سيتم تسجيل المقابلة على شريط لوضعها في ملف الخدمة الخاص بي . وأعطى (ماريوت) للجلسة صفة الجدية الكافية رغم انه لم يسألني الاّ بضعة أسئلة :

– " أعتقد انك كنت عضواً بارزاً في الجناح اليساري حينما كنت شاباً ؟ "

– " بشكل معتدل ، فقد كنت أدرس في جمعية العمال الثقافية في الثلاثينات "

– " ألم تكن جمعية شيوعية الى حد ما ؟ "

– " ليس في كورنوول "

– " وهل قمت بالتصويت لصالح حزب العمال عام ١٩٤٥ ؟ "

– " اعتقد ان الجميع فعل ذلك "

– " وأظن انك من المعتدلين البارزين الآن ؟ "

وأخبرته أنني أمقت النازية والشيوعية ، وبدا عليه السرور من الحديث المطول الذي أدليت به . ثم انتقلنا الى الحديث عن حياتي الشخصية ، حيث دار حول الموضوع ، حتى سألني في النهاية :

– " هل كنت شاذا بشكل ما ؟ "

– " أبداً ، لم اكن كذلك في حياتي " وكان يتفحص تعابير وجهي عن قرب ، ثم تابع :

– " هل طلب منك أحد ما القيام بعمل سري ؟ "

– " أنتم فقط "

حـــاول أن يضحك ، ولكن كان من الواضح انه قد سمع هذه الجملة آلاف المرات من قبل . ثم فتح درج مكتبـــه ، وأعطانـــي ورقـــة نمـــوذج لتعبئة التفاصيل المتعلقة بأقربائي . هكذا كان الاستعـــلام والاستقصـــاء عنـــي . ولذلك لا عجب اذا كان الأمر سهلاً بالنسبة لكل مـــن (فيلبي)

و (بيرغس) و (ماكلين) و (بلنت) .

قبل انضمامي رسميا الى القسم (أ ٢) كضابط عالم ، قضيت مدة يومين في التدريب الى جانب ضابط شاب انضم الى (م آي ٥) قادماً من الجامعة . اما برنامج التدريب فقد كان من مسؤولية ضابط جلـف عديم الاحساس اسمه (جون كوكني) . ومضينا في التدريب على أحسن ما يرام . ان (كوكني) قد يبدو جلفاً بشكل واضح ، غير انني تيقنت فيما بعد أن هذا يعود الى تعبه من كثـرة مقارعـة مجنـدي (م آي ٥) مـن الشباب ضعفاء المقدرة العقلية عموماً . وبذلك يمكـن القـول ان (كوكني) كان يختلف عن مستوى ضبـاط (م آي ٥) الآخرين ، خاصة وانه كان يرفض الاستسلام والركون الى رتابة العمل مفضلاً الأساليب الجريئة . اضافة الى ذلك ، فقد كان سيد نفسه ، وله آفاقه الواسعة خارج حدود مكتبه . ولهذا ، فانه لم يكن من المفاجيء لي – حينما ترك العمل مع (م آي ٥) للبحث عن حياة ناجحة في مجال العمل الحر – انه عمل أولاً مع شركة فكتوريا للاستثمارات ، ثم مع شركة (وكالة كراون لاند ايجنتس) وكرئيس لسلطة ميناء لندن . واليوم ، فان (السير جون كوكني) هو رئيس شركة (ويستلاند هليكوبترز) .

بدأ (كوكني) تدريباته لنا بمحاضرة روتينية عن الوضع القانوني لشعبة (م آي ٥) وقد أخبرنا بشكل قاس : " ان هذه الشعبة ليس لها وضع قانوني لأن الاجهزة الامنية لا تستطيع الحصول على وضع طبيعي مثلما هو الأمر مع (الوايت هول) لانها (م آي ٥) تقوم في اغلب الاوقات بأعمال يتم فيها انتهاك الحشمة او القانون " .

وقد حدثنا عن حالات مختلفة مثل الدخول الى المباني دون إذن ، أو انتهاك حرمة خصوصيات الناس ، وقد تنشأ المشكلة هنا . وأوضح لنا أيضاً ان (م آي ٥).تعمل على أساس الوصية الحادية عشرة القائلة " لا تمسك بجرم " في ضوء فهم حقيقة ان الجهاز لا يمكنه الاّ ان يقوم بالقليل لحماية أعضائه . كما حدثنا عن كيفية الارتباط مع الشرطة ، فهم على استعداد لمساعدة (م آي ٥) في حال حدوث خطأ ما ، وخاصة عندما يتم الاقتراب من الشخص المطلوب ، وكل هذا يتم على الرغم من وجود توترات واضحة بين الجهازيـن : " يود الفرع الخاص ان يكون مكاننا ، ونحن لا نرغب ان نكون مكانهم " .

ثم قام (كوكني) باعطائنا كتاب التعليمات الداخلية لشعبة (م آي ٥) وشرح لنا عن كيفية تنظيم الشعبة . فقد كانت هناك ست مديريات : الفرع (أ) وهو المسؤول عن المصادر ، والفرع (ب) وهو دائرة شؤون الموظفين ، والفرع (ج) وهو المسؤول عن الأمن الوقائي والاستقصاء في كافة الاجهزة الحكومية ، والفرع (د) وهو المتخصص في شؤون التجسس المضاد ، والفرع (هـ) المسؤول عن الاستخبارات البريطانية المتواجدة في كافة انحاء المستعمرات البريطانية ، والمسؤول كذلك عن القيام

بتنظيم أعمال التمرد المضاد في الملايا وكينيا ، وأخيراً ، هناك الفرع (و) وهو امبراطورية المراقبة المحلية المسؤولة عن المراقبة المكثفة للحزب الشيوعي في بريطانيا وخاصة فيما يتعلق بارتباطاته واتصالاته داخل الحركة العمالية .

وتحدث (كوكني) ايضا قليلاً عن الجهاز الشقيق (م آي ٦) أو خدمات الاستخبارات السرية كما هي معروفة في (الوايت هول) حيث زودنا بدليل عن ادارة (م آي ٦) وتحدث بايجاز عن بعض الدوائر التي لها ارتباطها المنتظم بشعبة (م آي ٦) من الناحية العملية مثل قسم مكافحة التجسس في (م آي ٦) وقسم الأبحاث الذي يعنى بالقضايا الشيوعية . وقد تمت تصفية أعمال هذا القسم بعد فترة قصيرة من التحاقي بـ (م آي ٥) . وقد كان (كوكني) يتعمد الغموض في حديثه لنا ، وكان الوقت قد أصبح متأخراً – في ذلك الوقت بدأت أقيم علاقات مع فنيي (م آي ٦) – عندما تأكد لي ان هناك كراهية عميقة تقوم بين الجهازين .

اثر انتهاء التدريب الذي استمر لمدة يومين ، تم تصويرنا ، واصدار تصاريح الدخول الى مبنى (م آي ٥) وقام (كوكني) بعدها بتعريفنا على شرطي متقاعد من الفرع الخاص يعمل في الفرع (ج) ، والذي حاضر فينا عن أمن الوثائق ، حيث أخبرنا انه لا يجوز مطلقا اخراج الوثائق من المكتب ، وان علينا التأكد دائماً من ان طاولات مكاتبنا خالية من أي اوراق ، وضرورة اغلاق أبواب غرف المكاتب عند خروجنا ، ولو كان أمر بقائنا في الخارج لمدة عشر دقائق . كذلك تم اصدار رقم للخزنة الحديدية الخاصة بي ، وقيل لي ان نسخة أخرى من هذا الرقم موجودة في خزنة المدير العام ، وذلك حتى تتمكن الادارة من الحصول على أي ملف في أي وقت سواء كان في النهار أو في الليل من خزنة أي ضابط . وقد أدركت حساسية هذه الأمور ، وإن كنت لم أستطع الاّ أن اقارنها بعمليات الاستقصاء غير الكافية التي كانت تتم .

بعد انقضاء الاسبوع الاول قادني (كوكني) الى غرفة مكتب كانت خالية الاّ من جهاز تسجيل كان موضوعاً على طاولة المكتب ، وتناول من خزانة كانت موجودة في الغرفة مجموعة من أشرطة التسجيل الكبيرة ، وقال لي : " الآن يمكنك التقاطها من فم الحصان " وكان موضوع المادة المسجلة على الاشرطة مطبوعاً على البكرة ، وهو " موجز تاريخ جهاز الامن البريطاني " الذي كتبه (غاي ليدل) المدير العام للجهاز بين عامي ١٩٤٦ – ١٩٥١ ، والذي كان عنصراً نشيطاً في قصة (م آي ٥) . فقد التحق بالجهاز عام ١٩٢٧ قادماً من الفرع الخاص ، حيث كان يقوم في أغلب الاوقات – وبشكل فردي – بالاشراف على برنامج التجسس المضادالموجه ضد الاتحاد السوفييتي، وبعدها اصبح مشرفاً على عمليات التجسس المضاد في (م آي ٥) طول فترة الحرب بحماسة وتصميم ، كما كان المرشح البارز لمنصب المدير العام للجهاز سنة ١٩٤٦ . غير أن (اتلي) قام

بتعيين رجل البوليس (السير بيرسي سيليتوي) بدلاً من (ليدل) وقد كان هذا الاجراء بلا شك بمثابـــة ازدراء لجهاز (م آي ٥) والذي يُشتبه بأنه (الجهاز) كان وراء رسالة (زينوفييف) عام ١٩٢٩ . وقد خدم (ليدل) تحت قيادة (سيليتوي) حيث تحمل قسوة الأخير بشق النفس ، وذلك فقط ليصطـــــدم بفضيحـــــة (بيرغس / ماكلين) عام ١٩٥١ . فقد كان صديق (بيرغس) لسنوات طويلة ، وحينما هـــرب هـــذا استمـــر (ليدل) في التطلع نحو القمة ، غير انه سرعان ما نقل بعد ذلك – كسير القلب – الى هيئة الطاقة الذرية .

وبعناية فائقة أدرت الشريط ، ووضعت السماعات على أذنيّ ، وبدأ صوت ناعم مهذب رواية جزء مـــن التاريـــخ الســـري لبـــريطانيا . فقـــد تـــم تشكيل جهاز (م آي ٥) عام ١٩٠٩ على يد (الكابتن فيرنون كيل) وذلك حينما تأكد لوزارة الحربية أخيراً ان الصراع الاوروبي وشيك الوقوع يتطلب على الاقل وجود القليل من عمليات التجسس المضاد . وسرعان ما أثبتت (م آي ٥) مدى فائدتها من خلال احاطتها بالجواسيس الالمان كافة الذين كانوا يعملون في بريطانيا بعد وقت قصير من اندلاع الحرب . وقد تحدث (ليدل) بحرارة و ود عن (كيل) الذي كان يحس انه هيبة المؤسسة منذ بداياتها المشؤومة ومن خلال قوة شخصيته . وقد كانت الميزانية المرصودة لشعبة (م آي ٥) محدودة بشكل صارم وذلك خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الاولى ، وكانت (م آي ٦) تسعى بشكل نشـــط لابتـــلاع الجهة المنافسة لها ، غير ان (كيل) ناضل بحذر ودهاء للحفاظ على السيطرة على (م آي ٥) وتوسيع مدى نفوذها بشكل تدريجي .

اما ذروة هيبة (م آي ٥) خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى فقد كانت من خلال نجاح (غارة آركوس) عام ١٩٢٧ . فقد تم شن عملية مداهمة للمكاتب الواقعة في ٤٩ شارع (مورغات) حيث مقر الوفد التجاري السوفييتي ، ومقر الجمعية التعاونية الروسية المحدودة . وقد تمت عملية المداهمة من قبل قوات البوليس بناء على تعليمات من (م آي ٥) و اسفرت تلك العملية عن اكتشاف حجـم هائل مـــن النشاط التجســـسي . وقد اثبتت عملية المداهمة صدق الاعتقاد السائد في اوساط (م آي ٥) ان الدولة السوفييتية التي أسست حديثاً هي العدو الرئيسي ، وان من الواجب استخدام كافة الوسائل الممكنة لمحاربتها . وقد تعززت هذه النظرة اكثر من خلال سلسلة تالية من عمليات التجسس وقعت خلال سنـــوات الثلاثينات ، وبلغت أوجهـــا في المحاولة السوفييتية التي وقعت عام ١٩٣٨ لاختراق ترسانة (ووليـــش) عـــن طـــريق استخـــدام مهنـــدس شيوعي كان يعمل هناك منذ فترة طويلة ، يدعى (بيرسي غلادينغ) اذ استطاع رجل التعقيب المشهور (ماكسويل نايت) زرع امرأة عميلة تمكنت من افشاء سر المؤامرة .

مع حلول عام ١٩٣٩ كان (كيل) قد بدأ يفقد ما كان قد امتاز به ، سيما وأنه أصبح متقدماً

في السن ، وقدم (ليدل) تبريرات جمة فيما يتعلق بفشل (م آي ٥) في الاستعداد للحرب العالمية الثانية . وحينما أصبح (تشرشل) رئيساً للوزراء وطد العزم على ان يهز (الوايت هول) حتى الاستسلام ، وكـان ذلك قبل رحيل (كيل) بوقت قصير . وعلى الرغم من أن (ليدل) قد فجع بخسارة (كيل) الاّ انه من ناحية ثانية رحب بحماسة بالمدير العام الجديد (السير ديفيد بيتربيه) الذي اشرف على عملية تجنيد المفكرين الموهوبين الذين تدفقوا بشكل واسع . وتحت اشرافه ايضاً (وتحت اشراف ليدل ، مع أن هذا لم يُعلن) تم تشكيل لجنة الصليب المزدوج التي حظيت بشهرة واسعة . فقد كان أمام كل جاسوس ألماني خياران : اما ان يتم أسره في بريطانيا ، او أن يعمل على امداد القيادة العليا الالمانية بالمعلومات المضللة . وقد كانت هذه العملية نجاحاً باهراً ، وعنصراً أساسياً في تضليل الالمان حول مواقع الانزال الخاصة باليوم د . اما (ليدل) فقد كان له رأيه حول (م آي ٥) إبّان الحرب ، حيث وصفها بأنها " أروع رابط للعقول المتنافرة في تاريخ الاستخبارات " .

غير أن رواية (ليدل) تنتهي عند مرور فترة قصيرة على نهاية الحرب . وللحقيقة ، فان ما رواه في محاضرته المسجلة على الشريط هو تاريخ لا قيمة كبيرة له . صحيح انه روى على نحو دقيق الحادثة تلو الحادثة ، والقضية تلو القضية ، الاّ ان موضوع النجاح المستمر لشعبة (م آي ٥) كان مضللاً خاصة وانه يعرف تماماً الثغرات التي كانت سائدة في فترة ما بعد الحرب ، والتي تمتد جذورها في الـواقع الـى سنـوات الثلاثينات . ولم تكن هناك أي اشارة الى (بيرغس) و (ماكلين) أو ماذا يعنـي هذان الرجلان ، اضافة الى انه لا اشارة ايضاً حتى الى برنامج التحديث الواسع الذي كان هو (ليدل) و (ديك وايت) على دراية بانه قد أصبح قديماً مع حلول نهاية سنوات الاربعينات .

وبشكل أو بآخر ، فان (ليدل) كان شخصية مأساوية . لقد كان انساناً موهوباً ويحظى بشعبية بين أوساط الجهاز دائماً ، بل كان باستطاعته ان يزعم – وعن حق – انه المهندس الرئيسي للبراعة التي عرفت بها الاستخبارات خلال فترة الحرب ، ومع ذلك ، فان صداقاته (العشوائية) قد أفسدت هـذا . وحينمـا كنت أستمع الى الشريط ، كان يخيل لي وكأنه يتحدث مع نفسه داخل غرفة مظلمة ، باحثاً في التاريخ لايجاد مبررات لحقبة معوّقة .

واستمعت أيضاً الى محاضرة حول الاستخبارات الروسية ألقاها (ديك وايت) . وقد كان من الواضح أنها سجلت خلال إحدى الندوات التي عقدت عقب مجيء عدد من الضباط الجدد وقد تأكد لي هذا من خلال سماعي ضحك الجمهور على النكات التي كان يطلقها . وقد كان اسلوب (وايت) خلال القائه محاضراته مؤثراً اكثر مما هو الامر عليه في (اوكسبردج) فقد كانت له لمسة خفيفة مدهشة ، و يتبّل حديثه بالتوريات (التلاعب بالالفاظ) و بالحكم والاشارات والاقتباسات من الادب الروسي . اضافة الـى ذلك ، فقـد كـان مؤهلاً للتعامـل في القضايا السوفييتية ، سيما وانه كان مديراً للقسم

ب (المتخصص في عمليات التجسس المضاد سابقاً) قبل ان يصبح المدير العام .

تكلم (وايت) بشكل مفعم بالحيوية عن استحواذ فكرة السرية على الروس وكيف أن جهاز الاستخبارات السوفييتية (ك ج ب) الحديث له جذوره في البوليس السري القيصري . وقد كان مدركاً خلال تحليلاته لحقيقة الاهمية التاريخية لجهاز ال (ك ج ب) بالنسبة للحزب البلشفي ، خاصة وان الاستخبارات الروسية كانت تضمن سيطرة الحزب على بلد واسع الارجاء ، وتشيع فيه روح العداء . وتكلم أيضاً عن السبب الذي يقف وراء كون جهازي الاستخبارات : البريطانية والروسية هما العدوين الأساسيين لبعضهما في لعبة الجواسيـــس ، وبشكل لا يمكن تجنبه ، فالسرية والاستخبارات لهما جذورهما العميقة في تاريخ هذين الجهازين ، اضافة الى انهما – كما يعتقد – يشتركان في ميزتي الحذر والصبر اللتين تعكسان شخصيتيهما القومية . وكان يقارن بين هذين الجهازين – محاولاً تسلية مستمعيه – وبين النشاطات الحماسية والمتسرعة لدى " أبناء عمنا الامريكيين" .

غير ان (ديك وايت) ورغم هذا التأنق في اسلوبه عند القاء محاضرته ، كان رجلاً ارثوذكسياً اصوليا، اذ كان يؤمن بالفكرة الحديثة القائلة " باحتواء " الاتحاد السوفييتي وان هناك دوراً حيوياً يجـــب على (م آي ٥) ان تقوم به من أجل تحييد مصادر القوة السوفييتية الموجودة في المملكة المتحدة . وقد تحدث باسهاب عن الدوافع التي تحرض الشيوعي ، واشار الى مجموعة من الوثائق تم العثور عليها أثناء عملية (آركوس) والتي أظهرت مدى جدية وخطورة الدور الذي لعبته الاستخبارات الروسية في عملية الاطاحة بالحكومة . وقد اعتمد الى حد كبير على مبادرات التحقيق والاستقصاء الجديدة التي تتم في (الوايت الهول) وعلى افضل الوسائل الكفيلة بسحق اختراق الاستخبارات الروسية للحكومة .

لقد كان يعتقد ان جهاز (م آي ٥) هو في منتصف عملية الاصلاحات الكبيرة ، والتي يعتقد انها كانت تحت اشرافه ، وكان الانطباع الواضح الذي قدمه هو اعتزازه الشديد بجهاز الاستخبارات . وظل هذا الاحساس يلازمه بقوة على امتداد سنوات عمله بل وحتى بعد أن ترك (م آي ٥) لينضم الى (م آي ٦) . وقد كان قبل كل شيء لاعباً في فريق وكان يؤمن كثيراً بالحفاظ على معنويات المؤسسات التي يديرها ، الأمر الذي جعل منه رجلاً يحظى بشعبية ، ويتمتع بسمة الانسانية مما يشجع على العمل معه ، بالرغم من انه كان شخصية زاهدة منعزلة الى حدّ ما .

مع اقتراب نهاية فترة التدريب ، بدأت أتجول في المبنى ، وغالباً ما كان يرافقني (كوكني) أو (وينتربورن) . كان المكان كله مكتظاً بشكل يثير الضحك ، اذ كان كل اربعة من الضباط محشوين في غرفة واحدة ، في حين انني استمتّعت برفاهية كوني اجلس في مكتب خاص بي – يشبه خزانة المكانس – بجوار مكتب (هيو وينتربورن) في الطابق الخامس . ومشكلة المكان هذه هي ميراث الكره الطويل

المتبادل بين (م آي ٥) و (م آي ٦) . فمع نهاية الحرب ، كان قد تم وضع المخططات اللازمة لانشـــــاء مقـــــر مشترك للاستخبارات يضـــم الجهازين معــاً ، وتم بالفعل الحصول على مكان في (هورس فيري رود) لاقامة المباني عليه . غير ان فريق العمل التابع للجهازين بقي لعدة سنوات في حالة خلاف ومشاحنات فيما بينه حول التقسيم الدقيق لمكان المكاتب ، اذ أن (م آي ٥) كانت متذمرة بشدة لكونها لا تستطيع ان تثق في (م آي ٦) بسبب قضية (كيم فيبلي) . وهكذا استمر الوضع دون ايجـــاد حل له ، حتى تم طرد (م آي ٦) أخيراً عبر نهر (التايمز) لتستقر في مبناها الخاص بها في (سنتشوري هاوس) وكان ذلك خلال سنوات الستينات .

وإلى حدّ ما ، فان عدم اتخاذ قرار بخصوص اماكن المكاتب كان مؤشراً على ضعف في التفكير الواضح في (الوايت هول) حول الأدوار المتعلقة بكل مَن (م آي ٥) و (م آي ٦) .

ولم يتغير الأمر الاّ خلال سنوات السبعينات حينما تمكنت (م آي ٥) أخيراً من اقناع وزارة المالية لتمويل عملية الانتقال الى مقر دائم يبنى لها في منطقة (كرزون هاوس) . وحتى تلك الفترة كانت معالجة هذه القضية المستمرة تتم عن طريق استئجار مبان بعقــــــــود قصيرة الأجل . فقد كان في البداية شارع (كورك) حيث أقامت فيه خلال سنوات الخمسينات الامبراطورية المتناميـــــة (للفرع ج) . و خلال سنوات الستينات كانت عمليات التجسس المضاد تتم من مكتب في بناية تقع في شارع (مارلبورو) حيث كان علينا ان نسير في طريقنا عبر صناديق الفرجة على الدعارة ، وأكشاك الـــورد ، والخضار العفنة ، الموجودة جميعها في سوق (سوهو) وذلك للوصول الى ملفاتنا السرية جداً . ربما كان ذلك الأمر مناسباً ، غير انه كان صعباً من الناحية العملية .

خلال سنوات الخمسينات ، كانت (م آي ٥) تبدو وكأنها مغطاة بغشاوة كثيفة من الغبار ، ومنذ سنوات الحرب . وكان الجهاز بمجمله يبدو وكأنه يشبه بطلة (ديكنز : مس هافيشام) . فقد توددت النخبة المثقفة خلال الحرب الى هذا الجهاز ، غير انها سرعان ما نبذته عام ١٩٤٥ ، حيث انها اتجهت صوب العالم الخارجي بحثاً عن مهن جديدة تاركين (م آي ٥) واقعة في شرك الغرف المظلمة ، وحيدة مع ذكريات ما قد كان ، وبدون اي اتصال مع (الوايت هول) الاّ فيما ندر .

وقد ذكرني ذلك الجو بمدرسة عامة صغيرة ، حيث كان المدراء يعاملون بمزيج من التبجيل والتملق الذليل الذي يكنه الطلاب لمدرسيهم ورؤساء الاقسام . لكن المدير العام ونائبه كانا الشخصين الوحيدين اللذين يخاطبان بكلمة " سيدي " في حين ان الآخرين ينادون بأسمائهم الاولى عادة . وضمن أجواء (م آي ٥) نمت شخصيات متهورة ودخيلة من رجال ونساء اجتذبتهم اللعبة الكبيرة في الاستخبارات ، وكانت نتيجة ذلك أن لمع نجمهم على تفاهات هذه اللعبة كلها ، واستطاعوا ان يكتبوا لانفسهم سيرة حياة ، لا يزال سحرها يسطع .

امـــا مـــن حيث المظهـــر الخارجي ، فان الحياة كانت مزيجاً من الطرافة والقدم . وفي كل سنة ، كان يتم اغلاق المكتب من أجـــل حضور مباراة اختبار اللورد حيث ان (م آي ٥) كان لديها حصة غيـــر رسمية في حانة اللورد . وكل صباح ، كان الضباط من ذوي الرتب العالية – وبدون استثناء غالباً – يمضون اول نصف ساعة في حل شبكة الكلمات المتقاطعة في صحيفة التايمز . اما الهواتف التي لم تكن لتتوقف عن الرنين – والتي تهمهم عادة بالأسرار التي هي غاية في السرية في العالم الغربي – فقد كانت تنقل سلسلة من الامور الغريبة ، واسئلة مشفرة من مكتب الى آخر :

" ان كفلي تؤلمني " وهذا يعني " لا أستطيع معرفة بداية أو نهاية الكلمة الافقية السابعة الواقعة في الزاوية اليسرى السفلى " أو " الجهة اليمنى من صدري شاغرة " وتعني " بحق الجحيم ، ما هو الرقم ١٢ افقي عند منتصف الخط " . أما (كورتني يونغ) الذي كان مسؤولاً عن القسم (د ا) المتخصص في التجسس المضاد السوفييتي خلال سنوات الخمسينات فقد كان ملك الكلمات المتقاطعة في جهاز الأمن وبدون منازع . فقد كان يدعي دائماً ان حل الكلمات المتقاطعة بواسطة القلم أمر سهل جداً ، غير انه كان يزعم انه يمكنه حلها في رأسه عوضاً عن القلم . وعلى مدار سنة كاملة كنت أراقبه وهو يفعل ذلك ، لكنني في النهاية لم أستطع مقاومة تقليده ، فأعلنت عن التحدي ، وعندها عمد فوراً الـــى كتابة كـــل جواب دون تردد . وهكذا ، كان عليّ ان أدفع كل ليلة ولمدة اسبوع نفقات المشروب لـ (كِورتني) الجذل في حانة عامة .

اما مركز العصب في (م آي ٥) فقد كان قسم السجلات ، الواقع على امتداد الطابق الارضي في (ليكونفيلد هاوس) . وكان هذا القسم قد نقل الى مبنى سجن (وورموود سكربس) خلال الحرب العالمية الثانية وذلك من أجل حماية الملفات في حال تعرض المركز في (لندن) للقصف . لكن تلك الخطوة لم تكن خطوة موفقة ، إذ أن السجن تعرض لعملية قصف خلال تلك السنة ، وكانت نتيجة ذلك تلف وتدمير العديد من الملفات بسبب النار . اما الملفات التي أمكن انقاذها فقد تم حفظها في اكياس البوليثين المضادة للرطوبة . وخلال سنوات الستينات ، وحينما بدأنا دراسة تاريخ عمليات التجنيد التي تمت خلال سنوات الثلاثينات ، كنت ألجأ دائماً الى فحص ودراسة ملفات ما قبل الحرب وقد كانت تلك العملية صعبة ، إذ كان عليّ ان أفصل الأجزاء المتفحمة من الصفحات بواسطة الملاقط الصغيرة والسكاكين الخشبية .

بعد كارثة (وورموود سكربس) بدأت (م آي ٥) تفكر بجدية في التخطيط لايجاد قسم سجلات فعّال ، فقام البريغادير (هـاركر) الذي كان نائبا للسير (ديفيد بيتريه) خلال الحرب اضافة لكونه (هاركر) اداريا مثاليـــا بتجنيد (هارولد بوتر) من أجل اعادة تنظيم قسم السجلات . وقد كان اختيار (بوتر) موفقاً ، خاصة وان له عقلية منهجية بارعة ، ورغبة في فرض النظام حتى خلال اوقات

الفوضى أيام الحرب .

مع حلول عام ١٩٥٥ كان (بوتر) قد اقترب من نهاية الخدمة ، غير انه كان سعيداً جداً لأن يصطحبني في جولة ليريني انجـــازه . كان قسم السجلات يتوضع في قاعة رئيسية تتضمن فهرس الملفـــات الـــرئيسي ، وكذلك الملفات نفسها . اما الغرف الأخرى التي كانت تفضي الى الممر الرئيسي ، فقد كانت تحتوي على بطاقات فهارس متخصصة . وكان يتم تصوير نسخ أخرى من كافة الملفات والفهارس على جهاز الميكروفيلم بشكل روتيني ، وحفظها في مخازن خاصة ومحمية تابعة لجهـــاز (م آي ٥) فـــي منطقـــة (شلتنهـــام) وذلك لتجنـــب وقوع كارثة أخرى مثل كارثة (وورموود سكربس) . أما مكتب (بوتر) الذي كان يشغل إحدى الزوايا في قسم السجلات فقد كان مثالاً على البراعة في اختيار الموقع .

قال لي ذات مرة : " تأكد من انك ستعيد الملفات سريعاً ، أليس كذلك يا (بيتر) ؟ انني لا أرغب في مطاردتك مثلما أفعل مع بعض هؤلاء اللوطيين " . لقد كان يشبه بتصرفه ذلك أمين مكتبة في قـــرية صغيـــرة . ومسكين (بوتر) فقد أصبحت من أسوأ الاشخاص الذين يستخدمون قسم السجلات ، حيث كنت أحتفظ بعدد من الملفات عندي في وقت واحد ، ولكنني – كما أعتقد – لم أكن أسوأ مـــن (ميليسنت باغوت) العجوز العانس ، والتي كانت اسطورة في (الفرع ف) اذ أصرت على ابقاء المراقبة الشديدة على الحزب الشيوعي العالمي لعشرات من السنين . وكنت أفترض دائماً أنها نموذج لشخصية (كوني) الموجودة في أعمال الروائي (جون لوكاريه) . كان بها أثر علة غير انها تتمتع بذاكرة عجيبة فيما يتعلق بالوقائع والملفات ، حتى ان (بوتر) وخلفاءه في قسم السجلات قد أصابهم اليأس مـــنها ، لدرجة ان (بوتر) قال لنفسه ذات مرة بعد أن تكرر طلب (الفرع ف) لبعض الملفات : " آمل ان استرجع السجلات حينما تتقاعد هي فقط " .

لقد كان قسم السجلات يسحرني دائماً ، ومجرد وجودي هناك كان يملأني بحدس وشعور لا يقاوم انه بين هذه الكتل من الاوراق هناك مجموعة من المحاولات الساخنة بانتظار من يتابعها . وقد شرح لي (بوتر) عن النظام الصحيح والمتبع للتوقيع على استلام وتسليم الملف من أجل بيان انه تم استلامه واجراء اللازم عليه . ومما يذكر ، انه كان قد أوجد نظاماً للتصنيف بحيث تتم قراءة كل مصنف بشكل تاريخي متسلسل ، مع وجود أوراق وملحقات على الجهة اليمنى منه ، وفهرس ومذكرات على الجهة اليسرى ، وذلك بغرض تسهيل عملية الوصول الى المطلوب بسرعة .

ان هذا النظام كله كان يعتمد على التصنيف الدقيق والصارم ، فاذا أراد ضابط ما أن يضيف جديداً الى أحد الملفات ، كان عليه الحصول على موافقة واحد من موظفي (بوتر) وفي أغلب الاحوال ترفض طلبات اضافة معلومات الى الملفات كونها أمور عامة جداً . وحينما كان أحد من الضباط يرغب

بالحصول على ملف ما ، كان عليه ان يملأ نموذج طلب ، حيث يتم تسجيل هذه الطلبات ، فاذا ما تكرر طلب ملف ما اكثر من مرة ، فانه يتم فتح ملف للشخص بشكل تلقائي . وقد كانت هناك ثلاثة تصنيفات رئيسية في قسم السجلات ، حيث كان التصنيف الأول للسجلات الشخصية ذات اللون البرتقالي والمرتبة حسب نظام الحروف الأبجدية ، وكان عددها حينما التحقت بالجهاز عام ١٩٥٥ حوالي مليوني ملف شخصي . وقد بقي هذا الرقم على ما هو عليه ، ثم أخذ بالارتفاع بشكل حاد في نهاية سنوات الستينات ومطلع سنوات السبعينات وذلك مع بداية الاشتباكات المسلحة مع الطلاب والعمال . اما التصنيـــف الثاني فهو حسب مواضيع الملفات أو ملفات التنظيمات مثل ملف الحزب الشيوعي البريطاني . وهذه النوعية من الملفات تكوّن أحياناً عبارة عن عدد من المجلدات ، وتتم الاشارة فيها الى الملفات الشخصيـــة . اما التصنيف الرئيسي الأخير فقد كان ملف القوائم ذا اللون الازرق كزرقة بيض البط ، ويتضمن هذا مجموعة من المواد التي تم جمعها من خلال قضية معينـــة ، والتـــي لا يمكن وضعهـــا بسهـــولـــة ضمـــن أي من التصنيفين السابقين . كمـــا كانت هناك صناديق معينة Y-Boxes ، وكانت هذه الصناديق بمثابة وسائل يمكن بواسطتها اقصاء الملفات ذات الحساسية الخاصة عن التداول العام . فعلى سبيل المثال ، ان كافة الجواسيس المشتبه بهم هم في الصندوق الخاص ، مثلهم في ذلك مثل غالبية الهاربين . ولا يستطيع اي ضابط الحصول على المادة من الصندوق Y الاّ بعد الحصول على تعليمات مـن الضابط المراقب أو من المدير العام نفسه في بعض الأحيان .

أخبرني (بوتر) أن " سلامة الملف هي أمر حيوي وهام " وحذرني من انه لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف انتزاع أي اوراق من الملف دون وجود موافقة خطية من ضابط برتبة عليا . ان قدسية الملفات هي شيء يتم طبعه في ذهن كل ضابط منذ بدء دخوله الخدمة .

كان يتم تحديد مكان الملفات بواسطة استخدام نظام بطاقات الفهارس ، غير ان (بوتر) ابتكر نظام بحث ميكانيكي لهذه الفهارس ، بحيث يتم تصنيف كل بطاقة بواسطة مجموعة من الثقوب المخرمة تحـدد هوية التصنيف التي ينتمي اليها الملف . ولنأخذ مثالاً على عملية البحث عن تصنيف بعض الملفات : فهناك ضابط يريد البحث عن ضابط استخبارات روسي يستخدم عدة أسماء مستعارة ، فما على الضابط ذاك الاّ ان يسحب البطاقة الرئيسية المطابقة لذلك التصنيف . كما تم استخدام القضبان الحديدية الطويلة بادخالها عبر الثقوب في البطاقة الرئيسية من أجل امكانية وضع أي بطاقات أخرى تتناســـب ونفـــس المجموعة ، وبذلك ، يتم البحث بعدها بواسطة اليد . لقد كان ذلك الأمر نظاماً قديماً ، غير انه كان يمكن العمل به ، وكان يعني ايضا ان (م آي ٥) قاومت التوجه نحو استخدام الكمبيوتر ولفترة طويلة قبل ان يتم استخدامه هناك .

كانت ممرات قسم السجلات مليئة وتغص دائماً بالعربات الصغيرة التي تعمل على نقل الملفات من رفوف قسم السجلات الى مصاعد خاصة ، حيث كانت هذه العربات تتحرك على قضبان معينة خاصـــــة بهـــا ، بحث يتم نقل الملفات بسرعة فائقة الى مكاتب الضباط الواقعة في الطوابق العليا (الفـــرع ف في الطابـــق الاول / الفرع هـ في الطابق الثاني / الفرع د في الطابق الثالث والرابع / الفرع أ في الطابق الخامس) . وكان قسم السجلات يستخدم عدداً كبيراً من الفتيات من أجـــل المساعـــدة في عملية ايصال الملفات داخل المبنى بشكل جيد ، اضافة الى عدد من المهام الأخرى ، مثل : التصنيف ، والتدقيق ، وتصنيف المواد الجديدة . وكان يتم تجنيد " ملكات قسم السجلات " كما كنّ يسمّين – أيام كيل – من الطبقة الارستقراطية او من عائلات ضباط (م آي ٥) لأن (كيل) كان يـــرى ان هـــذا الأمـــر هـــو افضل عملية استقصاء . وقد كانت هؤلاء الفتيات جميلات ، وموسرات ، الأمر الذي أدّى الى حدوث عدد كبير من عمليات الزواج داخل الجهاز ، حتى انه أصبح هناك ما يشبه النكتة ، وهو ان المعدل الوسطي المتوقع لخدمة أي من ملكات قسم السجلات هو تسعة شهور ، اذ يكون قد حان الوقت لتصبح في مرحلة الحمل .

ومع مطلع سنوات السبعينات أصبحت قضية التوظيف في قسم السجلات تشكل مشكلة كبرى لدى (م آي ٥) . فقد كان عدد الفتيات اللواتي كنّ يعملن يزيد على ثلاثمائة فتاة ، ومع ازدياد موجة جمع الملفات في ذلك الوقت ، كان الضغط لا يتوقف أبداً من أجل المزيد من عمليات التجنيد . غير انه كان من المستحيل الاعلان عن طلب مجندات . ومع هذا ، فان عملية تجنيد الفتيات قد أصبحت اكثر صعوبة ، لأنه ايضاً كان من الصعوبة بمكان الاستقصاء عنهن بدقة ، خاصة وانه في حالة واحدة على الاقل ، قام الحزب الشيوعي بترتيب اختراق لقسم السجلات عن طريق إحدى الفتيات ، غير انه سرعان ما تم اكتشافها ، وصرفها من الخدمة بصمت . وقد عملت هذه المشكلة اضافة الى عدم الاقتناع بنظام التصنيف القديم نفسه ، كل ذلك عمل على دفع (م آي ٥) في النهاية نحو القبول بادخال الكمبيوتر الى قسم السجلات ، وان كان ذلك الامر قد أتى متأخراً .

تحت قسم السجلات كانت هناك الزنازين . وهي في الواقع مجموعة من غرف التخزين والمشاغـــل ، والتـــي يشرف عليها (ليسلي جاغر) الذي كان يعمل تحت امرة (هيو وينتربورن) فـــي (أ ٢) كمـــا انـــه كان واحداً من رجال (كمنغ) المشهورين . و (جاغر) هذا يمتاز بضخامته ، وعرض كتفيه ، وهو سيرجنت ميجور سابق كان يخدم مع (كمنغ) في فرقة البنادق ، وكان يرتدي دائماً سترة حانوتي سوداء اللون .

كان (جاغر) هو الرجل الفني في جهاز (م آي ٥) للقيام بالأعمال الغريبة ، وكان لا بد له من أن يحس ببعض القلق تجاهي حينما التحقت بالعمل وإن كان لم يبد ذلك أبداً ، وسرعان ما أصبحنا

أصدقاء . كان هذا الرجل يمتلك مواهب استثنائية ، من أهمها : فتح الاقفال دون استخدام المفاتيح . وقد حضرت – في بداية تدريبي – واحدة من حصصه النظامية التي يشرف عليها لصالح (م آي ٥) و (م آي ٦) في ورشته المعدة لعملية فتح الاقفال . كانت الغرفة مليئة بالمفاتيح التي يصل عددها الى الآلاف ، وكانت مرقمة ومعلقة على شكل صفوف على كل الجدران . وقد أوضح (جاغر) ان (م آي ٥) ما إن تصنع أو تحصل على نسخ سرية مطبوعة من مفاتيح المكاتب والفنادق وحتى البيوت الخاصة بالناس ، حتى تسارع وبكل حذر وعناية الى ترقيم وفهرسة كل مفتاح من هذه المفاتيح . ومع مرور السنين أصبحت (م آي ٥) تتمتع بحرية الدخول بهذه الطريقة الى كافة مباني بريطانيا .

وحينما حدقت مندهشاً بمجموعة المفاتيح قال لي (جاغر) : " انك لا تعرف متى تحتاج الى استخدام المفتاح ثانية ..... ان أول قاعدة عليك ان تدركها عندما تريد دخول اي مبنى هي ان تقوم بفتح القفل كحل أخير .... ومن الطبيعي انه من المستحيل فتح أي قفل دون ترك آثار خدوش عليه ، الأمر الذي يعني بالتأكيد امكانية اكتشاف اللعبة من قبل أي ضابط استخبارات متدرب لأنه سيعرف عند ذلك ان المبنى قد تم الدخول اليه . وهكذا ، فان ما يجب عليك ان تفعله هو الحصول على المفتاح ، إمّا عن طريق قياس القفل ، أو الحصول على دمغة المفتاح (شكله) " .

وقد عرض (جاغر) كيفية مهاجمة انواع مختلفة من الاقفال . وقد كانت أقفال (بورما) تستخدم لخزنات الالماس ، والتي هي من أصعب انواع الاقفال ، حيث ان الأسنان تتحرك بشكل افقي داخل القفل مما يعني استحالة فتحها . اما أقفال (تشاب) من ناحية أخرى – والتي على الرغم من الاعلان عن انها غير قابلة للفتح – فقد كانت لعبة جميلة بالنسبة لـ (جاغر) وقد قال لي " هذا هو النوع الذي ستتعامل معه في أغلب الاوقات " ، ثم عرض علينا قفلاً من ماركة (يال) وشرح لنا ميكانيكية هذا القفل على اللوح ، وأوضح ان قفل (يال) يتألف من مجموعة من الأسنان تتوضع في أوضاع مختلفة داخل اسطوانة القفل . ان الاجزاء القاطعة من مفتاح (يال) تضغط على الأسنان لتدفعها الى الأعلى ومن ثم السماح للمفتاح بالدوران داخل الاسطوانة . وعرض علينا (جاغر) قطعة صغيرة من سلك معدني ، وقد ثبت في أحد طرفيه كلاّب (خطاف) ثم أدخل السلك في ثقب المفتاح وبدأ باختراق القفل بشكل ثابت وايقاعي ، وقال وقد بدا عليه التوتر ، غير انه ارتاح فيما بعد :

" يجب عليك ان تنفذ الى السن الأول حتى تخترقه ، وعندها تعرف انك أمسكت طرف الخيط " .

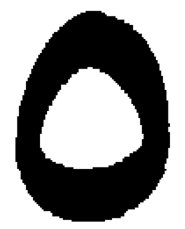
كانت يداه الكبيرتان تتحركان مثل يدي عازف الكمان وهو يمسك بالقوس وقد بدا عليه التوتر كلما ارتفع سن . ثم أدار قطعة السلك المعدني ، وانفتح قفل (يال) وهو يقول : " يجب عليك ان تستمر

بالضغط حتى ترفع الاسنان كلها ... ثم تصبح في الداخل .. انه درس ، أما ما تفعله في الداخل فهو عملك " . وضحكنا جميعاً .

وقـــد كان (ليسلي) دائم الغموض حول المصدر الذي تلقى منه الخبرة في عمليات فتح الأقفال ، ومــع هـــذا ، فقد بقيت لعدة سنوات أحمل قطعة من السلك المعدني ومطرقة صغيرة صنعهما لي .

قال لي وهـــو يعطيني هاتين الأداتين : " تأكد من انك تحمـــل معك بطاقتك الامنية " مشيراً الى أنني مـــن الناحية الفنية أخرق القانـــون وأنا ذاهب للسطو ، ومتجهـــز بالمعدات اللازمة ، ثم أردف " لا يمكـــن لأحـــد ان يصـــــدق اننا من الناس العاديين أو لصـــوص الحـــدائق ، أليس كذلك ؟ " .

وضحك من قلبه ، وقفل عائداً الى الزنازين .



بعد مرور ايام قليلة على الدرس الذي تلقيته حول فتح الاقفال ، شرعت في تنفيذ أول عملية .

قـــال لـــــي (هيو وينتربورن) : " ان قضيـــة الرجـــل الثالث بدأت بالظهور ثانية ... فجهاز (م آي ٦) يقوم باستجواب أحد ضباطه ، انه رجل يدعى (فيلبي) ويريدون منا أن نزودهم بالميكروفون " .

لقد التقيـــت (فيلبي) لفترة قصيرة خـلال زيارتي الاولى الى (ليكونفيلد هاوس) عام ١٩٤٩ . فقـــد كنت في مكتـــب (كمنغ) أبحث معـــه موضوع العمل مع (براندريت) حينما أطل برأسه عبر البـــاب ، غير انه اعتذر عن أزعاجه . قال لـــــه (كمنغ) بطريقته المعهودة : " لا ، ادخل يا (كيم) فهنا يوجد شخص يجب عليك التعرف اليه " .

وأوضح له (كمنغ) انه قد تم تعييني للتو كمستشار علمي من الخارج . ومد (كيم) يده فصافحني بحرارة . كان وجهه متغضناً ، وإن كان لا يزال يبدو شاباً .

قـــال (فيلبي) : " آه نعــــم .. انهـــا لجنـــة (براندريت) . ان الامريكيين متشوقون لذلك كما أعتقد " .

وسرعان ما انجذبت الى (ُفيلبي) فقد كان فاتناً ، أنيقاً ، كما كنا - أنا وهو - نشترك في نفس المرض : اللعثمة المزمنة . كان قد ُعيِّن لتوه مديراً لمحطة (م آي ٦) في (واشنطن) ، وكان يقوم بوداع اصدقائه في (م آي ٥) كما انه يستمع الى بعض التقارير منهم قبل سفره . وكان (فيلبي) قد تمكن من اقامة علاقات متينة مع (م آي ٥) خلال فترة الحرب ، اذ كان واحداً من فئة قليلة من ضباط

(م آي ٦) الذين ارتضوا تحمل مثل هذا العناء . في ذلك الوقت بدت زيارة (فيلبي) تلك جدية ، وهو ما عرف عنه دائماً ، غير ان السبب الحقيقي أصبح واضحاً ولكن في وقت متأخر . وقد حاول (فيلبي) ان يختبر رأيي في العلم ، فأوضحت له ان على جهاز الاستخبارات البدء في التعامل مع الروس بنفس الطريقة التي يتعامل بها العالِم مع القضية التي بين يديه ، فالظاهرة يجب ان تدرس بكافة الوسائل التجريبية ، ثم أضفت قائلاً : " كلما قمت بالتجربة اكثر ، كلما تعلمت اكثر حتى ولو كانت الامور تسير بشكل خاطيء " .

فسألني (فيلبي) : " ولكن ماذا عن الموارد ؟ " .

وقد حاولت ان أبرهن له ان الحرب أظهرت ان باستطاعة العلماء حل مشاكل الاستخبارات دون وجـــود حاجـــة ملحـــة لكميات كبيرة من الأجهزة الجديدة ، قد تكون هناك حاجة لبعض هذه الأجهزة بالطبع ، ولكن يجب ان يوجه الاهتمام اكثر نحو استخدام المواد الموجودة بطرق معدلة . وأردفت قائلاً :

" خذ على سبيل المثال البحث العملياتي " مشيراً بذلك الى أول برنامج أبحاث يتعلق بالحرب المضـــادة للغـــواصات في سلاح البحرية خلال الحرب ، وأضفت : " لقد أحدث ذلك العمل اختلافاً هائلاً ، غير اننا جميعاً – وأعني العلماء – كان علينا استخدام كافة المعدات التي كان يمتلكها سلاح البحرية بشكل فعّال " .

وقد بدا (فيلبي) متشائماً ، غير انه قال انه سيحمل افكاري هذه في عقله حينما يراجع افكار الامريكيين حـــول هـــذا الموضـــوع لـــدى وصوله الى (واشنطن) وتابع قائلاً : " سأراك حينما أعود ، وسأرى الى أى مدى وصلت " وابتسم بتهذيب ، ثم انصرف .

بعـــد مرور سنتـــين هـــرب كل من (بيرغس) و (ماكلين) وكان ذلك قبل وقت قصير من اعلان (كمنغ) للموضوع ، ومع حلول عام ١٩٥٤ استطعت الحصول من (كمنغ) و (وينتربورن) على بعض المعلومات التي جعلتني اكون على ثقة من ان (فيلبي) هو المشتبه به الاول على انه الرجل الثالث الذي قام بتحذير هؤلاء الرجلين . وفي عام ١٩٥٥ تم صرفه من الخدمة في (م اي ٦) التي كانت تعارض ذلك ، على الرغم من انه لم يعترف بشيء . وفي ٢٣ ايلول ١٩٥٥ – بعد مرور ثلاثة أسابيع على انضمامـي رسميـــاً الـــى م آي ٥ – تم الافراج أخيراً عن الكتاب الابيض المتعلق بقضية (بيرغس) و (ماكلين) والذي طال انتظاره ، فهاجمته الصحافة بشدة . وفي هذا الوقت كان اسم (فيلبي) قد أصبح معروفاً في شارع (فليتر) وكان من الواضح ايضاً ان المسألة بحاجة الى شيء من الوقت قبل ان يتم تداولها بين الاوساط العامة .

وفي شهر تشرين الاول وصلت معلومات الى كل من (م آي ٥) و (م آي ٦) تفيد أن قضية

الرجل الثالث ستتم مناقشتها في مجلس العموم البريطاني لدى عودته الى الانعقاد بعد العطلة ، وان وزير الخارجية سيدلي ببيان حول وضع (فيلبي) . وقد تم الايعاز الى (م آي ٦) لكتابة مراجعة للقضية ، ولاعادة استجواب (فيلبي) مرة ثانية . وطلب الى القسم (أ ٢) في جهاز (م آي ٥) ان يقدم التسهيلات اللازمة لتسجيل عملية الاستجواب .

ذهبت أنا و (وينتربورن) بواسطة سيارة تاكسي الى احد مقرات (م آي ٦) الامنية والواقع بالقــــرب مـــن ميدان (سلوين) حيث كان من المقرر ان يلتقي (فيلبي) هناك بالذين سيقومون بالتحقيق معه . كانت الغرفة التي اختارتها (م آي ٦) للتحقيق مع (فيلبي) فيها تكاد تكون خالية من الأثاث ، باستثناء صوفا وبعض الكراسي التي تحيط بطاولة صغيرة ، اضافة الى خوان قديم ، وقد وضع فوقه جهاز هاتف .

ولما كان من المهم الحصول على نوعية عالية من التسجيل قدر المستطاع ، فقد قررنا استخدام ميكروفون ب . ب . سي عالي الجودة . ان الحديث بواسطة ميكروفون هاتفي لا يكون جيداً جداً الاّ اذا كانت درجة الصوت عالية جداً . وهكذا قمنا برفع احد الالواح الموجودة على الارض بجانب الموقد حيث سيجلس (فيلبي) وأدخلنا الميكروفون تحته ، ثم عمدنا الى وضع اجهزة تكبير صوت لتقوية اشارة الميكروفون وبالتالي نقلها الى جهاز هاتف مزدوج ، ويقوم مكتب البريد من خلاله بترتيب عملية نقل الاشارة الى (ليكونفيلد هاوس) .

كان مركز النسخ والتسجيل مخبأ خلف باب لا توجد عليه أي يافطة عند نهاية الطرف الآخر من الممر عند مطعم ضباط (م آي ٥) ولم يكن يسمح الاّ لبعض الضباط بالاقتراب من ذلك المركز وبالقرب من الباب كان هناك جرس وشبك معدني . قدم (هيو وينتربورن) نفسه ، وفُتح القفل الاوتوماتيكي محدثاً صوتاً . مقابل باب المدخل مباشرة كان هناك باب آخر يفضي الى غرفة مربعة كبيرة ، تتم فيها كافة عمليات التسجيل من قبل موظفي مكتب البريد . عندما يتم تسجيل المادة المطلوبة ، يصبح بامكان مكتب البريد تسليمها الى مسجل (م آي ٥) غير انه لم يكن يسمح لموظفي (م آي ٥) القيام بمراقبة خطوط مكتب البريد مباشرة وبشكل حي (ومع ذلك فقد تمت بعض عمليات المراقبة الحية من قبلي او من قبـــل [وينتربورن] وكـــان ذلـــك يتم اذا كان هناك ما يسبب بعض الصعوبات او اذا كان الأمر مهماً جداً) . اما المكالمات الهاتفيـــة التي كان يتم إعتراضها ، فقد كانت تسجل على اسطوانات الديكتافون ، في حين يتم تسجيل دارات الميكروفون على اسطوانات غرامافون . كانت هذه الغرفة بمثابة برج بابل (م آي ٥) . ومن ثم يتم تسليم التسجيلات الى فتيات يقمن بتفريغها على الورق في غرف صغيرة موجودة على امتداد الممر الرئيسي .

كـــانت تشـــرف علـــى هـــذه الدائرة امرأة مرعبة ، تدعى (ايفلين غريست) بدأت عملها مع

(م آي ٥) منذ تأسيسها تقريباً ، وهي مخلصة بشكل متعصب لـ (فيرنون كيل) وتتحدث دائماً بتشاؤم عـــن الدمار الذي ألحقه (تشرشل) بجهاز الاستخبارات حينما صرف (كيل) من الخدمة عام ١٩٤٠ ، وهي ترى ان مسيرة الجهاز نحو الحضيض قد بدأت منذ ذلك الوقت .

واتخذ (هيو وينتربورن) اجراءاته كي يتم الاستقبال في غرفة منعزلة عند نهاية الممر ، ثم جلسنا ، وانتظرنا أن يبدأ التحقيق . وفي الحقيقة ، فاننا لو أسمينا ما جرى تحقيقاً ، فان الأمر سيكون مضحكاً ، فقد كان الأمر مجرد مقابلة داخلية في (م آي ٦) .

دخـــل (فيلبي) وحيّـــاه ثلاثـــة مـــن زملائـــه السابقـــين الذين يعرفونه معرفة جيدة بطريقة ودية ، وساروا به فوق أرضية غير رسمية . فقد سألوه اولاً عن ماضيه الشيوعي ، ثم عن عمله في (م آي ٦) وأخيراً عن صداقته مع (غاي بيرغس) . تلعثم (فيلبي) وأعلن أنه بريء مما ينسب اليه . غير ان الاستماع الى الاصوات الخارجة من قبل الموجودين ، يجعل الكذب يبدو اكثر وضوحاً . فحينما كان (فيلبي) يتخبط في اجابته ، كان واحد أو آخر من الذين يحققون معه يرشده الى الجواب المقبول : " حسناً ، اعتقد ان كيت وكيت يمكن ان يكن تفسيراً " فيوافق (فيلبي) على ذلك معبراً عن شكره ، و تستمر المقابلة .

وحينمـــا أصبـــح اتجاه المقابلة واضحاً ، طلب (وينتربورن) من (كمنغ) الحضور ، حيث دخـــل هـــذا الى المكتب و كان يزمجر . استمع لبضع دقائق وهو يضرب على ساقه ، ثم قـــال مـــدمـــدماً : " سيعمـــــل على تبرئته اولئك اللوطيون ! " وارسل (كمنغ) على وجه السرعة مذكرة الى (غراهام ميتشل) رئيس قسم التجسس المضاد في (م آي ٥) يعرض تقديراته لمحاولة (م آي ٦) تبرئة (فيلبي) . غير ان هذه المذكرة لم تجد نفعاً ، فبعد مرور بضعة أيام وقف (ماكميلان) في مجـــلس العموم ليعلن براءته . وهكذا ، تأكد لي – وللمرة الاولى – انني قد انضممت الى عالم يشبه المرآة ، يتم فيه اخفاء الحقائق الواضحة البغيضة ، وكان هذا هو الاسلوب الذي تكرر مرات ومرات أخرى على امتداد العشرين سنة التالية . وقد منحتني تلك المقابلة التي أجريت مع (فيلبي) تجربتي الاولى في امبراطورية المراقبة والاشراف داخل (م آي ٥) . وقد كان الطابق السابع – في الواقع – جزءاً واحداً من شبكة التسهيلات . أما المحطة الخارجية الاكثر أهمية فقد كانت مقر قيادة وحدة التحقيقات الخاصة في مكتـــب البريد الواقعة بالقرب من (سانت بول) حيث كان يوجد في هذا المقر عدد من الغرف الخاصة بـ (م آي ٥) في الطابق الاول ، ويشرف عليها الميجور (دنمان) وهو شخصيـــة عسكـــرية مـــن الطـــراز القديم ، تمتاز بشيء من الدعابة . وكانت مهمته هي مراقبة البريد ، ومراقبة الهواتف . كما كان يشرف على مختبر العمليات الفنية التابع لـ (م آي ٥) الذي يقوم باكتشاف وارسال الكتابة السرية . وكان يوجد غرفة لوحدة التحقيقات الخاصة في كل مكتب بريد

رئيسي في البلاد ، من أجل القيام بعمليتي مراقبة الهواتف والرسائل ، وجميع هذه الغرف تحت اشراف (دنمان) . وتم فيما بعد نقل كافة المختبرات الى مختبر مكتب البريد في (مارتشلام) في منطقة (سافولك) . أما اذا كانت هناك رسالة ما قد تم فتحها في (سانت بول) وبحاجة الى دراسة اكثر ، فانها كانت ترسل بواسطة الدراجة النارية الى (سافولك) .

كــان مكتـــب (دنمان) عبارة عن مجموعة من الطاولات ذات المناصب الممتدة على طول الغرفة ، وكانت كل طاولة تحمل رسائل معنونة الى مختلف الاتجاهات : فقد كانت الرسائل المعنونة الى (لندن) في جانب ، وفي جانب آخر تلك المرسلة الى اوروبا ، وعلى طاولة ثالثة كانت هناك تلك الرسائل المرسلة الى ما وراء الستار الحديدي .

وحول هذه الطاولات كان يعمل حوالي عشرون فنيا من مكتب البريد حيث يقومون بفتح بعض هــذه الرسائــل . كــان كل واحد منهم يلبس في يديه قفازات مطاطية للحيلولة دون ترك آثار بصماته ، وبجانبه يوجد مصباح قوي ، اضافة الى ابريق يتصاعد البخار منه . كانوا يستخدمون في بعــض الاحيــان تقنية الشق الطولي بواسطة عصي الخيزران الرفيعة . لقد كان هذا الاسلوب قديماً ، غير انه كان لا يزال واحداً من اكثر الطرق فعالية . فقد كان يتم ادخال العصي الخيزرانية الرفيعة في زاوية المغلف الذي يتم وضعه أمام ضوء قوي . ومع عملية ادارة العصا الرفيعة داخل المغلف فان الرسالة تلتف عليها ، فيتم سحبها بسهولة .

اما حينما يكون العنوان المكتوب على الرسالة مطبوعاً بالآلة الكاتبة ، فانه يتم – في بعض الاحيــان – تمزيق المغلف ، ثم يتم العمل على طباعة العنوان ثانية على مغلف جديد . وطوال فترة عملي ، فاننا لم نتمكن أبداً من فتح الرسائل التي كانت اطرافها تلصق بواسطة الشريط اللاصق دون أن نترك أثراً يدل على فتحها . وفي مثل هذه الحالة ، فان (م آي ٥) كانت تتخذ قراراً إما بفتح الرسالة ومن ثم اتلافها ، وإما ارسالها وقد بدا عليها انها قد فتحت . وكانــت كاميرات الميكروفيلم التي تُشَغَّل بواسطة القدم تقوم بنسخ الرسائل المفتوحة وطباعتها ، ثم يتم ارسالها (الصور) بشكل روتيني بواسطة الضابط المسؤول عن المراقبة الى قسم التسجيلات من أجل تصنيفها وحفظها .

اما التذكار الذي يفتخر (دنمان) به فقد كان عبارة عن رسالة موضوعة داخل اطار ومعلقة على احد الجدران في مكتبه : فقد كانت رسالة موجهة الى عضو بارز في الحزب الشيوعي ، وتتم مراقبة رسائله بشكل منتظم . وقد أصيب الفنيون العاملون في مكتب البريد بالدهشة حينما فتحوا الرسالة ، واكتشفوا انها موجهة الى (م آي ٥) وتتضمن رسالة مكتوبة بالآلة الكاتبة ، جاء فيها : " الى (م آي ٥) اذا قمتم بفتح هذه الرسالة بواسطة البخار فانكم لوطيون قذرون " . وقد اعتبر (دنمان) هـــذه الرسالة أنهـــا " بريد قذر " مما يعني قانونيا ان له الحق في أن لا يرسلها الى العنوان

الموجود على المغلف .

وفي الواقع ، فان (دنمان) كان دقيقاً جداً فيما يتعلق بموضوع تصاريح عمليات المراقبة . فقد كان دائماً على استعداد للقيام بعملية التسجيل أو مراقبة الرسائل دون ان يكون بين يديه تصريح وذلك حينما يكون متأكداً فقط انه سيتم الحصول على التصريح بالسرعة القصوى . ومع هذا فقد كان يسمح لـ (م آي ٥) بمراقبة رسالة ما و بشكل ما دون الحصول على إذن بذلك . فقد كنا نقوم بتدوين كافة المعلومات الموجودة على المغلف : مصدره ، الجهة المرسل اليها ، وتاريخ الارسال ، ما دمنا لم نقم بفتح هذه الرسالة . وكان (دنمان) مثله مثل أي شخص في مكتب البريد يعلم بهذه الاعمال ويخشى ان يتم اكتشاف دور مكتب البريد في عمليات مراقبة الهواتف والرسائل ، اذ لم يكونوا يخشون مسألة البريد الخارجي ، لأنه يمكن تأخيره لعدة أيام دون ان يثير الشبهات ، ولكنهم كانوا دائماً قلقين من مسألة وجوب وصول البريد الداخلي الى المرسل اليه بالسرعة الممكنة .

اما الجهة المسؤولة عن اصدار تصاريح المراقبة فقد كان نائب مدير عام (م آي ٥) فاذا ما اراد ضابط القيام بعملية تسجيل مكالمة هاتفية أو مراقبة رسالة ، فقد كان يتوجب عليه تقديم مذكرة خطية قصيرة الى نائب المدير العام ، الذي يقوم بالاتصال مع نائب وزير الداخلية المسؤول عن (م آي ٥) لتقرير ما اذا كان مثل هذا الطلب سيؤدي الى بروز أي مشاكل . وكانت وزارة الداخلية تقوم بتدقيق كافة الطلبات مرة واحدة في الشهر . وعلى غرار مكتب البريد ، فان وزارة الداخلية كانت دائما حساسة جداً تجاه قضية المراقبة ، وكانت تحاول دائماً السيطرة عليها بحزم .

اضافة الى مركز (سانت بول) كان هناك ايضاً مركز (دوليس هيل) الاكثر بشاعة ، والمبني على الطراز (الفيكتوري) ، ويقع في شمال (لندن) حيث كانت توجد قيادة مركز البحوث التابعة لمكتب البريد خلال سنوات الخمسينات . وكان (جون تيلر) يشرف هناك على مختبره التجريبي الصغير الواقع في قبو المبنى ، وخلف باب كتبت عليه عبارة " بحوث وحدة التحقيقات الخاصة بمكتب البريد " . وكان يقوم بهذا العمل لصالح (م آي ٥) و (م آي ٦) . كانت غرف المختبر معتمة ومزدحمة بالعاملين ولم تكن تناسب العمل الذي كانت تتم تجربته هناك .

حينما التحقت بـ (م آي ٥) كان مختبر (تيلر) يقوم بتجاربه من أجل عملية نفق (برلين) . فقد قام فريق مشترك من (م آي ٦) و وكالة المخابرات المركزية الامريكية في شهر شباط عام ١٩٥٥ بحفر نفق تحت المنطقة الروسية في (برلين) وقاموا بوضع أجهزة تنصت على مركز الاتصالات الرئيسي للقيادة العسكرية السوفييتية . اما التفريعات الكهربائية الفعلية فقد قام بتنفيذها مجموعة من موظفي مكتب البريد . وكانت وكالة المخابرات المركزية الامريكية و (م آي ٦) تترنحان تحت الكمية الهائلة من المعلومات التي تم الحصول عليها من النفق . فقد كانت المعلومات الاستخباراتية الاولية

تتــدفق مـــن الشـــرق حتــى أنها أغرقت الطاقم الموجود من أجل عملية تسجيلها وتحليلها . وكانت (م آي ٦) تمتلك مركز تسجيل في منطقة (ايرلزكورت) وكانوا لا يزالون يقومون بتدوين وتسجيل المواد حينما اكتشفوا ان (جورج بليك) كان قد تمكن من افشاء سر النفق الى الروس منذ البداية . وكانت هناك ايضاً مجموعة من المشاكل الفنية كان (تيلر) يحاول يائساً ايجاد حلول لها ، ومن أهمها تسرب الرطوبة الى الدارات الكهربائية .

علاوة على ذلك ، فان مختبر (تيلر) كان مشغولا ايضاً بالعمل على ادخال تعديلات جديدة على نظام (التسهيلات الخاصة) * المسماة (كابمان) . وقد صممت هذه التسهيلات من أجل تنشيط جهاز الهاتف دون الدخول الى المباني بواسطة الاشعاع عبر استخدام موجات لاسلكية قوية . وقد وضع هذا المشروع قيد العمل ، غير انه لم يمكن استخدامه الاّ لمسافات قصيرة فقط .

كما كان هذا المختبر ايضاً يعمل في المراحل الاولى من عملية تطوير جهاز يدعى (موب) يقوم علــى مبــدأ جعــل السلك يقوم بوظيفتين في وقت واحد : الاولى ، ارسال الاصوات التي يتم التقاطها ، والثاني استقبال التيار الكهربائي . وقد كان هذا المشروع في مراحله الاولى غير انه كان يعول عليه إحداث ثورة في نشاطات (م آي ٦) عن طريق التخلص من صفائح الرصاص الزائدة التي كانت دوماً تعمل على كشف عملية التنصت بواسطة الميكروفون . وقد قضيت الكثير من وقتي خلال السنوات الاولى في (م آي ٥) وأنا أعمل على تأمين المواصفات الصحيحة لجهاز (موب) حتى تم أخيراً تصنيعه بنجاح في مصنع (م آي ٦) الواقع في منطقة (بوريهاموود) .

بعد مرور فترة قصيرة على المقابلة التي تمت مع (فيلبي) بدأت البحث عن أساليب وطرق جديدة من شأنها ان تعمل على تحسين وتحديث الطابق السابع . فقد كان أسلوب عملية المراقبة يقتضي طريقة معينة ، اذ كان على الضابط المسؤول عن مراقبة قضية ما أن يزود دائرة التسجيل بملخص خطي يتضمن تفاصيل نوعية المعلومات الاستخباراتية التي يعتقد هو ان من المحتمل الحصول عليها من خلال التنصت ، فيقوم موظفو التنصت عندئذ بتقطيع المحادثة الهاتفية الى مقاطع تتناسب مع الملخص الذي قدمه للضابط . وحينما انضممت الى (م آي ٥) في البداية كان يتم تسجيل المحادثات على اسطوانات الاسيتات اكثر من تسجيلها على أشرطة . وكان يتم تقطيع هذه الاسطوانات بوضع علامات على الاسطوانة في مواضع معينة لدراسة المحادثة . فاذا تم اكتشاف شيء ، فان القائمين على التسجيل يقومون بوضع اشارة بواسطة الطباشير على المكان المطلوب ، ومن ثم يبدأ العمل من عند علامة الطباشير . وقد كانت هذه الطريقة غير كافية ، اضافة الى انها عملية مضيعة للوقت ، وإن كانت أفضل من عمليات تسجيل الاشرطة المتبعة .

---

*نظام التسهيلات الخاصة : جهاز تنصت ومراقبة يستخدم بواسطة الهواتف (المترجم)

كان معظم هؤلاء الذين يقومون بهذه العملية قد تم تجنيدهم في عهد (كيل) من بين أوساط تجمعات اللاجئين الذين تدفقوا على بريطانيا عند نهاية الحرب العالمية الاولى حتى أنهم حولوا الطابق السابع الى قطعة مصغرة من روسيا القيصرية . وقد كانت غالبية هؤلاء من أفراد الطبقة الارستقراطية الروسية القديمة ، ومن روسيا البيضاء الذين يتكلمون بثقة عن العودة الى الاراضي التي صودرت منهم بعد الثورة .

و كانوا يرون ان الاستخبارات الروسية (ك ج ب) ليست هي ألـ (ك ج ب) وانما هي استخبارات النظام البلشفي القديم . لقد كان معظم هؤلاء متدينين الى حد بعيد ، حتى ان البعض منهـم كان يضع الايقونات في غرفهم . وكانـوا يشتهرون في أوسـاط العمـل بانفعاليتهم ، خاصة وانهم كانوا يعتبرون انفسهم فنانين ، ويتصرفون مثل مغنيات الاوبرا . اما الضباط المتمرسون الذين كانوا يسعون الى ايضاح ومتابعة عمليات التنصت ، فقد كانوا يعبرون الطابق السابع وهم يرتعشون مخافـة ان يسبب طلبهم شيئاً من الاساءة لهؤلاء . وبذلك كان من الصعوبة بمكان تجنب هذا الجو الصعب . ولعدة سنوات ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، كانت هؤلاء النسوة يستمعن الى الهمهمات المبهمـة والـى المؤامرات المعقدة التي يحوكها الدبلوماسيون الروس . ان قضاء سنوات العمر فـي البحـث عـن المعلومات الاستخباراتية في المحادثات التافهة التي تمتد على آلاف الساعات (تعـرف فـي الـوسط التجاري بمصطلح كرنب وملوك) هو أمر فيه ما يكفي لدفع الانسان الى حافة الجنون .

كان أول عمل قمت به هو القيام باجراء فحص سمع لهؤلاء النسوة ، اللواتي أصبح العديد منهن متقدمات في السن لاستخدامهن في هذه المهنة . وقمت بتشجيع اللواتي لم ينجحن في الفحص على استخدام معدات ذات نوعية صوت عالية ، مثل هؤلاء اللواتي يعملن في التنصت على الهواتف ، وأوكلت مهمـة التسجـيلات الميكروفونيـة الى ضابطات شابات ، والتي كانت (أور– ايونغ) من افضلهن قطعاً ، وقد التحقت بي للعمل – فيما بعد – كضابط في قسم التجسس المضاد . ان عملية التسجيل الميكـروفوني هي عملية صعبة جداً لانه عادة يوجد لديك مصدر ميكروفوني واحد فقط لعدة قنوات . ولذلك ، فقد صممت على إيجاد جهاز من أجل الحد من هذه المشكلة ، فذهبت الى معرض للالكترونيات في (اوليمبيا) واشتريت آلة تسجيل شرائط مزودة برأسيـن . ان الرأس الثاني يعطي نسبة تأخير في الصوت بصفة مستمرة تقدر بحوالي ١ /١٠٠٠ من الثانية او اكثر وذلك خلال مرور الصوت على هذا الـرأس ، الأمـر الذي يجعل الصوت مجسماً بشكل كامل . وفي الواقع كان الامر يشبه صوت الستيريو ، حتى انه كان باستطاعته ان يجعل اكثر الاشرطة سوءاً تبدو سهلة الفهم . وقمنا بوضع الجهاز في الطابق السابع ، وهذا ما جعلني صديقاً أبدياً للسيدة (غريست) .

كان هذا العمل هو أول انتصار صغير بالنسبة لي في مجال العلم ، في حين كانت صالة العــرض القديمــة الضخمــة التابعة لـ (م آي ٥) ، و الواقعة تحت الطابق السابع ، تغط في نوم عميق ، وبدون إزعاج .

اما القسم الذي كان يتطلب المزيد من الاهتمام والعناية العاجلة ، وكان لا يزال يقاوم التحــديث باصرار كبيــر ، فقد كان القسم (أ ٤) . فمنــذ سنوات الحرب ، كان عدد السوفييت ، وكذلك الــدبلوماسيــين التابعين للسوفيــيت ، آخــذاً بالتفــوق علــى عدد افراد قسم المراقبة في شوارع (لندن) ، وكذلك من حيث البراعة في المناورة . وكانت الاولوية الاولى لدي هي القيام بمراجعة شاملة للاسلوب الذي يعمل به قسم المراقبة .

اتخذت الترتيبات اللازمة للقيام بزيارة واحد من مواقع المراقبة التابعة لـ (م آي ٥) والكائن في أحــد المنــازل التابعة لهذا الجهاز ويقع مقابل احدى البوابات الرئيسية للسفارة الروسية في منطقة (كينسنغتون بارك غاردنز) . كان مركز المراقبة يقع في غرفة النوم الموجودة في الطابق العلوي من المنزل ، وكان فيها رجلان يجلسان عند طرفي الشباك ويقومان بعملية المراقبة ، كما كانت هناك آلة تصوير ذات عدسة مقربة تم نصبها على حمالة وقد وجهت باتجاه الشارع لتقوم بتصويره بشكل دائم . كان الرجلان يرتديان قميصين وقد علقا منظارين مكبرين حول رقبتيهما ، وكانت امارات التعب ظاهرة عليهما ، سيما وان فترة عملهما قد شارفت على الانتهاء . اما الطاولة التي كانت تقبع في الوسط بينهما فقد كانت تغص بفناجين القهوة ، وكانت منفضة السجائر ممتلئة الى حد الطوفان .

كلما كان دبلوماسي روسي يخرج من بوابات (كينسنغتون بارك غاردنز) يقوم أحد الرجلين المكلفين بعملية المراقبة بتفحص هذا الدبلوماسي بواسطة المنظار . وحينما يتم التعرف عليه بشكل دقيق يقــوم مركز المراقبة هذا باعلام مقر المراقبة والتعقيب بواسطة اللاسلكي عن اسم هذا الدبلوماسي . ويتم ارسال الاسم عبر ارسال رقم سري متعارف عليه يرمز الى هذا الاسم . ان كل النــاس الذيــن يعملون في السفارة ويمرون عبر (كينسنغتون بارك غاردنز) لهم ارقام سرية ترمز اليهم ، ويتم ارسالها عبر جهاز اللاسلكي . اما السيارات التابعة لشعبة المراقبة والتعقيب فان كل سيارة من هذه السيارات متخصصة في متابعة ارقام محددة وحينما تتسلم سيــارة مــا مــن هــذه السيارات اشارة تتعلق بأحد الارقام التابعة لها ، فانها تقوم مباشرة بعملية متابعة وتعقب الشخص المطلوب دون ان تقوم بالرد على الاشارة الصادرة عن مركز الارسال . اما ذلك الشخص الذي تتم عملية متابعته فانه لا يدري فيما اذا كان مستهدفاً أم لا . اما في حال الطلب الى احدى سيارات وحدة المراقبــة والمتوقفــة فــي الشوارع المجاورة القيام بمراقبة ومتابعة أحد الدبلوماسيين الذي غاب عن نظر مركز المــراقبة بسبب توجهــه نحو (الويست اند) فان جهاز الارسال يقوم باصدار صوت

خـــرخشـــة متقطعـــــة .

امـــا الرجـــال الذيـــن كانوا يديرون هذه المراكز الدائمة فقد قاموا بأداء العمل لسنوات عديدة ، حتى انهم اصبحوا يتمتعون بذاكرة استثنائية للوجوه ، مكنتهم من التعرف بشكل مباشر على ضباط الاستخبارات الروسية (ك ج ب) الذين كانوا قد غادروا بريطانيا منذ سنوات عديدة . ومن أجل مساعدتهم في التعرف على الاشخاص وتحديد هوياتهم ، فإن مركز المراقبة قد زود بثلاثة مجلدات تحتوي على صور وهويات كل ضابط استخبارات روسي تم التعرف عليه اثناء زيارته لبريطانيا . اما اولئك الذين اتخذوا من السفارة مقر اقامة لهم فقد تم وضع صورهم على حوامل بلاستيكية لتسهيل عملية الرجوع اليها . وفي حال ملاحظة ان شخصاً مجهولاً قد دخل او غادر مباني السفارة ، فإنه يتم تصويره ، ومن ثم تسليم الصورة الى قسم البحوث التابع لـ (م آي ٥) حيث تبدأ عملية التعرف على هذا الشخص اللانهائية من خلال الرسم . ان هذا العمل يبعث على السأم والملل ، وهو بالتالي يتطلب الصبر والتفاني ، ومع هذا ، فليس هناك ما هو اساسي اكثر منه . واذا كان قســـم السجلات هو جهـــاز العصـــب الرئيسي في (م أي ٥) فـــان قســـم المراقبة والتعقيب يُعـــد بمثابة رؤوس الاصابع ، حيث يتوجب ان تكـــون دائماً ممتـــدة ، تتحسس بنية العدو المخفية .

ان مجموعة المجلدات التي تضم هويات ضباط الاستخبارات الروسية هي نتاج عشرات السنين مـــن عمليات جمع المعلومات الاستخباراتية بدقة وعناية من خلال كل وسيلة ممكنة : صور تأشيرات الدخـــول ، المنشقـــون ، العملاء المزدوجون ، وغير ذلك . كانوا يتألقون بشكل ساطع من خلال الصفحات ، وكان معظمهم من رجال الاستخبارات الروسية (ك ج ب) او من رجال (ن ك ف د) الروس السابقين : رجال اقوياء و يوشّون أنفسهم بمظاهر الرجال الاوروبيين المثقفين ، أو بلباس الملحقين العسكريين . وسرعان ما فوجئت لدى ملاحظتي ان مراكز المراقبة تعتمد على الصور التي أمكن الحصول عليها من جوازات سفر الدبلوماسيين الروس في غالب الاحيان ، حيث كان يتم ارسالها دائماً الى (م آي ٥) غير انها كانت من الصور ذات النوعية الرديئة ، او انها صور قديمة - وهذا متعمد - مما يجعل امكانية التعرف على صاحب الصورة من الصعوبة بمكان .

ومن هنا كان اقتراحي أن يتم تزويد قسم المراقبة بصور ذات لقطات أخرى ، لان مثل هذه الصور ذات اللقطات المختلفة تكون أوضح من تلك الصور الشخصية التي يتم التقاطها من اجل الامور الرسمية ، وهذا ما ثبتت صحته من خلال قضية (كلاوس فوخس) الذي كان قد بدأ يتعاون معنا منذ اعترافه عام ١٩٤٩ بأنه قام بإفشاء معلومات تتعلق بالاسلحة النووية . فقد حاولت (م آي ٥) ان تحصل على أسماء المشاركين في تلك المؤامرة وقامت بعرض صورة جواز سفر (هاري غرينغلاس) وهو أحد الجواسيس الذين كانوا يعملون في مجال الاسلحة النووية على (فوخس) الذي لم يتمكن من

التعرف عليه بواسطة تلك الصورة . غير انه ـ ومن خلال مجموعة من الصور الاخرى ذات اللقطات المختلفة ـ استطاع التعرف عليه .

وعلى مدار عدد من السنوات ، تكونت لدى (م آي ٥) قناعة مفادها امكانية اكتشاف العملاء الـروس لهــم ، ومراقبتهــم لهم وهم داخل المبنى ، وذلك اذا ما تابع مخبرو (م آي ٥) العمل في مبنى (ليكونفيلد هاوس) . ولهذا ، فإنه تم نقل هؤلاء الى منزل مبني على الطراز الجورجي ، ويتألف من اربعة طوابق ويقع في شارع انيق في منطقة (ريجنت بارك) . على احد جدران غرفة المراقبة الرئيسية كانت تتدلى خارطة كبيرة لشوارع (لندن) حيث يتم استخدامها لمراقبة سير العمليات . وفي منتصف الغرفة كان هناك جهاز اتصال لاسلكي يؤمن كافة عمليات الاتصالات مع مراكز المراقبة وآليات شعبة المراقبة كافة . وفي أحد طوابق ذلك المبنى كان هناك مكتب رئيس قسم المراقبة (جيم سكاردون) وهــو رجــل بوليس سابق ، يمتاز بأناقته ، ويدخن الغليون . كان خلال فترة الحرب يعمل محققاً لدى (م آي ٥) كما كان ـ خــلال منتصف فترة ما بعد الحرب ـ المحقق الرئيسي في عدد من القضايا الهامة ، وعلى وجه الخصوص قضية (كلاوس) . كان واثقاً بنفسه ، ومعتزاً بقدرته ويحظى بشعبية كبيرة للعمل معه ، سيما وانه كان يتمتع بمزايا واخلاقيات النقابيين . كان يشعر ان ما يقوم به رجاله من عمل هو أمر شاق وصعب ، وبالتالي فإنهم بحاجة الى نوع من الحماية من استغلالهم من قبل الضباط الجائعين الموجودين في (ليكونفيلد هاوس) . وبشكل ما ، فإن هذا الامر كان صحيحاً. فحينما التحقت بالجهاز للعمل ، كان عدد افراد قسم المراقبة حوالي مائة رجل ، ولم يكن بالامكان ايقــــاف الطلبات المتكررة للحصول على خدماتهم في كل فرع من فروع نشاطات (م آي ٥) . وسرعان مـــا أحسســـت أن (سكاردون) لم يكـــن ليواجه ببسالة الواقع المعاصر لعمليات المراقبة في شوارع (لندن) ، اذ كان من الواضح تماماً ان الروس ـ على وجه الخصوص ـ يعملون بموجب نظام اشراف ومراقبة مضاد ومكثف من أجل الحيلولة دون مراقبة عملائهم . ومن خلال مراقبتي لنظام عمل قسم المراقبة والتعقيب لبضعة أسابيع ، أصبحت أشك في ان قسم المراقبة ـ وباستخدامهم للتقنيات الموجودة بين أيديهــم ـ يمكــن أن تتوافــر لديــه الفرصة الحقيقية لمتابعة أي شخص وتعقبه دون أن يتم اكتشافهم سريعاً .

وحينمــا بحثــت القضية اولاً مع (سكاردون) حول مسألة تحديث شامل لنظام عمل قسم المراقبة ، فانه رفض الفكرة . لقد كانت اقسام (م آي ٥) تشبه الاقطاعيات واعتبر الامر بمثابة إهانة وتحد لسلطته وجدارته . غير انه في النهاية وافق على السماح لي وكذلك لـ (هيو وينتربورن) بالقيام بعملية لاجراء اختبار على فعالية التقنيات التي يستخدمها قسم المراقبة . قمنا بتقسيم الفريق الذي سيجـــري التجربة الى مجموعتين ، وأعطيت المجموعة الاولى صورة لضابط غير معروف لهم من ضباط

(م آي ٥) وُطلب اليهم ملاحقته . اما المجموعة الثانية فقد تم اعلامها عن المنطقة العامة التي ستعمل فيها المجموعة الاولى ، وطلب اليهم (المجموعة الثانية) تحديد موقع المجموعة الاولى ومن ثم التعرف على الشخص الذي تقوم المجموعة الاولى بملاحقته . وقمنا باجراء هذه التجربة ثلاث مرات ، وفي كل مرة كانت المجموعة الثانية تقوم بعملية التعرف بشكل صحيح ، وعملنا على تصوير التجربة الثالثة على شريط ، و عرضناه في مقر قيادة قسم المراقبة امام الدائرة كلها . وقد عملت هذه التجربة ـ على الاقل ـ على ازالة أي من الشكوك المتبقية من أن عمليات قسم المراقبة ـ كما تجري حالياً ـ عرضة لعمليات المراقبة المضادة وبشكل خطر .

اقترحنا على (سكاردون) كخطوة أولى القيام باستخدام عدد من النساء ، فعمليات المراقبة المتعددة تتطلب أحياناً ان يجلس رجال المراقبة لساعات طويلة في الحدائق والمقاهي والحانات بانتظار ومراقبة اللقاءات التي تتم ، ولذلك ، فان وجود رجل وامراة سيكون أقل عرضة للاشتباه بهما من وجود رجل واحد او اثنين معاً. غير ان (سكاردون) عارض الخطة بقوة ، متخوفاً من امكانية ان يؤدي ذلك الى حدوث اغراءات تؤدي الى زيادة عدد الزيجات الامر الذي يؤثر بشكل معاكس على اخلاقيات رجاله وقال متجهماً : " لن تحب الزوجات مثل هذا الامر" فأجابه (وينتربورن) ضاحكاً : " وماذا لو تبادلوا القبلات وتعانقوا . ان الامر سيكون بمثابة غطاء جيد ! " ولم يضحك (سكاردون) . اما الاصلاح الآخر الذي طلبنا القيام به فكان يتعلق بالطريقة التي يتم بموجبها استخلاص المعلومات من رجال قسم المراقبة ، إذ لم يكن يتم ذلك بعد عودتهم من مهمتهم فوراً ، وانما كان يتم اثناء الليل أحياناً ، أو عند نهاية الاسبوع في احيان أخرى . وقد اوضحت لـ (سكاردون) انه ثبت لدينا عدة مرات خلال فترة الحرب ان استخلاص المعلومات يجب ان يتم بشكل فوري من أجل ان يكون دقيقاً . أما اذا كان هناك تأخير في هذه العملية ، فان الذاكرة تتوقف عن اعادة تجميع ما حدث ، وبالتالي تبدأ عملية تبرير و تفسير ما حدث .

قال (سكاردون) مزمجراً : " ان رجالي يمضون ثماني ساعات وهم يجوبون الشوارع ولا يرغبون بأن يعودوا الى الدائرة ليمضوا ساعات أخرى وهم يجيبون على الاسئلة المطروحة عليهم ، في حين ان بامكانهم ان يكتبوا بانفسم تقريراً خطيا " . وفي النهاية وافق على ان تنتهي فترة عمل كل وردية قبل خمس عشرة دقيقة من الموعد المحدد لنهاية عملها ليعودوا الى الدائرة ، ومع هذا فقد استمر الصراع .

اما المراقبة المحمولة فقد كانت لها مشاكلها المختلفة . وقد خرجت معهم ذات يوم للحصول على فكرة عن طريقة عملهم . كانت سيارات (م آي ٥) ذات موديلات لا تثير أي شبهة حولها ، وإن كان قد تم تزويدها بمحركات معدلة ذات طاقة عالية في كراجات (م آي ٥) الواقعة في منطقة (بترسي) . و كان

يتم تغيير ألوان السيارات مرة كل ثلاثة شهور بهدف التمويه على هويتها ، اضافة الى ان كل سيارة كانت تحمل مجموعة من لوحات ارقام السيارات ، بحيث يتم تغييرها بين فترة وأخرى خلال الاسبوع .

لقد كانت مزحة صبيانية عملية مطاردة سيارات الدبلوماسيين الروس عبر شوارع (لندن) جيئة وذهاباً في الشوارع ذات الاتجاه الواحد ، متجاوزين اشارات المرور الضوئية الحمراء ، مع العلم ان كل سائق يحمل بطاقة بوليس ليتجنب المخالفات . وقد أخبرني سائق السيارة التي كنت اركبها ، وهو يشعــر بفرح غامر ، قصة سرد لي فيها كيف كان يلاحق سيارة روسية عبر شارع (مول) الى قصر (بكنغهام) في يوم ماطر ، وكيف ان الروسي داس بعنف على كوابح سيارته لينعطف الى شارع فرعي ، الأمر الذي أدى الى انزلاق السيارتين و ارتطامهما ببعضهما . وخرج السائقان من السيارتين ليتبادلا الاعتذار بوجوه تخفي ما تخفيه وراءها . ان براعة سيارة المتابعة تكمن في التعرف الى الشوارع المتوازية وانتقائها حيثما كان ذلك ممكناً ، غير ان نجاح العملية في النهاية يعتمد على المراقبة اللاسلكية في مقر القيادة . اذ عليهم هناك (في القيادة) ان يتنبأوا بخط سير السيارة الروسية المحتمل ، مما يمكنهم من ابلاغ الوحدات الاحتياطية لمتابعة المطاردة .

ان المشكلة الاولى المتعلقة بالمراقبة المحمولة كانت سهلة جداً . كانت كل سيارة من سيارات المراقبة تقل ثلاثة رجال . ولما كانت هذه السيارات تمضي معظم الوقت وهي متوقفة على زوايا الشـــوارع ، أو خارج المباني ، فإنها كانت تبدو شبيهة بابهام اليد المتقرح . وللمرة الثانية ، قمت أنا و (وينتربورن) باجــراء دراسة ميدانية ، فذهبنا الى منطقة كنا نعرف ان رجال قسم المراقبة يعملون فيها . وخلال نصف ساعة تمكنا من تحديد وتسجيل كل سيارة من هذه السيارات ، وقد كان من السهولة بمكان التعرف على واحدة منها ببساطة تامة ، إذا كان قد تم تغيير لوحة ارقام هذه السيارة مؤخراً غير ان السائق نسي ان يغير اللوحتين (الامامية والخلفية) معاً اذ غير واحدة فقط . وهكذا اقترحت علـــى (سكاردون) ان يعمــل علـــى تخفيض عدد الرجال في السيارات ، غير انه وبأسلوب (ليلاند) البريطاني ألقى على مسامعي محاضرة حول كيف من الضروري ان يكون هناك ثلاثة من الرجال في كل سيارة ، وقال : " رجل يقود السيارة والثاني لقراءة الخريطة ، والثالث لاستخدام جهاز اللاسلكي " . قال ذلك وهو مقتنع تماماً بما يقوله ، و إن كان يبدو انه غير مدرك لعبثية كل ذلك .

لكن كان هناك أمر واحد – وليس فيه أي مجال للمزاح – جعلني اكثر خوفاً من كل الأمور الأخرى مجتمعة وهي مشكلة الاتصالات . ان الاتصالات هي نقطة الضعف الأول لدى أي جهاز استخبـــارات . فرجـــال المراقبـــة والتعقيب يقومـــون كل يوم بتبادل مئات الرسائل مع مراكز المراقبة ، والسيارات ، ومقر القيادة نفسه . ان أول شيء جعلهم عرضة للهجوم هو أنهم لم يكونوا أبداً يسلّمـــون بصحة الأشياء . فالروس قادرون ببســـاطة على التعرف على اتصالات قسم المراقبة

وتحـــديدها عبـــر القيـــام ببحث بسيط عن حـــزم موجات اشارات الاتصال غير المعروفة ، وقد كانت (م آي ٦) سيئة في هذا المجال في الخارج . وعلى امتداد فترة زمنية طويلة كانت افضل وسيلة للتعرف على عناصر (م آي ٦) في السفارات البريطانية في الخارج هو البحث والتدقيق عن الدبلوماسيين الذين يستخدمون الخطوط الخارجية التي لا تسير من خلال لوحة المفاتيح الاساسية . وقد قامت (م آي ٥) فيما بعد بادخال نظام معقد يمكن رجال المراقبة من تشفير اتصالاتهم . وقد اوضحـــت ان هـــذا النظـــام لن يغير شيئاً لأن اشاراتهم ستبقى مميزة عن اشارات اتصالات الشرطة ، والاطفاء ، والاسعاف ، لانها جميعها غير مشفرة . وعلى ما يبدو فانهم لم يكونوا يعلمون ان الروس كانوا يحصلون على معظم المعلومات الاستخباراتية من خلال الاتصالات اكثر من حصولهم عليها من خلال محتويات الرسائل ، لأن تحليلات الروس للاتصالات تبين لهم متى وأين ستجري العملية التالية ومن خلال مطابقتها مع المعلومات المدونة في سجلاتهم يصبح بامكانهم معرفة كل ما يريدون معرفته .

وقد حاولت جاهداً القيام بمسعى رئيسي وهام من أجل محاولة اكتشاف فيما اذا كان الـــروس يقومون بمراقبة اتصالات قسم المراقبة . وقد كان هذا الأمر مقبولاً من الناحية النظرية ، لأن أي جهاز استقبال سوف يصدر بعض الاشعاعات التي يمكن التقاطها من على مسافات قصيرة . وقمت بتقديم خطتي من خلال القنوات الصحيحة الى قيادة الاتصالات الحكومية التي تمتلك الادوات الفنية والقوى البشريـــة الضروريـــة لتنفيـــذ مثـــل هذه التجربة . وانتظرت شهوراً قبل ان استلم ما وصف بأنه رد " مدروس " وكان رأي قيادة الاتصالات الحكومية انه ليس من الملائم القيام بمثل هذه التجربة . وهكذا مرت سنتان قبل ان تدرك كل من هذه القيادة و (م آي ٥) كم كان ذلك الحكم خاطئاً .

في الوقت نفسه بقيت اعيش نهبة للقلق ، فقد كانت تراودني فكرة انه اذا ما كانت اتصالات قسم المراقبة عرضة للاعتراض وان هناك مثل هذا الضعف الذي أريناهم اياه في عملهم ، فمعنى ذلك ان على (م آي ٥) ان تفترض ان جزءاً اساسياً من جهودها التي بذلتها في مجال مكافحة التجسس هو عقيم منذ سنوات عديدة . ويمكن القول أن بعض العمليات – على الأقل – التي قام بها قسم المـــراقبة قـــد تم اكتشافها من قبل الروس . ويبقى السؤال : أي من هذه العمليات قد تم اكتشافها وكم هو عددها ؟

٦

كان القسم (أ ٢) يعد بمثابة خط الدفاع لدى (م آي ٥) في خنادق الحرب الباردة ، في حين كنا أنا و (وينتربورن) بمثابة جنود قوات العاصفة . وقد كان (هيو وينتربورن) رفيق سلاح رائع . خدم في الجيش في كل من الصين و اليابان و سيلان و بورما قبل ان يلتحق بجهاز (م آي ٥) وهو يتكلم الصينية واليابانية بطلاقة ، ومع هذا فـــانه كان فيلدمارشال فاشلاً ، على الرغم من أنه يخطط لعملياته دائماً بشكل رائع حتى في أدق التفاصيل . وعلى الرغم من ان هذه العمليات غالباً ما تكون معقدة ، فانها كانت دائماً تنفذ بدقة عسكرية . ولم يكن ذلك الانسان الثقيل الوطأة على النفس ، اذ انه كان يدخل كل عملية وهو يهدف الى تحقيق هدفين : اولهما جمع المعلومات الاستخباراتية ، وثانيهما ايضاً تحقيق المتعة عن طريق المزاح والهزل وقد حققنا ذلك . وعلى مدار خمس سنوات كنا نقوم سوية بـــزرع الميكروفونـــات السريـــة ، وبالسطو على المنازل ليلاً عبر شوارع (لندن) بناء على أوامر الدولة ، في حين كان موظفو (الوايت هول) المدنيون الذين يعتمرون القبعات السوداء المستديرة وهم في غاية الأبهة يقومون بمراقبة المنطقة .

و كنت أنا و (وينتربورن) ندان متكافئان ، وكان يجمعنا معاً اعتقاد راسخ بأن التحديث أصبح ضرورة ماسة في كافة مستويات الجهاز في المجال التقني . ومن هنا كنت ميالاً الى التركيز على الافكار ، ولهذا فانه كان بمثابة المنخل حيث يقوم بالتمييز بين ما هو محسوس وممكن ، وبين ما هو غير عملي في اقتراحاتي ، وكان يقوم بالتخطيط لكيفية تحقيق هذه الافكار على ارض الواقع .

حينما عملت لاول مرة مع (وينتربورن) كان متقد الحماس فيما يتعلق بأخبار آخر عملية

أنجزها لصالح القسم (أ ٢) والمسماة عملية (بارتي بيس) . فقد كانت هذه العملية واحدة من عملياته النموذجية جمعت بين الكمال والعمل القذر و الحظ الجيد . فقد تناهت معلومات الى أحد المسؤولين عن عملاء القسم (أ ٤) من أحد المصادر داخل الحزب الشيوعي البريطاني مفادها ان جميع الملفات السرية لاعضاء الحزب موجودة في منزل أحد أعضاء الحزب الاغنياء في منطقـة (مايفير) . وعلى الاثر طلب من (أ ٢) التخطيط لعملية سطو على المنزل لتصوير الملفات .

تم وضع المنـزل تحت المراقبة المشددة وعلى كافة الاصعدة : المرئية ، الهاتف ، الرسائل . وفي الموعد المناسب كانت ضربة الحظ غير المتوقعة لصالح (م آي ٥) وذلك حينما اتصلت زوجة صاحب المنزل بزوجها هاتفياً في مركز عمله ، لتخبره انها تنوي مغادرة المنزل لمدة ساعة ، وانها ستترك المفتـاح تحـت المسحـة الموجـودة عنـد الباب . وخلال عشرين دقيقة من التقاط هذه المكالمة في (ليكونفيلد هاوس) كنا عند المنزل ، ومن ثم قمنا بطبع المفتاح على قطعة من المعجون .

اما عملية السطو على المنزل فقد تم ترتيبها بعناية تامة ، بحيث تمت حينما كان أصحاب المنزل يقضون عطلة نهاية الاسبوع في منطقة البحيرة . ارسل (وينتربورن) فريقاً من الرجال لمراقبة العائلة خوفاً من امكانية ان يقرروا العودة الى المنزل في وقت مبكر . وتم وضع آلات الميكروفيلم التي تعمل بواسطة الدواسة القدمية (تم وضع مجموعة منها بجانب بعضها البعض في ليكونفليد) لتكون جاهزة تماماً لتصوير الملفات . قام فريق (أ ٢) بالدخول الى المنزل ، وفتحوا أقفال الخزائن التي تحتوي على ملفات اعضاء الحزب . وتم تصوير محتويات كل درج من أدراج كل خزانة بواسطة كاميرا بولارويد في حين تم سحب كل ملف من الملفات بعناية فائقة ، وتمت فهرسته داخل المنزل من أجل ان يعاد الى مكانه ذاته . وبعدها تم نقل الملفات كافة على شكل رزم الى (ليكونفليد هاوس) وتم تصويرها بشكل متسلسل . ومن خلال ٥٥٠٠٠ مصنف تم تصويرها في عطلة نهاية الاسبوع تلك ، كانت النتيجة غنيمة لا تقدر بثمن من المعلومات عن الحزب الشيوعي .

وقد مكنت هذه العملية (م آي ٥) من اختراق التنظيم الحزبي بشكل كامل ، اذ ان كل ملف كان يتضمن بياناً خطياً مكتوبا من قبل العضو يشرح فيه (هو / هي) اسباب الرغبة في الانضمام الى الحـزب ، وكذلـك معلومـات شخصيـة كاملـة بما فيها سرد تفصيلي لظروف عملية التجنيد في الحزب ، والعمل الذى قام به هذا الشخص لصالح الحزب ، وكذلك عن اتصالات العضو مع هذا التنظيم الحزبي . ولكن الاكثر أهمية من هذا هو ان المواد التي تم الحصول عليها من خلال هذه العملية ، كانت تحتـوي ايضاً على الملفات السرية الخاصة باعضاء الحزب الشيوعي البريطاني الذين كانوا يفضلون – او الذين كان الحزب يفضل – اخفاء هوياتهم . فقد كانت غالبية هؤلاء الاعضاء السريين من غير جيل اولئك الشيوعيين السريين التقليديين الذين كانوا اعضاء في الحزب خلال سنوات الثلاثينات ، وتم

تجنيدهم فيما بعد للعمل في مجال التجسس . اما الجيل الجديد فقد كان افراده اعضاء في حزب العمال ، وفي الحركات النقابية والجهاز المدني ، أو في أي مكان آخر في مجال العمل الحكومي ، ولهذا كانوا يفضلون التستر على انفسهم نتيجة الاجراءات الجديدة التي اتخذتها حكومة (اتلي) في مجال الاستقصاء والتدقيق .

ونتيجـــة لتحالفنـــا مـــع الاتحاد السوفييتي خلال الحرب ، تمكن الحزب الشيوعي البريطاني – خلال السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية – من الاحتفاظ بتأييد واسع له وعلى وجه الخصوص داخـــل أوساط الحركات النقابية . وكان لهم نشاطهم المتزايد فيما يتعلق بالنزاعات الدائرة حول الصناعة ، الأمر الذى أثار مخاوف رئيس الوزراء (اتلي) خلال سنواته الأخيرة في الوزارة . وفي أواخر الاربعينات بدأت (م آي ٥) بتكريس وتخصيص الموارد اللازمة من أجل مساعيها الرامية الى مراقبة وتحييد نشاط الحزب الشيوعي البريطاني داخل أوساط الحركات النقابية . ومع حلول عام ١٩٥٥ (وهو العام الذي تمت فيه عملية بارتي بيس) كان قد تم اختراق الحزب الشيوعي البريطاني بشكل تام وعلى كافة الاصعدة من خلال عمليات المراقبة الفنية أو من خلال المخبرين . وكان الحصول على مواد عملية (بارتي بيس) من قلب ادارة الحزب الشيوعي البريطاني هو الدليل النهائي على براعة وسيادة (م آي ٥) في فترة ما بعد الحرب . اما ما كان يثير السخرية ، فهو ان الاتحاد السوفييتي قام خلال سنة بغزو هنغاريا الأمر الذي كان يعني بداية تراجع شعبية هذا الحزب .

ولما كانت مواد عملية (بارتي بيس) قد أصبحت بحوزة (م آي ٥) فان الحزب الشيوعي البريطاني لم يعد باستطاعته ان يشكل مرة ثانية تهديداً خطيراً لأمن البلاد . ومنذ ذلك الوقت أصبح باستطاعة (م آي ٥) ان تتبع نشاط اي فرد من أفراد الحزب ، وعلى وجه الخصوص اولئك الاعضاء السريين ، والقيام بمراقبة نشاطاتهم ، والحيلولة دون قيامهم من الاقتراب من أي مواد سرية يمكن ان تشكل خطراً . وقد تم وضع مواد هذه العملية في الصندوق Y حيث بقيت مصدر مساعدة كبير حتى مطلع سنوات السبعينات حينما أعلن الحزب الشيوعي البريطاني احتجاجه على ذلك ، لأنه تخلى عن مبدأ العضوية السرية وأصبح حزباً علنياً .

كانت اول مرة أعمل فيها ضد الحزب الشيوعي البريطاني في أواخر سنوات الخمسينات حينما قمت انا و (هيو وينتربورن) بزرع ميكروفون آخر في مقر الحزب الواقع في شارع (كنغ) . و كان الحزب يعرف ان مبانيه موضوعة تحت المراقبة الفنية بشكل مستمر ، ولهذا كانوا يعمدون باستمرار الى تغيير أماكن اجتماعاتهم المهمة . وقد قام أحد العملاء الموجودين داخل مباني الحزب باعلام مسؤوله في القسم (ف ٤) ان اجتماعات اللجنة التنفيذية للحزب قد تم نقلها الى غرفة اجتماعات صغيرة تقع في نهاية المبنى ، ولا يوجد لها أي نوافذ . كما أعلمنا هذا العميل انه لا يوجد في هذه الغرفة أي جهاز

هاتــف ، ولذلــك فـــان جهـــاز التسجيـــل الهاتفـــي لن يحل مشكلة تزويدنا بالتغطية لما يدور هناك . وأخيراً ، و خلال سنوات الستينات ، توضح لنا سبب عدم وجودهاتف هناك . فقد كان اول ما قام به (أنثوني بلنت) انه أفشى الى الروس سر وجود جهاز التسجيل الهاتفي بعد زرعه مباشرة لاول مرة في شارع (كنغ) فقام الروس بتحذير الحزب ، وأُصدرت اليهم التعليمات بوجوب ازالة الهواتف من المناطق الحساسة ، الاّ ان الحزب الشيوعي البريطاني لم يأخذ الامر على محمل الجد ، وكانوا يقومون باتخاذ الاحتياطات المتعلقة بالقضايا الحساسة فقط .

ذهبت وبرفقتي (وينتربورن) بسيارتي الى شارع (كنغ) وقمنا من الخارج بدراسة الجدران الخارجية للمبنى في محاولة لتقرير أفضل وسيلة لمهاجمة الغرفة الهدف . عند اسفل الجدار المواجه للشارع من الجهة اليسرى كان يوجد هناك قناة قديمة تستخدم لانزال الفحم الى مكان منخفض لم تستخدم منذ سنوات عديدة وكانت هي افضل امكانية امامنا . وقمنا مع عميلنا بدراسة خط سير هذه القناة فتبين لنا انها تقود مباشرة الى غرفة الاجتماعات ، فاقترحت على (وينتربورن) ان نقوم بصناعة باب زائف مطابق للباب الموجود عند القناة ويتم تثبيته فوق الباب القديم بحيث يتم زرع ميكروفون لاسلكي .

بدأ (هيو) على الفور باتخاذ الترتيبات اللازمة ، فقام أولا بتصميم باب جديد يمكن تثبيته في مواجهة القناة بواسطة مزالج زنبركية .

وكان من الواضح انه يجب ان يتم طلاء الباب المزيف بنفس لون طلاء الباب الموجود وهواللون البني الغامق الذي أحالته الاحوال الجوية الى هذا اللون . ولهذا ، قمنا بالاتصال بمحطة بحوث المباني في (غراستون) وأرسلنا لهم عينات من نقاط الدهان ، كان (هيو) قد حصل عليها من الباب الاصلي بواسطة مفك براغي خلال إحدى الليالي التي زرنا فيها المكان بشكل عرضي . وقد تمكنوا من تحديد الدهان لنا ، بل وتم تزويدنا بكمية منه . وقمنا باستخدام موقد لحام المعادن وتغطيس الباب في الماء حتى نتمكن من اعداد عملية تشبة عملية تأثير الاحوال الجوية . وقمنا بعدها بزرع الميكروفون على الباب الذى صنعناه ، واستخدمت انبوباً سمعياً بلاستيكياً يمتد من ثقب المفتاح في باب القناة الى الميكروفون ، ثم ملات بقية المكان بالبطاريات بحيث يمكن للميكروفون العمل لمدة ستة شهور دون أي حاجة لاجراء عملية صيانة . اما جهاز الاستقبال فقد خبيء في صندوق الهواتف الكائن على الرصيف الممتد عند نهاية شارع (كنغ) ، و إلذي كان ـ لحسن الحظ ـ ضمن مدى الميكروفون ، حيث قامت الخطوط الهاتفية ببث الاشارة اللاسلكية ثانية الى الطابق السابع في (ليكونفيلد هاوس) .

اما الجزء الاكثر خطورة في هذه العملية فقد تمثل في عملية تثبيت الباب المزيف على رصيف شارع (كنغ) حيـــث كـــان يجـــب ان تتم هذه العملية على مرآى من مبنى الحزب الشيوعي

البريطاني ، والذين كانوا دائماً حذرين تجاه أى شيء مشبوه . ولهذا استنبط (هيو وينتربورن) خطة معقدة ، إذ قرر ان تتم عملية التركيب في وقت متأخر من ليل يوم السبت حيث يحتشد رواد المسرح وهم يصخبون ويمرحون في الشوارع في منطقة (كوفنت غاردن) . اتُخذت كافة الترتيبات المتعلقة بضباط القسمين (أ ٢) و (ف ٤) بحيث يلتقي كل هؤلاء برفقة زوجاتهم عند نقطة معينة في شارع (كنغ) قادمين من اتجاهات مختلفة وفي موعد متفق عليه . وبناء على تعليمات (وينتربورن) كان علينا ان نصل ضمن مجموعتين متظاهرتين بالسكر الشديد . والتقينا على الرصيف وتبادلنا التحية . وخلف هذا الحشد ، انحنى (وينتربورن) على ركبتيه وبدأ بحفر اربعة ثقوب صغيرة في جدار القناة بواسطة مثقب يدوي ، واصبح جاهزاً لاستلام المزالج الزنبركية الاربعة الخاصة بالباب الذي صنعناه . ثم قام بتنظيف المكان من الغبار الذي خلفتـــه عملية الثقب مستخـــدماً منديله في ذلك . وخلال دقائق بدأ هذا الحشد الصارخ بالتفرق ، غير ان (وينتربورن) كانت لديه اعصاب من حديد ، فبعد ان انهى وبصبر وأناة عملية الحفر ، سحب من تحت معطفه الباب المزيف ، وقام بتثبيته في مكانه .

وقـــد نفـذت هذه العملية التي اطلق عليها اسم (تيبيين) بدقة متناهية كما خطط لها ، وتمكنت (م آي ٥) من الحصول - على امتداد بضعة شهور - على تغطية كاملة لاجتماعات الحزب الشيوعي البريطاني الهامة كافة . لكن الذي حدث هو انه تم اكتشاف الميكروفون فيما بعد . فقد حدث ان كان أحد المسؤولين في الحزب الشيوعي البريطاني يعمل على ضبط اشارة جهاز الراديو عنده حينما وقع علـــى الذبذبـــة التي يعمـــل عليهـــا الميكروفون ، إذ سمع صوت اشارة قوية نبهته الى وجود جهاز الميكروفـــون . وقلبـــــت البنايـــة كلهـــا رأساً علـــى عقب بحثاً عن الجهاز . ولحسن الحظ ، فان (هيو وينتربورن) كان يقيم في شقة تقع في الطابق الاخير من مبنى (ليكونفيلد هاوس) خلال ذلك الوقت في حين ان زوجته كانت موجودة في النرويج في زيارة لاقربائها هنـــاك . فقد تنبه الى ما حـــدث حال اكتشاف الميكروفون فاتجه مباشرة الـــى الموقع ، وأزال الباب المزيف ، وعاد به الى المكتب وكأنه يحمل نصباً تذكارياً للحرب .

أما اوسع عملية زرع ميكروفونات قمت بها في حياتي فقد قمت بتنفيذها أنا و (هيو وينتربورن) في (لانكسترهاوس) ذلك المبنى المزخرف الذي كان يستضيف مؤتمرات المستعمرات خلال سنوات الخمسينات والستينات . فبعد أن اصبح (ماكميلان) رئيساً للوزراء أصبحت خطوات التغيير في شؤون المستعمرات ملحوظة . ولما كانت (م آي ٥) مسؤولة عن الامن وعن جمع المعلومات الاستخباراتية في مناطق التاج البريطاني كافة - بما فيها الامبراطورية - فانها أصبحت تحت وطأة ضغط متزايد للحصول على التوقعات الاستخباراتية خلال المفاوضـــات الدائـــرة والمتعلقة بمختلف المستعمرات المستقلة . وقد كان من الصعوبة بمكان ان تتم تغطية (لانكستر هاوس) بشكل فعال و تدريجي ، إذ لم

يكن باستطاعتنا التأكد من أي من الغرف سيتم استخدامها الامر الذى يقلل من امكانية جمع المعلومات الاستخباراتية . ولذلك اقترحت أنا و (وينتربورن) القيام بزرع نظام ميكروفوني شامل في كافة أرجاء المبنـــى بحيــث يمكن استخدامه في أي زمان ومكان يتطلب ذلك . وقد وافقت وزارة المستعمرات بحمـــاس علـــى طلبنا ، وتــم اغلاق مبنـــى (لانكستر هاوس) لمدة اسبوعين من أجل القيام ببعض " الاصلاحات " في حين كان رجال القسم (أ ٢) يتحركون داخله . وقمت مع (وينتربورن) بدراسة مخططات الغرف بعناية ، ورسمنا مخططا بيانياً للدارات الكهربائية ، يحدد موقع كل ميكروفون ، وأشرفنا على عملية زرع هذه الميكروفونات . وعلى امتداد بقية سنوات الستينات والسبعينات كان يتم استخدام نظام الميكروفونات هذا كلما كانت تجرى محادثات دبلوماسية على مستوى عال في (لندن) .

لكن عملية زرع الميكروفونات في مقرات الحزب الشيوعي البريطاني ، وتغطية محادثات وفود العالم الثالث قد توقفت بسبب المهمة الاساسية التي تمثلت في مواجهة الاتحاد السوفييتي وحلفائه . اما اول عملية قمت بها ضد الروس لصالح (أ ٢) فقد كانت عملية (كوير) . وكانت هذه العملية قد بدأت فعلياً قبل بضعة شهور من انضمامي لجهاز (م آي ٥) حينما قام (هيو وينتربورن) بعملية تستهدف زرع ميكروفونات في السفارة الروسية الكائنة في منطقة (بيزووتر رود) حيث سنحت له فرصة ذلك حينما كانت تجري عمليات اصلاح في البناية المجاورة للسفارة تمهيداً لاحلال ساكنين جدد فيها . وبدأت (م آي ٥) عملها تحت غطاء عمال الديكور ، وتمكن (وينتربورن) من زرع جهاز جديد يسمى الميكروفون الجسّاس ، حيث كان (جون تيلر) قد عمل على تطويره في مختبر (دوليس هيل) .

كان هذا الميكروفون الجسّاس ميكروفوناً كبيراً مما كان يعني وجود حساسية عالية ، حيث استخدم للحصول على امكانية الاختراق بسرية من خلال الجدار المشترك الذى يفصل بين المبنيين . وقد تم ادخال الميكروفون في داخل الجدار على بعد ثماني عشرة بوصة من جانب الهدف . اما مسافة الثماني عشرة بوصة الفاصلة بين الميكروفون والغرفة الهدف فقد تم حفرها باليد وكان قطرها ربع بوصة ، وبمسافة نصف بوصة بين النقطة والاخرى . وعلى بعد بوصة من الجانب الهدف كانت تنتهي الفتحة التي بلغ قطرها ربع بوصة ، ثم تم حفر ثقب صغير بواسطة اليد وباستخدام ريشة حفر من عيار ٦٠ ، وبذلك فان حفرة الاختراق الى الجانب الهدف لم يكن بالامكان رؤيتها بالعين المجردة . وتم وصل الفتحة ذات الثماني عشرة بوصة بواسطة انبوب بلاستيكي شفاف دقيق يصل الى الميكروفون الذي يقوم بارسال الاشارة الى الشارع ، ومن ثم عبرأسلاك الهاتف الى (ليكونفليد هاوس) حيث تعمل المكبرات الصوتية هناك على تضخيم الصوت الملتقط وتحويله الى حديث واضح .

بعد مرور ستة أشهر على قيام (وينتربورن) بزرع ميكروفون عملية (كوير) توقف هذا

الميكروفون عن العمل بشكل مفاجيء . في ذلك الوقت ، كان لدى (م آي ٥) عميل يعمل في السفارة الروسية بوظيفة عامل ديكور وكان اسم هذا العامل (تتكين) ويلقب بالسنجاب ، حيث أخبرنا انه تمت اعـــادة طلاء الغرفة الهدف . وعلى الرغم من انه كان يبدو ان الثقب الموجود في الجدار قد غطي بالدهان ، الا اننا لم نزل نشعر بالحيرة تجاه ما حدث ، لان (وينتربورن) حصل من (تتكين) على القياسات التفصيلية للجدار قبل ان يقوم بزرع الميكروفون ، وصمم من خلالها ان تكون فتحة الميكروفون الموجودة في الجدار موجودة خلف الافريز المغطى بورق الجدران المصنوع من البلاستيك وعلى ارتفاع اربعة عشر قدماً عن الارض ، ولذلك فانه من المستبعد ان يقوم أي انسان بطلاء هذه المنطقة بعناية لاغلاق هذه الفتحة . وقررت أنا و (وينتربورن) ان نقوم ثانية بعملية الحفر .

وقد تطلبت العملية الجديدة تخطيطاً مدروساً ، إذ ان عمليات الاصلاح والترميم في البناية الملاصقة للسفارة كانت قد انتهت وأصبحت الآن مكتباً يزدحم بشكل مستمر بالزوار الذين كنا نعرف ان بعضهم من الروس الذين يقومون بتفقد الامن . ولذلك كان علينا ان نعمل خلال الليل وبصمت تام . كنا بحاجة الى سقالة لنقف عليها ونعمل على ارتفاع اربعة عشر قدماً ، اضافة الى حاجتنا الى دهان وجـــص لاصـــلاح أي تلـف قـد يحصل ، فعمل (وينتربورن) على تأمين سقالة من النوع المسبق الصنع ، وكذلك كمية من مواد الديكور سريعة الجفاف ، قامت محطة بحوث المباني بتطويرها وصنعها خصيصاً لصالح (م آي ٥) وتم توريدها الى المكتب في رزم صغيرة من اجل عدم اثارة انتباه القنصلية المتيقظة دوماً .

بعد مرور أسبوع ذهبت أنا و (جاغر) بواسطة سيارة اجرة الى (بيزووتر رود) . كان الطقس شتاء ، والشوارع مظلمة ، وتزدحم بالناس العائدين من أعمالهم . وتسكعنا باتجاه القنصلية ، ثم دخلنا المبنى الملاصق لها مستخدمين من أجل ذلك واحداً من مفاتيح (جاغر) المشهورة . فتحنا حقائبنا التي كانت تحتوي على عدة العمل وعلى جهاز استقبال لاسلكي صغير . اما مركز المراقبة التابع لنا والواقع في مواجهة القنصلية فقد كانت لديه تعليمات لمراقبة أي تحركات حول المبنى . وقمنا بمراقبة الارسال على جهاز الاستقبال الموجود معنا ، وذلك لنتمكن من التوقف عن العمل في حال دخول اي شخص الى الغرفة الهدف .

ان كل ميكروفون تقوم (م آي ٥) بزرعه يتم تسجيله وفهرسته في سجلات الفرع (أ) بهدف معرفة مواصفاته الفنية ، وتاريخ تشغيله ، واهم من ذلك كله ، موقعه بالضبط . وفي حين كان (جاغر) يقوم بنصب السقالة بصمت تام ، كنت أدرس خريطة الجدار التي احضرناها معنا من فهرس الفرع (أ) ومن ثم اجريت القياسات اللازمة ، وبدأنا ازالة الجبصين . كان ذلك العمل يبعث على التوتر ، إذ كان يجب ان تتم ازالة كل قطعة من الجبصين باليد وقبل ان تسقط على الارض ، حيث توضع في حقيبة من

اجل ترحيلها . بعد مرور ساعة تمكنا من العثور على الميكروفون وقد كان مخفياً بعناية داخل الجدار ضمن طبقة من المواد اللدائنية . وقمت بفصل الكابلات وسحبت الانبوب السمعي المصنوع من المواد البلاستيكية الشفافة الذي يصل الى الغرفة الهدف .

كان لريشة الحفر من عيار٦٠ ميزة خاصة بحيث انها تعمل ببطء لمنع ذرات الدهان او الجبصين من الدخول الى الغرفة الهدف . أدخلت ريشة الحفر ، وحملت المثقب ، في حين قام (جاغر) بادارة يد المثقب . بعد أن أدار (جاغر) المثقب دورتين كانت لا تزال هناك مقاومة في الجدار . و أيا كان ذلك الشيء الذي يغطي الثقب من جهــة الغــرفة الهدف ، فانه كان من الجلي ان الامر ليس طبقة من الــدهان . وعلــى أضواء السيارات العابرة كنا نتبادل النظرات التي تنم عن الحيرة . ودار المثقب ثانية ، وثانية ، ومع ذلك ، فلا زالت هناك مقاومة . وفجأة أخذت ريشة الحفر تدور بسهولة ، غير انها عادت لتصطدم بعائق آخر ، فسحبت المثقب برفق ، وقام (جاغر) بوضع الريشة في صندوق صغير من أجل القيام بفحصها في (ليكونفيلد هاوس) . وعبر الثقب ، ومن خلال الانبوب السمعي تمكنت من سماع صوت تكتكة ساعة موجودة في الغرفة الهدف مما كان يعني بما لا يقبل الشك ان المثقب قد اخترق الغرفة الهدف كما أريد له أساساً ، وليصبح خلف الطبقة الجبصينية في الافريز .

أعدنا وضع الميكروفون في الجدار ، وقمنا بتوصيل الكابلات ، وأغلقنا الفتحة بواسطة الجبصين . وكان علينا ان نقتل ثلاث ساعات من الوقت بانتظار ان يجف الجبصين قبل البدء بعملية اعادة طلاء ما قمنا باتلافه . جلسنا ندخن في حين كان جهاز الاستقبال عندنا يواصل بث الاشارة . ومع اقتراب نهاية الليل كان الطرفان لا يزالان يرقصان فالس الحرب الباردة ، في حين كانت سيارات المراقبة تقوم بملاحقة الدبلوماسيين الروس عبر شوارع (لندن) المظلمة . ومع هذا ، فقد بقيت القنصلية في صمت عميق .

في اليوم التالي ، وفي الطابق السابع كنت أنا و (وينتربورن) نستمع الى ميكروفون (كوبر) . كان الميكروفون خامد الانفاس ، ولكنه يعمل بوضوح ، وكانت المشكلة الوحيدة هي انه ليس هناك من يتفوه بأي كلمة في هذه الغرفة ، وكل ما استطعت سماعه كان ذلك الصوت الرتيب للالة الطابعة الموجودة وحدها في الغرفة الهدف . ذهبنا بعد ذلك الى البناية لفحص ريشة المثقب تحت المجهر ، حيث وجدنا ان حوالي ٣ / ٨ البوصة من الريشة كانت مغطاة بغبار الجبصين . وأي شخص كان عامل الديكور الروسي ذاك ، فانة كان رجلاً ذا ضمير حي .

قال (وينتربورن) وهو ينظر من خلال المجهر : " انها ليست عملية اعادة طلاء محنكة ...انك لا تستطيع ان تدخل الجبصين الى عمق ٣ / ٨ البوصة داخل الفتحة .. لقد تم ذلك بواسطة محقن ابر طبي " .

بعد مرور شهر أو مايزيد تمكن (نتكين / السنجاب) من القاء نظرة على الغرفة الهدف ، وتبين له ان الجدار المشترك قد تمت تغطيته بجدار داخلي عازل للصوت ، وخلف هذا الجدار العازل ، كانت تجلس هناك سكرتيرة بمفردها تطبع على الالة الطابعة . لقد كان الروس يعرفون ـ وكما نعرف نحن ـ ان الجدران المشتركة عرضة للاختراق ، غير انهم ـ وحسب ما علمنا ـ لم يعرفوا شيئاً عن الميكروفون الجسّاس . ومع هذا فقد يكون هناك احتمال بأنهم (الروس) قد اكتشفوا الثقب فقاموا بإغلاقه .

في شهر تموز عام ١٩٥٥ تعاملت مع الروس مرة أخرى ، وكانت هذه المرة في كندا ، اذ تسلمت (م آي ٥) طلباً للحصول على المساعدة الفنية في عملية كانت الشرطة الملكية الكندية تقوم بالتخطيط لها بهدف زرع ميكروفونات في السفارة الروسية في كندا . كانت طوابق السفارة الثلاثة القديمة والمشرفة على نهر (ريديو) قد تعرضت لحريق في فترة متأخرة ، فاعتزمت الشرطة الكندية زرع معدات للتنصت علـــى السفـــارة خـــلال عمليات الاصلاح . ولانها كانت بحاجة الى آخر ما تم التوصل اليه من معدات ، فانها اتصلت بـ (م آي ٥) .

استقبلني في المطار (تيري غيرنسي) رئيس دائرة التجسس المضاد / الفرع ب في الشرطة الكندية ، وكان برفقته مساعده (جيمس بينيت) وهو من (ويلز) أصلاً . كان (غيرنسي) طويلاً ، نحيلاً . وعلى الرغم من انه كان يتمتع بشيء من اللطف ، الاّ انه كان عصبياً . تلقى تدريباته في بريطانيا على أيدي رجال (م آي ٥) و (م آي ٦) ورجع في مطلع الخمسينات الى كندا وهو على قناعة تامة بان الشرطة الكندية ليست هي ذلك الجهاز البوليسي الموحد الزي الـــذي يمكن له القيـــام باعمال التجسس المضاد ، ولذلك بـــدأ بتجنيد ضباط استخبارات مدنيين ، وتمكن بمفرده من تأسيس (الفرع ب) الذي يعد واحداً من اكثر اقسام التجسس المضاد في العالم قوة . و إليه تعزى العديد من الافكار التي لعبت دوراً هاماً في الفكر الامريكي والبريطاني مثل استخدام الكمبيوتر في عمليات تسجيل ومتابعة تحركات الدبلوماسيين الروس في الغرب . وكان يقف باستمرار ضد التقييدات الجائرة لتقاليد الخيالة التي تؤمن ان ضابط الشرطة الملكية الكندية للخيالة متفوق على زميله الضابط المدني . وكان هذا الامر بمثابة صراع دار بعمق ليس فقط في أوساط الاستخبارات الكندية وانما ايضاً في أوساط مكتب التحقيقات الفيدرالي في امريكا . وكان (غيرنسي) يؤمن ان البريطانيين محقون في رسمهم للحدود الفاصلة بين عمـــل المباحث الجنائية وبين المواهب الاخرى المختلفة تماماً المتعلقة بعملية جمع المعلومات الاستخباراتية ، وخاض العديد من المعارك من اجل العمل على ابقاء (الفرع ب) مستقلاً عن الهيكل الاساسي للشرطة الملكية الكندية للخيالة . غير ان هذا المسعى الذي سعى من أجله قد كلفه وظيفته ، اذ ان كبار ضباط شرطة الخيالة لم يغفروا له ما فعله ، وتم التخلص منه عن طريق ابعاده الى المملكة المتحدة ليعمل كضابط اتصال بين الشرطة الملكية الكندية للخيالة وبين (م آي ٥) و (م آي ٦) وذلك قبل

ان يتقاعد بسبب سوء حالته الصحية .

لكني حينما قمت بزيارة كندا لاول مرة عام ١٩٥٦ لمساعدتهم في التخطيط لعملية (ديووورم) كان (غيرنسي) لا يزال صاحب نفوذ في مجال عمله . واثناء تناولنا لطعام العشاء في تلك الليلة حدثني عما آلت اليه تلك العملية . فقد تمكنت الشرطة الملكية الكندية من تجنيد المقاول الذي كان سيقوم بعملية اعادة بناء وترميم السفارة الروسية ، كما تمكنت من زرع ضباطها تحت غطاء انهم عمال يعملون في الموقع . وبمساعدة من (ايغور غوزينكو ، و هو روسي كان يعمل في السفارة القديمة بوظيفة كاتب شيفرة الى حين لجوئه الى الكنديين عام ١٩٤٥) كان قد أصبح باستطاعة (غيرنسي) تحديد المنطقة الواقعـــة عنـــد الزاوية الشمالية الشرقية في السفارة حيـــث تكمن هناك الاقسام السرية الخاصة بالـ (ك ج ب) وبالاستخبارات العسكرية السوفييتية ، وكذلك غرف الشيفرة .

بعـــد ان قمـــت بدراســـة المخططات توصلت الى قرار مفاده ان القيام بعملية لزرع ميكروفون (ساتير) بحيث يتم من خلالها استخدام ميكروفون يتم تنشيطه من الخارج بواسطة الميكروويف هي عملية غير ملائمة ، لأن المسافة الممتدة من عند الجهاز الى اول منطقة آمنة هي مسافة كبيرة لا يمكن ان يضمن نجاحها ، ولذلك فانها يجب ان تكون عملية سلكية ، سيما وان مثل هذه العمليات السلكية لها ميزة كبرى من حيث انه اذا تم تنفيذها بمهارة فانه سيكون من الصعوبة بمكان اكتشافها . وكانت افضل خطة للاختراق هي اخفاء الميكروفونات داخل اطارات النوافذ المعدنية الموجودة في الجانب المستهدف من المبنى . وحصل (غيرنسي) على عينة من هذه الاطارات من المقاول . كانت الشبابيك من النوع الذي يفتح عن طريق السحب وليس هناك أي ثقل للاطارات الامر الذي يجعلها مناسبة تماماً لاخفاء الجهاز بداخلها. كان يوجد في الاطار فراغ حيث تقفل فيه قطعتا النافذة والاطار على بعضهما البعض ، وكان هذا الفراغ يؤمن نوعية صوت جيدة . ان اطارات النوافذ المعدنية سوف تعمل على مضاعفة المجال الالكترو – مغناطيسي الذي ينبعث عن الميكروفونات مما يجعلها عصية على الاكتشاف من قبل رجال الامن السوفييت .

لكن المشكلة الرئيسية كانت تتمثل في كيفية إخفاء الكوابل المتصلة بالميكروفونات . فقد كانت جدران مباني السفارة الجديدة مصممة لتكون بسماكة قدمين تقريباً مع وجود طبقة داخلية من الاسمنت المسلح بسماكة اربع عشرة بوصة ، وتفصل بين الجدارين فجوة بسماكة بوصتين ، وأخيراً هناك واجهة حجرية بسماكة أربع بوصات تقف في مواجهة الجدار الخارجي . ودرست بدقة مع (م آي ٦) تفاصيل عمليـــات التفتيش الالكترونية الروسية ، فأخبروني ان الروس لا يقومون أبداً بتفتيش ماهو خارج مبانيهم ، وانهم يفتشونها فقط من الداخل ، وعلى ما يبدو ، فان الروس كانوا يرون انه من المعيب بحقهم ان يراهم الناس وهم يقومون بتمشيط مبانيهم . ولهذا فانني أخبرت (غيرنسي) ان افضل

خطة تتمثل في مد الكابلات من خلال الفجوة الموجودة في الجدار حيث سيكون من الصعوبة بمكان اكتشافها عبر اربع عشرة بوصة من الأسمنت ، لاسيما وان (م آي ٥) قد تمكنت من تطوير كابلات رفيعة لا تصدر الاّ القليل من المجال الالكترو – مغناطيسي .

حينما بدأت عملية البناء ، كان علينا ان نجد وسيلة ما لاخفاء الكابلات عن عيون الفريق الأمني الروسي الذي كان يقوم بزيارات الى الموقع للتفتيش والتدقيق في عمل المقاول الكندي . وقمنا بدفن أسلاك ضخمة تحت كل موضع من المواضع الثمانية المحددة . وفي كل ليلة ، وحالما يتم انجاز مرحلة معينة من البناء ، كان رجال الشرطة الملكية الكندية للخيالة والمتنكرين بصفة العمال ، كانوا يقومون بتمديد كابل داخل الفراغ بعد سحبه من ربطة الاسلاك . كان هناك ثمانية كابلات ، وكان كل واحد منها يحمل ارقاماً مختلفة تمتد من الرقم واحد وحتى الرقم عشرين وذلك لتضليل السوفييت في حال اكتشاف هذه الكابلات . وكم ستكون العملية بمثابة لمسة جميلة وشيئاً يشبه النكتة لو قام السوفييت بقلب البناية رأساً على عقب بحثاً عن الكابلات الشبحية .

وكانت أصعب مرحلة في العملية كلها هي مرحلة وصل الاسلاك بالميكروفونات اذ كان قد تم تثبيت وتركيب الشبابيك في القسم الشمالي الشرقي من المبنى ، وقام بالاشراف على ذلك ضابط من الشرطة الكندية من أجل التأكد من أن الاطارات قد وضعت في مكانها الصحيح . اما الكابلات فكانت قد وضعت داخل الفجوات منذ الشهور التي استغرقتها فترة البناء ، لكن وصل الميكروفونات والاسلاك ببعضها كان عملية من الصعب اخفاؤها ، ولا يمكن لأحد القيام بها سوى مهندس يقف على سقالة ترتفع الى الطابق الرابع . وقد أسند هذا العمل الى فني من رجال (غيرنسي) وهو مهندس شاب نفذ العملية ببراعة . كان رجلاً ضخماً لكنه تسلق البناية في الظلام الحالك ، وفي درجة حرارة تصل الى الاربعين تحت الصفر ، حاملا عدة العمل في حقيبة علقها في كتفه . بدأ العمل بالميكروفونات واحداً اثر الآخر ، وقام بكل دقة بتوصيل الكابلات ، وتأكد من متانة التوصيل .

حالما انتهت عملية التوصيل بدأ فنيو الشرطة الملكية الكندية للخيالة بحفر نفق بطول عشرين ياردة ، يمتد من أحد المنازل المأمونة الخاصة بالشرطة والملاصقة للسفارة الى الموقع الذي تم فيه دفن ربطة الاسـلاك ، حيـث تم مد الاسلاك – على عمق عشرة أقدام تحت الارض – الى المنزل داخل النفق ، ثم تم ردمه باستخدام الاسمنت وبسماكة ثلاثة أقدام . اما الكابلات الثمانية التي تم وصلها بمكبرات صوت مخبأة في مرآب المنزل ، فقد تمت تغذيتها بالطاقة بواسطة مخارج موصولة بمقر قيادة الشرطة الكندية . وحينما تم اجراء تجربة على الميكروفونات ، فانها جميعاً كانت تعمل بدقة .

كانت هذه العملية التي نفذت بدقة قد شارفت على الانتهاء حينما حدثت الكارثة . فقد كان أحد العمال يقوم بتركيب خزان الوقود عند الجدار الخارجي الواقع عند الزاوية الشمالية الشرقية للسفارة

الجديدة . ولم يكن يعلم ان كافة الكابلات الممتدة من النوافذ الواقعة فوقه تتجمع عند تلك النقطة ، وتمتد تحت الارض نحو المنزل التابع للشرطة . وبينما كان يعمل على تثبيت مشابك معدنية من أجل تدعيم انبوب التهوية ، اندفع أحد المشابك لينغرز في حزمة الكابلات المدفونة هناك ، وليدمر كلية توصيلات الميكروفونات .

لم يكن أمامنا أي خيار سوى الدخول ثانية الى المبنى ، غير ان العملية هذه المرة أصبحت اكثر خطورة ومجازفة . فالمبنى قد شارف على النهاية ، والروس كانوا على وشك الاقامة فيه . وكانت فرصة ضئيلة ان يصدق الروس ان فريق الشرطة الكندية المتخفين في زي العمال هم مجرد عمال ابرياء وذلك في حال اكتشافهم . وكانت ليلة اخرى شديدة البرودة تلك الليلة التي دخلوا المبنى فيها ، حيث تمكنوا من اخراج ستة من الكابلات الثمانية من خلف المشبك ، وأعادوا توصيلها متخلين عن الكابلين الاثنين الآخرين ، ثم أعادوها داخل الجدار وكذلك الأمر بالنسبة الى المشبك . وعلى الرغم من اننا فقدنا ميكروفونين ، فان واحداً على الأقل بقي يعمل في كل غرفة من الغرف المقصودة ، وبذلك أمكننا تجنب كارثة كبرى .

حالما عاد الروس الى الاقامة في سفارتهم ، بدأنا نسمع أصواتهم من خلال بعض الميكروفونات ، حيث كان ضباط الاستخبارات العسكرية السوفييتية يتباحثون حول اين يجب عليهم ان يضعوا أثاثهم . وبعد مرور ثمان وأربعين ساعة أخلوا مكاتبهم بشكل مفاجيء وغادر السفير البلاد متوجهاً الى (موسكو) ، وبدأ فريق من العمال الروس بالعمل داخل السفارة . وسرعان ما أصبح واضحاً من خلال المواد التي كانوا يدخلونها الى السفارة انهم ينوون بناء جناح جديد لـ (ك ج ب) وللاستخبارات العسكرية السوفييتية في مكان ما داخل المبنى ، وانه من المحتمل ان تتم تغذية هذا الجناح بالطاقة الكهربائية من خلال مولد كهربائي مستقل .

بعد مرور فترة قصيرة على هذا الأمر بدأت الميكروفونات – التي كانت تتم مراقبتها باستمرار في مقر قيادة الشرطة الملكية الكندية للخيالة – بالتقاط وبث اصوات أفراد فريق الامن الروسي الذين كانوا يعملون على تفتيش البناء . وكانت الشرطة الكندية قد عرفت مسبقاً بموعد وصولهم المتوقع الى المبنى ، وإن كانت لم تتأكد من ذلك الاّ عندما بدأوا العمل في الزاوية الشمالية الشرقية حيث كانوا ينقرون على الجدران بحثاً عن امارات تدل على وجود تجاويف ، ويقومون بتمرير ادوات كشف معدنية على السقف . وعلى مدار عشرين يوماً قاموا بتمشيط الغرف التي كنا قد زرعنا الميكروفونات فيها وكأنهم كانوا على علم بذلك ، غير انهم لم يعثروا على الكابلات أو على الميكروفونات .

وطبقاً لمقاييس ومواصفات السفارات الروسية المنتشرة في انحاء العالم كافة ، فان مبنى السفارة الجديد كان صغيراً ، ولكن – وعلى الرغم من هذه الشروط المقيِّدة – فان الزاوية الشمالية

الشرقية من المبنى بقيت غير مستخدمة – بغض النظر عن الاعمال القنصلية الاعتيادية – حتى بعد مغادرة فريق التفتيش الروسي . وبعد مرور ثماني سنوات ، وصل فريق التفتيش عن الميكروفونات مرة ثانية الى (أوتاوا) واتجهوا مباشرة الى الغرف المزروعة بالميكروفونات ، وخلال ساعة من الزمن تمكنوا من العثور على الكابلات ومن ثم على الميكروفونات . لقد كان في السفارة اثنتان واربعون غرفة ، غير ان هؤلاء المفتشين لم يبحثوا الاّ في الغرف الست حيث كانت الميكروفونات ، ولا بد أنهم عرفوا أين يجب عليهم ان يبحثوا .

وعلى غرار عملية (كوير) فقد كان هناك ثمة شيء يثير قلقي فيما يتعلق بعملية (ديووورم) . فبالطبع ، والى حد ما أصبت بخيبة الأمل ، فالعملية كانت نجاحاً فنياً بارزاً ، الاّ ان الشهور التي قضيناها بصبر وأناة ونحن نقوم بالاستعداد من أجل هذه العملية لم تحقق لنا الحصول على شيء من المعلومات الاستخباراتية . وبالطبع ، فان المقامرة في بداية العملية كانت تتمثل – وكما افترض غوزينكو – في ان الروس سوف يقومون باعادة بناء الجناح السري في نفس المكان الذي كان في سفارتهم القديمة . لكن الاعتماد على التحليلات المتعلقة بتزويد المبنى بالطاقة الكهربائية كانت مراهنة معقولة . وحقيقة انهم قرروا اعادة توضيع القسم السري وحجبه كانت عملية غير اعتيادية . كان البريطانيون والامريكيون قد بدأوا يدركون – وكذلك الروس تقريباً – ان افضل طريقة لحماية الجناح السري في اي سفارة من عمليات التنصت عبر الميكروفونات تتمثل في عملية بناء هذا الجناح في أعمق اعماق السفارة ، ويفضل ان يكون لهذا الجناح مولد طاقة خاص به . لكن عملية قيام المفتشين الروس بالهجوم على الزاوية الشمالية الشرقية من المبنى وكأنهم يبحثون عن شيء ويعلمون بوجوده هناك قد أثارت الشكوك في رأسي .

وخلال سنة حدث الشيء نفسه مرة ثانية في كندا . فقد مُنحت الحكومة البولندية إذناً لفتح قنصلية في (مونتريال) وقام البولنديون بشراء منزل قديم ، وبدأت عملية إصلاحه . وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٥٧ سافرت بالطائرة الى كندا لتقديم المساعدة الى الشرطة الملكية الكندية في مجال زرع الميكروفونات . وقد استطاعت الشرطة الكندية ان تتعرف على هوية ضابط الاستخبارات البولندية ، وان تحدد موقع غرفته ، غير ان المبنى كان قد استكمل اصلاحه وترميمه ، ولذلك فان أي عملية سلكية كانت خارج نطاق البحث ، ولم يكن هنا من مجال سوى استخدام ميكروفون (ساتير) المجوف . وكان البناء قد تم تجهيزه بقنوات من الأنابيب المعدنية تمر من خلالها الكابلات الكهربائية . وكما كان الأمر بالنسبة لاطارات النوافذ في عملية (ديووورم) فانني افترضت ان أجهزة (ساتير) سيكون من الصعب اكتشافها فيما اذا تم وضعها بالقرب من قنوات الكابلات . بعد مرور حوالي اسبوعين على قيامنا بزرع الميكروفونات ، طلب البولنديون من المقاول وبشكل مفاجيء ازالة الجدار

الذي يحتوي على جهازي (ساتير) وان يستعيض به جداراً آخر . وقد تمكنت الشرطة الملكية الكندية من استرجاع ميكروفون واحد في حين فقد الميكروفون الآخر لدى البولنديين . وفيما بعد ، علمت الشرطة الملكية الكندية من مصدر داخل السفارة البولندية ان الروس زودوا البولنديين بمعلومات سرية حول امكانية وجود مثل هذه الميكروفونات داخل السفارة . وهكذا ، فان الروس وللمرة الثانية تقدموا علينا خطوة أخرى .

لم تكن مثل هذه الاشياء تحدث في كندا فقط ، بل كانت هناك ايضاً عملية تدعى (مول) وقد دارت أحداثها في استراليا ، اذ بدأت هذه العملية حينما قام (السير تشارلز سبراي) رئيس هيئة الاستخبارات والأمن الاسترالية بزيارة الى (لندن) عام ١٩٥٩ . فقد تلقيت مكالمة هاتفية تفيد بأنه يود رؤيتي . كان (سبراي) رجلاً جميل الهيئة ، وله شارب كثيف ، اما حبه للاشياء الجيدة في هذه الحياة وتحمله للمسؤولية فقد جعلته يبدو متألقا . كان (سبراي) قد بدأ عمله كرئيس لهيئة الاستخبارات والامن الاسترالية عند تأسيسها عام ١٩٤٩ . وكان قبل ذلك مديراً للاستخبارات العسكرية ، ولكنه وبمشاركة مجموعة من المسؤولين أمثاله ، الذين كانو يلقبون بـ " عفاريت ملبورن " ناضل بشدة من أجل إقامة هيئة تتولى جمع المعلومات الاستخباراتية ، وتكون مشابهة لجهاز (م آي ٥) . وقد سيطر (سبراي) على هذه الهيئة بيد من جديد مدة تسعة عشر عاماً حتى أصبح أحد المبرزين في عالم الاستخبارات بعد الحرب . غير ان قبضته تراخت عن هذه الهيئة في أواخر أيام عمله حينما بدأ ينقطع عن الاتصال مع عناصره .

كان (سبراي) يحب زيارة (لندن) ، كما كان قد خدم في الجيش الهندي في (ممر خيبر) خلال سنوات الثلاثينات . وقد ساعدته الخلفية العامة والاحساس بالمشاركة – وهما العنصران اللذان يساهمان في تكوين الضابط – اضافة الى لباقته على اقامة صداقات واسعة مع رجال عالم الاستخبارات البريطانية ، ولكن (سبراي) كان أبعد من ان يكون موظفا روتينيا عجوزاً . وحالما بدأ اجتماعنا (أنا وهو) دخل الى صلب الموضوع مباشرة وأخبرني انه كان في كندا مؤخراً ، وان (تيري غيرنسي) قد أوصاه بالتحدث معي حول عملية زرع ميكروفونات كانت هيئة الاستخبارات والامن الاسترالية تخطط لها ضد الروس . وقد أوضح لي أنه منذ هروب الزوجين (بتروف) – وهما زوج وزوجته كانا يعملان معاً داخل قسم الشيفرة في السفارة الروسية في كانبيرا – فان الروس قاموا بقطع علاقاتهم الدبلوماسية ، وانهم وضعوا سفارتهم تحت اشراف السفارة السويسرية . غير انهم (الروس) عادوا واقترحوا العودة الى استراليا ، ولذلك ، فان هيئة الاستخبارات والامن الاسترالية كانت تريد القيام بعملية ضد السفارة قبل عودة الروس الى المبنى . بعد دراسة الخطط ، أشرت على (سبراي) القيام بعملية زرع ميكروفونات (ساتير) وعرضت الجهاز عليه . اما

أفضل مكان لزرع الميكروفون فقد كان في الاطارات الخشبية للشبابيك ، وأرسلت مساعدي الى استراليا للأشراف على كافة التفصيلات . وقد تم زرع الجهاز بنجاح ، وكاجراء احتياطي ، اوعزت الى هيئة الاستخبارات والأمن الاسترالية بعدم تشغيل الجهاز قبل مرور سنة على زرعه خوفاً من ان يقوم الروس بمراقبة المبنـى بحثـاً عـن الميكروويفـات خلال الشهور الاولى من عودتهم للاقامة . وكمـا حصـل في عملية (ديووورم) فان عملية (مول) كانت نجاحاً فنياً ، ولكن لم يتم الحصول ولا على معلـومة استخباراتية واحدة . فقد كان كل صوت في غرفة اقامة ضابط الـ (ك ج ب) وكل صوت تقليب الورق ، وكل شخطة قلم ، كانت جميعها تسمع ، غير انه لم يكن ليقول أي كلمة . وهكذا شكلت عملية (مول) اخفاقاً آخر .

وكان من المستحيل ارضاء وتحقيق كافة الطلبات التي كانت تنهال على (م آي ٥) – بمواردها وامكاناتها الضئيلة – خلال سنوات الخمسينات ، وبالتالي ، فان ضغط العمل على الضباط والافراد – وخاصة اولئك العاملين في القسم (أ ٢) الذين انخرطوا في مثل هذه العمليات تحت وطأة الضرورة – أصبح لا يطاق . كانت كل عملية تختلط بغيرها : فالخرائط و المخططات والتقارير والابحاث الفنية تتوضع على مكتبي على شكل دوامة ورقية . وكان من الصعوبة بمكان – غالباً – التأكد اي العمليات قد انتهى انجازها ، وأي تلك لا زالت في مرحلة التكوين . ان عملية جمع المعلومات الاستخباراتية – حتى في افضل الحالات – هي عمل مربك تماماً . غير انه يوجد في ذهن كل ضابط استخبارات محترف مساحة فارغة جديرة بالمحافظة عليها، مهمتها الاحتفاظ بالنتف والاشياء الصغيرة والتي تثير – لسبب أو لآخر – العديد من الاسئلة التي لا جواب عليها . ان عمليات (ديووورم) و (كوير) و (مول) تختبىء فـي ذلك الجزء ، وتحتجب تحت وطأة هذه الكتلة المشوشة من العمليات الدائرة الآن ، ولكنها لا تنسى أبداً ، بل انها حتى السنوات الأخيرة كانت تطرح بشكل مفاجىء دلالات جديدة .

ومهنـة الاستخبارات تتصف بالعزلة ، وعلى الرغم من وجود صداقات حميمة – وهذا أمر طبيعي – الاّ انـك ستكون وحيداً مع أسرارك في نهاية المطاف . انك تعيش وتعمل في جو محموم من الاثارة ، ومعتمداً دائماً على مساعدة زملائك ، لكنك دوماً تنتقل اما الى فرع او دائرة جديدة أو الى عملية جديدة . وحينما تنتقل فانك ترث أسراراً جديدة تعمل على فصلك بشكل حاد عن اولئك الذين عملت معهم من قبل . اما عملية التواصل وخاصة مع العالم الخارجي ، فانها نادرة ، باعتبار ان اكبر جزء من نفسك لا يمكن للآخرين ان يشاطروك فيه . ولهذا السبب ، فان هيئات الاستخبارات هي اكبر مستغل للناس . وقد بنيت هذه المهنة على أساس من هذه الصفة ، وكل شخص يلتحق بمثل هذه الاجهزة يعرف ذلك . على أنني في بداية حياتي العملية التقيت – وبشكل غير متوقع – مع رجل عملت خبرته التي اكتسبها على يد الاستخبارات البريطانية على فصل القشرة الخارجية للأهمية القومية عن العمل

بشكل كلي . وقد حدث هذا الأمر من خلال العمل الذي كنت أقوم به لصالح لجنة (براندريت) حول رنين الأصوات . لقد قضيت الكثير من الوقت وأنا أبحث عن الوسائل التي يمكن من خلالها تعديل الاشياء غير المضرة - مثل منافض السجائر والحلي - كي تصبح قادرة على الاستجابة للموجات الصوتية حينما يتم توجيه اشعاعات الميكروويف عليها بتردد معين . واذا ما قدر لهذا النظام ان يعمل بشكل جيد ، فانه يعد بميزات كثيرة ، من أهمها ان الشيء نفسه (الجسم) لن يحمل أي جهاز ارسال أو استقبال ، ولذلك فان عملية اكتشافه ستكون مستحيلة . وبحلول عام ١٩٥٦ كنا قد نجحنا في تطوير نموذج أولي ، وقررنا القيام بمحاولة عملية موجهة ضد السفارة الروسية في (لندن) .

في ذلك الوقت كان عضو البرلمان (هنري كيربي) وهو أحد عملاء (م آي ٥) قد أقام عدداً من الاتصالات مع الهيئة الدبلوماسية الروسية ، وبذلك أصبحت الخطة سهلة ، تمثلت في ان تقوم (م آي ٥) بتصميم حلية معدلة تعمل على عكس الصوت ، وعلى (كيربي) أن يقدمها كهدية الى السفير الروسي . وكان اول شيء أردنا معرفته هو أي نوع من الهدايا يمكن ان يكون السفير يرغب بقبوله ، وأن يضعها بشكل بارز على طاولة مكتبه أو في غرفة المكتب نفسها . ولهذا ، اقترح عليّ (مالكولم كمنغ) ان أقوم بزيارة واحد من الذين كانوا يشرفون على عملاء (م آي ٥) واسمه (كلوب اوستينوف) وهو والد الممثل (بيتر اوستينوف) .

كان (كلوب اوستينوف) ينحدر من أصل ألماني ، ومع هذا فقد كانت له صلات قوية مع الهيئة الدبلوماسية الروسية ، كما كان يقوم بزيارات متكررة الى السفارة الروسية . وكان يتمتع بميزة متفردة من حيث علاقته القوية مع الجيش الروسي ، والألماني ، والبريطاني . وقد عمل على نطاق ضيق في مجال الاستخبارات خلال فترة الحرب ، كما كان يتكلم عدداً كبيراً من اللغات ، يضاف الى كل هذا ان خلفيته الالمانية / الروسية جعلت منه مصدراً للحصول على المعلومات . وحينما تسلم (هتلر) زمام السلطة ، بدأ (اوستينوف) العمل بشكل قوي ضد النازيين وتمكن من التقرب الى (روبرت فانسيتارت - وهو دبلوماسي مشهور في وزارة الخارجية ، وكان معادياً للحركة النازية) وعرض عليه العمل لصالح الاستخبارات البريطانية ، زاعماً انه على اتصال ومعرفة بالبارون (وولفغانغ زو بوتليتز) الذي كان آنذاك السكرتير الاول في السفارة الالمانية في (لندن) والذي قال بانه يعمل سراً ضد النازيين . وقامت (م آي ٥) بتجنيد (اوستينوف) الذي بدأ بالحصول على معلومات استخباراتية على درجة كبيرة من الأهمية من (زو بوتليتز) تتعلق بالوضع الحقيقي لعملية تسليح الجيش الالماني . وكانت تلك المعلومات هامة ولا تقدر بثمن ، بل ربما كانت اكثر المعلومات ، التي تسلمتها بريطانيا خلال فترة ما قبل الحرب من مصدر انساني من حيث أهميتها .

وبعد ان تقابل (اوستينوف) و (زو بوتليتز) دأبا على تناول طعامهما مع كل من (تشرشل) و

(فانسيتارت) فـــي العـــراء ليقدمــا الى هذيـــن الأخيـــرين المعلومات التي حصلا عليها . وبذلك أصبح (زو بوتليتز) بمثابــة الابـــن الثانــي لهـــذا الدبلوماســـي البريطاني المدينــي . وحتــى انــدلاع الحــرب ، فان (اوستينوف) استمر بالالتقـــاء مع (زو بوتليتز) والـــذي كان يعمـــل وقتـــها كملحق جوي فـــي هولندا . وأخيـــراً ، ومـــع حلـــول عـــام ١٩٤٠ علـــم (زو بوتليتز) ان جهاز (الغستابو – الاستخبارات الالمانية) يتعقبه ، فـــقرر الهـــرب ، فانتقل (اوستينوف) مرة ثانية الى هولندا – وهو يتحمل مخاطرة شخصية كبيرة – حيث عمل على نقل (زو بوتليتز) الى شاطيء الامان .

اتجهت نحو منزل (أوستينوف) الكائن في منطقة (كينسنغتون) بواسطة سيارة أجرة ، وكنت أتوقع ان أقابل واحدا من أبطال العالم السري ، يعيش حياة مشرفة . غير ان (أوستينوف) وزوجته كانا يعيشان في الواقع ضمن منزل قذر يحيط به ركام من الكتب الجلدية القديمة ، اذ كان قد بدأ ببيع مكتبته التي أخذت تتناقص بسرعة .

وعلى الرغم من الصعوبات التي يعيشها (أوستينوف) الاّ انه انتشى طرباً من زيارتي ، فقد كان لا يزال يتحسس – كلاعب – اللعبة الكبيرة باطراف اصابعه . وضع كأسين صغيرتين ، وزجاجة من الفودكا ، وبدأ بدراسة الخطط التي أحضرتها معي من المكتب . كان جسمه مدوراً ، وصوته أجشاً وعلى معرفة بعدد من اللغات ، اضافة الى وجود عين ثاقبة ترى المصالح الحقيقية للدبلوماسيين السوفييت في منطقة (كينسنغتون بارك غاردنز) .

قال لي بصوت متهدج : " ان الخطر الحقيقي يا صديقي هو انهم سيقومون ببيع الهدية اكثر من قيامهم بعرضها وخاصة اذا كانت هدية ثمينة ... ان هؤلاء هم رجال بلاشفة ، رجال لهم ميولهم الارثوذوكسية ... الافضل ان تكون الهدية تمثالاً من الفضة لـ (لينين) أو مجسماً لمبنى الكرملين . ربما كانت هذه الاشياء مقدسة عندهم " .

وأوضحت له أنه من غير المناسب ان تكون الهدية تمثالاً نصفياً لـ (لينين) لأن الاطراف الناعمة في جمجمة (فلاديمير ايليتش لينين) هي مستديرة زيادة عن اللزوم الأمر الذي يجعل عملية انعكاس الصوت غير مضمونة ، في حين ان مجسماً للكرملين يمكن أن تكون فيه امكانيات أفضل ، اذ انه من السهـــولة بمكان اخفاء النمط الصحيح للفراغات المقعرة في هذا المبنى المعقد الذي يرمز الى روسيا الأم . وقد رأى (كلوب اوستينوف) العملية كلها انها جزء من مسرحية غنية ، وعرض ان يقوم بزيارة الى السفير للحصول على المزيد من الامور التي تدل بشكل مباشر على ذوقه ورغباته .

وحينما فعلت الفودكا فعلها ، بدأنا الحديث عن الأيام الخوالي . كان قد بدأ يهرم ، غير ان ذاكرته كانت لا تزال قوية ، وبدأت الدموع بالانهمار على وجنتيه حينما أخذ يروي لي ما الذي فعله هو و

(زو بوتليتنر) لصالح البلاد ثم خرج عن تحفظه حينما قال :

" لقد قمت بهذه الاشياء كلها يا (بيتر) وها هم يتركونني أنا وزوجتي هنا دون ان يعطونا ولا بنس واحد " فأجبته :

" لكن ماذا عن معاشك التقاعدي ؟ " وانفجر صائحاً :

" التقاعد ؟ ليس لي أي تقاعد ... عندما تعمل معهم فانك لا تفكر في المستقبل ولا في أيام الشيخوخة . انك تعمل لأنك تحب هذا العمل . وحينما يحين وقت الموت ، فانهم يتخلون عنك " .

وجلست صامتاً ، فقد كان من الامور التي لا يمكنني أن أصدقها هو انه يمكن ان يترك مثل هذا الرجل في مثل هذه الظروف التي تضطره للاستجداء . وكنت أود أن أسأله لماذا نسيه رجال مثل (تشرشل) و (فانسيتارت) غير أنني أحسست أنني بمثل هذا السؤال سوف أزيد من جراحه ، وتابع (اوستينوف) شرابه وهدأ من نفسه ، ثم قال لي في النهاية :

" ولكن ذلك كان ممتعاً " وسكب لنفسه المزيد من الفودكا بيد مرتعشة ، و رانت لحظة صمت ، تابع الكلام بعدها قائلا :

"هذا ولدي ، انه ممثل " وأشار بيده الى صورة ابنه الشاب (بيتر) الموجودة فوق رف المصطلى ، وتابع " هل لديك أطفال يا بيتر ؟ " فأخبرته ان لدي ثلاثة : فتاتان ، و ولد يافع .

قال بهدوء : " أخبره أن لا يلتحق بهم هناك ... انني لا أريد لولدي ان ينضم الى لعبتنا هذه ، فالسادة هناك يديرون العمل ، والسادة ذاكرتهم ضعيفة ..." .

وبدأت مرارته هنا بالتلاشي ، ثم سألني عن المكتب وعن (غاي ليدل) و (ديك وايت) و (مالكولم كمنغ) الذين كانوا جميعهم يعملون وإياه عن قرب خلال سنوات الحرب . وأخيراً عندما حل الظلام على الغرفة ، تركته . تصافحنا ، وعاد وحيداً الى الفودكا والى اكوام الكتب .

كنت تلك الليلة ثملاً ، وغير مستعد للقيام بأي شيء ، باستثناء الذهاب الى البيت . لكنني في صباح اليوم التالي فاتحت (كمنغ) في هذا الموضوع ، وبدا مرتبكاً ، فأجابني بصوت أعلى مما هو معتاد : " لكنني متأكد من أننا قمنا بصرف راتبة التقاعدي منذ سنوات خلت ... ياإلهي ، مسكين (كلوب) سأتحدث حول هذا الامر مع (ديك) بشكل عاجل " . ان أي عملية استقصاء لاحقة حول هذا الموضوع تعتبر حماقة ، لأن مسألة من هو الشخص الذي يجب ان يوجه اليه اللوم لنسيانه (كلوب اوستينوف) قد ضاعت في المطاردة حول غابة عليق المسؤولية ، وهي عملية يفضلها البيروقراطيون كثيراً عندما يتم اكتشاف أخطاء غير مقصودة ، وفي النهاية حصل (اوستينوف) على راتبه التقاعدي على الرغم من انني لم أره ثانية بعد ذلك اللقاء ، غير انه لم يلبث أن توفي بعد ذلك بفترة قصيرة . لكن أرملته – على الاقل – قد استفادت من الراتب . اما عملية الكرملين الفضي

فسرعان ما تم ايقافها بناء على تعليمات من وزارة الخارجية . والحقيقة ، فان قلبي قد انفطر بعد ظهر ذلك اليوم في (كينسنغتون) ومع هذا ، فقد تعلمت درساً لا أنساه أبداً : ان (م أي ٥) تتوقع من ضباطها ان يبقوا مخلصين لها حتى موتهم دون أن تكون هناك ضرورة كي ترد لهم الجميل .

وبشكل عام ، فان سنوات الخمسينات كانت سنوات المتعة ، وكان (الفرع أ) مكاناً لاثارة الضحك ، وكما كان (هيو وينتربورن) يقول دائماً : " ان (م اي ٥) حياة حافلة اذا كان باستطاعتك ان تتحمل الاثارة ! " على غرار ما حدث ذلك الوقت حينما كنا نقوم بتثبيت أجهزة تنصت في منزل آمن بجـوار السفـارة الهنغاريـة . فقـد تسلقـت السطح لنصب الانتين (الهوائي) فرآني أحد الجيران ، فسارع الى الابلاغ عن رؤيته للص يحوم حول المنزل . وخلال عشر دقائق كان رجال الشرطة قد أخذوا يقرعون الباب ومعهم الرجل الذي أدلى بالبلاغ ، وسادت حالة من الهرج . اما داخل المنزل فقد كنا محاصرين بآخر ما توصلت اليه التكنولوجيا من اختراعات : كانت أجهزة الاستقبال والكابلات ملقاة على عرض ارضية المنزل . وفي لحظة من اليأس قام (وينتربورن) برفع الالواح التي تغطي ارضية المنزل وبدأ بجرف عشرات الآلاف من الجينهات – هي قيمة المعدات – الى الاسفل . اما الطرق على الباب فقد أخذ يشتد ويعلو ، ثم لم تلبث الاكتاف الضخمة ان بدأت بكسر الباب الأمامي . وكان رجال الشرطة مقتنعين – من خلال الاصوات التي سمعوها من داخل المنزل – ان عملية سطو تجري في الداخل . وأخيراً ، حينما أصبح كل شيء على ما يرام فتحت باب المنزل وأنا في حالة من الارتبـاك وأوضـحت لهـم أننـي اقـوم ببعض الاصلاحات النهائية في المنزل بناء على طلب صاحبه ، وأعطيت احد رجال الشرطة رقم هاتف للاتصال به لكي يتاكد من حقيقة ما أقوله . وقد كان ذلك الرقم هوالرقم المحلي للفرع الخاص .

الأطـرف من كل هذا كان خلال قيامنا بعمل مماثل ضد السفارة البولندية في شارع (بورتلاند) . فقد كان البيت المجاور للسفارة فارغاً بشكل مؤقت ، وحصل القسم (أ ٢) على إ ذن لزرع مجموعـــة مــن الميكروفونــات . كنت أنا و (وينتربورن) نقود فريقاً مؤلفاً من اثني عشر ضابطاً من (الفرع أ) . كان الصمت خلال تنفيذ العملية مطلوباً لأننا كنا أن نعرف المبنى المستهدف مسكون دائماً من ناحية الجدار المشترك ، وأبديت أهتماماً كبيراً من حيث التاكيد على ضرورة ان يقوم كل واحد منا بخلع حذائه لتجنب إحداث أي صوت على الارضية الخشبية العارية . عملنا لمدة اربع ساعات متواصلة وفي جو شديد البرودة يصل حد التجمد . كنا قد قمنا برفع الارضية الخشبية في الطابق الاول ، وقمت بصبر وطول أناة بتمديد الكابلات على امتداد الفراغ الموجود بين العوارض التي تدعم الارضية . بعد مرور فترة من الوقت علق أحد الاسلاك باحدى العوارض المتفسخة . ولما كنت غير قادر على أن ازيل هذا العائق باليد ، فانني بدأت أرخي نفسي الى الأسفل حتى أسند إحدى قدمي على

مسمار بناء كان يبرز من إحدى جوانب احد العوارض . وحينما كنت احاول الوصول الى الكابل العالق انخلع المسمار في حين سقطت من خلال السقف الى الاسفل ، وقد انهار جزء كبير من السقف من على ارتفاع اربعة عشر قدماً الى الارض ، فتردد صوته على امتداد ساحة (بورتلاند) وكأنه قنبلة من أيام الحرب . وتلاشى الصوت و كذلك الغبار ، ووجدت نفسي ما ازال معلقاً في الفتحة الموجودة في السقف . وساد صمت مطبق للحظة من الزمن . قال (وينتربورن) مازحاً : " خيراً فعلنا حينما خلعنا أحذيتنا " وتردد صدى ضحكاتنا في أرجاء المبنى الفارغ .

ولحسن الحظ ، فان الجيران كانوا يغطون في النوم لأنه لم يصل الى المكان أي رجل شرطة . وقام (ليسلي جاغر) باعادة اصلاح الارضية ، حيث أعاد ترميم ودهان ما اتلفناه قبل حلول الصباح مستخدماً المواد سريعة الجفاف . وقال لي وهو يضع آخر مسحة من الدهان : " لقد نجوت باعجوبة يا (بيتر) .. " . غير ان مثل هذه الحوادث كانت نادراً ما تقع . وبشكل عام فان العمليات الفنية التي كانت تقوم بها (م آي ٥) تحت اشراف (وينتربورن) وإشرافي ، أصبحت عمليات محترفة على مستوى عال ، وبشكل مغايرتماماً لنشاطات (م آي ٦) في نفس المجال . وفي منتصف سنوات الخمسينات لم يكن باستطاعة (م آي ٦) التغلب على أي كارثة فيما لو وقع ما لم يكن في الحسبان اما افضل مثال على ذلك فهو ما سمعته عن قضية تتعلق باحدى عملياتهم التدريبية . فقد تم وضع أحد الضباط الصغار في شقة تابعة لـ (م آي ٦) وطلب الى فريق من رجالهم المجندين القيام باستجواب هذا الضابط ، وكان يتم اعلام (م آي ٥) بشكل روتيني عن هذه العمليات في حال وقوع خطأ ما .

وفي بعد ظهر أحد الايام تلقى القسم (أ ٢) مكالمة هاتفية من (م آي ٦) تناشدهم المساعدة والتفاصيل كما يلي : لقد أخطأ فريق المجندين الذين أوكلت اليهم مهمة التحقيق مع الضابط في رقم الطابق الذي يحتجز بداخله الشخص المستهدف (الضابط) فقاموا بفتح الطابق الموجود فوق الطابق الهدف مباشرة ، ودخلوا هناك للمباشرة في العمل مع الرجل الموجود في الداخل . وكان من الطبيعي ان يعلن هذا الرجل براءته مما نسب اليه ، لكن فريق (م آي ٦) وقد ظنوا ان إنكار الرجل لما ينسب اليه هو جزء من المخطط المرسوم ، لجأوا الى كتاب التعليمات الخاص بـ (م آي ٦) وقرأوا فصل (الاقناع) وأخذوا يطبقون ما ورد فيه على اكمل وجه . وحينما انتهوا من ذلك كان الرجل قد أصبح عارياً ، ويزقزق مثل العصفور . لقد كان هذا الرجل في الواقع لص مجوهرات قام مؤخراً بعملية سرقة ألماس ، ولذلك ، فانه قدم ما بحوزته مَن جواهر وهو يعتقد بأن هؤلاء الزوار (فريق م آي ٦) هم أفراد من العالم السفلي* ويودون الانتقام منه .

ضحك (هيو وينتربورن) ملء شدقيه من ضابط (م آي ٦) التعيس الذي كان يستجدي النصح

*العالم السفلي : عالم الجريمة أو ما شابه ذلك (المترجم)

والمشورة فيما يجب عمله بلص المجوهرات ، وبالألماس المسروق ، وكذلك بالطابق الخرب . وفي النهاية أعطي اللص مهلة ساعتين لمغادرة البلاد الى احدى المدن الاوروبية وقام (ليسلي جاغر) بالذهاب الى المنزل لاصلاح الاضرار .

بعد أن قضيت في القسم (أ ٢) سنتين أو ثلاث سنوات بدأت (م آي ٦) اتصالاتها معي لمساعدتهم في التخطيط لعملياتهم الفنية . ولم أشعر أبداً بكثير من المتعة في العمل معهم . وكانت عملياتهم الرتيبة تحظى بفرص ضئيلة من النجاح حيث كانوا دائماً يتطلعون – على غرار عملية نفق برلين – الى شيء له أهميته الكبرى ، ويجعل الامريكيين يتعطشون للمشاركة في الانتاج . غير أنهم لم يجدوا هذا الشيء الذي يبحثون عنه أبداً ، وفشلوا في النهاية ، حتى في اقامة أساس متين لأي نجاح صغيـر . يضـاف الـى ذلـك ايضـاً هذا التبجح اللامسؤول حول الطريقة التي يتصرفون ويعملون بها ، والتي شعرت دائماً أنها تشكل خطراً على أمن العمليات . ففي (بون) وعلى سبيل المثال ، كنا نخطط لعملية بنفس اسلوب عملية (ديو وورم) ضد مجمع السفارة الروسية .

تردد ضباط محطة (م آي ٦) في (بون) على موقع العملية ، بل انهم في احدى المناسبات أداروا حديثاً – بشكل عرضي – مع حرس أمن السفارة وهم من (ك ج ب) . كانت هذه الأحاديث تعتبر مفيدة كقصص تروى بعد تناول طعام العشاء غير انها لم تكن تقدم الكثير من المعلومات الهامة التي يمكن ان تكون مفيدة في التقرير الاستخباراتي الاسبوعي . وكان التهور يظهر خلال صدور فلتات تفاخر غير معقول . وفي (بون) تقدمت باقتراح معقول يتمثل في أنه يجب علينا ان نستخدم كابلات من نوعية المانية ، تكون ذات فائدة في حال اكتشاف العملية بحيث يمكن لـ (م آي ٦) ان تتبرأ منها ، ويقع اللوم على الاستخبارات المحلية (الالمانية) .

وصرخ رئيس محطة (م آي ٦) في (بون) قائلاً : " يا الهي ، اننا لا نستطيع القيام بذلك يا بيتر ... انه أمر غير أخلاقي " .

وحسب ما يمكنني تأكيده ، فان موضوع الأخلاق كان يطرح من قبل (م آي ٦) خصيصاً لاستهـلاك (الوايت هول) و (م آي ٥) . وفـي الحقيقـة ، فـان (م آي ٦) وتحـت ظـل رئيسهـا (السير جون سنكلير) لم تكن قادرة على ان تواجه ببسالة النتائج المرعبة الناجمة عن كون (فيلبي) جاسوساً سوفييتياً . كما انها كانت تعمل في هذا العالم الحديث وهي لا تزال تتمسك بمواقف سنوات الثلاثينات وكذلك بطاقم ومعدات هذه السنوات . ولم أدهش كثيراً حينما ارتكبوا في شهر نيسان عام ١٩٥٦ أفدح أخطائهم وأعني (قضية كراب) .

فقد قام الزعيمان السوفييتيان (خروشوف) و (بلغانين) بزيارة الى بريطانيا على متن البارجة الحربية (أوردجونيكيدز) والتي رست في ميناء (بورتسماوث) . ولقد كانت هذه الزيارة تهدف الى

تحسين العلاقات الانكليزية – السوفييتية في فترة كانت تمتاز بحساسيتها . وقررت (م آي ٥) العمل ضد (خروشوف) في غرفته في فندق (كلاريدج) . وبشكل طبيعي ، فان أنظمة الهاتف في فندق (كلاريدج) كانت موضوعة تحت (نظام التسهيلات الخاصة) بشكل دائم وذلك لأن العديد من الذين يقيمون في هذا الفندق هم مثار اهتمام (م آي ٥) . لكننا كنا قد علمنا ان الروس سيرسلون فريقاً من المفتشين للقيام بتمشيط الجناح الذي سيقيم فيه (خروشوف) قبل وصوله ، ولذلك اتخذنا قراراً بـان هـذا هـو الوقـت المناسـب كي نستخدم لأول مرة (نظام التسهيلات الخاصة) المعدل خصيصاً ، والذي قام (جون تيلر) بتطويره في مختبرات (دوليس هيل) . لم يكن نظام التسهيلات الخاصة الجديد يتطلب تثبيت اي رقاقة معدنية او مطاطية ، ولذلك ، فانه كان من المستحيل اكتشاف وجوده . أما جهاز الهاتف فقد كان بالامكان تنشيطه لمسافات قصيرة باستخدام ميغاسايكل بتردد عال . ووضعنا جهاز تنشيط لنظام التسهيلات الخاصة في مكتب يقع في مباني (غروسفينور) بالقرب من فندق (كلاريدج) . عمل هذا النظام بدقة متناهية ، حتى ان غرفة (خـروشوف) كانـت تحت سيطرتنا تماماً طوال مدة زيارته . وللحقيقة ، فان المعلومات الاستخباراتية التي حصلنا عليها لم تكن ذات قيمة ، اذ ان (خروشوف) كان رجلاً حكيماً الى حد بعيد ، بحيث لم يكن ليعمد الى بحث أي شيء له قيمته وأهميته في غرفة فندق . وأتذكر كيف كنت أجلس في الطابق السابع ، والى جانبي مترجم يقوم بأعمال الترجمة بدون دقة واحكام . وقد استمعنا الى (خروشوف) ساعات طويلة ، ونحن نأمل أن تتساقط الجواهر من فمه ولكن لم تكن هناك حتى ولا معلومة عن الأيام الأخيرة لـ (ستالين) أو عن مصـير (بيريا) رجـل الـ (ك ج ب) . وعوضـاً عـن ذلك فقد كان هناك مونولوج طويل موجه من (خروشوف) الـى خادمه الخـاص يتعلق بملابسه (خروشوف) . كـان رجلاً مختالاً بشكل غير عادي ، فقد كان يقف أمام المرآة ساعات طويلة وهو يهندم نفسه ، ويعتني بفرق شعره . وقد استذكرت هذه الأمور عند (ايدن) وها هو (خروشوف) الند الصحيح له . فقد كانا كلاهما رجلين مجردين من الضمير ، واهتمامهما الوحيد يكمن في الظهور على مسرح العالم .

وفي الوقت الذي كانت فيه (م آي ٥) تقوم بالتنصت – وبشكل حذر – على (خروشوف) كانت (م آي ٦) تقوم بشن عملية خرقاء على (اوردجونيكيدز) . كانت العملية تتم باشراف محطة لندن التابعة لـ (م آي ٦) وبقيادة (نيكولاس إيليوت) ابن المدير السابق لمدرسة (ايتون) . كانت (م آي ٦) تريد الحصول على مقياس داسر* البارجة الروسية ، لأنه كان هناك قلق يدور في الأدميرالية حول السبب الـذي جعل هذه البارجة تسير بسرعة اكبر من السرعة التي قدرتها الاستخبارات البحرية . وقد اتخذ (إيليوت) تـرتيباته كـي يقـوم القائـد التعيـس " بـوستر / كراب " بهـذه المهمة ، وهو من

* الداسر : ريشة الدفع الموجودة في البارجة والتي تسيرها (المترجم)

رجال الضفادع البشرية .

في الواقع ، لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تحاول فيها (م آي ٦) القيام بهذه العملية ، إذ انها قد حاولت من قبل الحصول على معلومات تتعلق ببدن البارجة (اوردجونيكيدز) وبغلافها حينما كانت ترسو في أحد الموانيء السوفييتية . وقد استخدموا لهذا الغرض إحدى الغواصات الصغيرة التي كانت (م آي ٦) تحتفظ بها في خليج (ستوكيس) . كان هذا النوع من الغواصات يتميز بوجود نوع من المقصورات الجافة التي تمكن طاقمها من الدخول والخروج منها ، وهي صغيرة الى حد يصعب معه اكتشافها على الشواطيء البحرية . وقد حاول أحد رجال الضفادع التابعة للاسطول البحري الحربي الدخول الى الميناء الا ان الاحتياطات الامنية كانت مشددة جداً ، وبذلك فشلت هذه المهمة .

اما المحاولة الثانية التي تمت في ميناء (بورتسماوث) فقد انتهت الى كارثة اذ ان (كراب) كان قد ازداد وزنه ، اضافة الى أنه قد تقدم في العمر . لقد اختفى الرجل ولم يظهر ثانية ، على الرغم من أن الجسد الذي لا رأس له ، والذي طفا على وجه الماء فيما بعد لم يحسم الأمر نهائياً على انها جثته . وقد أخبرني (جون هنري) الضابط الفني في محطة (م آي ٦) في (لندن) أن (م آي ٦) كانت تخطط لعملية (كراب) وقد أخبرت (كمنغ) بذلك ، وكان يشك بنجاح العملية منذ البداية ، وهي نموذج لمغامرات (م آي ٦) التي لا تفكير فيها ، والتي تنفذ بشكل سيء . غير اننا جميعاً ابقينا اصابعنا متصالبة * . وبعد مرور يومين ، وصل (جون هنري) الممتليء ذعراً الى مكتب (كمنغ) ليخبرنا أن (كراب) قد اختفى ، وكان يقول مردداً : " لقد اخبرت نيكولاس ان لا يستخدم (بوستر) . لقد كان مصاباً بنوبة قلبية " . لقد كنا نتشكك الى حد بعيد في موضوع النوبة القلبية ، ولكن لم يكن هناك أي مجال من الوقت للتكهنات . اما اللعبة السرية التي لعبتها (م آي ٦) فقد كانت خطرة لدرجة أنها كادت تصبح فضيحة عامة الى حد مربك . فقد كان (كراب) ومرافقه من (م آي ٦) قد وقعا على اوراق الفندق في (بورتسماوث) باسميهما الصريحين .

قال (كمنغ) : " سيكون الأمر مرعباً اذا انكشف ... .

ثم دلف بسرعة الى غرفة مكتب (ديك وايت) وطلب مقابلته بشكل فوري . صعدنا جميعنا الى الطابق العلوي . كان (ديك) يجلس وراء طاولة مكتبه ، ولم تكن تبدو على شفتيه أي ابتسامة ترحيب ، وكان التجهم قد بدا على وجهه وكأن سنوات ملامح مدير المدرسة قد عادت ، وقال باختصار : " لقد سأل الروس الادميرالية للتو عن رجل الضفادع ، وقد نفى هؤلاء ان يكون لهم علم بذلك . ان ما أخشاه انه يبدو لي انه لن يمر وقت طويل حتى ينكشف الأمر " . وبغضب مفاجيء ، قال :

" جون ، كيف ورطت نفسك في هذه القضية ؟ " .

---

* مصالبة الاصابع : هي اشارة ترمز الى الأمل وجلب الحظ (المترجم)

كان (هنري) مهذباً ، وأوضح أن سلاح البحرية كان يضغط عليهم منذ عدة شهور من أجل الحصول على معلومات مفصلة تتعلق بداسر البارجة (اوردجونيكيدز) وتابع بخشونة : " انت تعرف (ايدن)... في لحظة من اللحظات يقول ان باستطاعتك ان تعمل شيئاً ما ، وفي اللحظة التالية يقول ما يناقض ذلك . لقد اعتقدنا انها مجازفة مقبولة علينا القيام بها " .

وبدا على (وايت) انه غير مقتنع . أخذ يملس على صدغيه ، ويخلط اوراقه . كانت الساعة تتكتك بنعومة في الزاوية ، كما كانت علامات الهلع تنبعث من كل جوانب الغرفة .

أخيراً ، قال وهو يكسر جدار الصمت المؤلم : " يجب ان نفعل كل ما نستطيع فعله من أجل مساعدتكم ... سأذهب لمقابلة رئيس الوزراء هذا المساء وسأرى فيما اذا كان باستطاعتي انهاء هذا الأمر . وفي غضون هذا الوقت سيضع (مالكولم) القسم (أ ٢) تحت تصرفكم " .

انسحب (جـون هنري) خارج الغرفة وعلائم الشكر تبدو على محياه في حين اتصل (كمنغ) هاتفيا مع مديرية الاستخبارات في (بورتسماوث) ورتب معهم عملية تصحيح سجلات الفندق . وأسرع (وينتربورن) و (هنري) الى (بورتسماوث) من أجل العمل على حل أي اشكالات أخرى . غير ان كل هذه الجهود لم تكن كافية لتجنب الفضيحة ، اذ ان (خروشوف) أدلى تلك الليلة ببيان اتهام رسمي حول قضية رجل الضفادع ، الأمر الذي اضطر (ايدن) الذي كان يشعر بالخزي والمذلة الى تقديم بيان في مجلس العموم .

ان مجتمع الاستخبارات في (لندن) يشبه قرية صغيرة تقع في اقطاعية لأحد الكونتات . ان معظم أفراد المراتب العليا يعرف كل واحد منهم الآخر الى درجة تكفي على الأقل كي يتناولوا مشروبهم مع بعضهم البعض في النوادي التي ينتسبون اليها . وبعد مرور أسابيع قليلة على قضية (كراب) بدأ الهمس و اللغط في القرية حول التوقعات في تصفية الحسابات المحتومة والتي يعرف كل شخص بأنها واقعة لا محالة . وكأحد الاشخاص الذين يعملون داخل (م آي ٥) وكانوا على علم بقضية (كراب) حتى قبل وقوعها فانني لزمت الصمت بناء على نصيحة (جون هنري) .

بعد مرور فترة ، اعترف (جون هنري) أمامي قائلاً باختصار : " لقد كانت الدماء تسيل على الأرض ... لقد أرسلنا (ادوارد بريدجز) ليتفقد المكان " .

بعد مرور فترة قصيرة أخرى ايضاً ، دخل (كمنغ) الى غرفة مكتبي ذات صباح ، وكان الانزعـاج يبـدو واضحـاً عليـه حيـث قال : "سيغادرنا (ديك) ... انهم يريدونه ان يتسلم ادارة م آي ٦ " . ان قرار تعيين (ديك وايت) رئيساً لشعبة (م آي ٦) هو باعتقادي من اكثر الاخطاء أهمية في تاريخ الاستخبارات البريطانية في فترة ما بعد الحرب . لقد كانت هناك بعض بوادر التحديث في جهـاز الاستخبارات في منتصف سنوات الخمسينات ، غير ان (م آي ٥) وتحت قيادته كانت قد

اتخـــذت اولى الخطــوات المضطربــة في مسيرة التحديث . فقد كان مدركا لضرورة التغيير ، ومع هذا ، فقد كان يحترم التقاليد التي مكنته من تحقيق أهدافه دون اي صعوبات . وقد كان – علاوة على كـل ذلـك – ضابطـاً مـن ضبـاط التجسس المضـاد ، وبشكل مؤكد من اعظم ضباط القرن العشرين ، ومؤهلاً تماماً لمنصب المدير العام . كان يعرف الناس ، ويعرف المشاكل ، وكانت لديه رؤية عن نوعية فعالية مؤسسة التجسس المضاد التي يريد إقامتها . وعوضاً عن ذلك ، وحينما بدأت مسيرة عمله ، تم نقله بناء على نزوة سياسي ، الى مؤسسة لا يعرف عنها الاّ القليل ، وكانت معادية لانتقاله اليها بشكـل عميـق . ولـن يكون ناجحاً في هذه المؤسسة التي انتقل اليها كما كان ناجحاً من قبل في (م آي ٥) .

ولم تكن الخسارة خسارة (م أي ٥) فقط . فقد كانت المشكلة الرئيسية في جهاز الاستخبارات البريطانية في فترة ما بعد الحرب تتمثل في افتقاد التفكير الواضح والصحيح حول الدور المتناسب لمختلف اجهزة الاستخبارات . ففي الفترة التي تلت مرحلة الامبراطورية ، كانت بريطانيا تتطلب وجود مؤسسة استخباراتية محلية فعالة . أما (م آي ٦) وبعد اقامة قيادة الاتصالات الحكومية ، فقد تضاءلت أهميتها . غير ان نقل (ديك وايت) اليها قد عزز وضعها ، و حائلاً دون ظهور مجتمع استخباراتي معقلن ، كما حكم على الجهاز الذي كان يعمل فيه (م أي ٥) بالاهمـال لمدة عشر سنوات . ولو بقي في منصبه لكان بامكان (م آي ٥) ان تشفى من جراحات سنوات الستينات وسنوات السبعينات ، ولتسلحت بافضل الوسائل لتواجه تحديات سنوات الثمانينات .

تمت عملية مغادرة (ديك وايت) لشعبة (م آي ٥) بسرعة غير لائقة . فقد تمت عملية جمع الاموال بشكل سريع ، وكان مجموع ما تم تحصيله كبيراً ، فتم تقديم هدية اليه هي عبارة عن مجموعة من الفضيات الانكليزية القديمة ، وذلك خلال حفلة اقيمت في مقصف شعبة (م أي ٥) . كانت تلك الحفلة مناسبة عاطفية . فقد زعم اولئك الذين كانوا يعرفون (ديك وايت) جيداً – في ذلك الوقت لم اكن واحداً منهم – انه كان يتعذب كثيراً بسبب انتقاله الى (م آي ٦) ربما لأنه أصبح على يقين من أنه سيغادر مقر عمله ، ولم يكن قد أنجز ما كان يود انجازه كاملا . كان (ديك) على وشك البكاء حينما ألقـى كلمته التي تحدث فيها عن أيام ما قبل الحرب ، وعن عصبة الاصدقاء التي كونها خلال تلك الفترة . وتوجه بالشكر الى (كمنغ) الذي شجعه على الانضمام الى الجهاز ، كما تحدث بافتخار عن سنوات الحرب ، وتمنى لنا الخير ، ثم أوصانا قائلاً :

" لقد التقيت بعد ظهر هذا اليوم رئيس الوزراء الذي اكد لي تمنياته القلبية بالخير لجهازنا . ويسرني أن أعلن أنه قام بتعيين نائبي (روجر هوليس) خلفاً لي ، وذلك اثباتاً وتأكيداً لثقته بجهازنا . وانني متأكد انكم توافقونني ان الجهاز لن يكون بين أيد أمينة اكثر من هذه " .

تقدم شخص طويل ، يرتدي بذلة مخططة ، انحنى قليلاً ، ثم صافح (ديك وايت) . اما حقبة التأنق والحداثة فقد ولّت .



لم يكن (روجر هوليس) يحظى بأي شعبية داخل أوساط جهاز (م آي ٥) مطلقاً . فقد كان رجلاً قاسياً غير ملهم ويتخذ دوماً هيئة الرجل المتسلط . ويجب عليّ ان أعترف أنني لم أحبه أبداً ، حتى اولئك الذين كانوا يميلون اليه كانوا يشكون في ان يكون مناسباً لهذا المنصب الكبير . وعلى غرار (كمنغ) فقد اقام (هوليس) علاقة صداقة زائفة ووطيدة مع (ديك وايت) خلال أيام ما قبل الحرب . وعلى الرغم من ذكائه وتألقه فان (ديك) كانت لديه دائماً ميول لأن يحيط نفسه بالرجل الأقل كفاءة . وقد كنت أشعر في كثير من الأحيان أن مثل هذا التصرف هو دليل على القلق وعدم الاستقرار ، و ربما كـان يريد من وراء هذا ان يظهر مواهبه بشكل بارز ، وبالمقارنة مع كفاءات هؤلاء . وعلى الرغم من أن (هــوليس) كان اكثر ذكاء من (كمنغ) وخاصة في المجال البيروقراطي ، الاّ انني أشك فيما اذا كان (ديك) قد رأى فيه ذلك الرجل الذكي وصاحب الرؤية البعيدة .

كان (هوليس) يعتقد انه يجب على (م اي ٥) ان تبقى منظمة صغيرة مهمتها القيام بتدعيم الأمن عن طريق تجميع الملفات ، والقيام بعمليات التقصي الكافية التي تعمل على حماية الأمن ، وكل ذلك يجب ان يتم دون أن تدخل في متاهة مجالات أخرى مثل مجالات التجسس المضاد، حيث يكون من الضــرورة وجود مقاييس فعالة للحصول على النتائج وحيث يجب ان يتم اتخاذ الخيارات ووقوع الأخطاء . ولم أسمع (هوليس) على الاطلاق وهو يشرح وجهات النظر التي تعبر عن السياسات العريضة التي يريد لـ (م آي ٥) أن تنتهجها أو انه يريد تهيئة (م آي ٥) كي تساير السرعة المتزايدة لحرب الاستخبارات . وباختصار ، فانه لم يكن ذلك الرجل الذي يفكر بهذه الطريقة . فقد كان لديه

هــدف بسيط و يسعــى باصرار طوال فترة عمله من أجل تحقيقه . فقد كان يريد ان يفوز هو وجهاز (م آي ٥) بالحظوة لدى (الوايت هول) وكان ذلك يعني ضمان عدم وقوع أخطاء حتى ولو كان ثمن ذلك عدم وجود أي نوع من النجاح . لقد ترعرع (هوليس) في منطقة (سومرست) حيث كان والده مطــران (تونتون) . وبعد أن أنهى دراسته في مدرسة حكومية في (كليفتون) و دراسته الجامعية في (اوكسفورد) سافر الى الصين قبل ان يلتحق بشعبة (م آي ٥) في أواخر سنوات الثلاثينات . اما خلال فترة الحرب فقد كان متخصصاً بقضايا الشيوعية باعتباره مساعد مدير (الفرع ف) وتحت قيادة (سيليتوي) تمت ترقيته ليصبح مدير (الفرع ج) بحيث أصبح مسؤولاً عن كافة أشكال الاستقصاء والحماية الأمنية ، مثل تصنيف الوثائق ، وزرع الانظمة الامنية في كافة المباني الحكومية . وقد أخذت خدمته في (الفرع ج) بعين الاعتبار من حيث ملاءمته لهذا العمل وذلك حينما أصبح أخيراً المدير العام .

حينما أصبح (ديك وايت) خلفــاً لـ (سيليتوي) كمدير عام سنة ١٩٥٣ قام بتعيين (هوليس) مساعــداً لــه . و من حيث الظاهر كان هذا التعيين معقولاً ، في حين ان (ديك) كان يفكر ويخطط بأن (هـــوليس) سيقــوم بتوفير المواهب الادارية الجيدة التي يفتقدها (ديك) نفسه . ولم نصطدم أنا و (هوليس) مطلقاً كرجل له مطامحه خلال الفترة التي عرفته فيها كنائب مدير ، وها هو قد بلغ مرتبة أعلى من كل توقعاته ، وكان يبدو سعيداً بان يقضي السنوات الاخيرة من عمله بأن يكون ذراع (ديك) وموضع ثقته . اما الشيء الوحيد الذي أمكن معرفته عن هذا الرجل الذي تحيط به السرية التامة فهو علاقته الطويلة مع سكرتيرته الطموحة التي انتقلت معه الى مكتب المدير العام – بعد انتقال (ديك) الى (م آي ٦) – بحماس يفوق حماسة (هوليس) . وكما أعتقد ، فان (هوليس) كان يعرف دائماً ما يعانيه من قصور وعجز ، ولذلك ، فانه سعى حالما تم تعيينه الى تغطية هذا العجز من خلال اعتماده على استخدام ما بين يديه من سلطة بقسوة . وكانت النتيجة الحتمية لذلك هو تراجع سريع لكل ما كان الناس قد حملوه له من مودة في الأيام الأولى من توليه منصب المدير العام .

لقد تسلم (هوليس) منصبه هذا في وقت كان يشهد انهياراً مستمراً في العلاقات بين مختلف فــروع أجهــزة الاستخبــارات البريطانية . فقد كانت هناك دائماً توترات مستمرة بين (م آي ٥) و (م آي ٦) تعود في جذورها الى السنوات الأولى من اقامتهما . غير ان هاتين الشعبتين برزتا بعد الحرب العالمية الثانية ولأول مرة كشريكتين في بيروقراطية استخباراتية منسقة الى جانب قيادة الاتصالات الحكومية التي كانت قد شكلت حديثا لتكون مسؤولة عن كافة أشكال الاتصالات و الاشارات الاستخباراتية (للاطلاع بشكل مفصل على هذا الموضوع يمكن الرجوع الى كتاب كريستوفر آندرو الذي يحمل عنوان : الخدمة السرية) . ولكن على امتداد عشر سنوات فان هذه العلاقة المتينة والفعالة

قد تحطمت بشكل تام ، اذ أصبحت (م آي ٦) تكن العداء الشديد لـ (م آي ٥) نتيجة لما كانت تراه بأنــه محــاولات غير مقنعة من جانب (م آي ٥) للتدخل في قضية (فيلبي) . علاوة على ذلك ، فان (م آي ٦) بــرمتها كانــت تــرى فـــي قيام (ايدن) بتعيين (ديك وايت) مكان (سنكلير) انه إهانة كبرى لها .

اما نقطة الضعف الاكثر خطورة فقد تمثلت بالافتقار الى الاتصال والترابط بين (م آي ٥) وقيادة الاتصالات الحكومية . فقد عملت (م آي ٥) خلال فترة الحرب بتعاون وثيق مع قسم استخبارات الاشارات التابع لها والمسمى هيئة امن الاتصالات وذلك بموجب نظام الصليب المزدوج . كانت هيئة أمن الاتصالات تقوم باعتراض وحل رموز الشيفرة التي كانت تستخدمها الاستخبارات الالمانية الأمر الذي مكن (م آي ٥) من اعتقال الجواسيس الالمان الوافدين الى بريطانيا حال نزولهم في أراضيها . وكانت هيئة امن الاتصالات خاضعة لاشراف (م آي ٦) وتعمل لصالح (م آي ٥) . اما (الفرع ب) فقــد كان يشـرف على عملية فرز و تصنيف هؤلاء العملاء ، حيث تتم عملية توجيه اولئك الذين هم على استعداد للتعاون مع بريطانيا ، فيبدأون بارسال تقارير مزيفة الى الألمان بواسطة الاجهزة اللاسلكية ، في حين كان يتم اعدام الذين يرفضون القيام بذلك . ان نجاح اي عملية بث للمعلومات المضللة انما يعتمد على امكانية مراقبة ومعرفة مدى ما يتقبله عدوك من هذه المعلومات التي تقــدمها له . ومن خلال عمليات الاعتراض اللاسلكي التي كانت هيئة أمن الاتصالات اللاسلكية تقوم بها ، ومن خلال تحليلها لرموز شيفرة القوات المسلحة الالمانية ، تمكنت (لجنة العشرين) التي كانت تدير عملية الصليب المزدوج من خلال عملية (انيغما) من التعرف بدقة على مقدار التأثير الذي خلفته عمليات التضليل التي مورست على السياسة العسكرية الالمانية .

في الفترة التي تلت انتهاء الحرب ، أظهرت (م آي ٥) التي كانت قد خلت من النخبة المثقفة الذكية التي كانت موجودة لديها أيام الحرب ، اهتماماً ضئيلاً في مجال تعزيز الاتصال الاستخباراتي المتعلق بالاشارات اللاسلكية . وعلى كل الأحوال فان هذه الشعبة (م آي ٥) قد فقدت سيطرتها الشكلية على هيئة امن الاتصالات اللاسلكية منذ بداية الحرب لصالح (م آي ٦) . الاّ ان أقوى عائق كان قيادة الاتصالات الحكومية التي قامت بفرض احتكاراتها على كافة اشكال استخبارات الاتصالات والاشارات اللاسلكية . وحينما التحقت بشعبة (م آي ٥) بدوام كامل عام ١٩٥٥ فان مستوى الاتصال والارتباط مع قيادة الاتصالات الحكومية كان قد تراجع الى حد عقد اجتماع لمرة واحدة كل ستة شهور بين ضابط من (م آي ٥) وضابط اداري برتبة عالية من قيادة الاتصالات الحكومية . وفي شهر شباط من عام ١٩٥٦ حضرت لأول مرة واحداً من هذه الاجتماعات . كانت التجربة عقيمة ، ولم يكن هناك حتى ولا شخص يبدو انه يقدّر ان قيادة الاتصالات الحكومية لها دور حيوي ، وعليها ان تلعبه في الحرب

الباردة – كما كان الأمر عليه في الحرب العالمية الثانية – من أجل مساعدة (م أي ٥) في مهمتها الأساسية المتمثلة في مجال التجسس المضاد . كما انه لم يكن هناك من يدرك – مع التقدم الفني الذي أحرزته م أي ٥ – انه توجد وسائل كثيرة يمكن ان تقوم بها (م أي ٥) لمساعدة قيادة الاتصالات الحكومية . وبدأت بسرد قائمة من الاقتراحات ، كان اولها ضرورة التدقيق فيما اذا كان الروس يتنصتون على الاتصالات اللاسلكية لقسم المراقبة والتعقيب . غير أن (بيل كولينز) مندوب قيادة الاتصـــالات الحكـــومية بـــدا وكأنه ينبذ تماماً هذه البداية والايجابية لعمل اللجنة ، حتى انه كان يقول : " يجب ان أحصل على بعض الدلائل على هذا الأمر ... واعتقد فعلاً انه ليس لدينا الوقت الكافي كي نبدده في مثل هذه الأمور " .

شكـــوت الـــى (كمنغ) ما حدث ، لكن هو الآخر بدا غير مهتم ، إذ قال : " انه شأنهم الخاص ، من الأفضل ترك ذلك لهم " .

اما ضابط (م أي ٥) الذي كان يقوم بمهمة الارتباط والاتصال مع قيادة الاتصالات الحكومية فقد كان (فريدي بيث) ويدير عدداً من العملاء ويعمل لصالح (الفرع د) وهو ضابط معروف بنشاطه . كان ابوه من (ويلز) وأمه اسبانية ، الأمر الذي جعله يكن حباً متوقداً لمزاولة لعبة (الركبي – نوع من انواع لعبة كرة القدم) اضافة الى حالة من النزق سريع الزوال . وقد كان يتكلم الالمانية بطلاقة ، وعمل خلال فترة الحرب في نظام الصليب المزدوج حيث قام بالاشراف على العملاء المزدوجين في اسبانيا والبرتغال . اما ارتباط (بيث) وعلاقته مع قيادة الاتصالات الحكومية فقد نجم عن عملية (هالت) التي كان يديرها . بدأت هذه العملية في مطلع سنوات الخمسينات حينما سألت قيادة الاتصالات الحكومية شعبة (م أي ٥) فيما اذا كان باستطاعة الشعبة أن تقوم بتقديم مساعدتها للحصول على معلومات استخباراتية عـن الشيفـــرات الـــدبلوماسية المستخدمة في (لندن) . وقد أشرف (بيث) على عملية (هالت) حينما طلب من عملاء (الفرع د) الذين يعملون داخل السفارات القيام بمحاولات للاقتراب من غرف الشيفرة . وقد كانت قيادة الاتصالات الحكومية تأمل ان يتمكن واحد من عملاء (بيث) من سرقة بعض أشرطة الشيفرات التالفة بحيث يتمكنون من استخدامها لمهاجمة الشيفرة .

واندفع (بيث) بحماس لتنفيذ هذه المهمة ، الا انها كانت مهمة مستحيلة في الواقع ، اذ ان غرف الشيفرات في غالبية السفارات – وعلى الأخص في السفارات السوفييتية – كانت تقع في مناطـــق محظـــورة داخل المجمعات ، وبذلك كانت امكانيات التسلل اليها غير واردة . وعلى الرغم من هذا ، فان (بيث) تمكن من تحقيق نجاح بارز في عملية (هالت) وذلك حينما قام بتجنيد عميل يعمل داخل السفارة التشيكوسلوفاكية كان يتمتع بحرية الوصول الى مفاتيح خزنة الشيفرة الرئيسية . وتحت اشراف (ليسلي جاغر) قام هذا العميل بطبع شكل المفتاح على المعجون . كان نوع المفتاح من نوع

(تشاب) ولكـــن باستخـــدام انواع جيدة من المعجون ، وعن طريق القيام بالمقاييس الدقيقة ، تمكن (جاغر) من صنع مفتاح مناسب للخزنة . وهكذا ، قام العميل بفتح الخزانة بنجاح ، وينسخ لبادة رموز الشيفرة الجديدة قبل استخدامها في عملية تشفير الشيفرة الدبلوماسية التشيكية . وعلى امتداد ستة شهور كانت قيادة الاتصالات الحكومية تقوم بقراءة كافة الاتصالات التشيكية . وفجأة ، تغيرت كل الرموز ، وتم صرف العميل من الخدمة بشكل لم يتمكن أحد من تفسيره .

ومنـــذ ذلك الـــوقت ، لم يحرز (بيث) أي نجاح آخر . و حينما التحقت بشبعة (م أي ٥) كان بامكاني ان أرى ان هناك الكثير من الوسائل التي يمكن تقوم بها (م أي ٥) للمساعدة في برنامج (هالت) عبر استخدام الاجهزة الفنية اكثر من استخدام العملاء . غير ان (بيث) لم يكن فنيا – وقد اعترف هو بذلك – و وجد انه من الصعوبة بمكان بالنسبة له أن يقوم بمناقشتي . ولما كان هو الضابط الوحيد الذي يسمح له بالاتصال بقيادة الاتصالات الحكومية ، فانه كان يتوجب عليّ أن أبذل قصارى جهـــدي وحيـــداً اذا أردت للافكار التـــي أطـــرحها أن تلقى اذناً صاغية . وفي النهاية ، اصطحبت (فريدي) ذات ليلة لنتناول الشراب سوية وسألته فيما اذا كان يعارض ان أحدد موعداً للذهاب الى قيادة الاتصالات الحكومية في (شلتنهام) وأن أرى الأمور هناك بنفسي .

قال بمرح : " على الاطلاق أيها الرجل العجوز ... انك تنطق بالصواب . ان قضايا الاجهزة والاتصالات اللاسلكية لا مكان لها عندي ، اذ ان الرذائل البشرية هي ما أهتم به " .

وحددت موعداً للقاء صديق قديم لي من سلاح البحرية هو (فريدي بتلر) الذي كان يعمل في الادارة العليا لقيـــادة الاتصالات الحكـومية . وأوضحت له أنني أشعر ان نظام الاتصال والترابط بين (م أي ٥) وقيادة الاتصالات الحكومية بحاجة الى ان يعاد النظر فيه ثانية برمته ، فعمل (بتلر) على اتخاذ ما يلزم من اجراءات كي أقابل (هيو الكسندر) وهو (هيو دنهام) – وهما من كبار المحللين في قيادة الاتصالات الحكومية – متجاهلاً (بيل كولينز) .

كان (الكسندر) يدير (القسم هـ) المسؤول عن تحليل الشيفرات ، في قيادة الاتصالات الحكومية ، ويساعده في ذلك (دنهام) الذي حل خلال سنوات الستينات مكانه . كان (الكسندر) قد انضم الى (بلتشلي بارك) المسؤول عن قيادة الاتصالات قبل الحرب ، وذلك عند اندلاعها ، جنباً الى جنب مع (آلان تيرنغ) و (غوردون ويلشمان) وكان (الكسندر) المسؤول الرئيسي عن حل رموز شيفرة عملية (انيغما) . بعد انتهاء الحرب ذهب (تيرنغ) الى جامعة (مانشستر) للقيام بتصميم الكومبيوترات ، غير ان حياته انتهت بشكل مأساوي حينما انتحر بسبب ما قيل عنه حول شذوذه الجنسي . اما (ويلشمان) فقد توجه الى الولايات المتحدة الامريكية للعمل في مجال الكومبيوترات المتقدمـــة ، في حين بقي (الكسندر) وحده ليتابع عمله خلال فترة السلام في قيادة الاتصالات

الحكــومية . كان (الكسندر) لاعب شطرنج على المستوى الدولي ، اضافة الى براعته في حل الشيفــرات . وعلى الــرغــم ممــا تتطلبه هاتين الهوايتين وهذين العملين من احتياجات ذهنية ، الاّ أن (الكسندر) من حيث المظهر يدل على انه هادىء وعلى ثقته بنفسه ، ويرتدي ملابس التويد وأنا متأكد من ان خبله يدل عليه . لقد قضى حياته كلها وهو يعيش في الريف ، ولم يدخن أو يتناول المشروبات الروحية مطلقاً ، ثم توفي فجأة نتيجة اصابته بمرض السرطان ، وهو لا يزال في سن مبكرة نسبياً .

أخبرت (الكسندر) و (دنهام) انني على معرفة بعملية (هالت) وانني أشعر أن (م آي ٥) يمكن ان تقدم الكثير من المساهمات لقيادة الاتصالات الحكومية في عملها . وأوضحت ان تقدماً كبيراً قد تم احرازه من النواحي الفنية في (م آي ٥) منذ تأسيس (لجنة براندريت) عام ١٩٤٩ وخاصة في مجــال الميكــروفونات الجديدة . وافترضت انه بالامكان الحصول على المعلومات الاستخباراتية لعملية (هالت) من خلال الوسائل الفنية وبشكل افضل من استخدام العملاء ، وهي الطريقة التي أصبح مصيرها الفشل المتكرر خلال هذه الايام .

وتابعت قائلاً : " انني لست متأكداً بعد كيف يمكننا – على وجه الدقة – ان نقدم أي مساعدة الاّ اذا اتيحت لي الفرصة كي أخوض غمار التجربة ..... غير أنني واثق انه بواسطة الميكروفونات شديدة الحساسية والجديدة التي نمتلكها فانه من الممكن الى حد بعيد الحصول على شيء من جهاز الشيفرة . ان أجهزة الشيفرة تتم اعادة ضبطها صباح كل يوم من قبل عامل الشيفرة . فلنفترض اننا تمكنا من التقاط صوت الضبط الجديد الذي يتم كل يوم ، ألا يمكن لهذا الأمر أن يساعدنا ؟ " .

كان الرجلان متشجعين حينما قمت بتقديم عرضي لهما بحماس . وكان من الواضح انهما يتــوقان الى رؤية أول مثال على هذا النوع غير المألوف لديهم من البشر في عالم الاستخبارات الوحشي – عالمٍ من (م آي ٥) .

قال لــي (الكسندر) : " اننـا في هذه الدائرة نتقبل شاكرين كل مساعدة ..... وبرغم كل شيء ، فاننا نُعَد أطفالاً بالمقارنة مع مؤسستكم . اننا لم ننته بعد من عملية تشييد البناء " . وأشار عبر النافذة ... فقد كان هناك فريق من عمال البناء يقومون برفع خط آخر من (اكواخ نيسين) خلف مجمع المبنى الرئيسي لقيادة الاتصالات الحكومية . وتابع (الكسندر) قائلا : " ان مشكلتنا تتمثل في ان نظرياتنا هي أبعد من مقدرة اجهزة الكمبيوتر لدينا ... ان باستطاعتنا اليوم ان نقوم بحل العديد من الشيفرات ، اننا نعرف كيف نحلها ، ولكن المشكلة هي اننا لا نمتلك اجهزة كمبيوتر قوية بما فيه الكفاية للقيام بهذا العمل . بالطبع ، سنحصل على مثل هذه الاجهزة في القريب العاجل ، غير ان أي مساعدة في الوقت الراهن يمكن ان تختصر الطريق أمامنا " .

وسألت (الكسندر) ما هو الهدف الرئيسي اليوم بالنسبة لهم ، فبدا عليه انه غير مرتاح قليلاً

لهذا السؤال المباشر الذي وجهته لهما ، ثم أجابني : " حسناً ، بالطبع لدينا العديد من الأهداف ، وهي أهداف حالية . ان لجنة الاستخبارات المشتركة تطلب ذلك الشيء " .

وبعناد قلت : " نعم ... ولكن اذا كان عليك ان تحدد واحداً من تلك الأشياء ، فايها تختار باعتباره الاكثر أهمية اليوم ؟ " .

عدل (الكسندر) من جلسته في مقعده ثم تبادل النظرات مع (دنهام) وأخيراً قال : " يمكنني القول ان اكثر الامور أهمية : المصريون . ان وزارة الخارجية تضغط علينا منذ شهور للحصول على شـــيء حـــول الشيفـــرة المصرية . لقد تمكنا من الحصول على القليل ، ولكن ما حصلنا عليه حتى الآن ، وما سنحصل عليه لن يزيد على ذلك اذا استمر كادرنا بما هو عليه " .

كـــان التـــوتر بين بـــريطانيا ومصـــر يزداد حـــدة وبسـرعة في ربيع عام ١٩٥٦ اذ ان (جمال عبد الناصر) كان قد بدأ خطواته التي قادت الى أزمة قناة السويس في نهاية تلك السنة .

وسألتهما : " أي نوع من أجهزة الشيفرة يستعملون ؟ " .

" انها من طراز هاجلين " أجابني (دنهام) مشيراً الى ان هذا النوع من أجهزة الشيفرة يصنع من قبل شركة (كريبتو أ ج السويسرية) وان دول العالم الثالث كانت تفضل هذا النوع خلال فترة سنوات الخمسينات .

اتخذت ما يلزم من اجراءات للحصول على عينة من أجهزة (هاجلين) من قيادة الاتصالات الحكـومية ، وأخذت الجهاز معي الى (لندن) بعد أن وضعته في صندوق سيارتي . قمت بتشغيل الجهـــاز – وبمساعـــدة جاغـــر – فـــي أحد المنازل التابعة لشعبة (م آي ٥) والواقع في منطقة (ريجنت بارك) وبدأت القيام بتجاربي لأرى فيما اذا كانت نظريتي تنطبق على الواقع . ان جهاز الشيفرة هذا ، والذي هو من طراز (هاجلين) يتكون من لوحة مفاتيح ، وشريط يحتوي على الرسالة المشفرة ويخرج من أحد جانبي الجهاز . اما المبدأ الذي تعمل الآلة هذه بموجبه فقد كان بسيطاً . كان يوجد في الجهاز سبعة دواليب تدور بواسطة التيار الكهربائي ، وتتغير أمكانها بشكل اوتوماتيكي الأمر الذي ينتج عنه حروف عشوائية مما كان قد طبع بهذه الآلة . وفي كل صباح كان عامل الشيفرة يقوم باعـــادة ضبط جهاز (الهاجلين) داخل السفارة فيعمل على إعادة صف الدواليب قبل ان يبدأ الارسال . فاذا تمكنت اي من ميكروفوناتنا من اكتشاف أصوات الضبط الجديدة التي تحدث ، فانني أشعـــر انـه سيكـــون باستطاعـــة قيادة الاتصالات الحكومية استخدامها لتحـــديد ما يمكن تسميته بـ (المركز الأساسي) للآلة ، ومن هنا ستكون في وضع يمكنها من الهجوم على الشيفرة . وقد أوضح لي كل من (الكسندر) و (دنهام) انه اذا تمكنا من الحصول على اوضاع ثلاثة – ومن المحتمل أربعة – من دواليب الآلة ، فانه سيكون بامكانهم مهاجمة الشيفرة .

قمــت بــزرع عدد من الميكروفونات ذات الحساسية العالية على بعد مسافات مختلفة من جهاز (الهاجلين) اضافة الى الميكروفون الجساس داخل جدار خلف الجهاز . وكان كل ميكروفون موصولاً بجهاز لرسم الذبذبات على حدة ، بحيث ان الاصوات التي يتم تسجيلها تتحول الى قراءات مرئية . ونصب (ليسلي جاغر) كاميرا تصوير سينمائية لتصوير شاشة جهاز رسم الذبذبات . فتحت غطاء جهاز (الهاجلين) وقمت باعادة صف الدواليب بدقة ، ودونت الموضع الجديد ، وكذلك القديم لكل دولاب . وبــدأت الآلة تصـــدر صوتاً وكأنهـــا تقوم بتشفير سيل من الكلمات البكماء . وأرسلت النتائج الى (دنهام) في (شلتنهام) كي يبدي رأيه .

حالما قمنا بتظهير الافلام ، رأيت ان القراءات المرئية التي أظهرها جهاز رسم الذبذبات هي كافية تماماً من أجل تزويدنا ببعض المعلومات الصحيحة التي تكفي للتعرف على مركز هذه الآلة . كما أن هـــذه القراءات أظهـــرت دلائل عن اوضاع ثلاثة دواليب على الأقل من هذه الدواليب السبعة . ولذلك ، فانني قررت ان أقوم بتجارب لاحقة وان أستخدم فيها جهاز (ساتير) الذي اعطى حساسية صوت أقل بكثير . وقد تمكنا من اكتشاف حركات الدواليب ، الا انها كانت مشوشة الى حد بعيد . وقمـــت بارسال مـــا توصلت اليه الى (شلتنهام) مع ساعي البريد . وفي اليوم التالي جاءني صوت (دنهام) عبر خط الهاتف المشوش قائلاً : " انها مدهشة يا بيتر " ويمكنني القول انه كان في حالة من الاثارة . اما الصوت المشوه بسبب تشويش الخط فقد جعله يبدو كالمجنون وقلت له : " ان الميكروفونات الصوتية جيدة ، وبامكاننا استخدام اثنين حتى نحصل على قراءات ثلاثة دواليب . اما جهاز اللاسلكي فان استخدامه ليس محموداً ، ولكنني أعتقد – مع شيء من الوقت – انه يمكننا عمل شيء فيما يتعلق باللاسلكي " .

وسمعته يسألني عبر خط الهاتف المشوش : " ومتى يمكننا بدء العمل به ؟ " .

فأجبته : " حالما نتمكن من الحصول على موافقة الجهات المسؤولة " .

في اليـــوم التالي أرسلت قيادة الاتصالات الحكومية (راي فراولي – من قسم التخطيط) الى (لنـــدن) . كان هـــذا الـــرجل ذكياً وعملياً ، وباستطاعته ان يجسر الهوة بين الذكاء الخارق لكل من (دنهام) و (الكسندر) وبين المتطلبات الادارية لمنظمة ضخمة آخذة في التوسع مثل قيادة الاتصالات الحكومية . يضاف الى ذلك انه كان ملحداً تماماً ، بحيث كان يؤمن ان الجنس البشري سيصبح مشابهاً للكمبيوتر في يوم ما ، الأمر الذي سيؤدي الى زوال اللاعقلانية الى الابد . ان هذه النظرية – بلا شك – هي مثالية طفولية بالنسبة لرجل يطرحها في ظل سنوات الحرب الباردة ، غير اننا (أنا وهو) أصبحنا صديقين حميمين على الرغم من أنني بقيت ضمن دائرة اللامنطق لأنني أومن بالبزوغ المفاجيء للوحي او الحدس لحل المشكلة .

وحالما اجتمعت أنا و (وينتربورن) و (فراولي) للتخطيط للعملية الموجهة ضد المصريين ، أدركنا أن افضل طريقة هي أسهل طريقة . وقمت باجراء تحرياتي بواسطة وحدة التحقيقات في مكتب البريد ، وحصلت على قائمة كاملة بالاجهزة الهاتفية الموجودة في السفارة ، وقد تبين لي أنه لا بد وأن يكون هناك جهاز هاتف إما داخل غرفة الشيفرة أو في مكان قريب جداً منها ، ولذلك قررنا استخدام نظام التسهيلات الخاصة على الهاتف واستخدام ميكروفون لالتقاط أصوات جهاز الشيفرة . وقام مكتب البريد بتعطيل النظام الهاتفي في السفارة ، وانتظرنا ان يقوم المصريون بالاتصال بمكتب البريد . واتخذت ما يلزم من اجراءات كي أذهب بنفسي الى هناك متنكراً بزي مهندس وبرفقتي الرجل الذي سيقوم بوضع جهاز التسهيلات الخاصة على مستقبل الهاتف . كما انني اعتزمت البحث في أرجاء الغرفة عن أي من مواد الشيفرة التالفة قد تكون ملقاة على الارض .

في اليوم التالي التقيت مع فريق مكتب البريد بالقرب من محطة (سانت بول) واتجهنا بالسيارة نحو السفارة . كانت الاجراءات الامنية عند باب السفارة مشددة وكان حرس السفارة يرافقنا من غرفة الى أخرى . كانت غرفة الشيفرة تقع في ملحق تابع للسفارة ، وكان جهاز (الهاجلين) يصدر أصواتاً داخل الغرفة . كان هناك ثلاثة من موظفي الشيفرة مشغولين بالعمل على أجهزة التلكس ، وبعمليات ارسال البرقيات الدبلوماسيّة . نظرت حولي باحثا بدقة وعناية عن اي آثار للاشرطة التالفة ، غير ان القسم كان مرتباً ومنظماً على أتم وجه . وقد حضر أحد موظفي الشيفرة ، وانتحى جانباً مع مرافقنا حيث استغرقا في محادثة حيوية لم يلبث بعدها ان عاد الى مكان عمله ، و أوقف الاجهزة عن العمل . وحينما ظهر ثانية ، اتجه نحوي ، وأشار نحو الهاتف . لم يكن يتكلم اللغة الانكليزية ، ولكن من خلال لغة الاشارات ، فهمت منه أنه يريد مني أن أنقل جهاز الهاتف بحيث يصبح أقرب الى المكان الذي يجلس فيه بالقرب من الجهاز . ولم أكن لأستطيع أن اصدق ان الحظ حالفنا بهذه السهولة ، فبدأت عملية تمديد الاسلاك ، وأخذت ادير ظهري له ببطء حتى يتمكن زميلي المهندس من وضع الجهاز في مستقبل الهاتف حتى يصبح مهيأ لنظام التسهيلات الخاصة . ثم وضعت الهاتف فوق طاولة مكتبه ، على بعد قدمين – لا اكثر – من جهاز (الهاجلين) . وقام موظف الشيفرة بحمل الهاتف وبالنقر عليه ، ثم ابتسم لي ابتسامة عريضة ، فبادلته الابتسامة ، وإن كنت قد أحسست لسبب أو لآخر اننا لا نبتسم لنفس السبب .

هرعت عائداً من السفارة المصرية الى الطابق السابع لمراقبة الاصوات الصادرة من جهاز الاستقبال . وقد بدت في أول الأمر وكأنها تشويشات الكترونية ، ولكن بعد تعديل صوت آلة (الهاجلين) أصبح الصوت مسموعاً . وقامت (م آي ٥) بترتيب موضوع ارسال خاص الى قيادة الاتصالات الحكومية ، وفي كل صباح – وحينما يقوم موظف الشيفرة باعادة ضبط الآلة – كان (القسم هـ) في

قيادة الاتصالات الحكومية يقوم بالتقاط الاوضاع الجديدة ، وقراءة الشيفرة من خلال العملية التي عرفت بـ " توجيه الجهاز " . اما العملية الفنية الجديدة المتعلقة بحل رموز الشيفرات عبر عملية التنصت الاستخباراتي على الاجهزة من خلال المراقبة التقنية فقد أصبحت تعرف بالاسم الرمزي (انغولف) . وقد كانت تقدماً هاماً في المجال التقني . ومن خلال العملية المشتركة هذه ، والتي قامت بها (م آي ٥) وقيادة الاتصالات الحكومية تمكنا من قراءة الشيفرة المصرية في السفارة المصرية طوال ازمة السويس وكان المصريون يستخدمون اربعة مفاتيح مختلفة للشيفرات في كافة انحاء العالم . ومن خلال القيام بعمليات ضد السفارات المصرية في انحاء العالم عبر استخدام تقنية (انغولف) اصبح باستطاعتنا اختـراق غالبية القنوات الأخرى . وكانت هذه العملية الموجهة ضد الشيفرة المصرية نجاحاً باهراً لشعبة (م آي ٥) حيث تمت في وقت كانت فيه (م آي ٦) قد أخفقت بشكل واضح تماماً في عملية الحصول على المعلومات الاستخباراتية . وفي الواقع ، فان الشبكة التي كانت تعمل لصالحهم في مصر قد تمت محاصرتها ، واعتقلت بناء على تعليمات من (عبد الناصر) منذ البدايات المبكرة للازمة ، وكان العمل الوحيد الذي قاموا به هو المحاولة الخرقاء لاغتياله (جمال عبد الناصر) .

اما بالنسبة لـ (هوليس) والذي كان قد أصبح المدير العام حينما كانت أزمة السويس قد وصلت الى ذروتها ، فان هذا الانتصار الذي حققته (م آي ٥) جاء في وقت ليس هناك افضل منه . فقد كان هذا الانتصار بمثابة انجازات قوية خلال تلك الشهور الاولى العصيبة . وعلى ضوء الاحداث الأخيرة كنت دائما أرى ان ما يدعو الى السخرية هو انني أنا الذي أعطيته كل ذلك .

اما أهم معلومة استخباراتية حصلنا عليها من خلال تحليل رموز الشيفرة ، فقد كانت تلك المجموعة المستمرة من المحادثات المصرية – السوفييتية في (موسكو) ، والتي كانت تفصيلاتها ترسل الى السفير المصري في (لندن) من نظيره في (موسكو) . وقد عملت هذه المعلومات التي حصلنا عليها عبر هذه القناة على اقناع لجنة الاستخبارات المشتركة ان الاتحاد السوفييتي جاد فعلياً فيما يتعلق بتهديداته حول تدخله في أزمة السويس لصالح مصر ، وقد كانت إحدى هذه الرسائل مؤثرة اذ انها تتحدث بالتفصيل عن اجتماع عقد بين وزير الخارجية السوفييتي والسفير المصري أشار خلاله الروس الى اعتزامهم استنفار سلاحهم الجوي استعداداً للدخول في مواجهة مع بريطانيا . اما الذعر الذي أثارته هذه البرقية – وقد نقل محتواها الى لجنة الاستخبارات المشتركة – فقد جعل (ايدن) يسرع بالانسحاب . وبشكل مماثل – حيث ان كل النتائج التي تحصل عليها قيادة الاتصالات الحكومية يتم اطلاع الشركاء الامريكيين عليها – فان وكالة الأمن القومي (الاستخبارات الامريكية) وهذا ما أنا على ثقة منه ، قد لعبت دوراً هاما في تشكيل ضغط امريكي على بريطانيا لانهاء الازمة .

بعد مرور فترة قصيرة على قيامنا بزرع جهاز المراقبة الهاتفية (التسهيلات الخاصة) داخل

السفارة المصرية خسرنا العملية كلها تقريباً . فقد قام الروس – الذين كانوا تواقين كي يصبحوا بمثابة الوصي على المصريين عندما تفاقمت أزمة السويس – بارسال فريق من المفتشين للقيام بتفتيش السفارة المصرية في (لندن) تحسباً من وجود أي ميكروفونات أو عمليات تنصت . وقد كانت هذه العملية نوعاً من علامات الصداقة التي يرغب الروس باستخدامها حتى يتمكنوا من الحصول على معلومات استخباراتية مفيدة لهم في الوقت نفسه . وقد تمكن مركز المراقبة التابع لنا ، والمطل على مدخل السفارة المصرية من اكتشاف المفتشين الروس حال دخولهم مبنى السفارة . وتم استدعائي الى الطابق السابع لمراقبة ومتابعة عملهم في قسم الشيفرة ، وأخذت أصغي اليهم يائساً حينما دخلوا غرفة الشيفرة . بدأوا العمل في الصندوق الذي يحتوي على الفيوزات ، ثم قاموا بتمشيط الجدران والسقوف الكترونيا مستخدمين معدات ضخمة تشبه آلات التدقيق المعدنية . ثم لم يلبث الميكروفون أن أصدر صوتاً مكتوماً ينذر بالشر حينما التقطت يد روسية جهاز الهاتف ، وبدأت بفك الغطاء الاسفل . انقطع الصوت لحظة من الزمن وبعدها عاد صوت الهاتف الى ما كان عليه في السابق . وتنفس (وينتربورن) الصعداء .

ومع مرور الوقت علمنا ان الروس قد اكتشفوا وجود نظام التسهيلات الخاصة ، وكان بامكانهم ازالته ، غير انهم لم يفعلوا ذلك ! فاذا كان الروس يعرفون بوجود نظام التسهيلات الخاصة – وهم يعرفون ذلك في السفارة الروسية ، ونحن على علم بانهم يعرفون – فلماذا تجاهلوا هذا الأمر في السفارة المصرية ؟ لقد كان من المفيد لهم ان لا يدعونا نتنبه الى حقيقة أنهم يعرفون عن وجود نظام التسهيلات ، بحيث نستمر في استخدامه . وبعد كل ذلك ، أخذوا يقومون بارسال معلوماتهم الاستخباراتية بواسطة شيفرتهم الخاصة من (موسكو) الى (لندن) ويقومون بعد ذلك بتسليمها الى المصريين في (لندن) ، وهذا أمر لا يمكن اختراقه وحل رموزه . غير أنني أعتقد أن هناك سبباً آخر ، اذ ان الروس كانوا يريدون منا ان نطلع على قراراتهم ونواياهم حول أزمة السويس بشكل صحيح ، ولم يكونوا يريدون ان نخمن ونفترض أنهم يناورون . ولذلك ، فان أفضل طريقة كي نأخذ مواقفهم بجدية هو أن نحصل على المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بذلك من خلال مصدر موثوق ، أي من خلال البرقيات السرية على سبيل المثال . وقد كان هذا التحليل هو أول ولوج لي في عالم الاعلام المضلل السوفييتي المعقد .

بعد انتهاء أزمة السويس بدأت أسبب الازعاج والقلق مرة ثانية لقيادة الاتصالات الحكومية باقتراحاتي حول التعاون في المستقبل . غير انه كان يبدو عليهم انهم يريدون العودة بالعلاقة بيننا الى مرحلة الفتور التي كانت تسود من قبل . وفي الوقت الذي كانت فيه قيادة الاتصالات الحكومية تشعر بالسعادة لحصولها على نتائج عملية (انغولف) فانها أيضاً لم تكن ترغب بتقديم أي

مساعدة – بالمقابل – الى (م آي ٥) . وباختصار ، فانهم لم يكونوا ليكرهوا ان تقوم (م آي ٥) بالعمل لصالحهــم طالمــا انه ليس هناك اي عمل عليهم (قيادة الاتصالات الحكومية) ان يؤدوه بالمقابل الى (م آي ٥) .

لقد كان لدي شعور بأن هناك دوراً رئيسياً يمكن لقيادة الاتصالات الحكومية ان تقوم به في مجال مساعدة (م آي ٥) لمواجهة شبكة التجسس السوفييتية التي تعمل في المملكة المتحدة وذلك عن طريق معالجة اتصالات الجواسيس السوفييت اذ كانت الاستخبارات الروسية تفضل دائماً القيام بعمليات " غير شرعية " و حساسة الى حد بعيد ، عن طريق استخدام عملاء يعملون بشكل مستقل كلية عن ضباط استخبارات السفارة " الشرعيين " من خلال الاتصال مع (موسكو) مباشرة مستخدمين في ذلك اجهزة الارسال اللاسلكية الخاصة بهم . وكنت على ثقة تامة اننا اذا سعينا الى تتبع وتسجيل عمليات الارسال هذه ، فانه سيكون بامكاننا خرقها ، الأمر الذي يمكن ان يقودنا بشكل مباشر الى قلــب جهــاز الاستخبارات السوفييتية . وقد طلبت من قيادة الاتصالات الحكومية ان تقوم بتقديم خدمة ، كانت تقدمها لنا هيئة أمن الاتصالات اللاسلكية خلال الحرب ، والمتمثلة في القيام بعملية مراقبة مستمرة لعمليات الاتصالات اللاسلكية غير الشرعية من والى المملكة المتحدة . وقد بدا هذا الأمر لي انه عادي ومنطقي تماماً ، غير ان قيادة الاتصالات الحكومية عمدت الى تخصيص موقع ونصــف موقع فقط ضعيفين للقيام برصد حركة الاتصالات . وقد كان هذا الجهد الذي بذلته قيادة الاتصالات محزناً للغاية ، ولم يثمر أي مسعى لجعلهم يقومون بتخصيص مراكز رصد اكثر .

بعــد مــرور فتــرة قصيــرة على تنفيذ أول عملية (انغولف) ضد شيفرة السفارة المصــرية سافــرت الى كندا للتخطيط لعملية (ديووورم) . وعند اقتراب رحلتي من نهايتها طلب مني (تيري غيرنسي – رئيس الشرطة الملكية الكندية للتجسس المضاد) ان أقوم بدراسة قضية تخص الشرطة . لقد انتهت هذه القضية مؤخراً في ظروف غامضة . وخلال مراجعتي لملف القضية اكتشفت بعض التفاصيل الدقيقة التي اقنعتني – ودون أي شك – انه يجب اجبار قيادة الاتصالات الحكومية على تغيير تفكيرها . فقد اصطحبني (غيرنسي) الى غرفة خاصة ، وجلس وراء المكتب الذي كانت فوقه ثلاثة مجلدات من الملفات ، وتحمل عنوان (كيستون) . بدأت قصة (كيستون) عام ١٩٥٢ حينما قدم الى كندا شخص روسي ينتحل اسماً مستعاراً ، وكان ينوي اتخاذ غطاء له كعميل غير شرعي لصالح (ك ج ب) التي كانت تعمل دوماً على ارسال عملائها غير الشرعيين الى كندا أولاً حتى يتمكنوا من تكوين "اسطورة " أمنية لأنفسهم أو تكوين شخصية مستعارة قبل التوجه الى امريكا عبر الحدود . غيــر ان هــذا العميل غيــر الشــرعي (واسمه الحركي الذي اطلقته عليه الشرطة الملكية الكندية هو غيديون) سرعان ما وقع في حب امرأة بعد وصوله الى كندا . وكان هذا الأمر بالطبع

مخالفاً لتعليمات (ك ج ب) ولم يطل الوقت حتى ثارت الشكوك حول مهمة (غيديون) .

وفي النهاية تلقى (غيديون) تعليمات من المركز في (موسكو) من أجل ان يبدأ التخطيط كي يهاجر الى أمريكا . وحاول ان يقنعهم ان هذا الأمر فيه من الخطورة الشيء الكثير فتم حينذاك الغاء فكـــرة الهـجرة وعوضاً عن ذلك ، فقد تم تعيينه على أساس انه عميل غير شرعي لـ (ك ج ب) في كندا ، وكان مسؤولاً عن ادارة العملاء غير الشرعيين الآخرين الموجودين في أنحاء كندا . كانت المسؤوليات الجديدة جسيمة ، إذ كان على (غيديون) – وهو رجل كسول – أن يقضي وقتاً طويلاً وهو يتسلم الرسائل على جهاز اللاسلكي الخاص به ، وأن يقوم بسلسلة من الرحلات لا نهاية لها على امتداد أراضي كندا لجمع المعلومات الاستخباراتية . وبدأ ينوء تحت وطأة برنامج العمل المطلوب انجازه وبدأ أتباعه يتتمرون عليه . وأخيراً ، قرر الاعتراف بكل شيء الى محبوبته ، ومعاً قررا الاتصال بالشرطة الملكية الكندية للخيالة .

وباحساسه الغريزي بأهمية هذه القضية ، قرر (تيري غيرنسي) ان يقوم فوراً بالاشراف على (غيديون) ومتابعته كعميل مزدوج اكثر من معاملته كانسان هارب ومنشق . وقد بدا هذا القرار مبرراً حينما أوكل الـــى (غيـــديـــون) أمر الاشراف على عميل غير شرعي يعمل لصالح الروس في برنامج (آفرو آرو للطائرات) الكندي . وعلى مدار عام كانت الشرطة الملكية الكندية تقوم بمراقبة (غيديون) وكأنه عينة في مختبر . ولم تكن الاعمال التي يقوم بها العملاء غير الشرعيين السوفييت معروفة لدى الغرب ، فقام (غيرنسي) بتسجيل أسرار المهنة التي علمها السوفييت لـ (غيديون) مثل : الطريقة التي طلب اليه بواسطتها جمع المعلومات الاستخباراتية ، وكيفة استخدام الرسائل الميتة * ، والاهم من كل هذا هو ان الشرطة الملكية الكندية قامت بمراقبة اتصالاته اللاسلكية المشفرة كافة .

وسار كل شيء على ما يرام حتى كان صيف عام ١٩٥٥ حينما تم استدعاء (غيديون) الى روسيـــا بشكـــل مفاجـــيء من قبل المشرفين عليه للحصول على بعض المعلومات منه . وبعد تردد مبدئي ، قرر هذا العميل المزدوج القيام بالرحلة ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد أبداً . وانتظرت الشرطة الكندية شهوراً وسنوات علها تحصل على ما يشير الى ان (غيديون) لا يزال على قيد الحياة ، غير أن شيئاً من هذا لم يحدث . وبعد مرور فترة ، بدأت عملية الارسال من (موسكو) الى كندا بالعمل ثانية وعلى شيفرة (غيديون) وافترضنا أن عميلاً بديلاً قد وصل ، غير ان شهوراً من البحث العقيم الذي قام به رجال الشرطة الكندية لم يسفرعن كشف هوية هذا العميل . وأخيـراً ، قام (غيرنسي) الضجر باغلاق ملف هذه القضية التي كانت تعدُ بالكثير في مراحلهـا الاولى . لقد كان (غيرنسي) على قناعة بأن ثمـــة خطأ هاما قد وقع في هذه القضية ، غير انه كان من الصعوبة بمكان معرفة ما هـــو هـــــذا

---

* الرسائل الميتة : رسالة يتسلمها المرسل اليه في نفس الموقع الذي وضعت فيه (المترجم)

الخطأ ، أو حتى التحقيق فيه على الأقل . امـا مساعده (بينيت) فقد كان مقتنعاً ان (غيديون) قـد وقـع تحت سيطـرة الـروس ، وان تلك القضية كانت من أجل خداع وتضليل الشرطة الملكية الكندية .

من خلال قراءتي للملفات ، بدا واضحاً لي ان القضية تحمل – منذ بداياتها – صبغة التدخل الروسي ، ولكن كانت لدي ثمة افتراضات تكمن خلف ذلك . ثم توقفت عند واحد من تفاصيل هذه القضية ، كانت له أهمية . فعلى الرغم من ان (غيديون) كان عميلاً غير شرعي ، الاّ ان الروس مافتئوا يطلبون منه عقد اجتماعات عرضية مع دبلوماسي شرعي من السفارة الروسية ، على الارجح هو ضابط الدعم غير الشرعي . اما السبب المحتمل لمثل هذه الاجتماعات ، فهو ان (ك ج ب) كانت تعتقد ان (غيديون) هو عميل صعب ولا يمكن الاعتماد عليه ، ولذلك فان اللقاءات التي تتم وجهاً لوجه سوف تعمل على ضمان أن يبقى في الطريق الصحيح . وخلال واحد من هذه الاجتماعات – التي تمت تغطيتها من قبل الشرطة الملكية الكندية – وقع شجار حاد بين (غيديون) ورئيسه ، اذ ان (غيديون) كان قد غفل عن استلام احدى الرسائل الصادرة من (موسكو) ، وبالتالي فانه لم يجب عليها . وقد ادعى (غيديون) انه لم يتمكن من التقاط الرسالة على جهازه اللاسلكي بسبب الاحوال الجوية السيئة التي كانت سائدة . الاّ ان رئيسه (مندوب ك ج ب) لم يكن مقتنعاً ، وقام بتسليم (غيديون) قائمة مفصلة بعمليات الارسال اللاسلكي التي أغفلها (غيديون) وقد كانت القائمة مجدولة بأوقات الارسال ومدة كل واحد منها ، وأوضح انه يعرف ان (غيديون) كان يكذب . وعلى الرغم من ان الروسي لم يشر الى الحقيقـة بشكـل محـدد ، الا انـه كان من الواضح لي انه كان يقوم بمراقبة الارسال الموجه الى (غيديون) من داخل السفارة .

قرأت التقرير المتعلق بهذا الاجتماع اكثر من مرة كي أتأكد من أنني استوعبته بشكل صحيح . وحينما قلبت الصفحات المتجعدة للمصنف بدأت أتيقن من حقيقة انه اذا كان ضابط الدعم غير الشرعي التابع لـ (ك ج ب) الموجود في كندا يقوم بمراقبة الارسال القادم من (موسكو) ، فانه يمكن – على الأقل – ان يكون نظيره في السفارة في (لندن) يقوم بنفس الشيء . فاذا ما تم اقناع قيادة الاتصالات الحكومية ان تعمل بكل ما لديها ضد السفارة ، فانه سيكون من المحتمل ان نتمكن من تحديد وضبط عمليات الارسال ، بل وربما امكننا ان نتعرف مؤقتاً على ضابط الدعم غير الشرعي عن طريق الربط بين تحركاته وعمليات الارسال . فاذا ما فعلنا ذلك ، فاننا سنكون في وضع يمكننا من ابقائه تحت المراقبة الكلية في محاولة لالقاء القبض عليه وهو يلتقي عملاءه .

حالما عدت الى (لندن) بحثت القضية كلها مع قيادة الاتصالات الحكومية ، وقد استمعوا الي بطول صبر في حين كنت أطالبهم بان يبذلوا جهوداً اكثر . غير انني كنت أعمل وحيداً ، اذ لم يكن

هناك كثير حماس حتى ولا داخل أوساط (م آي ٥) للقيام بمثل هذه المغامرة . وعلى الرغم من ان قيادة الاتصالات الحكومية وافقت على زيادة عدد مراكز مراقبة الارسال ، الاّ ان ذلك لم يكن كافياً . واقترحت على القيادة ايضاً ان تقوم بمسعى رئيسي وكبير من أجل تحديد اماكن المستقبلات داخل السفارة الروسية مثلما فعلت من قبل فيما يتعلق باجهزة اللاسلكي الخاصة بقسم المراقبة . ومرة ثانية وصف هذا الطلب بأنه غير عملي ، وضاع الموضوع بسرعة في اجواء البيروقراطية الاستخباراتية التي كانت تنمو بسرعة .

وبقي الوضع محرجاً حتى عام ١٩٥٨ حينما ظهرت قضية جديدة غيرت كليا مجرى العلاقة بين (م آي ٥) وقيادة الاتصالات الحكومية . فقد ادت هذه القضية الى وضع (هوليس) امام أول أزمة داخلية يواجهها ، ومن ثم جعلته عرضة لقضية ظلت تلاحقه طوال فترة عمله .

كنت أجلس في مكتبي منكبا على مخططات عملية زرع ميكروفون حينما تلقيت دعوة الى مكتب (هوليس) . كان يجلس على مقعد ذي ذراعين عند أحد أطراف طاولة الاجتماعات ويمسك عدة ملفات . بدا شاحباً ومغضبا . وأومأ اليّ ان أجلس على الكرسي المقابل .

بدأ حديثه قائلاً : " أود منك ان تساعدني في حل مشكلة " وأعطاني ملفاً . قرأت المحتويات بسرعة . فقد كانت هناك تقارير مصدرها عميل يدعى (فرانتيسك تيسلر) ويبدو انه موظف شيفرة في السفارة التشيكية في (واشنطن) ، ويعمل تحت اشراف مكتب التحقيقات الفيدرالي ، الذين قاموا بتسليم (م آي ٥) معلومات استخباراتية أدلى بها ، وتتعلق بأمن بريطانيا . فقد ادعى (تيسلر) انه عاد الى تشيكوسلوفاكيا في صيف عام ١٩٥٧ ، والتقى مصادفة هناك صديقا قديماً هو الكولونيل (برييل – الذي كان قد عاد من اجازة في بريطانيا كملحق عسكري في لندن) . ولما كانا قد ثملا من الشراب ، أخبر (برييل) صديقه (تيسلر) انه يقوم بالاشراف على عميل مهم في بريطانيا اسمه (ليني) ويقوم بتصميم أجهزة محاكاة لاستخدامها في مشروع الصواريخ الموجهة التابع لسلاح الجو الملكي البريطاني . ولم يمض وقت طويل حتى تمكنت (م آي ٥) من التعرف على الجاسوس . وقد ارفقت مع تقرير (تيسلر) صورة عن قيد الملف الشخصي لـ (ليني) في (م آي ٥) . كان (ليني) مهندساً مسؤولاً في مختبر (مايلز) لتطوير الطائرات الواقع في منطقة (شورهام) في (سسكس) حيث كان يتمتع بكامل الحرية للوصول الى تفاصيل العمليات والبرامج المتعلقة بالصواريخ .

قلت لـ (هوليس) : " انني لا أرى أي مشكلة يا سيدي . لماذا لا نقوم بوضعه تحت المراقبة ، ثم نلقي القبض عليه حينما يلتقي (برييل) في المرة القادمة ؟ " .

قال (هوليس) : " تلك هي المشكلة " وناولني ورقة أخرى .

كانت الورقة عبارة عن رسالة موجهة الى هوليس من (ج . ادغار هوفر) مدير مكتب التحقيقات

الفيدرالي ، ومطبوعة على الآلة الكاتبة ذات الحروف المائلة ، وهي آلة (هوفر) الخاصة . وتحتوي الرسالة على ادعاءات اكثر خطورة من الادعاءات الاولى ، حيث يزعم (تيسلر) ان (بريبل) أخبره ايضاً ان لديه معلومات تفيد ان للروس جاسوساً داخل (م آي ٥) في (لندن) ، وانه اكتشف هذه المعلومات حينما كان يستخلص معلومات من عميل مهم في سيارة كانت تجوب شوارع (لندن) وانه رأى ان هناك سيارة تتعقبه ، فافترض ان السيارة هي سيارة مراقبة تابعة لـ (م آي ٥) فقام بعملية مراوغة للافلات من السيارة . ولما كان متلهفا للتأكد من انه لم يتم التعرف على هوية عميله ، فانه قرر الاتصال مع نظيره الروسي الكولونيل (روغوف) ليطلب منه المساعدة . وقد أخبره (روغوف) ان الأمر قد يستغرق يوماً أو اثنين للتأكد ، غير أنه أكد لـ (بريبل) في النهاية انه على الرغم من ان سيارة المراقبة قامت بملاحقته ، الاّ انها توقفت عن مطاردته حيث اعتقد عناصرها انه كان يعطي صديقا له درساً في قيادة السيارات . وأضاف ان (روغوف) أعلمه انه يجب عليه ان يكون مدركاً لحقيقة ان قسم المراقبة التابع لشعبة (م آي ٥) قد قام مؤخراً بتغيير تكتيكاته ، وبدلاً من ان يقوم بتعقب الدبلوماسيين بشكل علني حال مغادرتهم مباني سفاراتهم ، فان عملية المطاردة والتعقب تبدأ من على الجسور الواقعة على نهر التايمز حيث تكون المراقبة المضادة اكثر صعوبة .

حينما قرأت الملاحظة هذه ، عرفت فوراً ان معلومات (بريبل) صحيحة ، اذ ان التغيير في عمليات شعبة المراقبة قد حدث فعلاً بناء على الحاحي عليهم وذلك كجزء من برنامج التحديث الذي كنا نحاول تطبيقه . وقد قامت الشرطة الملكية الكندية باختبار هذه الفكرة وحققت بعض النجاح ، ودعيت العملية بعملية (كفر بوينت) . ولهذا ، فاننا لن ندهش ازاء اصرار (هوفر) على ان يتم تسليم هذه الرسالة باليد ، وبواسطة نائبه (بلمونت) الذي رفض مقابلة (هوليس) داخل مبنى (ليكونفيلد هاوس) . وقد تم تسليم الرسالة خلال لقاء سري عقد في أحد المنازل التابعة لشعبة (م آي ٥) وطار مباشرة عائداً الى (واشنطن) تحت اسم مستعار .

قال (هوليس) : " بامكانك أن ترى مشكلتنا يا (بيتر) .... اذا اتخذنا أي خطوة ضد (ليني) فان هذا يعني امكانية افشاء سر (تيسلر) في حين ان مكتب التحقيقات الفيدرالي تواق الى ابقائه في مكانه اطول فترة ممكنة . واذا حاولنا التحقيق في القضية بوسائل أخرى فانه سيتم كشفنا من قبل المصدر الروسي الموجود داخل شعبتنا . ومهما كان ما سيحدث ، فانه يجب علينا ان نصل الى أساس الاختراق " .

وقد أعلمني (هوليس) انه تمت خلال الشهور الثلاثة الماضية عمليات استقصاء وتحقيق مكثفة داخل قسم المراقبة والأقسام الداعمة لقسم المراقبة وقد قام بعمليات الاستقصاء (مالكولم كمنغ) و (كورتني يونغ) رئيس قسم مكافحة التجسس الروسي . فقد كان هناك إحساس ان مصدر التسريب

يجب ان يكون هناك غير انهما لم يتوصلا الى شيء . وأخيراً ، اقنع (هيو وينتربورن) (كمنغ) ان يطلب من (هوليس) اطلاعي على الموضوع .

– " هل لديك أي أفكار (يا بيتر) ؟ " قال (هوليس)

– " فقط ان نقوم بلجم هؤلاء التافهين في (شلتنهام) يا سيدي "

– " أنني آسف ، لا أعتقد أن باستطاعتي ان أوافق .... " .

وأوضحت لـ (هوليس) انني منذ زمن طويل وأنا أؤمن بالنظرية التي تقول ان هناك احتمالاً بان يكون الروس يحصلون على المعلومات الاستخباراتية من خلال اعتراضهم وتحليلهم لاتصالات قسم المراقبة . ثم أوضحت له " انني قمت أنا ووالدي عام ١٩٤٠ بعمل شيء مشابه في منطقة سسكس . لقد قمنا بمتابعة بعض الاشارات واستطعنا تحديد مسار الاسطول البريطاني وهو في طريقه عبر القنال . انني واثق تماماً من الطريقة التي يحصل بها (روغوف) على المعلومات ، وهي طريقة من السهولة بمكان القيام بها يا سيدي . ان مجرد مطابقة اشاراتنا – التي تحدد الاتجاهات – مع سجلات تحرك وتنقل رجالهم تخبرهم بالكثير . وبشكل أساسي فان من الضروري بالنسبة لهم معرفة متى نقوم بمتابعتهم ... " .

وأخبرته انني كنت دائما أحث قيادة الاتصالات الحكومية على القيام بالتجارب للتأكد فيما اذا كانت أجهزة الاستقبال التي تعمل داخل السفارة ترتبط بعلاقة ما مع اتصالاتنا ، وأضفت :

" انني أخشى يا سيدي أن مثل هذا الأمر لم يكن ضمن سلم الأولويات لدى قيادة الاتصالات " .

فقال (هوليس) :

" لكنك تستطيع القيام به يا (بيتر) أليس كذلك ؟ " .

" أعتقد هذا . وما يجب علينا القيام به هو ان نحاول متابعة عمليات الارسال من خلال جهاز الاستقبال " .

اما المبدأ المتعلق بذلك ، فقد كان بسيطاً ، اذ ان كل جهاز اتصال لاسلكي يحتوي على جهاز تحكم في الذبذبات يعمل على " تحويل " الاشارات الواردة الى ذبذبة ثابتة الأمر الذي يجعلها واضحة الى حد بعيد . ان جهاز توليد الذبذبة (المُذَبْذِبُ) يقوم دائماً باصدار موجات صوتية حينما يتم تشغيله ، وهذه الموجات الصادرة عنه هي التي تكشف عن وجود جهاز الاستقبال ، وتابعت قائلاً :

" بالطبع ، فانك تعرف ان القيام بمثل هذا العمل هو أمر محظور ، ويمكن القول بدقة ، يا سيدي ، ان من غير المسموح لنا القيام بذلك ، اذ ان قيادة الاتصالات الحكومية ستخرج أحشائي وتبشرها حينما تكتشف ذلك " .

أطرق (هوليس) وقد وضع رأسه بين يديه ، ثم مسح بهما على وجهه ، وساد صمت مؤلم . وأخيراً قال :

" لا بد من اطلاعهم على مزاعم (تيسلر) اذا ما أردنا إشراكهم " . وقد كان هذا الأمر واحداً من المنازعات التي كانت تتميز (الوايت هول) بها وكان (هوليس) يفهمها جيداً .

ثم قلت له : " بامكاني البدء بالعمل اذا كان باستطاعتك ان تدعمني لدى (شلتنهام) حينما يكتشفون أمري ، اذ انه على الاقل سيكون بامكاننا ان نعرف – بطريقة أو بأخرى – عن مصدر معلومات (تيسلر) خلال بضعة شهور ، اما اذا التجأنا الى قيادة الاتصالات الحكومية ، فان الأمر سيستغرق سنة او أكثر " .

وبدأ (هوليس) بجمع الملفات مع بعضها في رزمة واحدة ، ثم قال : " اعتقد ان هذا أفضل طريق للعمل ... ستبقى على اتصال معـي ، اليـس كذلك ؟ " . ونظر اليّ ، وتابع حديثه قائلاً :

" بالطبع ، فانك تدرك يا (بيتر) أي خطر يكمن في هذا الأمر تجاه الجهاز ، اليس كذلك ؟ وأعني اذا كان الأمر صحيحاً – بمعزل عن تأثير ذلك على واشنطن – فان الكثير من الجهد الذي بذلناه سيضيع سدى " .

" بمـا فـي ذلك كـل جهـدي " هذا ما قلته بيني وبين نفسي ، وشعـرت بالغضب من نفسـي لانني لـم أحـث قيادة الاتصالات الحكومية بشكـل اكثر حـول قضيـة اجهـزة الاتصال اللاسلكية الخاصـة بقسم المراقبة .

حالما عدت الى مكتبي اتصلت هاتفيا مع (كورتني يونغ) وطلبت منه ان يرسل لي أي تقارير استخباراتية بحوزته تتعلق بنماذج المعدات الالكترونية التي حصل عليها الروس سواء عن طريق شرائها من أسواق (لندن) او تم استيرادها من خارج المملكة المتحدة منذ الحرب . ومن خلال مراجعتي لهذه التقارير تمكنت من استخلاص صورة محددة ودقيقة ومعقولة لكافة موديلات أجهزة الاستقبال التي يستخدمها الروس داخل سفارتهم . ومن خلال العمليات الحسابية التي قمت بها تبين لي ان المدى المحتمل للارسال الصادر عن الاجهزة الموجودة داخل السفارة هو نحو مائتي ياردة الأمر الذي يعني ان هذا المجال هو خارج نطاق مواقعنا التي خصصناها للمراقبة . لكن (الفرع أ) كان مشغولاً منذ بعـض الـوقت فـي عملية تطـوير سيارة محطة لاسلكية ذات جدران بلاستيكية . وقد ضغطت على (وينتربورن) لانهاء مشروعه بالسرعة القصوى . وخلال اسبوعين كانت السيارة قد أصبحت جاهزة ، و محملة بجهازي استقبال وجهاز توليد طاقة داخلي . كان أحد جهازي الاستقبال مخصص لاكتشاف عمليات الارسال الصادرة من أجهزة السفارة الروسية ، في حين كان الاخر من أجل التأكد من ارتباط عمليات الارسال بذبذبات ارسال القسم (أ ٤) .

فــي أحــد أيــام الــربيع من شهر آذار ١٩٥٨ ، ركبت السيارة لاول مرة وكان معي مساعدي (طوني سال) . وقد حصلنا على تصريح كي نقود السيارة في منطقة (كينسنغتون بارك غاردنز) أمام السفارة الروسية وكأننا نقوم بتسليم بضاعة الى أحد البيوت المجاورة . جلست أنا و (سال) داخل السيارة وقد كانت أصابعنا متصالبة * كما وضعنا السماعات على آذاننا ، وبدأنا نراقب سماع أي صوت قد يأتينا عبر جهاز التكبير الصوتي . وقمنا بجولتين لكن شيئاً لم يحدث ، غير ان ثمة تشويشاً قد بدأ يسمع ، فسرنا بالسيارة باتجاه القنصلية على طريــق (بيزووتر) ومررنا من أمام واجهة المبنى ولما اصبحنا قرب المبنى رقم ٥ التابع للمباني الروسية بدأنا بالتقاط أصوات الاشارات اللاسلكية . ولما قمت بادارة وضبط جهاز الاستقبال سمعنا صفيراً وكأنه على نفس تردد ذبذبة جهاز الارسال الروسي . وأبطأنا السير أمام الباب الأمامي فأخذت الاشارة تزداد قوة ووضوحاً ، ثمُ بدأت بالتلاشي حينما اتجهنا نحو طريق (ماربل آرش) وهنا تأكد لدينا ان هناك جهاز استقبال يعمل داخل السفارة ، ولكن هل كان هذا الجهاز مضبوطاً على ذبذبات قسم المراقبة ؟.

في الايام التالية قمنا بالعديد من الجولات في أوقات مختلفة من الليل والنهار في محاولة للحصول على فكرة – ولو بسيطة – حول الاوقات التي يتم فيها استخدام جهاز الاستقبال داخل السفــارة ، وفيمــا اذا كانــت هناك علاقـــة مع اتصالات قسم المراقبة . وعلى ما يبدو ، فان التـــوصل الى مثــل هـــذا الأمر كان سيأخذ وقتا طويلاً ، وبدت هذه المهمة وكأنها شاقة ، وغير مجدية . غير ان ما حدث ، هو انه بينما كنا – وبمحض الصدفة – نمر أمام مبنى القنصلية ، مرت سيـــارة تابعـــة لقســـم المراقبة علـى الجانــب الأخر للطريق وهي تقوم بعملية ارسال لاسلكي علـــى ذبـــذبة قســم المـــراقبـــة الى قيـــادة القسم ، الأمـــر الـــذي جعـــل جهاز الاستقبال المـــوجود داخـــل سيارتنـــا ، والـــذي تـــم ضبطه على جهاز الرصد المـوجـــود داخل القنصليـــة يصدر صوتا حاداً .

وسألت (طوني سال) : " ما رأيك بهذا ؟ " .

نظر اليّ وقد بدت نظرة حيرة على وجهه ، وأصبحت الحقيقة واضحة أمامنا نحن الاثنين ، اذ ان سيارة قسم المراقبة قد أعطتنا البرهان الذي نريده . فعندما قامت سيارة قسم المراقبة بعملية الارسال على ذبذبة القسم بالقرب من مبنى القنصلية ، فانها (سيارة المراقبة) قامت بزيادة حمل الدارة الكهربائية الداخلة الى جهاز الذبذبة الروسي . ولذلك ، فاننا التقطنا الصوت الحاد حينما تشوشت الذبذبة تحت الحمل الزائد . وبمعنى آخر ، كان ذلك بمثابة اثبات على ان جهاز الاستقبال الموجود داخل السفارة كان مضبوطاً على تردد ذبذبات قسم المراقبة .

---

* اشارة جلب الحظ (المترجم)

اما المعاني التي تضمنها هذا الاكتشاف الجديد ، والذي اطلق عليه عملية (رافتر) فقد كانت كثيرة ومتعددة . اذ اننا لم نتمكن فقط من التاكد من ان الروس يقومون بالتنصت على ذبذبات قسم المراقبة ، وانما ايضاً تمكنا من استخدام نفس التقنية للتاكد من ان الذبذبات التي يتم التنصت عليها بواسطة أي جهاز استقبال داخل السفارة ، يمكن ان نقوم باكتشافها . وكان كل ما نحتاجه هو القيام بارسال موجات صوتية الى السفارة والاستماع الى جهاز الذبذبة ذي الحمولة الزائـدة . اما الافكـار التي كانت تراودني منذ ان قرأت ملفـات قضيـة (كيستون) فقد أصبحت في النهايـة في وضع يمكن معه وضعها موضع التطبيق . و باستخدام (رافتر) سيكون بإمكاننا اكتشاف اي من عمليات الارسال – التي ترسل من موسكو الى العملاء غير الشرعيين – تتم مراقبتها داخل السفارة . وقد أصبح بامكان (رافتر) ان يقدم لنا امكانية اختراق العالم السري للاتصالات الروسية غير الشرعية .

ولكن في الوقت الذي أثبت لنا فيه (رافتر) ان اتصالات قسم المراقبة كانت المصدر الرئيسي للمعلومات التي كان يحصل عليها الروس ، فقد بقيت هناك قضية جاسوس الصواريخ (ليني) . كان من الواضح ان عمليات التحقيق والتقصي عن (ليني) يجب ان تنفذ بنفس الطريقة ، بحيث يواصل قسم المراقبة اتصالاته كالمعتاد . وقد توصلت الى حقيقة انه لا يمكن بأي شكل من الاشكال ايقاف عمليات الاتصال اللاسلكي لانها طريقة غير واقعية . ولذلك ، فان افضل حل هو العمل على تغيير ذبذبات السيارات المكلفة بالمهمة . وذهبت الى وزارة الدفاع ، وطلبت منهم استخدام واحدة من ذبذباتهم العسكرية بفارق سبعين ميغاسايكل عن الذبذبة التي كان يستخدمها قسم المراقبة ، وبذلك ، فان الارسال الصادر من سيارة (ليني) سوف يضيع ضمن كتلة اتصالاتهم العسكرية الأخرى في الموجات الصوتية المتقاربة . ولكن كان يجب علي في البداية ان أقوم بزرع بعض البلورات الجديدة في أجهزة الاتصال اللاسلكية الخاصة بقسم المراقبة حتى يصبح بامكانها العمل على الذبذبة الجديدة . ان كل جهاز اتصال لاسلكي يحتوي على بلورة تتحكم في الذبذبة التي يمكن الارسال أو الاستقبال عليها .

وبـدلاً مـن المخاطـرة بهـذا الأمر داخل اوساط (م آي ٥) قمت بزيارة خاصة الى صديقي القديم (ر . ج . كيمب) رئيس قسم الابحاث في شركة (ماركوني) وسألته فيما اذا كان باستطاعته انتاج البلورات الجديدة في مختبر (غريت بادو) . وأعطيته عينة من البلورات وذلك كي يتمكن من تصنيـع واحـدة منها بشكلها الصحيح . وأكدت له بأنه يجب ان لا يعلم أحد بالذبذبة الجديدة سواه هو ومساعده . وكاجراء احتياطي آخر قررنا ترقيم البلورات الجديدة بذبذبات تختلف كليا عن الذبذبات الفعلية المستخدمة . وخلال ثلاثة أسابيع ، قام (كيمب) بانتاج بلورات تكفي لعشر وحدات ارسال واستقبال ، وتم زرعها من قبل مهندسي (م آي ٥) الذين يقومون عادة بصيانة أجهزة قسم المراقبة وذلك منعاً لاي شبهة .

امـــا تفاصيـــل هذه العملية التي سميت بـ (لاف بيرد) فقد تمت ضمن اجراءات أمنية صارمة ، ولم يكن هناك من يعرف الذبذبة الصحيحة غيري وكذلك (وينتربورن) ولم يتم استخدام أي من أجهزة الاتصال المعدلة هذه ضمن محيط السفارة السوفييتية . و كان جهاز الاستقبال الموجود في القنصلية خاضعاً باستمرار للمراقبة عن طريق استخدامنا لتقنية (رافتر) حتى انه أصبح باستطاعتنا متابعة كيفية تصرف الروس خلال العملية الموجهة ضد (ليني) . وقد قام (الفرع د) برصد وتحليل مكثفيـــن لتحـــركات (ليني) ورئيســـه (بريبل) . ومــــن خـــلال مقارنة تصرفات الاثنين ، تبين لدى (الفرع د) ان اجتماعهما يتم بشكل منتظم في (ساوث داونز) بالقرب من منطقة (برايتون) . وقمنا بعمل الترتيبات اللازمة مع (الفرع الخاص) للقيام بالقبض على (ليني) و (بريبل) أثناء قيامهما بتبادل المعلومات السرية خلال لقائهما التالي .

وقام أفراد قسم المراقبة المزودون بالاجهزة ذات التردد الجديد باللحاق بـ (ليني) الى مكان الاجتماع . انتظر (ليني) هناك نحو ساعتين ، ثم عاد الى منزله . اما (بريبل) فانه – في غضون ذلك الوقت – بقي في (لندن) . وتم فيما بعد استجواب (ليني) الذي اعترف – وبشكل غير متوقع – بكل شيء ، وحكم عليه بالسجن مدة اربع عشرة سنة .

ومـــن خلال مـــا هـــو ظاهر ، فان هذه القضية انتهت بنجاح ، غير ان هناك جانبا ظل يؤرقني ، وكذلك (وينتربورن) وضباط (الفرع د) المسؤولين عن هذه القضية . اما هذا الأمر ، فانه يتمثل في السؤال التالي : لماذا تغيب (بريبل) عن هذا اللقاء ؟ ان هناك العديد من الاسباب التي يمكن ان تفسر تخليه عن الحضور، سيما وانه لم يتغيب عن أي من اللقاءات الأخرى . اما اذا كان قد علم بالخطة المرسومة لالقاء القبض عليه هو و (ليني) فانه ما كان ليعلم بهذا الأمر من خلال اتصالات قسم المراقبة ، ومن المرجح انه علم بذلك من خلال مصدر بشري .

لذلك ، قررت القيام بتجربة أخرى لايجاد حل لقضية فيما اذا كان هناك مصدر يعمل لصالح الـــروس ، ولــــه ارتباطـــه بالاستخبارات ، ويقوم بتزويد الروس بمعلومات عن اتصالات قسم المراقبة ، فعمدت الى تغيير كافة بلورات اجهزة الاتصال اللاسلكية الخاصة بقسم المراقبة ، وتابعنا في الـــوقت نفسه مراقبة جهاز الاستقبال الروسي بواسطة تقنية (رافتر) لمعرفة ما الذي سيفعلونه بالضبط . وقد كان من الصعوبة اجراء كل هذا التغيير دون أن يتم رصد ذلك وتسجيله بالتفصيل داخل (ليكـــونفيلد هـــاوس) غير انني كنت متأكد من ان احداً من أفراد قسم المراقبة لن يعلم عن الخطة بشكل مسبق .

بدأنا استخدام (رافتر) ضد جهاز الاستقبال الروسي صباح يوم الاثنين ، وتابعنا عملية تعقب الدبلوماسيين الروس بشكل طبيعي عن طريق ترددنا المعتاد . اما يومي الثلاثاء والاربعاء فاننا أوقفنا

كافة عمليات المراقبة في حين قمنا بتغيير البلورات . وقد تم اعلام قوة المراقبة انه تمت زيادة الذبذبة بواقع ٢ ميغاسايكل في حين انه تم تخفيضها فعليا بمقدار ٢ ميغاسايكل . وبدأنا العمل ثانية صباح يوم الخميس ، فقمنا بتعقب الدبلوماسيين الروس بشكل مألوف عن طريق ترددنا الجديد . وأخذنا نراقب القراءات التي تسجلها تقنية (رافتر) بعناية ودقة بحثاً عن أي شيء يدل على ان الروس يقومون بالبحث عن ترددنا الجديد الذي كنا قد أعلمنا أفراد قسم المراقبة انه تم الانتقال اليه . وقد تبين ان الروس قد أخذوا يفحصون معداتهم معتقدين ان بها خللاً ، غير انهم استمروا في التنصت على نفس التردد القديم حتى نهاية الاسبوع .

حينما بدأنا العمل ثانية صباح يوم الاثنين التالي ، كان كل شيء قد تغير ، اذ كان جهاز الاستقبال الروسي قد بدأ التنصت على التردد الجديد ولكن من داخل السفارة نفسها في (كينسنغتون بارك غاردنز) وليس من القنصلية . وهكذا واجهنا لغزاً آخر تمثل في واحد من امرين هما : إما ان جهاز الاستقبال الجديد هذا قد كان يبحث عن الذبذبة الجديدة لقسم المراقبة خلال الاسبوع الماضي ولم نكتشف وجوده بسبب تركيزنا على القنصلية ، او ان الروس تمكنوا من الحصول على التردد الجديد خلال عطلة نهاية الاسبوع . غير انه لم يكن يبدو اننا قد غفلنا عن ان الروس يقومون بوضع جهاز استقبال آخر على التردد الجديد خلال الاسبوع الماضي .

وبحثت الأمر من جميع جوانبه مع (كورتني يونغ) رئيس قسم التجسس المضاد الروسي ، وقررنا ان نقوم بتجربة أخرى ، مفترضين انه في حال وجود تسريب معلومات من مصدر انساني ، فان هذا المصدر يفترض ان يكون من داخل قسم المراقبة أو من الاجهزة الداعمة الاخرى . ولذلك ، قررنا أن نقوم بالقاء ما يسمى بـ " الطعم " الذي سيكون بمثابة نشر معلومات استخباراتية مهمة ، بحيث يقوم هذا الشخص المزدوج – في حال وجوده – بنقل المعلومات الى الروس .

كان (كورتني يونغ) يقوم بمتابعة قضية عميل مزدوج اسمه الحركي (مورو) وهو على علاقة بالملحق العسكري البحري الروسي الليفتنانت (لولاكوف) . واتفقنا على المضي قدما في تنفيذ الخطة . قمنا باعلام قسم المراقبة عن قضية (مورو) وكأنه جاسوس حقيقي ، وأحيطوا علماً ان (الفرع الخاص) سيقوم في اليوم التالي باعتقال (مورو) اثناء قيامه بعملية تسليم وثائق سرية الى (لولاكوف) خلال التقائهما في منطقة (هامبستيد) وتم الطلب اليهم (قسم المراقبة) القيام بمراقبة (مورو) و (لولاكوف) بشكل كامل . فاذا ما كان هناك خائن في أوساط قسم المراقبة ، فاننا افترضنا انه سيقوم بافشاء السر الى الروس الذين سيعملون على الغاء اللقاء او محاولة تحذير (مورو) بطريقة ما .

غير ان ما حدث في الواقع ، هو ان (لولاكوف) ذهب الى الاجتماع طبقاً لما هو

محـــدد ، وصعـــد الى سيارة (مورو) المتوقفة في شارع هادىء بالقرب من (هامبستيد هيث) وتبادلا بسرعة ما معهما من رزم . وتم اعتقال الرجلين . في الحال أبرز (لولاكوف) وثائق الاعتماد الدبلوماسي ، فتم اطلاق سراحه ، وسرعان ما غادر البلاد بعد ذلك . اما التهم الموجهة ضد (مورو) فقد تم اسقاطها بهدوء .

وللـــوهلة الأولى تبدو قضية (مورو / لولاكوف) بمثابة برهان على عدم وجود أي اختراق بشري ، ولكن من خلال كل التجارب السابقة ، فان هناك بعض المتناقضات التي توجب الحذر ، فقد كان من المعروف عن (لولاكوف) الذي كان تحت المراقبة منذ زمن ، انه يستعد للقاء مع (مورو) بطول صبـــر و أناة ، وكـــان في مرات سابقة يقضي ساعات طويلـــة وهو يطوف شوارع (لندن) بالتاكسي ، أو بالباص ، وفـــي محطات الانفـــاق وفي المحلات قبل ان يلتقي في النهاية مع (مورو) . إلاّ انه هذه المرة ، وبكل بساطة ، غادر مكتبه ، واستوقف سيارة أجرة وذهب مباشرة للقاء (مورو) . وتمت عملية الاستلام والتسليم داخل السيارة على الرغم من ان ضوءها الداخلي كان مضيئا . ان أي شخص له معرفة وثيقة بجهاز الاستخبارات الروسية ، سوف يدرك ان الذي حدث هو خرق لما اعتادت عليه المخابرات الروسية في عملها وهذا ما يصعب تفسيره .

ومع حلول نهاية عام ١٩٥٨ قمت باعداد تقرير مطول حول كافة التحقيقات التي أجريت فيما يتعلق بمزاعم (تيسلر) وأرسلته الى (هوليس) . وقد استعرضت النقاط التي حصل عليها (تيسلر) من صديقه الثرثار الكولونيل (برييل) وعرضت على (هوليس) تخميناتي حول كيفية حصول السوفييت عليها .

ولم يكن لدي شك من خلال (رافتر) ، التقنية الي تحدثت عنا مطولاً في التقرير ، ان عملية مراقبة اتصالات قسم المراقبة كانت المصدر الأساسي للمعلومات الاستخباراتية التي حصل عليها الروس حول ما يتعلق بـ (م آي ٥) ولعدة سنوات خلت . وأوردت في التقرير موضحاً بشكل دقيق قصة (برييل) حـــول " درس قيـــادة السيـــارة " وأكـــدت ايضـــا على ان الروس كانوا على علم بعملية (كفر بوينت) على الرغم من ان محللي اتصالاتنا اللاسلكية أبدوا شكوكهم في مقدرة الروس على استنتاج اننا نقوم بملاحقتهم من الجسور الواقعة على نهر التايمز من خلال مراقبتهم لارسالنا اللاسلكي فقط . لكن تغيب (برييل) عن الحضور لمقابلة (ليني) والسرعة التي تمكن الروس خلالها من اكتشاف التـــردد اللاسلكـــي الجـديـــد لقســـم المـــراقبة حينما تم تغييره ، اضافة الى قضية (لولاكوف / مورو) كل هذه الامور تفتح المجال امام عدد من التفسيرات المختلفة . وخلصت الى نتيجة ترجح انه ليس هناك مصدر مزدوج ، اضافة الى ان الحصول على المعلومات الاستخباراتية ناجم مـــن خـــلال مـــراقبة اتصالاتنا الخاصـــة بقسم المراقبة ، و لكن لا يمكن استبعاد احتمال وجود

شيء من هذا (المصدر البشري) .

بعد مرور يوم أو اثنين على تقديمي للتقرير ، دعاني (هوليس) الى مكتبه . كان منكبا على احد التقارير ، ويخرطش عليه بريشة حبر حينما دخلت غرفته . لم ينظر اليّ ، وبقيت واقفا مثل تلميذ مشـاكس فـي حيـن استمـر في الكتابة . ان غرفة المكتب هذه ، لم تتغير كثيراً منذ ان غادرها (ديك وايت) . وكل ماطرأ على هذه الغرفة من تجديدات هو صورة جديدة معلقة على الجدار الذي تعلق عليه صور المدراء العامين الموقرين . وكانت هناك صورة لابن (هوليس) موضوعة على طاولة المكتب الى جانب الهواتف الثلاثة التي تصله برئاسة الوزراء ، وبوزارة الدفاع وبشعبة (م آي ٦) . وفيما عدا ذلك ، لم يكن هناك اي أمور أخرى ذات طابع شخصي .

قال لي (هوليس) دون أن ينظر اليّ : " شكراً لك على تقريرك يا بيتر " .

كان انسانا يختلف تماماً عما كان عليه حينما أعطاني ملف (تيسلر) قبل سنة من الآن . كانت الازمة قد انتهت ، وهو لا يزال في منصبه . واستمر في الكتابة . ثم تابع قائلاً :

" لقد كتبت الى (هوفر) وأوضحت له بشكل مفصل عن معلومات (تيسلر) حول الجاسوس الموجود في (م آي ٥) ...... غير انني أرى انها ستكون فكرة جيدة لو أنك سافرت اليهم ، وشرحت لفـريقهم الفنـي خلفيـة قضية (رافتر) . انك ستجعل منها رحلة مفيدة ، أليس كذلك ؟ تجّول هناك ، واتخذ لنفسك أصدقاء " . ونظر اليّ ، ثم ابتسم فجأة ، وتابع :

" من المفيد ان يعرفوا اننا سبقناهم بخطوة هذه المرة ... لقد فعلت حسناً يا بيتر " . وعاد الى الملف الموجود أمامه ، مما يعني ان لقاءنا القصير قد انتهى . استدرت لمغادرة الغرفة ، وحينما وصلت نحو الباب ، سمعته يقول :

" أوه يا (بيتر) ... تمسك بالمكتشفات الفنية ، أليس كذلك ؟ ... اعتقـد انـه يجب علينا أن لا نعطـي (هوفر) انطباعاً مفـاده ان أي شيء ليس له حل " . وأجبته قائلاً : " بالطبع لا يا سيدي ... انني افهم ذلك تماماً " .

لم أفهم معنى ذلك حينذاك ، غير أن أول الانتقادات كانت قد وجهت اليّ .



كان مبنى الكابيتول عبارة عن مكان مليء بالرسومات الجصية المشكلة على هيئة زهرات قرنفلية ، وسط سماء زرقاء ، ورخام ابيضَ ، وتعلوه قبة لامعة .

وعلى الدوام كنت أحب زيارة (واشنطن) وخاصة في فصل الربيع . ان (لندن) قذرة ، وتشبه امرأة عاهرة – و (م آي ٥) مثلها – تسرق الاموال .

ومثل الكثيرين من الشباب الذين تم تجنيدهم في جهاز الاستخبارات بعد الحرب ، كان يخامرني شعـور بان أمريكا كانـت هـي الأمل الكبيـر ، ومحـور عجلة الاستخبارات الغربية ، ولذلك قابلتها مرحباً ، مفتوح الذراعين .

وكان مما يدعو الى السخرية هو ان العلاقات بين الاستخبارات البريطانية والاستخبارات الامريكية في نهاية سنوات الخمسينات كانت في أدنى مستويات التردي خلال فترة ما بعد الحرب . كما ان التعاون بين (م آي ٦) ووكالة الاستخبارات المركزية (سي آي ايه) كان قد انطوى فعلياً بعد أزمة السويس ، فوجد الطرفان نفسيهما يخوضان صراعاً متزايداً ليس في منطقة الشرق الاوسط فقط ولكن في منطقة الشرق الاقصى وأفريقيا أيضـــا . وقــد وجد العديد من المحاربين القدامى في (م آي ٦) انه من الصعوبة بمكان عليهم ان يقبلوا أن تصل العلاقة بين الاستخبارات الامريكية ونظيرتها البريطانية – تلك العلاقة التي اقاموها خلال فترة الحرب – الى هذا المستوى المتدني .

اما العلاقات بين (م آي ٥) و (السي آي ايه) فقد كانت مشحونة بهذه الاجواء لعدة أسباب منها ، ان وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه) كانت مؤسسة جديدة تحاول عرض عضلاتها

على المسرح الدولي لأول مرة ، وكانت تهدف الى جمع المعلومات الاستخباراتية . وعلى الرغم من أنه كان يفترض بها أن لا تمارس نشاطاتها في (لندن) دون اعلام (م آي ٥) بذلك الا ان كلا من (هوليس) و (ديك) كانا واثقين من ان (السي آي ايه) قد استهزأت بهذا التفاهم .

وخلف كل الصعوبات ، كان هناك جو عدم الثقة الذي خلقته عملية هروب (بيرغس) و (ماكلين) وتبرئة (كيم فيلبي) . اما (م آي ٦) فانها غابت عن أجواء الثقة ، ولم يعد ينظر اليها بنفس المنظار ، خاصة وان العديد من الضباط الكبار كانوا من الاصدقاء المقربين لـ (فيلبي) في حين ان (م آي ٥) قد أخفقت في اعتقال أي من هؤلاء الثلاثة ، الامر الذي جعلها في نظر الامريكيين جهازاً لا يتمتع بشيء من الكفاءة . اما قيادة الاتصالات الحكومية فانها الجهاز الوحيد الذي كان له اتفاق تعاون رسمي مع نظيرته الامريكية (وكالة الأمن القومي) وذلك بموجب الاتفاق الموقع عام ١٩٤٨ بين كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، وقد بقيت بعيدة - نسبيا - عن كافة الاسباب التي أودت بالعلاقات التي كانت سائدة بين اجهزة الاستخبارات الامريكية والانكليزية خلال فترة الحرب .

وحينما تولى (هوليس) منصب المدير العام حاول بكل شجاعة وتصميم ان يعمل على تحسين العلاقات مع مكتب التحقيقات الفيدرالي . اما (هوفر) فقد كان مشهوراً بمعاداته لبريطانيا منذ أيام الحرب ، حينما تم تأسيس هيئة التنسيق الامني البريطاني في (نيويورك) تحت قيادة (السير وليام ستيفنسون) الذي يطلق عليه لقب (رجل يدعى الجريء) . لقد كانت هيئة التنسيق الامني البريطاني تعمل ضد الالمان في الولايات المتحدة الامريكية ، غير ان (هوفر) كان يعارض بشدة ان يكون لأي هيئة يتم الاشراف عليها من الخارج أي حق في جمع المعلومات الاستخباراتية على الارض الامريكية . وقد رفض لسنوات عديدة ان يتعاون مع موظفي (ستيفنسون) وكان لقضية (بيرغس) و (ماكلين) ان عملت على تعزيز وتقوية تحامل (هوفر) حتى انه لم يعد يسمح لضباط (م آي ٦) خلال وقت من الاوقات ، بالدخول الى مباني مكتب التحقيقات الفيدرالي ، و تم منع (م آي ٥) من حرية الوصول الى التقارير الاستخباراتية لمكتب التحقيقات الفيدرالي .

في عام ١٩٥٦ قام (هوليس) بزيارة (هوفر) في محاولة منه لتحسين العلاقات وحثه على اعادة وضع (م آي ٥) في قائمة توزيع التقارير . وقد كان من الغريب بما فيه الكفاية ان يتفق الاثنان على تحسين العلاقات ، لأن كلا منهما كان يتخوف من أي محاولة لانتهاك حرمة امبراطوريته ، و إن كان (هوليس) قد بدا أمام (هوفر) العاصف المتنمر شخصية ضعيفة للغاية بل ، كالمتوسل . وقد كان (هوفر) - مثل العديد من العصاميين الامريكيين - ذا نزعة طفيفة من التحذلق ، وكان غروره الكبير موشىً بهيئة جاسوس انكليزي متمرس ينتمي الى الطبقة العليا ، بقبعته الممتدة أمامه .

وأصبحت قريان سلام مهماً ، اذ ان (هوليس) ادعى ان تعييني كعالم رئيسي في (م آي ٥)

هو بمثابة اثبات على نيته تحديث الجهاز ، كما انه خطوة نحو تصعيد الحرب ضد عمليات التجسس السوفييتية . وبعد زيارة (هوليس) دعاني (هوفر) لزيارة مقر قيادة مكتب التحقيقات الفيدرالي للاطلاع على مجموعة معداتهم التقنية . ولقد كنت تواقاً للغاية للقيام بهذه الزيارة لانني كنت أوقن منذ اول يوم لي داخل (م آي ٥) ان مفتاح النجاح طويل الأمد انما يكمن في الحفاظ على العلاقات الجيدة مع الامريكيين بحيث يصبح باستطاعتنا ان نصل الى مصادرهم الفنية . الاّ ان وجهات نظري هذه لم تلق التأييد ، فقد كانت أوهام الامبراطورية لا تزال تعشش بقوة داخل أوساط (ليكونفيلد هاوس) وعلى سبيـــل المثال ، فان (كمنغ) لم يقم باي زيارة للولايات المتحدة ، بل لم يكن يرى ان هناك سبباً يوجب ذلك ، على الرغم من انه كان رئيس الفرع الفني لشعبة (م آي ٥) .

كان اول انطباع تكون لدي عن مكتب التحقيقات الفيدرالي هو الحجم الكبير للامكانيات التقنية الموجودة تحت تصرفهم ، والتي كانت اكبر بكثيـر ممـــا يمكـــن لـ (م آي ٥) ان تتخيله . وعلى الرغم مما تمتاز به هذه الامكانيات من الغنى والوفرة ، الاّ انني لم استطع الا أن اكوّن احساساً بانهم لم يستغلوا هذه الامكانيات الا ضمن حدود ضئيلة . فقد كانوا يعتمدون في أغلب ألاحيان كلية على المعدات الموجودة في الاسواق التجارية اكثر من اعتمادهم وسعيهم نحو تطوير ما بين أيديهم . فقد كانوا يستخدمون أجهزة الاتصال اللاسلكية من طراز موتورولا – التي تستخدم في سيارات الشرطة وسيارات الاجرة – على الرغم من ان لديهم شبكة ميكروويف تثير الاعجاب لمقدرتها على ربط مختلف محطات مكتب التحقيقات الفيدرالي ببعضها البعض عبر امريكا . اما اكثر ما يثير الاهتمام في مجال العمل التقني لمكتب التحقيقات الفيدرالي فهو استخدامه لتقنية بصمات الاصابع في مجال التحقيقات المتعلقة بالتجسس ، اذ انـــه لم يكن هناك قسم لبصمات الاصابع فـــي قسم السجلات التابع لشعبة (م آي ٥) . وقد أحسست ان هذا الامر الذي يشبه مكتب التحقيقات الفيدرالي من خلاله قسم الشرطة قد أعطى المكتب ميزة و فائدة .

كان (ديك ميلن) الضابط في مكتب التحقيقات الفيدرالي هو الذي يشرف على أبحاثهم الفنية وكان محامياً قبل ان يكون عالماً عن طريق التدريب الأمر الذي حـــد من نطـاق فعاليته . ومع ذلك ، فقد كان رائعاً . اصطحبني (ميلن) الى قاعة التدريب على اطلاق النار الموجودة في قبو مقـر قيـادة مكتب التحقيقات الفيدرالـــي ، وأعطاني درساً فـــي تقنيات اطلاق النار مـــن المسدس ، وأوضح لي انه حتى " الرجل الكبير نفسه " ويعني بذلك (هوفر) يقوم بالتدرب بشكل منتظم . ثم زرت مركز التدريب التابع للمكتب على ساحل ماريلاند ، حيث كان هناك هندي امريكي مسن ، يقوم بتدريب عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي على انواع من الاسلحة المتقدمة . وقد عرض مواهبه حيث كان يقوم بالرماية على الأهداف من خلال استخدامه للمرآ ة ، كما قام باطلاق النار من

فـوق كتفيه على طاولة تنس كان موضوعة على نافورة ماء . كانت النافورة مثقبة من كثرة التدريب عليها . وكان ما يسمى بالجوهر الامريكي ، وكذلك جذور مكتب التحقيقات الفيدرالي في سنوات الثلاثينات التي لم يسدها القانون غير خافية وليست ببعيدة عن هذه النافورة . وقد خامرني إحساس بشكل ما ان ما أراه لا علاقة له بعمليات التجسس المضاد الحديثة .

لم أستسغ امكانية اطلاع مكتب التحقيقات الفيدرالي على قضية (تيسلر) فقد كان هناك ما هو اكثر من تلميح – حينما كان (هوفر) يعقب على القضية – بأنه كان يأمل ان نخفق في انهاء الشبهات حول وجود جاسوس داخل (م آي ٥) الأمر الذي سيمكنه من استخدام القضية كذريعة كي يوصي رئيس الجمهورية بان يوقف عملية تبادل المعلومات الاستخباراتية مع بريطانيا . وقد كنت آمل ان تعمل زيارتي ، وكذلك زيارات (هوليس) السابقة على تمهيد الطريق بعض الشيء .

كان يرافقني في زيارتي تلك (هاري ستون) ضابط ارتباط (م آي ٥) في (واشنطن) وهو شخصية لطيفة الى حد أنه يصعب عليك ان تلتقي بمثله الاّ نادراً . كان لاعب ركبي دولي في فريق ايرلنـدا ، وكـان يشترك مع (هوليس) في حب لعبة الغولف وسباق العَدَل * . كان كل شخص يحب (هاري) لانه كان ينظر الى عمله على انه عمل اجتماعي بشكل أساسي ، وان كان لم يعد مناسباً من حيث ذكائه وثقافته وحالته النفسية للعصر الحديث ، عصر التجسس بواسطة الاقمار الصناعية والكمبيوتر اللذين بدأ العمل بها في (واشنطن) في نهاية سنوات الخمسينات .

كان (هاري) يكره مقابلة (هوفر) وإن كان يتخذ الامر ببساطة حينما لا يكون أمامه مفر من المواجهة ، وقد قال لي :

" استمع مني الى هذه النصيحة ايها العجوز (بيتر) : دعه يتكلم ولا تقاطـــعه اكراماً للـــــه ، وتذكر ان تقول له حينما ينهي حديثه شكراً جزيلا يا سيد (هوفر) ... لقد قمت بحجز طاولة جيدة لتناول طعام الغذاء . سوف نكون بحاجة اليها " .

عبرنا من خلال المدخل المقنطر الموجود أمام مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالي الرائع وكـان في استقبالنا (آل بلمونت) رئيس قسم الاستخبارات المحلية في مكتب التحقيق الفيدرالي ، ومعه مساعده (بيل سوليفان) رئيس الدائـــرة الشيوعية (وجد سوليفان ميتا خـــلال منتصف السبعينـات خـــلال مـــوسـم اصطيـــاد البط في نيو انجلند . ويعتقد بأنه قتل عمداً) . كـــان (بلمونت) صلب العود ، محافظاً ، مثله في ذلك مثل رجال مكتب التحقيقات الفيدرالي المعروفين سابقاً ، وقـــد عمل مـــع المكتب منذ بداياته الاولى . اما (سوليفان) فقد كان الدماغ المحرك لعضـلات

---

* سباق العَدَل : سباق يتساهل فيه مع العنصر الضعيف او تفرض فيه على العنصر القوي أعباء إضافية بحيث تصبح فرص الفوز اقل (المترجم)

(بلمونت) على الرغم من ان هذا الاخير لم يكن أحمق : كانا يؤمنان بفعالية الخنجر اكثر من مسدس الماغنوم . كان لـ (بلمونت) الكثير من الاعداء ، ومع هذا فقد كنت دائماً معه . ومثلي ، فانه كان قد عاش معاناة مـــرحلـــة طفـــولة صعبة . فقد قتل والده في مشاجرة وقعت في احد الشوارع ، في حين ان امـــه أخـــذت تعمل ليل نهار لتوفير ما يكفي إدخاله كلية الحقوق . اما العمل الدؤوب والولاء المطلق " للرجل العجوز " فقد حملاه ليصل الى قمة مكتب التحقيقات الفيدرالي .

وعلى الرغم من قساوتهما وجلفهما ، وبالرغم من مكانتيهما المرموقتين ، فان الرجلين كانا يرهبان (هوفر) وقد كان مثل ذلك الولاء المطلق امراً غير طبيعي ، وهذا ما كنت أحسه . وبالطبع فقد كان يحق لهما ان يفتخرا ويعجبا بـ (٠هوفر) للانجازات التي حققها خلال السنوات الاولى ، حينما تمكن من تحويل مؤسسة فاسدة وغير صالحة الى قوة مرهوبة وفعالة تقوم بمحاربة الجريمة . الاّ أن كل شخص يعرف ان (هوفر) يعاني من عقدة الاله وكان الأمر غريباً بالنسبة لي من حيث انهم لا يعرفون هذه الحقيقة أبداً ، حتى ولا على الصعيد الشخصي .

بحثت قضية (تيسلر) والمعاني التقنية لـ (رافتر) مع الرجلين غالبية ساعات ذلك اليوم حتى حان وقت لقاء (هوفر) . سرنا الى مكتبه عبر شبكة من الممرات ، ومررنا بمجموعات من الضباط الشباب العاملين في مكتب التحقيقات الفيدرالي ، المنهمكين في عمليات التشبيه . كانوا من الشباب المتأنقين ، ذوي عيون لا تعابير فيها ، وملائمين لعملهم . وكانت غرف مكتب التحقيقات الفيدرالي تذكرني دائماً بالعيادات الصحية ، فالمواد المطهرة والبلاط الملمع في كل مكان ، في حين ان العمال مشغولون دائماً بعمليات التنظيف والتلميع و الدهان . ان الهوس بمثل هذا الأمر انما هو ناتج عن عقلية قذرة .

اما غرفة مكتب (هوفر) فقد كانت آخر غرفة ضمن مجموعة من أربع غرف ، متصلة ببعضها البعض . قرع (بلمونت) الباب ، ودخلنا الى الغرفة . وقف (هوفر) خلف طاولة المكتب و كان يرتدي بذلة زرقاء اللون غامقة . كان أطول وأنحف مما كان يبدو عليه في الصور ، وكان التغضن باديا على وجهه من خلال ثنيات صغيرة . رحب بي ، وصافحني بفتور .

بدأ (بلمونت) يشرح له الهدف من وراء زيارتي ، غير ان (هوفر) قاطعه بحدة قائلاً :

" لقـــد قـــرأت التقرير يا (آل) . انني أريد أن أستمع الى السيـــد (رايت) وهو يحدثني عن ذلك " .

حدق (هوفر) في بعينين سوداوين كالفحم ، وبدأت أشرح له عن اكتشافنا لتقنية (رافتر) . وعلى الفور قاطعني قائلاً :

"يمكنني أن أستنتج ان جهاز استخباراتكم في حالة رضى الآن عن المعلومات الاستخباراتية

التي تم تزويدكم بها من مصدرنا التشيكي ٠٠٠ ؟ " .

بدأت الاجابة على سؤاله ، غير انه تابع قائلاً :

" ان أجهزتكم الامنية تحظى بالكثير من التسهيلات هنا في واشنطن يا سيد رايت " وكان يبدو من خلال صوته ان هناك ماهو اكثر من التهديد ، وقال :

" يجب عليّ ان اعلم رئيس الولايات المتحدة حينما تثير هذه التسهيلات بعض الأمور التي تمس أمننا القومي . ويجب علي ان أهتم شخصياً وعن قرب بالقضايا التي تشبه هذه ، وخاصة في ضوء المشاكل الأخيرة التي كانت تعانيها المملكة المتحدة في هذا المجال . انني أريد أن أعرف انني أقف على أرضية صلبة ، هل الأمر واضح ؟ " وأجبته : " بالطبع يا سيدي ، انني أفهم ذلك تماماً " .

كان (هاري ستون) مشغولا بالتحديق في رباط حذائه ، أما (آل بلمونت) و (بيل سوليفان) فقد جلسا على احد جوانب مكتب (هوفر) وقد خيم الظل عليهما ، وبقيت وحيداً . قلت له :

" اعتقد أنك ستجد في تقريري ٠٠٠٠ "

" لقد قام رجالي بقراءة تقريرك واستوعبوه يا سيد (رايت) . انني معني بالدروس التي تعلمتموها " قاطعني قائلاً ذلك .

وقبل أن أتمكن من الاجابة ، كان (هوفر) قد بدأ بشن خطبة لاذعة ونقد عنيف على عدم كفاءة الغرب في الوقوف بوجه الهجوم الضاري للشيوعية . وقد وافقته على العديد من النقـــاط التـــي أوردها ، ولم يكن اعتراضي الاّ على الطريقة التي تحدث بها . ولم يسكن هناك مجال من تجنب الحديث عن قضيــة (بيرغس) و (ماكلين) حيـــث كان (هوفر) يلفظ كل حرف من اسميهما بحقد واضح . ثم قال :

" في مكتبنا هنا لا يمكن ان يحدث مثل ذلك الأمر يا سيد (بيتر) لأن ضباطي مغـــربلون تماماً ، فهناك دروس يجب ان يتم تعلمها ، هل الأمر واضح ؟ " .

ووافقته على ذلك ، في حين ردد (هاري ستون) موافقاً :

" بالطبع يا سيد هوفر " .

وحدق (هوفر) بي فجأة ، ثم قال :

" اليقظة التامة يا سيد (بيتر) اليقظة التامة ، فالاضواء مضيئة دائماً في مقر القيادة هنا " .

ثم وقف فجأة ، معلنا انتهاء المقابلة .

فـــي اليوم الذي تلا محاكمتي أمام (هوفر) تناولت طعام الغذاء مع (جيمس انغلتون) رئيس قسم الاستخبارات المضادة في (السي آي ايه) . كنا قـد التقينا مـرة خلال أول زيارة قمت بـــها الـــى (واشنطن) عام ١٩٥٧ ، وقد ذهلت من مقدرته على التركيز في الأمور ، فقد كان ذا عقل حاد

مــثل موسى الحــلاق ، وكان لديه تصميم على كسب الحرب الباردة وليس مجرد الاستمتاع بخوضها فقط . كانت تسحره كل تعقيدات مهنته حتى الصغيرة منها ، وكانت شهيته لحياكة المؤامرات قوية . لقد أحببت هذا الانسان ، وشجعني بما فيه الكفاية كي افكر انه سيكون باستطاعتنا أن نعمل معاً .

بدأ نجم (انغلتون) يسطع في سماء (واشنطن) في أواخر سنوات الخمسينات وخاصة بعد أن تمكن من الحصول على النص السري للرسالة التي يتهم فيها (خروشوف) (ستالين) . وقد حصل على هذه الرسالة من خلال علاقاته في اسرائيل . كان واحداً من ابرز المجندين الأصليين في مكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب ، وتدرب على فنون التجسس المضاد على يد (كيم فيلبي) في المكتب القديم الخاص بشعبة (م آي ٦) في شارع (ريدر) . وقد ابتدأ هذا الشاب (انغلتون) الذي درس في جامعة (يال) صداقة آنية مع مرشده الانكليزي ، الذي يدخن الغليون ، وتعمقت هذه الصداقة اكثر حينما عُيّن (فيلبي) في (واشنطن) كرئيس للمحطة عام ١٩٤٩ . والمثير للسخرية ، هو ان (فيلبي) كان أول من اكتشف هوس رئيس قسم التجسس المضاد في (السي آي ايه) بوجود مؤامرة . وسرعان ما ذاع صيت (انغلتون) بين أوساط ضباط الاستخبارات البريطانية لمحاولاته المتكررة كي يستثمر لمصلحته الخاصة العداء المتبادل بين (م آي ٥) و (م آي ٦) .

ذهبت الى (جورجتاون) بواسطة سيارة أجرة ، وقد تمكنت من معرفة السبب الذي يكمن وراء رغبة العديد من المسؤولين الرسميين في واشنطن بالعيش في هذه المنطقة ، المتأنقة بالقرميد الاحمر على البيوت ، وبالشوارع المزروعة بالاشجار و بالمكتبــــات ، وبالمقاهي .

حينما وصلت الى مطعم (هارفي) كـــان (انغلتون) جالساً علـــى طاولته ، وبدا شخصاً نحيلاً ، ومصاباً بداء السل . كان يرتدي بذلة رمادية ، ويمسك زجاجة المشروب بيد ، ويحمل بيده الأخرى سيجارة .

سألني وأنا أهم بالجلوس ، وكان صوته يشبه صوت القاء الحصى في الممر :

" كيف كان لقاؤك مع (هوفر) ؟ " فأجبته :

" يبدو ان لديك معلومات جيدة يا جيم " . وتحولت تقاطيع وجهه النحيلة الى ابتسامة مغايرة تماماً لملابسه الجنائزية . كنت أعلم أنه يحاول ان يصطاد شيئاً ، خاصة وان (السي آي ايه) لم تكن تعرف شيئاً عن (تيسلر) او عن ادعاءاته . وقد أجمعنا على ان نتحدث الى مكتب التحقيقات الفيدرالي حول تقنية (رافتر) بسبب ادراكنا ان الاطلاع على هذا الامر محدود تماماً .

قلــت له : " انه مجرد لقاء روتيني لاقامة علاقات صداقة مع مكتب التحقيقات الفيدرالي كما تعلم . انها الموضة السائدة في لندن هذه الايام " . وأجابني :

" انها مضيعة للوقت ، فانت تحاول التقرب اليه منذ زمن كما أذكر . انه يخبرنا دائماً انه لا

يستطيع ان يتحمل البريطانيين " .

أجفلت قليلا على الرغم من أنني أعرف ان هذه هي نواياه ، ثم قلت :

" حسناً ، ولكنني لا أستطيع القول أن (السي آي ايه) كانت اكثر صداقة " فقال وهو يصب لنفسه المزيد من الشراب :

" لقد استهلكتم الكثير من الامتيازات خلال السنوات العشر الماضية ... إن أناساً مثل (هوفر) ينظرون الى (بيرغس) و (ماكلين) والى الوضع في (م آي ٥) ثم يقولون : ما الأمر ؟ " .

ثم استدعى النادل ، وطلبنا وجبة الطعام .

أخيراً قلت : " انك بعيد عما يجري يا (جيم) ... ان الأشياء تتغير ، فمنذ عشر سنوات لم يكونوا ليقوموا بتعييني كعالم أبداً . لكنني الآن هناك ، ويتم تعيين أناس جدد في كل الاوقات " .

قال بسخرية حادة : " لقد تعلمت في المدارس الانكليزية الحكومية ، وأنا أعرف الحزازات التي بينكم " فقلت له :

" ليس من الجيد ان نبقى نتذمر من (بيرغس) و (ماكلين) طوال الوقت . لقد حدث كل ذلك في الماضي ، وانتهى أمره . ان العالم مكان صغير . وعلينا ان نبدأ العمل معاً ثانية " .

ولقد دهشت أنا نفسي من عاطفتي المفاجئة . اما (انغلتون) فقد بقي ساكناً وقد أحاطت به دوائر من دخان السجائر . ثم قال :

" لن تحصل على أي مساعدة من (هوفر) " . غير انه هو الآخر لم يعرض مساعدته . استغرق تناول طعام الغذاء جلسة طويلة ، كان خلالها (انغلتون) يكشف عن اهدافه قليلا ، غير انه كان يمطرني بوابل من الاسئلة مع كل رشفة من كأسه . ماذا عن (فيلبي) ؟ وأخبرته مباشرة انني كنت أعتقـــد بانـــه كـــان جاسوساً . اما أزمـــة السويس فقد كانت لا تزال حية في الاذهان حتى عام ١٩٥٩ ، غيـــر انه (انغلتون) كان يريد معرفة كافة التفاصيـــل . بل انه سألني فيمـــا اذا كان بامكاني أن أحصل مـــن (م آي ٥) على ملف (آرماند هامر) رئيس شركة (اوكسيدنشال بتروليوم) الذي أصبح موضع اهتمام الاستخبارات الغربية على ضوء علاقاته التجارية المتزايدة مع الاتحاد السوفييتي . الاّ انني كنت أعتقد أن هذا الامر هو مجرد غطاء فقط ، فقلت له :

" اننا أصدقاء يا جيم ، ولكن ليس بذلك العمق بعد " .

حوالي الساعة الخامسة كان (انغلتون) قد أصبح داخل سيارته . كانت من نوع المرسيدس ذات السعر المرتفع . وعلى الرغم من كل نحوله ، و كآبته ، سرعان ما علمت انه يعيش في هذه الاجواء المرفهة بسبب عائداته من حصته في شركة (ناشيونال كاش ريجستري) . وكان مما اثار غضب (انغلتون) انه كان قد نسي المفاتيح داخل السيارة ، غير انني أخرجت من جيبي السلك

المعـــدني الـــذي صنعـــه (ليسلي جاغر) لفتح الاقفال ، وخلال نصف دقيقة قمت بفتح الباب . قال (انغلتون) وابتسامة عريضة تبدو على شفتيه : " لا بأس يا (بيتر) لا بأس " . كان يدرك انني استمتعت بعرض براعتي . ثم قلت له : " بالمناسبة ، انني جاد فيما أقول ، اذا كنت لا تريد مساعدتي في واشنطن فانني ساجد شخصياً آخر غيرك يقوم بمساعدتي " . تمتم وهو يجلس الى مقود السيارة : " سأرى ما الذي يمكنني عمله " ودون أن ينظر باتجاهي ، انطلق على الفور .

في الواقع ، وبالرغم من أجواء الشك التي كانت في (واشنطن) ، فان تغييرات هامة قد حدثت على الصعيد الفني لدى الاستخبارات البريطانية في أواخر الخمسينات . فقد كرست (م آي ٥) جهوداً كبيرة لنشر تقنيتيها الجديدتين : (رافتر) و (انغولف) .

بدأت الخطوة الاولى بوضع السفارة السوفييتية تحت المراقبة المستمرة بواسطة تقنية (رافتر) وحث (هوليس) وزارة المالية – التي كانت تعارض ذلك – على شراء منزل – علاوة على ذلك الموقع السري لشعبة م آي ٥ – لصالح (م آي ٥) ايضاً وسط مجمع مباني الدبلوماسيين السوفييت . وقمنا بزرع اجهزة استقبال (رافتر) على العلية وقمنا بتمرير الاشارات التي نتتبعها داخل السفارة عبر كابل طويل مدفون تحت الارض في نفق انشيء خصيصاً لهذه الغاية ، وقامت (م آي ٥) بحفره بين المنزل الجديد وبين ذلك القديم الذي نستخدمه للمراقبة المرئية والكائن في الشارع المجاور . وقمنا بوضع أحد الضباط السابقين الذين كانوا يعملون لدى (م آي ٥) خلال الحرب ويدعى (سيريل ميلز) وهو صاحـــب السيرك المعـــروف كمستأجر في المنزل . كان (ميلز) يدير أعمال السيرك من منزله لسنوات عديدة ، و كنا نستخدم سيارة سيرك (ميلز) المدهونة بالالوان الصارخة في كل مرة كنا نريد فيها القيام بادخال عناصر أو معدات الى البيت أو ازالة الأوساخ من النفق . وقد كان هذا الأمر غطاء مناسباً تماماً ، اذ ان الروس لم يشتبهوا بأي أمر على الاطلاق .

كنا في غاية الحذر خلال استخدامنا المباشر لاجهزة الاستقبال في عمليات (رافتر) بحيث كان كل جهاز استقبال يعمل على ذبذبة ميغاسايكل معينة ولم نقم بوضع أجهزة مذبْذِبَة تحسباً من ان يكون الروس قد قاموا هم ايضاً بتطوير تقنية على غرار تقنية (رافتر) . وبقي سر بيت (ميلز) مصوناً خلال سنوات الستينات ، حتى كانت ليلة كشفت فيها أجهزة الانذار عن وجود اثنين من الدبلوماسيين السوفييت وهما يقومان بالتسلق الى السطح . وقـــد تمكنا من كسر كوة المنور الموجودة في سقف البيت ، غير ان مدبرة المنزل أخافتهم ، وتصدت لهم ، قبل ان يتمكنا من الدخول عبر السطح . وقام (سيـــريل ميلز) بتقديم احتجاج رسمي الى السفارة السوفييتية . وقد افترضنا ان الروس قد اكتشفوا – بشكل أو بآخر – وجودنا داخل المنزل .

حينما أصبح المنزل جاهزاً ، كان باستطاعتي ان أضع موضع التنفيذ ذلك النوع من التجارب

الذي دار في مخيلتي خلال قراءتي لملف (كيستون) في كندا . كان يتم تفتيش السفارة بشكل نظامي بحثاً عن اي اشارات تدل على ان اجهزة الاستقبال الداخلية كانت تقوم بمراقبة مجموعات الاشارات الواردة من (موسكو) الى العملاء السوفييت في بريطانيا . كانت هذه الاشارات الواردة من (موسكو) ذات تردد عالي (HF) في حين ان عمليات الارسال اللاسلكية الخاصة بقسم المراقبة كانت ذات تردد عال جداً (VHF) . وكان الروس يستخدمون أجهزة لتكبير الذبذبات اللاسلكية مع أجهزة الاستقبال ذات التردد العالي (HF) الأمر الذي جعل مهمة (رافتر) اكثر صعوبة . غير ان قيادة الاتصالات الحكومية تمكنت من تطوير معدات اكثر تعقيداً ، حتى أنه اصبح بامكاننا خلال ستة شهور ان نراقب بنجاح أربع اشارات وردت من (موسكو) كانت تتم مراقبتها أيضاً من قبل السوفييت داخل السفارة بشكل روتيني .

كان الاسم الرمزي لاول اشارة اكتشفناها هو (غروف) . وقد التقطناها مساء يوم ثلاثاء في الساعة العاشرة والنصف . كانت الاشارات واضحة ومسموعة واكتشفت أجهزة الاستقبال عندنا فوراً طنين مُذَبْذِب محلي حينما كان الروس يقومون بعمليات الضبط على نفس التردد . وقامت قيادة الاتصالات الحكومية بتحليل (غروف) فتبين بان مصدر الارسال هو منطقة (موسكو) . وكان الارسال يتم بمعدل مرتين اسبوعياً . اما محللو الشيفرة فقد كانوا على ثقة تامة بان اشارات عمليات الارسال تدل على عملية اتصال صحيحة . ولذلك فقد قررت هيئة العمليات اللاسلكية اتخاذ جهود حثيثة من أجل مراقبة اشارات (غروف) وتحليلها .

اتصلت مع (كورتني يونغ) رئيس قسم مكافحة التجسس الروسي (د ١) آنذاك وسألته فيما اذا كانت لديه اى معلومات استخباراتية يمكن ان تساعدنا في تحديد موقع عميل غير شرعي ، نعتقد انـــه يعمـــل حالياً داخـــل المملكة المتحدة ويتسلم ارسالاً لاسلكياً من (موسكو) . كان مندهشاً من حديثي ، وأوضح لي ان الفرع (د) يقوم منذ مدة بمتابعة قضية عميل مزدوج ، وتأكد له ان هناك عميلاً غير شرعي يعمل في منطقة (لندن) اما هذا العميل المزدوج ، فهو ممرض شاب كان ذات يوم عضواً في الحزب الشيوعي البريطاني ، وانه تم الاتصال به منذ بضع سنوات ، وطلب اليه ان يعمل سراً مع الروس . وقد تردد الممرض في البداية ، غير ان الشخص الذي اتصل به أعلمه في النهاية انهم لا يطلبون من القيام بالتجسس ، وان كل ما عليه القيام به هو ارسال بعض الرسائل والاحتفاظ بحقيبة عنده بين فترة وأخرى . لكن هذا الممرض شعر بالخوف بعد فترة ، فاتصل بالشرطة ، التي أحالت بدورها القضية روتينياً الى (م آي ٥) عبر (الفرع الخاص) .

وقام (كورتني يونغ) بدوره باستخدام هذا العميل كعميل مزدوج ضد الروس ، وبعد مرور فترة قصيرة بدا وكأنهم وافقوا على قبوله كعميل حقيقي . كان الممرض يعيش في منطقة (ميدلاندز) غير

انه طلب اليه ان يقوم باستئجار منزل في منطقة (كلافام) في جنوب (لندن) باسمه الصريح . ثم قام المشرف عليه باعطائه تعليمات تقضي ان يقوم باعداد وتجهيز عدد من صناديق الرسائل الميتة في منطقة (كلافام كومون) بالقرب من البيت الجديد . ولقد كان (كورتني يونغ) على ثقة من أن هذا العميل قد قام الروس بتدريبه على أساس انه عميل دعم غير شرعي (هو الشخص الذي يقوم بمساعدة العميل غير الشرعي الحقيقي من خلال الاعداد لاتصالاته ووسائل راحته قبل وصوله الى المنطقة) لكن الذي حدث ، هو ان كافة الاتصالات مع هذا العميل قد قطعت فجأة ، ولم يعد يتلقى اي تعليمات لاحقة ، وكان تفسير ذلك ، إما ان العملية برمتها قد ألغيت أو أن العميل غير الشرعي قد تمكن من تثبيت قدمه بأمان في المنطقة بوسائل أخرى .

كان الهدف بعيداً ، ومع ذلك فقد كان هناك – على الاقل – احتمال بان يكون عميل (كورتني يونغ) غير الشرعي هو نفس الشخص الذي يتلقى اشارات (غروف) من (موسكو) . وقامت هيئة عمليات الاتصالات بالبحث عن أي معلومات لها أهميتها في منطقة (كلافام) . توجهنا بالسيارة المزودة بتقنية (رافتر) الى المنطقة واتخذنا من ساحة مسورة لأحد الملاجيء من الغارات – التي كانت تستخدم ايام الحرب – قاعدة لنا . اما الطاقة الكهربائية فقد حصلنا عليها من داخل الملجأ ، كما قمنا بوضع هوائي (أنتين) يغطي مساحة تقارب نصف ميل حسبما قدرت ، وكان الملجأ يقع عند نهاية الجهة الجنوبية لمنطقة (كلافام كومون) .

جلست أنا و (طوني سال) في السيارة الباردة ، قليلة التهوية ، ونحن نراقب وننتظر ، ونصغي . كان من المتوقع ان يبدأ ارسال (غروف) في الساعة العاشرة صباحاً ، فقمنا بضبط أحد جهازي الاستقبال على تردد ارسال (غروف) في حين أخذنا نبحث في جهاز الاستقبال الثاني عن أي ذبذبات قريبة لنرى فيما اذا كان بامكاننا ان نلتقط وجود أي جهاز . في الاسبوع الثاني سمعنا صوتاً غريباً يشبه نعيق البوم تم ضبطه على اشارات موريس القادمة من (موسكو) . اذن ، فقد كان هناك مَن يستمع الى ارسال (غروف) ضمن مساحة النصف ميل المحيطة بنا . نظر اليّ (طوني سال) وللحظة ، بدأ يشتم رائحة فريسته . بدأت أشرطة التسجيل بالدوران وهي تصدر قرقعة مكتومة ، ثم قمنا بتشغيل بطارية توليد الطاقة ، وأخذنا بقيادة السيارة ببطء عبر شارع (كلافام) العلوي باتجاه محطة المترو عبر الاشارات الضوئية . كانت الحانات ممتلئة ، وكانت ازهار النرجس البري تطل بشكل أنيق ورائع من حدائق منازل المنطقة ، على امتداد طريقنا ، والتي مَن هم بداخلها غافلون عن المطادرة التي تجري أمام أبوابهم .

كان (طوني سال) يراقب اشارات جهاز الذبذبة المحلي مستخدماً قوة الاشارة الصادرة عنه كمرشد له الى الموقع . وكنا نعرف ان ارسال (غروف) يستمر لمدة

عشـــرين دقيقة ، فكان أمامنا سبع عشرة دقيقة . حينما وصلنا الى محطة المترو بدأت الاشارة بالتلاشي ، ولذلك عدنـــا أدراجنا باتجاه ووندزوورث غير ان الاشارة أخذت تخفت مرة ثانية . اتجهنا صوب الجنوب ناحية (بالهام) الاّ ان الاشارة هذه المرة اختفت حتى قبل ان نترك منطقة الحديقة العامة .

لم يبق على موعد انتهاء الارسال سوى ست دقائق . ولم ننطق بكلمة داخل السيارة ، وكان قد بقي طريق واحد أمامنا على الجهة اليسرى ، مما يعني ان عملية ارسال (غروف) تجري الآن في الجهة الشمالية ، في مكان ما من المتاهات المزدحمة في الشوارع الخلفية لمنطقة (بترسي) . وسارت سيارتنا الخاصة بتلكؤ في (لاتشمر رود) وكان الاحباط قد بدأ يسيطر عليّ . كنت أريد أن أعدو بسرعة في كل الزوايا ، وأن أصرخ بأعلى صوتي طالباً من الناس المساعدة ، ومحاصرة المكان . لكن كـل مـا كـان باستطاعتنا ان نفعـله هو أن نحدق في ابرة الجهاز التي كانت تومض ، ونأمل منها أن ترتفـع لا أن تنخفض . لكـن ما أن عبرنا (ووندزوورث رود) حتـى كانت الاشارة قد أخذت بالتضاؤل ، وبعـد فترة قصيرة توقف الارسال من (موسكو) ، فقد انتهت رسالة (غروف) . ضرب (طوني سال) بيده على جانب السيارة ، ونزعت السماعات عن أذني ، وانا أشعر بالغضب والاستنزاف . كم من الشهور يمكن ان نبقى في (كلافام) قبل ان نكون قريبين ثانية من الاشارة كما كنـا اليوم ؟ .

أشعلـت سيجارتي الثالثة عشرة لهذا اليوم ، وحاولت أن أستعيد صورة العشرين دقيقة الماضية . لقد تنقلنا في كل الاتجاهات . لكن في الواقع ، كانت اشارة المَذْبْذِبْ المحلي تصبح أضعف في كل مرة كنا نتحرك فيها ، مما يثبت بلا شك اننا اكتشفنا وجود جهاز استقبال آخر اضافة الى جهازنا ، وان هذا الجهاز المكتشف لا هو موجود في الناحية الشمالية أو الجنوبية ، ولا هو في الجهة الشرقية او الغربية . وببطء نزلت الحقيقة المرعبة علي ، فان ارسال (غروف) كان يجب ان يكون فوقنا تماماً ، يستمع الى الرسالة ضمن مساحة ياردات الملجأ . وعدنا باتجاه قاعدتنا وفتشنا المنطقة . فبجوار الجدار العالي خلفنا كان هناك مرآب سيارات مهجور ، وبالتأكيد فان (غروف) كان يقف هناك بسيارته ، أو بعربة تشبه عربتنا .

حينما عـدت الى (ليكـونفيلـد هاوس) قمـت بطبع تسجيلات الاشرطة للمذبذب المحلي على جهاز السونار* . كانت الموجات الصوتية مختلطة بموجات مائية صغيرة . لكن شكل الموجة لم يكن من نفس مستوى تردد المويجات المائية ، بل انها كانت تشبه شكل الموجات الناجمة عن البطاريات

* الســونار : جهـــاز يستخدم لاكتشاف الاشيـــاء الموجودة تحت الماء خاصة بواسطة الامواج الصوتية المنعكسة عن هذه الاشياء (المترجم)

الكهربائية المستخدمة في السيارات والشاحنات المقفلة لتوليد تيار متردد . وكانت هذه المصادفة مؤلمة جداً حينما يفكر المرء بها .

خلال الشهور الستة التالية قامت هيئة عمليات الاتصالات اللاسلكية بغمر منطقة (كلافام) بكل رجل يعمل في خدمتنا . وتنصتنا في مئات المواقع ، وجاب الضباط كل الشوارع باحثين عن أي أمارة تدل على وجود هوائي ، كما جرت عمليات استفسارات واستقصاءات سرية عن مُوردي وبائعي الاجهزة اللاسلكية غير ان كل ذلك لم يجد شيئاً ، وفي مساء كل يوم ثلاثاء ، وكل يوم خميس ، كانت اشارة (غروف) تأتي من (موسكو) عبر الأثير تهزأ بنا ونحن نقوم بعمليات التفتيش .

اضافة الى الآلية التي تحمل (رافتر) بدأنا من خلال هيئة عمليات الاتصالات بالترتيب للقيام بعملية (رافتر) المحمول جواً ، اذ أخذت طائرة نقل تابعة لسلاح الجو الملكي ومجهزة بأجهزة استقبال مماثلة لتلك الموجودة في الشاحنة ، أخذت بالقيام بجولات منتظمة فوق (لندن) . فقد اعتقدنا انه من خلال ذلك العلو الشاهق سوف يصبح بامكاننا الحصول على فكرة أشمل حول الاماكن التي تعمل فيها أجهزة الاستقبال في (لندن) ، وبعدها ، ومن خلال تحديد اشارة موقع معين ، سيكون باستطاعتنا غمرها بشاحنات (رافتر) .

قضينا جولتنا الجوية الأولى ونحن نحلق فوق السفارة السوفييتية للتأكد من أن أجهزتنا تعمل بصورة صحيحة ، واستطعنا أن نلتقط اشارات أجهزة الاستقبال لديهم فوراً . والتقطنا ايضاً مجموعة الاشارات اللاسلكية في منطقة (فينسبري بارك) وغمرنا المواقع كما فعلنا في (كلافام) . لكن مثلما حدث في (غروف) لم يتم اكتشاف العميل الذي كان يقبع مموهاً بكل راحة في ضواحي (لندن) المكتظة والتي كنا نحلق فوقها .

كانت طلعات الطائرة التي تحمل تقنية (رافتر) نوعاً من الألم المبرح ، اذ كنت أقضي الليلة تلو الأخرى في السماء الداكنة اللون ، وأنا أستمع الى الاشارات القادمة من (موسكو) ، بمعزل عن صوت المراوح الذي يصم الآذن مستخدماً من اجل ذلك السماعات . وتحتي – في مكان ما ووسط أضواء (لندن) التي كانت تومض ، وتمتد الى ما لا نهاية – كان هناك جاسوس يجلس في علية ، أو في سيارة ، ويستمع هو الآخر الى تلك الاشارات . كنت أعرف ان ذلك يجري ، وكنت أستمع اليه ، غير انه لم يكن لدي سبيل كي أعرف اين هو ، أو من هو ، وفيما اذا كان يعمل وحيداً أم انه جزء من مجموعة ، والأهم من ذلك كله ، ما الذي كانت (موسكو) تخبره به . وكنت محصوراً بين ما أعرفه وما لا أعرفه ، ذلك الوضع الخاص الذي يعيشه ضباط التجسس المضاد .

وعلى الرغم من أن (رافتر) لم يقدم أي ثمار فورية ، فان (انغولف) ومن خلال استخدام الوسائل الفنية لتحليل رموز الشيفرات ، سرعان ما أثبت نجاحات متعددة . فقد بدأت الأمور بالتحسن

فعلياً مع عقد اجتماع في (شلتنهام) ترأسه مساعد مدير قسم الابحاث في قيادة الاتصالات الحكومية (جوش كوبر) عام ١٩٥٧ . لقد كان (كوبر) على ثقة بضرورة قيام التنسيق الوثيق بين اجهزة الاستخبارات الثلاثة ، وذلك اذا ما كان الهجوم الجديد سيقود الى نجاح آخر في مجال حل رموز الشيفرة . وقد تمكن ولأول مرة من إحضار الاطراف المعنية المختلفة معاً : (هيو الكسندر) و (هيو دنهام) من (القسم هـ) في قيادة الاتصالات الحكومية (محللا شيفرة) و (جون ستورر) رئيس القسم العلمي في القيادة والمسؤول عن (المجموعة المضادة) في (القسم م) و (راي فراولي) وأنا ونظيري في (م آي ٦ / بات أوهانلون) .

وبغض النظر عن الروس ، كان المصريون لا يزالون في سلم أولويات قيادة الاتصالات الحكومية . كانوا يستخدمون أجهزة (الهاجلين) في كافة سفاراتهم ، ضمن أربع مجموعات وتحتوي كل مجمـوعة على توضيعات مختلفة لدواليب الشيفرة ، فاذا ما تمكنا من اختراق أي واحد من الاجهزة ، فانه سيكون بالامكان اختراق كل جهاز من أجهزة تلك المجموعة . واذا ما حصلنا على عينات من أي جهاز ، فان كل جهاز مـــن أجهزة تلك المجموعة سيكون بالامكان اختـراقه . وقامت (م آي ٦) وقيادة الاتصالات الحكومية باعداد قائمـــة بالسفارات المصـــرية المنتشرة في انحاء العالم ، مع تفصيلات تتضمن الى أي مجموعة ينتمي جهاز كل سفارة . ثم قامت اللجنة بتقييم أي سفارة في كل مجموعة تمثل افضل امكانية لتنفيذ عملية (انغولف) ناجحة ضدها ، وقمت باطلاع فرق (م آي ٦) على كيفية التخطيط للعمليات . وخلال سنة كنا قد قمنا باختراق وتحليل كل مجموعات الشيفرة المصرية .

على الرغم من أن عملية (انغولف) جعلت كافة أجهزة (الهاجلين) عرضة للأختراق الا أن هذه الاجهزة كانت قيد الاستعمال في دول العالم الثالث فقط ، وكان (كوبر) يأمل من خلال عقده لهذا الاجتماع ، اكتشاف طرق لتطبيق مبادىء (انغولف) على أجهزة الشيفرة الاكثر تقدماً ، اذ ان قيادة الاتصالات الحكومية لا تمتلك اجهزة الكمبيوتر للقيام بالهجوم على الشيفرات . وكانت طريقة فهمي للموضوع بسيطة : يجب علينا ان ننفذ حتى العمليات التي كانت نتائجها – ولو على الورق – تبدو عقيمة ، وقلت :

" لقد أتينا الى هنا كي نحل المشكلة عملياً ... اننا لا نعرف الى اي مدى يمكننا ان نصل بعمليات الاختراق والتحليل ، ولذلك يجب علينا ان نقوم بالتجارب . و حتى لو سارت الأمور بشكل خاطىء ، فاننا سنتعلم أشياء لم تكن نعرفها من قبل " .

وكانت تدور في ذهني بذور فكرة ان اي جهاز شيفرة – ولا أهمية اذا كان هذا الجهاز معقداً أم لا – يقوم بتشفير النص الواضح للرسالة وتحويله الى سيل من الحروف العشوائية . وخلال سنوات

الخمسينات كانت غالبية الشيفرات المتقدمة يتم الحصول عليها من خلال طباعة النص الواضح على جهاز التلبرنتر المربوط بجهاز الشيفرة المنفصل ، بحيث يخرج من الجهة الاخرى للجهاز . أما أمن النظام كاملاً فانه يعتمد على نظام المراقبة الدقيقة ، فان لم يكن جهاز الشيفرة محمياً من الناحية الالكترومغناطيسية من عند مدخل الجهاز الذي يحمل النص الواضح ، فان أصداء الرسالة غير المشفرة يمكن ان تنتقل عبر الكابلات الخارجية مع الرسالة المشفرة . وباستخدام الانواع الجيدة من المكبرات الصوتية ، فانـــه سيكون ممكناً – مـــن الناحية النظرية – القيام بفـرز النص " الشبح " وقراءته .

وبالطبع لم يكن لدينا أي مجال لمعرفة أي من البلاد تقوم بحماية غرف الشيفرة في سفاراتها بشكل تام ، وأي من الحكومات لا تقوم بذلك ، وأعتقد ان أي عملية ضد الخطوط ستكون بحاجة الى سنتين حتى تثمر . وبالطبع ، فليس هناك شيء من المنطق في توسيع عمليات الهجوم ضد الشيفرة الروسية حينما نكون على علم بأن هذه الشيفرة محمية تماماً . وبذلك ، فان القضية هي قضية تحديد الاهداف المهمة والتي حظينا خلالها ببعض فرص النجاح .

برزت الشيفرة الفرنسية من بين بقية الشيفرات على انها الهدف الاكثر ملاءمة لاجراء تجربة اخرى من تجارب (انغولف) خاصة وان (م آي ٦) و قيادة الاتصالات الحكومية كانتا تتعرضان لضغط من وزارة الخارجية من أجل تزويدها بالمعلومات الاستخباراتية حول النوايا الفرنسية المتعلقة بطلب بريطانيا المعلق للدخول في دول السوق الاوروبية المشتركة . علاوة على ذلك ، فان قيادة الاتصالات الحكومية قامت بدراسة نظام الاتصالات الفرنسي في (لندن) ، وتبين لها ان الفرنسيين يقومون باستخدام شيفرتين : الاولى وهي من الدرجة الدنيا وتستعمل لارسال المراسلات على خط التلكس الى (كواي دي اورساي) والثانية وهي من الدرجة العليا وتستخدم لمراسلات السفراء ، ويتم استخـــدامها بشكل منفصـــل عن جهاز الشيفرة للمزيد من الاحتياطات الامنية . وكانت وجهة نظر (هيو الكسندر) ان شيفرة الدرجة العليا سيكون من الصعوبة بمكان حل رموزها ، في حين ان شيفرة الدرجة الدنيا سيكون بالامكان اختراقها وفقاً لاسلوب الهجوم الذي أشرت اليه . وأعطى (كوبر) موافقته ، وبدأت عملية (ستوكيد) .

كانت أول مهمة في هذه العملية المشتركة التي نفذتها (م آي ٥) وقيادة الاتصالات الحكومية تقضي القيام باستطلاع تقني مفصل للحصول على تصميم السفارة الفرنسية وعلى وجه الخصوص الموقع الذي توضع فيه غرفة الشيفرة . وقمـــت بتـــرتيب أمـــر الحصول على التصميم من المجلس المحلي * كما قمت بالاتصال بوحدة ابحاث مكتب البريد . كان (جون تيلر) قد أحيل على التقاعد في

*المجلس المحلي : يقصد به البلدية او ما شابه ذلك ، وهو الهيئة الرسمية المسؤولة عن تراخيص المباني (المترجم)

هذه الفترة ، وحل مكانه (هـ . ت . ميتشل) الذي كان مصاباً بالشلل النصفي نتيجة اصابته بجلطة في الدماغ ، وعلى الرغم من أنه كان يتحدث بصعوبة الاّ ان عقله بقي متوقداً دائماً . وأعطاني رسماً بيانياً تخطيطياً كاملاً لكافة كابلات الهواتف والتلكس الداخلة والخارجة من السفارة ، وبمطابقة هذه الرسوم مع رسومات التصميم أصبح باستطاعتنا ان نحدد موقع غرفة الشيفرة .

طلبنا من مكتب البريد ان يعمل على تعطيل خطوط الهواتف ، وبذلك اتيحت لنا امكانية معاينة غرفة الشيفرة بالعين . وعلى العكس من المصريين ، فان عناصر أمن السفارة الفرنسية كانوا يراقبون كل خطوة من خطواتنا ، ومع هذا فقد حصلنا على المعلومات التي كنا نريدها . لم يكن في غرفة الشيفرة أي جهاز هاتفي ، بل كان يوجد جهاز عند نهاية أحد الممرات . أما اجهزة التلكس والشيفرة فقد كانت في غرفتين متجاورتين ، يفصل بينهما لوح جصي * .

وباستخدام الرسومات البيانية التي زودنا مكتب البريد بها ، قمنا بتتبع الكابلات الخارجة الى الشارع الموصلة الى علبة الهواتف الموجودة على الرصيف عند مدخل بوابة (البرت) الى حديقة (الهايد بارك) . وقمت أنا و (ميتشل) بعمل الترتيبات اللازمة لوضع جهاز تنصت ذي ذبذبة ذات مدى واسع على الكابل الموجود داخل العلبة بحيث يتم نقل الاشارة الملتقطة الى غرفة عمليات خاصة وضعت في فندق (هايد بارك) . وتم تعطيل الهواتف في الفندق حتى نحصل على تغطية من اجل ان يتم تمديد الكوابل عبر الفندق الى الغرفة التي اتخذناها مقر قيادة في الطابق الرابع . كما تم وضع مكثفات لمحاصرة الدارات الكهربائية لضمان الحصول على سريان التيار باتجاه واحد وحتى لا يكون هناك تسرب في الطاقة الكهربائية باتجاه السفارة الأمر الذي قد يكشف العملية ويودي بها الى الفشل . وكانت قيادة الاتصالات الحكومية تقوم بشكل روتيني باعتراض الاتصالات اللاسلكية واتصالات التلكس الصادرة والواردة من والى كل سفارة في (لندن) وذلك من مبانيها الواقعة في (بالمر ستريت) . وعملنا على تمديد خط يتضمن كافة الاتصالات الخاصة بالسفارة الفرنسية حيث يتم ايصالها من (بالمر ستريت) الى غرفة عملياتنا في فندق (هايد بارك) وباستخدامنا لذلك الخط كدليل ومرشد ، اصبح بامكاننا التاكد فيما اذا كانت الاشارة الملتقطة على جهاز تسجيل الذبذبة اللاسلكية هي الاشارة الصحيحة .

في صباح اليوم الاول التقطنا شيفرة الدرجة الدنيا ، وقمنا بمقارنتها مع الاتصالات التي يتم اعتراضها في (بالمر ستريت) وكان جهاز التسجيل موصولاً بجهاز التلبرنتر الخاص بنا ، فبدأت

* اللوح الجصي : لوح رقيق يصنع من الجص واللباد ويكسى بالورق ويستخدم في اقامة الجدران الداخلية الفاصلة (المترجم)

الشيفرة الفرنسية التي تم اعتراضها بالظهور أمامنا . وكان من الواضح تماماً انه كانت هناك اكثر من اشارة تمر عبر الكابل الذي كنا نقوم بالتنصت عليه . وكانت القضية قد أصبحت الآن قضية ان نجلس و بيدنا قلم لنقوم بفرز النص الواضح عن النص المشفر ، وبذلك يمكن قراءة الشيفرة مباشرة .

بـــدأت عملية الترجمة ، غير أنني وجدت آثار اشارة أخرى على جهاز التلبرنتر ، فقمت بالتأكـــد – من خلال جهاز السونار – من أنني لست مخطئاً ، واتصلت بفنيي قيادة الاتصالات الحكومية .

كان مخطط الاشارة الذي يرتفع الى الذروة وينخفض الى ادنى مستوى له ثابتاً ، و يظهر أمامنا على الشاشة بصمت . كان خط اشارة شيفرة الدرجة الدنيا قويا وكان من السهولة بمكان تحديد النص " الشبحي " . ولكن مع كل بلوغ للمخطط الى الذروة كان هناك صوت دمدمة ، وكأن اشارة أخرى كانت تمر . وفجأة همس احد رجال قيادة الاتصالات :

" يا الهي ... ها هي ايضا شيفرة الدرجة العليا . اننا نلتقطها من خلال الجدار الداخلي الفاصل " .

وعلى وجه السرعة ، اتصلت مع (بالمر ستريت) وطلبت اليهم ان يضعوا شيفرة الدرجة العليا علـــى الخط حتـــى نقـــوم بمقارنـــة الاشارتين ، فقام فنيو قيادة الاتصالات الحكومية بتشغيل مكبرات الصـــــوت ، فغدت الاتصالات قوية بما فيه الكفاية ، والى الحد الذي كان يسمح بطباعتها على التلبرنتر ، وتم استخدام تغذية (بالمر ستريت) كدليل لنا . وقمت بفرز النص الواضح . وخلال عشر دقائق كانت بين يدي ترجمة اولية لنص برقية مرسلة من السفير الفرنسي في (لندن) الى المكتب الخاص للرئيس (دي غول) .

وعلى امتداد ثلاث سنوات تقريباً – أي بين عامـــي (١٩٦٠ و١٩٦٣) – كانـــت (م أي ٥) وقيادة الاتصالات الحكومية تقومان بقراءة شيفرة الدرجة العليا الفرنسية الواردة والصادرة من والى السفارة الفرنسية في (لندن) ، حتى ان كل خطوة كانت تخطوها فرنسا خلال محاولتنا المجْهَضَة لدخول السوق الاوروبية المشتركة ، كانت تحت مراقبتنا . وكانت وزارة الخارجية تلتهم المعلومات الاستخباراتية هذه بشراهة كما كانت تُرسل نسخ حرفية من برقيات (دي غول) بشكل منتظم الى وزير الخارجية عبر صندوقه الأحمر.

وفي الحقيقة ، فان عملية (ستوكيد) كانت بمثابة صورة توضيحية لعجز المعلومات الاستخباراتية وقصورها . فقد كان (دي غول) مصمماً على معارضته طلبنا ، ولم تستطع كل المعلومات الاستخباراتية ذات الدرجة العليا لن تغير من هذه الحقيقة شيئاً . وقد ارسلنا الى الامريكيين تفاصيل مناقشة الفرنسيين لـ " القوة الضاربة " النووية المستقلة . وقد ساعدت هذه المعلومات على زيادة

شكوك الامريكيين بـ (دي غول) غير ان ما حصلنا عليه من الامريكيين من فائدة مقابل هذا كان ضئيلاً جداً .

ويـرغم كل شيء ، فان عملية (ستوكيد) تعتبر انتصاراً رئيسياً داخل أوساط وزارة الخارجية ، وقد استدعاني سكرتير الوزير لتهنئتي على براعة هذه العملية وقال لي مبتسماً : " انها معلومات لا تقدر بثمن ... حقا لا تقدر بثمن " . قال ذلك ، وتركني وأنا متأكد من ان " قراءة اتصالات الضفدع " كانت عملية جديرة بالاعتبار ، من حيث كونها خليفة لعملية (اغنيكورت) التي تم خلالها إحراق مدينة (كاليه) وتسديد ضربات قديمة الى الفرنسيين الخونة .

٩

خـــلال الفتـــرة الـــواقعة بين نهاية سنوات الخمسينات وبداية سنوات الستينات ، تعززت مكانـــة الاستخبـــارات البـــريطانية بسبـــب نجاحهـــا في عمليتي (انغولف : ضد المصريين) و (ستوكيد : ضد الفرنسيين) . وقدمت قيادة الاتصالات الحكومية قائمة كبيرة تتضمن كافة الأهداف التي تنوي مهاجمتها ، وكانت القائمة تتألف من شقين : الاهداف المحلية والاهداف الخارجية ، وكل شق مرتب حسب الاولوية . وقامت (م آي ٥) بجمع المعلومات الاستخباراتية عن كل سفارة موجودة في بـــريطانيا بمـــا فـــي ذلك معلومات عن موقع غرفة الشيفرة ، وكذلك تفصيلات مداخل ومخارج الكابلات ، اضافة الى تحديد نوعية العملية التي يجب ان تستعمل ضـــد كـــل هدف : (انغولف) أو (ستوكيد) وفعلـــت (م آي ٦) نفس الشيء خارج بريطانيا ، حيث قامت باستطلاعات تقنية تفصيلية لأهداف قيادة الاتصالات الحكومية على الرغم من عدم حصولهم على المساعدة القيمة لمكتب البريد ، من خلال اضطرارها الى الاعتماد على استخدام عملية ادارة العملاء التقليدية بشكل كبير .

بعد عملية (ستوكيد) تم وضع خطط جديدة لمهاجمة شيفرات معظم الدول الاوروبية وكانت البداية مع الشيفرة الالمانية . ولكن بعد أن بذلنا جهوداً مكثفة قررنا الغاء العملية لأن الأجهزة الالمانية كانت محمية تماماً . ومع هذا ، فقد تمكنا من وضع ميكروفون جساس خلف جهاز الشيفرة في السفارة اليونانية في (لندن) . وقد كان هذا هدفاً له قيمته اذ ان اليونانيين كانـــوا يؤيدون بشـــدة الكولونيـــــل (غريفاس) زعيم الثوار القبارصة خلال الازمة القبرصية . وبنفس الطريقة عملنا ضد السفارة الاندونيسية إبان المواجهة الاندونيسية – الماليزية ، وتمكنا من قراءة الشيفرة باستمرار على

امتداد فترة النزاع .

اما بالنسبة لشعبة (م آي ٦) فان أبرع عملية قامت بها هيئة عمليات الاتصالات ، فقد كانت وبلا شك تلك العملية التي استهدفت الطراد الروسي (اوردجونيكيدز) . فعلى الرغم من الاخفاق التام لعملية " بوستر كراب " التي جرت في (بورتسماوث) ، فان (م آي ٦) كانت مصممة على اصطياد الطراد . كان من المقرر لهذه البارجة الحربية ان ترسو في (ستوكهولم) عام ١٩٥٩ ، وكانت تتوافر معلـومات لـدى (م آي ٦) بأن الاستخبارات السـويدية تخطط للقيام بعملية ضد هذه البارجة . ولذلك ، فان رئيس محطة (م آي ٦) في السويد اعلم السويديين ان بريطانيا مستعدة لتقديم مساعدات فنيـة متطورة . وعلى الرغم من ان السويد كانت دولة محايدة اسميا ، الاّ ان الاستخبارات السويدية التي كانت على صلة سرية وغير رسمية بقيادة الاتصالات الحكومية ، قد قبلت العرض البريطاني شاكرة ذلك .

سـافرت الى السويد للتخطيط لعملية (انغولف) ضد جهاز الشيفرة الموجود فـي البارجـة (اوردجونيكيدز) وكان ذلك عام ١٩٥٩ . سرت على رصيف الميناء خلال الليل مسرعاً ، متنكراً بزي مهندس سويدي ، وبصحبتي رجلين ضخمي الجثة من رجال الاستخبارات السويدية ، اضافة الى اثنين آخرين من رجال قيادة الاتصالات الحكومية . وتوارينا في مخزن يقع مواجهة (اوردجونيكيدز) ثم صعدنا الى غرفة العمليات حيث كانت معدات عملية (انغولف) . بقينا في تلك الغرفة الصغيرة مدة خمسة أيام . كانت الوقت صيفا ، وبلغت درجة الحرارة في الخارج حوالي التسعين درجة فهرنهايت . كـان سقـف المخـزن مصنوعاً من صفيح القصدير المموج . اما في الداخل ، فقد كنا نتصبب عـرقا ، فكنـا نجـد العـزاء والسلـوى في صناديق البيرة المعتقة والمكدسة في الثلاجة . وعلى الرغم من اننا تمكنا من اكتشاف بعض أصوات الشيفرة ، الا اننا لم نتمكن أبداً من حل رموزها . غير ان (م آي ٦) وقيادة الاتصالات الحكومية رأتا ان العملية ناجحة كليا .

وخـلال الاجتمـاع التالـي الـذي عقـدته هيئـة عمليات الاتصالات اللاسلكية قال مندوب (م آي ٦) (بات او هانلون) وهو يبتسم : " نحـن مثل الشـرطة الملكية الكندية دائماً نحصل على رجالنا " .

وزادت عمليات (رافتر) و (انغولف) بشكل مثير وذلك نتيجة لعمليات الاستطلاع الفنية التي كانت تتدفق بغزارة ، فكانت العمليات ترتكز على هذه الاستطلاعات بشكل كامل . وكانت هيئة عمليـات الاتصالات – التـي تضـم عناصر فنيـة من (م آي ٥) و (م آي ٦) وقيادة الاتصالات الحكومية – قد تأسست عام ١٩٦٠ كي تقوم بتنسيق الأعمال المطلوبة ، وكانت تجتمع مرة واحدة كل اسبوعين إما في (شلتنهام) أو في (ليكونفيلد هاوس) . وقد كنت أول رئيس لها ، على الرغم من ان (راي

فراولـي) وهو ضابط من قيادة الاتصالات الحكومية ويتميز بالانضباط الذاتي الصارم ، أخذ على عاتقه مسؤولية ضبط وتنظيم العمل ، وسرعان ما سيطر على الهيئة . كان هذا الرجل عبقريا في مجال الادارة ، ولم يكن فيه شيء من امارات ضيق التفكير الموجودة لدى زملائه في (شلتنهام) . وقد قام بتنظيم كافة الاعمال المكتبية ، و بالحصول على الموارد الفنية والفنيين من قيادة الاتصالات الحكومية لتنفيذ كل عملية ، اضافة الى قيامه بتنظيم عملية الحصول على كافة التصاريح الحكومية اللازمة .

كانت هيئة عمليات الاتصالات من اكثر الهيئات أهمية في جهاز الاستخبارات البريطانية خلال فترة ما بعد الحرب . وعلى مدار عشر سنوات وحتى ظهور جيل جديد من الكمبيوتر في أواخر سنوات الستينات ، كانت لجنة عمليات الاتصالات العامل الحاسم لنجاح جهود تحليل الشيفرات في قيادة الاتصالات الحكومية . غير ان الأهم من هذا كله تمثل في ان هذه الهيئة كانت الوسيلة التي بدأت بازالة الحواجز التي كانت تفصل بين كل من (م آي ٥) و (م أي ٦) وقيادة الاتصالات الحكومية على مستوى العمل . وكما كان الأمر عليه خلال الحرب ، فان الاستخبارات البريطانية بدأت مرة ثانية تظهر وكأنها وحدة منسّقة ، وكانت نتيجة ذلك المزيد من النجاح .

اما فيما يتعلق بموضوع البحوث ، فانه كانت هناك ايضاً بعض التحسينات الهامة التي طرأت في نهاية سنوات الخمسينات . حينما التحقت بجهاز (م آي ٥) كانت (لجنة كوليمور) هي المسؤولة الرئيسية عن البحوث العلمية . وكانت (م آي ٦) تدعو عشرات العلماء المشهورين مرة كل سنة من خارج العالم السري الى غرفة اجتماعات مأمونة في (كارلتون هاوس تيراس) . ومقابل هذا الغذاء السخي ، كانت (م آي ٦) تتوقع ان يعمل هؤلاء العلماء المشهورون كمستشارين علميين خصوصيين لدى جهاز الاستخبارات ، حيث يقومون بتزويد الجهاز بالارشادات ، والافكار ، والاتصالات المفيدة . وحالما حضرت لأول مرة (لجنة كوليمور) تبينت ان هذا الأمر مضيعة للوقت . فقد كانت المناقشات الصباحية مفككة وغير بناءة . وبعد تناول القليل من الطعام ، وافضل انواع الخمور الفرنسية الحمـــراء ، لا يبقى سوى بضعة من افراد اللجنة في حالة جيدة تمكنهم من الالتفات الى القضايا العلمية المعقدة . بعد انقضاء ايام العمل هذه ، اصطحبنا (بيتر ديكسون) جميعا الى الريف للمزيد من الطعام والشراب . ولا زلت أذكر دائماً تلك النظرة التي كانت تبدو على وجه (ديك وايت) حينما رآنا عند منتصـف الليل ونحـــن نجلس فـــي ملهى في منطقة (سوهو) يمكن ان يقال عنه من باب التهذيب بأنه " حانة غريبة " : ابتسم ابتسامة باهتة للوجوه المحمرة الجالسة حول الطاولة ، غير انني أحسست ، انه – مثلي – شعر ان هذا التصرف ليس هو الرد على المشاكل العلمية الراسخة التي تواجه (م آي ٥) .

وقـــد كان لـ (لجنة كوليمور) بعـض الفائدة من حيـث انها كانت بمثابة موجِّهة الصوت * غير

* موجهة الصوت : لوحة توضع خلف الخطيب او المتكلم فتعكس الصوت ليصل الى الجمهور أقوى وأوضح (المترجم)

انني كنت على ثقة منذ البدايـــة ان (م آي ٥) تحتاج الى برنامج أبحاث داخلي شامل ، والى جهاز موظفين مناسب ، وكذلك الى تمويل مناسب . وقد بدا لي مدى عبثية ما تقوم به وزارة المالية حينما تقوم – وبجرة قلم – بانفاق مبالغ طائلة على البحوث المتعلقة بالاسلحة ، في حين انها تعارض تخصيص مبالغ ضئيلة يطلبها جهاز الاستخبارات من أجل تحديث الجهاز .

بعد مرور فتـــرة قصيرة علـــى انضمامي الـــى (م آي ٥) عام ١٩٥٥ ، عاودت الاتصـــال بـ (السير فريدريك براندريت) وطلبت مساعدته في الحصول على الموارد الضرورية وقد كان متعاطفا معي ، وأوضح ان مطالبي يمكن ان تحظى بفرصة أفضل اذا قمت اولا باعداد دراسة شاملة عن التقدم الفني والعلمي الحالي لجهاز (ك ج ب) وان اقوم باعداد ورقة عمل أشير فيها الى نقاط الضعف عند كل من (م آي ٥) و (م آي ٦) .

اتصلت بنظيري في (م آي ٦ / القسم هـ ١ للتكنولوجيا) . غير انه سرعان ما بدا لي واضحاً انهم لا يمتلكون سوى القليل من المعلومات الاستخباراتية حول هذا الموضوع ، ولذلك ، فقد قررت أن أقوم بدراسة شاملة لعملية استخلاص المعلومات التي جرت للعلماء الألمان الذين أخذوا بالاكراه – عند نهاية الحرب – الى الاتحاد السوفييتي ليعملوا بضع سنوات في مختبرات الحكومة السوفييتية كثمن لاطلاق سراحهم وحريتهم . وقد عرف هؤلاء العلماء بلقب (التنينات العائدة) وقد قدمت عملية استخلاص المعلومات التي جرت لهم بعد عودتهم معلومات استخباراتية مهمة وكثيرة عن أوضاع الصواريخ السوفييتية ، وعن محركات الطائرات ، وكذلك عن الابحاث النووية ، خاصة ، وان هذه الناحية الأخيرة هي التي كان الروس يتوقون الى تطويرها .

قمت بزيارة وحدة الاستخبارات العلمية لشؤون الدفاع ، وسألت الجنرال (سترونغ) فيما اذا كان بامكاني القيام بدراسة الأوراق . أخذت الى غرفة في جادة (نورثمبرلاند افنيو) حيث توجد بها كافة المواد المتعلقة بالتنينات مكدسة في رزم تحتوي على المجلدات المطلية بالغبار . اما الأمر الذي لا يصدق فهو كيف ان كلاً من (م آي ٥) و (م آي ٦) لم تزعجا نفسيهما باستخدام أي من هذه المواد لمصلحتها الخاصة .

قضيت عدة شهور وأنا أقوم بدراسة أوراق التنينات ، وسرعان ما بدا من الواضح لي ان عدداً لا يستهـــان بـــه من علماء التنينات قد اختيروا للقيام بالابحاث العلمية لصالـــح الاستخبارات الفنية في مختبرات تقع في ضواحي (موسكو) ويسيطر عليها جهاز (ك ج ب) . وأعددت قائمة تتضمن أسماء محددة لعلماء التنينات الذين أردت مقابلتهم مرة ثانية . وكانت عمليات استخلاص المعلومات الاصلية قد تمت على ايدي عناصر عسكرية امريكية أو بريطانية لم تكن مدربة علمياً ولا يوجد لديها معرفة ودراية في مجال جمع المعلومات الاستخباراتية ، وكنت واثقاً من انه يمكنني ان أحصل على معلومات اكثر من

هؤلاء العلماء .

سافرت الى المانيا عام ١٩٥٧ ، وكان في استقبالي ممثل (م آي ٥) رفيع المستوى ، والالماني الأصل (بيتر دوميسن) الذي قام باجراء الترتيبات اللازمة لتسهيل عملية اجراء المقابلات مع هؤلاء العلماء في مقر الاستخبارات العسكرية البريطانية في (هانوفر) وفي (ميونيخ غلادباخ) . كان معظم ضباط الاستخبارات يحبون المانيا خلال سنوات الخمسينات فقد كانت خط الجبهة ، وكان العمل حراً وسهلاً . الاّ ان (دوميسن) كان مكتئباً من التوتر المتزايد في (برلين) وكان مقتنعاً ، بانه لن يمر وقت طويل قبل ان يحاول الروس مرة ثانية ابتلاع الجزء الغربي من المدينة .

كانت المقابلات التي أجريتها صعبة ومؤثرة ، فقد كان العديد من العلماء يشعرون باليأس من الفوز بالحظوة لدى البريطانيين والامريكيين . وقد ركزت أسئلتي كي تدور حول الأمور الفنية ، لا سيما وأن الآراء التي كانوا يدلون بها كانت تشكل بوضوح ما كانوا يحسّون أنني أريد سماعه . ومما لا يقبل الانكار أن هؤلاء العلماء قد عانوا الكثير خلال فترة سجنهم في (موسكو) ، خاصة وان العديد من اصدقائهم قد توفوا هناك ، غير انه من الصعوبة بمكان ان لا يتذكر المرء الى جانب مَن كان يقف هؤلاء خلال الحرب .

كان أحد العلماء الذين قابلتهم في البداية هو الرجل الذي قام بتطوير " الشيء " الذي وجده الامريكيون داخل الشعار الكبير الموجود خلف طاولة مكتب السفير الامريكي في سفارتهم في (موسكو) . وكان مما يبعث على السرور أن أسمع منه ما يؤكد ان ذلك الجهاز كان يعمل طبقاً لما كنت قد تنبأت به تماماً بعد ظهر يوم الأحد ذاك في كوخ (ماركوني نيسن) . ولكنني أحسست ثانية - حينما كنت أقوم بتوجيه الاسئلة اليه - بذلك الرعب الذي سيطر على (م آي ٥) عام ١٩٥٠ حينما تأكد لنا ان جهاز (ك ج ب) قد تمكن من تطوير شيء كان لا يزال في مرحلة البحث الأولي في بريطانيا .

وقدمت أوراقي المتعلقة بعلماء التنين الى (م آي ٦) في مطلع عام ١٩٥٨ من أجل الحصول على موافقتهم . وقد أشار علي (براندريت) بقوة للقيام بهذا لأن طلب الحصول على الموارد سيكون له وزن اكبر اذا كان من قبل الجهازين معاً . وحينما تمت المصادقة على التقرير تم وضعه أمام لجنة سياسة بحوث الدفاع التي كان يترأسها (براندريت) نفسه وقد سببّت هذه الوثيقة رعباً واسعاً في اوساط اللجنة ، اذ انه لم يسبق لجهاز (ك ج ب) ان أحرز تقدماً على الغرب وهذا ما تبين من خلال الوثائق . وقد تمكنت من اثبات ان جهاز (ك ج ب) قد حقق السيطرة الفنية من خلال جهود علماء التنين ، وخاصة في مجال الالكترونيات وأجهزة المراقبة بما في ذلك استخدام انظمة الاشعة تحت الحمراء ، والتي جعلتهم يصبحون في موقع السيطرة منذ أواخر سنوات الاربعينات .

ومن خلال ما كان يتمتع به (براندريت) من بصيرة ، كانت البحوث العلمية تشق طريقها من خلال اللجنة التي ارتبطت بها ، وكنت عضواً فيها منذ عام ١٩٤٩ . لكننا كنا نريد تشكيل وتوسيع هذا البرنامج المتعلق بالابحاث من خلال وجود موارد وعناصر جديدة ، فقمت بتقديم ورقة عمل أخرى مشتركة من قبل (م آي ٥) و (م آي ٦) والتي أصبحت تعرف فيما بعد باسم " وثيقة التقنيات " وهي الاسم الذي أطلقه عليها جهاز (ك ج ب) . وقد سردت فيها وصفاً للتقدم الذي يجب ان يتم ، مؤكداً بشكل اكثر علـى التقدم في مجال الالكترونيات . وكنتيجة للتقرير الذي تقدمت به حول ما توصلت اليه مـن خلال علماء التنين ، وكذلك نتيجة لوثيقة التقنيات ، بدأت الابحاث التقنية من أجل الاستخبارات ككل - وبشكل خاص من أجـل م آي ٥ - تحظـى بأولوية اكثر ضمن سياسة بحوث الدفاع . الا ان ما يؤسف له ، ان لجنة سياسة بحوث الدفاع استمرت برفض فكرة المخصصات المالية المحددة لأجهزة الاستخبارات ، على أمل ان يتم ملء الفجوة عن طريق تثبيت متطلباتنا في برنامج بحوث الدفاع الذي كان قائماً . ولذلك كان عليّ أن أستمر في التذلل ، ولكن الأجواء تغيرت على الاقـل .

في عام ١٩٥٨ ، وحينما تم أخذ وثيقة التقنيات بعين الاعتبار ، قام (هوليس) بتقديمي الى رجل قام باكثر مما يجب من أجل العمل على ضمان تحديث (م آي ٥) وهو (فيكتور روتشيلد) الذي كـان قـد عمل مـع (م آي ٥) خـلال الحـرب (وفاز بميدالية الملك جورج نظراً لاستهلاله استخدام القنابل) وقـام بتقوية علاقات الصداقة مع العديد من كبار الضباط ، وعلى وجه الخصوص مع (ديك وايت) . وحينما التقيت به ، كان يعمل رئيساً لقسم البحوث في شركة شل للنفط ويدير اكثر من ثلاثين مختبراً في أنحاء العالم . وقد أخبـــره (هوليس) عن تعييني كعالم في (م آي ٥) وأبـدى (روتشيلد) اهتمامـاً بمقابلتـي ، اذ دعـاني لتناول طعـام العشاء في بيته الفخم في ساحة (سانت جيمس) .

ولا أعتقد أنني التقيت طوال حياتي برجل ترك أثراً في نفسي مثل (روتشيلد) . كان هذا الرجل عالماً بارزاً ، وعضواً في الجمعية الملكية ، اضافة الى خبراته في علمي النبات والحيوان ، مع افتتان بعلم الجراثيم الحيوانية . غير انه كان اكثر من كونه عالماً . فعلاقاته مع الاوساط السياسية والاستخباراتية والمصرفية والجهاز المدني ومع الخارج واسعة بشكل اسطوري علـــى الرغم من وجود بعض الخيوط في حبـــل تأسيس بريطانيا والتي لـــم تمر فـــي بعض الاوقات من خلال ثقب ابرة (روتشيلد) .

وقد افتتن (روتشيلد) بالخطط التي عرضتها عليه والمتعلقة بالتحديث العلمي لجهاز (م آي ٥) فقدم لي عدداً من اقتراحاته . وسرعان ما تأكد لي ان هذا الرجل يمتلك شهوة عارمة تجاه مكائد واثارات العالم السري ، وبعد ذلك بقليل بدأنا نتبادل الأحاديث والاقاصيص عن بعض الزملاء الذين

كان يتذكرهم من أيام الحرب . تحدثنا طويلاً حتى وقت متأخر من الليل ، وخرجت من عنده ، وكان إحساس يملأني لأول مرة ، ان انجازات كبيرة سوف يكون من الممكن تحقيقها بمساعدة هذا الرجل وتأييده .

وقد عرض (روتشيلد) ان يضع بعض مختبرات (شركة شل) تحت تصرف (م آي ٥) وبدأ العمل في عملية تطوير فنية مختلفة ، من ضمنها تطوير مادة شحمية تعمل على حماية الجهاز اذا تم دفنه تحت الارض لفترات طويلة . وقد تم تطوير هذه المادة الشحمية وقامت كل من (م آي ٥) و (م آي ٦) باستخدامها بشكل واسع ، كما اقترح (روتشيلد) ايضا أن أقوم بالاتصال بـ (السير وليام كوك) الذي كان آنذاك نائب رئيس مؤسسة بحوث الاسلحة الذرية من أجل الحصول على الموارد اللازمة . لقد كنت أعرف (كوك) جيداً ، الاّ ان (روتشيلد) كان صديقاً مقرباً اليه ، وان عملية الاتصال به في الوقت المناسب ، جعلت زيارتي له أسهل .

كان (كوك) يصغي اليّ بانتباه حينما كنت أشير لديه الى متطلباتي . أما جوهر مفهومي للتجسس المضاد فقد كان يتركز على تطوير الاساليب الفنية التي يمكن من خلالها مهاجمة اتصالات التجسس السوفييتية . ولقد كانت الاتصالات هي النقطة الوحيدة التي يمكن مهاجمتها ، ويستخدمها العميل غطاء له ، لأن عليه ان يقوم بارسال واستقبال الرسائل من والى رؤسائه . وقد شرحت لـ (كوك) ان تقنية (رافتر) قد زودتنا باكثر الاسلحة قيمة على الاطلاق - الدخول الى الاتصالات اللاسلكية الروسية - الاّ اننا مع ذلك بحاجة ماسة الى تقنيات جديدة لمهاجمة أساليبهم المادية المتعلقة بالاتصالات ايضا مثل : الكتابة السرية ، والنقاط الدقيقة ، والرسائل الميتة . ان التقدم في هذه الامور سيزيد بشكل كبير من فرص نجاحنا في مجال التجسس المضاد .

قال لي (كوك) وهو يمسك بالهاتف : " دعنا نحلّ بعض هذه الامور على الفور " . تكلم مع واحد من كبار علمائه هو (الدكتور فرانك مورغان) وقال له : " فرانك ، سأرسل لك شخصا كي يعمل معك في مشروع جديد . وسيشرح لك كل الأمور عند وصوله ، وستكون سعيداً به ، انه رجل كما ترغب " .

وبسخائه المعهود ، قام (كوك) بتزويدنا بفريق يتكون من اثنين من الضباط العلماء رفيعي المستوى ، اضافة الى موظف عادي ، وبالموارد اللازمة ، كي يتم استخدامهم في (م آي ٥) فقط . وبهذا أصبح مجموع العاملين في مؤسسة بحوث الاسلحة الذرية ثلاثين شخصاً . وعلى مدار سنتين تحملت هذه المؤسسة كافة التكاليف ، ولم تلبث أن وافقت لجنة سياسة بحوث الدفاع على الاستمرار في عملية التمويل . وقد كان (فرانك مورغان) اثمن هدية على الاطلاق . فقد كان يخوض المشاكل والصعوبات بحيوية ، وخلال هاتين السنتين حصلت (م آي ٥) على نتائج أبعد مما كانوا يحلمون به في

الولايات المتحدة الامريكية .

اما تقنيات الكتابة السرية فانها واحدة في العالم كله ، اذ ان الجاسوس يقوم أولاً بكتابة الرسالة الغطاء ، وبعدها يقوم بكتابة الرسالة السرية فوق الرسالة العادية مستخدماً في ذلك ورقة كربون خاصة معالجة بمواد كيماوية الأمر الذي يجعل الكتابة لا لون لها . وبعدها يقوم الشخص الذي ارسلت اليه الرسالة بتظهير الكتابة . ان معظم مواد التظهير تجعل آثار المواد الكيماوية التي عالجت ورقة الكربون تبرز الأمر الذي يجعل الرسالة واضحة ومقروءة ، وما لم يكن المظهر الصحيح معروفا فانه لا يمكن أبداً اكتشاف الكتابة السرية . لكن (مورغان) تمكن من اختراع مظهٍّر عام مستخدماً في ذلك عنصر الراديوم الذي يعمل على تسهيل امكانيات اكتشاف الكتابة السريـــة .

اما النقاط الدقيقة فقد كانت وسيلة أخرى من وسائل الاتصالات السرية بين العميل الموجود في الميدان وبين رؤسائه . وتعتمد هذه الوسيلة على مبدأ تصغير الصور الفوتوغرافية الى حجم دقيق جداً ، الأمر الذي يجعلها من الناحية العملية متعذرة الرؤية بالعين المجردة ، ويتم عادة اخفاء هذه النقاط الدقيقة تحت طوابع البريد ، أو فوق علامات الترقيم في الرسائل المطبوعة ، أو تحت حافات المغلفات . وقد قام (مورغان) بانتاج طريقة تمكن من اكتشاف هذه النقاط الدقيقة باستخدام التنشيط النيوتروني .

والطريقة الثالثة المستخدمة في مجال اتصالات التجسس – وهي الاكثر شيوعا – هي طريقة الرسائل المحلية الميتة اذ يقوم العميل بترك طرد – مثلا فيلم مكشوف – في مكان متفق عليه ، ويقوم رئيسه باخذه في وقت لاحق ، وبذلك ، فان العميلين لا يلتقيان أبداً . وكان جهاز (ك ج ب) يقوم غالياً باعطاء عملائه صناديق فارغة قد تمت معالجتها بشكل خاص بحيث يمكنهم معرفة فيما اذا كانت الحقيبة قد فتحت سراً . وقد تمكن (مورغان) من تطوير نوع من أنواع الأشعة يمكننا من تفتيش ومراقبة محتويات الحقيبة المشتبه بها دون العبث فيها في محاولة لفتحها أو حتى دون اتلاف الفيلم غير المظهر الموجود بالداخل .

اما آخر البرامج الاربعة التي قام (مورغان) بتنفيذها فقد كان تطوير عدد من وسائل الاشعة الخاصة والتي يمكن استخدامها ضد الخزنات الحديدية المتطورة ذات الارقام السرية ، وقد كانت اكثر تحديا حتى لوسائل (ليسلي جاغر) . وقد مكننا استخدام هذا النوع من الاشعة من معرفة محتويات الخزنة من الخارج ودون فتحها ، الأمر الذي منح (م آي ٥) حرية الوصول الى كل خزنة موجودة في بريطانيا .

وعلى الرغم من التحسينات التي طرأت على الجانب التقني وعلى مجال البحوث ، الاّ ان سجلات التجسس المضـــاد فـــي (م آي ٥) بقيت تبعث على الحزن والأسى خلال سنوات

الخمسينات . فبعد أن أصبح (ديك وايت) مديراً عاما عام ١٩٥٣ أدرك مدى النقص الذي يعانيه الجهاز في هذا المجال ، خاصة وان معظم ضباط لجنة الصليب المزدوج الموهوبين الذين عملوا أثناء فترة الحرب كانوا قد تقاعدوا ، أو انسحبوا من الخدمة ، أو تم نقلهم الى مناصب ادارية عالية مثلما حصل مع (ديك وايت) . اما الذين حلوا مكان هؤلاء الضباط فقد كانوا رجال شرطة سابقين من الـــدرجة الثانية ممن كانوا يعملون فــــي المستعمرات وليست لديهم أي خبرة – أو خبرة قليلة ان وجدت – في اعمال التجسس المضاد ، بحيث كان من الصعوبة بمكان عليهم التكيف مع هذا الفارق النوعي الذي حدث منذ أيام الحرب حينما تم التفوق على الاستخبارات الالمانية ، وبين هذه الحرب الجديدة ضد جهاز الاستخبارات الروسية الاكثر مهارة وتنوعاً . وقد أسس (ديك وايت) دائرة جديدة للتجسس المضاد تمثلت في (الفرع د) وقام بتعييني كي أقوم بتزويدهم بالاجهزة الفنية والعلمية . لكن هذه التحسينات كانت بطيئة . ولفترة طويلة الى حد ما ، كـــان (الفرع د) يمتعض من اطلاعي على أسراره ، وانغمسوا في جهلهم الفني . وأذكر حادثة حصلت مع أحد الضباط ، فبينما كنت أقوم بشرح بعض الامور الفنية المتعلقة بمبدأ (أوم) قال لي هذا الضابط :

– " حسناً ايهـــا العجـــوز ، لا أريد أن أعرف عن قانون (أوم) . انني أقرأ غريتس " فانفجرت صائحاً :

" يا الهي ، ان كل طالب مدرسة يتعلم قانون أوم " .

اما رئيس (الفرع د) وهو (غراهام ميتشل) فقد كان رجلاً ذكيا ، الاّ انه كان ضعيفاً ، اذ ان سياسته كانت تتوق الى محاكاة تقنية الصليب المزدوج التي قامت خلال أيـــام الحرب ، على أساس تجنيـد اكبر عدد ممكـــن من العملاء ، وادارة شبكات واسعة منهـــم فـــي اوساط المهاجرين الروس ، والبولنديين و التشيكيين . وفي كل مرة كان يتم فيها اعلام (م آي ٥) عن اكتشاف عملية اتصال روسية بطالب أو برجل أعمال أو عالم ، فانه كان يتم تشجيع هذا الشخص الذي تم معه الاتصال على القبول بذلك ، ومن ثم يصبح بامكـــــان (م آي ٥) مراقبة القضية . وكان (ميتشل) مقتنعاً ان واحداً من هؤلاء العملاء سوف يقبله الروس في نهاية الأمر ، وسيصبح فيما بعد في وسط الشبكة اللاشرعية .

وكانت قضايا العملاء المزدوجين بمثابة لعبة حزورة تعمل على اضاعة الوقت سدى . اما اللعبة التي كانت مفضلة لدى جهـــــاز (ك ج ب) فهي الخدعة التي كانت تمارسها حينما تقوم باعطاء العميل المزدوج مبلغاً من المال أو صندوقاً فارغاً (وكنا في تلك المرحلة نشتبه بأشياء كتلك) وتطلب اليه ان يضعها في صندوق الرسائل المحلية الميتة . وكان (الفرع د) يستنفر طاقاته في كل مرة يحصل فيها مثل هذا الأمر ، اذ يقوم بارسال فرق المراقبة لتقوم بأعمال المراقبة السرية على مدار عدة أيام

معتقداً ان العميل غير الشرعي سوف يأتي بنفسه لأخذ الطرد . وفي أغلب الاحوال لم يكن هناك أي شخص ليأتي لاستلام الطرود على الاطلاق ، اما اذا كان الطرد يحتوي على مبلغ من المال ، فان ضابط الـ (ك ج ب) الذي قام أساساً بتسليم المال الى العميل المزدوج هو الذي يأتي بنفسه لأخذ الطرد . وحينما أثرت شكوكي حول سياسة العميل المزدوج تم اخباري بكآبة ان هذه الامور هي اجراءات تدريب يقوم بها (ك ج ب) من أجل التأكد فيما اذا كان العميل أهلاً للثقة . والصبر مفتاح الفرج .

والحقيقة كانت تتمثل في ان الروس كانوا يستخدمون قضايا العملاء المزدوجين ليمارسوا لعبة مع (م آي ٥) بهدف التعرف على ضباطنا ، وتشتيت جهودنا ، وتضليلنا عن عملياتهم الحقيقية . ولقد كانت المقاييس التي تعمل بها (م آي ٥) مرعبة حقـــــاً ، اذ ان (ك ج ب) بمراقبتها لاتصالات قسم المراقبة كانت تكشف بالتأكيد عن متابعتنا لعدد كبير من قضايا العملاء المزدوجين . لكن ضبـــــاط (الفرع د) كانوا في غاية السوء ، اذ انهم نادراً ما كانوا يستخدمون اي اشياء أخرى غيـــر المراقبة المضادة البدائية قبل مقابلتهم لعملائهم . وقامت احدى الدوائر في وزارة الخارجية بتزويد (م آي ٥) بطعم هو عبارة عن معلومات سرية تعطى الى العميل لينقلها الى الروس كبرهان على اخلاصه وصدقه . ويتألف الطعم من مجموعة وثائق سرية مفبركة والتي لا يمكن تصديقها برمتها حول وجود أسلحة لدينا ، ونحن لا نمتلكها فعلاً ، وعن سياسات لا ننتوي انتهاجها . وبحثت مسألة الطعم بكاملها مع (الفرع د) وأشرت الى ان مواد الطعم التي اقترحوها تبعث على الشك ، وان الاسرار الحقيقية فقط هي التي ستقنع الروس . وقد أخبروني ان تلك القضية ليست موضع نقاش .

اما المجال الرئيسي الآخر لنشاطات (الفرع د) فقد كان في اوساط المهاجرين . وكانت أقسام ادارة العملاء في (الفرع د) تقوم بادارة شبكات واسعة ، واستخدمت العملاء في (لندن) لتجنيد عمـــلاء آخـرين داخــل الـــدول المضيفة لهم . وكـــان هـــذا الأمر اختباراً فاتنا بالنسبة لشعبة (م آي ٥) . فقد كان من السهولة بمكان تجنيد المهاجرين الأمـــر الذي مكن (م آي ٥) مـــن منافسة (م آي ٦) بشكل مباشر في عملية تشكيل استخبارات الستار الحديدي بسبب غضب هؤلاء . لكن الذي حصل في الواقع ، هو ان مجموعات المهاجرين هذه – مع مطلع سنوات الخمسينات – قد تم اختراقها تماماً من قبل رجال (ك ج ب) او من قبل الاستخبارات الاوروبية الشرقية الحليفة . وكما حصل في قضايا العملاء المزدوجين ، فان هذا الأمر لم يؤد فقط الاّ الى تبديد جهودنا ، وكشف هوية رجالنا الذين يديرون هذه المجموعات .

كانت (م آي ٥) تعيش في ظلال الماضي ، وتقوم بمحاكاة تقنيات الصليب المزدوج ضمن عالم استخبارات تغير كثيراً منذ الحرب . فلم يكن ينقص هذه الشعبة فقط ضباط موهوبون ، ولكن الاكثر

اهمية من ذلك مزايا اختراق الشيفرات التي تفوقت بهـــــــا (م آي ٥) على الألمان .

وعلى امتداد سنوات الخمسينات ، تجنبت (م آي ٥) مواجهة اكثر مشاكل التجسس المضاد وضوحاً والتي كانت تواجه بريطانيا في ذلك الوقت ، وأعني نتائج اختراق السوفييت للمؤسسة البريطانية خلال سنوات الثلاثينات . وقد أصبح نطاق عمليات تجنيد " رجال ستالين الانكليز " واضحاً من خلال ادانة (آلان نن ماي) و (كلاوس فوخس) في عمليات التجسس النووي التي قاما بها في أواخر سنوات الاربعينات ، والتي تبعها بعد فترة قصيرة هروب (بيرغس) و (ماكلين) عام ١٩٥١ . وقد كان واضحاً لكل شخص من خلال الوثائق ان جهاز الاستخبارات الروسية قد استفاد من خيبة الأمل واسعة الانتشار، والتـي سادت بيـن المثقفين البريطانيين كريمـــي المحتد خلال سنوات الثلاثينات ، ونجح في تجنيد عملاء مهمين ، بقي بعضهم – على الاقل – مخلصين للسوفييت حتى بعد الحرب .

لقد سبب هروب (بيرغس) و (ماكلين) الأذى لشعبة (م آي ٥) اذ أن (فيلبي) و (بلنت) أصبحا موضع الشبهة ايضاً ، الاّ أن انكارهما العنيد قد عمل على دفن القضية في الرمال . وكان السبيل الوحيد أمامنا هو القيام ببرنامج مكثف وأساسي للبحث والاستقصاء داخل شبكة الناس الذين كانت تربطهم علاقات صداقة بالدبلوماسيين الاثنين في (اوكسفورد) و (كامبردج) . وكانت تلك السياسة المنوي انتهاجها تستلزم وجود العديد من الصعوبات ، اذ ان معظم هؤلاء الذين كانوا أصدقاء لـ (بيرغس) و (ماكلين) كانوا يشغلون وقتها مناصب معتبرة ورفيعة المستوى ، ليس فقط في أجهزة الاستخبارات ، وانما ايضا في الجهاز المدني . وقد كان هناك احتمال حدوث ارباكات سياسية اذا تسربت أنباء هذه الاستقصاءات في الوقت الذين كانت فيه كل الجهات المعنية تبذل اقصى جهدها للتكتم على اي معلومات حول عملية الهروب . علاوة على ذلك ، فقد كانت هناك امكانية كبيرة أن تؤدي حملة البحث والتحقيق النشطة الى تحريك المزيد من عمليات الهروب الى (موسكو) ، مما ستكون له نتائج لم تـــرد في الحسبان . ولم يكن هناك اي شخص على استعداد لأن يمسك بالقُرّاص * واعتباراً من عام ١٩٥٤ فصاعداً توقفت تلك الحملة فعليا ، وعلى ما يبدو ، فان (م آي ٥) كانت تعتقد ان اجراءات الاستقصاء الجديدة التي كانت تنفذ آنذاك تكفي لحماية الأمن القومي . وقد كان ذلك الأمر يشبه عملية اغلاق باب قن الدجاج في حين ان الثعلب لا يزال في الداخل .

كان هناك رجل واحد وقف ضد سياسة التجاهل هذه ، وهو (آرثر مارتين) ضابط الاشارة السابق في الجيش ، والذي انضم الى (م آي ٥) بعد وقت قصير من الحرب . ولقد أثبت (مارتين) بسـرعة وجوده كضابط ذكــي ، وقوي الحـــدس ، وحقق نجاحاً سريعا مـــن خلال عمليـــة استجواب

---

* القراص : نبات نوبير شوكي (المترجم)

(فوخس) و (ماكلين) وكانت تقوم بمساعدته (ايفلين ماك بارنيت) وهي امرأة شابة كانت تعمل بوظيفة ضابط بحوث ، الاّ انها لم تكافأ كما يجب على مساهمتها في هذا المجال . وقد كان (مارتين) يتفرد بميزة كبرى فيما يتعلق بعمله في مجال التجسس المضاد ، اذ انه لم يدخل في حياته اي مدرسة حكومية . وقد حدث ذات مرة ان أُعلن ان تسريباً خطيراً لبعض الأسرار قد وقع في السفارة البريطانية في (واشنطن) ، وكانت وجهة النظر التقليدية ترى ان يتم البحث عن المتهم بين موظفي السفارة من كتّاب أو عمال تنظيفات أو حتى بين السكرتيريا . الاّ ان (مارتين) كان متأكداً منذ بداية المشكلة ان المتهم هو دبلوماسي رفيع المستوى ولذلك ، فانه تابع التحقيق باصرار ، ولم يتوقف عن ذلك الاّ عند هروب (ماكلين) .

بعد عمليات الهروب بدأ (مارتين) بالضغط على ادارة (م آي ٥) للموافقة على القيام بعملية تحقيق واستقصاء فورية مع أعضاء شبكة الاختراقات الشيوعية في (كامبريدج) والتي حدثت خلال سنوات الثلاثينات . غير ان مطلبه بالحصول على إذن له لمقابلة عدد من افراد الطبقات الاجتماعية التي كان لكل من (فيلبي) و (بيرغس) و (ماكلين) علاقة بها كان يقابل بالرفض دائماً . وعلى مدار سنتين كان يناضل ضد هذه السياسة المثيرة للحزن والأسى ، الى أن قام في النهاية بمقابلة المدير العام (ديك وايت) وأخبره انه يعتزم الاستقالة و الالتحاق بهيئة الاستخبارات و الأمن الاسترالية التي تأسست حديثاً ليعمل معها .

وقد حثه (وايت) الذي كان ينظر باعتبار كبير الى قدراته ، على السفر الى (مالايا) كضابط ارتباط أمني لشعبة (م آي ٥) عوضاً عن الاستقالة بانتظار ان تهدأ الاجواء وتتحسن داخل (الفرع د) . وقد كان هذا العمل في ذلك الوقت عملاً حيوياً ، ولعب (مارتين) دوراً قياديا في حملة التمرد المضاد التي حققت نجاحاً في (ملايا) وإن كانت عواقب التجسس المضاد مشؤومة . وخلال تلك الحقبة ، فقدت (م آي ٥) معظم الضباط الموهوبين .

حينما أصبح (هوليس) المدير العام للجهاز عام ١٩٥٦ تم تعيين رئيس جديد لـ (الفرع د) وهو (مارتين فيرنفال جونز) الذي كان محاميا بالخبرة ، وقد انضم الى (م آي ٥) خلال فترة الحرب . كان يبدو عليه ظاهريا انه انسان ، صموت ، ارثوذكسي ، يعوزه النشاط والقوة ، ولذلك ، كان من السهل الانتقاص من قيمته . ومع هذا ، فقد كان يمتلك موهبة الضباط المتمثلة في المقدرة القيادية ، والعقل المنطقي المنظم الذي كان منفتحاً – بشكل مذهل – على الأفكار الجديدة . ولكن ما هو أهم من ذلك ، أنه كان يمتلك شيئاً من التصميم – اذا كنا لا نريد القول القسوة – الأمر الذي جعل منه رئيساً ممتازاً للتجسس المضاد . وقد أدرك ان المشكلة الرئيسية التي تواجه (م آي ٥) تتمثل في الحجم المتنامي لنشاط استخبارات الكتلة السوفييتية في بريطانيا . فعلى سبيل المثال ، كان من

المفروض على القسم (د ١) ان يقوم بمهمة المراقبة والعمل ضد حوالي ٣٠٠ ضابط تجسس روسي ، في حين ان مجموع عناصره كان ١١ من بينهم أربع سكرتيرات . وهكذا ، كنا نغوص في المستنقع ، دون ان ندري فيما اذا كنا نطارد جواسيس أم أشباحاً .

وكان من بين أول القرارات التي اتخذها قراره باعادة (آرثر مارتين) من العراء الى (ليكونفيلد هاوس) ليعمل أولاً في القسم (د ٢) مسؤولاً عن القضايا البولندية والتشيكية ، وبعدها – في العام ١٩٥٩ – في القسم (د ١) مسؤولاً عن التجسس المضاد السوفييتي . وقد كان (فيرنفال جونز) شديد الاعجاب بمواهب (آرثر مارتين) وبقوة شخصيته ، الأمر الذي ساعد على الاستفادة منه ، على الرغم من مسلكيته المشاكسة في بعض الأحيان . وقد انطلق (آرثر مارتين) بسرعة لكي يحيي تشدد القسم (د ١) في موضوع التحقيق في التجسس المضاد بشكل فعال ، وأدرك بشكل غريزي أهمية التقنيات الجديدة مثل (رافتر) من خلال عمله في استخبارات سلاح الاشارة خلال الحرب . ولأول مرة وجدت انساناً من اصحاب المراكز الكبيرة يستمع اليّ بتعاطف ، ويعمل طبقاً لافكاري من أجل التغيير . وسرعان ما أصبحنا أصدقاء ، وقمنا بتأسيس فهرس للموارد في (الفرع أ) حيث قمنا بتسجيل كل شخص وكل شيء يمكن ان يكون مفيداً لشعبة (م آي ٥) . وتم ارسال نماذج من هذا الفهرس الى كافة أجهزة المكتب لنطلب المزيد من القيود ، وخلال بضعة شهور تمكنا من ايجاد فهرس يمكن الضابط الذي يعالج قضية ما – ويكون بحاجة الى ممرضة أو سمكري أو الوصول الى ملفات شركة ما أو فتح قفل كراج – من الرجوع اليه بدلاً من اضاعة الوقت في الحصول على الموارد من خلال البحث والتنقيب .

وتمكنا من احداث تغييرات جذرية في نظام معاركنا اذ قمنا باعتماد فكرة تحليل التحركات ، وهي الفكرة التي بدأها (تيري غيرنسي) رئيس قسم التجسس المضاد في الشرطة الملكية الكندية . وتعتمد هذه الفكرة على تسجيل كافة التحركات المعروفة لعناصر السفارة السوفييتية من أجل العمل على تكوين صورة متكاملة لنشاطاتهم . ومن خلال هذا ، كان من الممكن الحصول على معلومات استخباراتية هامة عن هويات الاشخاص الذين يشتبه بأنهم من ضباط (ك ج ب) .

الاّ ان اكثر التغييرات تطرفاً كانت تلك التي حصلت في قسم العمليات الذي كان يسيطر عليه محقق ومشرف على العملاء لامع هو (ميشال ماك كول) . وقد قام كل من (مارتين) و (ماك كول) بوضع القسم في حالة حرب . وعلى الرغم من ان قواتنا كانت اقل بكثير من قوات الروس ، فاننا عمدنا الى الدفاع عن طريق تغيير تكتيكاتنا مستهدفين ارباك الـ (ك ج ب) الذين كانوا يتنبأون بشكل كامل بما ننوي فعله . وقد كانت بعض هذه التكتيكات طائشة متهورة مثل عملية سلب ضباط الـ (ك ج ب) المعروفين في شوارع (لندن) ، على أمل الحصول على بعض جزازات من المعلومات

الاستخباراتية . ولم تكن مثل هذه العملية ذات جدوى ، على الرغم من أنها جعلت الروس يشعرون انهم عرضة للهجوم لأول مرة منذ سنوات عديدة . وكانت التغييرات الأخرى اكثر اثارة للدهشة . كما تمكنا من محاصرة كافة شبكات المهاجرين السوفييت وخاصة المخترقة منها ، كما ان قضايا العملاء المزدوجين أصبحت تدار بعنف اكثر من ذي قبل ، اذ أصبح الضباط يقومون بمرافقة العملاء المزدوجين لمقابلة المشرفين على هؤلاء العملاء من ضباط الـ (ك ج ب) ويحذرون رجـــــال الـ (ك ج ب) من انه اذا ما تم امساكه وهو يقوم بتجنيد عملاء من اصل بريطاني مرة ثانية ، فانه سيتم رفع تقرير الى وزارة الخارجية حوله ، ومن ثم سوف يطرد من البلاد . وبدأ (ماك كول) ورجاله القيام بمحاولات وقحة لتجنيد رجال الـ (ك ج ب) الاّ اننا لم ننجح في هذا المجال أبداً . وقد كنا نأمل ان يكون التكتيك ناجحاً في ان نزرع بذور الشك في (كينسنغتون بارك غاردنز) .

وقد قام (ماك كول) بتنفيذ هذه التكتيكات الجديدة ببراعة ، نذكر منها ، أن أحد الفنيين الذين كانوا يعملون في مصنع المدافع الملكي (وكان يعمل في تصنيع قنبلة جديدة من نوع بوفورز) قد أخبر (م آي ٥) ان ضابطاً في جهاز الـ (ك ج ب) قد طلب منه تزويده بعينة من القنبلة الجديـدة . وقـام (ماك كول) بعملية تصنيع قنبلة وهمية بحيث يتم ملؤها بالرمال لتبدو وكأنها مليئة بالمتفجرات . وبينما كان العميل المزدوج يقوم بتسليم القنبلة في حديقة تقع في جنوب (لندن) ، انقض عليه (ماك كول) من الأجمة التي خلفه ، وقال للروسي بأنه (الروسي) في مأزق خطير ، ويمتلك بشكل فاضح قطعة معدات حربية بريطانية غاية في السرية ، ولذلك فمن المؤكد جداً انه سيعلن عنه انه غير مرغوب فيه . وقد كان ضباط الـ (ك ج ب) يخشون دائماً من عملية طردهم من البلاد لسبب واحد وهو فقدانهم لهذه المباهج والامتيازات التي يحصلون عليها نتيجة عملهم في الجهاز خارج بلادهم . لكن الأهم من كل ذلك هو أن هذا الأمر يعني اخفاقاً بالنسبة لهم ، وكل اخفاق سوف يجعلهم تلقائياً مشبوهين في نظر ضباط التجسس المضاد التابعين لهم . وبسبب من الهلع ، بدأ رجـل الـ (ك ج ب) يرتجف ، في حين راح (ماك كول) يستذكر صورة رجل شرطة بريطاني ، ضخم الجثة ، وهو يجر هذا الروسي سيء الحظ الى إحدى الزنزانات السرية لينال شيئاً من التعذيب هناك .

ثم صرخ (ماك كول) : " لا تهز القنبلة بحق المسيح ... سوف تنفجر " .

رمى الروسي القنبلة على الارض ، وفر هارباً من الحديقة ، وكأن الارواح الشريرة تطارده . وفي اليوم التالي ، كان على متن الطائرة عائداً الى بلاده .

وللحقيقة ، فان وزارة الخارجية كانت مترددة – وهو ما عرف عنها – في تقديم الدعم لنا ، اذ اننـا أرسلنـا اليهـا مـرات عـديدة نوصي بطرد الروس الذين نلقي القبض عليهم وهم يقومون بتجنيد أو ادارة العمـلاء ، الاّ ان الدائرة الشمالية في وزارة الخارجية – المسؤولة عن العلاقات

السوفيتية / الانكليزية – كانت في غالب الاوقات ترفض طلبنا . وقد كنت – بين الفينة والأخرى – أحضر اجتماعات هذه الدائرة من أجل تقديم تقارير فنية حول ما يقوم الدبلوماسيون الروس بعمله ، وكانوا دائماً يتصرفون بنفس الاسلوب : . فقد كان ممثلو (م آي ٦) يعارضون عمليات طرد الروس خوفاً من اجراء انتقامي مماثل تقوم به (موسكو) ضد رجالهم هناك ، اضافة الى ان وزارة الخارجية تريد ان تدرس مليا موضوع عدم تعطيل محادثات الحد من الاسلحة ، او عدم تعريض صفقة تجارية وشيكة للخطر . قال لي (كورتني يونغ) ذات مرة ونحن نهم بمغادرة غرفة الاجتماعات المزخرفة :

" لم أر في حياتي مثل هذا المرتع : أرض دافئة وأقدام باردة " .

ان الافتقار الى دعم وتأييد وزارة الخارجية لنا كان يعني أن علينا ان نعتمد الى أقل حد ممكن على الأساليب المألوفة لتحذير السوفييت . وفي هذه الفترة وصلنا فيض من التقارير من أفراد قسم المراقبة تشير الى قيام السوفييت بالاتصال معهم ، بل ان أحد هؤلاء الأفراد وصف لنا كيف ان أحد رجال الـ (ك ج ب) حضر لمقابلته في احدى الحانات ، وقام بتسليمه مبلغاً كبيراً من المال ، وحاول ان يتحدث اليه للحصول على معلومات منه حول عمله في (م آي ٥) .

على إثر ذلك ، قرر (ميشال ماك كول) ضرورة القيام بعمل فوري ، فاتصل هاتفياً مع رئيس محطة الـ (ك ج ب) في مكتبه في السفارة السوفييتية ، وطلب منه تحديد موعد لمقابلته ، مستخدماً في ذلك اسمه السري الذي يعرفه به الروس وهو (ماكولي) . مشى داخل السفارة بخطوات واسعة ، فيها من الجرأة والوقاحة الشيء الكثير ، وقام بتحذير الروس من مغبة القيام بأي اتصالات لاحقة مع افراد قسم المراقبة ، مهدداً بشكل عنيف بالقيام بتدخلات دبلوماسية ، وهو يدرك في الواقع انه لم ولن يتم القيام بها . وفي الواقع ، فان (ماك كول) كان مبتهجاً جداً من رحلته الى عرين الأسد ، خاصة وان رئيس المحطة الروسي استقبله استقبالاً حاراً وشربا شاي المساء معاً تحت شجرة الدُّريقة * .

وقد أبدى الروسي شكوكه حول قيام أي من رجاله بمثل هذا العمل الفظ من حيث التورط في أعمال التجسس على أرض أجنبية . ومع ذلك ، فقد وافق على النظر في القضية في حال قيام أحدهم بمثل هذا العمل بدافع من الحماس الشديد ، وأضاف : " من الممكن ان يكون مسؤولو الامن البريطاني قد أخطأوا ... فالعمل أصبح كثيفاً خلال هذه الايام ، فهناك بلدان كثيرة ، وسفارات كثيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة للدبلوماسيين ، حتى انه يغدو من الصعوبة بمكان التأكد مَن يعمل لصالح مَن " .

وتوقفت بعدها عمليات الاتصال بافراد قسم المراقبة .

في صيف عام ١٩٥٩ ، وحينما بدأت الامور بالتحسن داخل (الفرع د) عادت قضية (تيسلر) ثانية الى الحياة ، مثيرة الشكوك لدينا ، وكذلك الاضطراب . وقد بدأ هذا الأمر حينما عاد

---

* الدريقة : نبات من الفصيلة الزنبقية ذو اوراق كبيرة دائمة الخضرة (المترجم)

ذلك المرض الشاب - الذي قادت عملية تجنيده الى متابعة عملية اشارات (غروف) في كلافام - الى العمل فجأة . اذ قام مسؤوله الروسي بتسليمه حقيبة ، طالباً منه ابقاءها لديه في البيت . وقد كان يوجد داخل هذه الحقيبة مجموعة ارسال لاسلكي من أيام الحرب العالمية الثانية الأمر الذي دفعنا فوراً الى الاشتباه بأن كل ما يحدث الآن هو لعبة أخرى يقوم بها السوفييت لنصب شرك لنا خارج (لندن) . غير انه لم يكن لدينا أي اثبات محدد بان الروس يعرفون أننا أعدنا لهم المرض ، وبالتالي ، فقد قررنا المضي قدما في ذلك ، فقام القسم (د ١) بعملية مراقبة شاملة لمنزل المرض في منطقة (ميدلاندز) فـي حيـن تـم ايقـاف كافـة نشاطات المراقبة في (لندن) . وقمت باتخاذ الترتيبات مع قيادة قسـم المراقبة للاستمرار في عملية ارسال المعلومات عن السوفييت والتشيكيين الذين يغادرون منطقة (كينسنغتون بارك غاردنز) بحيث يعتقدون اننا لا زلنا نقوم بمراقبتهم .

بعـد مـرور ست وثلاثين ساعة على مغادرة افراد قسم المراقبة مدينة (لندن) تم اقفال جهاز الاستقبال الروسي الذي كان يقوم بمراقبة اتصالاتهم . وحالما أخبرني (طوني سال) بذلك راودتني الشكوك بشدة ، مستذكراً النتائج غير الحاسمة التي حصلنا عليها من خلال الاختبارات السابقة التي قمنا بها بعد قضية (تيسلر) . وعدنا الى (لندن) بعد مرور ستة أسابيع ، وكان لدينا اعتقاد أن تلك الحقيبة كانت مجرد عملية تضليل ، وقمت باجراء عدة عمليات (رافتر) خاصة للتأكد متى سيقوم الروس باعادة تشغيل جهاز الاستقبال عندهم .

ولم يتم تعقب أي روسي صباح أول يوم أثنين ، وبدأنا بالعمل في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، وكان الهدف دبلوماسي تشيكي . وخلال نصف ساعة كان جهاز الاستقبال الروسي قد عاد الى العمل ثانية على نفس تردد ذبذبة قسم شعبة المراقبة . وأخذت التسجيلات المطبوعة من (رافتر) وعرضتها على كل من (فيرنفال جونز) و (هوليس) وكان هنا - وللمرة الأولى - مؤشر حازم بوجود مصدر انساني داخل (م آي ٥) . وللحقيقة فان (فيرنفال جونز) و (هوليس) صدما من هذه المعلومات بشكل واضح . وقد أكدت عمليات الاتصال التي كان يقوم بها الروس مع عناصر قسم المراقبة - والتي اعتقدنا انها توقفت اثر زيارة (ماك كول) الى السفارة - وجهة نظر (هوليس) القائلة انـه اذا كان هناك تسريب للمعلومات ، فان هذا المصدر يجب ان يكون داخل جهاز قسم المراقبة . وقمنا باجراء العديد من التجارب مستخدمين في ذلك المزيد من مسحوق الباريوم في محاولة لتحديد موقع المصدر ، غير اننا لم نتوصل الى شيء . ومع اقتراب نهاية عام ١٩٥٩ كان هناك شعور متزايد ، بين اوساط الضباط الذين كانوا على علم بادعاءات (تيسلر) مفاده بأن هذه القضية يجب حلها على الفور والى الأبد حتى ولو كانت تعني القيام بالمزيد من التحقيقات المكثفة . وفي شهر كانون الاول استدعاني (هوليس) وأخبرني انه يعتزم انهاء التحقيقات داخل قسم المراقبة ، اذ قال : " انا

واثق من أن استنتاجات (تيسلر) الاصلية صحيحة ، وأعتقد انه يجب علينا ان نترك هذه القضية " .

كان لطيفاً حينما قال ذلك ، غير انـــه بدا حازماً . واعتقدت ان الوقت قد حان كي أعلن مخاوفي ، فقلت :

" أعتقد يا سيدي انه سيطلب الينا ان نتوسع في عملية التحقيق ، اذ ان مصدر التسريب يمكن ان يكون من مستويات عليا في الجهاز " .

ولم يبد عليه أي رد فعل واضح ، غير انه أجابني برقة :

" ان القضية حساسة جداً يا (بيتر) .... وقد يكون لها أثر مريع على الحالة المعنوية داخل الجهاز " فأجبته :

" ليس ذلك بالضرورة يا سيدي ، وأعتقد أنك ستجد معظم الضباط يرحبون بأن يتم القيام بشيء ما . علاوة على كل ذلك ، فانه اذا كان هناك ثمة اختراق – وعلى وجه الخصوص في واحد من المستويات العليا نسبياً – فان معظم الناس هناك يضيعون اوقاتهم سدى " فقال لي ، وقد أخذت نبرته تكتسي طابع الحدة : " ببساطة ، ان هذا ليس مقبولاً من الناحية العملية " .

وأشرت الى أن هناك قسماً للتحقيقات في القسم (د ١) باستطاعته ان يقوم بتنفيذ هذه المهمة بكل بساطة . لكن (هوليس) زجرني في النهاية وهو يقول بقسوة :

" لست مستعداً لمناقشة هذا الموضوع . وبكل بساطة لا أستطيع الموافقة على أي عمل من شأنه ان يؤدي الى وجود غستابو له امتيازات داخل أوساط الجهاز " .

ثم كتب على الملف " لا اجراءات اضافية " ووقع عليه بالاحرف الاولى من اسمه معلنا بذلك انتهاء لقائنا . وتُرك السرطان لينمو اكثر .

١٠

" يقول (سنيير) انه يوجد للروس عميلان مهمان جداً في بريطانيا : الأول داخل الاستخبارات البريطانية ، والثاني في مكان ما داخل سلاح البحرية " .

كان ذلك في شهر نيسان عام ١٩٥٩ ، وكان ضابط (السي آي ايه) المدعو (هاري رومان) يقدم تقريره الى مجموعة من ضباط (م آي ٥) و (م آي ٦) في قاعة الاجتماعات في الطابق الرابع في مقر قيادة (م آي ٦) في منطقة (برودواي) حول منشق له أهميته . اما (سنيير) فهو مصدر مجهول بدأ منذ مطلع العام بارسال رسائل الى وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية (السي آي ايه) مكتوبة باللغة الالمانية ، ويتحدث فيها بمعلومات مفصلة عن عمليات الاستخبارات السوفييتية والبولندية .

قال (رومان) : " من المؤكد انه من الاستخبارات البولندية ... ان لغته الالمانية ركيكة ، والمعلومات المتعلقة ببولندا تعتبر من الدرجة الاولى من حيث نوعيتها " .

امـــا (سنيير – الـــذي اطلقـــت عليـــه (م آي ٥) اسمـــاً حـــركيا هـــو لافينيا) فقد أطلـــق علـــى الجاســـوسين المشار اليهما أعلاه اسمي (لامبدا ١) و (لامبدا ٢) ولم يكن هناك الكثيـــر مـــن المعلـــومات عن (لامبدا ٢) باستثناء ما كان يعرف عنه من أنه قد خدم في (وارسو) عام ١٩٥٢ ، وانه ابتزّ للعمل في مجال التجسس بعد ان اكتشفت المخابرات البولندية نشاطاته في الســـوق الســـوداء . اما (لامبدا ١) فقـــد كان يبدو ان المعلومات المتوافرة عنه تعطي الكثير من الآمال ، اذ ان (سنيير) سرد في إحدى رسائله تفصيلات كافية تمكننا من تحديد ثلاث وثائق خاصة بشعبة (م آي ٦) رآها بنفسه .

كانت الوثيقة الاولى هي " قائمة المراقبة " ضد البولنديين ، وتتضمن أسماء البولنديين الذين كانت محطة (م آي ٦) في (وارسو) تعتقد انهم أهداف محتملة أو مرغوب بها للاتصال معها لتجنيدها . اما الوثيقة الثانية فقد كانت تتعلق بالقسم المختص ببولندا في شعبة (م آي ٦) وهي وثيقة (ر ٦) التي هي عبارة عن التقرير السنوي الذي يرسل الى محطات (م آي ٦) ويتضمن ملخصات عن كل بلد وعن كل منطقة ، وعن المعلومات الاستخباراتية التي تتسلمها (م آي ٦) . وكانــت الوثيقة الثالثة هي جزء من الوثيقة المسماة (ر ب) وهي عبارة عن التقرير السنوي الذي ترسله (م آي ٦) الى محطاتها في الخارج ، ويبحث بالتفصيل فــي آخر العمليات والابحاث العلمية التـــي قامت بهـــا (م آي ٦) .

وكانت محطتا (وارسو) و (برلين) هما اكثر المحطات احتمالاً لعملية تسريب هذه المعلومات الحيوية ، فقمنا بوضع قائمة تتضمن أسماء عشرة اشخاص في هاتين المحطتين يمكن لهم الوصول الى الوثائق الثلاث . وتمت مراجعة سجلات هؤلاء العشرة ، واتضحت براءتهم جميعاً بما في ذلك شخص يدعى (جورج بليك) وهو ضابط شاب كان نجمه قد أخذ بالارتفاع في (م آي ٦) وكان له دور أساسي في عملية نفق برلين . وقد توصلت (م آي ٥) و (م آي ٦) الى انه مــن المستحيل ان يكــون (بليك) جاسوساً . وكان افضل تفسير لعملية تسريب المعلومات – في ضوء غياب مرشح بشري معقول – هو عملية السطو التي تمت على خزنة محطة (م آي ٦) في (بروكسل) ووقعت قبل سنتين . ومما يؤسف له أنه لم يكن هناك أي سجل دقيق لمحتويات الخزنة قبل تعرضها لعملية السطو . وقد كانت هناك بينة على ان واحدة – ومن المحتمل اثنتين – من الوثائق الثلاث التـــي اطلع عليهـــا (سنيبـــر) قد كانت في الخزنة ، ولم يكن هناك ما يؤكد ان الوثائق الثلاث كانت جميعها موجودة في الخزنة . وحينما تمت تبرئة الضباط العشرة كافة ، قامت (م آي ٥) و (م آي ٦) عام ١٩٦٠ باعــلام الامـريكيين رسمياً ان عملية السطـو هي مصدر معلومات (لامبدا ١) وحملها (سنيبر) من بعده .

في شهر آذار ١٩٦٠ أرسل (سنيبر) وبشكل مفاجيء معلومات اخرى عن (لامبدا ٢) حيث أفاد أن اسمه من المحتمل ان يكون (هيوتون) أو ما يشبه ذلك . وقد اعتقد (سنيبر) ان الروس تولوا أمره ، وبدأوا يديرونه كعميل غير شرعي حينما عاد الى (لندن) للعمل في الاستخبارات البحرية . وكان هناك رجــل واحد فقط تنطبق عليه تماماً أوصاف (سنيبر) وهو (هاري هوتون) الذي كان يعمل في (مؤسسة الاسلحة تحت المائية) فـــي (بورتلاند / دورست) وكـــان قد خدم في (وارسو) عام ١٩٥٢ قبــل التحاقـــه بالاستخبـــارات البحـــرية . وحينما تم البحث عن اسم (هوتون) في سجلات (م آي ٥) أصيب افراد (الفرع د) بالهلع حينما وجدوا أن هذا الأسم مدون فـــي السجلات . كانت

زوجـــة (هوتون) قد اتصلت قبل بضعة سنوات بأحد ضباط الأمن في (بورتلاند) وأخبرته أن زوجها قد هجرها و أقام علاقة مع فتاة تعمل في القاعدة . وادعت الزوجة ان زوجها كان يلتقي مع أجانب ، ويسافر بانتظام الى (لندن) لمقابلة أجنبى لم تستطع التعرف عليه ، وانه يحتفظ بمبالغ ضخمة من الأموال يخبئها في علبة من القصدير في عريشة الحديقة .

وقـام ضابـط الأمـن هذا الذي تلقى هذه المعلومات بارسال تقرير الى قسم أمن الادميرالية ، موصياً بان هذه المعلومات قد تكون مجرد اتهام حاقد من قبل امرأة هجرها زوجها . وقامت الادميرالية بارسال هذه المعلومات الى (الفرع ج) في (م آي ٥) حيث استقرت على طاولة مكتب ضابط شاب يدعى (دنكام واه) حيث كشف عن اسم (هوتون) في السجلات فلم يجد له أي قيد ، ووصل الى نتيجة مفادها أن تخمينات ضابط الأمن الاول كانت صحيحة ، ولذلك ، فقد قرر ان يصرف النظر عن هذه الادعاءات ، ورفع مذكرة الى رئيس القسم في (الفرع ج) الذي قام بدوره بارسال رد مناسب الى (بورتلاند) واقفلت القضية .

اما (هوليس) و (فيرنفال جونز) الذي كان رئيس (الفرع د) في ذلك الوقت ، فقد أصيبا بالارتباك الشديد حينما تم الكشف عن ان (هوتون) هو الجاسوس المشتبه به . ولم يكن هناك متسع من الوقت للاتهامات المضادة اذ ان القضية بدأت تأخذ زخماً . وقام القسم (د ٢) المتخصص بالشؤون البولندية بالتحقيق في الموضوع ، وسرعان ما اكتشفوا ان (هوتون) يقوم بزيارة (لندن) مرة كل شهر برفقة صديقته (ايثيل غي) . وطلب الى قسم المراقبة العمل على تغطية زيارة (هوتون) المقبلـة التـي ستتـم فـي شهر تموز ، حيث أفاد قسم المراقبة ان (هوتون) التقى برجل في (واترلو رود) وسلمه (هوتون) حقيبة ، ثم تسلم بدوره منه مغلفاً . وعلى الفور تركز الاهتمام على ذلك الرجل الذي قام (هوتون) بمقابلته ، فتم تعقبه حتى وصل الى سيارة بيضاء اللون وهي من طراز ستودبيكر ، وتم التعرف عليه من قبل افراد قسم المراقبة على انه ضابط استخبارات بولندي مقيم في (لندن) . الاّ ان الكشف على رقم تسجيل السيارة أظهر ان هذه السيارة تعود في ملكيتها الى رجل كنـدي اسمـه (غوردون آرنولد لونسدال) يعمل في مجال تأجير آلات الجكبكس * . وقد أرسل أفـراد قسم المراقبة وحاموا حول السفارة البولندية لاعادة التحري حول الضابط البولندي ، غير انهم عادوا – وهم يشعرون بالخجل – ليقولوا انهم قدأخطأوا .

تم وضع (لونسدال) تحت المراقبة المكثفة ، فتبين انه يمتلك مكتباً في شارع (ووردر) كما يمتلك شقة في مبنى (الوايت هاوس) بالقرب مـن حديقة (ريجنت) وتم زرع أجهـزة التنصـت في

*الجكبكس : خـزانة تحتـوي علـى فونوغراف آلي يتيح للمرء سماع الاغنية التي يريدها بمجرد وضعه النقود في ثقب الخزانة (المترجم)

المكتـــب والبيت ، كما اقيمت مراكز مراقبة مرئية بالقرب منهما . ولأهداف ونوايا متعددة ، كان (لونسدال) يعيش فــي (لندن) حياة البلاي بوي ، اذ كان يسافر كثيراً الى الخارج ، ويطارد الفتيات الفاتنات اللواتي ينجذبن اليه : لأمواله ووسامته .

وقــام (هــوتون) و (غي) فيما بعــد بزيارة الــى (لندن) فــي بداية شهر آب والتقوا ثانية (لونسدال) وكان مكان اللقاء هذه المرة في مقهى يقع بالقرب من مسرح (اولدفيك) . قام أفراد قسم المراقبــة بمراقبتهم عــن كثب ، بل انهــم كانوا يجلسون على الطاولة المحاذية لهم . وقد أخبر (لونسدال) كلا من (هوتون) و (غي) انه لن يلتقي بهما في شهر أيلول لانه سيكون في الولايات المتحدة الامريكية من أجل قضاء أعماله ، وأضاف انه واثق من انه سيعود في الوقت المناسب ليلتقي بهما في أول يوم أحد من شهر تشرين الاول . وفي حال عدم ظهوره ، فان شخصاً آخر يعرفانه سيحل مكانه .

في ٢٧ آب تم تعقب (لونسدال) من منزله الكائن في الطابق السادس فــي مبنــــــــى (الوايت هاوس) الى مصرف (ميدلاند) الواقع في شارع (غريت بورتلاند) حيث أودع هناك حقيبة ورزمة ورقية بنية اللون ، ثم اختفى بعد ذلك بوقت قصير . اتصل المدير العام برئيـــس مصــــرف (ميدلاند) وحصل منه على إذن لفتح صندوق خزنة ودائع (لونسدال) . وفي مساء يوم الاثنين الواقع فــي الخامس من شهر ايلول تــم نقل الحقيبة والطرد مــن المصــرف الى مختبر (م آي ٥) فــــي (سانت بول) . وتم وضع المحتويات على طاولة بمنصبين ، وقمـــــت أنـــا و (هيو وينتربورن) بفحصــــها . وهكـــذا ، بعـــد مرور سنين على محاولاتنا عثرنا على الشـــــيء الحقيقي : حقيبــة أدوات كاملة لجاسوس محترف . كان يوجد في الحقيبة آلتا تصوير خاصـــتين مــن طرازي (مينوكس) و (براكتينا) لتصوير الوثائق بشكل مصغر جداً . وكانـت آلة التصـــوير (مينوكس) تحتوي على فيلم فقمنا بتظهيره ، واعادة نسخه ، قبل اعادة وضعه في آلة التصوير . كانت الصور لا تشكل أي أذى ، اذ انها عبارة عن لقطات مصورة يظهر فيها (لونسدال) وامـــــرأة مبتسمة ، وقد التقطت الصورة لهما في مدينة ، استنتجنا بعد تحليلات جديرة بالاعتبار ، ان هذه المدينة من المحتمل ان تكون مدينة (براغ) . وكان داخل الحقيبة ايضاً كتاب حول كيفية تعلم الطباعة فاستنتجت من ذلك على الفور ان هذا الكتاب له علاقة بالكتابة السرية . ومن خلال قيامي بتسليط حزم شعاعية صادرة عن ضوء عمــودي على أطراف كل صفحــة ، تمكنت من اكتشاف وجــود تجاويف صغيرة تدل على ان (لونسدال) كان يستخدم الصفحات كورقة كربون لرسائله السرية غير المرئية . وتم ارسال كتاب تعلم الطباعة الى الدكتور (فرانك مورغان) في مؤسسة بحوث الأسلحة الذرية ، فكانت لهذا الكتاب قيمته التي لا تقدر بثمن في مجال برنامج الابحاث الذي كان يعمل من خلاله على ايجاد وسائل جديدة تمكن

من اكتشاف الكتابة السرية .

اما اكثر الامور أهمية واثارة فقد كانت ولاّعة سجائر من ماركة (رونسون) كانت موضوعة داخل علبة خشبية . قمنا بتسليط أشعة X على الولاّعة مستخدمين في ذلك اسلوب (مورغان) فاكتشفنا ان قاعدة الولاّعة مجوفة وتحتوي على أشياء صغيرة متعددة ، فقمنا باستخراجها مستخدمين في ذلك كأس مص مطاطي وملاقط صغيرة ، فوجدنا مجموعتي لبادات شيفرة مصغرتين جداً وتستخدمان لمرة واحدة ، كانت احداهما تشير الى انها كانت قيد الاستعمال . كما كانت هناك ايضا قائمة مراجع خرائطية ضمن ورقة مطوية اتخذت من كتاب خريطة لندن ، والذي يستخدمه قسم المراقبة ، أساساً لها .

منذ أن بدأت عملية (رافتر) قمت بدراسة كل ما كان يقع تحت يدي فيما يتعلق بالاتصالات اللاسلكية السرية السوفييتية . وحالما رأيت لبادات الشيفرة التي يستخدمها (لونسدال) تمكنت من تحديدها على أساس انها من صنع السوفييت ، مما كان يعني ان الرجل ليس ضابط استخبارات بولندي ، وبالتالي كان هذا الاكتشاف نسفاً كاملاً لعملية الـ (ك ج ب) . وكان بامكاننا ان نعرف متى يكون (لونسدال) على اتصال لاسلكي مع (موسكو) لو تمكنا من نسخ وتسجيل لباداته و اشاراته ، الأمر الذي سيتيح لنا امكانية تحليل الاتصالات الصادرة والواردة . غير ان مايؤسف له انه لم يكن في حقيبة (لونسدال) أي خطة اشارات تعطينا موعد برنامج الارسال ، وعلى أي ذبذبة يستمع الى الاذاعة التي ترسل له وسط هذه الآلاف من الرسائل المتدفقة اسبوعيا من (موسكو) . لكن (رافتر) اعطانا فرصة اختراق حيوية . ولذلك ، قررنا ان نقيم في البيت المجاور لمنزل (لونسدال) في مبنى (الوايت هاوس) ومن خلال استخدام (رافتر) سيكون بامكاننا معرفة متى وعلى أي ذبذبة كان يستمع الى جهاز الارسال .

كانت عملية نسخ لبادات الشيفرة دون اثارة شكوك (لونسدال) عملية صعبة الى حد بعيد ، فدون الوصول الى كل طبقة من طبقات اللبادة لن نكون قادرين على حل شيفرة اتصالاته . وقد علمت من هيئة عمليات الاتصالات اللاسلكية ان الاستخبارات السويسرية قد وجدت مؤخراً شيفرة (ك ج ب) مستعملة ، واتخذت الترتيبات اللازمة مع (م أي ٦) لسؤال السويسريين فيما اذا كانوا على استعداد للسماح لنا باستعارتها . ووافقوا على ذلك ، فتوجهت الى مطار (لندن) ، حيث طارت بي طائرة تابعة لسلاح الجو الملكي وضعت تحت تصرفنا لهذا الغرض . كان اللبادة السويسرية تشبه لبادة (لونسدال) الى حد كبير ، وكانت كل حافة من حافات اللبادة مغطاة بشريط لاصق رقيق كي يمسك طبقات اللبادة ببعضها البعض . قمنا بتجزئة اللبادة وحللنا نوعية الصمغ (الغراء) . لم يكن نوعه غريباً ، الاّ ان فنيي مكتب البريد كانوا على ثقة من ان باستطاعتهم تصنيع مثله .

ذهبنا الى المصرف مرة ثانية مساء يوم السبت الواقع في السابع عشر من ايلول ونقلنا الحقيبة الى مركز (سانت بول) وجزأنا اللبادة بدقة ، وقمنا بتصوير كل طبقة على حدة ، ثم قمنا بوضع الطبقات الاصلية في جهاز صنع خصيصا من أجل ربطها ببعضها بدقة واحكام بحيث نتمكن من اعادة طلاء الحواف بالغراء الذي قمنا بتصنيعه مجدداً . وعند الساعات الاولى من صباح يوم الأحد أعدنا الحقيبة الى المصرف وانتظرنا عودة (لونسدال) .

بعد مرور عدة ايام ، تلقيت مكالمة هاتفية من (طوني سال) وكان صوته مليئاً بالاثارة :

"هناك شيء ما يجب أن تراه ... بعض تسجيلات (ليونزبيرد) ... " .

كان (ليونزبيرد) هو الاسم الرمزي الذي أعطي لتقنية (رافتر) المستمرة ضد السفارة الروسية . استقليت سيارة أجرة الى حدائق (كينسنغتون بارك غاردنز) وتوجهت الى منزلنا الآمن الموجود في الشارع المجاور . استقبلني (طوني سال) في البهو وسلمني الاوراق التي تحتوي على تسجيلات ابرة (ليونزبيرد) . سألني وهو يشير الى وجود مؤشرين مفاجئين لنشاط جهاز الاستقبال داخل السفارة في شهر ايلول :

" هل لديك فكرة عما يكون هذا ؟ " . فسألته :

" ما هي تواريخ هذا ؟ " .

قال :

" على ما يبدو وكأنها في السادس من ايلول المصادف يوم ثلاثاء وهناك واحد آخر يوم الأحد الماضي الواقع في الثامن عشر من الشهر " .

فصرخت : " يا الهي .. انهما تاريخا عمليتي المصرف ! "

لقـد تم في تلك الليلة استخدام قسم المراقبة قليلاً خلال العمليتين اللتين قمنا بهما لنقل حقيبة (لونسدال) مـــن المصـــرف . وبمـــزيج مـــن الهلـــع واليأس أخـــذت التسجيلات الخطية معي الى (ليكونفيلد هاوس) وقمت بمطابقتها على الجداول المدونة فيها الاوقات الصحيحة التي كان فيها جهاز الاستقبال الروســي يعمل ضـــد القسم (أ ٤) المتعلق بعمليات قسم المراقبة . وكانت قراءة تسجيلات (ليونزبيرد) تتطابق مع سجلات (أ ٤) تماماً ، الأمر الذي يعني ان الروس كانوا يفترضون اننا نقوم بمراقبة (لونسدال) .

طلبت كافة سجلات (ليونزبيرد) وبدأت التدقيق بالرجوع الى سنتين ونصف السنة الى الوراء . قمت بتدقيقها كلها – وبشكل مرهق – لمعرفة فيما اذا كانت هناك أمثلة أخرى تفيد بان الروس قد استخدموا أجهزة الاستقبال الموجودة لديهم في منتصف ليل السبت أو الاثنين . ولم يكن هناك أي اشارة عارضة باستثناء هاتين حيث تنصت الروس في هاتين الليلتين بين منتصف الليل وحتى الساعة

الخامسة صباحاً .

أخذت المواد الى (فيرنفال جونز) واتجهنا سوية نحو مكتب (هوليس).تلقى هذه الانباء بكل هدوء ، ووافقنا على ان الدليل على وجود تسريب معلومات يبدو قوياً .

وأوعز الى (فيرنفال جونز) كي يبدأ تحقيقاً عاجلاً في جهاز قسم المراقبة . وعلى ضوء ما تبين من حقيقة ان (لونسدال) كان عميلاً غير شرعي لجهاز الـ (ك ج ب) وهو ما أصبح مؤكداً ، فانه حول القضية من القسم (د ٢) المتخصص بالشؤون التشيكية والبولندية الى (آرثر مارتين) في القسم (د ١) المتخصص في عمليات التجسس المضاد للسوفييت .

في الظاهر ، فان مغادرة (لونسدال) الى خارج البلاد كانت افضل اختبار ليتبين فيما اذا كان لشبهاتنا أساس من الصحة . وقد أجمعنا كلنا على انه اذا بقي خارج البلاد فهذا يعني انه كان يعرف بملاحقتنا له ، أما اذا عاد الى البلاد فان هذا يعني اننا لم نُكتشف وكان (لونسدال) قد أخبر (هوتون) انــــه سيحـــاول العودة للالتقاء به في الأول من تشرين الأول . وبدأ التوتر بالازدياد داخل (ليكونفيلد هاوس) حينمـا أوشكت التحقيقات التي كان يجـريها (فيرنفال جونز) في قسم المراقبة ان تثبت عقمها . وسافر (هـــــوتون) إلى (لنـــدن) ، غيـــر أن أحـــداً لم يأت لمقابلتــــه ، بل ان (فيرنفال جونز) نفســــه بــــدا وكأنه اصيب بصدمة حينما كانت الايام تمر دون وجود أي خبر عن (لونسدال) . لكن الذي حدث ، هو أن مركز المراقبة التابع لنا ، والموجود أمام مكتب (لونسدال) في شارع (ووردر) أفادنا يوم ١٧ تشرين الاول انهم تمكنوا من رؤيته وهو يدخل المبنى . وتلاشت الشكوك والشبهات التي كانت تزداد حدة ، في حين كثفنا جهودنا استعداداً لعملية الصيد .

وســـرعـان مـــا عـــاد (لـــونسـدال) الى حياتـه السابقة ليتابع عمله في تأجير آلات الجكبكس ، والاجتماع مع (هوتون) واقامة العلاقات مع الفتيات الفاتنات ، غير ان ما لوحظ عليه هو أن لم يعد للاقامة في منزله الكائن في مبنى (الوايت هاوس) الاّ في مطلع شهر تشرين الثاني . ولكن أيـــن كان يقيـــم خلال هـــذه الفترة ؟ ذلك هو السر . كان في كل ليلة يغادر مكتبه الواقع في شارع (ووردر) ويتجه نحو الجهة الغربية . وكنت أنا و (آرثر) قد قررنا الحد من عمليات المراقبة الشديدة التي كان يقوم بها قسم المراقبة بعد عودة (لونسدال) اذ اننا كنا مصممين على تجنب الوقوع في المزيد من الاخطاء . كانت عمليات المراقبة العلنية ممنوعة ، وتم ايقاف الاتصالات اللاسلكية تماماً في كافـــة العمليات ، على الرغم من ان (جيم سكاردون) ضاق ذرعاً بهذا التعدي الواضح على امبراطوريته . فهو لم يكن يعرف شيئاً عن تقنية (رافتر) وبالتالي فانه لم يكن قادراً على ادراك حقيقـــة لماذا تـــم حظر الاتصالات اللاسلكية ، الأمر الذي دفعه الى ان يتشكى من هذا الأمر لدى (فيرنفال جونز) الذي أخبره بحزم انه هناك أسباباً معقولة تكمن وراء هذه السياسة الجديدة .

وكنت أنا و (آرثر) على قناعة تامة بأنه من المستحيل ملاحقة وتعقب ضابط استخبارات محنك ومدرب مثل (لونسدال) دون ان ينتبه الى ذلك مهما كانت المسافة التي نتعقبه خلالها . ولذلك عمدنا الى ابتكار تقنية شبه ثابتة . اذ كان كل ليلة يقوم فريق من قسم المراقبة بمراقبة (لونسدال) ومتابعته الى مسافة معينة ، ثم يتوقفوا عن ذلك . وفي اليوم التالي ، يقوم فريق آخر بمتابعة مهمة المراقبة بدءاً من المكان الذي انتهت عنده عملية المطاردة في الليلة السابقة ، ولمسافة أخرى فقط ، حيث تنتهي المطاردة ، ويتكرر الامر نفسه في بقية الايام ، وهكذا أخذت المسافة تزداد بعداً عن مكتبه الكائن في شارع (ووردر) . استغرقت العملية مدة اسبوعين ، اضطررنا خلالها لاستخدام زوجات أفراد قسم المراقبة ، وكذلك عدد من المتطوعين من افراد الجهاز كي نتمكن من تزويد قسم المراقبة بالعناصر اللازمة لهذه العملية ، لاننا لم نكن نستخدم الافراد الذين كانوا ينفذون جزءاً من عملية المراقبة مرتين . وأخيراً ، تمكنا من تعقب أثر (لونسدال) الذي تبين انه كان يقيم في (٤٥ كراتليه غاردنز) في منطقة (روبسلب) غربي (لندن) . وكان من الواضح ان (لونسدال) يقيم مع سكان هذا البيت الصغير (بيتر وهيلين كروجر) وهما زوجان من أصل نيوزيلندي ، ويقومان بادارة مكتبة صغيرة متخصصة في الكتب الامريكية القديمة . وعلى الفور ، أقمنا مركز مراقبة ثابت في المنزل المقابل لهم ، وبدأنا ننتظر ، وكلنا ثقة بأن لا أحد من السكان في المنزل المقابل لنا يعرف بوجودنا .

في منتصف شهر تشرين الثاني عاد (لونسدال) الى منزله الواقع في مبنى (الوايت هاوس) وكان قد استعاد – قبل ذلك بوقت قصير – حقيبته من مصرف (ميدلاند) . وعلى الفور ، قمنا باتخاذ الترتيبات المناسبة لتمكين فني قيادة الاتصالات الحكومية (آرثر سبنسر) من التوجه الى البيت المجاور لبيت (لونسدال) لبدء عمليات (رافتر) . وعلى امتداد الشهور الثلاثة التالية ، كان (سبنسر) نادراً ما يضع قدمه خارج هذا المنزل الضيق . وقمنا بزرع جهاز مراقبة على الخط الرئيسي الذي يزود جهاز الاستقبال عند (لونسدال) بالطاقة ، والذي تم ايصاله بجهاز طنّان صامت ، عبارة عن سماعة اذن منبهة يستخدمها (سبنسر) بحيث انه لو قام (لونسدال) باستخدام اجهزته اللاسلكية خلال الليل ، فان هذا الجهاز الطنان سيعمل على تنبيه (سبنسر) وتحذيره ان هناك اتصالاً لاسلكياً يجري . وكلما أصدر الجهاز الطنان صوتا ، كان (سبنسر) يقوم بضبط أجهزة استقبال (رافتر) ليجد الذبذبة التي يستمع (لونسدال) اليها ، وبالتالي يقوم (سبنسر) بتحذير فرع قيادة الاتصالات الحكومية في (بالمر ستريت) الذي يقوم بدوره بنقل الاشارة الى مقر القيادة في (شلتنهام) . وهناك – ومن خلال استخدام لبادة (لونسدال) التي قمنا بنسخها – يقوم محلل الشيفرة (بيل كولينز) بحل شيفرة الرسالة ، ويتم نقلها إليّ والى (آرثر) حيث نكون في (ليكونفيلد هاوس) في (لندن) بواسطة خط تلكس مشفر .

فـــي المرة الاولى التي تسلم فيها (لونسدال) رسالة ، لم يتمكن (بيل كولينز) من حل الشيفرة ، اذ انه لم يكن هناك اي مجموعة ارشاد قد وردت خلال الاتصال الاسلكي . ومجموعة الارشاد تكون عادة واضحة ، وبكلمات أخرى هي مجموعة اشارات لبادة تستعمل لمرة واحدة ولا تكون مشفرة . اما الشخص الذي يستقبل الرسالة فانه يقوم باستخدام مجموعة الارشاد كي يحدد موضع الرسالة الصحيح على اللبادة وبالتالي يتمكن من حل رموز الشيفرة { بعد اعتقال (لونسدال) اكتشفنا ان مجموعة الارشاد كانت مشفرة ، اذ انه كان يستخدم تاريخ ميلاده الحقيقي } .

وبدأنا أنا و (آرثر) نتساءل فيما اذا كان (لونسدال) قد أدرك أن اللبادات التي يستخدمها قد تعرضت لخطر ما ، فقام بالتالي باستخدام مجموعة جديدة أحضرها معه من خارج البلاد . وكان الخيار الوحيد امامنا – والذي باستطاعتناالقيام به – هو السطو على منزله ، والقيام بعملية بحث داخــل ولاعة السجائر للمرة الثانية لنرى فيما اذا كانت اللبادات قد استخدمت . اقتحمت الشقة أنا و (وينتربورن) بعد أن غادرها (لونسدال) ذات يوم متوجهاً الى (سافولك) الى عمله في الجكبكس . كان منزل (لونسدال) صغيراً ، ويوقع الكآبة في النفس لمظاهر التقشف التي تبدو فيه ، حتى انه لا يتسع الى سرير آخر الاّ بشق النفس . قمنا بفتح الولاّعة ، ووجدنا ان اللبادات لاتزال هناك ، وان بعــض الرقائق مسحوبة من مكانها مما يعني انها لا تزال قيد الاستعمال . وحينما دققت النظر في ذلك ، تيقن لي ان (لونسدال) قد استخدم خطوطاً اكثر مما هو مطلوب لتشفير الرسالة التي تسلمها من (موسكو) ، وانه حينما يتم تخفيض الرسالة عن اللبادة باستخدام عدد من الخطوط الزائدة ، فانه يمكن قراءة الرسالة بشكل مرضٍ .

وعلـى مـدار الشهـرين التاليين تمكنـا بنجـاح مـن مـراقبة كافة الرسائل التي كان يتلقاها (لونسدال) من (موسكو) مرتين اسبوعياً . كانت معظم هذه الرسائل تتعلق بـ " الشاه " وهو الاسم الرمزي الذي تطلقه الـ (ك ج ب) على (هوتون) حيث كان (لونسدال) يعطى تعليمات محددة حول كيفية التعامل معه ، وما هي الاسئلة التي يجب عليه أن يسأله اياها ، وأي نوع من الوثائق عليه محاولة الحصول عليها من (بورتلاند) اما الرسائل الأخرى ، فقد كانت رسائل شخصية تتضمن أخباراً عائلية حول زوجته ، وأولاده الموجودين في روسيا . كانوا يريدون عودته الى روسيا بعد خمس سنوات من العمل السري .

في صباح يوم الاثنين الواقع في الثاني من شهر كانون الثاني ترأس (هوليس) اجتماعاً لاعادة النظر في القضية كلها ، وقد ناقش (آرثر) بشدة موضوع وجوب ترك العملية بالاستمرار . وكان يشعر بشكل غريزي ان (لونسدال) هو جاسوس غير شرعي أثمن من ان يقوم بادارة جاسوس واحد هـــو (هـــوتـــون) . وفي هذه الاثناء لم نكن نعرف الاّ القليل عن الزوجين (كروجر) وعن منزلهم

رقـم (٤٥ كرانليه غاردنز) اضافـة الى ما كنا قـد عرفناه مـن انه بعد مرور فترة قصيرة على اقامة (لونسدال) عندهم تم إحضار خزنات من نوع (كبس) ذات المواصفات الجيدة ، وتركيب اقفال لنوافذ البيت بمـا فـي ذلك المداخـل الموصلة الى السطح . ومن خلال كل ما علمناه ، اصبح من الواضح ان (لونسدال) ربما كان واحداً من شبكة اكبر . وقد أيد (فيرنفال جونز) وكذلك أنا وجهة نظر (آرثر) ووافق (هوليس) على الاتصال بالادميرالية – التي كان (هوتون) يفشي أسرارها – ليطلب اليهـم ترك (هوتون) دون أي مضايقات لـمدة ثلاثة شهور أخرى . وقد وافقت الادميرالية على ذلك ، وقرر (آرثر) الحـد مـن أي مجازفات لاحقة ، من خلال متابعة القضية دون أي شكل من أشكال المراقبة الجسدية ، ومعتمداً في ذلك على اعتراضنا لاتصالات (لونسدال) اللاسلكية حتى نتوصل الى الجواسيس الآخرين .

لكن خطتنا سرعان ما تحطمت بشكل عنيف ، وذلك حينما قام (كليف كرام – ضابط السي آي ايـه المعيـن فـي السفارة الامريكية في لندن للاتصال مع م آي ٥) بتسليم (هوليس) رسالة مختومة ، تتضمن تحذيراً موجهاً الى (م آي ٥) مفاده ان (سنيير) قد أعلم وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه) انه ينوي الهروب الى الولايات المتحدة صباح اليوم التالي الواقع في الخامس من كانون الثاني . ومرة أخرى اجتمعنا في مكتب (هوليس) ولم يكن هناك – فعلاً – سوى اتجاه واحد للعمل من خلاله وهو أن كلا من (لونسدال) و (هوتون) ومن المحتمل أيضاً الزوجين (كروجر) سيتم افتضاح أمرهم بسبب هروب (سنيير) وبالتالي ، فانه لا بد من اعتقالهم جميعاً قبل ان يتواروا عن الانظار ، ولحسن الحظ ، فان (هوتون) كان على وشك الالتقاء مع (لونسدال) في يوم السبت الواقع في السابع من شهر كانون الثاني ، وكنا على معرفة ايضاً بان (لونسدال) سيستلم صباح ذلك اليـوم رسالتـه اللاسلكية ، الأمر الذي سيمكننا من معرفة فيما اذ كانت (موسكو) قد أرسلت له تحذيراً ما .

كانت عملية اتخاذ الترتيبات المتعلقة بالقاء القبض على هؤلاء عملاً مذهلاً من أعمال فنون التعبئـة العسكـرية ، حتـى اننـي لـم أنـم خـلال الايام الثلاثة التالية الاّ نادراً . فقد تم ارسال (تشارلز ايلويل) الضابط المكلف بمتابعة (هوتون) الى (بورتلاند) ليكون على استعداد لتفتيش منزل (هوتون) حال تلقيه نبأ نجاح عملية الاعتقالات . اما (بيل كولينز) فقد حضر من (شلتنهام) ليبقى فـي (بالمر ستريت) ويكـون متهيئاً لحل شيفرة رسالة (لونسدال) حال ورودها . وتم وضع أفراد (الفـرع الخاص) خارج منزل (لونسدال) على اهبة الاستعداد للقيام باعتقاله فوراً اذا طلبت منه (موسكو) في رسالتها ان يهرب على وجه السرعة طلباً للحماية .

مساء يوم الجمعة ، كنت ومعي (آرثر) في غرفـة العمليات الكائنـة فـي الطابـق الثالث فـي (ليكونفيلد هاوس) وعلى أهبة الاستعداد للقيام بعملية المراقبة طوال الليل . كانت غرفة العمليات هذه

عبارة عن مكتب صغير ، مطلية باللون البني الفاتح الذي تدهن به مباني الجهاز الحكومي المدني . وكان المكتب يشبه زنزانة السجن الى حد بعيد : فهناك سريري معدني يمتد على امتداد أحد الجدران ، وتنتصب طاولة صغيرة في منتصف الغرفة . اما الكابلات فقد كانت تمتد على أرضية الغرفة بكثافة وقد تشابكت على شكل مجموعات . وكانت أجهزة الهواتف تربطنا بمقر قيادة (الفرع الخاص) وبقيادة الاتصالات الحكومية وكذلك بالمدير العام . كما كان هناك جهاز صغير لتكبير الصوت ، ينقل لنا كل صوت يصدر من داخل شقة (لونسدال) في مبنى (الوايت هاوس) .

جلس (آرثر) منحنياً فوق الطاولة ، وسحب الدخان تلتف حوله ، في حين ان (هيو وينتربورن) كان متوتراً وقلقاً ، لا يتكلم الاّ القليل . وكان معنا أيضاً (فيرنفال جونز) وقد خلع حذاءه ، واستلقى على السرير مرتدياً ملابسه . وعلى الرغم من انه كان مدير (الفرع د) الاّ انه كان يشعر باخلاص شديد لرجاله ، وكان مصمماً على اظهار ذلك معنا ، حتى انه ذهب الى احدى الحانات في سوق (شبرد) وأحضر لنا الساندويشات . شربنا الويسكي على امتداد الساعات القليلة ، في حين امتلأت منفضة السجائر .

استمعنا الى (لونسدال) وهو يدخل الى منزله عائداً من أمسية سعيدة في المدينة ، وكانت بصحبته فتاة . وقمت بحذر بتخفيض مفتاح الصوت حينما بدأ صوت ممارستهم الحب يصل الى أسماعنا من خلال مكبر الصوت ، وحينما خيم الهدوء على شقة (لونسدال) سألت (آرثر) كم من السنوات يعتقد ان (لونسدال) سيمضي في السجن ، فأجابني :

" خمس عشرة سنة على الأقل " .

بدا القلق والاضطراب على (هيو وينتربورن) . كان رجلاً متديناً ولم يجد أي متعة في التفكير بتحطيم حياة انسان . وسكبت لنفسي المزيد من الشراب ، وقلت بصوت واهن :

" لا أستطيع الا ان أفكر بهذه الزوجة وبهؤلاء الأولاد .... " . وقد فهم الجميع ما كنت أعنيه . لقد اطلعوا – مثلي – على رسائل (لونسدال) التي كنا نقوم باعتراضها : حديث عن البيت ، وعن المشاكل التي تواجهها العائلة ، وعن أعياد ميلاد أفراد الاسرة ، وعن الاطفال الذين افتقدوا والدهم . وعلى الرغم من كل مهنته ، فان (لونسدال) يعتبر جاسوساً انسانياً جداً . ومثل كل الرجال البعيدين عن الوطن من أجل العمل ، فانه مسكون بالحنين اليه ، ويبحث عن العزاء والسلوى من خلال مصاحبة النساء الأخريات . وتابعت قائلاً :

" لا تبدو قضيته على انه خائن ... انه ليس مثل (هوتون) ... انه يقوم بعمله مثلنا " .

وانفجر (فيرنفال جونز) غاضباً من السرير : " يكفي ... لقد سار في هذا الطريق وكانت عيناه مفتوحتين تماماً . كان باستطاعته ان يحضر الى هنا كدبلوماسي . كان يعرف ما هي المخاطر

التي تنتظره . انه يستحق نتيجة كل ما قام به " .

بقيت صامتاً ، لكن الفكرة كانت تجوب في داخل كل واحد منا . لقد عانينا الكثير من (لونسدال) خلال الشهرين السابقين .

مع حلول الصباح ، أيقظ (لونسدال) فتاته ، وحثها على مغادرة المنزل قائلاً لها انه ينوي القيام بعمل طارئ ، وقد كان الأمر – بشكل ما – صحيحاً . وحينما غادرت الفتاة المنزل ، سمعناه وهو يقوم باخراج جهاز الاتصال اللاسلكي ، وبتحضير اللبادات لاستقبال الرسالة القادمة من (موسكو) . فرقع جهاز اللاسلكي بضع دقائق وخرطش (لونسدال) بقلمه وهو يحل رموز الشيفرة . وقد قدرنا انه ليس هناك أي تحذير ، وذلك من خلال سماعنا له وهو يمشي الهوينى باتجاه الحمام ، ويغني لنفسه بمرح اغنية باللغة الروسية . بعد مرور دقائق قليلة رن جرس الهاتف الأخضر ، وكان على الخط (بيل كولينز) الذي قام باعطائنا نص الرسالة من خلال خط مشوش . كان محتوى الرسالة عبارة عن تقرير روتيني في اكثره حديث عن العائلة ، ومزيد من أخبار الوطن . ولم يكن هناك أي تحذير أو تنبيه .

تم إشعار (الفرع الخاص) بالاستعداد لتنفيذ عملية الاعتقال حينما يقوم (لونسدال) باستلام الطرد من (هوتون) بعد ظهر ذلك اليوم . وعند الساعة الخامسة ، كان جرس هاتف خط (الفرع الخاص) يرن :

قال صوت المتحدث :

" انتهى الفصل الأخير " والفصل الأخير كان هو الاسم الرمزي لـ (لونسدال) . وكانت عملية تنفيذ السجن على وشك أن تبدأ .

اتجه (هيو وينتربورن) مباشرة الى (الوايت هاوس) لتفتيش شقة (لونسدال) في حين انتظرت ومعي (آرثر) أنباء اعتقال الزوجين (كروجر) . وعند الساعة السابعة – متعبان ومبتهجان في الوقت نفسه – كنا في الطريق الى (رويسلب) بسيارتي . حينما وصلنا الى (كرانليه غاردنز) كانت الفوضى تعم المكان ، ورجال الشرطة ينتشرون في كل الارجاء ، ويقومون بتفتيش المنزل بعشوائية . حاولت السيطرة على الوضع ، لكن ذلك لم يجد نفعاً . وحاول (آرثر) عبثاً الاحتجاج حينما قام أحد المخبرين بأخذ علبة بلاستيكية تحتوي على مواد كيماوية ، غير ان الشرطي قال له :

" آسف يا سيدي .. أخشى أنها دليل مهم ... انها الآن قضية جنائية ، فاذا كنت و رجالك تريدون الاطلاع على ما فيها ، فما عليك الاّ القيام بذلك من خلال القنوات الرسمية ... " .

كان يقود عملية الشرطة (جورج سميث) مدير مخبري (الفرع الخاص) وهو رجل حظي بشهرة واسعة داخل أوساط (م آي ٥) من خلال قوته في اثبات وجوده بنفسه . قبل بدء عملية

الاعتقال ، أكدنا على (سميث) اننا سنحتاج الى مدة ثمان وأربعين ساعة من التعتيم الكامل على أي أخبار تتعلق بعملية الاعتقالات حتى نتمكن من مراقبة الارسال اللاسلكي التالي القادم من (موسكو) . لكن ما حدث ، هو انه خلال بضع ساعات انتشر الأمر في انحاء (فليت ستريت) حول القاء القبض على شبكة تجسس كبيرة ، وبدأ (سميث) بتقديم تقارير الى مجموعة من الصحفيين انتقاهم حول الدور الذي ادعى انه قام به في العملية . ولم يصل بعد ذلك أي ارسال من اذاعة (موسكو) .

وعلى الرغم من البحث غير الدقيق الذي قام به رجال الشرطة ، الاّ انه كان من الواضح أن المنزل كان مليئاً تماماً بمعدات التجسس . فقد كانت هناك مجموعتا لبادات شيفرة مختلفتين مخبأتين في ولاعة سجائر مشابهة لتلك التي كان يستخدمها (لونسدال) وكانت هناك أيضاً مخططات اشارة لثلاثة نماذج ارسال من (موسكو) منفصلة ، ومواد للكتابة السرية ، وتسهيلات للقيام بعمليات النقاط المصغرة عن طريق استخدام حامض الكروم وأشرطة السلولويد . اما السيدة (كروجر) فقد حاولت اتلاف محتويات حقيبة يدها التي تحتوي على تفاصيل الاجتماعات مع الجواسيس عن طريق القائها فـي المرحاض ، الاّ ان إحدى الشرطيات حالت دون ذلك . اما اكثر ما أثار اهتمامنا من ضمن ما وجدنا ، فقد كان مخطط اشارة للارسال السريع من (موسكو) . وفي احد المرطبانات التي تستخدم في الطبخ وجدنا كمية من اكسيد الحديد المغنط وتستخدم لطباعة اشارات موريس القادمة ببث سريع على شريط ، الأمر الذي يجعل من السهولة قراءتها دون الحاجة الى نقلها على شريط تسجيل معقد ومن ثم قراءتها ببطء . وقد كان هذا الأمر تقنية جديدة ، ويفسر فشلنا في اكتشاف أي عملية ارسال الى منزل (كروجر) خلال الشهور التي سبقت عملية الاعتقال .

مـع حلـول المساء بـدأ رجال البوليس بمغادرة المنزل ، وتركونا نقوم بالبحث وسط الانقاض ، تحت مراقبة مشددة من قبل اثنين من رجال الشرطة البريطانية الشباب . قمنا بتفتيش المنزل لمدة تسعة أيام ، وفي اليوم الأخير تمكنا من تحديد موقع جهاز الارسال . كان مخبأ بدقة تحت أرضية المطبخ الى جانب عدد من آلات التصوير والمعدات اللاسلكية الأخرى . كان كل شيء مخفياً باكياس مختومة مقاومة للرطوبة وكان من الواضح تماماً ان النظام باكمله كان مصمماً لتخزينه لمدة طويلة مأخوذة بعين الاعتبار .

في يوم الاربعاء التالي ، دعانا (هوليس) جميعاً الى مكتبه ، وهنأنا على الانتصار الذي حققناه ، خاصة وان الفريق الجديد لـ (الفرع د) بقيادة (مارتين فيرنفال جونز) و (آرثر مارتين) قـد واجـه أقسى اختبار لـه ، واستطـاع ان يتفـوق على الروس تمامـاً ولأول مـرة منـذ أن قـام (ماكسويل نايت) بتوجيه ضربته الى شبكة ترسانة (وولويش) عام ١٩٣٨ . اما مفتاح نجاح العملية الموجهة ضد (لونسدال) وكما هو الأمر في الانجازات التي تمت من خلال (انغولف) و (ستوكيد)

فقد كان يكمن في التقنيات الجديدة التي عملت أنا على تطويرها بالتعاون مع قيادة الاتصالات الحكومية ومؤسسة بحوث الاسلحة الذرية . وقد مكنت تقنيات (رافتر) والاشعة وتصوير لبادات الشيفرات ، مكنت هذه الامور جميعها (م آي ٥) من متابعة القضية من مركز قوة . وقد كنت فخوراً الى حد بعيد بالقبض علـــى أعضاء هـــذه الشبكـــة ، اذ انني - وللمرة الأولى - أقوم بدور أساسي في قضية تجسس مضاد ، وأنني بينت لادارة (م آي ٥) ما هو الممكن . ونتيجة لذلك ، فقد أصبح من الواضح ان حجم العمل الذي تضطلع به هيئة عمليات الاتصالات هو حجم كبير جداً ، ونتيجة لذلك ، تم تقسيم العمل الى مجموعتين متميزتين ، حيث ستقوم (المجموعة) بالاشراف على العمليات السرية المـــوجهـــة ضـــد أهـــداف الشيفـــرات فـــي الـــداخـــل والخارج ، فـــي حين ان المجمـــوعـــة الثانيـــة (المجموعة المضادة) ستشرف على جانب التجسس المضاد بشكل كامل والخاص بهيئة عمليات الاتصالات مثل (رافتر) .

وطلب مني (هوليس) ان أقوم بتقديم تقرير مفصل يظهر الدور الذي لعبته التقنيات الجديدة في قضية (لونسدال) مع ابداء وجهة نظر بتشجيع مثل هذه الطرق للوصول الى مكافحة التجسس في المستقبـــل . بـــدأت العمـــل بزيارة قمت بها الى (اولد بيلي) حيث كانت تدور محاكمة (لونسدال) و (هوتون) والزوجين (كروجر) وكذلك (غي) التي كانت هي و (هوتون) يبدو الشحوب على وجهيهما ويجولان بنظراتهما في ارجاء قاعة المحكمة من قفص الاتهام حيث يقبعون . اما (لونسدال) والزوجان (كـــروجر) فقد كانت اللامبالاة التامة بالاجراءات التي تدور حولهما تظهر على وجوههم . كان الزوجان (كروجر) يتبادلان الهمس مع بعضهما بين الفينة والأخرى ، او يتبادلان المعلومات مع بعضهما ، في حين ان (لونسدال) بقي صامتاً حتى النهاية ، حينما ادعى ببضع كلمات ان الزوجين (كروجر) لم يكونا على معرفة بنشاطاته . وسرعان ما أوضح الامريكيون ان الزوجين (كروجر) هما (موريس و لونا كوهين) وانهمـــا مطلـــوبان لـــدى مكتـــب التحقيقـــات الفيدرالي لعلاقتهما بقضية (روزنبرغ) للتجسس حـــول الاسلحـــة النووية ، الأمر الذي سبب لي ارباكاً . فقبل بضعة شهور من عملية الاعتقالات ، التقيت مع (آل بلمونت) من مكتب التحقيقات الفيدرالي في (واشنطن) ، وأخبرته بمدى التقـــدم في مسار القضية . وقد تساءل آنذاك فيما اذا كان الزوجان (كروجر) يمكن ان يكونا الزوجين (كوهين) . الاّ انني لـــم آخذ افتراضاته المرتجلة مأخذ الجد ، ولم أقم بالتأكد من ذلك . وقد أزال التعرف على هوية (لـــونسدال) الكثيـــر مـــن الغمـــوض ، ومـــرت سنة قبل ان نحدد بشكل سليم ان (لونسدال) هـــو (كونان تروفيموفيتش مولودي) ابن العالـــم السوفييتـــي المشهور ، وانه ضابط الـ (ك ج ب) المحنـــك الـــذي انتحـــل عام ١٩٥٥ هوية (غوردون لونسدال) الكندي ، والفنلندي الاصل ، المتوفى منذ أمد .

بدأت تحليلاتي لقضية (لونسدال) بطلب توجهت به الى قيادة الاتصالات الحكومية لتزويدي بملفات أي قضية تجسس سوفييتة معروفة تشبه قضية (لونسدال) وكانت تحتوي على عمليات اتصالات لاسلكية سرية . وزودوني بكراسات – بلغ مجموع صفحاتها حوالي المائة – بها معلومات عن العميـــل مـــوضـــوع الاهتمـــام (متـى بدأ ومتى انتهى – ماذا كانت أهدافه – أي جهاز يعمل لصالحه ، وهكذا) ثم يقومون بعد ذلك بتقديم ملخص مفصل لمخططات الاشارة التي كان يعمل بموجبها العميل ، وأخيراً قائمة بالاتصالات التي كان يتسلمها من الاتحاد السوفييتي ، بما في ذلك عدد الرسائل وعدد مجموعاتها ، وتفاصيل عن انظمة الشيفرة المستخدمة وتواريخ تغيرها .

قمت أولاً بتصنيف هذه المعلومات الى قسمين : الاول ويتعلق بجهاز (ك ج ب) والثاني ويتعلق بالاستخبـــارات العسكـــرية السوفييتية ، ثـــم قسمتها الى نوعية العملاء : أفراد ، المقيمون في البيوت ، الجواسيس غير الشرعيين الذين يقومون بمتابعة مصدر أو اكثر ، المقيمون غير الشرعيين الذين يشرفون على مجموعة او اكثر من غير الشرعيين وهكذا . وكان مما أثار دهشتي ، انني اكتشفت ان التغيير في الاتصالات اللاسلكية يعكس نوعية العميل . فمثلاً ، ان النظر في اسلوب العمليات اللاسلكية – مثل انواع اشارات النداء المستخدمة – من المحتمل ان يحدد فيما اذا كان الجاسوس تابعاً لـ (ك ج ب) أو للاستخبارات العسكرية السوفييتية . وبشكل مماثل تماماً ، فانه عن طريق تحليل عدد المجموعات ، وأطوال الرسائل ، فانه سيكون من المحتمل ان نتعرف على نوعية العميل الذي يتلقى الاتصال اللاسلكي . فعلى سبيل المثال ، فان العميل الفردي المقيم يتلقى اتصالات قليلة جداً ، والأمر كذلك بالنسبة لعميل الاستخبارات العسكرية الفرد ، في حين ان العميل الفرد لجهاز (ك ج ب) يتلقى اتصالات لا بأس بعددها . اما عميل الـ (ك ج ب) المقيم غير الشرعي – وهو أهم الجواسيس على الاطلاق – فانه يتلقى دائماً اكبر عدد من الاتصالات ، ويكون العدد بشكل عام يتراوح بين خمسمائة والف مجموعة شهرياً .

غير انني سرعان ما بدأت أتأكد من ان قضية (لونسدال) قضية مختلفة كلية عن أي قضية فردية أخرى وسط مئات القضايا التي درستها ، لانه لم تكن هناك ولا قضيـــة أخرى كانت فيها هذه الاشكـــال المختلفة من الاتصالات ، اذ كان بعضها مزدوجاً في حين كان بعضها الآخر ثلاثياً . ومع ذلك ، فقد كان من الواضح ان هناك جاسوساً واحداً (هوتون) كان يشرف عليه كل من (لونسدال) والزوجان (كروجر) . لقد كان جاسوساً مهماً – وهذا عن حق – سيما وانه كان يستطيع الوصول الى التفاصيل الحيوية الخاصة بانظمة اكتشاف الغواصات ، والذي كانت امريكا وبريطانيا تقومـــان بـــه . ولكـــن لمـــاذا تم استخدام (آل كروجر) ؟ ولماذا لم يستخدم (لونسدال) فقط ؟ .

مـــن حيث الظاهـــر بدا من المستبعد أن لا يكون هناك جواسيس آخرون متورطين في هذه

الشبكة . فالزوجان (كروجر) كانا يقيمان في منطقة (رويسلب) بالقرب من منشآت قاعدة جوية امريكية ، في حين ان (لونسدال) – وهذا ما اكتشفناه – كان قد تلقى دروساً في معهد الدراسات الشرقية ، ضمن فصل دراسي كان يعقد للضباط العسكريين البريطانيين ولمتدربي (م آي ٦) .

كان من المؤكد أن (لونسدال) هو العميل المقيم غير الشرعي في بريطانيا ، وقمت – بدقة وعناية – بجدولة اتصالاته التي تلقاها من (موسكو) بعد عودته الى بريطانيا في شهر تشرين الاول . فقد كان يتلقى ما بين ثلاثمائة الى ثلاثمائة وخمسين اتصالاً شهرياً ، في حين ان قضايا العملاء المقيمين غير الشرعيين الأخرى التي قمت بدراستها اظهرت ان المقيم يتلقى ما بين خمسمائة الى الف اتصال شهرياً ، وهو ما يقارب الحد الأعلى من عدد الاتصالات . فأين هي اذن بقية الاتصالات الأخرى التي لم يستلمها (لونسدال) ؟ كان لدى (لونسدال) ثلاثة انواع لاشارات النداء ، وهي تتضمن النوع رقم (١) اذا كانت عملية الارسال تتضمن اتصالاً ، ويتم اسقاط النوع رقم (١) اذا كانت عملية الارسال وهمية . وقد سألت قيادة الاتصالات الحكومية فيما اذا كان باستطاعتهم ان يبحثوا عن أي رسائل تشبه في طولها تلك الرسائل التي كنا على معرفة بها ويتلقاهـا (لونسدال) بعد شهر تشرين الاول ، وذلك في الفترة التي سبقت سفره في شهر آب . وبعد بحث شاق ، وجدت قيادة الاتصالات الحكومية ما يمكن تسميته بـ " الاستمرارية " والتي تعود في تاريخها الى ما قبل ست سنوات ، أي الى الفترة التي دخل فيها (لونسدال) بريطانيا تقريباً .

كان عدد مجموعة اتصالات هذه " الأستمرارية " هو العدد الصحيح للمجموعة الذي يتراوح بين خمسمائة الى ألف مجموعة شهرياً ، ثم توقفت بشكل مفاجيء في آب ١٩٦٠ ، وهو نفس الفترة التي عاد فيها (لونسدال) الى (موسكو) . وبالطبع – ودون وجود اللبادات – فاننا لم نتمكن من قراءة أي مـن هـذه الرسائل . ولكن – وكما يبدو ظاهرياً – اذا كانت هذه هي عدد اتصالات (لونسدال) الأصلية ، فان السؤال الذي يبقى هو : لماذا انخفض عددها حينما عاد الى البلاد ؟ .

ركزت اهتمامي على اتصالات (كروجر) وزوجته ، اذ انها كانت الاكثر إرباكاً من كل شيء . فقد كانت معظمها خاصة بهما على الرغم من انه لم يكن واضحاً انهما يقومان بالاشراف على أي جاسوس على الاطلاق ، وكانا يعملان فقط بصفة دعم لـ (لونسدال) . لكن كان من الواضح انهما يقومان بالاحتفاظ ببعض الاتصالات لصالح (لونسدال) . فعلى سبيل المثال ، فان اللبادات ، والتي كانت مخبأة في ولاعة سجائر تشبه ولاعة (لونسدال) كانت بالتاكيد له . وقمت باجراء عملية حسابية لأعـداد الـرسائل علـى اللبادات ، فـوجدت ان مجموعها مساو لعدد الرسائل المفقودة من رسائل (لـونسدال) بعـد عـودته في شهر تشرين الاول . وعلى ما يبدو ، فان الروس قاموا بتقسيم رسائل (لونسدال) حينما عاد الى بريطانيا ، بحيث تركوا (الشاه / هوتون) على القناة التي كان بامكاننا

ان نقرأها ، ووضعوا رسائله الأخرى – والتي يمكن ان تتضمن أسماء جواسيس اخرين – على قناة آمنة لدى (كروجر) وزوجته ، واستخدموا طريقة الارسال السريع الذي لم نتمكن من اكتشافه ، كي يرسل هو أي رسالة يريدها .

ان هـذا التناوب الـواضح في اسلوب الاتصالات اللاسلكية يوحي بأن (لونسدال) كان يعرف – بطريقة أو بأخرى – ان الرسائل التي يتلقاها من (موسكو) الى شقته في (الوايت هاوس) مستخدماً في ذلك اللبادات المخبأة في ولاعة السجائر ، كانت عرضة للخطر والاختراق . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا لم يستخدم لبادات جديدة تماماً اذا كان متخوفاً من ذلك ؟ ولماذا أرسله الروس مرة ثانية الى بريطانيا اذا كانوا متخوفين من امكانية اكتشافه وتعرضه للمخاطر ؟ .

بدأت أحلل نتائج الأحداث في عطلة نهاية الاسبوع التي تلت عملية الاعتقال . وكنت قد اتخذت ترتيبات للقيام بتغطية مستمرة لأجهزة الارسال الدبلوماسية في السفارة الروسية منذ يوم الجمعة الذي سبق عملية الاعتقالات وحتى منتصف يوم الاثنين . كان آخر اتصال أجرته السفارة في تمام الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر يوم السبت – وعلى وجه التحديد – قبل عملية الاعتقالات ، ولم يجر أي اتصال آخر الاّ عند الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين . هكذا – وعلى الرغم من ان شبكة تجسس كبيرة قد تم ضربها – الاّ انه كان من الواضح ان الروس لم يجروا أي اتصال مع (موسكو) على الاطلاق . ان هـذا الاعتقاد لا معنى له ، الاّ اذا كان الروس – بالطبع – قد عرفوا اننا سنقوم بالاعتقال .

وأخـــذت أدقـــق فيمـــا كنا نعرفه عن تحركات ضباط الاستخبارات السوفييت المعروفين في (لندن) خلال عطلة نهاية الاسبوع تلك . وقد تبين انه مساء يوم الأحد – حينما أذيعت في نشرة الاخبار التلفزيونية اخبار عمليات الاعتقال للمرة الأولى – فان العميل غير الشرعي المقيم التابع لجهاز (ك ج ب) والمدعو (كورفين) تناول طعام العشاء مع (كاربيكوف) مساعد العميل المقيم الشرعي لجهاز (ك ج ب) . وقد التقطت ميكروفاناتنا الجساسة كافة ما دار من حوار بينهما . فقد استمعنا اليهما وهما يستمعان الى الأخبار . لم يعلقا بشيء ، ولم يتحركا للاتصال بالسفارة .

بعد ذلك بدأت البحث في بدايات القضية ، واكتشفت شيئاً يرهق الاعصاب وأقنعني ان القضية يجب ان تكون قد أفشيت الى الروس . ففي مراحلها الأولى كانت القضية تحت اشراف القسم (د ٢) حينما كان يشتبه بان (لونسدال) كان بولندياً . ومن خلال مراجعة السجلات وتدقيقها اكتشفت ان القسم (د ٢) لم يكن على علم بموضوع (رافتر) ولم يكن لديهم أي علم بحقيقة ان الروس كانوا يتنصتون على اتصالات قسم المراقبة ، وبالتالي ، فانه قبل ان يتم تحويل القضية الى (آرثر) فانهم قامـــوا باستخـــدام قسم المراقبة لمدة سبع عشرة مرة قاموا خلالها بملاحقة (لونسدال) في

شهري تموز وآب .

اضافــة الــى ذلك ، فانــه منــذ بـداية عملية (ليونزبيرد) كان قد تم تسجيل كافة اتصالات قسم المراقبة من قبل (م آي ٥) ومن ثم الاحتفاظ بها ، ولذلك قمت باجراء اختبار . قمت باعطاء (ايفلين ماك بارنيت) التي تعمل مع (آرثر) بوظيفة ضابط بحث الشريط الذي قمنا بتسجيل اتصالات قسم المراقبة عليه خلال اليوم الذي قام به القسم (د ٢) بملاحقة (لونسدال) الى المصرف لأول مرة . كما انني أعطيتها ايضاً كتاب خريطة شوارع لندن ، والمشابه لذلك الدليل الذي يستخدمه افراد قسم المراقبة ، وطلبت منها أن تضع اشارات على المناطق التي تعتقد أن افراد قسم المراقبة كانــوا يسيرون فيها معتمدة في ذلك فقط على اتصالاتهم اللاسلكية . ولم تكن (ايفلين ماك بارنيت) خبيرة في عملية تحليل الاتصالات اللاسلكية ولم يكن لديها أي اطلاع سابق على القضية ، غير انها خلال ثلاث ساعات ونصف الساعة تمكنت من رسم خط تحركاتهم بكل اتقان . فاذا كانت قد تمكنت من القيام بهذا ، فان ذلك يعني أن الروس – الذين كانوا يقومون بتحليل اتصالات أفراد قسم المراقبة لعدة سنوات – كانوا قادرين على ذلك ، بالتأكيد ، الأمر الذي يعني انهم كانوا يعرفون منذ البداية اننا نتعقب (لونسدال) .

وفي الوقت الذي كنت أقوم فيه بكتابة تقريري كان (سنيير) يقيم بأمان في أحد البيوت المأمونة بالقرب من (واشنطن) والخاصة بوكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه) حيث قدم نفســه هناك علــى انــه ضابط في الاستخبارات البولندية ويدعى (ميشال غولينيفسكي) . كان أحــد فصــول قصتــه يبـدو وكأنه ينسف خيط الغموض الذي يلف قضية (لونسدال) . فقد أخبر (السي آي ايه) ان ضابطاً رفيع المستوى في الاستخبارات البولندية أخبره في الاسبوع الأخير من شهــر تمــوز ان الروس يعــرفون بوجــود " خنزير " (جاسوس) في جهاز الاستخبارات وأضاف (غولينيفسكي) انــه انتــدب للمساعدة في عمليــة البحث عن هذا الجاسوس ، ولكن – مع حلول عيد الميلاد – تأكد له أن هو نفسه أصبح عرضة للشبهة ، ولذلك فانه هرب .

" الاسبوع الأخير من شهر تموز " قرأتها في تقرير (السي آي ايه) حول استخلاص المعلــومات من (سنيير) . كانت تحدق بي هذه الجملة من خلال الصفحة . كانت تبدو جملة حميدة للغاية . وعدت للتدقيق مرة أخرى . فقد كانت أول مرة رأى فيها عناصر (م آي ٥) (لونسدال) يوم الثاني من تموز وهو يلتقي بـ (هوتون) وتم تحديد هويته بشكل دقيق في الحادي عشر منه ، وبدأنا بمطاردته في السابع عشر منه . فاذا ما تركنا مدة اسبوع كي يتم نقل الاخبار الى الروس ، ويوماً كي يتــم وصــولها الــى الاستخبارات البــولنديــة فمعنى هذا انك اصبحت في الاسبوع الأخيــر مــن شهر تموز .

كان تقرير (لونسدال) اكثر وثيقة سببت الألم من بين كل ما كتبته . فقد تحول انتصاري الى رماد أمام عيني . وها أنا أتذكر رحلة الابحار التي قمت بها عند مصب نهر (بلاك ووتر) بالقرب من منزلي في (اسكس) خلال عطلة نهاية الاسبوع التي سبقت تقديم تقريري في شهر أيار عام ١٩٦١ . كانت الغيوم تعدو مسرعة فوق الاراضي الريفية المنبسطة ، وكانت الريح تملأ رئتي ، وتمسح من ذهني الارهاق والاضطراب ، ولكن كيفما اتجهت بالقارب ، وكيفما وجهت أشرعته ، كنت اصل الى نفس الاستنتـــاج : لقد كان الروس يعرفون اننا نلاحق (لونسدال) منذ البداية ، فاستدعوه ، ثم اعادوه ثانية ، ولكـــن لماذا ؟ .

كان هناك تفسير واحد يغطي كافة متناقضات هذه القضية : التسريب . فاذا كان للروس مصدر داخل (م آي ٥) فلا بـد وانــه حــذرهم من وجود (سنيير) الأمر الذي يفسر لماذا تركز الضغط على (غولينيفسكي) منذ الاسبوع الأخير من شهر تموز على الرغم من أن الروس – مثلنا بالطبع – لم يكن أمامهم سوى ان يتكهنوا بهوية (سنيير) الحقيقية . وهذا أيضاً يمكن ان يفسر لماذا عرف الروس بالعمليات التي قمنا بها في المصرف . فحالما تأكد لهم أنه تم اكتشاف أمر (لونسدال) استدعوه الى (موسكو) ، ولكـــن حينمـــا نبهـــت الادارة الى المعلـــومات التي حصلنا عليها من (ليونزبيرد) وبدأ (فيرنفال جونز) تحقيقاته ، فانه من المحتمل ان يكون المصدر قد اتصل بالروس مذعوراً ، وهنا وقف الروس أمام خيارين : (لونسدال) ام مصدرهم داخل (م آي ٥) ؟ كانت الطريقة الوحيدة لإحباط عملية الصيد داخل (م آي ٥) هي اعادة ارسال (لونسدال) مرة ثانية الى بريطانيا على أمل ان يتمكن من الحصول على آخر المعلومات الاستخباراتية من (هوتون) قبل ان يتم اعتقال الشبكة . ولكن قبل اعادة إرساله الى بريطانيا ، قام الروس باتخاذ احتياطات مسبقة للارتباط مع جواسيسه الآخرين من خلال اتصالات مأمونة عبر (كروجر) وزوجته . فاذا كانت القضية قد سارت على هذا النحو ، فان الروس قد أخطأوا في تقديراتهم لمدى حنكة الفريق الجديد لـ (الفرع د) الذي كانوا يواجهونه . وعلى الرغم من كل ما يتمتعون به من مزايا فاننا تمكنا من التغلب عليهم واعتقال (كروجر) وزوجته اللذين يشكلان جزءاً اضافيا هاماً في الفريق السوفييتي . اما بالنسبة للمصدر ، فانه من الممكن ان يكون واحداً من بين عشرات الاشخاص الذين يعملون في المراتب العليا من جهاز (م آي ٥) . فهذا المصدر ليس من قسم المراقبة ، ولا هـو مـن خارج الجهاز ، لأن الـروس لا يقـومـون بالتضحية بأي شخص له قيمة (لونسدال) من أجل حمايـــة مصدر ذي مستوى عادي . اما عمليات التدخل المستمر في قضية (لونسدال) فقد كانت دليلاً يشير الى ما هو أعلى من ذلك ، وأعني الى قمة المتربعين على عرش الجهاز .

وفـــي شهــر أيار عام ١٩٦١ قـــدمت تقريري الى (فيرنفال جونز) الذي قام بدوره بتقديمه

الى نائب المدير العام (غراهام ميتشل) مع ملحوظة صغيرة مرفقة به ، تقول : " حينما تتم قراءة هذه التحليلات ، يجب ان يتولد في الذهن ان قضية (لونسدال) كانت انتصاراً شخصياً لـ (بيتر رايت) " .

ومرت بضعة شهور ، ولم أسمع شيئاً ، وشاركت في عشرات الاجتماعات مع كل من (هوليس) و (ميتشل) حول قضايا أخرى ، وغالباً ما كنت أتخلف عن الآخرين وأنا أتوقع ان يقوما باستدعائي لمناقشة ما يمكن تسميته على الأقل بفرضيات مزعجة . لكن شيئاً من هذا لم يحدث : لا ملحوظة ، لا رسالة ، لا تهديد ، ولا محادثة عرضية . بل ان الأمر بدا وكأن لا وجود أبداً لتقريري ، حتى كان ذات يوم من شهر تشرين الاول حينما استدعيت - أخيراً - الى مكتب (هوليس) في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم . كان (هوليس) يجلس وراء طاولة مكتبه ، والى جانبه (ميتشل) . قال (هوليس) بلهجة تنم عن الفتور :

" بيتر ، سيدير المناقشة غراهام " ولمست اصابعه تقريري ، وهي تدل على نفور واضح . نظرت الى وجه (ميتشل) المتعرق قليلاً ، في حين تجنب النظر الى عيني ، وقال :

" لقد قرأت تحليلاتك حول قضية (لونسدال) وانني مضطر الى القول انني أعرضت عن جزء كبير منها . ومن خلال خبرتي فانني أقول : ان التجسس كان دائماً عمل بسيط ... " فتمالكت غضبي ، وقلت مقاطعاً :

" يسرني يا سيدي أن أشرح أي شيء غريب فصلته في تقريري اذا كان ذلك سيكون مفيداً . في أغلب الاحوال ، يكون من الصعوبة بمكان ان تتحدث عن القضايا الفنية في أي لغة من اللغات " . لكن (ميتشل) تابع كلامه وكأنني لم أقاطعه : " ان الحقيقة - بكل بساطة - هي اننا تمكنا من اعتقال وإدانة ثلاثة جواسيس روس غير شرعيين ومحترفين ، وهؤلاء هم أول مواطنين روس يقدمون الى المحاكمة منذ أجيال . لقد ألقينا القبض على اثنين من أخطر الجواسيس داخل إحدى مؤسسات بحوث ما تحت الماء ، واكثرها سرية . وبأي مقياس ، فان هذا الامر نجاح . ما هي الفائدة التي يجنيها الروس مقابل السماح لنا بالقيام بهذا ؟ " .

وبدأت استعرض ببطء اهم النقاط الواردة في تقريري ، موضحاً ما كان فيه غامضاً ، ومحاولاً بصعوبة أن لا أصل الى أي استنتاج . لكن (ميتشل) كان يهاجم كل نقطة : كيف لي أن أعرف ؟ كيف يمكنني ان أتأكد من ذلك ؟ قد تكون حادثة المصرف مصادفة . ربما لم يكن الروس يعرفون اننا كنا نتعقب (لونسدال) حتى ولو كانوا يتنصتون على الاتصالات اللاسلكية لقسم المراقبة .

ثم قال : " ان طولهم لا يصل الى عشرة اقدام ، انت تعرف ذلك يا بيتر " .

تحدثت عن التغيير في عمليات الاتصال اللاسلكية ، لكن (ميتشل) وضعها جانبا ، قائلاً انه

ليس خبيراً بالاحصاء ، ثم تابع :

" انك تقول انه يوجد المزيد من الجواسيس ، وتتكهن بأن الروس أعادوا (لونسدال) بشكل متعمد ، ولكن ليس لديك البرهان يا (بيتر) على أن الأمور قد سارت على هذا النحو " ، فأجبته :

" وأنت يا سيدي ليس لديك اثبات ان الامور سارت على النحو الذي تعتقد بانها سارت عليه . اننا كلانا نفترض " .

وتدخل هوليس قائلاً : " آه ... نعم ... ولكنهم الآن في السجن " ، فقلت :

" ولكن الى متى يا سيدي ؟ لقد واجهنا هذه المشكلة باستمرار منذ قضية (تيسلر) وفي كل مرة نتركها ، فانها تبرز من جديد ... " ، فقال :

" لقد درست هذه القضية أنا ونائبي بعناية كبيرة ، وأعتقد أنك تعرف شعوري تجاه هذه الناحية " .

قلت : " هل أفهم من ذلك انه لن تجرى أي تحقيقات أخرى ؟ " .

قال لي : " هذا صحيح ، وسأكون شاكراً لك إن انت أبقيت هذه القضية ضمن أقصى حدود السرية . لقد تعززت مكانة هذا الجهاز الى حد كبير ، وكذلك مكانتك يا (بيتر) نتيجة هذه القضية ، ولا أريد أن أرى انحسار هذا التقدم باثارة تكهنات مخربة " .

وابتسم (هوليس) لي بطريقة غريبة ، وأخذ يبري قلمه . وقفت بشكل فظ ، وغادرت الغرفة .

١١

علـى الرغـم من الشكوك التي كانت تراود أوساط (م آي ٥) بشكل سري حول مصدر قضية (لونسدال) الاّ ان هذه القضية نزلت على اوساط الاستخبارات الامريكية وكأنها انتصار بارز . فلم يسبق ان تمت مـراقبة شبكة عملاء غير شرعيين أثناء قيامها بعملها ، وكان هناك اهتمام كبير فـــي (واشنطن) بعمل هيئة عمليات الاتصالات التي قامت بتنسيق مجموعة التقنيات الجديدة .

كانت وكالة الأمن القومي الامريكية قد علمت لتوها عن عمل هيئة عمليات الاتصالات من خلال قيادة الاتصالات الحكومية ، وكانـــت تشعـــر بالحســد نتيجــة العلاقة الوثيقة التـــي قامت بين قيادة الاتصالات الحكومية وشقيقتها الممثلة بالجهازين السريين : (م آي ٥) و (م آي ٦) . ومهما كانت المشاكل التي تواجهها بريطانيا ، الا انها كانت اكثر سوءاً في (واشنطن) ، فقد كان (هوفر) يعارض بشدة انشاء وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه) بعد الحرب ، وبقي معادياً علانية لها طوال سنوات الخمسينات ، خاصة وان (السي آي ايه) ومعظم ضباطها ذوي المراتب العليا هم من خريجي رابطة ايفي ، التي كانت تنظر الى (رجال ج) * بتكبر وازدراء . اما السياسة الوحيدة التي وحدت هاتين المؤسستين** فقد كانت عزمهما المشترك على اعاقة نشاطات وكالة الأمن القومي كلما كان ذلك ممكناً . فقد زعمتا ان وكالة الأمن القومي هي مؤسسة غير مأمونة ، وتم توجيه الاتهام لهـا بشكل أساسي في عام ١٩٥٩ حينما فر اثنان من محللي الشيفرات في وكالة الأمن القومي الى

* (رجال ج) هم رجال (ج . ادغار هوفر) / المترجم

** يقصد بها مكتب التحقيقات الفيدرالي ، والسي آي ايه (المترجم)

الاتحاد السوفييتي ، وأفشيا أسرار الوكالة الحيوية .

كان (لويس torديللا) نائب رئيس وكالة الأمن االقومي ، وكان له دور فعال في ادارة شؤون الوكالة لمدة عشرين سنة تقريباً (كانت رئاسة وكالة الأمن القومي تنتقل بالتناوب بين كافة أجهزة القوات المسلحة) . وكان يدرك تماماً ان السبب الحقيقي للعداء الذي تكنه (السي آي ايه) ومكتب التحقيقات الفيدرالي للوكالة كان يكمن في امتعاضهما لقيام الوكالة بالاشراف على عملية (سيغينت) كما كان يدرك ايضاً ان المؤسستين معاً كانتا مشغولتين دائماً في عملية التحدي لاحتكاراته وسيطرته . وكانت (السي آي ايه) قد بدأت تنفيذ عملية (سيغينت) بالغة السرية وكذلك عملية (ستاف د) كما كان لمكتب التحقيقات الفيدرالي ايضاً دوره الفعال في المجال نفسه . وفي شهر ايار عام ١٩٦٠ - في الوقت الذي كانت فيه عملية (لونسدال) لا تزال تجري - قام (آل بلمونت) بزيارة (لندن) ، واصطحبته الى (شلتنهام) لكي أريه عملية (انغولف) الموجهة ضد الشيفرة المصرية وعملية (ستوكيد) الموجهة ضد الشيفرة الفرنسية ، واللتان كانتا في مراحلهما الأولى . وقد ترك هذا الأمر أثره في نفس (بلمونت) الذي سارع الى ارسال (ديك ميلن) حيث أمضى مدة اسبوعين معي وهو يتعلم التفاصيل الفنية لعملية (ستوكيد) . وبعد مرور فترة قصيرة ، قام مكتب التحقيقات الفيدرالي بعملية مشابهة ضد جهاز الشيفرة في السفارة الفرنسية في (واشنطن) ، وتكللت العملية بالنجاح .

وأراد (تورديللا) يائساً ان يعمل على تطوير لجنة عمليات للاتصالات تكون خاصة به ، وتحت سيطرة وكالة الأمن القومي ، فقام في شهر تشرين الاول عام ١٩٦١ بدعوة كل من (هيو الكسندر) و (هيو دنهام) و (راي فراولي) وأنا ايضاً لزيارة (واشنطن) اضافة الى (كريستوفر فيلبوتس) رئيس محطة (م آي ٦) وكان الهدف من تلك الدعوة عقد مؤتمر خاص لبحث عمليات اختراق الشيفرات من قبل بريطانيا . كما وجه الدعوة ايضاً الى (السي آي ايه) ومكتب التحقيقات الفيدرالي على أمل ان يحققوا - من خلال الاستماع الى تقرير عن عمل هيئة عمليات الاتصالات - زيادة في الفوائد التي يمكن ان يجنوها من خلال التعاون الوثيق فيما بينهم .

وقد أيقنت منذ البداية ان هذا المؤتمر كان فرصة لا تقدر بثمن بالنسبة لأجهزة الاستخبارات البريطانية كي تسترجع صورتها في عيون المؤسسة الاستخباراتية الامريكية كاملة . فقد كانت وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية (السي آي ايه) في عام ١٩٦١ هي الصوت الاستخباراتي المسيطر في (واشنطن) . وعلى الرغم من ان العناصر القوية هناك قد صورت التحالف الاستخباراتي الانكليزي الامريكي على انه اسراف عاطفي امام الحرب الباردة المتصاعدة التي لا عاطفة فيها ، الا انني كنت مقتنعاً انه اذا ما تمكنا من ان نريهم - على مستوى العمل - التقدم الفني الذي تم منذ عام ١٩٥٦ ، فانه سيكون بامكاننا أن نقنعهم أننا نستحق سعيهم لصداقتنا .

كان (هيو الكسندر) يعرف – و كذلك أنا – اننا نقوم بمقامرة ، اذ انه لم تكن هناك ضمانات بان الامريكيين سيخبروننا بالمقابل بكل شيء في ذلك المؤتمر ، وهذا ما كان يبدو فعلاً . كانت هناك اعتبارات أمنيـة واضحــة ايضاً لكن المكاسب الكامنة في ذلك كانت متعددة . فعلى الأقل ، كان بامكاننا ان نزيل ذلك الظل الذي سيطر على العلاقات الاستخباراتية الامريكية – الانكليزية منذ قضيــة (ماكلين) و (بيرغس) و (فيلبي) . ولكن الاكثر أهمية من ذلك هو أن (هيو الكسندر) كانت لديه مخططات لتطوير عمليات اختراق الشيفرات من قبل لجنة عمليات الاتصالات ، كما كانت لدي مخططات لتطوير عمليات التجسس المضاد وهذا لن يكون متاحاً الاّ من خلال المصادر والدعم الامريكيين . فمع تطوير القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية ، كنا بحاجة الى حث الامريكيين على تمويل ما نفكر به كي يتحول الى واقع . وعلى المدى البعيد ، فاننا سنحصل على المنافع ، بحيث ان المعلومات الاستخباراتية سوف تعود لتتدفق علينا من خلال اتفاقية تبادل بين قيادة الاتصالات الحكومية ووكالة الأمن القومي .

عقـد المــؤتمــر في غرف خاصة – تم تفتيشها مسبقاً – في مقر وكالة الأمن القومي في (فورت ميد / ميريلاند) وهو عبارة عن مبنى زجاجي ضخم محاط بالاسلاك الكهربائية الدفاعية . وفي أعلى المبنى كانت هناك مجموعة أبراج تحمل مئات الهوائيات ، وصحون الاستقبال التي تصل وكالة الأمن القــومي مــع مئات مــن مراكز التنصت التابعة لها والمنتشرة في أنحاء العالم . وقد حضر (لويس تورديللا) ويصحبته كبير محللي الشيفرة عنده (أرت ليفنسون) هذا الاجتماع ، في حين أرسل مكتب التحقيقات الفيدرالي كلا من (ديك ميلن) و (ليش ويتمان) اما (السي آي ايه) فقد كان يمثلها (جيم انغلتون) وشخص آخر ضخم الجثة كالثور هــــو (بيل هارفي) الذي كان قد عـــاد مؤخراً الــى (واشنطن) للاشراف على العملية (ستاف د) بعد أن أشرف على عملية نفق برلين .

كان (هارفي) لا يزال اسطورة حية داخل أوساط (السي آي ايه) بسبب تصرفات رعاة البقر التي كان يقوم بها ، وبسبب افراطه في الشراب . وقد بدأ حياته العملية بالاشراف على عمليات التجسس المضاد للسوفييت لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالي ، الى أن صرفه (هوفر) من الخدمة بسبب إدمانه على المشروب . وسرعان ما استغل خبرته التي لا تقدر بثمن وحصل عليها من خلال عمله فــي مكتب التحقيقات الفيدرالي ، حين وظفها للعمل مع (السي آي ايه) التـــي كانت حديثة العهــــد ، فأصبح بذلك الى جانب (انغلتون) واحداً مــن اكثر الامريكيين أهمية ، والذين خاضوا غمار الحرب السرية ضد جهاز الـ (ك ج ب) . وعلــى امتداد معظـــم سنوات الخمسينات خدم فــي برلين ، حيث كان يقوم بالاشراف على العملاء ، وحفر الانفاق ، وشن المعارك ضد السوفييت حيثما كان ذلك ممكناً . وكانت الحرب الباردة بالنسبة له تشبه المعركة الحقيقية التي تدور عن قرب .

وعلى الرغم من النزعة العدوانية المتأصلة فيه الاّ انه كان ذكياً ، ويمتلك حاسة شم في ما يتعلق بأعمال التجسس . ولقد كان هو أول من لفت الانتباه الى (فيلبي) فـــي الولايات المتحدة الامريكية بعد هروب (بيرغس) و (ماكلين) . وكـــان يتمتع بذاكرة مذهلة بحيث يستطيع استحضار تفاصيل عمليات الهروب ، وكذلك القضايا التي جرت قبل ذلك بعشرات السنين ، كما انه كان – قبل أي شخص آخر – أول من ربط بين الخيوط المتناقضة لسيرة حياة رجل الـ (م آي ٦) . وفي حين ان الآخرين كانوا يقفون موقف المتشكك كان يلاحق (فيلبي) وكأن ثارات حقودة تدفعه الى ذلك ، وقد تركت هذه الحادثة في نفسه شيئاً من الحقد على البريطانيين .

كانت ايام المؤتمر التي امتدت على مدار خمسة أيام تبعث على التشاؤم ، وكان (تورديللا) متلهفاً على تبادل الافكار بحرية ، وناقش تجربة او اثنتين مخبريتين كانت وكالة الأمن القومي تقوم بهما في محاولة للوصول الى الاساليب الممكنة ، التي يمكنها ان تقوم من خلالها باختراق شيفرات السفارات في (واشنطن) ، مشيراً بدقة الى انه في ضوء نظام مكتب التحقيقات الفيدرالي ، فانهم غير قاردين على الخروج من اطار مرحلة التجريب والى ما هو أبعد من ذلك . اما ممثلو مكتب التحقيقات الفيدرالي و وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه) فقد كانوا صامتين ويعلوهم الاضطراب ، اذ انهم كانــوا لا يرغبون بمناقشة التطورات الفنية التي حققوها امام الآخرين : نحن و وكالة الأمن القومي . وقد كتب (انفلتون) ملاحظات كثيرة فـــي حين كان (هارفي) مسترخياً في مقعده ، وهو يحاول ان يخفي عدوانيته ، وكان يغط في النوم بين الفينة والأخرى ، وخاصة بعد تناول طعام الغذاء .

صباح أول يوم من أيام المؤتمر قال بحدة : " ان الشركة (السي آي ايه) موجودة هنا بصفة مستمع فقط ... اننا لا نناقش امورنا السرية في جلسة علنية ! ".

لكن الأمور بدأت بالتحسن حينما قرأت تقريراً مطولاً تحدثت فيه باسهاب عن نجاح عملية (انغولف) ضد المصريين ، ومدى التقدم الذي حققناه منذ ذلك الحين في مجال الاسترشاد بالاتصالات اللاسلكية لالتقاط أصوات الشيفرات ، وما الذي تم تحقيقه في مجال التنصت من خلال استخدام مجموعة ميكروفوناتنا الجديدة . وتابعت سرد تفصيلات عملية (ستوكيد) وبدأت المناقشة تأخذ مجراها في النهاية ، حتى ان (هارفي) اعتدل في جلسته في كرسيه ، وبدأ الاستماع .

وفي اليوم الثالث للمؤتمر ترأس الجلسة (ريتشارد هيلمز) مدير التخطيط في (السي آي ايه) للبحث في الوسائل التي يمكن ان يتم من خلالها استخدام هذه التقنيات الجديدة ضد الشيفرة الروسية . وقد ناقشت بشدة موضوع ان من الواجب علينا أن نتنبأ بالجيل التالي لأجهزة الشيفرة التي يمكن ان يطورها الروس ، وضرورة العمل الفوري في محاولة لتحطيمها . وقد أبدى الحاضرون – وهم

من غير العلماء - شكوكهم في ذلك ، لكنني أشرت إلى اننا قمنا بمثل هذا العمل خلال الحرب في مختبر بحوث الادميرالية حينما تنبأنا بالجيل الجديد للالغام والطوربيدات الالمانية ، بحيث اننا كنا قادرين على مكافحتها حالما وضعت موضع العمل . وعند انتهاء جلسة المناقشة ، كانت وكالة الأمن القومي وقيادة الاتصالات الحكومية قد ألزمتا نفسيهما ببدء العمل ضد جهاز الشيفرة الروسي الجديد وهو طراز (ألباتروس) .

اما (هيو الكسندر) فقد كان اكثر ما يثير اهتمامه هو موضوع استخدام الجيل الجديد من الكمبيوترات الذي تم تطويره في امريكا في عمليات التحليل السري للشيفرات . فقد كانت تنتابه الهواجس من نظرية (الارغونوميك) التي تقول ان الحصول على ارقام عشوائية حقيقية - حتى لو كان ذلك من خلال الوسائل الالكترونية كما هو الأمر عليه في أجهزة الشيفرة - هوأمر مستحيل على صعيـد الرياضيات . وكـان (الكسندر) يعتقـد انه اذا ما تم تطوير اجهزة كمبيوتر فعالة الى حد كاف ، فانه لن تكون هنـاك أي شيفرة آمنة مهمـا كانت مشفرة بشكل جيد ، وتم البدء ببرنامج بحث واسـع مشترك ، للعمل خلال الحقبة التالية على دراسة الموضوع بشكل شامل . (حسب تقرير نشر في صحيفة الغارديان عام ١٩٨٦ فان التقدم الذي حصل في نظرية الارغونوميك منذ عام ١٩٨٠ قد أحدث ثورة في عمليات تحليل الشيفرات طبقاً للطريقة التي تنبأ بها " الكسندر " تماماً) .

وكما هو متوقـع ، فان (السي آي ايه) لم تطلعنا على شيء يتعلـق بحالة استخباراتها الفنية ، حيث تركوا لدينا انطباعاً مفاده اننا غير موثوق بنا للاطلاع على أسرارهم . الاّ ان الشكوك راودتنا من امكانية وجود اسباب اخرى تقف وراء تحفظهم هذا . وكان من المؤكد ، ان (القسم د) الذي يشرف عليه (هارفي) يتعمد القيام بتجاوز بنود الاتفاق المبرم بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة الامريكية التي نصت على تبادل المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بعملية (سيغينت) بشكل كامل بين وكالة الامن القومي وقيادة الاتصالات الحكومية ، حتى انه اذا أراد الامريكيون القيام بعملية أختراق لاحدى الشيفرات ، ولا يريدون مشاركتنا بهذا الأمر ، أو اذا كانوا يريدون القيام بعمل ما ضد المملكة المتحدة أو إحدى دول الكومنولث - وكنا متأكدين من أنهم يقومون بمثل هذا - فان (القسم د) كان هو المكان الذي تتم من خلاله هذه العمليات .

ومع هذا ، فقد كان المؤتمر بمثابة حدث هام في العلاقات الاستخباراتية الامريكية الانكليزية . ولأول مرة - خلال حقبة من الزمن - كان ممثلو ستة أجهزة استخبارات يجلسون معاً ، ويبحثون بشكل مطول كيفية اقامة تعاون بينهم حول عدد كبير من المشاكل المختلفة . وتم البدء ببرامج بحوث رئيسية مشتركة ، وخاصة في مجال الكمبيوتر ، وبدأنا أول خطوة في عملية هدم حاجز عدم الثقة .

قبل أن أغادر (لندن) قام (آرثر مارتين) باجراء الترتيبات من أجل أن أقوم بتقديم تقرير

الى (السي آي ايه) حول الجانب الفني في قضية (لونسدال) وخاصة عملية تطوير تقنية (رافتر) . وقد سبب هذا الأمر لنا بعض الارباكات في (ليكونفيلد هاوس) لأن (السي آي ايه) لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك ، علـى الرغم من اننا كنا قد أعلمنا مكتب التحقيقات الفيدرالي منذ البداية كل شيء عن (رافتر) . وقـد وافق (هوليس) علـى وجـوب اعلامهـم بالأمـر بشكل كامل حالما انتهت قضية (لونسدال) خاصـة وانهم هـم الذين أعطونا المعلومات التي حصلوا عليها من (سنيبر) وقادتنا الى (لونسدال) بالدرجة الاولى . وقـد قـدمـت تقريري لهـم بعـد انتهاء أعمـال المؤتمر الذي دعا اليه (تورديللا) في احد (اكواخ نيسن) الكبيرة التي كانت (السي آي ايه) تشغلهـا بشكل مؤقت في (واشنطن) ، في حين كـان مقـر قيادتهـم فـي (لانغلي) لا يزال قيد البناء . وقد اصطحبني (جيم انغلتون) الى غرفة مؤتمرات كبيرة ، ووقفت على المنصة أمام حوالي مائتي ضابط – على أقل تقدير– من ضباط (السي آي ايه) . وهمست الى (انغلتون) وسألته :

"هل انت متأكد من ان جميع هؤلاء هم على علم بعملية (سيغينت) ؟ " .

قال لي : " فقط أخبرهم بالقصة يا (بيتر) ودع الجانب الأمني لنا ... هناك أناس كثيرون يريدون الاستماع الى هذا " .

وقفت بعصبية ، وبدأت الحديث ببطء و بشكل متعمد كي أتغلب على تأتأتي فبدأت بسرد تفاصيل بدايات قضية (لونسدال) . وبعد ساعة ، استدرت نحو اللوح كي أشرح التفصيلات الفنية المعقدة لتقنية (رافتر) الفعالة ، حيث قلت : " بالطبع ، فان (رافتر) يمثل – من وجهة نظرنا – سلاحاً رئيسياً جديداً في مجال التجسس المضاد ، حيث أصبحنا في موقف يمكننا من خلاله التثبت – ودون أي سؤال – متى يتسلم العملاء السوفييت الموجودون في الميدان الاتصالات السرية القادمة من (موسكو) ، علاوة على ذلك ، فان هذه التقنية تمكننا من خلال استخدامها ، من اكتشاف ذبذبة ارسالهم ... " .

ولم تستقبل تقنية (رافتر) بشكل جيد . كان في البداية صوت همس ، ثم لاحظت اثنين من الموجودين في الصف الأمامي وهما يتحدثان مع بعضهما البعض بحيوية اكثر من المعتاد . وقد أدركت ان هناك ثمة شيء غير طبيعي حينما رأيت (هارفي) وكان جالساً عند احد جوانب المنصة . كان يميل باتجاه (انغلتون) ويومىء بغضب باتجاهي ، فقلت ولم أكن متأكداً من السبب الذي أزعج جمهور الحاضرين :

"هل هناك أي اسئلة ؟ " .

صرخ أحد الجالسين في الصفوف الخلفية : " نعم ... متى قلت انك قمت بتطوير تقنية (رافتر) بحق الجحيم ؟ " .

فأجبته : " في ربيع عام ١٩٥٨ "

" وما هو تاريخ اليوم بحق الجحيم ؟ " .

تلعثمت لفترة من الزمن ، إذ فرت الكلمات مني ، فقال :

" سأخبرك أنا ... اننا في عام ١٩٦١ " .

" فليذهب هذا التحالف الى الجحيم " هكذا صرخ شخص آخر .

جلست بحدة وانزعاج ، وبدأ الناس بمغادرة القاعة، ولم يعد هناك المزيد من الاسئلة .

تقدم مني (انغلتون) وكذلك (هارفي) الذي كان الغضب بادياً على وجهه .

قال (جيم) وهو يحاول ان يكون مهذباً : " اسمع يا (بيتر) ... ان هذا الموضوع الكبير يحتاج الى مناقشة أشمل ، وانني في الواقع ، أشعر انه من غير المناسب الاستمرار في بحثه في محاضرة عامة كهذه . أنا و (بيل) نريدك ان تتناول طعام العشاء معنا هذه الليلة ، وسنتدبر امر مكان آمن نستطيع التكلم فيه " . و دفعني بسرعة قبل ان يتمكن (هارفي) من الكلام ، وخرجنا .

اصطحبني (جوي بيرك) وهو أحد الفنيين العاملين مع (انغلتون) من الفندق في ذلك المساء . ولم يكن لديه ما يتحدث به سوى القليل ، وقد خيل لي ان هذه هي تعليمات وأوامر (انغلتون) . عبرنا جسر جورج واشنطن ، فمقبرة (آرلنغتون) ثم سارت بنا السيارة باتجاه ريف (فرجينيا) .

قال لي (بيرك) وهو يشير باتجاه اليمين : " هذا هو مقر قيادتنا الجديد " ولم يكن هناك شيء سوى الأشجار والظلمة الكثيفة .

بعد مسير ساعة بالسيارة ، وصلنا الى منزل تحيط به الأشجار ، ويقع خلف الطريق . وفي الجهة الخلفية من المنزل ، كانت هناك شرفة كبيرة ، مغلقة بواسطة منخل معدني لتجنب الحشرات الطائرة ، وكان فيها طاولة وعدد مـــن الكراسي . كانت تلك الامسية ، واحدة من امسيات أواخر الصيف ، مشبعة بالرطوبة والحرارة . أما رائحة الصنوبر وأصوات الجداجد فقد كانت تصل الينا من تلال (آبالاشيانس) . دخل (انغلتون) الى الشرفة ورحب بي بفتور وقال :

" انني آسف لما حدث ظهر هذا اليوم " ولم يقدم أي تفسير . جلسنا على الطاولة وكان معنا رئيس قسم اوروبا الغربية في (السي آي ايه) . كان مهذباً ، ولا شيء غير هــذا . بعد مرور دقائق قليلة ، توقفت سيارة أخرى أمام المنزل ، وهـــي تصدر صوتاً مـــن مكابحها ...أغلقت أبوابها بعنف ، وسمعت صوت (بيل هارفي) داخل البيت ، وهو يسأل اين نحن . ورد وراءه الباب المنخلي الرقيق المانع للحشرات ودخل الى الشرفة ، وهو يحمل بيده زجاجة (جاك دانييل) . كان من الواضح انه ثمل . قال لي بصوت هادر ، وهو يضع الزجاجة بعنف على الطاولة :

" والآن ، ايها الانجليزي يا ابن الزنا ... أخبرنا عن حقيقة هذه القضية " . أدركت فوراً ان

هذه العملية مرتبة سابقاً اذ ان (هاري ستون) كان يرافقني عادة الى أي مناقشة جادة تتعلق بأعمال (م آي ٥) غير انه كان هذه المرة في المستشفى يعالج من أزمة قلبية .

" ان هذا لأمر جائر ياجيم ... لقد كنت أعتقد أنها حفلة عشاء " قلت هذا وأنا أستدير نحو (انغلتون) الذي قال وهو يصب لي الويسكي في كأس زجاجي مزخرف " انها كذلك يا بيتر " ، فأجبته بفتور :

" لن أرهب بالصياح " .

فقال (انغلتون) بهدوء : " لا ، لا ...اننا فقط نريد ان نسمعها ثانية من البداية ... فهناك الكثير من الأمور التي نريد استيعابها " . وللمرة الثانية ، بدأت بسرد قضية (لونسدال) وحينما انتهيت منها ، كان (هارفي) لم يعد قادراً على تمالك نفسه ، فاندفع في شتمي قائلاً :

" لستم أهلاً للثقة أيها الزناة بامهاتم . تأتون الى هنا ، وتطلبوا منا أن نقوم بتمويل بحوثكم في حين انكم تمتلكون منذ زمن طويل شيئاً مثل (رافتر) وتخبئونه تحت أردانكم " فقلت " لا أرى هناك مشكلة " فقال :

"انك لا ترى شيئاً " .

وفتح (هارفي) زجاجة الـ (جاك دانييل) الثانية .

قال (انغلتون) : " ان المشكلة يا(بيتر) تكمن في عملياتنا ، اذ ان معظم عملائنا يستخدمون أجهزة الاستقبال ذات التردد العالي ، فاذا ما حصل السوفييت على تقنية (رافتر) فان معظم هؤلاء العملاء سوف يتم اكتشافهم " ثم تابع :

" هل حصل السوفييت على تقنية (رافتر) يابيتر ؟ " .

" لم يكن ذلك في البداية ... ولكنني متأكد من انهم حصلوا على ذلك الآن " قلت ذلك ، مشيراً الى قضية حديثة ، حينما وصف مصدر بولندي تابع لـ (م آي ٦) يعمل داخل الاستخبارات البولندية عملية تحري تجسس سوفييتية – بولندية مشتركة . فعندما اقتربت العملية من نهايتها ، وحينما أوشك السوفييت والبولنديون على الاطباق على العميل المشتبه به ، أحضر رجال الـ (ك ج ب) عربة الى المبنى الذي توجد فيه شقة العميل . وحسب ما يرويه مصدر (م آي ٦) فان الاستخبارات البولندية منعت من رؤية ماهو موجود داخل السيارة ، لكنه كان يعرف بما فيه الكفاية كي يخمن ان لها علاقة ما باكتشاف الاتصالات اللاسلكية . قال (هارفي) بصوت واهن :

" ياللمسيح ... لقد فقدنا كل ما رتبناه في بولندا " . فقلت له :

" لكننا ارسلنا تقارير المصدر تلك الى قسم بولندا التابع لكم ... وأياً كان ذلك العميل ، فانه ليس أحد من رجالنا ، ولذلك افترضنا انه لا بد ان يكون واحداً من رجالكم ، وهذا – على الاقل – يجب

ان يكون تحذيراً لكم من ان عمليات الاتصال الاسلكي مع بولندا عرضة للخطر " .

قال رئيس قســـم اوروبا الغربية مذهولاً : " سنتأكد من هذا الأمر في الصباح " . وسأل (هارفي) : " ومن أيضا يعرف عن (رافتر) ؟ " . فأخبرته اننا أعلمنا كلا من مكتب التحقيقات الفيدرالي والشرطة الملكية الكندية عن كافة التفاصيل بعد ان تم تطوير (رافتر) .

وانفجر (هارفي) صائحاً وهو يضرب على الطاولة بيده : " الكنديون ، ولربما ايضاً أخبرتم البابوان * عنه مثلما فعلتم مع الكنديين " فقلت له : " آسف اذ اننا لا نرى الامر على نحو ما تراه فالكنديون هم أعضاء في الكومنولث وهم موضع ثقة " فقال (هارفي) :

" حسناً ، عليك ان تخبرهم ان يستخدموا جهاز شيفرة آخر " قال ذلك في حين ان (انغلتون) لكزه من تحت الطاولة ، اذ كان يخشى ان يقوم (هارفي) في غمرة غضبه بافشاء أسرار (القسم د) .

وأخذت حدة النقاش تزداد شيئاً فشيئاً ، وكان من الواضح ان تهويل الأمور مدبّر بعناية . فقد كانا يريدان جعلي أشعر بالذنب – لانني قلت أشياء حمقاء يمكن ان أندم عليها فيما بعد – فأخبرهم باكثر مما يجب . وقالا لي : لقد أعطيناكم (سنيبر) فانظـر مـا فعلتم بنـا مقابل ذلك . لقد وافقنا علـى اعطائكـم ملايين الدولارات لكي تقوموا بالبحوث ، فكيف كافأتمونا ؟ كان (هارفي) محتدما ويلعن كل نقطة ضعف ، وكل خطيئة ، وكـل نقطة اهمال ولا مبالاة تغاضى الامريكيون عنها منذ الحرب : (فيلبي) و (بيرغس) و (ماكلين) والافتقـــار الى القيادة ، والى الخبرة والبراعة وتراجع الامبراطوريـــة ، وانتهاك حرمة النظام الاجتماعي . ثم ألقى (انغلتون) محاضرة كئيبة عن ضرورة احترام التفوق الامريكي في التحالف اذا أردنا الوصول الى مصادرهم . وزمجر (هارفي) قائلاً :

" تذكر فقط انك مجرد شحاذ لوطي في هذه المدينة " .

تجنبت ثورته . نعم ، فسجلنا في عمليات التجسس المضاد ضعيف ، لكن (آرثر) عاد الينا الآن و (لونسدال) ليس الاّ البداية فقط . لا ، فلسنا ملزمين باخباركـــم عـــن (رافتر) منـــذ البداية . اننا نتصرف بأسرارنا كما نرى ذلك مناسباً . ثم اندفعت قائلاً :

" لقد حضرت الى هنا ، وأعطيتكم عصارة عملي طوال حياتي : (انغولف) و (رافتر) و (ستوكيد) و كل شيء ، وجلستم أمامي مدة خمسة أيام في وكالة الأمن القومي ولم تبوحوا شيء . اين تبادل المعلومات في هذه الحالة ؟ الحقيقة هي انكم سئمتم لأننا سبقناكم " .

كان (هارفي) يلهـــث وقد تورد وجهه حتى غدا مثل ديك الحبش ، وكان العرق يتفصد من صـــدغيه ، فـــي حين كانت سترته مفتوحة لتكشف عن قراب كتف لامع وعن مسدس ، وكان كرشه الضخم يجيش بالشراب . كانـت الساعـة الآن تبلغ الرابعة صباحـاً ، وقد اكتفيت بمـا نلته فـي ليلة

---

*البابوان : نسبة الى موطن العرق الزنجي في غينيا الجديدة (المترجم)

واحدة ، وغادرت المنزل وقد اخبرت (انغلتون) انه لا يوجد برنامج عمل ليوم غد . تكونت لدي فكرة سيئة عما حدث ، وقررت ان الأمر عائد اليهم اذ أرادوا ان يعم بيننا السلام .

في اليوم التالي جاءني (انغلتون) الى الفندق دون موعد مسبق . كان مشرقاً وابدى الكثير من الاعتذار، وألقى باللوم على (هارفي) حول ما حدث الليلة الماضية وقال :

" انه يشرب كثيراً ، وهو يعتقد ان عليك أن تضع الانسان في مواقف عصيبة حتى تحصل على الحقيقة . انه يثق بك الآن ، كان يراك انك مجرد تهديد ... هذا هو كل ما في الأمر " .

ودعاني الى العشاء في الخارج . كنت في البداية حذراً ، لكنه قال انه يتفهم وجهة نظري ويأمل أن أتفهمه كذلك ، وتحدث بحماس عن مخططه لمساعدتنا في الحصول على الموارد . وسرعان ما تلاشى التوتر . ثـم عـرض عليّ ان يصطحبني كي نقابل (لويس تورديلا) لحثه على تقديم المساعدة في عمليات التجسس المضاد التي تديرها لجنة عمليات الاتصالات ، وأرسل في اليوم التالي سيارة كي تقلني الى (فورت ميد) . على الصعيد الفني فإنه لم يكن من المفروض ان أقوم بزيارة وكالة الأمن القومي دون أن يرافقني أحد ما من قيادة الاتصالات الحكومية ، ولذلك فانهم أخذوني الى ممر جانبي ، وتوجهنا بسرعة الـى مكتب (تورديلا) الواقع في الطابق العلوي . تناولنا طعام الغذاء معاً هناك ، وسردت قصة (لونسدال) للمرة الثالثة .

أخيراً سألني (تورديلا) كيف يمكنه ان يقدم المساعدة ، وأوضحت له ان نقطة الضعف الأساسية تتمثل في أن قيادة الاتصالات الحكومية لا تمتلك الغطاء الكافي لعمليات الاتصال اللاسلكي علـى الرغم مـن كل ما قدمتـه فـي مجال اختراق وتصنيف الاتصالات غير الشرعية الواردة مـن (موسكو) . كانت هناك تحسينات جوهرية قد طرأت منذ قضية (لونسدال) لكن كان لدينا في الواقع ما بين اثني عشر الى خمسة عشر موقعاً لاسلكياً لاعتراض هذه الاشارات الواردة ، الامر الذي يعني اننا فقط نقوم باختبارها عن طريق أخذ عينات منها لتحديدها . وقد كنا بحاجة الى ٩٠ ٪ على الأقل من المخصصات لاحراز تقدم فعلي في مجال التصنيفات . وقد دهش (تورديلا) من الامكانيات التي طلبتها ، ووافق على ان يضمن لنا مخصصات بنسبة ١٠٠ ٪ في كافة أنحاء العالم ، ولمدة سنتين على الأقل . وكان صادقاً في وعده ، وسرعان ما عادت المعلومات الاستخباراتية تتدفق على قيادة الاتصالات الحكومية ، حيث كانت تحول الى القسم المخصص لدعم لجنة (المجموعة المضادة) حيث كان يقوم محلل شيفرة شاب يدعى (بيتر ماريشيرش – هو الآن مدير قيادة الاتصالات الحكومية) بتحويل تصنيفاتي المكتوبة بخط اليد المرهق ، من خلال معالجة آلاف الاتصالات اللاسلكية الواردة بواسطة اجهزة الكمبيوتر واستخدام " تحليلات المجموعات " الى مجموعات متشابهة تجعل التصنيفات اكثر دقة . وخلال بضع سنوات أصبح هذا العمل واحداً من أهم معدات التجسس المضاد التي

يستعملها الغرب .

في طريق العودة الى (واشنطن) كنت مبتهجاً ، ليس لأن زيارتي اليها قد أمنت الدعم الامريكي لتقنية (انغولف) التي ستقوم بها لجنة عمليات الاتصالات فقط ، وانما لأنني حصلت منهم على تعهد بقيامهم بالاشراف على جانب التجسس المضاد ، ايضاً.وكنت على وشك أن أنسى ما حدث بيني وبين (هارفي) الى أن أعاد (انغلتون) طرح الموضوع مرة ثانية حينما قال :

" ان هارفي يريد رؤيتك ثانية " وأبديت دهشتي ، غير انه تابع قائلاً :

" لا ..لا ، انه يطلب مشورتك . انه يواجه مشكلة في كوبا ، وقد أخبرته أن من المحتمل ان تكون قادراً على تقديم المساعدة له " .

" ولكن ماذا عن تلك الليلة ؟ " سألته ، فأجاب :

" أوه ، لا تهتم بذلك . لقد كان يريد ان يعرف فيما اذا كنت أهلاً للثقة أم لا ، وقد نجحت في الامتحان " .

كان (انغلتون) نموذجاً للانسان الاهليليجي ، وقد رفض أن يوضح المزيد قائلاً انه اتخذ الترتيبات كي نتناول طعام الغذاء مع (هارفي) بعد يومين ، وان بامكاني أن أفكر بذلك الأمر حتى يحين الموعد .

اما عام ١٩٦١ فقد بلغ فيه هوس (السي آي ايه) تجاه كوبا ذروته ، اذ ان عملية الغزو التي قامت بها الولايات المتحدة الامريكية في خليج الخنازير قد أخفقت وكنت أنا و (انغلتون) نناقش هذه القضية باستمرار ، سيما وانني قد شاركت بشكل فعال في حملة العصيان المضاد التي نظمتها (م آي ٥) ضد زعيم عصابات القبارصة اليونان الكولونيل (غريفاس) خلال سنوات الخمسينات . حينما زرت (واشنطن) عام ١٩٥٩ طلب مني (ريتشارد هيلمز) و (ريتشارد بيسيل) – المسؤولان عن العمليات في جنوب شرق آسيا – القاء محاضرة عن تجاربي أمام مجموعة من كبارالضباط المعنيين بعمليات العصيان المضاد . وحتى تلك الفترة ، كان من الواضح ان (السي آي ايه) كانت لديها مخططاتها في كوبا ، حيث كان (فيديل كاسترو) منهمكاً في تأسيس دولة شيوعية . وبالتالي ، فان (بيسيل) اضطلع بمسؤولية الاشراف على عملية خليج الخنازير ، وحينما فشلت العملية كان من الواضح للجميع في (واشنطن) ان أيامه أصبحت معدودة مع بدء (كندي) عملية تطهير ضد جميع اولئك المسؤولين عن الفشل في كوبا .

حينما وصلت الى المطعم بعد مرور يومين على دعوة (انغلتون) وقف (هارفي) ليحييني وصافحني بحرارة . كان يبدو ضئيلاً ، وأقل غروراً مما كان عليه عادة . ولم يشر الى أحداث الليلتين السابقتين . كان رجلاً صعب المراس لا يتعامل – ولايتوقع منه ذلك – بهوادة . وقد أخبرني انه كان

يقوم بدراسة المسألة الكويتية ، ويريد ان يستمع مني عن الحملة القبرصية ، اذ قال دون أن يكون في كلامه شيء من السخرية :

" لقد فاتني تقريرك عام ١٩٥٩ " .

لقد بدأت العمل في قبرص بعد مرور فترة قصيرة على انضمامي الى (م آي ٥) حينما أرسل لي مديرالفرع الخاص بشؤون المستعمرات (بيل ماغان) بعض الاوراق المتعلقة بالوضع الآخذ بالتوتر . فقد كان الاسقف القبرصي اليوناني (مكاريوس) يقود حملة نشيطة من أجل الحصول على الاستقلال التام ، ويؤيده في ذلك كل من الحكومة اليونانية والحزب الشيوعي (أخيل) و (ايوكا -جيش الفدائيين الذي يقوده الكولونيل غريفاس) . اما بريطانيا التي كانت تواقة الى الاحتفاظ بقبرص كقاعدة عسكرية ، فقد كانت تعارض ذلك . ومع حلول عام ١٩٥٦ أعلنت حالة الطوارىء العسكرية ، وتم زرع اربعين الف جندي بريطاني في مواجهة بضع مئات من مقاتلي (غريفاس) .

وبحق ، فقد كانت السياسة التي اتبعتها بريطانيا في قبرص بمثابة كارثة شاملة اذ ان وزارة المستعمرات كانت تحاول السعي الى مفاوضات سياسة ، في وضع أمني منهار ، معتمدة على الجيش في حفظ النظام . اما (غريفاس) فقد كان يُراد له أن يتم التعرف على مكانه ، وعزله ، وتحييده قبل البدء في المفاوضات السياسية . ولكن على الرغم من ان الجيش شن عمليات بحث واسعة ومكثفة ، الا انه أخفق في العثور عليه . وقد كنت مقتنعاً – من خلال دراسة أوراق القضية – ان باستطاعة (م آي ٥) القيام بدور أفضل كثيراً مما يقوم به الجيش ، واخبرت (ماغان) انني مقتنع – مع شيء من الوقت – ان باستطاعتنا التعرف على مكان (غريفاس) بدقة من خلال تتبع اتصالاته ، وبنفس الطريقة التي رسمتها لهجماتنا ضد الروس .

وعلى الفور اصطحبني (ماغان) الى (السّير جيرالد تمبلار) الذي كان قد قاد حملة عصيان مضاد في (الملايا) وتكللت بالنجاح ، كما كان يؤيد بشدة قضية استخدام الاستخبارات لحل مشاكل المستعمرات . وقد كان (تمبلار) متحمساً لخطتي ، وأبدى موافقة على التحدث الى وزارة المستعمرات نيابة عن (م آي ٥) لكن هذه الوزارة بقيت متعنتة في موقفها ، اذ انها كانت تريد أن تنتهج سياستها الأمنية الخاصة بها ، ولا ترغب باشراك (م آي ٥) . وحتى داخل أوساط (م آي ٥) نفسها ، فانه لم يكن هناك حماس كبير كي يتورط هذا الجهاز في وضع كانت عدم امكانية ايجاد حل له تتنامى بسرعة . وكان (هوليس) على وجه الخصوص يعارض انخراطنا في قضايا المستعمرات دون أن تقوم وزارة المستعمرات بطلب ذلك منا بشكل واضح . وكان موقفه يتمثل في ان (م آي ٥) هي جهاز محلي ، وان كل ما يمكن القيام به هو تزويد الجيش بضابط ارتباط دفاعي لتقديم المشورة الى الجيش فقط .

في عام ١٩٥٨ صعّد (غريفاس) من حملات رجاله في محاولة منه لاحباط المساعي الرامية الى تحقيق حل سياسي من قبل الحاكم الجديد (السير هيو فوت) فشن الجيش حملة تفتيش مكثفة أخرى عن (غريفاس) في منطقة جبال (بافوس) . غير انه (غريفاس) تمكن من الافلات من الطوق الذي ضرب حوله للمرة الثانية . واستمر (فوت) بالضغط من أجل تحقيق حل سياسي ، غير انه وافق على استدعاء (م آي ٥) حينما أخذ الوضع يتدهور بسرعة . ومنذ البداية كنا في سباق : هل سنتمكن من العثور على (غريفاس) قبل ان تتمكن وزارة المستعمرات من عقد صفقة آيلة للتداعي ؟ كان (ماغان) مقتنعاً بانه يجب ان تكون بعض المعلومات الاستخباراتية الكافية عن مكان (غريفاس) موجودة في ملفات (الفرع الخاص) المحلي ، وانه لم يتم تحليلها بشكل صحيح . وكانت المشكلة تكمن في كيفية الحصول عليها ، خاصة وان (ايوكا) قد اخترقت (الفرع الخاص) المحلي بشكل شامل ، وان عملية دراسة الملفات ستكون مهمة خطرة حينما تصبح هوية رجل (م آي ٥) معروفة . وكان أحد ضباطها قد قتل رمياً بالرصاص في أحد شوارع (نيقوسيا) .

وكان (ماغان) رجلاً غير عادي ، قضى شطراً كبيراً من الوقت في الجبهة الشمالية الغربية وكذلك في بلاد فارس ، فأقام مع سكان تلك المناطق في الخيام ، يتكلم لغتهم ، ويطبخ طعامه على النيران التي تشتعل بواسطة روث البقر . وقد عرف منذ البداية مخاطر الارهاب . وبدلاً من ان يرسل الضباط الصغار في المهمات الخطرة فانه أصر على ان يذهب بنفسه ، متمتعاً بدعم وتأييد ضابط الارتباط القبرصي المحلي الكولونيل (فيليب كيربي غرين) وهو ضابط عسكري ، طويل القامة يمتاز بشجاعة مطلقة ، وسداد الرأي ، كما انه يقوم بممارسة الرسم في اوقات فراغه . وكان عليّ ان أعمل في وقت لاحق في تخطيط وتنفيذ الجانب الفني من العملية ، والتي اطلقنا عليها اسم (سنشاين) .

ويبدو انه من غير اللائق ان نقول ان عملية (سنشاين) كانت عملية اغتيال رغم انها كانت ستبلـــغ نفس الهدف . وكانت الخطة بسيطة : تحديد مكان (غريفاس) ثم احضار عدد كبير من الجنود . كنا نعلم انه لن يستسلم أبداً ، وانه سيموت أثناء تبادل أطلاق النار على غرار ما حدث لاثنين من ضباطه الموثوق بهم اللذين حاصرهم الجيش في وقت سابق .

وصلت الى (نيقوسيا) في السابع عشر من شهر كانون الاول عام ١٩٥٩ ، وتوجهت الى (الفرع الخاص) المحلي لدراسة تحليلات (ماغان) للملفات . كانت الحملة التي يقوم بها (غريفاس) منظمة بشكل جيد ، وهذا ما كان واضحاً . فقد كانت هناك أمثلة عديدة على الغارات الارهابية المنسقة بشكل جيد ، وعلى أعمال الشغب المدنية ، على امتداد الجزيرة كلها ، الأمر الذي يعني انه كان على اتصال مستمر مع ضباط الميدان التابعين له . اما احتمال ان تكون (ايوكا) تقوم باستخدام الهاتف او نظام البريد فقد كان بعيداً ، على الرغم من معرفتها بأن هذين النظامين مخترقان ، وكانت

الاتصالات تتم بالاعتماد على نظام السعاة ، ومن خلال دراسة الملفات كان واضحاً ان هؤلاء السعاة هم من النساء بشكل اساسي ، يقمن بالسفر والتنقل عبر وسائل النقل العامة ، وقمنـا بوضع نقاط للمراقبة والتنصت ، فتبين ان مدينة (ليماسول) هي محور شبكة اتصالات (ايوكا) . كما وضعنا ايضاً بعض مراكز المراقبة في قريتي (بيراسا) و (بولوديا) اللتين تبعدان عدة أميال عن (ليماسول) . اما أفضل الفرضيات التي وضعناها فتمثلت في ان (غريفاس) يحتفظ بمقرات له في كل من هاتين القريتين .

كانت الخطوة الاولى تتمثل في وضع هواتف قصر (مكاريوس) تحت المراقبة . وكنا على ثقة من ان (مكاريوس) ومن المحتمل كذلك (ايوكا) يقومون – في اوقات معينة – باستخدام الخط الهاتفي لاعتقادهم ان جواسيسهم في مكتب البريد سيقومون بتحذيرهم تلقائياً الى وجود مراقبة على خطوط الهاتف .

ولذلك ، قررنا ان نقوم بوضع جهاز مراقبة مخفي على أحد الكابلات العالية التي تتصل بالقصر ، مستخدمين جهاز ارسال لاسلكي يتم تزويده بالطاقة من الدارة الهاتفية حتى يقوم بارسال الاشارة الى جهاز الاستقبال الخاص بنا ، الموجود على بعد ميل أو اثنين . وقد أتى لمساعدتي افضل الفنيين العاملين في (م آي ٦) وهو (جون وايك) الذي كان قد قام بزرع أجهزة التنصت داخل نفق برلين ، حيث كانت أقدام رجال الاستخبارات السوفييتية فوق رأسه ببضع إنشات . كانت العملية محفوفة بالمخاطر وكان عليه أن يتسلق في حلكة الليل عامود الهاتف ، وبشكل مكشوف وواضح في الطريق الذي كانت تسير فيه بشكل مستمر دوريات الحرس الخاص بـ (مكاريوس) ورجال (ايوكا) . وقام بحفر فتحة في أعلى العامود كي يقوم بأخفاء الاجهزة الالكترونية داخلها ، ثم قام بعملية وصل الاجهزة بسلك الهاتف بشكل مخفي . اما عند نهاية العمود من جهة الارض ، فقد كنت أقوم بالتقاط الادوات التي يحتاجها ، ومن ثم ارفعها اليه . وكنا – كل خمس دقائق – نتجمد في اماكننا كلما مرت دورية ، متوقعين ان نسمع صوت اطلاق نيران البنادق علينا في أي لحظة . وبعد مرور ساعتين ، وبعد ان أرهقت أعصابنا ، تم زرع جهاز التنصت بنجاح ، حيث منحنا ذلك تغطية رئيسية جوهرية لـ (مكاريوس) .

لكن الهدف الحقيقي لعملية (سنشاين) كان العثور على (غريفاس) . وكنت على ثقة من انه يستخدم أجهزة الاستقبال اللاسلكي لمراقبة اتصالات الجيش البريطاني ، الامر الذي يمكنه من خلاله ان يعرف – في كل مرة – ان هناك حملة للبحث عنه . وقررت شن هجوم في اتجاهين : تمثلت المرحلة الأولى في عملية بحث مكثف عن الهوائي الذي يستخدمه لجهاز الاستقبال الذي بحوزته . اما المرحلة الثانية فقد تلخصت بقيامي – في الوقت نفسه – بالتخطيط لزرع جهاز استقبال لاسلكي على الهوائي

ويحتوي على مرشد لاسلكي ، يقودنا اليه مباشرة . وكنا نعرف ان (غريفاس) قد حصل على جزء كبير من معداته العسكرية من المصريين الذين كانوا يقومون ببيع المعدات البريطانية التي صادروها بعد حرب السويس ، وبأسعار متدنية جداً . وقامت (م آي ٥) بتجنيد تاجر أسلحة قبرصي يوناني قام بشراء بضاعة تحتوي على أجهزة استقبال لاسلكية من مصر ، حيث قمت بتعديلها بشكل يمكن ان يوضع داخلها مرشد لاسلكي ، وبدأنا محاولاتنا لادخالها الى مقرات قيادة (غريفاس) .

سار الجزء الاول من عملية (سنشاين) على ما يرام . وقمت أنا و (ماغان) و (ك . غ – وهو اختصار لاسم كيربي غرين ، والذي كان يعرف به داخل الجهاز) بسلسلة من الجولات الاستطلاعية في ساعات الصباح الباكر في منطقة (ليماسول) بحثاً عن الهوائي . كان تسكعنا عبر الشوارع الفرعية غير المعبدة ، وعبر ساحات الاسواق التي لوحتها الشمس متظاهرين بأننا زوار عابرون ، كان ذلك امراً في غاية الخطورة . وكان الرجال المسنون الجالسون تحت ظلال الأماليد ينظرون الينا حين نمر بهم . اما عيون الاولاد فقد كانت ترمقنا بالشكوك ، وتختفي عبر الأزقة . وأحسست ان العرق كان ينساب على امتداد سلسلة ظهري ، اذ كان احساس غريب يراودني بان ثمة بندقية غير مرئية مصوبة باتجاهي دائماً من مكان ما خلف الاسطح المصنوعة من الطين والجدران القديمة المبنية من حجر الصوان .

في قرية (بيراسا) لاحظت وجود مسمار ضخم يعلو قمة سطح هرمي الشكل يعود لاحدى الكنائــس . كان يبدو للوهلة الأولى وكأنه مانعة صواعق مركبة على عازل كهربائي يمــر من خلال السقف . وكان هناك ايضاً شريط معدني ينغرس داخل الارض . لكنني حينما تأملت في مانعة الصواعق بدقة من خلال المنظار ، تمكنت من رؤية ان ذلك الشريط المعدني منفصل عن ذلك المسمار الضخم ، الذي كان من الواضح انه قد تم تعديله ليقوم بوظيفة الهوائي . وبحماقة اكثر ، حاولنا الاقتراب ، ومن حيث لا ندري ، ظهرت أمامنا جمهرة مــن الاطفال الغاضبين ، وبدأوا يرشقوننا بالحجارة ، فأسرعنا بالتراجع ، وسلكنا طريقاً باتجاه (بولوديا) حيث كان هناك وضع مماثل . وعند ذاك تأكد لي ان تحديدنا للقريتين على أنهما مركز عمليات (غريفاس) كان صحيحاً .

وبدأت أعمل بشكل محموم في مجال المرشد اللاسلكي، وقدرنا ان عملية (سنشاين) ستستغرق مدة ستة شهور حتى يتم انجازها . لكن الذي حدث هو أننا حينما بدأنا العمل باقصى سرعة في شهر شباط عام ١٩٥٩ ، كانت وزارة المستعمرات قد أنجزت بسرعة تسوية للمشكلة القبرصية من خلال المؤتمر الدستوري الذي عقد في (لانكستر هاوس) وهكذا فقد تم سحب البساط – تقريباً – من تحت أقدامنا ، فالغيت عملية (سنشاين) كلها بين عشية وضحاها . كان (ماغان) يفور من الغضب وخاصة حينما ظهر (غريفاس) فــي المنطقة التي كنا قــد تنبأنا بوجوده فيها ، وتمكن من الهروب الى اليونان ، ليستعد من هناك مــن أجل الاستمرار في عملية بسط نفوذه المشؤوم على الجزيرة . وقد شعر

(ماغان) ان التسوية في أحسن الاحوال هي تسوية مؤقتة ، لأن بعض المشاكل المعلقة قد حلت فقط ، وحسب وجهة نظره ، فان المنافع قصيرة الأمد التي حصلت عليها وزارة المستعمرات سوف تقود الى حالة من الشقاء والالم طويلة الأجل . وقد ثبت انه محق في ذلك .

قبل مغادرتنا لقبرص بوقت قصير ، كان لنا : أنا و (ماغان) لقاء متوتر مع الحاكم (السير هيو فوت) الذي كان يشعر بالسعادة لأنه – على الاقل – أصبح يشعر بالتحرر أخيراً . وأوضح انه كان باستمرار يرى ان عملية (سنشاين) هي بمثابة الملجأ الأخير ، وانه لا يمكن تنفيذها الاّ في حالة اخفاق الجهود الدبلوماسية فقط . وكان يبدو انه لا يستطيع ان يتفهم حقيقة انه من أجل ان تكون أجهزة الاستخبارات فعالة فانها يجب ان تكون مندمجة في الدبلوماسية منذ البداية . وحينما أستذكر ما حدث ، يزداد يقيني بأنه لو سمح لنا بتنفيذ عملية (سنشاين) حينما سعينا من أجلها منذ البداية في عام ١٩٥٦ لاستطعنا تحييد (غريفاس) منذ البداية ، الأمر الذي سيعطي وزارة المستعمرات امكانية فرض شروطها على (ايوكا) من أجل تحقيق السلام لا العكس ، وبالتالي ، فان تاريخ تلك الجزيرة المأساوية – لكن الجميلة – كان يمكن ان يكون له مجرى مختلف خلال الثلاثين سنة الماضية .

وقد تركت سلسلة الاحداث التي وقعت في قبرص اثراً دائماً على سياسة الاستيطان البريطانية . ان قيام بريطانيا بمنح الاستقلال لمستعمراتها يكون اكثر نجاحاً حينما تقوم أولاً بالحاق الهزيمة بحركات التمرد العسكري من خلال استخدام الاستخبارات اكثر من استخدام القوة المسلحة ، وقبل مناقشة الحل السياسي المرتكز على القيادة السياسية لحركة التمرد المهزومة ، ومن خلال قوة السلاح البريطانية لحماية الحكومة التي يتم تنصيبها . وهذا ما حدث فعلاً في (الملايا) و (كينيا) إذ بقي هذان البلدان في حالة سليمة .

لقد كانت المشكلة الأساسية تتمثل في كيفية انهاء السلطة الاستعمارية ، في حين ان هناك ما يؤكد ان القوى العسكرية المحلية لم تتمكن من ملء الفراغ . وبكلمات أخرى ، كيف يمكنك ايجاد طبقة سياسية محلية مستقرة . وكانت وزارة المستعمرات متمكنة من النماذج الديمقراطية الاكاديمية المعقدة : دستور هنا ، وبرلمان هناك ، والتي كان بعضها يحظى بأضأل حظ من النجاح . بعد التجربة القبرصية كتبت ورقة عمل وقدمتها الى (هوليس) صورت فيها وجهة نظري ، وقلت : انه يجب علينا ان نتبنى النموذج البلشفي لأنه هو النموذج الوحيد فقط الذي حظي بالنجاح . فقد فهم (لينين) واكثر من أي شخص آخر كيفية السيطرة على البلاد ، وبنفس الأهمية كيفية الحفاظ عليها . لقد اعتقد (لينين) ان على الطبقة السياسية أن تسيطر على الناس بقوة السلاح وبجهاز الاستخبارات ، وبواسطة هاتين الوسيلتين يمكنه أن يضمن ان لا الجيش ولا اي طبقة سياسية سوف تتطلع الى السلطة .

ان (فيلكس دجرجنسكي) مؤسس جهاز الاستخبارات الروسي الحديث قد عمل من قبل على

تأسيس (شيكا – جهاز الاستخبارات الذي كان موجوداً قبل قيام جهاز ك ج ب) وقد كانت هذه الاهداف تعتمل في ذهنه . فقد أسس ثلاث مديريات رئيسية : المديرية الرئيسية الاولى – وهي مختصة بالعمل ضد اولئك الاشخاص الموجودين في الخارج الذين يمكن ان يقوموا بحياكة المؤمرات ضد الحكومة . وكانت المديرية الرئيسية الثانية تعمل ضد اولئك الاشخاص الذين يحتمل ان يقوموا بالتآمر ضد الحكومة داخل الاتحاد السوفييتي ، وكانت المديرية الرئيسية الثالثة تعمل على اختراق القوات المسلحة لضمان عدم امكانية التآمر للقيام بانقلاب عسكري .

وقد قوبلت ورقة العمل التي تقدمت بها بالهلع والذعر من قبل (هوليس) وبقية مدراء (م آي ٥) وقالوا لي : ان ورقة العمل هذه " مثيرة للسخرية " ولم يتم حتى ارسالها الى وزارة المستعمرات . ولكن من خلال الرجوع الى الوراء – عبر الربع الأخير من هذا القرن – يتبين انه أينما تم تطبيق مبادىء (لينين) وذلك في الدول التي تأسست حديثاً ، فان الديكتاتوريات العسكرية تم تجنبها .

وتمت مناقشة هذه الافكار بعنف من قبل (السي آي ايه) حينما القيت عليهم محاضرتي عام ١٩٥٩ . وقد أخبرني (هيلمز) بصراحة انني أعمل على تكريس الشيوعية لدى دول العالم الثالث ، وكان يشعر ان لدينا ميزة استخباراتية حاسمة تنقصهم : فنحن السلطة الاستعمارية المقيمة ، في حين انهم لم يكونوا كذلك حينما كانوا يواجهون المتمردين في (كوبا) وفي الشرق الاقصى ، وبناء عليه فانهم أحسّوا ان السياسة الوحيدة التي يمكنهم اتباعها كانت الحل العسكري ، وهذا التفكير هو الذي قاد الولايات المتحدة الامريكية في النهاية الى حرب فيتنام .

وبشكل مباشر اكثر ، فان هذا التفكير قادهم الى (خليج الخنازير) وبعد مرور سنتين على ذلك ، وحينما استمع (هارفي) الى تجربتي القبرصية صدم من هذا التطابق بين المشكلتين : فكلتاهما جزيرتان صغيرتان ، وفيهما عصابة مسلحة يقودها زعيم موهوب . وكانت الصدمة الاكبر على وجه الخصوص حينما طرحت وجهة نظري من ان (ايوكا) كانت ستنهار دون وجود (غريفاس) فسألني :

"ماذا يمكن للبريطانيين أن يعملوا في كوبا ؟ " .

كنت أشعر بالقلق من امكانية الانجرار الى القضية الكوبية وقد تباحثت مع (هوليس) حولها . قبل حضوري الى (واشنطن) ، ولم يخف وجهة نظره بأن (السي آي ايه) قد ارتكبت العديد من الاخطاء الفادحة في منطقة البحر الكاريبي . وكان يشعر انه يجب الابتعاد عن هذا الموضوع قدر الامكان . كنت أخشى من انه اذا ما قمت بتقديم مقترحات الى كل من (انغلتون) و (هارفي) فانني سأجد بسرعة ان (السي آي ايه) ستقوم بنشرها في أنحاء (واشنطن) على انها وجهة نظر بريطانيا حول ما يجري ، وسرعان ما يصل الأمر الى (ليكونفيلد هاوس) ولذلك ، فانني أوضحت لهم انني أتحدث اليهم من خلال تجربتي الشخصية فقلت : ان علينا ان نحاول العمل على تطوير ما يمكن تسميته

بمصدر قوة لنا هناك كايجاد قيادات سياسية بديلة ، أو أي شيء من هذا القبيل .

قال (هارفي) وقد نفد صبره :" لقد فعلنا كل ذلك ... ولكنهم كلهم موجودون في فلوريدا . فمنذ عملية خليج الخنازير فقدنا - في الواقع - كل شيء في الداخل " .

وبدأ (هارفي) يحاول اصطياد شيء ما ليرى فيما اذا كنت أعرف إن كان لدينا في هذا المجال شيء على ضوء التواجد الاستعماري البريطاني في منطقة البحر الكاريبي ، فقلت له :

"انني أشك في ذلك .. فالقرار في لندن هو الابتعاد عن قضية كوبا ...ربما كانت (م آي ٦) تمتلك شيئاً من هذا ، ولكن عليكم التأكد من هذا الأمر معهم " .

سألني (انغلتون) : " كيف يمكنكم معالجة موضوع (كاسترو) ؟ " فأجبته :

" نعزله عن الناس ، ونجعل الناس ينقلبون ضده " . وسألني (هارفي) مقاطعاً :

" هل تعمدون الى قتله ؟ " .

وتوقفت كي أطوي منديلي ، في حين كان الندل يتنقلون بصمت من طاولة الى أخرى . وها أنا قد أيقنت الآن لماذا كان (هارفي) يريد معرفة فيما اذا كنت أهلاً للثقة فأجبته :

" اننا نمتلك امكانية القيام بذلك بالتأكيد ، ولكنني أشك في ان نقوم باستخدامها هذه الأيام " .

" ولم لا ؟ "

" لسنا بحاجة الى المزيد يا (بيل) فقد خرجنا من هذا المأزق قبل سنتين ، أي بعد حرب السويس " .

في بداية أزمة السويس ، عملت (م آي ٦) على تطوير خطة - من خلال محطة (لندن) - لاغتيال (جمال عبد الناصر) بواسطة غاز الاعصاب . وقد أعطى (إيدن) موافقته المبدئية على العملية ، الاّ انه عاد وتخلى عنها حينما حصل على موافقة فرنسا واسرائيل على الانضمام الى عمل عسكري مشترك . وحينما فشلت هذه العملية ، واضطر الى الانسحاب ، عاد (إيدن) الى احياء خيار الاغتيال ثانية . في هذا الوقت بالذات كانت كل مصادر القوة التابعة لشعبة (م آي ٦) في مصر قد تمت محاصرتها من قبل (عبد الناصر) وتم رسم خطة جديدة عن طريق استخدام الضباط المصريين المنشقين . وفشلت هذه الخطة ايضاً بشكل كبير لسبب أساسي تمثل في ان المكان الذي كانت الاسلحة مخبأة فيه في ضواحي القاهرة كان فيه خلل فني أدى الى اعطاب الاسلحة .

وسألني (هارفي) :

" وهل كانت لك علاقة بذلك ؟ "

فقلت بصدق :

" من الخارج فقط ... وفيما يتعلق بالجانب الفني فقط " .

وأوضحت له ان كلاً من (جون هنري) و (بيتر ديكسون) قد استشاراني حول الخطة ، فهما من ضباط الجهاز الفني في (م آي ٦) من محطة (لندن) ، وكانا المسؤولين عن رسم الخطة . فقد حضرت أنا و (ديكسون) و (هنري) اجتماعاًمشتركاً لشعبتي (م آي ٥) و (م آي ٦) من أجل مناقشة بحث فني يخص جهازي الاستخبارات . وقد عقد الاجتماع في مختبر (بورتون داون) وهو تابع لمؤسسة بحوث الاسلحة الكيماوية والجرثومية الخاصة بالحكومة . كان مجال البحوث الكيماوية مجالاً نشطاً خلال سنوات الخمسينات . وكنت أتعاون مع (م آي ٦) في برنامج مشترك لدراسة الى اي مدى يمكن لنا الاستفادة من استخدام حبوب عقار الهلوسة (ل س د) في عمليات الاستجواب . وبدأت سلسلة من التجارب المكثفة في (بورتون) بل انني تطوعت كي أكون في احدى المرات حقل تجارب . وكانت كل من (م آي ٥) و (م آي ٦) تريدان أيضاً معرفة الكثير عن السموم المتقدمة التي تم تطويرهــا آنــذاك في (بورتون) على الرغم من اختلاف الدوافع . فقد كنت أريد استخدام الترياق – فـي حالـة استخـدام (موسكو) السمـوم ضـد أحـد الهاربين منها في بريطانيا – في حـين ان (م آي ٦) كانت تريد استخدام السموم في عمليات تقوم بها في الخارج .

وبحث معي كل من (هنري) و (ديكسون) موضوع استخدام السموم ضد (عبدالناصر) وطلبا مشورتي . من الواضح ان غاز الاعصاب هو أفضل وسيلة لانه يمكن التحكم فيه بسهولة . وقد أخبراني ان محطة (لندن) لديها عميل في مصر يمتلك حرية محدودة للوصول الى أحد مقرات (عبد الناصر) . وكانت خطتهم تتمثل في وضع عبوات صغيرة من غاز الاعصاب داخل نظام التهوية ، لكنني أوضحت لهم ان هذا الأمر يتطلب استخدام كميات كبيرة من الغاز إضافة الى انه سيسبب حالات وفاة جماعية بين أوساط موظفي (عبد الناصر) . كانت هذه العملية نموذجاً لعمليات (م آي ٦) المألوفة – غير الواقعية والتي لا أمل فيها – حتى انني لم أدهش كثيراً حينما أخبرني (هنري) فيما بعد ان (إيدن) تراجع عن العملية . فقد كانت فرص بقائها بعيدة عن الشجب والادانة أقل بكثير مما كان عليه الوضع في عملية (بوستر كراب) .

وسألني (انغلتون) و (هارفي) بدقة عن كل تفصيلات عملية السويس . قال لي (هارفي) موضحاً ذلك :

" اننــا نعمل في الشركة على تطوير كفاءات جديدة للسيطرة على مثل هذه الانواع من المشاكل ... ونحن نبحث في السوق عن الخبراء الضروريين في هذا المجال " . كلما أصبح (هنري) جاداً في حديثه كلما انخفض صوته ، واتخذ نغمة رتيبة ، ومملة ، وأصبحت كلماته أقرب الى رطانة البيروقراطية المختنقة المحببة لدى الرسميين في (واشنطن) . وشرح بشكل يبعث على الملل انه بحاجة الى عناصر يمكن بسهولة انكار معرفته بهم ، وكذلك تسهيلات فنية مطورة ، وبلغة (هارفي) الى " آليات

التسليم " . وكانوا مهتمين على وجه الخصوص بفريق (ساس) اذ ان (هارفي) كان يعرف أن (ساس) قد عملت عند الحدود السوفييتية خلال سنوات الخمسينات ، وهي تتعقب اشارات الصواريخ الروسية مستخدمين في ذلك أجهزة الاستقبال المحمولة قبل بزوغ فجر الاقمار الصناعية ، وكانت لديهم تعليمات بأن لا يلقى القبض عليهم حتى ولو كان ذلك يعني خوض معركة من أجل خروجهم من المشكلة بسلام . قلت مخاطباً (بيل) :

" انهم ليسوا أحراراً يا (بيل) وهم الآن متقاعدون ، ولكن عليك ان تبحث هذا الأمر مع م آي ٦ " .

بدا (هارفي) ساخطاً كأنني تعمدت أن لا أقدم له المساعدة ، فسألته :

"هل خطر ببالك الاتصال مع (ستيفنسون) ؟ كثير من الرجال القدماء يقولون انه كان يشرف على مثل هذه الاشياء في نيويورك خلال الحرب . لقد استخدم بعض الايطاليين حينما لم تكن هناك وسيلة أخرى لتأمين جاسوس بحري ألماني . ربما كانت المافيا ، حسب معلوماتي ...." .

كتب (انغلتون) المعلومات في دفتر ملاحظاته ، ونظر اليّ نظرة جامدة ، ثم سألته بمرح :

" وماذا عن الفرنسيين ، هل حاولتم تجربتهم ؟ يبدو ان هذا نموذجهم في مثل هذه الأمور ، الجزائر مثلاً وغيرها " . وللمرة الثانية دون هذه الملحوظة في دفتره . ثم سألني :

" ماذا عن الجانب الفني ؟ هل لديكم معدات خاصة ؟ " .

أخبرته انه بعد التخلي عن خطة عبوات الغاز بدأت (م آي ٦) البحث عن بعض الاسلحة الجديدة . في احدى المناسبات ذهبت الى (بورتون) لحضور عرض علبة دخان تم تعديلها من قبل مؤسسة بحوث وتطوير المتفجرات بحيث يمكن لهذه العلبة ان تطلق سهماً محشواً بالسموم . ارتدينا مرابيل بيضاء - بكل رزانة و وقار - وخرجنا الى احدى حظائر الحيوانات الموجودة خلف (بورتون) . اصطحبنا في هذه العملية الدكتور (لادل) الذي يعمل هناك بصفة عالم ، ويشرف على كافة أعمال (م آي ٥) و (م آي ٦) . تم احضار نعجة الى منتصف الساحة ، وقد ازيل الوبر عن أحد كشحيها حتى بدا جلدها القرنفلي الخشن . وقام مساعد (لادل) بسحب علبة السجائر ، ومن ثم صوب باتجاه النعجة . أجفلت النعجة ، غير انها كانت مربوطة ، و اعتقدت ان الجهاز ربما أخطأ الهدف . الا ان ركبتي النعجة بدأتا تتلويان ، في حين أخذت عيناها تدوران ، وأخذ الزبد يطفو حول فمها . وشيئاً فشيئاً أخذت النعجة بالسقوط على الارض لافظة أنفاسها ، في حين أخذ المحترفون الذين يرتدون المرابيل البيضاء بمناقشة فوائد مادة التوكسين الجديدة من خلال جثة النعجة . كانت تلك هي المرة الوحيدة ، طوال حياتي ، التي تنازعتني فيها عاطفتان : الاولى تجاه الحيوان ، و الثانية تجاه الاستخبارات ، وأدركت من خلال هذه التجربة ان عاطفتي تجاه الحيوان هي الأقوى . كما أدركت

ايضاً – وقتذاك – أن الاغتيال ليس اسلوبا لتحقيق السلام .

بعد ذلك أحسست انه ليس لدي الكثير مما يمكن ان اقدمه لمساعدة كل من (هارفي) و (انغلتون) و بدأت أحس انني أخبرتهم باكثر مما يجب . اما مشهد دفتر الملاحظات الخاص بـ (انغلتون) فلم يعد يثير أعصابي . وكان يبدو انهما مصممان ، بل ومقتنعان ، ان هذه هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع (كاسترو) . وشيئاً فشيئاً أوضحت لهما انني لا أستطيع مساعدتهما . قلت حينما غادرنا المطعم ، ووقفنا في الطريق للوداع اذ كنت سأعود الى (لندن) في اليوم التالي :

" تكلما مع (جون هنري) أو مع (ديكسون) فلربما كانا يعرفان اكثر مني " .

وسألني (هارفي) فجأة :

" لن تضن علينا بذلك الشيء ، أليس كذلك ؟ " . كان قراب مسدسه يبدو ظاهراً مرة ثانية من تحت سترته . وبامكاني القول انه كان يفكر بـ (رافتر) .

أشرت الى سيارة أجرة ، وقلت :

" لقد أخبرتك يا (بيل) اننا خارج هذه اللعبة . اننا الشريك الاصغر في التحالف ، ألا تذكر ؟ انها مسؤوليتك الآن " .

لم يكن (هارفي) من نوع الرجال الذين يضحكون للنكتة ، وكذلك الأمر بالنسبة لـ (انغلتون) حينما وصل الأمر الى هذا الحد .

١٢

العام هو ١٩٦٣ . كان الناس في شوارع (لندن) لا زالوا يقولون انهم لم يشعروا ابداً آن الحياة كانت جيدة بمثل ما هي عليه وقتها ، بينما في (واشنطن) كان هناك رئيس جديد شاب منهمكاً في خلق اسطورة كاميلوت * فيما يتعلق بالثقافة والتفوق . ولكن في داخل العالم الخفي للاستخبارات السرية فان حالة الفوضى التي سادت خلال العقد اصبحت واضحة . فعلى امتداد سنوات الخمسينات كانت أجهزة الاستخبارات الامريكية والبريطانية تواصلان خوض غمار الحرب الباردة بهدف واضح وتفان موطد العزم . ولم تكن هذه الحرب تتميز بالغموض وعمق الدلالة على الرغم من وجود بعض الامور شديدة التعقيد . لكن مع مطلع سنوات الستينات بدأت مجموعات المنشقين والهاربين بالوصول الى الغرب قادمة من قلب آلية الاستخبارات الروسية ، وكان كل فرد من أفراد هذه المجموعات يحمل سلسلة من الحكايات عن اختراق السوفييت للأمن الغربي . كانت قصصهم في أغلب ألاحيان متناقضة ومشوشة ، وكان الأثر الذي تركته هو بداية شلل بطيء أخذ يدب في اوصال الاستخبارات البريطانية والامريكية اذ أخذت الشكوك والشبهات تسير داخل اجهزة الاستخبارات .

وصل أول المنشقين في شهر كانون الاول عام ١٩٦١ . كنت أجلس في غرفة مكتبي – بعد عودتي بعدة أسابيع من رحلتي الى واشنطن – حينما دخل (آرثر) وهو يحمل في يد عدداً من صحيفة (التايمز) وسيجارة في اليد الأخرى . قدم لي الصحيفة وقد طويت بشكل محكم مما يظهر عموداً في الصفحة :

* كاميلوت : المكان الاسطورة لقصر الملك آرثر وبلاطه ، ويعتقد انه يقع بالقرب من اكسيتر (المترجم)

" أخبار مثيرة " قال ذلك وهو يشير الى فقرة صغيرة تتحدث عن ضابط عسكري سوفييتي برتبة رائد ويدعى (كليموف) كان قد قدم نفسه الى السفارة الامريكية في (هلسنكي) وبرفقته زوجته وطفله ، وطلب حق اللجوء .

ولم يمض طويل وقت حتى سمعنا اشاعة مفادها ان (كليموف) كان في الحقيقة ضابطاً برتبة رائد في جهاز الـ (ك ج ب) ولذلك فانه كان يغني مثل العصفور . في شهر آذار عام ١٩٦٢ كان جو من الاثارة يسيطر على كافة مكاتب (الفرع د) . كان (آرثر) يدخن اكثر مما هو مألوف ، وكان وجهه الطفولي متوهجا بالحماس ، وهو يذرع ممرات الفرع ذهابا وإيابا . ادركت عندها ان المعلومات المطلوبة عن (كليموف) وصلت اخيراً .

سألته ذات يوم : " انه المنشق ، أليس كذلك ؟ " .

أدخلنـي الى غرفة مكتبه ، وأغلق الباب خلفنا ، وأخبرني القليل عن القصة . قال : ان (كليموف) هو في الواقع (أناتولي غوليتسين) وهو ضابط برتبة عالية في جهاز الـ (ك ج ب) و كان يعمل في المديرية الرئيسية الاولى المسؤولة عن العمليات الموجهة ضد المملكة المتحدة والولايات المتحدة الامريكية ، وكذلك كان يعمل في دائرة الاعلام في (موسكو) قبل ان يتم تعيينه في (هلسنكي) . وفي الواقع ، فان (غوليتسين) كان في السابق على قائمة المراقبة لدى (السي آي ايه) من خلال جولة خارج البلاد كان قد قام بها ، غير انه لم يتم التعرف عليه تحت الغطاء الذي اتخذه لنفسه بالاسم الجديد ، الاّ حينما قام بتقديم نفسه في (هلسنكي) .

بعد عملية استخلاص المعلومات الاولية أرسلت (السي آي ايه) الى (م آي ٥) قائمة تتضمن عشر " حلقات " تحتوي كل واحدة منها على ادعاءات كان قد أدلى (غوليتسين) بها حول اختراق الأمن البريطاني . وقام (آرثر) في البداية بدراسة القائمة . اما (باتريك ستيوارت) نائب رئيس القسم (د ٣ / البحوث) فقد قام باجراء تحليلات تمهيدية لهـــذه الحلقـــات ، ووضع قائمة باسماء المشبوهين تتناسب مع ما جاء في كل حلقة . وتم توزيع قوائم تتعلق بالافراد على عدد من الضباط في القسم (د ا) المتخصص في عمليات الاستقصاء للحصول على استقصاءات مفصلة ، وطلب مني تقديم المشورة الفنية وفقاً لما تتطلبه عملية التحقيق .

ان ثلاثاً من الحلقات العشر ضربت على الوتر الحساس فوراً . لقد قال (غوليتسين) انه يعرف بوجود " عصابة الخمسة " المشهورة ، وهم مجموعة من الجواسيس الذين تم تجنيدهم في بريطانيا خلال سنوات الثلاثينات . وأضاف ان كل واحد منهم يعرف الآخر ، وان كل واحد منهم يعرف أن الآخرين جواسيس . لكن (غوليتسين) لم يتمكن من تحديد هوية أي منهم ، وان كل ما يعرفه لا يزيد على ان الاسم الحركي لأحدهم هو (ستانلي) وأن له علاقة بعمليات الـ (ك ج ب) الأخيرة في الشرق

الاوسط . ان هذا الخيط يتناسب بدقة مع شخصية (كيم فيلبي) الذي كان يعمل في ذلك الوقت فـــي (بيروت) كمراسل لصحيفة (الاوبزرفر) . وقـــال ان اثنين مـــن الجواسيس الخمسة الآخرين همـــا (بيرغس) و (ماكلين) . واعتقدنا أن الرابع من المحتمل ان يكون (السير انثوني بلنت) القيم على صور الملكة ، وهو ضابط سابق في (م آي ٥) أيام الحرب ، وقد دارت حولـــه الشبهات بعـــد هروب (بيرغس) و (ماكلين) عام ١٩٥١ . اما هـــوية الجاسوس الخامس فقد كانت سراً بحتا . وكنتيجـــة لحلقات (غوليتسين) الثلاث المتعلقة بعصابة الخمسة ، فقد تم نبش قضيتـــي (فيلبي) و (بلنت) وصدرت التعليمات باعادة تقييمهما من جديد .

اما أدق الخيوط واكثرها تداولاً في هذه الحلقات العشرة الاولى فقد كانت الحلقتان الثالثة والثامنة اللتان تشيران الى وجود جواسيس في سلاح البحرية ، وتوضحان – كما هو الأمر بالنسبة لقضية هوتون – الأهمية التي يعول عليها الروس للحصول على التفاصيل المتعلقة بالقدرات البريطانية وبقدرات الناتو الخاصة بالغواصات البحرية ومضادات الغواصات . اما الحلقة الثالثة فقد كانت تدور حول عمليات تجنيد مزعومة قيل انها تتم في مكتب ملحق سلاح البحرية البريطاني في السفارة فـــي (موسكو) تحت اشراف الجنـــرال (غريبانوف) نفسه رئيس المديرية الرئيسية الثانية المسؤولة عن عمليات الاستخبارات الداخلية في الاتحاد السوفييتي . وقد كان هناك مستخدم روسي يعمل في السفارة البريطانية ويدعى (ميخائيلسكي) كان طرفاً في العملية ، وقام هذا الجاسوس بتقديم ملاحظات (معلومات) خطية عن بعض الوثائق السرية التي كانت تمر عبر مكتبه . وقال (غوليتسين) انه بعد ذلك – في عام ١٩٥٦ – عاد الجاسوس الى (لندن) ليعمل في دائرة استخبارات سلاح البحرية ، في حين ان مراقبته انتقلت من جهاز الـ (ك ج ب) الى مديرية العمليات الخارجيـــة .

اما الجاسوس الثاني الذي كان في سلاح البحرية – وهو موضوع الحلقة الثامنة – فقد كان اكثر من مجرد كونه شخصاً رفيع المستوى حسب ما قال (غوليتسين) الذي ادعى انه شاهد مجموعة مـــن النســـخ المتعلقة بثلاث وثائق خاصة بحلف الناتو ، منها وثيقتان مصنفتان على انهما سريتان للغاية ، اذ انه شاهدهما عن طريق المصادفة حينما كان يعمل في مكتب حلف الناتو في دائرة الاعلام التابعة لـ (ك ج ب) التي كانت تقوم باعداد أوراق عمل سياسية لتقدم الى اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي حول بعض الامور المتعلقة بحلف الناتو . كان (غوليتسين) منهمكاً في اعداد التقرير عن استراتيجية سلاح البحرية الخاص بحلف الناتو حينما وصلت الوثائق الثلاث من (لندن) . وبشكل اعتيـــادي ، فان كافـــة الـــوثائق التي كانت ترد الى (غوليتسين) كانت يتم تحريرها ، وبكلمات اخـــرى ، كانـــت تتم اعادة كتابتها من أجل إخفاء مصدرها . ولكن بسبب الحاجة الماسة لهذا التقـــرير ، فقـــد تم تزويده بالنسخ الاصلية لهذه الوثائق . وقد قامت (السي آي ايه) باجراء

اختبار لـ (غوليتسين) حول قصته هذه . كانت الوثائق الثلاث موضوع البحث – وتتحدث بالتفصيل عن خطة توسيع قاعدة (كلايد بولاريس) للغواصات ، واعادة توزيع ترتيب مواقع سلاح البحرية التابع لحلف الناتو في البحر الابيض المتوسط – قد عرضت عليه ضمن حزمة أخرى من وثائق حلف الناتو ، وقد تمكن فوراً من التعرف على الوثائق الثلاث الصحيحة ، بل انه أوضح ان وثيقة (كلايد) التي رآها كان لها أربعة أرقام وحروف تتعلق بقائمة توزيعها ، في حين ان الوثيقة التي عرضت عليه كانت تظهر ست مجموعات . وحينما تم تدقيق قائمة التوزيع الاصلية تبين ان مثل تلك النسخة كانت موجودة بالفعل ، غير اننا لم نتمكن من العثور عليها . وقام (باتريك ستيوارت) بتحليل توزيع الوثائق الثلاث ، فتبين ان قائداً رفيع المستوى في سلاح البحرية – وهو الآن متقاعد – ظهر وكأنه المؤهل الوحيد ليكون الجاسوس ، وتمت احالة القضية الى القسم (د ا / التحقيقات) .

خلال بضعة شهور من وصول (غوليتسين) قامت ثلاثة مصادر أخرى من قلب آلية الاستخبارات السوفييتية وبشكل مفاجيء – كل واحد على حدة كما كان ظاهراً – بعرض خدماتها على الغرب . كان الاثنان الاولان – أحدهما ضابط من الـ (ك ج ب) والثاني من الاستخبارات العسكرية السوفييتية – يعملان تحت غطاء الوفد السوفييتي الى الامم المتحدة ، وقد اتصلا مع مكتب التحقيقات الفيدرالي وعرضا العمل كعملاء .

أعطي لهما اسمان حركيان هما (فيدورا) و (توب هات) . اما المصدر الثالث فقد قام بخطوته في (جنيف) في شهر حزيران عام ١٩٦٢ وهو ضابط رفيع المستوى في جهاز الـ (ك ج ب) واسمه (يوري نوسينكو) وقد اتصل بـ (السي آي ايه) وعرض عليها خدماته .

وسرعان ما قدم (نوسينكو) دليلا لا يقدر بثمن لاصطياد جواسيس سلاح البحرية البريطاني . فقد ادعى ان عمليات التجنيد التي قام بها (غريبانوف) قد تمت من خلال الابتزاز المتعلق بالشذوذ الجنسي ، وبذلك قام العميل بتزويدهم " بكل أسرار الناتو " من " لورد سلاح البحرية " . ومن خلال عمليات التدقيق والمطابقة بين الناتو وعمليات التجنيد التي قام بها (غريبانوف) توصلت (م آي ٥) الى المطابقة بين الحلقتين الثالثة والثامنة . وكان هناك مشبوه واحد وهو كاتب في مكتب (اللورد كارينغتون) ويدعى (جون فاسال) . كان اسم (فاسال) قد وضع بالأساس على رأس القائمة التمهيدية التي تضمنت اسماء ثلاثة مشبوهين لهم علاقة بالحلقة الثالثة . لكن حينما تمت احالة القضية الى ضابط التحقيق (روني سيموندس) اعلن ارتيابه في تخمينات (ستيوارت) اذ كان يعتقد ان كاثوليكية (فاسال) وشخصيته ذات الاخلاقيات العالية تجعله يبدو أقل شبهة ، وتم نقل اسمه الى أسفل القائمة . بعد تركيز الاهتمام عليه بشدة اثر ما أدلى به (نوسينكو) سرعان ما تبين ان (فاسال) شاذ جنسيا ، و يمارس ذلك بعيداً عن اخلاقياته في

شقة فخمة تقع فـــي ميـــدان (دولفين) . وواجهت (م آي ٥) مشكلة التجسس المضاد التقليدية . فعلى النقيض من أي جريمة أخرى ، فان التجسس لا يترك آثاراً تدل عليه ، وبذلك يغدو من الصعوبة بمكان اثباته الاّ اذا اعترف الجاسوس بذلك ، أو تم ضبطه متلبساً . وقد وجه الي سؤال فيما اذا كانت هناك أي طريقة فنية يمكننا من خلالها اثبات ان (فاسال) كان يقوم بأخذ الوثائق من الادميرالية . كنت قد قمت بالاشتراك مـــع (فرانك مورغان) باجراء تجارب لبعض الوقت حول برنامج يهدف الى وضع اشارات على الوثائق السرية من خلال استخدام كميات قليلة من مادة اشعاعية . وكانت الفكرة تتلخص في وضع عداد غايجر * عند مدخل المبنى الذي كان الجاسوس المشتبه به يعمل فيه ، بحيث يصبح بامكاننا اكتشاف فيما اذا كان قد تم نقل أي وثيقة عليها اشارة . وقمنا بتجربة هذا البرنامج مع (فاسال) غير انه لم ينجح . فقد كانت هناك عدة مخارج في الادميرالية الأمر الذي يعني صعوبة ان نكون واثقين اي من المخارج يستخدم (فاسال) وكانت قراءات عداد غايجر دائماً مشوشة بسبب ساعات اليد اللماعة وما شابه ذلك . وفي النهاية تم التخلي عن البرنامج حينما أخذت الادارة باعلان مخاوفها من مخاطر تعريض الناس الى الاشعاع .

وأخـــذت أبحـــث عـــن وسيلـــة أخـــرى . كان من الواضح من خلال الفحوصات التي أجرتها (السي آي ايه) ان (غوليتسين) يتمتع بذاكرة تصويرية ، ولذلك قررت اجراء اختبار آخر لأرى فيما اذا كان باستطاعته ان يتذكر أي تفصيلات عن نماذج وأشكال النسخ المصورة من وثائق حلف الناتو التي رآها . ومن خلال هذا ، سيكون بالامكان استنتاج فيما اذا كان الجاسوس يقوم بتسليمهم النسخ الاصلية ليقوموا بتصويرها ثم اعادتها اليه . قمت بتصوير خمس وعشرين صورة فوتوغرافية للصفحة الاولى من وثيقة حلف الناتو المتعلقة بقاعــــــــدة (كلايد) وكل واحدة منها مطابقة للاسلوب الذي كنا نعرف بان السوفييت كانوا يلقنونه لعملائهم ، أو الذي يستخدمه الروس أنفسهم داخل السفارة . وارسلت هذه الصور الى (غوليتسين) بواسطة (السي آي ايه) . حالما شاهد (غوليتسين) الصور التقط من بينها الصورة التي صورت بواسطة كاميرا (براكتينا) . واذ اتخذنا هذه المعرفة سلاحاً لنا ، اجرينا ترتيباتنا للسطو على شقة (فاسال) أثناء تواجده في عمله . في الدرج السفلي للخزانة وجدنا كاميرا تصوير وثائق من نوع (براكتينا) وكاميرا (مينوكس) مخبأتين فيـــه . وتم القاء القبض عليه مساء ذلك اليوم ، وتم استصدار تصريح لتفتيش منزله ، فتم قلبه رأساً على عقب . عند قاعدة طاولة زاوية وجدنا درجاً سرياً يحتوي على عدد من الافلام قياس ٣٥ ملم وهي من نوع أفلام الكاسيت . تم تظهيرها لتكشف عن ١٧٦ وثيقة سرية . واعتـــــرف (فاسال) بسرعة انه تعرض للفضيحـــة بسبب الشذوذ الجنسي فـــي (مـــوسكو) عام ١٩٥٥ ، وتمت ادانتـه وحكم عليه بالسجن لمدة

* عداد غايجر : أداة لاكتشاف الجزيئات المؤينة واحصائها (المترجم)

ثمانية عشرعاماً .

وحينما تم تجميع المعلومات في (لندن) و (واشنطن) التي أدلى بها جمهور الهاربين الجدد واجهت أزمة شخصية تتعلق بي . فقد بعثت قضية (لونسدال) من جديد قضية الموارد الفنية المطلوبة من أجل (م آي ٥) و (م آي ٦) . وعلى الرغم من ان برنامج مؤسسة بحوث الاسلحة الذرية ، الذي قمنـا أنا و (فرانك مورغان) بوضعه عام ١٩٥٨ ، كان يعتبر نجاحاً بارزاً ، فان تغييراً كبيراً لم يحـدث . وقـد اخفقـت محاولة ارضاء حاجات جهاز الاستخبارات من خلال ميزانية الدفاع الشاملة ، وخاصة في مجال الالكترونيات المتقدمة . كنا ننتقل بسرعة الى مجال جديد من مجالات استخدام الكمبيوتر والاقمار الصناعية في عمل اجهزة الاستخبارات ، وحينما تم تقسيم لجنة عمليات الاتصال اللاسلكية الى (المجموعة) و (المجموعة المضادة) كان من الواضح ان حجم ومدى عملياتهم سوف يتطلب درجة اكثر كثافة من البحوث العلمية والفنية ، وتطويرها باكثر مما هي عليه الآن . وقد تأكد لكل شخص في النهاية ان النظام المخصص الذي ناضلت من اجل تغييره منذ عام ١٩٥٨ بحاجة الـى اعادة اصلاح شاملة . وكانت كل من (م آي ٥) و (م آي ٦) بحاجة الى مؤسساتها الخاصة بهـا ، وكـذلك الأمـر بالنسبة لميزانياتها ، وعناصرها . وقد اتصلت بـ (السير وليام كوك) مرة ثانية – بعد وقت قصير من قضية لونسدال – وطلبت منه القيام بمراجعة شاملة لمتطلباتنا بناء على موافقة الجهازين . وقضينا سوية عدة أيام ونحن نقوم بزيارات الى مؤسسات الدفاع المختلفة التي كانت تقوم بتقديم احتياجاتنا ، وكتب تقريراً مفصلاً يعتبر الاكثر أهمية في تاريخ الاستخبارات البريطانية خلال فترة ما بعد الحرب .

كان جوهر تقرير (كوك) هو ان مركز اتصالات هانسلوب – الذي كان خلال الحرب مقراً لقيادة هيئة أمن الاتصالات ، ومنذ ذلك الوقت أصبح مركز اتصالات (م آي ٦) لشبكات العملاء في الخارج – يجب ان يتم توسيعه بشـكل كبير ليصبح مؤسسة بحوث تقدم خدماتها الـى كـل مـن (م آي ٥) و (م آي ٦) مع التأكيد بشكل خاص على أنواع الالكترونيات المتقدمة الضرورية للجنتـي (المجموعة) و (المجموعة المضادة) . وأوصى (كوك) بأن الموظفين الجدد الذين سيعملون في مركز اتصالات هانسلوب يجب ان يأتوا من الهيئة العلمية البحرية الملكية . وقد كان هذا الأمر – بالنسبة لي – أهم اصلاح على الاطلاق . فمنذ التحاقي بشعبة (م آي ٥) كنت أسعى بقوة الى ازالة الحاجز غير الطبيعي الذي يفصل القسمين الفنيين في جهازي الاستخبارات عن الجهاز المدني العلمي . كان هذا الحاجـز هدّاماً ، اذ انه حرم أجهزة الاستخبارات من أفضل وأذكى العلماء الشباب ، وكان ذلك يعني – على الصعيد الشخصي – ان من الواجب علي أن أهدر حوالي عشرين سنة من مخصصات التقاعد التي حصلتها في الادميرالية مقابل الموافقة على عرض (م آي ٥) للعمل معهم . وكنت باستمرار

أضغط على (كوك) حول هذه الناحية اثناء كتابته تقريره ، حتى انه اعترف لي بأن حججي صحيحة . وكنتيجة لتقريره ، تم نقل خمسين عالماً الى مركز هانسلوب مع تعويضاتهم التقاعدية كاملة ، اضافة الى منحهم حق اختيار العودة الى مكانهم السابق اذا رغبوا بذلك مستقبلاً . وبما أنني كنت أول عالم يلتحق بشعبة (م آي ٥) فان هذه التدابير الجديدة لم تشملني ، ولذلك فانني لم أشعر بالقلق تجاه هذا الموضوع لأنني كنت أعتقد انه عندما يحين الوقت ، فان الشعبة - كما وعدوا - ستقوم بتعويضي عن خدماتي . وللأسف ، فان ثقتي كانت في غير محلها .

وكانت هناك توصية أخرى أوصى بها (كوك) اذ كان يريد ايجاد جهاز قيادي مشترك من (م آي ٥) و (م آي ٦) يكون له مقر اقامة مستقل ، ويشرف عليه عالم رئيسي ، وتكون مهمة هذا الجهاز التخطيط للبحوث الجديدة ومراقبتها ، وكذلك الأمر بالنسبة لمشاريع الجهازين . وقد كانت هذه التوصية خطوة جديدة ، وجريئة وأعترف بأنني كنت أريد ذلك اكثر من أي شيء آخر في الدنيا . وبصدق ، فانني أحسست انني حصلت على ما أريد . فقد كانت معظم عمليات التحديث الفنية التي تمت منذ عام ١٩٥٥ نتيجة تحريضي عليها ، وقضيت سنوات طويلة وأنا أحارب من اجل الحصول على ميزانية وعلى موارد للجهازين معاً . لكن ذلك لم يتحقق . وقد سعى (فيكتور روتشيلد) بشدة من أجل هذا نيابة عني ، الاّ ان (ديك وايت) أخبره أن العداوة الدفينة داخل (م آي ٦) التي وقعت نتيجة نقله من (م آي ٥) لا تزال اكبر من أن يأمل ان يحث موظفيه الفنيين ذوي الرتب العليا كي يعملوا تحت قيادة شخص من (م آي ٥) . وفي النهاية ، تم حل المشكلة من خلال اجتماع عقدته (لجنة كوليمور) . وحينما تم بحث ما توصل اليه (كوك) تطوع (هيكتور ويليس) رئيس الهيئة العلمية البحرية الملكية آنذاك لشغل منصب رئيس مديرية العلوم التي انشئت ، واستقال من الهيئة العلمية البحرية الملكية للقيام بهذا العمل . اما (هوليس) و (وايت) اللذان كانا يدركان النفوذ البيروقراطي الذي سيجلبه (ويليس) معه فقد وافقا على ذلك . وأصبحت نائب رئيس المديرية المشتركة الى جانب (جوني هوكس) نظيري في (م آي ٦) الذي كان يشرف على مركز (هانسلوب) لصالح (م آي ٦) وطور جهاز شيفرة " روككس " لصالح (م آي ٦) .

كنت أنا و (ويليس) نعرف بعضنا بشكل جيد . كان ريفياً لطيفاً من منطقة الشمال ، ضئيل الجسم ، يشبه لون الفأر ، شعره أبيض اللون ، وحاجباه سوداوان . كان دائماً يتأنق في ملبسه ، اذ يرتدي بذلة منقطة ذات ياقة يابسة . لقد عملت تحت إمرته خلال فترة الحرب في مشروع البرقيات الرئيسي ، والحرب المضادة للغواصات . كان عالما مبرزاً في مجال الرياضيات - اكثر مني - وذا مهارة فنية من الدرجة الأولى . ولكن وعلى الرغم من أننا مهندسان ، الاّ اننا كنا على طرفي نقيض من حيث وجهات نظرنا المتعلقة بالطريقة التي يجب ان تدار بها المديرية الجديدة . كنت أرى أن دور

العالم / المهندس في مجال الاستخبارات يكمن في كونه مصدراً للافكار والتجارب التي يمكن أن تثمر أو لا تثمر . وأيا كان النجاح الذي حققته منذ عام ١٩٥٥ فانه ما كان ليتحقق الاّ من خلال التجريب والارتجال . كنت أريد للمديرية ان تكون مركز قوة يحتضن ويوسع مختلف أنواع عمليات الاختراق التي أعطتنا اياها لجنة عمليات الاتصالات . وقد كان (ويليس) يريد دمج الاستخبارات العلمية في وزارة الدفاع ، وكان يريد للمديرية ان تكون مؤسسة غير فعالة : فرع من الصناعة الدفاعية تقوم بتقديم الموارد الى الذين يودون استخدامها حسب طلبهم . وقد حاولت أن أوضح الى (ويليس) ان الاستخبارات – على النقيض من الصفقات الدفاعية – ليست عملاً يتوقف مع السلام ، بل انها حرب مستمرة ، وانك تواجه باستمرار أهدافاً متغيرة . فالتخطيط طويل الأمد لعدة حقب لا يجدي كما يفعل سـلاح البحرية حينما يضعون سفينة موضع العمل ، لانه ما أن تمر سنتان أو ثلاث على وضعك الخطة ، حتى ستجد انها قد سربت الى الروس . ضربت له مثالاً على ذلك عملية نفق برلين ، اذ اننا أنفقنا عشرات الملايين من الدولارات على هذا المشروع ثم علمنا في النهاية ان أسراره أفشيت الى الروس منذ البداية من قبل (جورج بليك) الذي كان يشغل منصب سكرتير لجنة التخطيط . وقد وافقت علـى وجوب قيامنا بتطوير مخزون من الاجهزة البسيطة مثل الميكروفونات ومكبرات الصوت التي تعمل ، ويمكن ان تخزن لفترة طويلة دون ان تتلف ، غير انني عارضت تطوير الاجهزة المعقدة والتي لم تصمم على يد اللجان ، وتصبح لا فائدة منها عند استخدامها إمّا بسبب ان الروس قد علموا عنها قبل وضعها موضع العمل او بسبب ان الحرب قد انتقلت الى منطقة أخرى .

ولـم يتفهـم (ويليس) ابداً ما الذي كنت أرمي اليه ، حتى انني أدركت انه تنقصه ملكة الخيال ، وانه بالتأكيد لا يشاركني عاطفتي التي لا تهدأ تجاه امكانات الاستخبارات العلمية . أرادني أن أهدأ ، وأن أنسى نوعية الحياة التي عشتها ، وأن أرتدي المعطف الأبيض ، وأشرف على تنفيذ العقـود . لقـد اجبرت على مغادرة (ليكونفيلد هاوس) والانتقال الى مكاتب مقر قيادة المديرية في (بكنغهام غيت) . اما الجزء الاخير من عام ١٩٦٢ – الذي أتى سريعاً بعد الاثارات والانجازات التي حدثت عام ١٩٦١ – فقد كان بلا شك فترة تعيسة في حياتي العملية . فعلى مدار سبع سنوات استمتعـت بحـرية نادراً ما تتاح كي أتنقل في كافة أقسام (م آي ٥) مدخلاً نفسي في كافة المجالات ، وأعمل بنشاط دائماً ، واشارك دائماً في العمليات التي كانت تدور . كان ذلك الانتقال يشبه عملية التخلي عن الخنادق والالتحاق بالحرس الوطني . وحالما وصلت الى المكاتب الجديدة ، كنت أعلم انه ليس لي أي مستقبل هناك . وبانقطاعي عن (ليكونفيلد هاوس) فانني سوف أفنى في ذلك الجو الساكن الذي يبعث الرهبة في النفس ، فقررت ان انتقل إما الى منصب آخر في (م آي ٥) اذا وافقت الادارة أو الى قيادة الاتصالات الحكومية حيث كنت اقوم باجراء عمليات السبر اذا لم يوافقوا على

الخيار الاول .

كان (آرثر) حذراً الى حد بعيد خلال هذه الفترة ، فقد كان يعرف انني كنت أفور من الغضب في (بكنغهام غيت) حتى انه استغل كل مبرر استطاعه من اجل إشراكي في الاعمال التي كانت تسير حول (غوليتسين) . وقام خلال ربيع ١٩٦٢ بزيارة طويلة الى (واشنطن) وأجرى استخلاص معلومات مطول مع ضابط الـ (ك ج ب) وعاد ومعه ١٣٥ حلقة كانت تستحق القيام بالمزيد من عمليات التحقيق . كانت بعض هذه الحلقات غير ضارة نسبيا ، مثل ادعاءاته بأن نجماً موسيقياً كان يحظى بشعبية واسعة في ذلك الوقت قد تم تجنيده من قبل الروس بسبب علاقته مع المجتمع الراقي في (لندن) . وكانت هناك بعض الادعاءات الاخرى صحيحة ، غير انه كان باستطاعتنا تقديم تفسير مقبول لها ، مثل قصة البارون الذي ادعى (غوليتسين) انه كان هدفاً لعملية ابتزاز نتيجة ممارسته للشذوذ الجنسي بعد ان قامت الـ (ك ج ب) بتصويره اثناء قيامه بممارسة الشذوذ في الكرسي الخلفي لسيارة اجرة . وتم اجراء مقابلة مع البارون الذي اعترف بالواقعة ، وأرضانا حينما قال انه رفض الخضوع لابتزاز الـ (ك ج ب) . لكن الاغلبية الساحقة من حلقات (غوليتسين) لم تكن دقيقة تماماً . فقد كانت في الغالب تبدأ واضحة ، ثم لا تلبث ان تأخذ في الغموض . وكان جزء من المشكلة يكمن في نزعة (غوليتسين) الواضحة نحو تزويدنا بكميات قليلة من المعلومات ، اذ انه كان يرى ان هذه المعلومات هي حياته ، وبالتالي ، فان هؤلاء الذين يعملون معه لم يعرفوا أبداً – حينما كانوا يتتبعون خيطاً يبدو انه مثمر – فيما اذا كان هذا الهارب لديه المزيد من العلومات ليرويها أم لا .

وقد طلب مني تقديم المساعدة في واحدة من أغرب حلقات (غوليتسين) التي أثارت الاضطراب في تلك الفترة ، وأعني قضية (سوكولوف غرانت) . وبكل الاحوال فقد كانت مثالاً على الصعوبات التي كنا نواجهها مع المعلومات المستخلصة منه . فقد قال (غوليتسين) ان عميلا روسياً قدم الى (سافولك) للاقامة بالقرب من مطار نصبت فيه بطاريات أحدث انواع الصواريخ . وكان متأكداً من ان العميل كان من نوع العميل المقيم قليل الحركة ، ومن المحتمل ان تكون مهمته موجهة للقيام بأعمال التخريب في حال وقوع ازمة عالمية . اتصلنا بسلاح الجو الملكي ، وتمكنا من تحديد ان المطار المقصود هو مطار (سترتشال) الواقع بالقرب من (بيري سانت ادموندز) ، باعتباره المطار الاقرب الى شبهاتنا . ثم قمنا بتدقيق الكشف الانتخابي للمنطقة المحيطة بمطار (سترتشال) للتأكد مما اذا كان هناك أي شيء له علاقة بالموضوع . وبعد أيام من التدقيق عثرنا على اسم روسي هو (سوكولوف غرانت) فقمنا بمطابقة الاسم لدى قسم السجلات ، فوجدنا هناك ملفاً لهذا الشخص . وقد تبين لنا أن هذا الشخص هو روسي لاجيء وصل الى بريطانيا قبل خمس سنوات ، وتزوج من فتاة انكليزية ، وبدأ بممارسة مهنة الزراعة في ارض مستأجرة بالقرب من المطار .

تمت احالة القضية الى (تشارلز ايلويل) للتحقيق فيها ، وقمنا بعملية تدقيق للرسائل والمكالمات الهاتفية ، وتم اجراء عمليات استقصاء للمعلومات من قبل البوليس المحلي ، ولم تسفر كل هذه الاجراءات عن شيء . وطلب مني القيام بتفتيش المنزل حينما يذهـــب (سولوكوف غرانت) وزوجته الى الشمال لقضاء العطلة ، وذلك من أجل معرفة فيما اذا كان هناك أي دلائل تقنية يمكن ان تدينه . اتجهت برفقة (جون ستورر) الى (بيري سانت ادموندز) . كان (ستورر) رجلاً قصيراً ، وذا شعر أشيـــب ، على وجه ابتسامة دائمة ، وهو مـــن (القسم م) فـــي قيادة الاتصالات الحكومية و عمل فـــي (المجمـــوعة المضادة) في مجال ترتيب عمليات (رافتر) المحمولة جواً ، وفي تحليل اشارات (رافتر) . كان (سوكولوف غرانت) يعيش في منزل ريفي جميل مبني من الآجر الأحمر على طراز (الملكة آن) وكان البيت بحاجة الى بعض الاصلاحات . ومن الحديقة الخلفية كان باستطاعتك رؤية نهاية مدرج المطار الممتدة عبر حقول الشعير . كان المنظر يبدو مثالياً ورائع الجمال ، ومن الصعوبة بمكان الاشتباه بشيء . لكن ذلك ، كان هو الشيء الذي يصدمني باستمرار فيما يتعلق بالتجسس : فقد كان ذلك يجري دائماً ضمن مشاهد انكليزية مملة عادية .

انطلق (جون ستورر) لتفتيش مباني المزرعة بحثاً عن أي دلائل تشير الى وجود نظام اتصال لاسلكي سري ، في حين قمت بازالة لقاطة الباب ، ودخلت الى المنزل . كان المنزل مهملاً بشكل لا يصدق ، فقد كانت أكوام القانورات تتكدس على امتداد الممرات ، في حين ان الكتب كانت مكدسة في الغرف الواقعة أسفل المنزل (الغرف الارضية) . اعتقدت باديء الأمر انهم ربما يقومون بنقل محتويات المنزل حتى لاحظت طبقة الغبار السميكة التي تغطي كل شيء . وفي غرفة المكتب الواقعة في الجهة الخلفية من البيت كان يوجد طاولتا مكتب بجانب بعضهما البعض . كان المكتب الموجود في الجهة اليسرى عبارة عن طاولة مكتب ضخمة ، وقد ستفت عليه كميات كبيرة من الكتب حتى انه لا يمكن تسكير منضدته * اما الاخرى الموجودة في الجهة اليمنى فقد كانت طاولة مكتب أصغر من الأولى . فتحت مصراع المكتب ، وكان فارغاً تماماً ، فقمت بسحب الادراج ، فكانت فارغة ايضاً ، وليس بها أي أثر للغبار . كان من الواضح ان جميع محتوياتها قد افرغت حديثاً . جلست للحظة في كرسي لماع من طراز (ويندسور) أحدق في طاولتي المكتب محاولاً أن أتفهم سبب وجود احدى الطاولتين ملأى ، في حين ان الأخرى فارغة : هل تم نقل محتويات احداهما الى الأخرى ؟ هل تم افراغ احداهما ، فاذا كان الأمر كذلك فلماذا ؟ هل الامر مجرد شكوك ، ام انه كما يبدو : طاولة مكتب فارغة في منزل مليء بالقانورات ؟ .

بـــدأت اتفحـــص الاوراق المـــوجودة فـــي طاولة المكتـــب الأخرى ، فوجدت ان جميعها كانت

* كانت طاولة المكتب من نوع الطاولات ذوات المنضدة (التختة) بحيث تشكل غطاء اذا فتحت الى الخلف (المترجم)

تتعلق باعمال المزرعة تقريباً . اما (جون ستورر) فانه هو الآخر لم يجد شيئاً في الخارج ، وغادرنا المزرعة . ومن أجل ان تقوم بتفتيش المكان بشكل دقيق ، فانك ستكون بحاجة الى عشرين رجلاً في الاسبوع . وفي النهاية ، ذهب (تشارلز ايلويل) لمقابلة (سوكولوف غرانت) وطرح بعض الاسئلة في القـرية ، وعـاد الينـا وهـو يشعر بالرضى مـن ان (غرانت) بريء ، فهو معروف في منطقتـه ، وزوجتـه هي ابنة احد ملاك الارض في المنطقة . و افترضنا ان (غوليتسين) قد رأى اسم (غرانت) على قائمة المراقبة التي وضعتها الـ (ك ج ب) واشارت اليه فيها على انه احد الاشخاص المتوقع الاتصال بهم ، غير انها لم تفعل ذلك في الواقع .

بعد ذلك بفترة وجيزة غادر (سوكولوف غرانت) وزوجته المنطقة . ومن المحتمل ان تكون عمليات التحري والاستقصاء التي قمنا بها قد انتشرت في القرية ، وافترضنا انه يريد بدء حياة جديدة . لكن وعلى الرغم من كل هذه الأمور الظاهرة التي لا أهمية لها ، الاّ ان قصة (سوكولوف غرانت) كانت دائماً لها أهميتها الرمزية بالنسبة لي : انسان عادي تدور الشبهات حوله فجأة ، وحالما تظهر براءته أيضا بشكل مفاجيء ، فان حياته تتغير تماماً بسبب شيء قاله رجل - لم يره مطلقا - في غرفة معتمة في الطرف الآخر من العالم . ان ريف منطقة (سافولك) الهاديء كان يصطدم دائما بالعالم السري للخيانة ، حيث لا وجود للمصادفات هناك ، وحيث تدور الشبهات لمجرد رؤية طاولة مكتب فارغة .

اما اكثر الأمور أهمية فـي حلقات (غوليتسين) فقـد كانت تلك الحلقات التـي توحي بوجود اختراق في (م آي ٥) . وقـد علمت عنها لأول مرة من (آرثر) بعـد فترة قصيرة من عودتـه مـن (واشنطـن) . فقـد قـال (غوليتسين) انه اطلع علـى الخزنة الخاصة الموجـودة فـي قيـادة الـ (ك ج ب) حيث تُحفظ فيها الوثائق الواردة من الاستخبارات البريطانية . وافاد بوجود فهرس للوثائق المحفوظة في الخزنة ، وانه متأكد مـن ان هناك مواد حديثة من (م آي ٥) في تلك الخزنة وادعى ان الـ (ك ج ب) حصلت على وثيقة من الاستخبارات البريطانية أطلقوا عليها اسم وثيقة " التقنيات " وهي عبارة عن مجموعة اوراق سميكة تعدد المعدات التقنية الموجودة لدى الاستخبارات البريطانية . غير انه لم يكن باستطاعته دراسة هذه الوثيقة عن قرب لأنه دعي فقط من أجل معرفة فيما اذا كان بامكانه القيام بترجمة فقرة صغيرة منها . لكن كان من الواضح انها وثيقة هامة لانه كان من الضرورة القصوى الحصول على ترجمتها بأسرع ما يمكن . وقال ان التدابير الامنيـة* قـد تغـيرت في سفارة (لندن) اذ لـم يكن هناك ضابـط أمن خاص (يعرف عادة بـ / س ك : الضابط كولوني السوفييتي) . فقد افترض انه لم تكن هناك حاجة لوجود مثل هذا الضابط لان اختـراق (م آي ٥) كـان قد تم بشكل كامل . وبعدها كانت قضية (كراب) اذ قال ان

---

* يقصد التدابير الامنية السوفييتية داخل السفارة البريطانية في موسكو (المترجم)

جهاز الـ (ك ج ب) كان قد تلقى تحذيراً مبكراً حول مهمة (كراب) ضد الطراد (اوردجونيكيدز) .

فـــي شهر آب من عام ١٩٦٢ ، وبينما كانت (م آي ٥) منهمكة فـــي عملية تحليل وهضم المواد الكثيرة التي أدلـــى بها (غوليتسين) حققنا تقدماً مفاجئاً فـــي الحلقات الثلاث الاصليـــة الخاصـــة بـ (فيلبـي) . فقد التقى (فيكتور روتشيلد) مع (فلورا سولومون) وهي مهاجرة روسية صهيونية في حفلة اقيمت في كازينو (وايزمن) في (اسرائيل) . وقد أخبرته انها تشعر بسخط شديد على المقالات التي نشرها (فيلبي) في صحيفة (الاوبزرفر) المعادية لـ (اسرائيل) . وقد أفضت اليه انها تعرف ان (فيلبي) عميل سري منذ سنوات الثلاثينات . وبصعوبة بالغة عمل (فيكتور) لحثها على مقابلـــــة (آرثر مارتين) في (لندن) لاخباره بالقصة .

طلب اليّ ان أزرع ميكروفون في منزل (فيكتور) حيث كانت ستجري المقابلة ، فقررت زراعة نظام التسهيلات الخاصة المؤقت ، الأمر الذي أثار حنق (فيكتور) اذ قال : " انني لا أثق أيها اللوطيون بانكم ستزيلون نظام التسهيلات " فوعدته أن اقوم شخصيا بالاشراف على زرع النظام وإزالته . كان (فيكتور) دائماً مقتنعاً ان (م آي ٥) تقوم بمراقبته ، والتنصت عليه سراً من أجل الحصول على تفاصيل علاقاته الحميمة مع الاسرائيليين ، وان المعلومات السرية عنه تسببت في اثارة الكثير من المرح الجريء في المكتب . لكنني وعدت (فيكتور) وقابلت فنيي مكتب البريد بعد ظهر ذلك اليوم قبل موعد المقابلة ، وقمت بتدقيق كل شيء بعناية بينما كانوا يقومون بتعديل مستقبِل الهاتف وأخيراً ، وبعد أن انتهت المقابلة ، قمت بكل مهابة بعملية المناوبة ، في حين قام الفنيون بازالة جهاز التنصت .

قمـــت بمراقبـــة المقابلـــة فـــي مبنـــى (ليكـــونفيلد هاوس) في الطابق السابع . كانت (فلورا سولومون) امرأة غريبة اكثر من كونها غير جديرة بالثقة ، حيث انها لم تتكلم أبداً بصدق عن علاقاتها مع أناس أمثال (فيلبي) خلال سنوات الثلاثينات ، على الرغم من أنها – وبشكل واضح – كانت تحقد عليه . وبمزيد من الالحاح عليها ، أخبرت (آرثر) بجزء من الحقيقة ، اذ قالت انها كانـــت تعرف (فيلبي) جيداً قبل الحرب وأنها كانت معجبة به ، وانه حينما كان يعمل في اسبانيا كمراسل صحفي لصحيفـــة (التايمز) فانه دعاها لتناول طعام الغذاء خلال اجازة كان يقضيها في (لندن) . وقـــد أخبرها أثناء تناولهما طعام الغذاء انه يقوم بعمل خطير للغاية من أجل السلام ، وطلب مساعدتها ، فهل ستساعده في هذه المهمة ؟ . كان يعمل لصالح (الكومنتيرن) والروس ، وسيكون الأمر رائعاً فيما اذا انضمت الى هذه القضية . لكنها رفضت ذلك ، غير انها أخبرته ان باستطاعته دائماً ان يأتي اليها اذا كان يشعر باليأس .

توقف (آرثر) عن استجوابها . كانت هذه هي قصتها ، ولم يكن يهمنا كثيراً في الواقع فيما

اذا كانت – كما كنا نشك – قد قامت بدور اكثر فاعلية وايجابية مما قالته خلال سنوات الثلاثينات ، وكانت بين لحظة وأخرى تثور منفعلة .

قالت بنبرة صوت تنم عن الانزعاج :

" لـــن أدلـــي أبـــداً بأي دليل علني ... ففي هذا الأمر مجازفة كبيرة . لقد رأيتم ما حدث لـ (توماس) منذ أن تحدثت الى (فيكتور) " مشيرة الى ان (توماس هاريس) أحد أصدقاء (فيلبي) قد توفي في حادث سيارة غامض في اسبانيا قبل فترة وجيزة . وتابعت تقول صارخة : " سيتسرب الأمر .. أعرف انه سيتسرب ... وبعدها ، ما الذي ستفعله عائلتي ؟ " .

لكن على الرغم من انها أبدت مخاوفها من الروس ، الاّ انه كان يبدو انها تحس بمشاعر متناقضة تجاه (فيلبي) نفسه . فقد قالت أنها لا تزال حريصة عليه ، لكنها فيما بعد تحدثت بشكل غيـــر مترابط عن الطريقة المرعبة التي يعامل النساء بها . وعلى الرغم من أنها لم تعترف بذلك صـــراحة ، الاّ انـــه كان بامكاني أن أخمن – من خلال الاستماع اليها – انه كانت تربط بينها وبين (فيلبي) علاقة حب خلال سنوات الثلاثينات . وبعد مرور سنوات على تلك العلاقة كانت تنتقم منه للرفض الذي شعرت به حينما انتقل الى علاقة عاطفية جديدة .

أمـــا وقـــد تسلّحا بالمعلومات التي أدلى بها كل من (غوليتسين) و (سولومون) فان كلا من (ديك وايت) مـــن (م آي ٦) و (روجر هـــوليس) كانـــا متفقين على وجوب اعادة التحقيق مـــع (فيلبي) في (بيروت) . وخلال الفترة الممتدة من شهر آب ١٩٦٢ وحتـــى نهاية العام نفسه ، قامت (ايفلين ماك بارنيت) باعداد ملخص واف استعداداً للمواجهة . لكن في اللحظة الأخيرة طرأ تعديل على الخطـــة . فقد كان من المقرر أن يتوجه (آرثر) الى (بيروت) ، سيما وانه كان قد بدأ بمتابعة قضية (فيلبـــي) منـــذ بدايتهـــا عام ١٩٥١ ، وهو يعرف عنها اكثر من أي شخص آخر . لكنه أخبر ان (نيكولاس ايليوت) وهو صديق مقـــرب مـــن (فيلبي) وقـــد عاد (نيكولاس) مـــن (بيروت) حيث كان رئيس محطة هناك ، هو الذي سيذهب عوضاً عن (آرثر) . لقـــد أصبح (ايليوت) الآن مقتنعاً ان (فيلبي) مذنب ، وكان هناك إحساس انه (ايليوت) هو الأقدر على التأثير على مشاعر (فيلبي) . ولم تكن القضية ببساطة قضية مغالاة في الوطنية ، على الرغم من ان لهذه المشاعر دوراً في القضية . لقد كنا في (م آي ٥) نشك في (فيلبي) منذ البداية ، والآن ، وأخيراً ، أصبح لدينا الدليل الذي كنا بحاجة اليه لمحاصرته . اما أصدقاء (فيلبي) في (م آي ٦) ومن بينهم رئيس المحطة (ايليوت) فقد كانوا باستمرار يعلنون براءة (فيلبي) . والآن ، وحينما اصبح البرهان موجوداً ولامفر منه ، أرادوا أن يبقـوا القضية قضية داخلية تخص فرعهم . كذلك ، فان اختيار (ايليوت) كان يثير الغضب في النفوس . كـــان (ايليوت) ابن المدير السابق لمدرسة (ايتون) وكان يتصرف بطريقة

أفـراد الطبقـة العليا . غيـر ان القــرار قد اتخذ ، وفي شهر كانون الاول ١٩٦٣ طار (ايليوت) الى (بيروت) وهو يحمل عرضاً لحصانة شكلية كي يقدمه الى (فيلبي) .

بعد مرور اسبوع على سفره ، عاد (ايليوت) منتصراً ، فقد اعترف (فيلبي) وأوضح انه كان يقوم باعمال التجسس منذ عام ١٩٣٤ ، وانه كان يفكر بالعودة الى بريطانيا ، بل انه كتب اعترافاً خطيا . وأخيراً ، فقد تم حل اللغز .

لقد أرخ معظم العاملين في العالم السري تلك الليلة التي اعترف فيها (فيلبي) . كنت في الخامسة والاربعين من عمري تقريبا . ولكن ان تثور شكوكك شيء وأن تسمع الاعتراف مــن فم المذنب شيء آخر . وفجأة ، لم يعد هناك المزيد من المتعة والمرح في ممارسة اللعبة ، فقد تم عبور نهر روبيكون * . ولم تكن القضية هنا مماثلة لعملية القبض على (لونسدال) اذ انها - قضية لونسدال - كانت لعبة العسكر والحرامية . فعملية القاء القبض على (فيلبي) تتنازعها أمور متشابكة : فأنت تبحث عن رجل ، يمكن ان تحبه ، او تشرب معه ، او تعجب به ، خان كل شيء ، وعليك ان تفكر بالعملاء وبالعمليات التي ذهبت سدى ، بالشباب والبراءة اللذين ضاعا ، وبدأت العصور المظلمة .

بعد مرور بضعة أيام استوقفني (آرثر) في احد المرات ، وقد بدا هادئا بشكل غريب ، على النقيض من كونه رجلاً نشيطاً ، وقال لي :

" لقد هرب كيم " فأجبته :

" يا الهي ، كيف ؟ " .

ابتسم (آرثر) ابتسامة فاترة ، وقال :

" مثلما حدث عام ١٩٥١ حينما هرب الأولاد " .

كان هروب (فيلبي) جرحاً لمعنويات كبار الضباط داخل (م آي ٥) . وحتى ذلك الوقت ، فان النظريات التي تقول بوجود اختراق في (م آي ٥) كانت تعالج بسرية تامة ، غير انها بعد ذلك التاريخ اخذت تعبر عن المخاوف بشكل علني . وقد بدا واضحاً أن (فيلبي) وعلى غرار (ماكلين) كما حدث من قبل عام ١٩٥١ ، قد طلب اليه الهرب من قبل شخص آخر - هو الرجل الخامس - لا يزال موجوداً داخل الجهاز . وبالطبع ، فان احتمالية الرجل الخامس كانت تنسجم تماماً مع دلائل (غوليتسين) حول عصابة الخمسة : (بيرغس) و (ماكلين) و (فيلبي) وعلــى الأغلب (بلنت) وكذلك الرجل الخامس . ثمة شخص ما كان موجوداً في العام ١٩٥١ ، ولا يزال حتى الآن دون ان يتم اكتشافـه ، بل

---

* نهر روبيكون : هو عبارة عن نهر صغير يقع في شمال ايطاليا ، وكان يشكل جزءاً من الحدود الفاصلة بين الجمهورية الرومانية والولايات التابعة لهـا . وقــد اجتازه يوليوس قيصر عام ٤٩ قبل الميلاد ، فاشعل بعمله هذا نار الحرب الاهلية التي جعلته سيد روما (المترجم)

انه يراقب الآن الأزمة بشكل سري .

وغالباً ما كنت أتحدث مع (هيو وينتربورن) حول هذا الموضوع ، وكان مقتنعاً اننا مخترقــون على مستوى عال . وقد اعتاد أن يقول دائماً :

" لا أستطيع التفكير بأننا عاجزون تماماً بالقدر الذي نحن عليه الآن " . لقد كان لعملية (كوير) التي اكتشفنا من خلالها ان الروس قاموا بســد فتحة الميكروفون الجساس الذي وضعناه للتنصت عليهم ، كان لهذه العملية أثر قوي على تفكير (وينتربورن) ، بل انه على امتداد ثماني سنوات من تلك العملية اعتاد ان يتكلم عنها بشكل مفعم بالحيوية . وقد حدثت بعض المصادفات الأخرى ايضاً التي أثارت شكوكه . فقد قمنا بزرع نظام التسهيلات الخاصة على هواتف السفارة الصينية ، وعلى الفور قام الروس بالبحث عنها وانتزاعها . ثم كانت هناك ايضا قضية (فالبر) . فبعد عملية (بارتي بيس) شرعت (م آي ٥) في عملية اصطياد ملفات الحزب الشيوعي البريطاني التي تضم قائمة بالمبالغ السرية التي قدمت الى الحزب من قبل الســوفييت . وقــد ثــارت شكــوكنا حــول انه من المحتمل ان تكون هذه الملفات موجودة في شقة (روبين فالبر) الذي أصبح في وقت متأخر امين صندوق التمويلات الروسية . و (فالبر) هو عضو بارز في الحزب الشيوعي البريطاني ، ولذلك ، فانه حينما نشر اعلاناً للبحث عن مستأجر ليشغل الطابق الارضي من منزله ، قمنا بزرع عميل هناك . وعلــى الفور ، وبينما كنا نخطط للسطو على الشقة العليا ، قام (فالبر) بطرد المستأجر دون إبداء أي سبب لهذا الاجراء .

وفي حين ان موجة القلق كانت تعصف داخل (ليكونفيلد هاوس) فانني كنت لا أزال متروكاً في عزلة ووضع يائس في مديرية العلوم . وقررت ان اقوم بتحقيقاتي الخاصة . وعلى امتداد فترة بضعة شهور أخذت باستعارة ملفات من قسم السجلات . بدأت أولاً بملفات عمليات الميكروفونات التي شاركت فيها في منتصف سنوات الخمسينات : عملية (كوير) في (لندن) وعمليتا (ديووورم) و (بيغ روت) في كندا – وجميعها فشلت بشكل لا يمكن تفسيره – وعملية (مول) في استراليا . وقمت بدراسة كافة القضايا بدقة . ففي كل عملية تعرضت الى الفشل – على الرغم من الافتراضات المعقدة لشرح أسباب الاخفاق – كان هناك احتمال جدي بان تكون قد افشيت الى الروس من قبل جاسوس في (م آي ٥) . ثم كانت هناك القضايا التي شغلت بال (وينتربورن) . وللمرة الثانية ، يمكن ايجاد تفسيرات بديلة . ربما كنا خرقاء وربما تكهن (فالبر) بهوية عميلنا ، ولكنني وجدت انه من الصعوبة بمكان تصديقها . وكان التسريب هو مجرد احتمال . وقمت بالتالي باستعارة ملفات العملاء المزدوجين جميعها والتي شــاركت فيها خلال سنوات الخمسينات . كانت هذه القضايا تزيد على العشرين ، وكانت جميعها عقيمة . وبالطبع ، فــان اللوم يقع علــى عاتق الاتصالات اللاسلكية لقسم المراقبة بشكل رئيسي .

لكـــن قضيــــة (تيسلر) تـركـت الشكـــوك المـــزعجـــة في ذهني . فالاختبارات التي أجريت على (لولاكوف / مورو) لم تستبعد احتمال وجود مصــــدر بشري اضافة الـــى مراقبة اتصالات قسم المراقبة . وبعدها كـــان (لونسدال) واخيراً (فيلبي) . ومرة أخرى نفس الاسلوب ونفس الطريقة . لم تنجح حتى ولا عملية واحدة كما خطط لها ، وكلها تمتلك نفس الدرجة من الدليل على وجود تدخل روسي .

هناك نقطة في أي سر حينما يصبح شكل الاجابة واضحاً بشكل مفاجيء . ومن خلال هذه الشهور التعيسة التي قضيتها في (بكنغهام غيت) في شتاء عام ١٩٦٢ - ٦٣ التي استغرقت خلالها فـــي الملفات ، وأنا اقوم باعادة تدقيق ومطابقة التفاصيل المعقدة لحوالي ثماني سنوات من العمل المرهق ، بدت كل الامور واضحة بشكل مفاجيء . وما كان حتى ذلك الوقت مجرد فرضيات ، أصبح جزءاً من الواقع . لقد كان هناك جاسوس ، والسؤال الوحيد : مَن هو ؟ قضيت أسابيع أخرى وأنا أقوم - بشكل مجهد - بتدقيق التواريخ التي تم فيها فتح واغلاق الملفات ، ومتى بدأت ومتى انتهت . وكانت النتيجة دائماً : خمسة أسماء هي (هوليس) و (ميتشل) و (كمنغ) و (وينتربورن) وأنا . كنت أعلم ان المطلوب ليس أنا ، و (هيو وينتربورن) لا ينطبق عليه هذا الأمر لأنه لا يتناسب معه ، وكنت أعرف انه لا يمكن ان يكون هو ، واستبعدت (كمنغ) منذ البداية ، فهو انسان رقيق جداً لدرجة انه لا يمكن ان يقوم بمثل هذا العمل . وهكذا ، فقد بقـــي (هوليس) و (ميتشل) . هل هو (هوليس) المتحفـــظ والبيـــروقراطي المبتذل الذي خدمت تحت امرته وكانت علاقتي بـــه غير ودية ؟ أم هـــــو (ميتشل) نائب (هوليس) الذي أعرفه بدرجة أقل ؟ لقد كان الغموض يحيط به ، وكان بعيد النظر لدرجة انه كان يتجنب ان تقع عيونه على عيون الآخرين . كان رجلاً ذكيا الى درجة كافية كي يكـــون جاســـوساً . كنـــت أعرف أن اختياري له فيه شيء من الاجحاف ولكنني في عقلي اؤيد اتهام (ميتشل) .

في مطلع عام ١٩٦٣ ايقنت ان أحد هذين الرجلين كان يعرف ما الذي أفعله . فحينما بدأت تحقيقاتي الخاصة ، اعتدت على وضع الملفات في خزنتي في اوضاع معينة مستخدماً اشارات دقيقة بواسطة قلم الرصاص ، حتى اكون قادراً على معرفة فيما اذا كان قد تم تحريكها . ذات صباح . دخلت الى غرفة مكتبي لأرى ان الملفات قد حركت من مكانها . وكان هناك رجلان فقط هما مَن يحق لهما الوصول الى خزنتي : المدير العام ونائبه اللذان يحتفظان بنسخ عن كافة ارقام الاقفال . وبدأت الظلال تتجمع : الخيانة تتجول في الممرات .

بعـــــد هروب (فيلبي) بدأ (آرثر) بالانزواء بشكل ملفت للنظر ، وقد رأيت انه كان مشغول البال ، ولكنه كان بكل تهذيب يحاول أن يخفي عني معرفة ما كان يفعل . قضيت عدة امسيات معه في منزله بالقرب من محطة (ايوستون) وعلى الرغم من أننا بحثنا قضية (غوليتسين) بشكل عام ، الاّ انه

رفض الانجرار الى البوح بماهية التحقيقات الأخرى التي كان يقوم بها . ولانني كنت على قناعة بانه من المحتمل ان يتم الاستغناء عن خدماتي في أي لحظة ، أو على الاقل نقلي من مركز عملي بطريقة من الطرق ، فانني بدأت اختلق الاعذار لزيارة مكتب (ارثر) بعد ساعات الدوام ، ومعي الملفات التي استخدمتها في تحقيقاتي الخاصة المتعلقة بالقضايا الثماني والثلاثين .

" هل تعتقد أن لهذا الأمر أهمية ؟ " هكذا كنت أسأل (آرثر) وأنا ألفت انتباهه الى غموض صغير خلال معالجة قضية عميل مزدوج ، أو انهاء غير معلل لقضية ميكروفونية . كان (آرثر) يحدق صامتا فيما أعرضه عليه ، فيشكرني ، ولا يقول شيئاً . أخيراً ، وفي احدى الليالي ، قال لي :

" انك تعلم من هو ، اليس كذلك يا (بيتر) ؟ " .

" حسناً ، انه إما (روجر) أو (غراهام) " .

وأخبرني أنه يقوم باجراء تحقيق عن (ميتشل) وانه اعتقد ان هناك تسريبا أدى الى هروب (فيلبي) . وقد وصل الى نتيجة مفادها ان (روجر) أو (غراهام) هو الشخص المقصود ، ولكنه لا يعرف أي واحد منهما بالضبط ، ولذلك ، فانه بعد هروب (فيلبي) اجتمع مع (ديك وايت) وعرض عليه المشكلة كلها . كان (ديك) الناصح المخلص له ، وهو الذي انقذه من الموت في أواخر سنوات الاربعينات ، ولذلك ، فان (آرثر) لم ينس ذلك الدين الذي بذمته . وطلب منه (ديك) العودة ثانية في اليوم التالي حيث سيكون لديه (آرثر) المزيد من الوقت للتفكير في الموضوع . وهذا ما فعله (آرثر) . كان (ديك) حساساً جداً تجاه هذه القضية ، وكان متأكداً من ان (روجر) لا يمكن ان يكون هو الجاسوس ، واعتقد ان (ميتشل) ربما كان هو الشخص المحتمل ، وطلب من (آرثر) ان يحدث (هوليس) بمخاوفه . ونتيجة لذلك ، أوعز (هوليس) الى (آرثر) البدء في عملية تحقيق عن نائب المدير العام . كان (آرثر) قد بدأ منذ فترة قصيرة بتنفيذ عملية الاستقصاء . حينما كنا نناقش هذه الافكار سألني :

" منذ متى وأنت قلق تجاه هذه الأمر ؟ " . فأجبته :

" منذ قضية (تيسلر) ... " .

فتح (آرثر) درج طاولة مكتبه ، وأخرج منها زجاجة من الويسكي ، وصب لنا مقداراً صغيراً في كوبَيْ قهوة ، ثم قال :

" هل أخبرت (روجر) ؟ " .

فقلت له انني ناقشت معه القضية مرتين من قبل : الاولى كانت بعد قضية (تيسلر) والثانية بعد قضية (لونسدال) مباشرة . ولكن في المرتين كان يتم دفن الموضوع . وبدت عليه علائم الدهشة ، ثم قال :

" افترض انك تخمن ما الذي اقوم بفعله ؟ " . فأجبته :

" انه ميتشل ، أليس كذلك " . فقال مسرعاً باجابتي :

" ثمة شخص أخبر (كيم) متى يجب عليه ان يهرب ٠٠٠ انني متأكد من ذلك . شخص واحد فقط في مكانة (غراهام) يعرف بما فيه الكفاية كي يفعل هذا " .

وأخبرني أنه بعد هروب (فيلبي) قابل (ديك وايت) ليخبره عن شكوكه في ان الجاسوس هو أحد اثنين : (هوليس) أو (ميتشل) . وكان هذا الأمر شيئاً طبيعيا بالنسبة لـ (آرثر) كي يقوم به .

وأخبرني (آرثر) بأن عليّ ان أقابل (هوليس) وأضاف :

" أخبره اننا تحدثنا بهذا الموضوع وانني اقترحت عليك مقابلته . هذه هي الطريقة الوحيدة " .

اتصلت هاتفيا بمكتب (هوليس) وتم تحديد موعد فوري للمقابلة الأمر الذي أثار دهشتي . استقليت المصعد الى الطابق الخامس ، وانتظرت الضوء الأخضر كي ينير فوق باب غرفته ، وأدخلتني السكرتيرة .

كان (هوليس) يجلس وراء طاولة مكتبه تحت النافذة ، وهو منهمك فـــي العمل في أحد الملفات ، وأمامه مجموعة من الاقلام ، قد شحذ كل واحد منها بدقة . تقدمت حتى وقفت على بعد بضعة أقدام من الجانب الآخر لطاولة المكتب . لم يرفع رأسه . انتظرت صامتا للحظة أخرى ، في حين كانت صور المدراء السابقين تحدق بي بشكل مؤذ من خلال الصور المعلقة على الجدار . وبقيت انتظر ، وبقي قلمه يخرطش على الملف . ثم سألني :

" كيف أستطيع مساعدتك يا (بيتر) ؟ " .

تلعثمت فـي البدايـة بشكل سيء . كانت الساعـــة الأخيرة التي قضيتها تبعث علـــى التوتر ، ثم قلت :

" لقد كنت أتحدث مع (آرثر مارتين) يا سيدي " .

" أوه ؟ " . ولم يبد أي أثر للاندهاش في صوته ، ثم تابعت :

" لقد أرخيت شعري أمام مخاوفي ... " .

" أعرف ... " . وواصل عمله ، فقلت :

" لقد قمت باجراء تحليلات أخرى يا سيدي ، وقال لي انه يجب علي أن أحضر الى هنا لأطلعك عليها " . قال :

" هل تسمح بوضعها على الطاولة هناك " .

تراجعت الى الوراء عبر الغرفة ، وجلست علـــى طاولة الاجتماعات الضخمة اللامعة . انضم (هوليس) اليّ ، وبدأ القراءة بصمت . كان يتوقف بين الفينة والأخرى عند نقطة من النقاط الواردة

في تقريري ليمحصها . غير انني كنت أحس انه ليست هناك أي معارضة هذا اليوم . وكان يبدو على الأغلب انه يتوقع زيارتي له .

حينما أنهى قراءة التحليل قال :

" هل تعلم انه سيحال الى التقاعد بعد ستة شهور ؟ " . فقلت متسائلاً ، وقد أحسست بقلق واضطراب :

" ميتشل ؟ " . لقد كنت أعرف ان ما زالت أمامه سنتان على الأقل قبل ان يحال الى التقاعد .

قال (هوليس) :

" لقد طلب ذلك قبل مدة ... لا أستطيع تغيير شيء الآن ، وسأعطيك مهلة الشهور الستة تلك كي تثبت ذلك . بامكانك إشراك (مارتين) معك ، وسأسوي الموضوع مـــع (ويليس) " .

وأعاد لي الملف . وقال :

" لا داعي كي أخبرك بما لا أرغب به . انت تعرف ذلك بالتأكيد ... لن تتسرب ولا كلمة عن هذا الاستقصاء ، مفهوم ؟ " . فأجبته :

" نعم يا سيدي " . ثم قال لي وهو يعود الى طاولة مكتبه وأقلامه :

" ستكون بحاجة لمعرفة خلفية (ميتشل) . سأتخذ الترتيبات اللازمة لتمكين (آرثر) من الحصول على سجل خدمته " .

"شكراً لك يا سيدي " .

كان قد عاد الى الكتابة ، في حين خرجت من عنده .

١٣

حالما انضممت الى قضية (ميتشل) عرفت أعظم سر من أسرار التجسس المضاد في العالم الغربي ، ألا وهو حل رموز شيفرة (فينونا) . ومن أجل فهم ماهية (فينونا) وأهميتها الحقيقية ، فانه يتوجب عليك ان تعرف القليل عن العالم المعقد للكتابة السرية . ففي سنوات الثلاثينات من القرن العشرين ، تبنت أجهزة الاستخبارات الحديثة - كالمخابرات الروسية ، وكذلك الأمر بالنسبة للمخابرات البريطانية - نظام لبادة الرموز التي تستخدم لمرة واحدة في عملية الاتصالات ، باعتبار أن هذا النظام هو آمن شكل من أشكال التشفير المعروفة ، لأن كلاً من المرسل والمرسل اليه هما فقط مَن يمتلك نسخاً من هذه اللبادة . ولما كانت كل طبقة من الطبقات تستخدم لمرة واحدة فقط ثم يتم اتلافها ، فان الرموز تبقى غير قابلة للحل . ومن أجل القيام بارسال رسالة من خلال استعمال اللبادة لمرة واحدة ، فان المرسل يعمد الى ترجمة كل كلمة من الرسالة الى مجموعة رقمية تتألف من أربعة أرقام اضافة الى استعمال دفتر الرموز . فعلى سبيل المثال ، اذا كانت الكلمة الاولى للرسالة هي " دفاع " فان رمز هذه الكلمة قد يصبح ٣٧٦٥ ، ثم يضاف هذا الرقم الى المجموعة الاولى الموجودة على اللبادة المستعملة لمرة واحدة - ولتكن ١١٩٦ - وعندها يصبح الرقم هو ٤٨٥١ طبقاً لمبدأ نظام (فيبوناتشي) . ان هذه العملية في الواقع هي عملية تشفير مزدوج (ويعرف هذا النظام ايضاً باسم النظام الصيني حيث لا ترحل الارقام التي هي اكبر من الرقم ٩ . وتعتمد كل انظمة الشيفرة على نظام فيبوناتشي ، فترحيل

الارقام يؤدي الى توزيع غير عشوائي) * .

وقد أصبح حل رموز (فينونا) أمراً ممكنا لأن مادة الشيفرة كانت قد نقصت لدى الروس أثناء الحرب ، وكان الضغط على نظام اتصالاتهم كبيراً ، الى الحد الذي اضطروا معه الى انتاج نسخ من مجموعات لباداتهم المستعملة لمرة واحدة وارسالها الى سفاراتهم المختلفة في الغرب . اما فرص حل رموز اتصالاتهم فقد كانت ضئيلة في الواقع . وكانت الرسائل التي ارسلت الى جميع انحاء العالم كثيرة العدد ، وقد عمل الروس من خلال خمس قنوات : قناة للاتصال بالسفارات ، وقناة للاستخبارات العسكرية ، وثالثة للاستخبارات البحرية ، ورابعة للـ (ك ج ب) وأخيراً قناة الخط التجاري – المرتبط بالبرنامج الكبير للمعدات العسكرية – المار من الغرب الى الشرق خلال فترة الحرب . وقد تضمنت هذه القنـــاة حـــوالي ٨٠٪ من اجمالي الرسائل الروسية . فقد ترسل مجموعة لبادات الـــــى رجـــال الـ (ك ج ب) في (واشنطن) لاستخدامها في اتصالاتهم مع (موسكو) ، ويتم تصوير نسخة طبق الأصل منها لتكون قناة الخط التجاري بين المكسيك و (موسكو) .

بعد مرور فترة قصيرة على نهاية الحرب ، أخذ محلل شيفرة أمريكي ذكي ويدعى (ميريديث غاردنر / من وكالة أمن القوات المسلحة الامريكية التابعة لوكالة الأمن القومي) بالعمل على بقايا دفتر رموز روسي محترق وجد على أرض احد ميادين المعارك التي دارت في (فنلندا) . وعلى الرغم من ان هـذا الدفتر لم يكن كاملاً ، الاّ انه كان يحتوي على مجموعات لأهم التعليمات المتعلقة بالرسائل اللاسلكية : التعليمات الخاصة بـ " تهجئة " و " نهاية التهجئة " . ان هذه التعليمات هي تعليمات عامة لأن أي دفتر رموز يحتوي على " كلمة " رئيسية واحدة فقط . وحيثما يفتقر المرسل الى مجموعة متعلقة بالموضوع في دفتر الرموز – والأمر يكون دائما متعلقاً بالأسماء – فانه يضطر الى تهجئة الكلمة حرفاً اثر حرف ، مبتدئا بقوله : " تهجئة " ومنهياً تلك التهجئة بقوله " نهاية التهجئة " وذلك من أجل تنبيه المرسل اليه .

ومن خلال استخدام (غاردنر) لهذه المجموعات العامة ، ومطابقتها مع عملية اتصالات لاسلكية روسية سابقة ، تبين له وجود نسخ أخرى تستخدم في بعض القنوات الأخرى ، الأمر الذي يشير الى أن نفس اللبادات التي تستعمل لمرة واحدة يمكن ان يتم استعمالها مرة أخرى . و بالتدريج ، قام بمقارنة حركة الاتصالات التي تم تشفيرها باستخدام نفس اللبادات ، ثم بدأ محاولة حلها . ولم يصدقه أحد في

---

* التـرحيل فـــي الحسابات هـــو نقل رقـــم من صفحة الى أخرى أو من خانة الى أخرى . فمثلا حين نجمع ٧٩ + ١٥٨ يكون لدينا ٩ + ٨ = ٧ و نبقي لنضيفه الى خانة العشرات ، وكذلك ٧ + ٥ = ٢ و نبقي ١ لنضيفه الى خانة المئات . وحسب نظام (فيبوناتشي) فاننا لا نضيف هذه الارقام الى خانة غيــر خانتها فيكـــون مجمـــوع الرقمين ٧٩ + ١٥٨ = ١٢٧ وليس ٢٣٧ كما هو في الحساب (المترجم)

باديء الأمـر حينما ادعى انـه تمكن من حل الشيفرات الروسية ، ولم يحمل قوله محمل الجد الاّ حينما تمكن من تحقيق اختراق رئيسي في قناة الاتصال بين (موسكو) وسفارتها في (واشنطن) . وقد تمكن من تحليل الجملة الانكليزية التي تقول " الدفاع لا يربح الحروب " والتي كانت تشكل النداء لسلسلة التعليمات " تهجئة / نهاية التهجئة " . وقد عرف (غاردنر) ان الاتصال يدور حول كتاب نشر في الولايات المتحدة الامريكية قبل فترة وجيزة من ارسال هذه الرسالة ويدور حول استراتيجية الدفاع . وقد شاركت وكالة أمن القوات المسلحة البريطانيين بهذا السر بدءاً من هذه النقطة ، وكان البريطانيون قادة العالم في مجال تحليل الشيفرة وكذلك الامر بالنسبة للكتابة السرية . وبدأ الامريكيون والبريطانيون بذل جهود مشتركة لاختراق حركة الاتصالات السرية ، واستمر هذا الأمر اربعين عاماً .

وقـد أحـرزت العملية (برايد / كما عرفت في البداية) وعرفت فيما بعد بـ (درج) ودعيت بـ (فينونا) في بريطانيا ، أحرزت تقدماً بطيئاً على نحو مؤلم . فالعثور على " النظير" * بين كتلة الاتصالات المتوافرة حينذاك استغرق وقتا طويلاً . لكن حتى بعد العثور على هذه " النظائر " فانه لم يكن هناك ما يؤكد انه يمكن حل رموز الرسائل المتبادلة بين جانبي النظير . ولما كان دفتر الرموز غير كامل ، فان محللي الشيفرة كانوا يميلون الى استخدام المخابرات " المتطابقة " . فلو وجد – مثلاً – تشابـه بين قناة الـ (ك ج ب) المستخـدمة بين (واشنطن) و (موسكو) ، وقناة الخط التجاري بين (نيويورك) و (موسكو) ، فانـه من الممكن ان تتم مهاجمة القناة التجارية من خلال استخدام معلومات " متطابقة " تتعلـق ببيانات الشحن ، وسجلات الشحن ، وأوقات المغادرة وكذلك أوقات الوصول ، ومواعيد حركة المد ، والجزر ، وهكذا دواليك ، وذلك من أجل تحديد تاريخ الرسالة . وقد أتاحت هذه المعلومات لمحللي الشيفرات التنبؤ بما يمكن ان تحتويه حركة الاتصالات التجارية . وحينما تمت عملية اختراق أحد جانبي " النظير " عمل ذلك على تزويد دفتر الرموز بمجموعات اكثر ، وساعد على الوصول الى اختراقات في الجانب الآخر .

وعمل البريطانيون والامريكيون على تطوير طريقة رئيسية لتوسيع اختراقات (فينونا) ودعيت تلك الطريقة بـ " فهرس النافذة " اذ ان كل كلمة وكل جملة يتم حلها ، كانت تدرج في فهرس لكل مكان آخر ظهرت فيه في حركة الاتصالات النظيرة . وأخذ البريطانيون يدخلون هذه الكلمات التي تم حل رموزها في فهرس من خلال استخدام طريقة أكثر تقدماً ، اذ عمدوا الى وضع مجموعتين غير محلولتين على كل جانب من جانبي كلمة أو جملة محلولة ، حيث أدت " فهارس النوافذ " بعد مـرور فترة من الوقت الى حصول عمليات من التكرار حيث تبعت كلمات مختلفة كان قد تم حلها نفس المجموعات غير المحلولة ، وكثيراً ما قدم التكرار تطابقاً لبدء هجوم ناجح على المجموعات . وهكذا ، تم توسيع الفهارس

* النظير : يقصد بها نسخة الرمز المكرر (المترجم)

النافذية . وكانت هناك تقنية أخرى هي (السحب) فحيثما ظهر تسلسل " تهجئة / نهاية التهجئة " أو ظهـــر اســـم ولـــم يعرف محللو الكتابة السرية ما هي الحروف المفقودة للتسلسل المهجأ ، سحبت المجموعات باستعمال كمبيوتر عبر القنوات الباقية ، وكانت تخرج قائمة بكل التكرارات . ثم شرع محللو الكتابة السرية في العمل على الجانب العكسي لنظائر التكرار ، وكان الأمل يحدوهم في أن يهاجموا بتلك الطريقة تسلسل " التهجئة / نهاية التهجئة " .

كانت هذه العملية فناً يعوزه الاتقان والدقة ، وغالباً ما كان التقدم يتم بمعدل كلمة واحدة أو اثنتين في الشهر ، ثم يندفع الى الامام فجأة ، كما كان الأمر عليه حينما تمكن الامريكيون من اكتشاف النص الكامل لحديث مسجل في قناة (واشنطن) المخصصة للاتصال بالسفارات . وغالباً ما كانوا يواجهون صعـوبات جـديدة : فقـد كانـت اللبادات المستعملة لمرة واحدة تستخدم بطريقة مبتكرة جديدة : الى الأعلى والى الاسفل أو مطوية ، الأمر الذي جعل عملية العثور على نظائر اكثر صعوبة الى حـد بعيـد . كما كانت هناك أيضا صعوبات في دفاتر الرموز ، اذا انها كانت عرضة للتغيير أحياناً ، حيث ان قنوات الاتصالات بالسفارات ، والمخابرات العسكرية ، والقنوات التجارية كانت تستخدم دفتر رموز مرتب حسب الحروف الأبجدية تماماً ، كالقاموس الى حد ما ، وذلك من أجل ان يتمكن محللو الشيفرات من تخمين المجموعة في المكان الذي تتوضع فيه في الدفتر . وقد استخدم جهاز الـ (ك ج ب) دفتر رموز خاص مؤلف من عدة مجلدات ، اضافة الى كونه مرتب بشكل عشوائي ، مما جعـل عمليـة حل رمـوز قنوات الـ (ك ج ب) ذات النظائر مهمة صعبة جداً . وكان الجهد المبذول في (فينونا) هائلاً ، اذ ان قيادة الاتصالات الحكومية في بريطانيا ووكالة الأمن القومي و (م أي ٥) استخدموا فريقاً من الباحثين يجولون أنحاء العالم للبحث عن المعلومات " المطابقة " لكن ، وعلى الرغم من الجهد المبذول ، فقد تم اختراق ما نسبته أقل من ١ ٪ من (٢٠٠,٠٠٠) رسالة التقطناها وقد تم حل بضع كلمات فقط من الكثير من هذه الرسائل .

غير أن أثر (فينونا) على الاستخبارات البريطانية والامريكية كان هائلاً ولم يكن هذا الأمر متعلقاً بعمليات التجسس المضاد التي تلقيناها فحسب ، بل كان متعلقاً بالتأثير الذي وجد فيما يتعلق بتشكيـل المواقـف فـي العالم السري . ومع حلول سنوات الاربعينات ، تم احراز تقدم كاف في قنـــوات اتصـــال الـ (ك ج ب) بين (نيويورك) و (موسكو) ، و بين (واشنطن) و (موسكو) لقناة الـ (ك ج ب) ، الامـــر الذي كشف عن مدى نشاط الروس الكبير في مجال التجسس في الولايات المتحدة الامريكية خلال فتـرة الحرب ، وبعدها مباشرة . وقد أمكن اكتشاف اكثر من (١٢٠٠) اسم ســري في حركة الاتصالات . وكـان من السهـولـة بمكان تصنيـف هــذه الاسماء حتـى ولـــو لـــم يتم حل شيفرة الاسماء السرية ، وسبب ذلك هو ان هذه الاسماء كانت باستمرار جزءاً من

تسلسلات " التهجئة / نهاية التهجئة " .

ومن بين الـ (١٢٠٠) اسم تلك ، تم تحديد ما يزيد على (٨٠٠) اسم على انها اسماء عملاء سوفييت مجندين . ومن المحتمل ان تكون غالبية هذه الاسماء من الاسماء ذوات الاتصالات ذات المستويات الدنيا التي تعتبر قوام الاتصالات الجارية في كافة شبكات التجسس . غير ان بعض هذه الاسماء كانت لها أهمية كبيرة ، وتبين ان حوالي أربعة عشر عميلاً من هؤلاء يعملون في – أولهم علاقة وثيقة – مكتب الخدمات الاستراتيجية (المكتب السابق للسي آي ايه أثناء الحرب) وكان لخمسة عملاء صلة – بدرجة أو بأخرى – بالبيت الابيض ، بما فيهم شخص كان قد سافر عائداً من (موسكو) الى الولايات المتحدة الامريكية على متن طائرة السفير (افيريل هاريمان) الخاصة ، وقد تم اكتشاف هذا الأمر من خلال مراقبة حركة الاتصالات . اما أخطر ما في الأمر فقد كان وجود حلقة من عملاء الروس داخل برنامج تطوير الاسلحة الامريكية النووية ، وكذلك وجود حلقة أخرى تمتلك حرية الوصول الى كل وثيقة هامة تم تبادلها بين حكومتي بريطانيا والولايات المتحدة عام ١٩٤٥ ، بما في ذلك البرقيات الخاصة التي أرسلها (تشرشل) الى الرئيسين : (روزفلت) و (ترومان) .

ومن خلال استخدام دلائل معينة من خلال حركة الاتصالات السرية ، تم تحليل بعض هذه الحالات ، فتبين ان (ماكلين) كان أحد مصادر برقيات (تشرشل) اضافة الى أشخاص آخرين عديدين ، وتم الكشف عن ان (كلاوس فوخس) وأسرة (روزنبرغ) كانوا يعملون في مجال التجسس النووي ، فيما دلت عملية مقارنة عقدت بين بعض المعلومات الجغرافية في الرسائل السرية وبين حركـــــات (ألجير هيس / وهو مسؤول كبير في وزارة الخارجية الامريكية) والتي أجريت لمدة طويلة على أن (هيس) هـــو الـــذي تدور حوله الشبهات بالدرجة الأولى من حيث كونه العميل الذي كان يركـــب طائـــرة (هاريمان) ، ولكن ، وعلى الرغم من الجهود الحثيثة المبذولة في مجال التجسس المضاد ، وتحليل الكتابة السرية فان الأسماء السرية بقيت مجهولة الهوية حتى يومنا هذا .

امـــا الوضع في بريطانيا فقد كان قاتماً بنفس الدرجة ، ولكن مع وجود أختلاف أساسي واحد . فبينما كانت كافة حركة الاتصالات اللاسلكية السوفييتية تعمل في الولايات المتحدة خلال فترة الحرب وبعدها ، فان (تشرشل) أمر بايقاف كافة عمليات التجسس المضاد للسوفييت خلال فترة التحالف بين بريطانيا وروسيا أثناء الحرب ، ولم تعمد قيادة الاتصالات الحكومية الى اعتراض حركة الاتصالات السوفييتية مرة أخرى الاّ بعد نهاية الحرب . لذلك ، فان حركة الاتصالات كانت أقل ، وقد تم اختراق واحدة منها فقط خلال الاسبوع الممتد بين الخامس عشر من شهر ايلول والثاني والعشرين منه في قناة جهاز الـ (ك ج ب) بين (موسكو) و (لندن) .

كانت هناك سلسلة من الرسائل تم ارسالها الى مسؤول الـ (ك ج ب) في السفارة السوفييتية

في لندن (بوريس كروتوف) المتخصص في ادارة العملاء ذوي الدرجات العليا . وقد وصلت هذه الرسائل في وقت كانت تعاني خلاله الاستخبارات الروسية في الغرب من أزمة تمثلت في هروب (ايغور غوزينكو / موظف شيفـرة شاب فـي الاستخبارات العسكرية الـروسية ويعمل في السفارة الروسية في كندا) حيث هرب وبحوزته مادة وفيرة من شأنها أن تدين عدداً من الجواسيس في كندا والولايات المتحدة الامريكية ، اضافة الى جاسوس له علاقته في المجال الذري ويدعى (ألان نان ماي) . وكانت غالبية الرسائل الموجهة الى (كروتوف) من مركز (موسكو) عبارة عن معلومات حول كيفية ادارة مختلف أنواع العملاء الذين يشرف عليهم . وكان اجمالي عدد الاسماء السرية هو ثمانية أسماء ، أشير الى ثلاثـة منهـا ، على انها " الارغنتورا القيمة " و يقصـد بها شبكـة جواسيس ، تتكـون مـن (ستانلي) و (هيكس) و (جونسون) ، اضافـة الى اثنين آخـرين كان يشار اليهما معاً على انهما (دافيد) و (روزا) وثلاثة آخرين . ومع حلول موعد توقف الاتصالات عند نهاية الاسبوع تم تجميد كل عمليات الاتصال بالجواسيس الثمانية ، واقتصرت الاتصالات على اجتماعات تعقد شهريا الاّ في الحالات الاستثنائية .

حين أطَّلعْتُ على (فينونا) تذكرت اول مرة رأيت فيها نسخ قيادة الاتصالات الحكومية لقناة جهـاز الـ (ك ج ب) بين (مـوسكو) و (لندن) . ففـي كل مرة يتم خلالها اختراق بضع كلمات في رسالة ، فانهم كانوا (القيادة) يقومون بتوزيع نسخ من الحل الجديد للشيفرة على عدد محدود من الاشخاص الذين يستخدمونها . وكانت النسخ تمهر بعبارة " سري للغاية امبرافينونا " ويدرج اسم المـرسل والمرسل اليـه في قائمـة مـع تاريـخ وتوقيت الرسالة ، وقناة الاتصال ، والجهة المرسلة اليها (مثل : ك ج ب موسكو / لندن) وأولـوية الـرسالة إن كانـت عاجلة أو روتينية ، وفيما يلي مثال على ذلك :

نص رسالة :

اتصالكم ٧٤٦٨٩ و ٢٩٨٥. ٤٧١٩٩ ٦٧٧٨٩ ٨٨٠٠٥ ٦٢٩٧١ المتعلق بـ " تهجئة " هـ – ي – ك – س " نهاية التهجئة " ٥٥٥٥٧ ٨١٠٤٥ ١٠٨٣٥ ٦٨٩٧١ ٧١١٢٩ حذر بالغ في الوقت الحالي ٥٦٦٩٠ ١٢٧٤٨ ٩٢٦٤٠ ٤٧١ ٠٠ " تهجئة " س – ت – ا – ن – ل – ي " نهاية التهجئة " ٣٧١٠٦ ٧٢٨٨٥ شهريا حتى اشعار آخر توقيع الرسالة

(ليس هذا النص هو النص الحرفي للشيفرة بشكل يمكن ان يقال عنه انه طبق الاصل ، وانما هو مثال على نوع التحدي الذي واجهنا) .

كانـت (فينونا) اكثر الأسرار عمقاً ورهبة ، ولم تكن كاملة بالمعنى الدقيق .. وكان من الواضـح – من خلال حل الشيفرة – بأن الاسماء السرية الثمانية هي لجواسيس على غاية من

الأهمية ، وقد تأكدنا من ذلك من خلال العناية التي كان يضفيها عليهم الروس لحمايتهم كلهم في شهر ايلول من عام ١٩٤٥ ، ولاننا كنا نعرف ان (كروتوف) متخصص في ذلك النوع من العملاء . غير أن ثمة دليلاً صغيراً ، وله قيمته – حصلنا عليه من خلال حركة الاتصالات – كان من الممكن ان يساعدنا في تحديد هويات هؤلاء الاشخاص الثمانية . وكانت قيادة الاتصالات الحكومية تقوم بتوزيع ترجمات محققة تضم المجموعات غير المحلولة بشكل حرفي حيثما تحدث وذلك بشكل طبق الأصل . غير انهم كانوا في الغالب يرفقون مع النسخة صفحة واحدة من الملاحظات تقدم ترجمات ممكنة للمجموعة الغريبة التي لم يكن قد تم التحقق منها . وغالباً ما كانت الرسالة تكرر عدة مرات وذلك حين يتم خروج المزيد من المجموعات ، ثم تتم اعادة توزيعها .

كنا متأكدين من ان (ستانلي) لا بد وأن يكون هو (فيلبي) سيما وان (غوليتسين) قد سمع رمز اسم (ستانلي) مقرونا بعمليات الـ (ك ج ب) في الشرق الأوسط ، غير انه لم يكن يوجد أي بـــرهان علـــى ذلك فـــي حركة الاتصالات . ولذلك فـان (هيكس) كان هو (بيرغس) بالتأكيد تقريبا ، بسبب الاشارة الى (أرغنتورا) وبسبب الاشارة المقنَّعة الى مزاج (هيكس) . كذلك ، فمن المحتمل ان يكون (جونسون) هو (بلنت) على الرغم من انه لم يكن هناك أي برهان ايضاً على ذلك من خلال حركة الاتصالات . ومع هذا ، فان هويات الجواسيس الخمسة الآخرين بقيت لغزاً . ومن الـــواضح أن (ماكلين) لم يكن أي واحد من هؤلاء لأنه كان في (واشنطن) خلال شهر ايلول من عام ١٩٤٥ . لقد كانت نتائج تحريات (ميتشل) واضحة ، وكان أي واحد من الاسماء السرية الخمسة المجهولة لا بد وأن يكون جاسوساً في (م آي ٥) . واستذكر متسائلاً باندهاش ، وأنا اقرأ حلول الرسائل السرية التي تبعث على الألم كيف كان مَن هم على رأس (م آي ٥) ينامون كل ليلة خلال السنوات العشر الماضية وهم أول من حلت شيفرتهم .

ربما كان من اكثر الأمور خروجاً عن المألوف في قصة (فينونا) برمتها ، هو أنها أُقفلَتْ في كـــلا جانبـــي المحيـــط الاطلسي عام ١٩٤٥ . فبعد بداية موجة النشاط في أواخر سنوات الاربعينات ، وأوائل سنوات الخمسينات ، وسلسلة المحاكمات التي تلت ذلك ، أخذ التقدم الذي كنا قد أحرزناه في مجال تحليل الشيفرة يتباطأ حتى توقف بشكل فعلي . لقد وصلت المعالجة اليدوية الى حدود تقصيرات العقل البشري ولم تكن أجهزة الكمبيوتر في تلك الفترة على درجة من القوة الكافية لمعالجة البرنامج بفعالية اكبر ، اضافة الى وجود سبب آخر ايضاً ، تمثل في ان الروس قد بدأوا عام ١٩٤٨ بتغيير اجراءات رموزهم في جميع انحاء العالم ، متخلين عن اللبادات المتكررة المستنسخة . وكان آخر ما نتج عن هذا هو عملية (فينونا) الاسترالية التي كانت تحرز المزيد من التقدم الى درجة أمكن معها للبريطانيين والامريكيين – بالفعل – قراءة شيفرات الروس بشكل مستمر وذلك حال ارسال

الرسائل اللاسلكية . ولم يكن الاستراليون على معرفة بذلك الأمر في ذلك الوقت ، ولكن تم اعلامهم عنه بعد مرور بضع من السنين ، على الرغم من انه تم اعلامهم بكافة المعلومات الاستخباراتية بعد اجراء تهـــذيب وتعديل عليها ، وذلك حينما وصل التغلغل التجسسي السوفييتي - خصوصاً في وزارة الخارجية - الى حد أصبح فيه واضحاً ، الأمر الذي أدى الى انشاء جهاز استخبارات الامن الاسترالي بمساعدة (م آي ٥) .

وفي بدايات سنوات الخمسينات ، عرفنا سبب قيام الروس بتغيير رموز شيفراتهم اذ ان سر اختراقنا للشيفرة الروسية قد تم افشاؤه اليهم من قبل كاتب شاب يعمل في وكالة أمن القوات المسلحة وهـــو (وليـــم وايزباند) . وفي الواقع ، فان (وايزباند) لم يكن يدرك مدى الخطأ الذي ارتكبه الروس - كان ذلك عام ١٩٤٩ حينما علم (فيلبي) بحجم كارثتهم - على الرغم من أن الاناس الآخرين امثال (روجر هوليس) كانوا منذ غام ١٩٤٨ على علم بذلك حين توقف النظير فجأة في استراليا بعد عودته من مهمة تأسيس جهاز استخبارات الأمن الاسترالي . ومع أن نسخة اللبادات المستعملة لمرة واحدة قد تم سحبها من التداول ، الاّ ان الروس لم يستطيعوا القيام بشيء لمنع العمل المستمر على حـــركة الاتصـــالات التـــي كان قد سبق وأن ارسلوها حتى عام ١٩٤٨ . غير أنهم - وبفضل تعيين (فيلبي) في واشنطن عام ١٩٤٩ - أصبحوا قادرين على الامساك بزمام التقدم الدقيق الذي تم احـــرازه . وحالما عرف الروس بمدى تسرب (فينونا) وبالصعوبات التقنية لايجاد نظائر أخرى مضاعفة - ومر وقت قبل ان يتم العمل على تغيير الأولويات - تم ايقاف الجزء الاكبر من العمل بموجب هذا النظام .

بعد مرور سنوات ، اتخذت ما يلزم من اجراءات كي يقوم (ميريديث غاردنر) بزيارة لبريطانيا كـــي يساعدنا في موضوع (فينونا) البريطاني . كان رجلاً هادئاً وعالماً ، لا يبالي أبداً بالرهبة من كـــونه محاطـــاً بمحللي شيفرة آخرين . وقد دأب على اخباري كيف كان يعمل على النظائر فـــي مكتبه ، وكيف ان رجلاً انكليزياً شابا ، يدخن الغليون ، ويدعى (فيلبي) قد واظب على زيارته بشكل منتظـــم ، وانـــه كان يختـلس النـظر من فوق كتفه ، ويبدي اعجابه بالتقدم الذي كان يحرزه . كان (غاردنر) شخصاً يعيش حالة من الحزن الى حد ما خلال أواخر سنوات الستينات ، اذ كان لديه شعور عميق بان اختراق الكتابة السرية الذي حققه كان عبارة عن شيء من الجمال الرياضي * وكان يشعر بالاكتئاب بسبب الطريقة التي سيتم فيها استعمال هذا الاختراق ، وكان يقول لي دائماً :

" لم أرغب قط في أن أوقع أحَداً في المشاكل " .

لقـــد اصبـــت بالـــرعب من حقيقة ان اكتشافه قد أدى - على نحو حتمي تقريباً - الى الكرسي

---

* الرياضي : متعلق بالرياضيات (المترجم)

الكهربائي ، وشعر (وكذلك أنا) بانه كان من الواجب أن يُعامَلَ (آل روزنبرغ) برأفة على الرغم من كونهم مذنبين . وكانت (فينونا) حسب رأي (غاردنر) مجرد شكل فني تقريباً ، ولم يكن يرغب في ان تلوثها (المكارثية) * .

غير انه كان لاختراق الشيفرات أثر رئيسي على مواقف الحرب الباردة بين اولئك الضباط والمسؤولين الملقنين عقائديا قليلي العدد في داخل أوساط الاستخبارات البريطانية والامريكية ، وقد تمثل ذلك الأثر في ذلك المعين الذي لا ينضب من التاكيدات الجديدة على عمليات الاستقصاء في مجال التجسس المضاد والتي أخذت تزداد داخل أوساط اجهزة الاستخبارات الغربية خلال الحقب التي تلت أول عملية اختراق . وعلى نحو اكثر ايضاحاً ، فانها اظهرت مدى انتشار هجمة الجاسوسية الروسية على جميع أنحاء العالم ، في وقت كانت فيه القيادة السياسية الغربية تتبع على نحو ظاهر سياسة تحالف ومد يد الصداقة . ففي حركة الاتصالات البريطانية مثلاً ، كانت معظم قنوات الـ (ك ج ب) خلال ذلك الاسبوع من شهر ايلول مشغولة بالرسائل الواردة من (موسكو) ، والتي تذكر بالتفصيل ترتيبات عودة سجناء الحلفاء الى السلطات السوفييتية ، مثل القوزاق وغيرهم الذين حاربوا ضد الاتحاد السوفييتي . وكان الكثير من الرسائل مجرد قوائم طويلة لأسماء وتعليمات بوجوب القبض عليهم بأسرع وقت ممكن . وفي الوقت الذي قرأت فيه الرسائل ، كان هؤلاء في عداد الموتى منذ وقت طويل . لكن حقيقة ان السلام لم يحل في عام ١٩٤٥ كانت قد صدمت الكثيرين من ضباط أجهـــــزة الاستخبارات في ذلك الوقت ، اذ تمت عملية مبادلة معسكر اعتقال ألماني بـ (كولاج) سوفييتي .

في عام ١٩٥٩ تم تحقيق اكتشاف جديد أعاد الحياة الى (فينونا) ثانية ، اذ تمكنت قيادة الاتصالات الحكومية من اكتشاف ان استخبارات الاشارة اللاسلكية السويدية كانت قد التقطت كمية وفيرة من اتصالات جديدة أثناء الحرب وعملت على تخزينها ، بما في ذلك رسائل لاسلكية للاستخبارات العسكرية السوفييتية كانت قد أرسلت من والى (لندن) أثناء السنوات الأولى للحرب . وتمكنت قيادة الاتصالات الحكومية من اقناع السويد بضرورة التخلي عن الحِياد ، وتقديم تلك المواد اليهم كي يقوموا بتحليلهـــا . وكان اكتشاف مادة (هاسب) السويدية واحداً من الاسباب الرئيسية التي دعت الى عودة (آرثر) الى القسم (د ا) كرئيس لمكافحة التجسس الروسي ، سيما وانه كان أحد ضباط (م آي ٥) القلائل و الذي كانت له تجربة مباشرة مع (فينونا) من خلال عمله الدؤوب فيها لاجراء تحرياته عن كل من (فوخس) و (ماكلين) .

كانت هنـــاك آمـــال عريضة معقودة بأن (هاسب) ستعمل على تغيير (فينونا) بتقديم معلومات

* المكارثية : نسبـــــة الى مكارثي الشهير في امريكا والذي حارب الكتاب والادباء واضطهدهم وحاكمهم تحت ستار مكافحة الشيوعية (المترجم)

استخباراتية أخرى عن أسماء سرية مجهولة . وعلى نفس المستوى من الأهمية ايضاً من خلال تقديم مجموعات أخرى لدفتر الرموز ، فانها ستؤدي بدورها الى تحقيق اختراقات أخرى في مادة (فينونا) علاوة على ما تم تحقيقه سابقاً . اضافة الى ذلك ، ولأن أجهزة الكمبيوتر التي تمتاز بقوتها وحداثتها قد أصبحت متوافرة الآن ، فانه كان من المعقول جداً اعادة طرح البرنامج برمته (لم أقتنع بأن الجهود قد أوقفت خلال سنوات الخمسينات) وتسارعت الخطى الآن ، بتشجيع قوي من قبل (آرثر) خلال أوائل سنوات الستينات .

وللحقيقة ، فانه لم تكن هناك اكتشافات فورية عظيمة تتعلق ببريطانيا في مادة (هاسب) وكانت غالبية المادة تتألف من تقارير روتينية من قبل ضباط الاستخبارات العسكرية السوفييتية حول الاضرار التي لحقت بأجزاء مختلفة من بريطانيا بفعل القنابل ، وكذلك تقديرات حول القدرة العسكرية البريطانية . وكانت هناك عشرات الأسماء السرية ، والتي كان بعضها مثيراً للاهتمام ، وإن كان أصحابها في عداد الموتى منذ مدة طويلة . فعلى سبيل المثال ، فان (ج . ب . س . هالداين / والذي كان يعمل في محطة تجريبية للغواصات تابعة للادميرالية البحرية في (هاسلير) في مجال البحث في تقنيات الغوص العميق) كان يقدم تفاصيل البرامج الى الحزب الشيوعي البريطاني الذي كان يرسلها بـــدوره الـــى الاستخبـــارات العسكـــرية السوفييتية في (لندن) . وتم تحديد هوية جاسوس آخر هو (أوين مونتاغو) المحترم * ابـــن اللـــورد (سوايثلنج / و هو ليس [يوان مونتاغو] الذي نظم عملية خدعة [رجل لم يكن قط] خلال الحرب) . وكان صحفياً مستقلاً ، وتبين من خلال حـــركة الاتصالات ان الروس قـــد استخدمـــوه لجمـــع معلومات استخباراتية سياسية عن حزب العمال ، وبدرجة أقل عن الحزب الشيوعي البريطاني .

اما الأمـــر غيـــر المألوف في حركة اتصالات الاستخبارات العسكرية السوفييتية فقد كان المقـــارنة التي اجـريت مع حركة اتصالات الـ (ك ج ب) بعد مرور أربع سنوات . وقد تبين ان ضباط الاستخبارات العسكرية السوفييتية كانوا خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٠ - ١٩٤١ في مستوى أدنى من ضباط الـ (ك ج ب) بشكل واضح ، أما روحهم المعنوية فقد كانت في الحضيض ، ويتجولون من مكان الى آخر كدجاج بلا رؤوس نتيجة عملية التطهير التي كان (ستالين) قد قام بها خلال سنوات الثلاثينات . وبحلول عام ١٩٤٥ ، انضم اليهم فريق من ضباط الاستخبارات الروسية المحترفين أمثال (كروتوف) . وكان اجراء ادارة العملاء بشكل كامل يتميز بالمهارة العالية والبراغماتية . وقد أوليت عناية كبيرة لحماية العملاء من أجل استخدامهم لأطول مدة . وفي عام ١٩٤٥ ايضا بينت حركة الاتصالات بأن مركز (موسكو) قد سيطر على اجراءات الاستخبارات العسكرية السوفييتية التي

* صفة يوصف بها أبناء النبلاء أو موظفو الدولة الكبار في بريطانيا (المترجم)

كـــان يبـــدو ان النظام فيهـا فاســد . وأظهــرت المقارنة بين قنوات الـ (ك ج ب) والسفارات أهمية الـ (ك ج ب) داخـــل الدولـــة الروسية على نحو واضح تماماً . وكان هذا التراث الاكثر بقاء والذي كان نتيجة اختراق (فينونا) بشكل ما ، هو النظرة التي ألقتها (فينونا) على آلية الـ (ك ج ب) مع شبكات التجسس في جميع أنحاء العالم الغربي للاستعداد للحرب الباردة في الوقت الذي كان فيه الغرب يستعد للسلام .

حينما فرغتُ من دراسة مادة (فينونا) حيث كانت مخزونة في مكتب الأمن الخاص في الطابق الخامس ، انتقلت الى غرفة مكتب (ايفلين ماك بارنيت) ضابطة البحوث التابعة لـ (آرثر) والتي كانت مشغولة بهذه القضية . اما التحريات التى كانت تدور حول (ميتشل) فقد كانت تجري في وقت سيء بالنسبة لـ (الفرع د) اذ ان (هوليس) كان قد عمد الى نقل (فيرنفال جونز) من منصبه ليصبح رئيس (الفرع ج) تمهيداً لتعيينه نائباً للمدير العام بعد احالة (ميتشل) على التقاعد . اما الذي حل مكان (ف . ج) فقد كان (مالكولم كمنغ) ولم يكن هذا التعيين يحظى بشعبية بين أوساط الشباب اللامعين فـــي (الفـــرع د) الذين كانوا يقيمون البناء على أساس المنجزات التي حققوها في قضية (لونسدال) . اما (آرثر) فقد كان تراوده آماله بأن يعرض عليه شغل هذا المنصب ، فهو يستحق ذلك بالتأكيد نظراً للانجازات التي قام بها ، غير انه لم يكن يحظى بأي شعبية بين أوساط المدراء بسبب الموقف الذي اتخذه في أوائل سنوات الخمسينات . فقد بدا قاس ومزاجيا ، وغير متسامح ، ولا يحتمل البلهاء .

وحين أجيزت التحقيقات التي دارت حول (ميتشل) قرر (هوليس) أن لا يعلم (كمنغ) شيئاً عن الموضوع كونه عرضة للشكوك ، وأوكلت مهمة الاشراف على القضية الى (ف . ج) الذي أشرف عليها من قيادة (الفرع ج) في شارع (كورك) .

كانت (ايفلين ماك بارنيت) امرأة غريبة ، وتمتد على أحد جانبي وجهها وحمة كبيرة ، وقد عاشت طيلة حياتها في الجو المقفل للمكاتب ، مثلها في ذلك مثل النباتات التي تعيش في البيوت شديدة الحرارة ، وبذلك فانه لم يكن هناك في الخارج من يشعر بوجودها .

سألتني حينما انضممت اليها في المكتب :

" هل أنت ماسوني ؟ " . فأجبتها :

" لا ، فأنا لا أوافق على افكارها " . فقالت بشيء من الغموض :

" لا أرى انك تبدو كواحد منهم ، لكن يحسن بك ان تنضم الى الماسونية ان كنت ترغب باحراز أي نجاح في هذا المكان " .

كانت (ايفلين) تؤمن دائما بوجود اختراق في (م آي ٥) وقضت عدة سنوات وهي تعمل في

مجـال التجسس المضاد بوظيفة ضابط بحوث ، بل يمكن القول انها امضت فترة أطول بكثير من الفتـرة التي قضيتها أنا أو (آرثر) . وبذلك ، فقد غدت موجزاً متحركاً لحياة المكاتب ، وحَكَما قاسيا – ومُرضيا الى حد ما – على الشخصيات . قالت لي :

" لقد كنت أعرف بأن تحريات ما ستجري " . ولكنها كانت تحمل قناعة تبعث على الانزعاج مفادها أن اجراء التحريات كان أمراً محتوماً ، وانها متأكدة من أن أسوأ ما في الأمر لم يحدث بعد . قالت لي :

" لن يستمر (آرثر) اذا صمم على متابعة هذا الامر ، ولن تستمر أنت إن ربطت نفسك به " .

فسألتها بدهشة صادقة :

" ما الذي تعنينه بحق الارض يا (ايفلين) ؟ " .

فتحت خزنتها ، وأخرجت دفتر تمارين صغير ، ذا غلاف أسود ، وقالت :

" إقرأ هذا " .

فتحت الكتاب ، فـوجـدتـه مكتوبا بخط واضح ونظيف . كان الخط خط يد امرأة.قلبت صفحاته بسـرعة ، وكان يحتوي على قائمة تضم تفاصيل قضايا حدثت خلال سنوات الاربعينات والخمسينات ، وكنت أعرف بعض تلك القضايا على نحو غامض ، في حين لم أكن لأعرف شيئاً عن بعض القضايا الأخرى التي استقاها المؤلف من سجلات (م آي ٥) . وكانت كل قضية تحمل بين طياتها زعماً واضحاً بحدوث اختراق في (م آي ٥) أو (م آي ٦) .

سألتها بفزع :

" لمن هذا ؟ " . فأجابت :

" انه يعود الى صديقة لي كانت تعمل معي هي (آن لاست) ولقد كتبته بعد أن رحل (بيرغس) و (ماكلين) وقد رحلت هي الأخرى لتؤسس عائلة كما تعلم . لقد تزوجت من (تشارلز ايلويل) وقبل ان ترحل قامت باعطائي هذا الدفتر ، وقالت لي أنني سأفهم كل شيء " .

" هل يعرف (آرثر) به ؟ " .

" طبعاً " .

" لكن ، هل أريته لأي شخص آخر ؟ " .

" وتم تحليله ايضاً " .

تابعت قراءة الدفتر ، وكان اسم (ماكسويل نايت) يظهر باستمرار في الصفحات الاولى ، وقد اقتنع – خلال الحرب – بوجود جاسوس داخل (م آي ٥) وكتب مذكرة بهذا الخصوص ، ولم يتم اخاذ أي اجـــراءات بشأنها . وكانت هناك العشرات والعشرات من المزاعم ، كان الكثير منها من نسج

الخيال ، وقد ذكرت تعليقات ارتجالية من تقارير العملاء . غير ان القسم الآخر من هذا الكتاب كان اكثر تحديداً وتوثيقاً مثل شهادة (إيغور غوزينكو) موظف الشيفرة الروسي الشاب الذي هرب الى كندا عام ١٩٤٥ ، والذي أثار هربه ذلك الذعر في الاسبوع الاول من حركة اتصالات الـ (ك ج ب / فينونا) . وبناء على أقوال (آن لاست) فان (غوزينكو) كان قد ادعى خلال عملية استخلاص المعلومات التي أجريت معه أن هناك جاسوساً داخل (م آي ٥) اسمه الحركي هو (إيلي) وانه عرف عنه حينما كان يخدم في (موسكو) عام ١٩٤٢ من خلال صديق له اسمه (لوبيموف) كان يعمل على معالجة الرسائل اللاسلكية المتعلقة بـ (إيلي) الذي كان يمتلك بعض الخلفية الروسية ، وبإمكانه الوصول الى ملفات معينة ، ويستخدم الدوبوكس أو صناديق الرسائل الميتة . وغالباً ما كانت معلوماته الاستخباراتية ترسل مباشرة الى (ستالين) . وقد تم تصنيف مزاعم (غوزينكو) في ملف خاص مع باقي المواد المتعلقة به ، ومن ثم ترك ليتراكم الغبار عليه بشكل جلي .

وقالت (ايفلين) :

" لم يصدقه الناس ، وقالوا انه تلقى المعلومات على نحو خاطيء ... لا يمكن ان يكون داخل (م آي ٥) جاسوس " .

وعلى الصفحة الأخيرة ، كان هناك ما يمكن تسميته بـ " وصية وشهادة أخيرة " تقول :" اذا كان هناك اختراق في (م آي ٥) فمن المحتمل جداً ان يكون مصدر هذا الاختراق هو (روجر هوليس) أو (غراهام ميتشل) " .

شهقت وقلت :

" بحق الجحيم ، كيف يمكننا التحري عن هذا ؟ سيكون من المفروض علينا ان نقلب المكان رأساً على عقب حتى نتمكن من التحري بشكل سليم " . فقالت (ايفلين) بحرارة :

" ذلك ما قالوه عام ١٩٥١ " .

كان كتاب (آن لاست) السر الأول فقط من جملة أسرار كثيرة شاركتني (ايفلين) بها خلال الاسابيع الاولى التي عملنا فيها معاً . وشيئاً فشيئاً ملأت (ايفلين) الفراغات الكثيرة لتاريخ (م آي ٥) المنسي : انواع القصص التي لم تسمع عنها على أشرطة القسم (أ ٢) : قصص شكوك وشبهات ، أعمال غير معللة ، ومصادفات غريبة . وسرعان ما أدركت أنني لم أكن - بأي حال من الاحوال - اول شخص يشتبه بوجود اختراق عميق في الجهاز ، اذ ان هذه المخاوف كانت قديمة قدم أثاث المكتب .

في ذلك المساء ، انضممت الى موكب المنتقلين من العمل الى البيت الذين يغص شارع (كرزون) بهم تجاه (بارك لين) ورأسي يطن بما سمعته من (ايفلين) . فقد كان هنا نموذج

لمزاعم ثابتة لا يمكن دحضها وكل واحد منها يشتبه بوجود جاسوس في الجهاز ، منذ عام ١٩٤٢ وحتى يومنا الحالي . لقد بقوا مدة طويلة دون أن يجرى معهم أي تحقيق ، ودون ان يتحداهم أحد . غير ان المطـــاردة ستكـــون هــذه المرة طويلة وقاسية لا رحمة فيها . وتوقفت لألتفت الى (ليكونفيلد هاوس) وفكرت :

" لن يكون هناك تسريب للمعلومات ، ولا هروب هذه المرة . لن ينسل هذا الشخص هاربا دون ان يشعر به أحد .... " .

١٤

على الرغم من كل الآمال العراض ، فان التحريات التي اجريت حول (ميتشل) كانت عملاً بائساً ، سيما انها بدأت بمشاحنة ، وانتهت بمشاحنة ايضاً . وبين هاتين المشاحنتين تحقق القليل مما كان صواباً . وكان من الواضح لي ان الفرصة ستكون مهيئة للنجاح في حسم القضية بطريقة أو بأخرى قبل إحالة (ميتشل) على التقاعد ، وذلك اذ ما فتحنا كل الحنفيات ، واستخدمنا المصادر التقنية الموضوعة تحت تصرفنا . اما (هوليس) فقد عارض بشدة كل مطلب لنا بوضع أجهزة تنصت على هاتف منزل (ميتشل) والقيام بعمليات مراقبة كاملة ، قائلاً بانه ليس على استعداد لتوريط أي من ضباط (م آي ٥) الآخرين في هذه القضية ، وانه ليست لديه النية للاتصال بوازرة الداخلية للحصول على تصريح يخوله زرع أجهزة تنصت في منزل نائبه أو السطو على البيت .

وكان رد فعــــل (آرثر) على تلك النكسات سيئاً ، اذ وصلت حالته النفسية الى مرحلة الانفجار ، حينما ثار في اجتماع عقد في مكتب (هوليس) امام رفض المدير العام – بشكل واضح وصريح – لمطلبه المحدد، والهاديء بالحصول على تسهيلات ، وقال (آرثر) ان ما لا يمكن احتماله هو ان يتم تقييد خطواته في وضع خطير كهذا ، ومن ثم هدد بالاتصال برئيس الوزراء نفسه ليحذره من الوضع القائم . غير ان (هوليس) كان يتصرف بكل هدوء أمام أي تهديدات وقال بأنه قام بتسجيل تعليق (آرثر) فقط الاّ ان قراره سيبقى كما هو ، وأضاف :

" لن أسمح تحت أي ظرف بتوسيع رقعة هذه السخريات " .

انسل (آرثر) خارجاً من الغرفة ، وهــــو ينوي تماماً وبوضوح تنفيذ تهديده . وفي ذلك المساء

ذهبت أنا و (فيرنفال جونز) الـــى النادي الذي كنت عضواً فيه وهو (نادي أوكسفورد وكامبردج) وذلك في محاولة مني لايجاد وسيلة تحول دون وقوع الكارثة . لقـد اخذت العلاقة بين كل من (هوليس) و (آرثر) تتردى بشكل سيء منذ أن تم تعيين (كمنغ) على رأس ادارة (الفرع د) وكان أي تلميح بوقوع اضطراب داخل الجهاز – وقضية (ميتشل) محفوفة بالاخطار على هذا النحو – سيكون بمثابة الكارثة .

كان وضع (فيرنفال جونز) مروعاً . وكان يعرف مثلي ، بانه سيكون نائب (هوليس) نفسه خلال الشهور القليلة القادمة ، لكنني كنت متأكداً بانه كان يشعر أن (هوليس) عقبة حقيقية .

قال (فيرنفال جونز) وهو يحدق في كأسه بكآبة :

" اذا قام (آرثر) بعمل غبي ، فمعنى ذلك نهاية جهاز الاستخبارات " . وسألته فيما اذا كان بامكانه الاتصال مع (ديك وايت) شخصياً ليرى فيما اذا كانت هناك امكانية بان يقوم (وايت) بمحاولة للضغط على (هوليس) لتليين موقفه . نظر (فيرنفال جونز) اليّ والألم يعتصره ، اذ كان يرى انه موزع بين ولائين يتنازعانه : ولاء لـ (هوليس) وولاء آخر لاولئك الذين يقومون باجراء التحريات بشكل معقد و مشحون بالعاطفة ، وكان قد اقترب من أحد الولائين منذ الصباح ، وقبل ان نتوصل الى اتخاذ قرار حاسم . ووعدني (فيرنفال جونز) بانه سيحدد موعداً للقيام بزيارة (ديك وايت) شريطة ان أتعهد له بقيامي بكبح جماح (آرثر) ومنعه من الاندفاع نحو القيام بعمل متهور . اتصلت من النادي مع (آرثر) وكـــان الـــوقت متأخراً غير انني كنت أدرك انه سيكون مستيقظاً مـــع زجاجة من الويسكي ، وأخبرته انني أود القيام بزيارته . ركبت سيارة أجرة ، وتوجهت الى منزله . وحينما وصلت ، كانت حالته النفسية سيئة ، وقال لي محتداً :

" أظنك جئت كي تخبرني انك قررت أن تدلي بدلوك في هذا الموضوع أيضاً ؟ " .

وللمرة الثانية فـــي ذلك المساء ، جلست لمدة طويلة فـــي مجلس الشراب ، محاولاً أن أثني عزم (آرثر) من خلال الكلام . بدا متوتراً على نحو بائس . لقد كان منهمكاً بالعمل باكثر مما يلزم ، وعلى نحو جاد ، منذ ما قبل قضية (لونسدال) وكان وزنه يزداد بشكل رهيب . كان لحم جسده رمادياً ، وقد بدأ شبابه يذوي . هاجم كل العقبات التي وضعت في طريقه ، ورأيت أن شبح عام ١٩٥١ لا يزال يقض مضجعه ، وذلك حينما سمح لنفسه بأن يتجنب الموضوع من خلال سفره الى (المالايا) . وقال لي :

" كان من الواجب عليّ أن أخوض الصراع في ذلك الوقت ، غير انني وافقتهم حينها . كان يبدو من الافضل التخلي عن الموضوع ، ولكن لن يحدث ذلك هذه المرة " .

وفي النهاية ، اقتنع بجدوى الاتصال الذي سيجريه (فيرنفال جونز) سيما وان تردي العلاقات الودية مع (هوليس) لن يوصلنا الى أي نتيجة . وكان هناك أمل – على الأقل – في ان يتمكن (ديك)

من مداورته بالكلام كي يستجيب لبعض طلباتنا من خلال تقديم المزيد من التسهيلات .

فـي اليوم التالي ، تلقيت مكالمة هاتفية من (فيرنفال جونز) أعلمني من خلالها انـه تحادث مع (ديك وايت) في الأمر ، وانه تم الاتفاق على ان نلتقي جميعاً في منزله (وايت) فـي منطقـة (بوابة الملكة آن) بعد ظهر يوم الأحد القادم ، وتابع :

" يريد ان نقوم بتقديم عرض للقضية ، ثم سيقرر ما الذي سيفعله " .

كانت الجهة الخلفية لمنزل (ديك وايت) تطل على مقر قيادة (م آي ٦) في (برودواي) . وصلت الى هناك في الموعد المحدد تماماً . فتح (ديك) الباب ، وكان يرتدي ملابس لا علاقة لها بالمناسبة ، اضافة الى قميص مفتوح وربطة عنق . أدخلنا الى غرفة المكتب : غرفة جميلة ، وقد أحاطت بجدرانها الرفوف المليئة بالكتب . اما الديكور فانه يعود الى اسلوب القرن السابع عشر ، اضافة الى رسومات من مجموعة الرواق القومي . كما انتصبت مرآة زينة تتألق فوق المدفأة .

سألني والقلق يحدوه لكسر حدة التوتر الذي كان يبدو على وجوه جميع الموجوين :

" هل نشرب القليل من الشاي ؟ " وأردف وهو ينظر الى (آرثر) :

" والآن ، أرى انه يحسن بك ان تذكر قضيتك " .

أوضح (آرثر) أنني أحضرت معي الجداول التي تبين عدد القضايا التي تم التوصل اليها وهو ثمان وثلاثين قضية ، واقترح أن أقوم أنا في البداية بعرض الموضوع لأن هذا أفضل . كانت الجداول والرسومات البيانية كبيرة لدرجة انـه كان يصعب علينا أن نقوم بمدها على طاولة شاي صغيرة ، الأمر الذي خلق بعض الارتباك والتشويش لبرهة من الزمن . أما (ديك) الذي لاحظ هذه المشكلة ، فانه قال :

" لا ، لا ، ذلك حسن ، افردها على الارض " .

وخلال دقيقتين ، كنا جميعنا نتمدد على السجادة ، وتلاشى تحفظ بعد ظهر يوم الأحد الأنيق حين بدأنا نخترق صلاة المخاوف مرة أخرى . وقد أوضحت انني كنت قـد قمت بتقديم مذكرتين سابقتين : اولاهما كانت عن (تيسلر) اما الثانية فكانت حول (لونسدال) غير ان هاتين المذكرتين قوبلتا بالرفض . نظر (ديك) اليّ بحدة ، غير انه لم يعلق ولا بكلمة ، ثم تابعت :

" ان الفكرة هي اننا لا نستطيع النظر الى هذه المشكلة بشكل مجزأ ، والمحور الذي ترتكز عليه هذه الجداول والرسومات انما هو محاولة لالقاء نظرة شاملة لنتبين فيما اذا كان هناك اي دليل على وجود تدخل روسي في القضايا ... " .

قال (ديك) والشك يساوره :

" يبدو لي انها حالة استنتاج سيئة " .

وأخذت أعرض القضايا واحدة إثر الأخرى ، وأوضحت كيف ان الوضع يرتبط دائماً بنفس الاسماء الخمسة .

سألني (ديك) وهو ينظر في عيني بشكل مباشر :

" هل بحثت هــذه - فــي أي مــرحــلة - مــع (آرثر) قبــل ان تجمــع كل هــذه المعلومات مع بعضها ؟ " .

فأجبته :

" كيف يمكنني هذا ؟ لقد كنت مشغولاً طوال الوقت في المديرية " .

والتفت (ديك) الى (آرثر) قائلاً ، وكأنه رأى ان من الصعوبة بمكان عليه تصديق هذا :

" هل تريداني إعلامي بانكما توصلتما الى هذا الاستنتاج كل بمفرده ؟ " .

تولى (آرثر) الأمر ، وشرح مشكلة التسهيلات . ثم توجه (ديك) الى (فيرنفال جونز) الذي بقي صامتا طوال الوقت ، وليسأله عن رأيه . صمت ، ثم علق على نحو لا يمكن التراجع عنه ، وقال :

" لقد رفض (روجر) ان يوسع نطاق التحريات ، وأعتقد - شخصيا - ان هذا الأمر بمثابة غلطة . حينما تجمع النقص في المتابعة مع النقص في المساعدات الفنية ، فانه ستكون هناك فرصة صغيرة فقط لايجاد جواب لهذه القضية " .

تأثر (ديك) من التقييم المعقول الذي طرحه (فيرنفال جونز) . وقال بعد ان أطرق صامتاً للحظة وهو يفكر :

" يوجد عاملان هنا : يجب علينا أن نجري هذه التحقيقات ، ويجب ان يرانا الآخرون ونحن نقوم بها ، وعلى نفس الدرجة من الأهمية أيضاً " .

وأخبرنا بوجوب اجراء بعض التغييرات بشكل مؤكد ، وكان يعتقد بأن التحقيقات يجب ان يتم تنسيقها من منزل غير رسمي ، وليس من مبنى حكومي ، وعرض علينا استخدام منزل آمــــن تابع لـ (م آي ٦) في طريق (بافيليون) بالقرب من ميدان (سلون) . ثم تابع قائلاً :

" سأفكر هذه الليلة بما سأقوله لـ (روجر) وستسمعون الجواب منه " .

أعلمنا (فيرنفال جونز) في اليوم التالي ان (هوليس) قد أعطى أوامره بالسماح باستخدام فريق مراقبة من (م آي ٦) في هذه القضية ، على الرغم من انه لم يسمح لهم - حتى ذلك الوقت - بتعقب (ميتشل) الى ما وراء محطة سكة حديد (لندن) ، وذلك في حالة ما تم اكتشاف أمرهم . وسمح لنا باطلاع (وينتربورن) على القضية ، وحصلنا على (كارث بلانش / بطاقة بيضاء) يخولنا القيام بتركيب نظام تلفزيوني داخلي مقفل خلف مرآة مزدوجة سطح الرؤية في مكتب (ميتشل) . بعد ظهر ذلك اليوم تــــم نقل كافة الملفات المتعلقة بالقضية ، ومتزايدة الحجم ، الــــى شقة هزيلة علوية غير

مفروشة ، داخل مبنى اسطبلات في طريق (بافيليون) في (لندن) . وقد بقيت تلك الشقة بمثابة مقر قيادة لنا الى حين انتهاء القضية .

فـــي المراحـــل الاولى من التحقيق ، قمنـــا بعملية اعادة فحص واختبار كاملـــة للظروف التي تمت فيها عملية هروب (فيلبي) . وقد أدى هذا الاختبار الى اكتشاف هام وحيوي . طلبت مـــن (السي آي ايه) ان تقوم بتدقيق سجلات الكمبيوتر الخاصة بهم والمتعلقة بتحركات كافة ضباط الاستخبارات الروسية المعروفين وتنقلاتهم في انحاء العالم ، واكتشفنا ان ضابط جهاز الـ (ك ج ب) المدعو (يوري مودين) – وهو الشخص الذي تدور حوله الشكوك بشدة على اعتبار انه الضابط المسؤول عن (فيلبي) خـــلال سنـــوات الاربعينـــات ، وانـــه هو الذي قام بترتيب عمليـــة هروب (بيرغس) و (ماكلين) – قد قام بزيارة منطقة الشرق الاوسط في شهر ايلول من عام ١٩٦٢ ، وذلك فقط بعد اجتماع (فلورا سولومون) مع (آرثر) في (لندن) . وقد أظهرت عملية تدقيق أخرى ان (مودين) كان قد قام بـــزيارة سابقة خلال شهر ايار من نفس السنة بعد مرور فترة قصيرة علـــى وصول حلقـــات (غوليتسين) الثلاث المتعلقـــة بعصابة الخمسة الى (ليكونفيلد هاوس) . وفي النهاية توصلت (السي آي ايه) الى ان (مودين) لم يقـــم بأي رحلات اخرى الى الخارج منذ مطلع سنوات الخمسينـــات . وتـــم خـــلال هـــذه الفتـــرة اجـــراء مقابلة مع (إلينور فيلبي) زوجة (كيم) وأخبرتنا ان (فيلبي) كان قد قطع اجازة عائلية كان يقضيها في الاردن خلال شهر ايلول ، وانه منذ تلك الفترة وحتى اختفائه أخذت تظهر عليه علامات متزايدة من الادمان على الكحول ، ومن التوتر . وكان من الواضح لنا أن (مودين) قد سافر الى (بيروت) لتحذير (فيلبي) من انه قد أعيد فتح ملف قضيته . ومنـــذ اللحظـــة التـــي عـــرف بها جهاز الـ (ك ج ب) بهروب (غوليتسين) فان ذلك الأمر كان تحـــذيراً واضحاً ، الاّ ان أغرب ما في الأمـــر هـــو ان (فيلبـــي) لـــم يتحـــرك الاّ بعـــد زيـــارة (مـــودين) الثانية في ايلول والتي تمت – بمطابقة دقيقة – خلال الوقت الذي اصبحت فيه القضية الموجهة ضده غير قابلة للهجوم عليها .

وعدنا الى أشرطة ما يدعى بـ " اعترافات فيلبي " والتي أحضرها (نيكولاس ايليوت) معه من (بيروت) . وعلى مدار أسابيع عديدة ، كان من الصعوبة بمكان الاستماع لهذه الاشرطة بسبب نوعية الصوت الرديئة جداً . وطبقا لاسلوب (م آي ٦) التقليدي فانهم استخدموا خلال عملية التسجيل ميكروفوناً واحداً ، ومنخفض الدرجة في غرفة فتحت نوافذها على سعتها ، فكانت ضجة حركة المرور تصم الأذان . وباستخدام شريط مزدوج ومضخم للصوت كنت قـــد قمت بتطويره ، وبمساعدة مـــن (ايفلين ماك بارنيت) ومن شابة ناسخة تدعى (آن اور – إيوينغ) والتي كانت تتمتع بافضل امكانيات الاستماع بين كل الناسخين ، تمكنا مـــن الحصول علـــى نسخة بلغت درجة دقتها حوالي ٨٠ ٪

واستمعت أنا و (آرثر) الى الشريط بعد ظهر أحد الايام ، وتتبعناه بدقة على الصفحة . ولن يساور الشك أي شخص يستمع الى الشريط بان (فيلبي) كان قد وصل الى البيت الآمن وهو مستعد تماما لمواجهة (ايليوت) الذي أخبره انه عثر على دليل جديد ، وبأنه الآن بات مقتنعاً من انه (فيلبي) مذنب. واعترف (فيلبي) الذي كان قد أنكر كل شيء مراراً وتكراراً على امتداد عقد من الزمن .. اعترف الآن وبسرعة ، بانه كان يتجسس منذ عام ١٩٣٤ ، ولم يسأل ولا مرة واحدة عن ماهية الدليل الجديد .

وجد (آرثر) ان ما يثير الكآبة في النفس هو الاستماع الى الشريط ، فقد واصل دعك عينيه ، وخبط بقبضتيه على ركبتيه بذهول ، في حين كان (فيلبي) يكرّ خيوط ادعاءات سخيفة ومضحكة : كان (بلنت) بريئاً ، غير ان (تيم ميلن) الذي كان الصديق المخلص لـ (فيلبي) بشكل واضح ودافع عنه باخلاص لسنين عديدة ، لم يكن كذلك . وبدا الاعتراف كله - بما في ذلك تصريحه الممهور بتوقيعه - وكأنه أُعد بحرص وعناية من أجل مزج الحقيقة والخيال معاً بطريقة تضللنا . وعدت بافكاري الى الوراء لاستذكر مقابلتي الأولى مع (فيلبي) : السحر الفتي ، والتلعثم ، كم تعاطفت معه ، وفي المرة الثانية ، سمعت ذلك الصوت عام ١٩٥٥ وهو يراوغ ويداور محققي (م آي ٦) الذين كانوا يحققون معه ، محرزاً النصر من يد تفتقد الكثير . وها هو الآن (ايليوت) يحاول كل جهده الرجولي لمحاصرة رجل ، كان الخداع بمثابة جِلْد ثان له على امتداد ثلاثين سنة . لم يكن هناك ما يشير الى ان ثمة خلافاً بينهما ، ومع اقتراب نهاية ذلك التحقيق ، كان صوتاهما كصوتي مذيعي اذاعة قد ثملا من السكر الى حد ما ، في حين كانت لهجتاهما الدافئتان الكلاسيتان اللتان تعودان الى المدارس العامة ، تناقشان أعظم خيانة اقترفت في القرن العشرين .

أنَّ (آرثر) وهو يقول بيأس ، في حين كان شريط التسجيل يضرب بروؤسنا:

" لقد عولج الأمر بشكل سيء . كان لا بد لنا من ان نرسل فريقاً الى هناك لاستجوابه حينما كانت الفرصة سانحة لدينا " .

ووافقته على ذلك . ولم يخطر ببال (روجر) و (ديك) امكانية قيام (فيلبي) بالهرب .

وعلى ما يظهر ، فان الرحلات التي قام بها (مودين) والتي تمت بشكل متطابق مع الاحداث ، وكذلك حقيقة أن (فيلبي) كان يتوقع حضور (ايليوت) وكذلك اعترافه المدروس ، كل هذه الامور كانت تشير الى اتجاه واحد ، وهو ان الروس لا زال باستطاعتهم الوصول الى مصدر المعلومات داخل الاستخبارات البريطانية ، والذي كان يراقب التقدم في قضية (فيلبي) . وبالطبع ، فان قلة من الضباط فقط كان بامكانهم معرفة ذلك وكان أولهم كل من (هوليس) و (ميتشل) .

وقررت القيام بزيارة الى قيادة الاتصالات الحكومية لأرى فيما اذا كان هناك أي شيء آخر يمكن القيام به فيما يتعلق ببرنامج (فينونا) من أجل المساعدة في قضية (ميتشل) . وقد تم تنفيذ

(فينونا) داخل الكوخ الخشبي الواسع رقم هـ ٧٢ ، الذي كان يشكل طريقاً قصيراً متفرعاً من كل الشوارع الرئيسية في مجمع قيادة الاتصالات الحكومية . وكان يشرف على العمل محلل شيفرة شاب يدعى (جيفري سادبيري) كان يجلس في مكتب صغير في مقدمة الكوخ . وكان يجلس خلفه عشرات المتخصصين في اللغة تحت مصابيح ساطعة الضوء ، وهم يعملون بكد بحثاً عن النظائر ، والأمل يساورهم في ان يتمكنوا من الحصول – بصعوبة – على ترجمات من خلال ألف مجموعة من الارقام مغفلة التوقيع .

كانت مكتب (سادبيري) يشبه معرضا تزينه تحف صغيرة من تحاليل الشيفرة . فقد تكدست اكوام من الفهارس النافذية المجلدة والتي تتعلق بـ (فنيونا) في أحد اركان المكتب ، وصوانٍ تعلو بعضها البعض وتتضمن رسائل سرية كانت تتراكم فوق طاولة مكتبه بانتظار موافقته عليها قبل ان يتم توزيعها على (م آي ٥) و (م آي ٦) . تحدثت مع (سادبيري) مطولاً حول كيفية دفع البرنامج كله قدما الى الأمام . وكانت المشكلة الأساسية تتمثل فـي أن (فنيونا) كانت تُعالَج حتى ذلك الوقت يدويا ، ولم يستخدم الكمبيوتر في تلك العملية الاّ من أجل تنفيذ أعمال محددة مثل البحث عن الاسماء المستعارة . وانصبت غالبية الجهود على مهاجمة قنوات الـ (ك ج ب) والاستخبارات العسكرية الروسية بشكل مباشر ، وتم استخدام قنوات حركة الاتصالات التجارية حيثما كانت تشكل خلفية لنظير ما دون تحليلها ومعالجتها فيما يتعلق بخلاف ذلك . وكانت هناك ضرورة ملحة من اجل ايجاد برنامج كومبيوتر شامل ، من خلال استخدام الكمبيوترات الجديدة التي كانت قد أصبحت متوافرة فـي بداية الستينات ، وذلك أملاً في العثور على المزيد من النظائر .

كان ذلك مشروعاً واسعا ، اذ كان هناك ما يزيد على ١٥٠,٠٠٠ رسالة ضمن حركة الاتصالات التجارية ، وكان القليل منها – مع أنها كانت مخرّمة – مناسباً للمعالجة بواسطة الكمبيوتر ، وكان هذا الأمر وحده عملاً هائلاً . وقد كان من المفروض ان يتم تخريم كل مجموعة على انفراد مرتين بواسطة معالج البيانات وذلك " للتحقق " من أن حركة الاتصالات التي تمت معالجتها كانت خالية من الأخطاء . ثم تتم معالجة أول خمس مجموعات من كل رسالة بواسطة الكمبيوتر من أجل مقارنتها مع باقي حركة الاتصالات ، واستخلاص النظائر منها ، ولتشتمل على حوالي (١٠) بليون من الحسابات المتعلقة بكل رسالة .

حينما تباحثت مـع (ويليس) في مديرية العلوم حول المشروع ، كـان يبدو متشككاً بالموضوع كله ، ولذلك ، فانني ذهبت لمقابلة (السير وليام كوك) في مؤسسة بحوث الاسلحة الذرية للمرة الثانية ، وكان يرافقني في هذه الزيارة (فرانك مورغان) . وكنت على دراية بان هذه المؤسسة تمتلك اكبر التسهيلات المتعلقة بالكمبيوتر في البلاد ، بل انها اكبر من تلك التسهيلات التي كانت تمتلكها قيادة

الاتصالات الحكومية في ذلك الوقت . وشرحت لهم ما كنت أريد القيام به . فقد كنا بحاجة الى العمل لمدة ثلاثة شهور – على الاقل – على الكمبيوتر الموجود لديهم من أجل العثور على النظائر ، وحالما يتم انجاز هذا الأمر ، فانه سيكون باستطاعتنا ارسالها الى وكالة الأمن القومي ، والى قيادة الاتصالات الحكومية من أجل العمل على تحليلها في محاولة لاختراقها واستخراجها . كان (كوك) وكما هو دوماً ، رائعاً وقد اخبرته بشكوك (ويليس) غير انه ألقى بها جانباً . وقال لي وهو يرفع سماعة الهاتف :

" سيكون هذا الأمر من أكثر الاسهامات أهمية والتي يمكن لمؤسسة بحوث الاسلحة الذرية القيام بها " .

وتحدث مباشرة مع رئيس قسم معالجة البيانات في مؤسسة بحوث الاسلحة الذرية وقال له :

" هناك عمل حيوي أريدك البدء به على الفور . سأرسل لك شاباً ومعه التفاصيل . ليست هناك ضرورة كي تعرف أين يعمل . أرجو ان تعمل كما يقول لك ... " .

وخلال شهرين ، تمكنا من تخريم وتدقيق كل رسالة ، وخلال الشهور الثلاثة التالية كانت أجهزة الكمبيوتر الخاصة بمؤسسة بحوث الاسلحة الذرية تعمل على برنامج (فينونا) لمدة ست ساعات كل ليلة .

في البداية ، كان يبدو وكأن برنامج الكمبيوتر في مؤسسة بحوث الاسلحة الذرية يمكن ان يعمل على تحويل (فينونا) البريطانية . وقد تمكنا في مرحلة مبكرة من الحصول على نظير جديد لرسالة بعد حركة اتصالات الاسبوع التي تمت في منتصف شهر ايلول ، والتي كنا قد اخترقناها مسبقاً . وحينما تم تحليل الرسالة بشكل جزئي ، تبين انها كانت تتعلق بـ (ستانلي) للمرة الثانية ، إذ كان عليه ان لا يعمد الى حمل أي وثائق يمكن ان تدينه خلال اجتماعه التالي مع (كروتوف) واكتشفنا بين ضباب المجموعات التي لم يتم اختراقها ان هناك اشارة سريعة الى ازمة تتعلق ببعض قضايا الـ (ك ج ب) في المكسيك ، وقد طُلب الى (كروتوف) الرجوع الى (ستانلي) للحصول على مزيد من التفاصيل ، سيما وان " قسمه " كان يتعامل مع القضايا المكسيكية .

وخلال الفترة التي تم فيها ارسال الرسالة ، كان (فيلبي) رئيساً لقسم الشؤون الايبيرية (شبه جزيرة ايبيريا) في (م آي ٦) والذي يشرف على رقعة كبيرة من البلاد الاسبانية بما في ذلك المكسيك . كانت لحظة تثير المرارة في النفس . وها هو البرهان الحاسم على ان (ستانلي) هو (فيلبي) يظهر بعد مرور شهور على هروبه . ولو أننا قمنا بعملية اختراق وتحليل الشيفرة قبل بضعة سنين لتمكنا من القاء القبض على (فيلبي) خلال واحدة من رحلاته الى (لندن) التي كان يقوم بها لزيارة صحيفة (الاوبزرفر) ولقد عمّق هذا الأمر المخاوف التي كانت تدور حول سلامة و تكامل

(م آي ٥) خاصة وان القرار الذي اتخذ عام ١٩٥٤ بايقاف برنامج (فينونا) يبدو مثيراً للشبهة الى حد بعيد . وحينما دققنا في الأمر ، تبين لنا ان الضابط الذي أمر بايقاف البرنامج كان (غراهام ميتشل) رئيس قسم التجسس المضاد .

ومما يثير الحزن ، ان الجزء المتعلق بـ (فيلبي) كان هو المساعدة الحقيقية الوحيدة التي قدمها برنامج الكمبيوتر الى المساعي البريطانية المبذولة حول (فينونا) . وكانت النظائر تعمل في حركة اتصالات الـ (ك ج ب) في المكسيك وفي اماكن أخرى في امريكا الجنوبية التي كانت تشكل أهمية كبرى لدى (السي آي ايه) والشرطة الملكية الكندية باعتبار ان المكسيك كانت المنطقة الرئيسية التي تدخل من خلالها الـ (ك ج ب) العملاء غير الشرعيين الى امريكا الشمالية . غير ان النظائر التي كانت تعمل في برنامج (فينونا) البريطاني كانت على الغالب حركة اتصالات تجارية الى حركة اتصالات تجارية وليست حركة اتصالات تجارية الى الـ (ك ج ب) أو الاستخبارات العسكرية الروسية ، وهو ما كنا بحاجة اليه . اما الجهود المبذولة لعمليات التحليل والتي كانت تجري في الكوخ رقم هـ ٧٢ فقد استمرت بشكل مكثف اكثر من ذي قبل على الرغم من انه لم يكن هناك أي جديد .

ولم يكن هناك الكثير من المعلومات في سجل الخدمة الخاص بـ (ميتشل) والتي يمكن ان تساعدنا .

فقد ولد عام ١٩٠٥ ، وتلقى تعليمه في (اوكسفورد) ثم عمل فيما بعد صحفيا وبعدها بوظيفة احصائي في المكتب الرئيسي لحزب المحافظين . وكان مما أثار دهشتي – حينما كنت أستذكر مناقشتي مع (ميتشل) حول قضية (لونسدال) – انه ادعى انه لا يستطيع ان يفهم ما أدلي به من حجج لانه ليس " رجل إحصاء " . وقد التحق بـ (م آي ٥) كنتيجة للاتصال الذي تم من خلال (حزب التوري) * وعمل ضد الفاشية خلال الحرب ، وأخيراً – والى حد ما ايضاً – في الحزب الشيوعي البريطاني . بعدها أخذ يرتقي بشكل مفاجيء وسريع ، فقد أصبح رئيس (الفرع ف / التدمير المحلي) في نهاية سنوات الاربعينات ، ثم أول رئيس لقسم التجسس المضاد التابع لـ (ديك وايت) عام ١٩٥٣ قبل ان يقوم (هوليس) بتعيينه نائباً له عام ١٩٥٦ . وفي الواقع ، كان هناك شيئان مثيران يتعلقان بحياة (ميتشل) العملية . اما أولهما ، فقد تمثل بتلك الطريقة التي ارتبط بها – بشكل قوي – مع (هوليس) فقد كانا في (اكسفورد) في نفس الفترة وانضما في نفس الوقت تقريباً الى (م آي ٥) ايضاً ، وتبعا بعضهما بعضاً في ارتقاء السلم نحو المناصب المتمم بعضها بعضاً . اما الأمر الثاني فقد تمثل بحقيقة ان (ميتشل) بدا على انه لا يحسن انجاز اعماله على مستوى جيد . كان رجلاً ذكيا التقطه (ديك وايت) من أجل العمل على

* حزب التوري : هو حزب المحافظين اليوم (المترجم)

إحداث تغييرات في (الفرع د) وقد أخفق في ذلك خلال السنوات الثلاث التي تولى فيها مهمة هذا العمـــل ، وبالفعل – حينما أخذ بالاعتبار قرار ايقاف برنامج (فينونا) – بدا وكأنه فشل بشكل متعمد ، وبكامل إرادته .

ولم تقدم لنا عملية المراقبة المكثفة لـ (ميتشل) في غرفة مكتبه الشيء الكثير . وقمت بمعالجة نشافة الحبر الموجودة على طاولة مكتبه بمواد الكتابة السرية ، وكنا نقوم كل ليلة بتظهيرها بحيث يمكننا التأكد من كل شيء يقوم بكتابته . ولم يكن هناك شيء آخر في الاوراق التي يعمل عليها بشكل طبيعي . اما النظام التلفـزيـوني المغلق فقـد كان عناصر المراقبة في (م آي ٦) يقـومـون بمراقبته باستمرار . ولم تكـن تلك المهمـة سارة : فقد كان (ميتشل) يدخل كل صباح الى غرفة المكتب ويخلل* أسنانه بواسطة العود المخصص لذلك أمام المرآة مزدوجة السطح ، وكان يكرر تلك العملية الدقيقـة التي تدل على وسوسته قبل الغذاء ، وبعده ، وقبل عودته الى البيت . ومع اقتراب نهاية القضية ، بـدأت أشعـر ان الاجزاء التي عرفناها عن (ميتشل) بشكل جيد كانت ما يقع خلف لوزتيه فقط .

واتخذت ما يلزم من ترتيبات لتزويده بمسحوق الباريوم ، وارسلت اليه مجموعة من المجلدات التي تتضمـن تحليلاتي عـن الاتصالات اللاسلكية السوفييتية السرية مع كل تصنيفاتها وجداول حسـاب المجمـوعات التـي قمـتُ بتحـديثها لصالح قيادة الاتصالات الحكومية . فاذا كـان (ميتشل) جاسوساً ، فان هذه المجلدات ستكـون نوعاً من المعلومات الاستخباراتية التي لا تقدر بثمن ، والتي لا يمكنـه ان يتجاهلهـا . كنت أراقبه عبر جهاز المراقبة وهو ينظر الى التقرير بطريقة لا مبالية . وفيما بعد ، دخل الى مكتبه (جيمس روبرتسون) الذي كان خصماً لي ، وكان يدير عمليات مكافحة التجسس السـوفييتي مـدة مـن الزمن خلال سنوات الخمسينات . وطفق الرجلان يتحـدثان عني . لم يغفر لي (روبرتسون) التغييرات التي قمت باحداثها في (الفرع د) حين كان هناك ، إذ كـان يعتقـد انني نهاز فرص مستجد ، وان من الواجب عليّ أن أحترم سلفي ومَن هم أفضل مني قبل أن أتجرأ على تقديم أي مشورة . وتناقش مع (ميتشل) حول تحليلاتي للاتصالات اللاسلكية ، ولم يتمكن أي منهما من فهم الهدف الكامن وراء هذا التحليل .

قال (روبرتسون) بلهجة لاذعة :

" هـذا الـرجل الدمـوي (رايت) ... إنـه يعتقـد بانه يعلم كل شيء ... إنه بحاجة الى قص أجنحته " .

وأومأ (ميتشل) برأسه موافقاً ، ولم أستطع ان أمنع نفسي من الابتسام ساخراً من كل ذلك .

---

* يخلل اسنانه : يخرج ما بقي عالقاً بها من المأكولات بواسطة العود الخاص بذلك (المترجم)

غير ان اللحظات الأخف وطأة كانت أقل ، وعلى مسافات زمنية متباعدة بينها وبين اللحظات الأخرى شديدة اليقظة ، كانت تتم عملية مراقبة وانتظار رجل كان يخون نفسه في الجانب الآخر من المرآة . ولمرة واحدة فقط ظننت أننا تمكنا من ضبطه . ففي احدى ساعات بعد ظهر يوم جمعة ، أخذ يرسم على ورقة . ركز تفكيره بشدة – ربما – لمدة عشرين دقيقة ، مسترشداً ببعض الملاحظات المدونة على ورقة كان قد أخرجها من محفظته ، ثم قام فجأة بتمزيق الورقة الى قطع صغيرة ، وألقى بها في سلة المهملات . ومنذ بداية القضية ، اتخذ (هوليس) الترتيبات اللازمة من اجل اتاحة الفرصة لي للقيام بتفتيش مكتب (ميتشل) كما تم اصدار التعليمات الى سكرتيرة (هوليس) للاحتفاظ بكيس الحرق الذي يحتوي على المواد السرية التي ستحرق ، وذلك حتى أتمكن من القيام بفحصها وتدقيقها . في ذلك المساء ، استعدت قصاصات الورقة من سلة المهملات وأعدت تركيبها كما كانت . كانت الورقة عبارة عن رسم خريطة لحديقة (تشوبهام) العامة الواقعة بالقرب من مكان اقامة (ميتشل) وكان على الخريطة نقاط وأسهم تشير الى اتجاهات مختلفة .

وفي منتصف الخريطة ، كان هناك الحرفان (ر ف) وموقع لسيارتين ، كل سيارة تقف عند نهاية أحد جانبي الممر الموجود على عرض الحديقة العامة ، الذي يمتد عبر المكان الذي تتم فيه اللقاءات والمواعيد .

وابتعدنا عن طريق (بافيليون) لعدة أيام ، في حين تركزت بؤرة القضية كلها على بقعة معزولة فـــي الحديقة العامـة التي كانت مرسومة في خريطة (ميتشل) غير انه لم يقترب من تلك البقعة لا هو ، ولا أي شخص آخر .

حين بدأت بتفتيش مكتب (ميتشل) اول الأمر كان (هوليس) عصبياً للغاية وقال لي :

" يوجد داخل المكتب وثائق حساسة جداً يا (بيتر) وأريد منك وعداً ان تبقى هذه الوثائق كما هي دون ان يطلع عليها أحد " .

كان (هـــوليس) قلقاً بشكل خاص على تقارير هيئة الموظفين ، وعلى أوراق أخرى تنكأ الجراح اكثر من كونها سرية ، وكان من الضرورة بمكان أن تمر عبر مكتب نائب المدير العام . وفي الواقع ، فانه لم يكن هناك داع لقلقه ، اذ انني لم أر في مكتب (ميتشل) شيئاً مثيراً للأهتمام الى حد بعيـــد ، وهـــذا ما أكد وجهة نظري من أن شغل منصب نائب المدير العام تحت رئاسة رجل اوتوقراطي (حاكم مطلق) مثل (هوليس) لا بد وأن يكون واحداً من أسوأ المناصب الوظيفية في العالم .

كنت ألتقي مع (هوليس) كل ليلة بعد ساعات الدوام ، وعلى امتداد بضعة من الشهور . وقد عبّر في البداية عن اشمئزازه من عملية دس الأنف في شؤون زميل قريب لنا في العمل ، غير انني لم

أشعر أن عاطفته تلك كانت صادقة ، وحين أخبرته عن عدد المرات التي يقوم فيها (ميتشل) بتخليل أسنانه مقابل كاميرا التلفزيون المغلق ضحك كمجرى مياه ، وقال ضاحكاً :

" يجب ان يذهب هذا التافه المسكين الى طبيب أسنان محترم " .

اما أنا ، فقد كنت مصمما على المضي قدماً ، بل وكنت متحجر القلب . لقد انتظرت سنين عديدة كي تتسنى لي فرصة الامساك بمشكلة الاختراق ، وساورتني شكوك طفيفة .

وفي تلك الليالي ، بدأت التعرف على (هوليس) كرجل . فبالرغم من أنني عملت معه عن قرب لمدة ثماني سنوات ، الاّ اننا نادراً ما كنا نتبادل الأحاديث في مواضيع خارجة عن نطاق العمل الرسمي . وقد سادت بيننا لحظات من التوتر ، غير ان علاقتنا كانت سليمة بشكل عام . و قد حدثت بيننا مواجهة مرة واحدة فقط ، وذلك حين كنت أعمل في (أ ٢) مع (هيو وينتربورن) . فقد حضر وفد ارجنتيني للتفاوض حول التوقيع على عقد مع الحكومة البريطانية لشراء كميات من اللحم .

ونقل (هوليس) الينا طلب مجلس ادارة غرفة التجارة بضرورة الحصول على أي قدر ممكن من المعلومات الاستخباراتية ، وأوعز الينا لاتخاذ الترتيبات التي تكفل القيام بعملية زرع ميكروفونات للحصول على تغطية كاملة للوفد الارجنتيني .

وثارت ثائرتي وكذلك الامر بالنسبة لـ (هيو وينتربورن) اذ ان هذا الأمر كان انتهاكاً صريحاً لمذكرة (فيندلاتر ستيوارت) التي حددت بشكل صارم أن أهداف وأغراض (م آي ٥) تتعلق بالأمن القومي فقط . وشعر موظفو (أ ٢) بنفس ما كنا نشعر به ، ورفضت تعليمات (هوليس) . وعلى مدار ساعات قليلة كنا نتوقع اتخاذ اجراءات بطرد عدد كبير جدا من الموظفين من الخدمة ، غير أن (هوليس) سحب تعليماته فيما بعد ، ولم تجر مناقشتها مرة ثانية . وهكذا ، انتهى الاضراب الوحيد ، الذي جرى في تاريخ (م آي ٥) بانتصار كامل للمضربين .

وخلال عمليات تفتيش مكتب (ميتشل) تكلم (هوليس) مصادفة عن سنيه الأولى ، فاخبرني عن رحلاته في الصين خلال سنوات الثلاثينات ، حيث كان يعمل لصالح شركة التبغ البريطانية / الامريكية ، وكان يردد دائماً :

" لقد كان العمل رهيباً هناك ، اذ كان باستطاعة أي أبله رؤية ما كان يفعله اليابانيون في منشوريا ... كان من الواضح جداً اننا سنفتقد الصين اذا لم نتصرف " .

وكما هو الحال بالنسبة للضباط كبار السن في (م آي ٥) فان جذور كراهية (هوليس) للامريكيين تعود الى فترة ما قبل الحرب . فقد قال انه كان باستطاعة الامريكيين تقديم العون في منطقة الشرق الاقصى ، غير انهم رفضوا القيام بذلك لأن الانعزالية كانت تسيطر عليهم ، وأضاف ، بان الفرنسيين كانوا عاجزين عن القيام باي عمل في منطقة الشرق الاقصى ، وانهم

كانوا يفضلون رؤية المكان كله وهو ينهار على ان يقدموا له يد العون ، وتركوا الروس وحدهم .

وتابع قائلاً :

" لقد راقبوا ما كان يجري ، وانتظروا ، وتلقوا الضربة في النهاية بعد انتهاء الحرب ، حينما ظهر (ماو) " .

ونادراً ما كان يشير الى حياة أسرته ، على الرغم من ان الكثيرين من العاملين في المكتب يعرفون انه يعاني من مشكلة مرعليها زمن طويل . وكان يتكلم بشكل عرضي عن ابنه (أدريان) الذي كان لاعب شطرنج موهوب ، الامر الذي كان مصدر فخر كبير له على نحو واضح (اعتاد [اديان] الذهاب الى روسيا للعب الشطرنج).

في احدى المناسبات – وكنا نتحدث عن القضية – خاطرت ، وأدليت برأيي قائلاً ، انه مهما كانت النتيجة فان الوضع يدل على وجود ضعف في أمننا الوقائي . واستشاط (هوليس) غضبا ، وسألني :

" ما الذي تعنيه ؟ " .

فاخبرته ان اجراءات الاستقصاء عن المجندين في (م آي ٥) كانت أقل دقة واحكاماً – بشكل واضح – عما حددته اجهزة الاستخبارات لدوائر (الوايت هول) الاخرى ، وقلت له :

" اسمع ، لم يتم اجراء أي استقصاء عني منذ أن التحقت بالمكتب عام ١٩٥٥وحتى الآن " .

وفي اليوم التالي ، أرسلت اليّ نماذج عمليات الاستقصاء ، ولم نعد لمناقشة الموضوع مرة ثانية أبداً ، على الرغم من أن اجراءات التحري والتدقيق قد تغيرت بعد ذلك بوقت قصير ، واصبح من الواجب على المرشحين الذين يودون الالتحاق بالعمل في المستقبل ان يذكروا عدداً من الاشخاص المرشحين لهم ، ويمكن ان تتم تسمية واحد منهم من قبل جهاز الاستخبارات .

من بين اكثر الامور التي يجدر تذكرها خلال تلك الليالي التي قضيتها مع (هوليس) هو سرده لكمية مذهلة من اكثر النكات قذارة ، والتي سمعت بها ، وكانت هذه النكات كأنها آلية دفاعية ، مبررة للكلام ، أو طريقة للتخفيف من العبء الذي يهبط عليه من الاعالي الاولبية * . ولقد سألته ذات مرة من اين أتى بهذه الذخيرة من القصص ، فقال لي :

" الصين . فالكل هناك كان يشرب ، ويردد النكات .. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لتمضية الوقت " .

في بداية قيامي بالمهمة ، قررت أن اقوم بتفتيش طاولة مكتب صغير يقبع في احدى زوايا غرفة مكتب (ميتشل) وطلبت من (هوليس) أن يعطيني المفتاح . قال لي :

*نسبة الى جبل الاولب الذي كان الاغريق يعتقدون ان آلهتهم تعيش فيه (المترجم)

" لقــد كانــت تلك طاولــة مكتــب (غاي ليــدل) . تركه حينما تسلمت مهام عمله ٠٠٠ انه يقبــع هنا منذ سنين " .

وطلبت موافقته على السماح لي بفتح قفلي درجين كانا مقفلين . ووافق على ذلك ، واحضرت في اليوم التالي أدوات فتح الاقفال ، وقمنا بتفتيش الدرجين من الداخل . كانا كلاهما فارغين ، غير ان واحــداً منهما لفــت انتباهي . فعلى طبقة الغبار التي كانت تغطي الدرج من الداخل ، كانت هناك اربــع اشارات صغيــرة توحــي كما لو أن شيئاً قد تم اخراجه من الدرج منذ مدة ليست بعيدة . ناديت (هوليس) وأريته الاشارات . وبدا عليه الارتباك والحيرة ، وكذلك الأمر بالنسبة لي ، خاصة حينما قمت بفحص آلية القفل ، ووجدت عليها آثار خدوش ، وكانما كان قد تم فتح هذا الدرج مؤخراً .

وعاد (هوليس) الى مكتبه من خلال باب داخلي يفصل بين مكتبه وبين مكتب (ميتشل) وأنهيت وحدي عملية التفتيش .

وحدثت نفسي قائلاً :

" أنا و (هوليس) فقط اللذان كنا نعرف انني سأقوم بفتح الدرج ٠٠٠وقد تم اخذ شيء من الدرج بشكل مؤكد . هل يمكن ان يكون ذلك جهاز تسجيل ؟ ولم لا يكون الشخص الذي أخذه هو (ميتشل) ؟ لانه لم يعرف . كان (هوليس) وحده هو الذي يعرف . طاولة مكتب (غاي ليدل) . لقد تسلم (هوليس) منه منصب نائب مدير المكتب . ألا يوجد مفتاح ؟ ان رجلاً مثل (ليدل) لا يترك طاولة مكتب ويأخذ المفتاح معه . لقد كان (هوليس) وحده هو الذي يعرف . (هوليس) فقط ٠٠٠" .

رفعت نظري ، فــرأيت (هوليس) يحــدق بي مــن خلال الباب . لم يقل شيئاً ، وحدّق بي فقط ، ثم انكب فوق ملفه ثانية .

وعلى امتداد شهور صيف عام ١٩٦٣ ، ومع اقتراب موعد احالة (ميتشل) على التقاعد استمرت التحريات والتحقيقات على أعلى المستويات ، وأصبح الأمر عرضة للشبهة على نحو يائس . كان العمل كله متسرعاً اكثر من اللازم ، وسيء التخطيط الى حد بعيد. وبسبب محاولة التوصل الى نتيجة قبل انتهاء الموعد المحدد ، وبسبب الافتقار الى دعم (هوليس) كان من المتعذر تجنب بدء انهيار الجانب الأمني للعملية . لقد أدرك (ميتشل) انه هناك ثمة خلل ما . فقد لاحظ في البداية ان عملية توزيع الاوراق الواردة الى صينيته قد أصبحت تتم بشكل غريب ، فيما كان (هوليس) يعمل على الحد من اطلاعه عليها ، ثم أخذ يقوم بمراوغة عناصر المراقبة الذين يتبعونه ، فينثني راجعاً وممارساً لعملية مراقبة مضادة . لقــد كانت هناك شكوك قليلة بان (ميتشل) كــان يعرف انه مطارد ، ومن خــلال المراقبــة التلفزيونية ، كان (ميتشل) يظهــر كل الدلائل التــي تشير الى انه رجل يعاني من توتر رهيب ، كما لو كان يغرق في بحيرة كبيرة من الكآبة . وخلال سني حياته الهنيئة ، كان يبدو رجلاً

طويلاً نحيلاً ، لكنه مع اقتراب نهايته كان يبدو كجيفة ، بعينين مظلمتين غائرتين . وحين يكون معه في غرفته أناس ، فإنه كان يبذل جهداً كي يبدو طبيعياً . و حالما يصبح وحيداً ، كان يبدو وكأنه معذَّب .

أنَّ ذات يوم وهو يحدق في باب مكتب (هوليس) قائلاً :

" لم يفعلون هذا بي ؟ " .

وفي الشهر الأخير ، أصبحت القضية كلها مسرحية هزلية ساخرة . ولم تكن هناك ثمة فرصة للعثور على أي شيء في ظل هذه الظروف . ولذلك ، مارست أنا و (آرثر)الضغوط على (هوليس) من اجل الحصول على موافقته لاجراء تحقيق لحل هذه القضية بشكل او بآخر ، غير انه (هوليس) رفض ان يلزم نفسه . لكنه – بعد مرور بضعة ايام – وصل بشكل مفاجيء الى البيت الصغير في طريق (بافيليون) .

قال يخاطبنا – وكنا ستة اشخاص في تلك الغرفة – بصوت مخنوق :

" لقد ذهبت لمقابلة رئيس الوزراء ، وأخشى ان تكون عملية اجراء تحقيق آخر امراً مستبعداً تماماً " . ومن زاوية عيني ، رأيت (آرثر) وهو يكاد ينفجر مرة أخرى وقال :

" ان هروبا آخر سيكون نكبة " .

وبسرعة ، شكرنا جميعاً على الجهود التي بذلناها ، واختفى ، بعد أن نزل الى سيارته التي كانت في انتظاره . كانت تلك الحادثة نموذجاً لطريقة (هوليس) السيئة في ادارة موظفيه . فقد كان جميع الموجودين هنا من الضباط ذوي الخبرة الذين يعملون في جو تحيط به أقصى حالات اليأس ، ولم يتح لنا سوى دقيقتين . لقد انتهى العمل القذر ، ومن الافضل تركه للعمال القذرين .

كانت الطريقة تلك طريقة ساذجة ايضاً . فقد ارتاع مراقبو (م آي ٦) الذين كان يقودهم ضابط شاب يمتاز بالجرأة وصعوبة التأثير عليه يدعى (ستيفن دي موبراي) ارتاع هؤلاء من قرار (هوليس) واعتبروا القرار محاولة خشنة من أجل اخماد الأمر داخل الجهاز ، وهي نفس التهمة التي وجهتها (م آي ٥) الى (م آي ٦) فيما يتعلق بقضية (فيلبي) اضافة الى أن أي توقف عن متابعة القضية لن يستطيع ان يغير من حقيقة ان قضية (ميتشل) قد انتهت . فقد كتب (روني سيموندز) تقريراً كاملاً عن عمليات التحري والاستقصاء التي تمت . و (سيموندز) هو ضابط قديم في (د١) وقد تم تعيينه لتولي امور الاعمال المتعلقة بالاوراق والوثائق الخاصة بالقضية . وقد أوجز تقرير (سيموندز) تاريخ المزاعم بوجود تغلغل واختراق في (م آي ٥) واستنتج ان ثمة احتمالاً قوياً بوجود جاسوس على مستوى عال داخل جهاز الاستخبارات ، وأثار هذا الامر سؤالاً واضحاً فيما اذا كان من الواجب تحذير الامريكيين .

وارسل تقرير (سيموندز) الى كل من (هوليس) و (ديك وايت) . وبعد سلسلة من المشاورات

الخاصة بين هذين الرئيسين ، وجهت الدعوة الينا لحضور مجلس حرب يوم أحد آخر ، وقد عقد هذه المرة في منزل (هوليس) في ميدان (كامدين) . لم يكن التناقض بين (هوليس) و (ديك وايت) واضحاً كما هو واضح في منزليهما . كان بيت (هوليس) بيتاً ريفيا ، رثاً و خالياً من الكتب ، وقد ظهـر (هوليس) على الباب وهـو يرتدي بذلته اليـومية الـداكنة المخططة . أدخلنا الى غرفة افطار قذرة ، وبدأ العمل مباشرة . لقد رغب في سماع وجهة نظرنا اذ كان يدرك ان هناك اهتماماً بالامريكيين ، ولم يبد موضوع الاستشارة طبيعياً بالنسبة لـ (هوليس) وظهر المزيد من آثار الغضب في صوته الآن ، اذ ان قضية الاستشارة قد فرضت عليه فرضاً .

قال (آرثر) الذي كان ثائراً من الغضب بانه يجب علينا ان نجد طريقة ما لاخبار الامريكيين الآن إن كانت هناك ضرورة لاخبارهم بالأمر فيما بعد ، اذ ان اعلامهم بذلك بعد ثبوت التهمة على (ميتشل) سيكون أشد ايلاماً لهم . و عارض (هوليس) ذلك معارضة مطلقة ، اذ قال ، ان ذلك سيدمر التحالف القائم بيننا وخاصة بعد قضية (فيلبي) ، فذكرته قائلاً :

" وحسب ما نعرف ، فقد يكون لدى الامريكيين مصادر معلومات يمكن ان تساعد في حل القضية ، غير اننا لا نستطيع الحصول على هذه المساعدة الاّ اذا طلبناها " .

وتجادل (هوليس) معنا نحن الاثنين خلال الساعة التالية حول هذه القضية ، و توترت اعصاب الطرفين . و حاول الآخرون الموجودون معنا في الغرفة – (روي سيموندز / ضابط مكتب (آرثر) في قضية (ميتشل) و (هيو وينتربورن) و (فيرنفال جونز) – بيأس تلطيف الجو . وقال (سيموندز) انه يريد ابقاء ارائه وخياراته مفتوحة ، اذ ربما كان يجب التحقيق مع (ميتشل) ولكن من المحتمل دائماً اعتبار المسألة مقفلة . اما فيما يتعلق بامريكا ، فقد قال بأنه لم يعرف الجو العام هناك معرفة جيـدة حتى تكـون لـه وجهة نظر في ذلك . وكان (هيو وينتربورن) صلباً ومعقولاً ، داعماً لوجهة نظر (آرثر) القائلة بان الكارثة الكبرى ستكون اذا لم نقل شيئاً الآن ، ثم تثبت القضية فيما بعد . وانفجر (فيرنفال جونز) غاضباً :

" لسنا مدرسة عامة ميالة الى سفك الدماء كما تعرفون . ليست لدينا التزامات بأن (نعترف) للامريكيين . اننا ندير جهاز استخباراتنا بالشكل الذي نراه مناسباً ، وارجو ان يتذكر بعضكم هذا الأمر " .

ومع ذلك ، فان (فيرنفال جونز) أقر بان هناك مشكلة من الواجب حلها ، وقال انه يشعر – مع أخذ كل شيء بعين الاعتبار – ان من الحصافة تماماً اطلاع الامريكيين على الأمر ، وان المسألة تتعلق بكيفية اعلامهم بذلك . . . .

وإذا رأى (هـوليس) ان الاغلبيـة تعارضـه في رأيـه ، أعلن فجاة انه سيقوم بنفسه

بزيارة (واشنطن) .

قال (فيرنفال جونز) :

" أليس من الافضل القيام بذلك على مستوى العمل ؟ " .

غيــــر ان (هـوليس) أطبق فكيه باحكام . وعلى الرغم من أن (آرثر) حاول ان يغير من موقفه (هوليس) الاّ ان ذلك كان مضيعة للوقت وقال (هوليس) بسرعة وهو يحملق بـ (آرثر) عبر الطاولة :

" لقد سمعت الحجج ، واتخذت قراري " .

وسافر (هوليس) الى الولايات المتحدة الامريكية على الفور تقريباً حيث أطلع هناك (جون ماك كون / المدير الجديد لـ (السي آي ايه) الذي عين بعد ابعاد (هوفر) و (آلن دالاس) بعد عملية خليج الخنازير ، على القضية . وبعد ذلك بفترة قصيرة تبعه (آرثر) و قام باطلاع المكتب والوكالة على القضيـــة علــى مستوى العمـــل . وقـــد استقبل (آرثر) استقبالاً خشناً ، اذ ان الامريكيين كانوا – ببساطة – عاجزين عن فهم كيفية ابقاء قضية كهذه وعلى هذا النحو ، دون ايجاد حل لها . فهناك جاسوس من أحد أخطر جواسيس القرن العشرين – كما هو الزعم – وقد أحيل على التقاعد مؤخراً من منصب يعتبر من أحد المناصب الرئيسية في مجال مكافحة التجسس ، ومع ذلك ، فانه لم يتم استجوابه حتى الآن . وبدا الأمر لهم – على نحو قاس – كنوع من العجز ظهر في (م آي ٥) عام ١٩٥١ ، ولقد كانوا مصيبين على نحو ما .

عاد (هوليس) وقد صمم على حل القضية ، فأوعز الى (روني سيموندز) بكتابة مراجعة جديدة للقضية ، وطلب اليه – على وجه الخصوص – ألاّ يتصل أو يتعاون مع (آرثر) أو معي في بحث ووضع مسودة التقرير الجديد .

حينمـــا أحيلـــت قضية (ميتشل) على (سيموندز) عدت الى مديرية العلوم ، حيث أعلمت ان (ويليس) قد أحدث تغييراً في الاجراءات . فقد شعر ان المديرية ليست بحاجة الى توريط نفسها في المزيد من قضايا قيادة الاتصالات الحكومية ، و انها تريد مني ان اوقف كل اتصالاتي مع المنظمة . واشتعلت غضباً . فقد كنت أعرف انه ما لم تقم (م آي ٥) بالسعي والمطالبة بالحصول على التسهيلات و التعاون من قيادة الاتصالات الحكومية ، فان الامور سرعان ما ستعود الى حافة اليأس التي كانت سائدة قبل عام ١٩٥٥ . فقلة من الضباط الموجودين داخل (م آي ٥) هم الذين يمتلكون فكرة صحيحة عما يمكن لقيادة الاتصالات الحكومية ان تفعلـــه لأجلهـــم ، كمـــا ان عـــدداً قليـــلاً مـــن العاملـــين في قيادة الاتصالات الحكومية كانوا مهتمين – بنفس الدرجة – بالتفكير فيما يمكن تقديمه لبعضهم البعـــض ، وهو ما كنت أشعر بانه من الأمور الحيوية بالنسبة للمديرية حتى تستمر في عملها . غير ان

(ويليس) لم يكن ليغير موقفه . فقد أراد أن أترك العمل مع (المجموعة المضادة) وأن أنضم الى البيروقراطيين ، وكان هذا المطلب هو القشة التي قصمت ظهر البعير . ذهبت لمقابلة (هوليس) وأعلمته أنه لم يعد بامكاني الاستمرار بالعمل في المديرية ، وأنني ارغب بالانضمام الى (الفرع د) اذا كان ذلك الأمر ممكناً ، وإلاّ فانني سأعود الى (الفرع أ) . ومنحتني قضية (ميتشل) متعة البحث ، وكنت أعرف أن منصب رئيس (د ٣) لا يزال شاغراً . وكان مما أثار دهشتي هو أن (هوليس) عرض عليّ أن انتقــل الى (د ٣) على الفور . وكان هناك توضيح بسيط ، فقد أراد مني العودة الى المديرية كي أنهــي مشــروعاً خاصاً أخيراً لصالح (ويليس) قبل ان أتسلم مهام منصبي الجديد في كانون الثاني عام ١٩٦٤ .

وأصبــح المشــروع الخاص الــذي نفذ لصالح (ويليس) واحداً من اهم الاعمال التي قمت بها لصالح (م آي ٥) والتي دار حولها جدل وخلاف . فقد أراد مني ان أقوم بمراجعة شاملة لكل قصاصــة معلــومات استخباراتية قدمها هارب آخر ظهر في الغرب في أوائل سنوات الستينات ، و هو (أوليغ بينكوفسكي) . وكان هذا العمل الذي اوكلت اليّ مهمة القيام به أول عمل من نوعه يتم داخل أجهزة الاستخبارات البريطانية حسب ما أعرف .

في ذلك الوقت ، كان (بينكوفسكي) جوهرة تاج (م آي ٦) . فقد كان من كبار ضباط الاستخبــارات العسكــرية السوفييتية ، وخلال وجوده في منصبه قام بالتجسس لصالح (م آي ٦) و (السي آي ايه) خلال عامي ١٩٦١ / ١٩٦٢ و زودهما بكميات من المعلومات الاستخباراتية المتعلقة بالقدرات العسكرية ، والنوايا السوفييتية . وقد تلقوا هذه المعلومات على كلا جانبي المحيط الاطلســي علــى أنهــا أنجــح اختــراق للاستخبــارات الســوفييتية منــذ الحرب العالمية الثانية . وقد حذر (بينكوفسكي) الغرب من وجود صواريخ سوفييتية في كوبا ، كما ان المعلومات التي أرسلها حول الترسانة النووية السوفيتية قد عملت على تكوين وتحديد الموقف الامريكي تجاه أزمة الصواريخ الكوبية التي حدثت فيما بعد . وقد زوّدهم أيضاً بدلائل لتحديد مواقع الصواريخ الروسية الموجودة في كوبا . لكن الذي حدث ، هو ان جهاز الـ (ك ج ب) ألقى القبض على (بينكوفسكي) وعلى رجل أعمال بريطاني يدعى (غريفيل واين) كان بمثابة حلقة الوصل بين (بينكوفسكي) و (م آي ٦) وذلك في أواخر عام ١٩٦٢ ، وتمت محاكمتهما ، فحكم على (واين) بالسجن لمدة طويلة ، على الرغم من انه تمت مبادلته في النهاية مع (غوردون لونسديال) و (آل كروجر) في حين تم اعدام (بينكوفسكي) رميا بالرصاص على ما يبدو .

انخــرطــت فــي قضية (بينكوفسكي) في الفترة التي كانت فيها هذه العملية لا تزال جارية . لقــد قام (بينكــوفسكي) بزيارة (لنــدن) خــلال مناسبات عديدة بصفة عضو في وفد

تجـــاري ســـــوفييتي ، وقام ضباط من (م آي ٦) ومن (السي آي ايه) باستخــــلاص المعلـــومات منــــــه بشكـــل سري في فندق (ماونت رويال) . وكـــان (هيو وينتربورن) في تلك الفترة متغيبا لمدة طويلة بسبب سوء حالته الصحيـــــة ، وكنت نائب مـــدير (أ ٢) حيث طلبـــت مني (م آي ٦) تـــزويـــدهم بتغطية فنية لعمليات (بينكوفسكي) في (لندن) . اتخذت الترتيبات المتعلقة باستمرار قيام افــــراد قســـم المـــراقبة بتغطيته ، وكذلك بزرع النظام الميكروفوني المعقد المطلوب لالتقاط كل قطـــرة من المعلـــومات الاستخباراتية التي ستتساقط منه خلال الجلسات الليلية المتوترة التي يعقدها معه المشرفون عليه .

وجـــرت قضيـــة (بينكـــوفسكي) علــــى النقيـــض من كل ما كان يتم ادعاؤه حول اختراق (م آي ٥) . وقد تناقشت مع (آرثر) حول هذا الأمر خلال قضية (ميتشل) . فلو كان هناك اختراق على مستوى عال ، فان (بينكوفسكي) ما هو الاّ خدعة ، لأن الأخبار التي كانت ترد منه كانت معروفة لدى حفنة من المشبوهين القدماء أمثال (ميتشل) ومنذ البداية . وحينما كنت أقوم باتخاذ الترتيبات المتعلقـــة بعمليـــة فندق (ماونت رويال) طلب مني (هوليس) اسم عميل (م آي ٦) الذي كان يقابل (بينكـــوفسكي) وأعطيتـــه إياه كما ان (كمنغ) طلب مني ذلك أيضاً ، ولكن ، لأنه (كمنغ) في قائمة (م آي ٦) فانني رفضت اعطاءه له ، الأمر الذي نجم عنه شجار عنيف ، واتهمني (كمنغ) بأنني كبرت عن كوني ماسح أحذية* فقد بدا أنه مغتاظ لأنني لم أعتبر نفسي مديناً له للدور الذي لعبه في تشغيلي في الاستخبارات .

وبدا لنا أن معلومات (بينكـوفسكي) تتطابق مع اكثر مزاعم (غوليتسين) بعداً في مداها . فقد قال (غوليتسين) ان (خروتشوف) قام بنقل (الجنرال سيروف) رئيس جهاز الـ (ك ج ب) الى رئاسة الاستخبارات العسكرية السوفييتية وذلك في شهر كانون الاول ١٩٥٨ ، وان الشخص الذي حل مكانه في رئاسة الـ (ك ج ب) هو (الكسندر شيلبين) الذي كان اكثر ذكاء ومرونة من (سيروف) الذي كان من أتباع (بيريا)** ذلك الرجل قديم الطراز و رجل التفاصيل الدقيقة . اما المشكلة التي واجهها (شيلبين) فقد تمثلت في ان (خروتشوف) والمكتب السياسي توصلوا جميعاً الى نتيجة مفادها انه ليست هناك حرب شاملة وشيكة الوقوع في الغرب . وقد أراد (خروتشوف) معرفة كيفية استطاعة روسيا كسب الحرب دون وقوعها . وكان (شيلبين) بحاجة الى مدة ستة شهور كي يتمكن من من تقديم تقريره عن هـذه المشكلة . وعمد بعدها الـى عقد مؤتمر كبير في (موسكو) حضره كافة كبار ضباط الـ (ك ج ب) المتـــواجدين فـــي أنحاء العالم ، وبحثوا الوسائل التي يمكن من خلالها تحـديث

* يعني انه يتكبر على من هم أعلى منه (المترجم)

** بيريا : رئيس الاستخبارات الروسية في زمن ستالين (المترجم)

أساليب الـ (ك ج ب) . وطبقاً لما يرويه (غوليتسين) فان (شيلبين) قد تفاخر بانه يوجد تحت تصرف الـ (ك ج ب) مصادر كثيرة في الغرب ، مما جعله يحبذ العودة الى أساليب الاستخبارات السوفييتية القديمة السابقة لـ (ك ج ب) و الـ " تراست " كوسيلة لاخفاء الطبيعة الحقيقية للنوايا الاستراتيجية السوفييتية .

ونتيجة لمؤتمر (شيلبين) تأسست الدائرة (د) في المديرية الرئيسية الأولى في الـ (ك ج ب) والمسؤولة عن العمليات الخارجية كافة . وقد تولت هذه الدائرة الجديدة (د) مسؤولية تخطيط وفبركة " الخدع " أو نشر المعلومات المضللة على المستوى الاستراتيجي . وقد وضعت هذه الدائرة تحت مراقبة (ي . ي . آغانيتس) وهو أحد ضباط الـ (ك ج ب) القدماء ، ويتمتع باحترام واسع . وقال (غوليتسين) انه اتصل عام ١٩٥٩ مع صديق له كأن قد عمل في هذه الدائرة الجديدة ليرى فيما اذا كانت هناك امكانية لايجاد عمل له فيها . وقد أعلمه هذا الصديق ان الدائرة (د) كانت تخطط للقيام بعملية معلومات مضللة رئيسية من خلال استخدام الاستخبارات العسكرية السوفييتية ، غير ان ذلك الأمر لن يتم تنفيذه الاّ بعد مدة من الزمن لأن الاستخبارات العسكرية السوفييتية كان قد تم اختراقها من قبل (السي آي ايه) وانه يجب التخلص من هذا الأمر أولاً . وكان من المؤكد تقريباً ان هذا الاختراق هو الكولونيل (بوبوف) وهو مسؤول عالي المستوى في الاستخبارات العسكرية الروسية و الذي كان يتجسس – وهو في منصبه – لصالح الـ (سي آي ايه) وذلك قبل ان يتم القاء القبض عليه ، وتعذيبه ، واعدامه رميا بالرصاص عام ١٩٥٩ . .

وفي الحقيقة ، فان (غوليتسين) لم يعد الى هناك على الاطلاق ، لأنه كان خلال ذلك الوقت يخطط لعملية هروبه ، ولذلك ، فانه لم يعد يعرف أي تفاصيل أخرى عن عملية المعلومات المضللة التي تم التخطيط لها ، سوى انها كانت عمل فني على نحو أساسي ، وكانت تتضمن استخدام كافة الموارد المتوافرة لدى المديرية الرئيسية الاولى . وحينما وصل (غوليتسين) الى الغرب بدأ يتكهن ان الانشقاق الصيني – السوفييتي كان عبارة عن خطة وضعتها الدائرة (د) وانها كانت مجرد حيلة تم اختراعها لتضليل الغرب .

وقد آمن بعض المعجبين بـ (غوليتسين) ومنهم (آرثر) بهذا التحليل ، و استمروا في ايمانهم ، ولكن ، وعلى الرغم من أنني كنت خلال هذه الفترة المبكرة من أحد المؤيدين بحماس لـ (غوليتسين) داخل أوساط مجتمع الاستخبارات الامريكي / البريطاني ، رغم كل هذا فانه كان يبدو لي دائماً ان عملية (بينكوفسكي) هي أنسب نموذج للمهمة التي أقيمت الدائرة (د) من أجلها ، بل واكثر مما كانت فرضية الخلاف الصيني – السوفييتي غير القابلة للتصديق مناسبة له . .

وقد أصبح الخداع الاستراتيجي مفهوماً غير عصري بالنسبة لدوائر الاستخبارات

الغربية ، ويعــود ذلك – الى حد كبير – الى الحدود القصوى من التطرف الذي دفع بهذا الخداع مـــؤيــــدون لــه ، بما فيهم أنا ، خلال مراحله الاولى . لكن ، ومما لا شك فيه ، هو ان هناك تاريخ طـــويل وفعـــال لهـــذا الخداع . وتذكّر عمليات الـ " تراست " التي قام بها جهازا (جي . بي . يو) و (و . جي . بي . يو) * خلال السنين الأولى من قيام النظام البلشفي ، تذكر هذه العمليات أي مجند فـــي جهاز الـ (ك ج ب) بالدور الذي يمكن ان تلعبه هذه العمليات . وفي الوقت الذي كان فيه النظام البلشفـــي مهـــدد مـــن قبل ملايين عديدة من المهاجرين الروس البيض في سنوات العشرينات ، قام (فيلكس دجرجنسكي / المؤسس الاسطوري للاستخبارات الروسية المعاصرة) بتأسيس – وبشكل بارع – منظمة مزيفة داخل روسيا تهدف الى الاطاحة بالنظام البلشفي . وقد اجتذبت الـ " تراست " دعم مجموعات المهاجرين الروس البيض في الخارج ، وكذلك أجهزة الاستخبارات في الغرب ، وخاصة (م آي ٦) . وكانت " تراست " تخضع لمراقبة جهاز (و . جي . بي . يو) الكاملة وتمكنوا من تحييد غالبية المهاجرين والأنشطة الاستخباراتية المعادية ، حتى اختطاف والتخلص من اكبر زعيمين من البيض وهما : الجنرال (كوتيبوف) والجنرال (ميللر) . وعملت الـ " تراست " على اقناع البريطانيين بعدم شن أي هجوم على الحكومة السوفييتية لأن ذلك الأمر ستقوم به قوى داخلية في روسيا .

وقد لعب الخداع الاستراتيجي ايضاً دوراً رئيسياً في تاريخ الاستخبارات الغربية ، وكان ذلك على نحو ملحوظ في عمليات الصليب المزدوج التي دارت خلال فترة الحرب ، ومكنت الحلفاء من تضليل الألمان عن نوايانا المتعلقة باليوم – د .

ومن خلال النظر الى التوازن الاستخباراتي في عام ١٩٦٣ ، فانه لن يساورنا اي شك بانه كان لدى السوفييت كافة الظروف الضرورية للبدء بعملية تضليل رئيسية . فقد تمكنوا من القيام بعمليات اختراق على مستوى عال وكبير في الغرب ، وخاصة في بريطانيا والولايات التحدة الامريكية ، وقد استمـــر هـــذا الاختـــراق منذ الحرب . فقد قدم لهم كل من (هيس) و (ماكلين) الجاسوسان الذريان ، وكذلك كل من (فيلبي) و (بيرغس) و (بليك) وجواسيس آخرون ، قدموا لهم المعلومات الدقيقة عن المنظمات والاجهزة التي كانوا يريدون القيام بعمليات تضليل وخداع ضدها . ويضاف الى ذلك أيضـــاً ، ان الســـوفييت قاموا بعمليات اختراق مستمرة لاجهزة استخبارات الاشارات الغربية منـــذ الحرب ، ابتداء من (فيلبي) و (ماكلين) وحتى عام ١٩٥١ ، والى نهايـــة مطلع سنوات الستينـــات مـــن خـــلال هـــرب العاملين في وكالة الأمن القومي (مارتين) و (ميتشل) عام ١٩٦٠ ، وانتحـــار (جاك دنلاب) عـــام ١٩٦٣ الـذي كان يعمل سائقاً في وكالة الأمن القومي ، وكان قـــد أفشـــى تفاصيل عشرات المحادثات الاكثـــر أهميـــة والتي كانت تدور بين كبار مسؤولي وكالة

* جهازان من اجهزة الاستخبارات السوفييتية وجدا قبل تأسيس جهاز الـ (ك ج ب) / المترجم

الأمن القومي في سيارته .

لدى قراءتي للملفات ، دفعتني أسباب عديدة كي أومن ان (بينكوفسكي) لا بد و أن يكون عملية خداع وتضليل من ضمن العمليات التي علم (غوليتسين) عنها عام ١٩٥٩ . وكان أول ما لفت انتباهي حول (بينكوفسكي) هو هذه المصادفة المحضة لوقت وصوله . واذا ما كان هناك جهاز بحاجة الى انتصار فلا بد وان يكون (م آي ٦) وذلك في مطلع سنوات الستينات ، اذ ان هذا الجهاز قد تعرض لضربتين مزدوجتين تمثلتا في (فيلبي) و (جورج بليك) وكانت الروح المعنوية لهذا الجهاز في الحضيض بعد قضية (كراب) وعمليات السويس التي انتهت بكارثة . وكان (ديك وايت) يحاول اعادة بناء هذا الجهاز ، اذ ألغى منصب نائب المدير ، وصرف من الخدمة عدداً من كبار الضباط الذين كان لهم ارتباط وثيــق بنظام (سنكلير) وحاول ادخال الاتجاه الاداري ، غير انه لم ينجح أبداً بشكل كامــل ، اذ ان (وايت) لـم يكـن اداريا مـوهوباً على وجه الخصوص . اما انجازاته التي حققها في (م آي ٥) فقد كانت نتيجة لمعرفته بالمكتب وعناصره ، وكذلك نتيجة لمعرفة عميقة بأمور التجسس المضاد اكثر من تمتعه بموهبة ادارة المؤسسات .

ومن أجل حرمانه من كل هذا ، فان سنواته الاولى في (م آي ٦) كانت توصف – وبشكل لا يمكــن تجنبــه – بالنفعية وليس بالاستراتيجة الواضحة . وكان أوضح دليل على هذا هو قراره بابقاء (فيلبي) مسؤولاً عن ادارة العملاء في منطقة الشرق الاوسط على الرغم من انه كان يعتقد بانه جاسوس . وقد سألته عن هذا الأمر فيما بعد ، وأخبرني انه شعر ان صرف (فيلبي) من الخدمة سيعمل على خلــق المــزيد المشاكل داخل (م آي ٦) وبشكل اكثر مما يمكن معه حلها . ومن خلال النظــر الى (م آي ٦) في مطلــع سنوات الستينات تــذكـرت ملاحظــة (لينين) التـــي وجهها الـــى (فيلكس دجرجنسكي) :

" الغرب يفكر فيما يرغب فيه ، وعلينا ان نقدم لهم ما يرغبون بالتفكير به " . كانت (م آي ٦) بحاجــة الى نجــاح ، وكانـــوا يرغبـــون بالايمـــان فـــي النجاح ، وقد حققوا ذلك من خلال قضية (بينكوفسكي) .

كانت في هذه القضية ثلاث نقاط محددة أثارت شكوكي الى درجة بعيدة ، كانت أولاها الطريقة التي تمت بها عملية تجنيده . فمع حلول نهاية عام ١٩٦٠ قام (بينكوفسكي) بزيارة السفارة الامريكية فـــي (موسكو) للتباحـــث في أمـــور تتعلـــق بعملـــه الظاهري والمتمثل في ترتيب زيارات متبادلة مـــع الغـــرب حـــول الأمـــور العلميـــة والفنية . وحالما أصبح داخل السفارة عرض على الامـــريكيين ان يقـــوم بتزويـــدهم بمعلـــومات استخباراتية ، وقامت (السي آي ايه) باجراء مقابلة معــه داخــل مجمعهـــم الآمن وأخبرهم انه في الواقع من كبار ضباط الاستخبارات العسكرية

الروسية ، ويعمل لصالح (جي . كي . ن ي . ي . ر) وهي هيئـة مشتركة بين الـ (ك . ج . ب) والاستخبارات العسكـرية السـوفييتية ، وتهتـم بالامور العلمية والتقنية . وقد اعتبر الامريكيون ان عمل (بينكوفسكي) هو استفزاز وتحريض لهم ، فرفضوا عرضه الذي تقدم به .

وفـــي الوقت الذي كنت أعكف فيه على قراءة الملفات ، اكتشف الامريكيون من خلال هارب آخــر يدعـى (نوسينكو) ان الغرف التي استخدمت لاجراء المقابلة مع (بينكوفسكي) كانت مزروعـــة – سراً – بميكـروفـــونات وضعهـــا الـ (ك . ج . ب) . وكان من الواضح انه حتى لو كان (بينكوفسكي) صادقاً ، فلا بد وان يكون الروس قد عرفوا بالعرض الذي تقدم به للعمل كجاسوس لصالح الامريكيين .

وفي مطلع عام ١٩٦١ قام (بينكوفسكي) بمحاولة أخرى ، اذ اتصل مع رجل أعمال كندي يدعى (فان فليت) في منزله في (موسكو) و أجرى مقابلة مع (بينكوفسكي) في حمام المنزل حيث كانت حنفيات الماء مفتوحة ليتدفق الماء منها ، من أجل الحيلولة دون وجود امكانية للتنصت على حديثهمـــا . لـــم يكـــن هناك من دليل على ان شقة (فان فليت) كانت مخترقة بواسطة أجهزة التنصت ، غير انه وكذلك الأمر بالنسبة لـ (بينكوفسكي) افترضا وجود مثل تلك الاجهزة بسبب علاقاته (فليت) مع الشرطة الملكية الكندية . وفيما بعد ، وأثناء محاكمة (بينكوفسكي) تم تقديم أدلة ضده على شكل أشرطة تسجيل لمحادثات تمت بين (بينكوفسكي) وبين (واين) وقد دارت هذه المحادثات أيضاً في غرف حمامات ، وكانت حنفيات المياه مفتوحة ايضاً . وكان من الواضح ان الروس يمتلكون الوسائل الفنية من أجل التغلب على هذا النوع من التغطية المضادة .

امـــا الاتصـــال الثالث الـــذي أجراه (بينكوفسكي) مع (واين) فقد تكلل بالنجاح ونتيجة لذلك ، فانه كان يدار من قبل (م آي ٦) و (السي آي ايه) على نحو مشترك . اما النقطة الثانية التي كانت تثير الشكوك في قضية (بينكوفسكي) فقد تمثلت في نوعية المعلومات الاستخباراتية التي كان يقـــوم بتقديمهـــا ، اذ انهـــا كانت تنقسم الى صنفين : " آرنيكا " وهي معلومات استخباراتية مباشرة ، و " روبي " وهي معلومات استخباراتية مضادة .

وكانت " روبي " تتألف على الأغلب من معلومات تحدد هويات ضباط الاستخبارات العسكرية الروسية المنتشرين في أنحاء العالم ، وكانت كلها – تقريبا – صحيحة ، وكان أغلبها معروفاً لدينا في السابق . لكن ، لم تكن هناك أي دلائل تحدد هويات العملاء غير الشرعيين السوفييت في الغرب ، او يمكن ان تؤدي الى تحديد عمليات اختراق للأمن الغربي سواء كان في الماضي أو في الحاضر . ولم يكن هذا الأمر معقولاً بالنسبة لي ، فهذا شخص يقوم – بطريقة من الطرق – بعمل مشابه لعملي ، وهو ايضـــا رجل قضـــى سنوات في قمة الاستخبارات العسكرية الروسية ، وعلى اتصال مستمر بجهاز

الـ (ك . ج . ب) ومع ذلك ، فانه لم يلتقط أبداً - على نحو ظاهر - أي أثر لمعلومات استخباراتية عن مصادر القوة التجسسية السوفييتية في الغرب . وقمت بمقارنة المعلومات الاستخباراتية المضادة التي قدمها (بينكوفسكي) مع تلك التي قدمها آخر مصدر مهم في الاستخبارات العسكرية الروسية وهو الكولونيل (بوبوف) الذي قام بالتجسس لصالح (السي آي ايه) وهو لا يزال داخل الاستخبارات العسكرية الروسية خلال سنوات الخمسينات . وقد حدد (بوبوف) هوية حوالي أربعين شخصاً غير شرعيين يعملون في الغرب ، وذلك قبل ان يتم القاء القبض عليه واعدامه رميا بالرصاص .

اما " آرنيكا " فقد كانت مختلفة ، اذ ان (بينكوفسكي) قام بتسليم آلاف الوثائق - بنصوصها الكاملة - والمتعلقة باكثر الانظمة العسكرية السوفييتية حساسية . غير انه كان هناك شيئان غريبان : اولهما ، انه كان يقوم أحياناً بتقديم نسخ أصلية ، وقد بدا لي ان ما لا يمكن تصديقه ان يخاطر جاسوس بتسليم نسخ أصلية ، أو ان الروس لن يفتقدوها من ملفاتهم . أما الأمر الغريب الثاني ، فهو ان اكثـر وثائق (بينكوفسكي) أهمية ، والتي مكنت الامريكيين من تحديد اماكن الصوايخ الروسية في كوبا ، كان عمه (أوخاله) قد أراه اياها ، وهو من كبار قادة قوات الصواريخ في الاستخبارات العسكرية الروسية . وقد ادعى (بينكوفسكي) انه قام بنسخ الوثيقة بينما كان عمه خارج الغرفة . ومرة أخرى بدا لي هذا الأمر أقرب الى قصص (جيمس بوند) منه الى الحياة الواقعية .

والنقطة الثالثة التي جعلتني أشك في (بينكوفسكي) فانها تمثلت في الطريقة التي كانت تدار بها عملياته الجاسوسية . فعمله كان متهوراً جداً الى درجة مرعبة بالنسبة لمصدر حساس كهذا . وكانت المشكلة تكمن في أن معلوماته الاستخباراتية كانت قيمة جداً ، وخاصة اثناء ازمة الصواريخ الكوبية لدرجة انه كان يطلب منه ان يبذل ما في وسعه من اجل الحصول على ما يمكن الحصول عليه ، مع القيام بمحاولة بسيطة لحمايته والاحتفاظ به كجاسوس للمدى الطويل . وقمت بتعداد قائمة اسماء الاشخاص الذين توزع عليهم المعلومات الاستخباراتية التي يدلي بها (بينكوفسكي) فتبين لي ان هناك ١٧٠٠ شخص في بريطانيا وحدها على اتصال بهذه المعلومات ، وذلك خلال الوقت الذي كان يدار فيه وهو لا يزال في منصبه . وكانت كل من (م آي ٥) و (م آي ٦) وقيادة الاتصالات الحكومية وفروع الاستخبارات العسكرية المختلفة ، ولجنة الاستخبارات المشتركة ، ورؤساء أجهزة الاستخبارات وموظفـوهم ، ووزارة الخارجيـة ، ومؤسسات البحـوث العلمية المشتركة ، كان هؤلاء جميعهم يمتلكون قوائمهـم الخاصـة باسماء الاشخـاص الـذين يطلعـون على أجـزاء مختلفة مـن المواد التي يقدمها (بينكوفسكي) على الرغم مـن ان أناساً قلائل هـم الذين يطلعـون على المواد بشكل كامل . وبالطبع ، وعلى غرار كافة تقاريـر المصـدر ، فانه لم تكن هناك أي اشارة الى كيفية الحصول على هذه المعلومات الاستخباراتية ، ولكن ، وبالنسبة الى أي مستويات قياسية ، فان حجم التوزيع كان هائلاً

الى درجة تثير الدهشة ، وتطرح سؤالاً حول ما اذا كانت هذه المعلومات قد تم اكتشافها من قبل الاستخبارات الروسية التي عرفت عنها اليقظة التامة ، والتي أظهرت ايضاً في تلك الفترة من عام ١٩٦٣ مقدرة دائمة على اختراق دوائر الامن البريطانية على أعلى المستويات .

اما الترتيبات في (موسكو) فقد كانت اكثر غرابة ، واستثنائية . اذ ان (م آي ٦) اتخذت الترتيبات اللازمة كي يقوم (بينكوفسكي) بتسليم مجموعة من الأفلام المكشوفة الى السيدة (تشيشولم) زوجة ضابط (م آي ٦) المقيم هناك المدعو (روي تشيشولم) في حديقة موسكو . وقد اتبع هذا الاجراء ما يزيد على عشر مرات حتى بعد ان لاحظ كل من (بينكوفسكي) والسيدة (تشيشولم) ان رجال الـ (ك ج ب) يقومون برصد تحركاتهما . وفي الوقت الذي كنت فيه منهمكاً في قراءة ملفات (بينكوفسكي) عرفنا من خلال عملية الاستجواب التي تمت مع (جورج بليك) في السجن بأن هوية (تشيشولم) كضابط في (م آي ٦) كانت معروفة تماماً لدى الروس .

وكنت متأكداً من شيء واحد وهو : اننا ما كنا في (م آي ٥) بمصادرنا الهزيلة ، وبالقيود المفروضة علينا من خلال العادات والقانون ، ما كنا لنفشل في ملاحقة عملية (بينكوفسكي) لو أن الروس نفذوها في لندن بنفس الطريقة التي نفذتها بها الـ (م آي ٦) في (موسكو) .

حينما وزعت تقريري عن (بينكوفسكي) جوبهت بزمجرات غضب عنيف ، ووصفَتْ العملية بالشجاعة والجرأة العظيمتين ، حتى بدا ظاهرها نصراً عظيماً ، بل ان الناس أصبحوا شديدي الانفعال والتعاطف معها حينما كان ينطلق أي صوت انتقاد لها . وانقض علي الضابط المسؤول عن هذه القضية وهو (هاري شيرغولد) خلال اجتماع عقد في (م آي ٦) في أحد الايام ، وقال لي مزمجراً :

" بحق الجحيم ، ما الذي تعرفه عن ادارة العملاء ؟ .. انك تحضر الى هنا وتهين ذكرى رجل شجاع ، ثم تتوقع منا ان نصدق هذا ؟ ... " .

و بالطبع ، فقد بقي السؤال المطروح هو : لماذا كان على الروس أن يرسلوا (بينكوفسكي) كعميل مضلِّل إن كان هو كذلك ؟ وأعتقد ، ان الجواب يكمن في السياسة الكوبية ، وفي سياسة الحد من التسلح . كان للروس طموحان رئيسيان في أوائل سنوات الستينات تمثلا في : الحفاظ على (كاسترو) في كوبا ، في الوقت الذي كان خلاله الامريكيون يعملون بكل قواهم للتخلص منه ، إما من خلال عملية انقلاب او عملية اغتيال ، وكان الطموح الثاني يتمثل في زيادة وتطوير قدرات الصواريخ البلاستيكية السوفييتية عابرة القارات دون اثارة شكوك الغرب . كانت تلك الفترة هي ما عرف بـ " ثغرة الصواريخ " . وكانت المخاوف من ان الروس كانوا يتحركون قدماً في انتاج الاسلحة النووية ، البند الأساسي الذي ارتكزت عليه الحملة الانتخابية لـ (جون كيندي) لانتخابات

الرئاسة عام ١٩٦٠ ، وقد ألـزم ادارته بسـد تلك الثغرة . وكان السوفييت يعملون بيأس من أجل اقناع الغرب ان ثغرة الصـواريخ كانت وهماً ، وانه في حال وجود مثل هذه الثغرة ، فانها ستكون ناجمة عن تخلف السوفييت عن الغرب .

ومن بين الاسباب التي أثارت المخاوف من القدرات الصاروخية السوفييتية ان الغرب في هذا الوقت كانوا عمياناً – من ناحية استخباراتية – لأن رحلات المراقبة (يو ٢) قد ألغيت ، بعد أن أسقط (غراي بوورز) في شهر ايار من عام ١٩٦٠ ، ولم تعد عمليات التصوير الاستطلاعي فوق الاتحاد السوفيتي متاحة مرة أخرى ، الآ حينما اطلق اول قمر صناعي مع حلول نهاية عام ١٩٦٢ . وخلال تلك الفترة ، كانت الوسيلة الوحيدة للتجسس المتاحة أمام الغرب هي اعتراض الاشارات اللاسلكية بعيدة المدى ، وكذلك الاتصالات اللاسلكية في مناطق اختبار الصواريخ في آسيا السوفييتية ، وكذلك من خلال (بينكوفسكي) بالطبع .

وكان جوهر معلومات (بينكوفسكي) يدور حول حقيقة ان برنامج الصواريخ السوفييتية لم يكن قريباً ، وانه ليس هناك تقدم على الغرب في هذا المجال كما كان الغربيون يشكون ، اضافة الى ان الروس لم تكن لديهم المقدرة على انتاج الصواريخ البلاستيكية بعيدة المدى وعابرة القارات ، وانما كان لديهم فقط الصواريخ البلاستيكية متوسطة المدى . وأصبح (كيندي) بعد أن تسلح بهذه المعلومات قـادراً علـى اتهام الروس بممارسة الخداع والتضليل ، حينما اكتشف الامريكيون وجود قواعد ومـرافـق صـواريخ متـوسطـة المدى قيد الانشاء . وقد اكدت حقيقة اكتشاف الروس – و هم يقومون بتركيب الصواريخ التي أصبح بمقدورهم انتاجها – اكدت هذه الحقيقة للأمريكيين صحة رسالة (بينكوفسكي) بانه لم يكن لدى الروس المقدرة على انتاج الصواريخ البلاستيكية بعيدة المدى وعابرة القارات ، فأجبر (خروتشوف) على الانسحاب ، وإن كان قد حقق هدفه الرئيسي المتمثل في قبول الولايات المتحدة لحقيقة ان كوبا يجب ان تبقى بعيدة عن أي خطر يهددها .

وقـد أكـد صحـة رسالة (بينكوفسكي) هاربان آخـران مـن وفـد الاتحاد السوفييتي الى الامـم المتحـدة ، واللـذان اتصلا بمكتب التحقيقات الفيدرالي في أوائل سنوات الستينات وهمـا (توب هات) و (فيدورا) وكان الأخير – مثل بينكوفسكي – ضابطاً علميا وتقنياً علي حد زعمه . وقدم هذان العميلان – وخاصة فيدورا – معلومات استخباراتية أيدت رسالة (بينكوفسكي) حول أن نظام الصواريخ السوفييتي كان متأخراً على نحو واضح عن نظام الصواريخ لدى الغرب . وقدم (فيدورا) معلومات استخباراتية مفصلة الى حد كبير عن نقاط الضعف في مقياس التسارع في الصواريخ .

امـا الثقة التي قدمتها المعلومات الاستخباراتية التي أدلى بها (بينكوفسكي) و (فيدورا) و

(توب هات) الى الامريكيين فقد كانت عاملاً حاسماً في خلق المناخ الذي أدى الى بدء مفاوضات الحد من التسلح (سالت ١) والى حقبة الوفاق ، وهذه هي حقيقة هدفه كما أعتقد . لقد ساعد على تهدئة الشكوك التي كانت ثائرة في الغرب على امتداد فترة تزيد على عقد من الزمن ، وضللتنا فيما يتعلق بالوضع الحقيقي الذي كان عليه برنامج تطوير الصواريخ السوفييتية .

وفي منتصف سنوات السبعينات أخذت الأجواء بالتغير ، وبدأت الشكوك بالظهور . فقد كانت عمليات الاستطلاع بواسطة الاقمار الصناعية قد تحسنت بشكل جذري ، وحينما تم تحليل دقة الصواريخ السوفييتية البلاستيكية بعيدة المدى وعابرة القارات من خلال استخدام قياسات معقدة لفوهات مكان اصطدام الصواريخ بالاهداف ، تبين ان الصواريخ كانت أدق مما كانوا قد اكتشفوه من قبـــل بواسطة الاعتراض عن بعد ، واعتراض الاتصالات اللاسلكية . وكان التفسير الوحيد لهذه الحقيقة هو ان اشارات مضللة كانت قد أدخلت في الاشارات الروسية لتضليل انظمة المتابعة والرصد الامريكية .

وبينمـــا احتفـــظ (بينكوفسكي) بوضعه على انه أروع انجاز حققته (م آي ٦) خلال فترة ما بعـــد الحـــرب ، أعلنت كل اقسام مجتمع الاستخبارات الامريكي بشكل رسمي ان (توب هات) و (فيدورا) هما مجرد استفزاز وتحريض ، لأسباب من الصعوبة بمكان ايرادها مفصلة هنا . وكانت المعلومات التي قدمها (فيدورا) عن مقياس التسارع خاطئة ، وكانت هناك بعض الدلائل التي تشير الى ان الروس قد أدخلوا (غايرو / دوّار) ثالثاً مزيفاً في صواريخهم ، حتى تبدو هذه الصواريخ أقل دقة مما هي عليه في الواقع .

وقـــد ألقـــت اكتشافات كهذه ظلال الشك حول صحة اتفاقيات تحديد الأسلحة السابقة ، وبدت المخاوف من عدم مقدرة الامريكيين على تقيم قدرات السوفييت الصاروخية بشكل دقيق بمثابة جرس الموت لمحادثات (سالت) في نهاية سنوات السبعينات . وبدا يظهر ادراك متزايد في اوساط وزارة الدفاع الامريكية لحقيقة ان القيام بعمليات تفتيش في مواقع الصواريخ أصبحت امراً حيوياً في أي مفاوضات مستقبلية ، وهو تنازل رفض السوفييت التقيد به . والآن ، بدأ يبرز بين أوساط استراتيجيي الدفاع الغربيين رأي مفاده ان الغرب كان قد بالغ في الثقة – حقاً – في تقييمه لقوة الصواريخ السوفييتية في الستينات ، وبأن السوفييت استغلوا حقبة الوفاق كغطاء للتوسع العسكري الهائل . ولم تعد فكرة ان (بينكوفسكي) كان قد لعب دوراً ما في ذلك بعيدة الاحتمال الآن ، كما بدت في وقت من الاوقات .

وحين بدأت كتابة تحليلي عن (بينكوفسكي) قال لي (موريس أولدفيلد / الذي أصبح فيما بعد رئيس (م آي ٦) خلال سنوات السبعينات) و الذي لعب دوراً أساسياً في قضية (بينكوفسكي)

باعتباره رئيس محطة في (واشنطن) :

" أمامك طريق طويل للعزق بهذا يا (بيتر) . فهناك الكثير من الكبار و الصغار الذين ركبوا على ظهر (بينكوفسكي) واعتلوا كثيراً بركوبهم هذا " .

قال ذلك مشيراً الى الشرف الذي أسبغ على اولئك الذين ارتبطوا بعملية (بينكوفسكي) .

واليوم ، ربما لم يعد الطريق طويلاً جداً على النحو الذي كان عليه في السابق .

١٥

مع مطلع عام ١٩٤٦ ، كنت – وكذلك الامر بالنسبة لـ (آرثر) – على قناعة بأن (هوليس) وليس (ميتشل) هو الشخص المشتبه به كثيراً على انه الجاسوس الذي يعمل بشكل نشيط ، وعلى مستوى عال ، داخل (م آي ٥) . وهذه الفرضية هي التي تفسر فقط كافة التناقضات التي حصلت خلال قيامنا بعملية التحري عن (ميتشل) . فالرفض الحازم الذي صدر عن (هوليس) بالاعتراف بوجود امكانية اختراق في جهاز الاستخبارات ، واستمرار الرفض لفترة طويلة ، وعدم رغبته بالسماح لنا باستخدام التسهيلات التقنية أثناء قضية (ميتشل) وكذلك رفضه المصادقة على التحقيق ، أو اعلام الامريكيين بالقضية الاّ بعد أن تم اجباره على ذلك ، كل تلك الأمور بدت لنا وكأنها تشير باتجاه واحد .

وفجأة ، وبينما كنا بانتظار تقرير (سيموندز) الثاني حول قضية (ميتشل) سقطت قضية قديمة في حجرنا . فقد اعترف (السّير أنثوني بلنت / وهو القيم على صور الملكة ، ومؤرخ الفن العالمي ، وأحد كبار الضباط في [م آي ٥] أثناء الحرب) في شهر نيسان عام ١٩٦٤ بانه كان يتجسس لصالح الروس طوال فترة الحرب . وقد اعلن هذا الأمر حينما قام مكتب التحقيقات الفيدرالي باعلام (م آي ٥) ان مواطنا امريكيا يدعى (ميشال ويتني سترايت) قد أخبرهم ان (بلنت) قام بتجنيده للعمل لصالح السوفييت حينما كانا في جامعة (كامبردج) خلال سنـــوات الثلاثينات . وطار (آرثر مارتين) لمقابلة (سترايت) الذي أكد القصة ، ووافق على الادلاء بشهادته امام المحاكم البريطانية اذا كان الأمر ضرورياً .

وتمت دراسة مسألة كيفية معالجة قضية (بلنت) خلال سلسلة من الاجتماعات الجادة التي

عقدت في مكتب (هوليس) . وقد رأت الادارة ان هذا الأمر هو بمثابة احراج كبير ومروع . فضمن لعبة المنافسة الداخلية المستمرة بين أجهزة الاستخبارات ، فان حقيقة أن (م آي ٦) هي ملجأ الخونة الذين ثبتت خيانتهم كانت ذات أهمية كبرى لهيبة (م اي ٥ – التي لم تثبت فيها مثل هذه الخيانة) داخل دوائر (الوايت هول) . وكان (هوليس) بشكل خاص متلهفاً كي يصبح موضع احترام كبار المسؤولين في رئاسة الوزراء ، ووزارة الخارجية ، وكان في الوقت ذاته يخشى من تأثير قضية (بلنت) على وضع (م آي ٥) . ووراء كل هذا ، كان هناك ذلك الرعب من الفضيحة ، اذ ان (هوليس) وعدداً من كبار موظفيه كانوا على دراية تامة بالأضرار التي قد تصيبهم جراء الكشف امام الرأي العام عن نشاطـــات (بلنت) وكذلك الامر بالنسبة لـ (م آي ٥) و لحكومة المحافظين التي كانت على رأس السلطة . فقد استقال (هارولد ماكميلان) في النهاية بعد سلسلة من الفضائح الأمنية ، وصلت الى ذروتها مع قضية (بروفومو) . ولم يخف (هوليس) عداءه لحزب العمال الذي كان يحظى بشعبية واسعة في تلك الفترة ، وكان يدرك جيداً بان قضية بحجم قضية (بلنت) – حينما يتم الاعلان عنها – سوف تعمل على اسقاط الحكومة المترنحة بشكل مؤكد .

وكان لدى (آرثر) وكذلك الأمر بالنسبة لي ، عدد من الدوافع البسيطة . فقد كنا نريد ان نضع أيدينا على (بلنت) بأسرع ما يمكن لنرى فيما اذا كان باستطاعته ان يلقي بعض الضوء على قضية وجود اختراقـــات أخـــرى فـــي (م آي ٥) سيمـــا وانه كان من المحتمل ان اجراء محاكمة يتم اشراك (سترايت) فيها يمكن ان لا يحالفها النجاح في أي حال من الأحوال ، وستؤدي الى تأخير فرصنا للحصول على تعاون منه ، إن لم تعرض مساعينا للخطر . وكان قرار منح (بلنت) حصانة هو القرار الوحيد المحتمل الذي من شأنه ان يظهر وجود اختراق في (م آي ٥) حيث وافقت عليه جميع الاطراف . وبعد أن تم ايضاح الأمر للمدعي العام ، تمت مجابهة (بلنت) مع (آرثر مارتين) وسرعان ما اعترف بدوره كمراقب مواهب وجاسوس سوفييتي .

بعد مرور بضعة أيام على اعتراف (بلنت) اتصلت بي سكرتيرة (هوليس) في وقت مبكر من مساء أحد الايام ، وطلبت منـــي الحضور الى مكتب المدير العام على الفور . كان كل من (هوليس) و (فيرنفال جونز) على جانبي طاولة المكتب ، والكآبة تعلو وجهيهما ، في حين كان (فيكتور روتشيلد) يقف عند النافذة ، ويحدق عبرها باتجاه (غرين بارك) .

قلت ، وأنا مندهش قليلاً لأنه لم يعلمني عن زيارته للمبنى :

" مرحباً فيكتور " .

فأجابني بصوت منفعل ، وهو يستدير لمواجهتي :

" شكراً لمجيئك يا بيتر" . كان يبدو انه مهتاج . ثم قال (هوليس) مقاطعاً بسرعة :

" لقد أخبرت (فيكتور) عن (أنثوني) للتو " .

من المدهش قليلاً ان يبدو (فيكتور) مُدمَّراً ، فقد كان هو و (بلنت) صديقين حميمين مدة ثلاثين عاماً تقريباً . كانت البداية في جامعة (كمبردج) ثم اثناء فترة الحرب حينما خدم الرجلان سوية في (م آي ٥) وبعد انتهاء الحرب سارت حياتهما العملية بهما في طريقين مختلفين . فقد كان الرجـلان يتمتعـان بمـواهـب خارقـة في عالم يزداد قتامة ، وبقيت علاقتهما مع بعضهما البعض قوية . وكما هو الحال بالنسبة لـ (بلنت) فان (فيكتور) أصبح موضع شبهة بعد هروب (بيرغس) و (ماكلين) . فقد كان على علاقة صداقة مع (بيرغس) أثناء دراسته في الجامعة ، واستأجر بيتاً في شارع متفـرع من شارع (ويلبيك) رقم ٥ شارع (بينتينك) حيث أقام في هذا المنزل كل من (بلنت) و (بيرغس) خـــلال فترة الحرب . ولكن ، بينما تلاشت الشكوك التي كانت تحوم حول (فيكتور) بسرعة ، بقيت تلك التي كانت تحوم حول (بلنت) وخاصة بعد ان قام (كورتني يونغ) باجراء مقابلة معه في منتصف سنوات الخمسينات .

حالما تم اطلاع (فيكتور) على الحقيقة ، كان اهتمامه الأساسي ينصب حول كيفية نقل هذه الأخبار الى زوجته (تيس) . وكان يعرف – وكذلك الامر بالنسبة لي – ان أخبار خيانة (بلنت) سيكون لها تأثير اكثر ضرراً عليها مما سيكون لها عليه . فقد عرفت (تيس روتشيلد) بشكل جيد منذ أول لقاء لي مع (فيكتور) عام ١٩٥٨. كانت امرأة تفيض بالفتنة والانوثة ، وكانت قريبة الى (بلنت) بأشكال مختلفة اكثر من قربها الى (فيكتور) نفسه ، كما كانت تفهم الجانب الضعيف في شخصيته . وقد شاركته محبته للفن ، اذ كانت خلال سنوات الثلاثينات تعمل بنشاط في نفس دائرة المثقفين اليساريين الموهوبين الذين كانوا يتلقون تعليمهم في (كامبردج) وأقاموا حفلات في (لندن) ، وقضوا اجازات في (كاب فيرات) في حين كان العالم يترنح سائراً باتجاه الحرب العالمية الثانية .

حينما نشبت الحرب التحقت (تيس ماير / كان هذا هو اسمهاحينذاك) بـ (م آي ٥) حيث خدمت بشجاعة وتفوق عظيمين الى جانب زوج المستقبل . وخلال هذه الفترة أيضاً ، كانت لديها غرف في رقم ٥ شارع (بينتينك) مع (بلنت) و (بيرغس) اما زميلتها (بات راودون سميث) فقد كانت تقيم معها في غرفتها ، وأصبحت تعرف فيما بعد بـ (الليدي ليويلين – دافيز) . كانت (تيس) على معرفة تامة بشكوك (م آي ٥) حول (بلنت) بعد هروب كل من (بيرغس) و (ماكلين) ومع ذلك ، فانها دافعت عنه حتى النهاية . كانت هي – وكذلك زوجها (فيكتور) – يعرفان ما يشعر به البريء حين يصبح – مع ذلك – موضع شك لكونه كان على علاقة ودية مع (غاي بيرغس) . وبالنسبة لها ، فان (بلنت) كان رجلاً موهوباً على نحو يثير الدهشة ، وحساساً ايضاً ، وقد ناء تحت عبء ثقيل من الشك جراء الاحتياطات المفرطة التي أحاطت بعمله ، وبخيانة (غاي بيرغس) .

كانت تقول لي دائماً :

" كان (أنثوني) يعود دائماً الى شارع (بينتينك) وهو سكران ، بل انه يعود ثملاً أحياناً لدرجة انني كنت أقوم بمساعدته حتى ينام في سريره . ولو كان جاسوساً لعرفت ذلك ... "

وأدرك (فيكتور) اننا بحاجة الى مقابلة (تيس) بعد أن اعترف (بلنت) ومع هذا فقد كان متخوفاً من اطلاعها على الحقيقة ، فقال بهدوء :

" لهذا السبب طلبت منك الحضور الى مكتب (روجر) لأنني أرى ان من الافضل ان تصلها الأخبار عن طريقك "

وكنت أعرف أنه بحاجة الى الابتعاد عن (ليكونفيلد هاوس) وأن يستجمع افكاره .

وأجبته : " بالطبع " . وبأكبر قدر ممكن من اللطف الذي يمكنني اظهاره ، اقترحت احضار (ايفلين ماك بارنيت) ايضا ، إذ أن (تيس) تعرفها .

بعد مرور بضعة أيام ، كنت أنا و (ايفلين) نتوجه بسيارة أجرة الى ساحة (القديس جيمس) وتم ادخالنا الى غرفة مكتب (فيكتور) وهي غرفة جميلة ، ذات طابع دراسي ، وتطل على (غرين بارك) ويسيطر عليها طابع شخصيته : رسومات وأشكال علمية ، وأدوات موسيقية ، وكتب حديثة وقديمة ، وقد علقت على الجدار مسطرة انزلاقية ضخمة صممها بنفسه . وكان في الغرفة ايضاً جهاز بيانو ، كان (فيكتور) يعزف عليه موسيقى الجاز بمهارة وحماس عظيمين . كان القلق يساوره ، وكان بوسعي ادراك أن (تيس) كانت تشعر ان هناك شيئاً غير اعتيادي . بعد مرور بضع دقائق ، قال لها (فيكتور) ان لديّ بعض الأخبار التي أود نقلها اليها ، ثم انسل خارجاً من الغرفة .

سألتني بقلق :

" هل هناك شيء خطأ يا بيتر ؟ " .

فأجبتها :

" انه أنثوني ... لقد اعترف أخيراً " .

" بماذا اعترف ؟ لن تقول انه كان جاسوساً ؟ " .

" نعم ، انني أقول هذا يا (تيس) " .

ورفعت يدها الى فمها مدة ثانية من الزمن وكأنها تشعر بألم ، ثم تركتها تنزلق هابطة بلطف على حجرها . ورويت لها القصة على أفضل نحو يمكنني القيام به . رويت لها كيف اعترف انه تم تجنيده عام ١٩٣٧ وذلك بعد مرور سنة أو اثنتين على تجنيد (فيلبي) و (بيرغس) و (ماكلين) وكيف انه سرد وصفا طويلا مفصلاً لنشاطاته التجسسية خلال فترة الحرب . ولم تبك (تيس) بل شحب لونها بشكل مريع ، وجلست محنية الظهر وقد أصابها الجمود . اما عيناها فقد كانتا تحدقان بي وهي

تصـــفي الـــيّ . وكانـــت مثـــل (فيكتور) شخصاً يشعر ان الاخلاص للصداقة ذو أهمية كبرى تفوق التصور ، وقد هزتها خيانة تلك الصداقة كما هزت (فيكتور) من الصميم .

همست قائلة :

" كل تلك السنوات ، ولم أشك اطلاقاً بشيء " .

وبدأت أدرك لأول مرة قوة المشاعر التي تشكلت في بوتقة تلك السنين الغريبة المغرقة في القدم في (كامبردج) خلال سنوات الثلاثينات .

كان لاعتراف (بلنت) أثر عنيف على سلوك (آرثر) . فبعـــد سنـــين مـــن الكـــد والعمل الدؤوب ، ظهر – أخيراً – الدليل الذي يثبت انه كان على حق طيلة ذلك الوقت الذي مضى . فقد كانت الشكوك حـــول (بلنت) تســـاوره منـــذ البدايـــة على الرغم من ان الكثيرين من العاملين في المكتب أمثـــال (ديك وايت) الذيـــن كانـــوا أصدقاء مقربين الـــى (بلنت) خـــلال فترة الحرب قد أبدوا شكوكهم – في بداية الأمر – بان ذلك ممكن .

وأصبح (آرثر) اكثر عنفا واندفاعاً حتى كان يبدو ان من الصعوبة بمكان ايقافه ، وارتسمت على وجهه نظرة رجل يمكنه ان يشم رائحة لحم مشوي ، فيدفعه الاحساس بالنهم والشراهة الى العمل وهو يحمل فروة الرأس القديمة * .

وعمل هذا الاعتراف على زيادة حدة المواقف تجاه عمليات الاختراق بشكل متسارع . فالأمر الذي لم يَجُلْ بالخاطر – وجود جاسوس داخل (م آي ٥) – أصبح فجأة اكثر واقعية ، وكان (آرثر) مقتنعاً انه لو كان بامكاننا ابقاء الزخم على قوته ، فان فريق (الفرع د) الجديد سيتمكن من الوصول الى قلب مؤامرة سنوات الثلاثينات . وشعر – في حين كانت الامور تجري حسب ما نريد ، والهاربون والاعترافات تتوالى بكثافة وسرعة – انه قد يتمكن من حل اعظم لغز من بين كل الالغاز ، ألا وهو تحديد هوية الخُلْد ** الموجود داخل (م آي ٥) اليوم . لكن الذي حدث ، هو انه بينما كان (آرثر) يلح ويضغط من أجل الاسراع بالعمل ، اصطدم بالمدير الجديد لـ (الفرع د) وهو (كمنغ) الذي يحبذ سلوك مسلك بطيء وحذر .

وتدهـــورت العلاقـــة بين الرجلين على نحو مزعـــج خلال النصف الاول من عام ١٩٦٤ ، اذ ان (آرثر) كان يكـــن القليل من الاحترام لـ (كمنغ) لأنه كان يشعر ان نهج المدير الجديد نهج قديم . وقد كـــان (آرثر) مسؤولاً الى حد كبير عن عملية اعادة بِناء مكافحة التجسس السوفييتي منـــذ عام

---

* فروة الرأس : دلالة على احراز النصر ، فقد كان الهنود الحمر يسلخون فروة رؤوس أعدائهم ويحملونها ملوحين بها دلالة على النصر (المترجم)

** الخلد : الجاسوس (المترجم)

١٩٥٩ ، وبسبب ذيوع صيته ، فان تأثيره انتشر حتى خارج نطاق (د ا) . كان رجلاً طموحاً ، ويعرف ذلك ، غير انه كانت تعوزه موهبة الحذق . فقد كان يشعـــــر انه يجب ان يكون مدير (الفرع د) بدلاً من (كمنغ) غير انه لم يكتم حقيقة توقعه لشغل هذا المنصب خلال فترة قريبة ، ولم يجعلها كسر من الأسرار . وكـــان يرى ان (كمنغ) يعالج موضـــوع الاختراق برمته معالجة سيئة ، الأمر الذي أدى بـ (كمنغ) الى اضمار كره عميق لموقف (آرثر) وتدخلاته في سلطته . ونادراً ما كان يخفي (كمنغ) هذه الكراهية ، اضافة الى شعوره بالمرارة حيال الطريقة التي تم ابعاده بهـــا عن التحقيق في قضية (ميتشل) وكان يعتقد أن (آرثر) تساوره شكوك خفية حول (هوليس) . وكان من الواضح ان كشفاً للاوراق لم يكن الاّ مسألة وقت حتى يتم .

بعد مرور وقت قصير على اعتراف (بلنت) وقع أمر جديد . ففي شهر أيار من عام ١٩٦٤ قمت بزيارة (واشنطن) في محاولة لاقناع (السي آي ايه) لتقديم مساعدتها لنا في برنامجنا الوليد ، وهو برنامج تحليل الحركات . فقد كنت أنا و (هال دوين ديتماس / المسؤول عن تحليل الحركات) نريد من (السي آي ايه) ان تقوم بتقديم جهد مبرمج * لمعالجة الحجم الهائل للمواد التي كان ينتجها البرنامج (٧ ملايين حركة سنويا) وقد حظي مطلبي من (السي آي ايه) بموافقة (هوليس) . كان (انغلتون) متعاونـــاً معنـــا تماماً ، ووافق (هيلمز) ليس على ارسال فني أو اثنين من رجاله فقط ، وانما على ارسال فريـــق مـــن عشرين رجلاً ، مع ضمانة بعمل الكومبيوتر طيلة الوقت الذي يحتاجه البرنامج في (السي آي ايه) . وحالما عدت ، وكان فريق الكومبيوتر التابع لـ (السي آي ايه) على وشك الوصول في الاسبوع التالي ، أعلمني (آرثر) انه تم نقل (هال دوين ديتماس) . وانفجرت صائحاً :

" بحق الجحيم ، كيف يمكننا القيام باي تخطيط اذا تم نقل موظفين لهم أهميتهم الحيوية من مناصبهم في الوقت الذي يصبحون فيه على معرفة جيدة بطبيعة عملهم ؟ لقد قضيت أنا و (هال) اربع سنوات ونحن نعمل على تطوير هذا البرنامج ، وحين بدأ العمل يؤتي أكُلَه ، يتم نقله ؟ " .

كـــان (آرثر) منزعجـــاً قدر انزعاجي ، اذ انه كان قد اختار مجموعة كبيرة من العاملين في (د ا) وكره أي محاولة لنقلهم ، وخاصة في هذا الوقت الذي وصلت فيه نشاطات مكافحة التجسس السوفييتي الى ذروتها . واندفع (آرثر) الى مكتب (كمنغ) معتقداً ان من الواجب عليه ان يعارض عملية النقل . وتسرب صوت شجارهما الى الممر ، فيما كانت شهور من الكراهية المكتومة في الصدور تنفجـــر خارجـــة مـــن مكامنهـــا . ووجـــه (كمنغ) اصابع الاتهام الى (آرثر) بانه يقسو على الفرع ، ويتجاوز سلطاته . ولم يخف (آرثر) بـــدوره مـــا كـــان يعتقده من ان الشعبة كانت تدار بشكل سيء ، وكـــان مـــن المتعذر تجنب الحديـــث عن قضية (ميتشل) الأخيرة . كـما اتهم (كمنغ)

* مبرمج : مستخدم للكمبيوتر (المترجم)

(آرثر) ايضاً بانه لا زالت تسيطر عليه بهوس فكرة ما كان يعتقد هو انها قضية ميتة ، اضافة الى كونها قضية سببت الضرر الهائل للروح المعنوية للجهاز . وكان رد فعل (آرثر) أن قال إن القضية – الى الحد الذي يعنيه منها – تحتاج الى مشوار طويل . ونقل (كمنغ) الى (هوليس) هذه المشادة حيث طلب الأخير – على الفور – تقريراً خطياً كاملاً عن الموضوع . وفي اليوم التالي أرسل (كمنغ) الى (هوليس) مسوّدة التقرير الذي كان ينوي تقديمه .

أصيب (آرثر) بالرعب مما قرأ ، اذ ان هذا التقرير لم يتضمن أي اشارة تتضمن زيارة (السي آي ايه) ونقل (هال دوين ديتماس) من برنامج تحليل الحركات . وكان التقرير بمجمله هجوماً صريحاً على (آرثر) بل انه وصل ذروة ذلك حينما أشار الى ان (آرثر) يضمر شكوكاً داخل نفسه حول هوية الجاسوس الموجود في (م آي ٥) ولا يرغب باطلاع مديره عليها .

ووصل (آرثر) الى نقطه اللاعودة مع (كمنغ) .

وكتب على هامش التقرير :

" ليس صحيحاً " .

وواصل شطب كل سطر من سطور تقرير (كمنغ) قبل أن يعيده الى المكان الذي ورد منه . اما (كمنغ) الذي شعر ان فرصة احراز النصر الحاسم قد حانت ، فانه أرسل نسخة التقرير كما هي الى (هوليس) الذي أوقف (آرثر) عن العمل مدة اسبوعين بسبب عدم انضباطه .

وكنت في وضع يائس : فهناك عشرون فنيا من (السي آي ايه) سيصلون بين عشية وضحاها الى (ليكونفيلد هاوس) وهم يتوقعون بدء محادثات هامة مع (هال دوين ديتماس) ومعي ، ومع (آرثر مارتين) . اما والحال كما هو عليه الآن ، فانني ساكون الوحيد على جانب الطاولة الذي سيجلس عليه مندوبو (م آي ٥) . وذهبت لمقابلة (هوليس) على انفراد ، وأوضحت له طبيعة المشكلة – ضمن أدنى حد من الضغينة كان يمكنني اظهاره – وذكّرته ان الاتصال بـ (السي آي ايه) كان قد تم باسمه هو ، فوافق على اعادة (هال دوين ديتماس) الى منصبه لمدة سنة أخرى .

ثم سألته :

" وماذا عن آرثر ؟ " . وكنت آمل أن يغير تفكيره حول هذا الموضوع أيضاً ، غير انه أجابني :

" لست على استعداد لمناقشة الموضوع " . فأجبته مستجدياً :

" لكن ، ماذا عن (بلنت) ؟ لا يمكننا تركه في العراء في البرد في الوقت الذي حطمناه فيه " .

فقال مقطباً :

" لقد حان الوقت الذي يجب فيه على (آرثر) انه يعلم انه لم يصبح المدير العام بعد . حينما يجلس على هذا الكرسي فانه سيكون بامكانه اتخاذ القرارات . وحتى يحين ذلك الوقت ، فانني انا

الذي افعل ذلك " .

حيـــن عاد (آرثر) بدأنا التحقيق مع (بلنت) بحماس وانتظام ، محددين هوية كل مشرف عليه ، وكـــل مجنـد ، ومدققين في كل بند من المعلومات التي سلمها للروس . وقد قام (آرثر) بمقابلة (بلنت) بشـــكل منتظـــم ، وحقق معـــه على أساس موجز البحوث المفصلة الذي وضعته (ايفلين) و (د٣) . وتم تسجيل كل جلسة على شريط تسجيل ، وتمت معالجة كل التسجيلات من قبل (د ٣) لتحديد النقاط غير الدقيقة ، وتلك التي تحتاج الى استجواب اضافي .

وذكر (بلنت) بسرعة أسماء الجواسيس التالية اسماؤهم : (ليو لونغ / ضابط سابق في الاستخبـارات العسكرية البريطانية) و (جون كيرنكروس) الذي خدم في وزارة المالية عام ١٩٤٠ قبـل ان ينضـــم الـــى مـــدرسة الشيفـــرة والـــرمـــوز الحكـــومية في (بلتشلي) حيث اطلع على مـــواد (انيغما سيغينت) ثم التحق عام ١٩٤٤ بـ (م آي ٦) . واعترف (لونغ) بسرعة بعد أن أعلمه (آرثر) بانه من غير المحتمل ان يقدم الى المحاكمة اذا تعاون مع (م آي ٥) و كذلك الامر بالنسبة الى (كيرنكروس) الذي قابله (آرثر) في (روما) .

لكـــن (بلنت) وبعد اعترافاته الأولية ، كان قد استنفد كل أقواله ، فجلس ، وأصغى الى أسئلة (آرثر) وقدم المساعدة حيثما أمكن ذلك ، غير انه لم يكن لديه ما كنا نتوقعه من غنى في التفاصيل . وقررت أنا و (آرثر) ان نجابهه معاً . وكانت الخطة تقتضي ان يتم تقديمي اليه على أنني الضابط الذي سيحلل اعترافاته ، وبعدها أقوم بدور القذر بدلاً من (آرثر) اللطيف ، وأُخبر (بلنت) بان شكوكاً جادة تساورني في صحة اعترافاته . كانت تلك الخطة خدعة تحقيق قديمة ، لكنها نجحت في السابق . غير اننا أضفنا اليها شيئاً جديداً ، اذ قمنا بترتيب اجراء المقابلة في شقة (موريس اولدفيلد) الواقعة في (تشاندوس كورت / شارع كاكستون / ويستمينستر) والتي كان يوجد بها نظام تنصت ومراقبة مخفي . كان (آرثر) يقوم بتسجيل المحادثة بشكل علني ومكشوف بواسطة جهاز تسجيل عادي يحمل باليد ، وذلك حينما كان يقابل (بلنت) عادة . وقررنا ايقاف العمل بالمسجل الذي كان يستخدم أمامه حين أذهب لمقابلته ، سعياً وراء إعطائه شعوراً اضافياً بالأمان . اما (هوليس) فقد كان يشعر بالنفور الشديد من الخطة . ومنذ البداية كان قد أوعز بعدم ممارسة الضغط على (بلنت) حتى لا يهرب . غير اننا أقنعناه (هوليس) ان المخاطرة في هذه الحالة تستحق القيام بها .

قمنا بمقابلة (بلنت) عدة ليال ، كان طويلاً ونحيلاً الى حد بالغ ، و كان يرتدي بذلة تويـــد بربطـــة عنـــق كبيرة قوسية الشكـــل ، وبدا مميـــزاً ، وإن كان مخنثاً الى حـــد مـــا . ايضاً ، كان ودوداً ، ولكن باحتراس ، خاصة تجاه (آرثر) . كان بينهما توتر ، اذ ان أياً منهما لم ينس انهما عملا معاً قبل عشر سنوات ، وكانت (بلنت) يكذب من بين أسنانه طوال الوقت . تحادثا معاً باسلوب رجال

الاعمال مدة نصف ساعة ، وبشكل أساسي عن الوثائق التي أخذها (بلنت) من قسم السجلات . كان (بلنت) يلقـــي علـــيّ نظـرة مـــن وقـــت الى آخر ، وكنت أشعر انه يعرف ما الذي سيتبع هذا . وأخيراً ، أشركني (آرثر) في المحادثة ، قائلاً :

" لقد كان (بيتر) يقوم بالتحليل يا (أنثوني) وأظن ان لديه شيئاً يود قوله " .

اقفلت المسجل ، وصمت برهة للتأثير ، ثم قلت :

" ان مـــن الواضـــح لـــي تماماً - بعد قراءتي لنصوص التسجيلات - انك لم تخبرنا بالحقيقة كاملة ... " .

أجفل (بلنت) كما لو كنت قد ضربته . كان يجلس على كرسي مريح ، وقد تشابكت رجلاه النحيلتان كقلمي رصاص ، في حين أخذت رجله الممدودة ترفس على نحو لا ارادي .

أجابني ناظراً الى عيني مباشرة :

" لقد أخبرتكم بكل ما سألتموني عنه " . فقلت :

" هراء كـــان ذلـــك ، وانـــت تعـــرف هـــذا ايضـــاً ... تقول انك تعرف فقط عن (لونغ) وعن (كيرنكروس) وانهما الشخصان الوحيدان اللذان تعرفهما ... انني لا أصدق ذلك " .

عـــلا الاحمرار وجهـــه ، وأصابـــت وجنته رعشة لا ارادية ، وقام بصب كأس من (الجن) لنفسه ، محاولاً كسب الوقت . وتابعت قائلاً:

" لقد كنا عادلين معك .. وكنا مؤدبين أيضاً ، وتصرفنا أثناء معالجة الأمر كرجال مهذبين ، غير انك لم تحافظ على ... " .

أصغى اليّ بانتباه بينما كنت أمثل دوري : أين كان يكذب ؟ أراد أن يعرف . وأشرت الى المجالات التي أحسسنا انه كان يمتنع عن الادلاء بالحقائق المتعلقة فيها . وأدركت انه كان يحاول جس النبض ليعرف فيما اذا كانت لدينا دلائل أو معلومات جديدة يمكن ان تضعه في موقف حرج ، أو ما اذا كنا نعمل انطلاقاً من أحاسيسنا الداخلية .

وبعد مرور بضع دقائق " مزعجة " بدأ يستعيد حالته الطبيعية ، وأخذت رعشة وجنته اللاارادية بالتلاشي . لقد أدرك انه ليس لدينا ما نواجهه به ، وتمتم :

" لقد سبق لي وأن أخبرتك يا (بيتر) انه لم يكن هناك أي شخص آخر " .

وغيرت أسلوب الحديث ، وبدأت الضغط عليه من ناحية اخلاقية ، فقلت :

" هل فكرت بالناس الذين ماتوا ؟ " . وتظاهر (بلنت) بالجهل ، اذ قال بسلاسة :

" لم تكن هناك وفيات . لم يكن لي صلة بذلك النوع من الأشياء ... " . فقلت بسرعة :

" وماذا عن جاسوس (جيبسون) ؟ " مشيراً بذلك الى عميل كان يعمل داخل (الكرملين) تحت

اشراف ضابط في (م آي ٦) يدعى (هارولد جيبسون) . وقد قام هذا الجاسوس بتزويد (م آي ٦) بوثائــق المكتــب السياسي قبل اندلاع الحرب ، الى أن أفشى (بلنت) سره ، فاعدم الجاسوس نتيجة ذلك .

قال (بلنت) على الفور ، وبخشونة ، متخلياً عن حذره ، وليكشف عن نفسه كجاسوس محترف في الـ (ك . ج ب) :

" لقد كان جاسوساً ، وكان يعرف اللعبة ، ويعرف مخاطرها " .

وهنا ، أدرك (بلنت) انه ضبط متلبسا بالكذب ، فعاودته الرعشة اللاارادية مرة ثانية ، وبعنف . وتصارعنا معه لمدة ساعة . ولكن ، كلما استغرقنا وقتا اطــول ، كلما أحس بقوة موقفه . وانتهت الجلسة ، ونحن نخفي مزاجنا المتكدر .

سألت (بلنت) بينما كان يهم بمغادرة المكان :

" الحقيقة انك لا تريد – وقد أُعطيت حرية الاختيار – ان تخون اي شخص ترى انه عرضة للنقد ، أليس كذلك ؟ " . فأجابني ، وقد انتصبت قامته :

" تلك هي الحقيقة ، ولكن سبق لي وأن أخبرتكما : لا توجد أسماء أخرى ..."

قال ذلك بحدة جعلتني أشعر انه يكاد يؤمن بما يقوله .

وقد وقع حادث مزعج أثناء المقابلة ، اذ ان جهاز التسجيل الذي كنا نضعه بشكل ظاهر في الغرفة قرر ان يشربك الشريط الموجود داخله ، وبالتالي ، يوقف الجهاز عن العمل . وركعت على ارضية الغرفة للعمل علــى تقويم الشريط ، واعادته للعمل ثانية . وفيما كنت أقوم بذلك ، قال (بلنت) مخاطباً (آرثر) :

" أليس من الرائع مراقبة فني وهو يقوم بعمله المتخصص فيه ؟ " .

ان (آرثر) وكذلك أنا ، لم نخبر (بلنت) انني كنت عالماً ، اذ انني قُدمت اليه على انني رجل يقوم بمعالجة المعلومات التي أدلى بها ، ونظرت في عينيه مباشرة ، فعلا الاحمرار وجهه : لقد أخبره أحدهم عن حقيقة هويتي . وقال لي (آرثر) بعد أن غادر (بلنت) المكان :

" تابع عملك معه ، لقد أنهكت قواه ...." .

وقــد كــان (آرثر) متحمساً كي يسلخ عظام جثتيه الأخريين : (لونغ) و (كيرنكروس) . كــان (لونغ) عضــواً في (جميعة الرسل) في (كامبردج) وهــو ناد معتــبر يضم نخبة من المثقفين ، الذين كان معظمهم من ذوي الميول اليســارية والشــذوذ الجنســي . وعنــدما اندلعت الحرب ، التحــق بالاستخبارات العسكريــة حيث عين فــي (م آي ١٤) كمســؤول عــن تقييــم تقنية (سيغينت) ومن ثم القوة العسكرية . وطوال فترة الحرب ، كان يلتقي مع (بلنت) خفية ، ويقوم

بتسليمه أي معلومة استخباراتية كان يمكنه وضع يده عليها . وبعد انتهاء الحرب ، انتقل للعمل في لجنة الرقابة البريطانية في ألمانيا ، حيث تمت ترقيته في النهاية ليصبح نائب رئيس الاستخبارات العسكرية قبل ان يترك العمل في الاستخبارات عام ١٩٥٢ ليعمل في ميدان التجارة . اما السبب الذي كان يكمن وراء استقالته من الاستخبارات فقد تمثل في انه كان على وشك الزواج ، ولم يكن يرغب بأعلام زوجته انه كان جاسوساً .

التقيت أنا و (آرثر) مع (لونغ) مرات عديدة ، وقد كنت أكرهه بشدة ، اذ كان يفتقر الى الحس الطبقي على العكس من بقية أعضاء الشبكة الآخرين ، وكثيراً ما تساءلت كيف تم قبوله في (جمعية الرسل) . كان فضوليا ، سريع الاهتياج ، وله وجه يشبه وجه ميكانيكي السيارات . وعلى الرغم من خيانته ، فان كان يعتبر نفسه ضابط جيش رفيع المستوى . ولم يكن متعاوناً معنا أثناء استجوابه ، وحين كنا نتحداه في نقطة من النقاط ، فانه كان يكرر على نحو لا يختلف عن كل مرة سابقة بالقول : انه يجب علينا ان نأخذ كلامه كحقيقة مسلم بها . وسرد علينا قصة بخفة وسرعة . لا ، انه لا يعرف أي جواسيس آخرين ، وادعى بانه توقف عن ممارسة كل الانشطة التجسسية عام١٩٤٥ . غير ان هذا الكلام لم يكن متطابقاً مع ما أخبرنا (بلنت) به ، اذ قال (بلنت) بانه سافر الى المانيا عام ١٩٤٦ ليقنع (لونغ) بتقديم طلب للعمل في (م آي ٥) وقد وافق الأخير على ذلك ، وقام (بلنت) الذي كان آنذاك شخصاً موثوقا به ، ومحترماً جداً ، وقد ترك الجهاز منذ وقت قصير ، قام بكتابة توصية به . ومن حسن حظ (م آي ٥) ان (غاي ليدل) كان متحاملاً الى حد بعيد على الضباط الذين يرتدون الزي العسكري الموحد فصوت ضده في المجلس على الرغم من ان (ديك وايت) قد أيده ، الأمر الذي تسبب في حدوث احراجات له فيما بعد . لكن ، وعلى الرغم من تلك المحاولة للانضمام الى (م آي ٥) وعمل (لونغ) السري في المانيا ، الاّ انه أنكر أي اتصالات أخرى له مع الروس ، وهو انكار ضعيف .

امـا (كيرنكروس) فقد كان شخصية مختلفة تماماً ، اذ كان رجلاً اسكوتلنديا ، يتمتع بالذكاء ، رقيق البنيـة ، ذا شعر احمر كثيف ، ولهجة عريضة . وقد تحدر من اسرة متواضعة تنتمي الى الطبقة العاملة ، غير انه كان يمتلك عقلاً نيراً . وقد شق طريقه الى (كامبردج) عام ١٩٣٠ ، ليصبح شيوعيا بشكل علني ، ثم يخرج عن الحزب – حسب تعليمات الروس – ويقدم طلبا للالتحاق بوزارة الخارجية .

وكان (كيرنكروس) أحد الاشخاص الذين اشتبه بهم (آرثر) عام ١٩٥١ ، بعد ان تم العثور على اوراق تتعلق بوزارة المالية في شقة (بيرغس) بعد هروبه . وقد تمكنت (ايفلين ماك بارنيت) من التعرف على خط (جون كيرنكروس) فتم وضعه تحت الرقابة المستمرة . وعلى الرغم من انه كان يذهب

الــى المواعـيد مــع الشخــص المشرف عليه ، الاّ ان الروسي لم يظهر قط . وحينمــا واجه (آرثر) (كيرنكروس) عام ١٩٥٢ ، انكر الأخير كونه جاسوساً ، و ادعى انه زود (بيرغس) بالمعلومات باعتباره صـديقاً له ، وبدون ان يكــون على معرفة بأن (بيرغس) كان جاسوساً . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، غادر (كيرنكروس) انجلترا ، ولم يعد اليها الاّ عام ١٩٦٧ .

بعــد أن أدلى (كيرنكروس) باعترافاته ، سافرت أنا و (آرثر) الى (باريس) لمقابلته مرة ثانية ، واستجوابه في مكان محايد . وقد سبق لـ (كيرنكروس) أن أخبر (آرثر) بتفاصيل تجنيده على يد الشيوعي الخبير (جيمس كلوغمان) وعن المعلومات التي ارسلها الى الروس والمتعلقة بقيادة الاتصالات الحكومية وبـ (م آي ٦) وكنا متلهفين لمعرفة فيما اذا كان لديه أي معلومات أخرى قد تؤدي الى الكشف عن جواسيس آخرين . كان (كيرنكروس) رجلاً جذاباً . وبينما كان (لونغ) يطفو مع حركة المد والجزر ، اذ كان شيوعياً حينما كانت الشيوعية زيا شائعاً ، وأصبح متلهفاً فيما بعد لينقذ رقبته ، فان (كيرنكروس) بقى شيوعيا ملتزماً . كانت الشيوعية معتقَده ، فتمسك بهذا المعتقَد بالعناد والاصرار الاسكتلندي المعهود . وعلى العكس من (لونغ) أيضاً ، فان (كيرنكروس) بذل أقصى جهده كي يقدم المساعدة ، اذ انه كان متلهفاً للعودة الى الوطن ، واعتقد ان التعاون هو افضل طريقة للحصول على بطاقة العودة . وقال (كيرنكروس) انه ليس لديه أي دليل قاطع ضد أي شخص ، غير انه كان قادراً على تحديد هوية موظفين شيوعيين رفيعي المستوى كانا معه في (كامبردج) . وقد طلب من أحدهما فيما بعد تقديم استقالته ، في حين انكر الآخر حصوله على أي أسرار تتعلق بالدفاع . وكنــا مهتمين على نحو خاص بما كان يمكن لـ (كيرنكروس) اخبارنا به عن قيادة الاتصالات الحكومية ، التي لم تلفت انتباه اجهزة الاستخبارات الروسية – على نحو ظاهر – بطريقة بثت الشكوك في نفسنا على نحو محدد ، خاصة وان عدد العاملين فيها كان كبيراً .

وأخبرنا (كيرنكروس) عن أربعة رجال آخرين يعملون في قيادة الاتصالات الحكومية كان يعتقد ان بامكانهم تزويدنا بمعلومات أخرى . كان أحد هؤلاء الرجال يعمل معه في القسم الجوي في قيادة الاتصالات الحكومية ، وقد تحدث عن رغبته في وصول مادة (سيغينت) البريطانية الى الاتحاد السوفييتي . وعلى الرغم من ان (كيرنكروس) لم يأخذ مقولة ذلك الرجل مأخذ الجد ، الاّ انه لم يكن في وضع يسمح له بالحكم عليه ان الرجل جاد في حديثه ولذلك ، فانه بقي صامتاً ، ولم يتكلم عن دوره . اما الرجل الثاني فقد تم صرفه من الخدمة بعد عودته الى (اوكسفورد) واعلام معلمه السابق بتفاصيل كاملة عن عمله داخل قيادة الاتصالات الحكومية . وحسب اقوال (كيرنكروس) فان معلمه – بعد ان ارتاع من قلة حذر تلميذه – كتب تقريراً عنه الى قيادة الاتصالات الحكومية ، فتم فصله من العمل اثر ذلك . وكان هناك رجل ثالث ذكر (كيرنكروس) اسمه ، وقد تبين انه ترك العمل في قيادة

الاتصالات الحكومية منذ وقت طويل ليعمل في الميدان الاكاديمي . ولذلك ، فان الجهود تركزت على الرجل الرابع ، وهو مسؤول رفيع المستوى في قيادة الاتصالات الحكومية في القسم التقني . وبعد القيام بتحريات كاملة عنه ، تمت تبرئته تماماً.

وقد استاءت قيادة الاتصالات الحكومية الى حد الاهتياج من عمليات الاستقصاء والاستفسار التي نفذها (الفرع د) نتيجة معلومات (كيرنكروس) وكذلك كان الامر بالنسبة لـ (الفرع ج) . فقد كان كلاهما يعملان على حماية امبراطوريتيهما بغيرة ، واغتاظا مما رأياه من تدخل ، وخاصة حينما أدليت ببعض التعليقات اللاذعة حول كيفية امكانية تحسين عمليات الاستقصاء والتدقيق .

وفيما كان قِسْمي - القسم د ٣ - يقوم بمتابعة هذه المعلومات الرئيسة ، صارعت مشكلة كيفية معالجة قضية (بلنت) بعد ان أصبح الآن من مسؤوليتي . وقبل أن أبدأ بمقابلة (بلنت) كان من الواجب عليّ حضور اجتماع قصير مع (ميشال آدين) السكرتير الخاص للملكة . وتقابلنا في مكتبه في القصر . كان دقيقاً في مواعيده ، وكان واضحاً ، اذ اكد لي ان القصر كان يرحب في التعاون حول أي استفسارات يراها جهاز الاستخبارات مفيدة . وقد تكلم بطريقة محايدة لشخص لا يرغب في معرفة الكثير جداً عن الموضوع . وقال لي :

" لقد تم اطلاع الملكة بالكامل على موضوع (السِّير أنثوني) وهي راضية تماماً بأن يتم التعامل معه بأي شكل يوصل الى الحقيقة " .

وكان هناك ايضاح واحد فقط .

قال (آدين) :

" قد تجد بين وقت وآخر أن (بلنت) يشير الى مهمة تولاها نيابة عن القصر ، وأعني زيارة قام بها الى ألمانيا عند انتهاء الحرب . ارجو ان لا تتابعوا هذه الناحية ، وأقول لك بدقة ، ان هذه الزيارة ليست متعلقة باعتبارات الأمن القومي " .

ورافقني (آدين) الى الباب باهتمام ، ولم أستطع منع نفسي من التفكير بالفرق بين لمسته الرقيقة ، وبين الطريقة الهستيرية التي عالجت بها (م آي ٥) قضية (بلنت) اذ كانوا قد ارتاعوا من امكانية هروبه ، أو تسرُّب القضية بطريقة ما . وعلى الرغم من أنني قضيت مئات الساعات مع (بلنت) الاّ انني لم أتمكن من معرفة سر مهمته في المانيا . ولكن القصر وقتها ، كانت قد مرت عليه قرون عديدة تعلـــم خلالها الفن الصعب لدفن الحقائق ، في حين ان (م آي ٥) لم تنخرط في هذا العمل الاّ منذ عام ١٩٠٩ .

حين توليت أمر (بلنت) أوقفت كل الاجتماعات معه فيما كنت أدرس سياسة جديدة . كان من الواضح ان المواجهة لن تنجح ، لأن (هوليس) بالدرجة الأولى كان يعارض بشدة أي اجراء من شأنه

اثـارة (بلنت) ودفعـه الى الهروب ، أو ان يقوم (بلنت) بالادلاء بتصريح علني . والسبب الثاني هو ان (بلنت) نفسه كان يعرف أن يدنا كانت ضعيفة بشكل أساسي ، واننا لا نزال نتلمس طريقنا في الظلام ، ونقوم باستجوابه من موقع الجهل بالموضوع وليس من موقع القوة . وتوصلت الى قرار مفاده أن علينا تبني طريقة بارعة في محاولة منا للعب على شخصيته . لقد تأكد لي أن (بلنت) أراد اقناعنا انه كان متعاوناً معنا حتى حينما كان من الواضح انه لم يكن متعاوناً قط ، يُضاف الى ذلك انه كان يكره الى حد بعيد ان نضبطه وهو يكذب . ولهذا ، كان يجب علينا ان ننتزع المعلومات الاستخباراتية منه ببطء من خلال ممارسة الضغوط التراكمية عبر تقدمنا على جبهات صغيرة ، وليس على جبهات كبيرة . ولتحقيق ذلك كنا بحاجة الى معرفة بسنوات الثلاثينات تفوق المعلومات التي كانت متوافرة لدى (م آي ٥) في ذلك الوقت .

وقـــررت ايضاً وجـوب نقـل المقابلات الى ملعبه ، اذ انـــه كان يحضـر دائماً الـى شقـة (موريس اولدفيلد) بحالـة نفسية مستعدة للمواجهة ، ودفاعية ، ومنفعلاً ، ومتوقد الذهن ، وعلى دراية تامـة بانه يتم تسجيل أقواله . وقد شعرت ان الانتقال الى مكان اقامته سيعمل على التخفيف من توتره ، وسيمكننا من تطوير علاقتنا معه بعض الشيء .

على امتداد السنوات الست التالية ، كنت أنا و (بلنت) نتقابل مرة كل شهر أو نحو ذلك في غرفة مكتبه في (معهد كورتوالد) . كانت غرفة المكتب كبيرة ، مصممة من الداخل (ديكورها) على الطراز الباروكي الرائع ، وبها أفاريز من ورق شجر ذهبي اللون ، قام طلابه في (كورتوالد) برسمها . وعلـى كل جدار ، كانت هناك لوحات رائعة ، بمـا في ذلك لوحة لـ (بوسين) كانت معلقة فوق المصطلى ، كـان قد اشتراها من (باريس) خلال سنوات الثلاثينات بمبلغ ثمانين جنيهاً اقترضها من (فيكتور روتشيلد) . وقد كان من المفترض ان ترث هذه اللوحة ابنة (فيكتور) الكبرى (ايما) غير انه لم يفعل هذا ، وقدرت قيمة اللوحة بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه من أملاكه ، وذهبت الى الأمة (الدولة) . كان هذا هو المكان المناسب لمناقشة موضوع الخيانة ، اذ كنا نجلس في نفس المكان عند كل اجتماع : حـول الموقد تحت لوحة (بوسين) . وكنا – أحيانـاً – نتناول الشاي مع الشطائر المقطعة بشكل رائع ، وكثيراً ما تناولنا المشروبات ، اذ كنت أتناول الويسكي في حين كان يشرب (الجِن) . كنا دائماً نتحـدث عـن سنوات الثلاثينات ، وعن الـ (ك . ج ب) وعـن التجسس ، وعن الصداقة ، وعن الحب ، وعن الخيانة . وقد بقيت هذه الجلسات بالنسبة لي من اكثر المحاورات حيوية في حياتي .

كان (بلنت) واحداً من أروع الرجال الذين قابلتهم في حياتي ، واكثرهم سحراً وثقافة ، اذ كان يستطيع التحدث بخمس لغات ، اما مدى معرفته ، وسعة اطلاعه فانهما كانا يثيران المستمع اليه بشكل عميق . ولم تكن معارفه مقتصرة على الفنون فقط ، بل كان يفتخر باعلامي ان شهادته الاولى

التي حصـــل عليهـــا من (كامبردج) كانـــت في الرياضيات ، وانه كان على امتداد حياته مفتوناً بفلسفة العلوم .

اما الشيء الاكثر اثارة في (بلنت) فهو التناقض بين قوة شخصيته الواضحة وبين هشاشته على نحو عجيب . وقد كان هذا التناقض هو الذي حمل الناس – من الجنسين معاً – على الوقوع في حبه . وكان من الواضح انه شاذ جنسياً ، ومع هذا ، فقد كانت له علاقتان غراميتان مع اثنتين من النساء كما علمت منه ، وقد بقيتا على علاقة وثيقة به طوال حياته . فقد كان (بلنت) قادراً على الانزلاق من شخصية مؤرخ وعالم فنون في دقيقة ، الى شخصية بيروقراطي في اجهزة الاستخبارات في الدقيقة التالية ، والى جاسوس ، والى شاذ جنسياً له لسعة كلسعة الدبور ، والى شخصية رجل مؤسسات ضعيف الهمة . غير ان هذه الادوار تركت آثارها عليه كرجل . وقد تأكد لي حالما بدأنا نعقد اجتماعاتنا ان (بلنت) استمر في تحمل عبء ثقيل على الرغم من الحصانة التي عرضت عليه للتحرر مـــن هـــذا العبء ، ولـــم يكـــن العبء عبء الذنب ، اذ انه لم يشعر به . لقد أحس بالألم لقيامه بخداع (تيس روتشيلد) وأصدقاء آخرين مقربين مثل (ديك وايت) و (غاي ليدل) وقد ذرف الدموع في جنازة الأخير . غير أن الألم كان ألم ما سيتم حدوثه ، وليس ألم ما قد تم تجنبه . كان العبء هو ثقل الالتزام الذي التزم به حيال هؤلاء الاصدقاء ، والشركاء في الجريمة ، والعشاق الذين يعرف أسرارهم ويشعر بأنه ملزم بابقائها طي الكتمان .

وحينما بدأنا لقاءاتنا في (كورتوالد) كان باستطاعتي رؤية (بلنت) وهو يسترخي ، غير انه بقي حذرا مع ذلك . ولأنه كان يعرف كل شيء عن نظام التسهيلات الخاصة فانني لاحظت على الفور انـــه وضـــع الهاتف فـــي اقصـــى القاعـــة بشكل حذر . وخلال أول لقاء لنا بعد ظهر اول الايام هناك ، لاحظت الهاتف فيما كان يخرج لاحضار الشاي فصحتُ به :

" أحضر غطاء ابريق الشاي من أجل ان اقوم باستخدام الهاتف " .

ضحك وقال :

" أوه ، لا يا (بيتر) لن تتمكن من سماعنا من هناك بواسطة ذلك الشيء " .

في بادىء الأمر ، كنت أقوم بتدوين الملاحظات في دفتر صغير غير انه أصبح من الصعوبة بمكان كتابة كل شيء ، ولذلك ، كان من الواجب عليّ القيام بالتخطيط لايجاد وسيلة تمكنني من الحصول على تغطية سرية للقاءاتنا . وتبين لي في النهاية ، أن المباني المجاورة لـ (كورتوالد) كانت تحت التصليح ، فاتخذت الترتيبات اللازمة لزرع ميكروفون جساس من خلال الجدار الى داخل غرفة مكتب (بلنت) . كان ذلك العمل حساساً ، اذ كان يجب ان تكون المقاسات صحيحة من أجل ضمان ان يكون الميكروفون الجساس متوضعاً في النقطة الصحيحة بجانب (بلنت) عند الموقد وقريبا جداً من

المكان الذي كنا نجلس فيه . واتخذ (أ ٢) الترتيبات اللازمة كي يقوم أحد اصدقاء (بلنت) الفنانين بالاتصال به هاتفياً في وقت تم ترتيبه مسبقاً خلال زيارتي لـ (بلنت) . وخلال وجود (بلنت) في القاعة خارج غرفة مكتبه للرد على الاتصال الهاتفي ، تمكنت من خلال استخدام شريط القياس من الحصول على كافة المقاييس الضرورية للميكروفون الذي تم زرعه بنجاح وعمل على نحو رائع حتى النهاية . وحسب ما أعرف ، فان من المحتمل ان الميكروفون لا يزال هناك حتى الآن .

خــلال جلســات لقاءاتنــا الاولى ، بدأت أخفف من حدة الأمور ، فلم أحاول الضغط عليه بشدة ، مقتنعاً - ببساطة - بالحديث عن الذكريات القديمة . وتكلم عن كيفية انضمامه الى القضية السوفييتية بعد أن قام بتجنيده آنذاك شاب ذكي يدعى (غاي بيرغس) . كان (بيرغس) لا يزال باعثاً للألم عند (بلنت) اذ انه كان قد توفي وحيداً في (موسكو) وقد حطمت سنوات الاساءة جسده الذي كان متكامل الرجولة في يوم من الأيام .

قال لي (بلنت) وهو يصب الشاي :

" من المحتمل ان تجد أن هذا الأمر غير قابل للتصديق ، لكن أي شخص كان يعرف (غاي) معرفة جيدة ، سيخبرك انه كان وطنياً عظيماً " . فقلت :

" أوه ، يمكننــي تصديــق ذلك . كل ما أراده هو أن تصبح بريطانيا شيوعية . هل اتصل بك قبل موته ؟ " .

رشف (بلنت) من كأس الشاي بعصبية ، كان فنجان الشاي والصحن يهتزان اهتزازاً طفيفاً في يده . ثم مشى باتجاه طاولة مكتبه ، وأحضر لي رسالة ، وقال :

" لقد كانت هذه هي آخر رسالة منه . لقد عرفت عنها ، إذ انها سلمت باليد ... " .

وغادر الغرفة .

كانت رسالة حزينة ، متداخلة المواضيع الى حد التشتت ، وفيها ملاحظات عاطفية مترهلة . وتكلم (بيرغس) عن حياة (موسكو) وحاول ان يجعلها تبدو كما كانت جيدة في السابق ، وكان يعود من وقت لآخر الى الحديث عن الايام الخوالي ، وعن (نادي الاصلاح) وعن الناس الذين كانا كلاهما يعرفانهم . ثم تكلم في النهاية عن مشاعره نحو (بلنت) وعن الحب الذي كان بينهما قبل ثلاثين سنة . كان يعرف انه على وشك الموت ، غير انه كان يصفّر حتى النهاية . عاد (بلنت) بعد أن انتهيت من قراءة الرسالة وكان يبدو منزعجاً باكثر مما توقعت بسبب معرفته ان باستطاعتي رؤية ان (بيرغس) لا يــزال يعنــي شيئــاً بالنسبة له ، وقد أحرزت أول نصر حاسم . لقد كشف النقاب عن وجهه للمرة الأولى ، وسمح لي بالقاء نظرة على العالم السري الذي ربط أعضاء عصابة الخمسة معاً .

لقد انضم (بلنت) الى الاستخبارات الروسية في ذروة الفترة المعروفة في دوائر التجسس

المضاد الغربية باسم " زمان اللاشرعيين العظام " . وبعد غارة (آركوس) التي تمت في (لندن) عام ١٩٢٨ وتمكنت خلالها (م آي ٥) من تحطيم جزء كبير من جهاز التجسس الروسي من خلال الغارة التي قام بها البوليس ، استنتج الروس أن أماكن اقامتهم الشرعية ، والسفارات ، والقنصليات ، وما شابه ذلك ، قد أصبحت غير مأمونة كمراكز لادارة العملاء ، ولذلك ، أصبحت تتم عملية ادارة عملائهم منذ ذلك الوقت فصاعداً من قبل " اللاشرعيين العظام " وهم رجال من أمثال (ثيودور مالي) و (ديوتش) و " أوتو " و (ريتشارد سورغ) و (الكسندر رادو) و " سونيا " و (ليوبولد تريبر) و ال (بييكس) و آل (بوريتسكيس) و (كريفيتسكي) . وعلى الغالب ، فان هؤلاء لم يكونوا من الروس على الاطلاق على الرغم من انهم يتمتعون بالجنسية الروسية ، اذ كانوا شيوعيين تروتسكيين ، ويؤمنون بالشيوعية الأممية والـ " كومنتيرن " . وقد عملوا في جو من السرية ، مخاطرين بأنفسهم الى حد بعيد ، وسافروا الى جميع أنحاء العالم بحثاً عن حالات تجنيد محتملة . وكانوا أفضل من يقوم بعملية التجنيد ، وادارة العملاء في جهاز الاستخبارات الروسية . كانوا يعرفون بعضهم بعضاً ، وتمكنوا فيما بينهم من تجنيد وتأسيس شبكات تجسس من الدرجة الاولى مثل " عصابة الخمسة " في بريطانيا و "عصابة سورغ " في الصين واليابان ، و " عصابة روت دراي " في سويسرا ، و " عصابة روت كابيلي " في اوروبا الواقعة تحت الاحتلال الماني ، وقد كانت هذه العصابات من اروع عصابات التجسس التي عرفها التاريخ ، وساهمت بشكل هائل بالحفاظ على الروس ونجاحهم في الحرب العالمية الثانية .

وعلى العكس من (فيلبي) و (بيرغس) فان (بلنت) لم يلتق أبداً مع " ثيو " المشرف الرئيسي عليهم ، وهو قسيس هنغاري سابق يدعى (ثيودور مالي) . كان (مالي) يتفهم مثالية أناس مثل (فيلبي) و (بيرغس) ورغبتهم في مزاولة العمل السياسي ، وقد أصبح مدرباً ، يأسر الألباب في مجال السياسة الدولية ، حتى ان تلاميذه عبدوه . وبين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٧ حل شخص آخر يدعى " أوتو" مكان (مالي) . كان " أوتو" هو الذي ادار من قبل جوقة تجنيد (بلنت) على يد (بيرغس) . و مثله مثل (ثيو) فان " أوتو" كان اوروبيا شرقياً ينتمي الى الطبقة الوسطى ، ومن المحتمل ان يكون تشيكوسلوفاكياً . وقد كان قادراً على ان يجعل قضية السوفييت قضية جذابة تحوز على إعجاب الآخرين ليس - ببساطة - لأسباب سياسية ، ولكن لانه كان يشارك مجنديه الشباب نفس الخلفية الاوروبية الثقافية . وقد اعترف لي (بلنت) في العديد من المناسبات انه ما كان سينضم الى الاستخبارات الروسية لو اتصل به شخص روسي .

ولسبب ما ، فاننا لم نتمكن من تحديد هوية " أوتو" . وقد ادعى كل من (فيلبي) و (بلنت) و (كيرنكروس) انهم لم يعرفوا قط اسمه الحقيقي ، بالرغم من ان (فيلبي) أخبر (نيكولاس ايليوت) خلال

اعترافه بانه تعرف على " أوتو" من خلال صورة له في ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالي كعميل لصالح الكومنتيرن يدعى (آرنولد ديوتش) وذلك حينما كان (فيلبي) نفسه في (واشنطن) . ولكن حينما قمنا بالتدقيق حول هذا الأمر ، تبين لنا بانه لم تكن توجد أي صورة لـ (ديوتش) في ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالي خلال وجود (فيلبي) في (واشنطن) اضافة الى ان (ديوتش) يمتاز بشعره الأشقر الأجعد . واعتــدت ان أحضــر لـ (بلنت) مجلــداً اثر الآخـر مـــن ملفـــات ضباط الاستخبارات الروسية لدى (م آي ٥) آملاً ان يتمكن من التعرف عليه . وقد تعامل (بلنت) مع هذه المجلدات وكأنها كتالوجات من الرواق القومي ، اذ كان يدرسها بعناية من خلال نظارته نصف قمرية العدسات ، صامتاً مبديا اعجابه بوجه مشرق على نحو خاص ، أو بشكل بشري جميل على نحو آسر كان يقف في ركن الشارع . ومع هذا ، فاننا لم نتمكن من تحديد هوية " أوتو" كما لم نكتشف السبب الذي حدا باعضاء الحلقة على إخفاء هويته – على نحو يائس – على امتداد سنين عديدة تالية .

فـــي عـــام ١٩٣٨ ، قـــام (ستالين) بحركة تطهير ضد " لاشرعييه العظام " اذ كانوا تروتسكيين ، وغير روس ، وكان مقتنعاً انهم كانو يتآمرون ضده مع عناصر من الجيش الاحمر ، وتم استدعاؤهم وقتلهم واحداً اثر الآخر . وقد ذهب أغلبهم بمحض اختيارهم وهم يدركون المصير الذي كان ينتظرهم ، ولربما كانوا يأملون انهم سيتمكنون من اقناع الطاغية المجنون بالخدمات العظيمة التي قدموها له في الغرب ، في حين هرب بعضهم مثل (كريفيتسكي) على الرغم من انه تم اغتياله في النهاية عام ١٩٤١ في (واشنطن) على يد قاتل روسي ، وهو الاحتمال الاكثر تأكيداً .

ولمدة تزيد على سنة بعد رحيل " أوتو" بقيت الحلقة منسية ، وانقطعت الاتصالات معها وبدا من الظاهر أنها مهجورة . ثم أعاد كل من (غاي بيرغس) و (كيم فيلبي) الاتصال مع الروس من خلال زوجة (فيلبي) الاولى (ليتزي فريدمان) عميلة الكومنتيرن الأوروبي لمدة طويلة . وحسب ما يرويه (بلنت) فان الحلقة كانت تدار من خلال سلسلة معقدة من المراسلين : اذ ان رسائل (ليتزي فريدمان) كانت ترسل الى صديقتها الحميمة و عميلة الكومنتيرن (إديث تودور هارت) ومن ثم الى (بوب ستيوارت) المسؤول في الحزب الشيوعي البريطاني عن العلاقات مع السفارة ومن هناك الى (موسكو) . وقد كنا نجهل بشكل تام أي شيء عن هذه السلسلة الى أن اعترف (بلنت) عنها وكان لهذه السلسلة تأثيرات هائلة ، اذ ان (بلنت) ادعى ان كل عضو من أعضاء السلسلة تقريباً كان يعرف هويات أفراد الحلقة على وجه التأكيد ، وقد راودته الحيرة دائماً من عدم قيام (م آي ٥) باكتشاف حقيقة هذه الحلقة والتعرف عليها . وافترضنا أن الحلقة بقيت منفصلة دائماً عن الحزب الشيوعي البريطاني الذي كان قد تم اختراقه بشكل كامل خلال سنوات الثلاثينات من قبل عملاء يديرهم (ماكسويل نايت) . غير ان مـــا تبين لنـــا الآن هـــو أننا فقدنا أعظم سر من أسرار الحزب الشيوعي البريطاني قاطبة . وفي

عـــام ١٩٣٨ نعمـــت (م آي ٥) بشمس نجاح قضية ترسانة (وولويتش) حيث تمكن افضل عميل (جوان غراي / الآنسة إكس) والتابع لـ (ماكسويل نايت) من الحصول على دليل يثبت تورط مسؤولين على مستوى عال من الحزب الشيوعي البريطاني في عملية التجسس في مصنع ذخائر ترسانة (وولويتش) . ولو أننا تابعنا القضية لمدة أطول ، لكنا تمكنا من وضع أيدينا على اكثر الجواسيس ضرراً في تاريخ بريطانيا قبل أن يبدأوا العمل .

في نهاية عام ١٩٤٠ أعاد الروس الاتصال مع الحلقة أخيراً ، وبدءاً من هذه الفترة فصاعداً تم توجيههم للدخول الى عالم الاستخبارات . وكان المشرف عليهم في هذه الفترة ضابط استخبارات روســـي يلقب بـ " هنري " واسمه الحقيقي (أناتولي غروموف) أو (غورسكي) الذي كان يعمل تحت غطـــاء دبلومـــاسي . ادار (غروموف) كـل الجواسيس في الحلقة ، وعلى نحو مؤكد أدار ثمانية منهم تقريباً ، وهـــم الذيـــن ظهرت أسماؤهـــم السريـــة فـــي حركة الاتصالات (فينونا) الى أن رحل الى (واشنطن) عام ١٩٤٤ ليدير من هناك (دونالد ماكلين) الذي كان قد عين في السفارة البريطانية . اما الذين بقوا في (لندن) فقد تولى أمرهم (بوريس كروتوف) ضابط الـ (ك ج ب) الذي كشفت رسائله في (فينونا) عن وجود ثمانية جواسيس . وقال (بلنت) انه يكن احتراماً عظيماً لاحترافية المشرفين عليه فـــي جهاز الـ (ك ج ب) على الرغم من انهم لم يثيروا فيه الحماس بنفس الطريقة التي كان يثيره بها " أوتو" ، اذ ان كلا من (غروموف) و (كروتوف) كانا تكنوقراطيين في آلية الاستخبارات الروسية الحديثة ، في حين كان المشرفون الاوروبيون الموهوبون خلال سنوات الثلاثينات فنانين حسب رأي (بلنت) .

سألته :

" ألهذا السبب تركت (م آي ٥) ؟ " . فقال :

" لهذا السبب الى حد ما . لقد تعرضت لاغراءات من أجل أن أبقى غير انهم لم يكونوا بحاجة لي ، اذ ان (كيم) كان سيخدمهم على نحو أفضل . كان يصعد الى القمة وكنت أعرف ذلك ، وايضاً كنت بحاجة الى فني . وبعد كل هذا ، فانهم لو كانوا يريدونني لكانوا قادرين على جعلي أوافق على البقاء بسهولة من خلال الابتزاز " .

عزت هجمة الحرب الباردة ، وانتشار المكارثية من اقتناع (بلنت) انه قام بالاختيار الصحيح خـــلال سنـــوات الثلاثينـــات ، واستمـــر في ولائه التام لاولئك الذين بقوا داخل اللعبة . وفي عام ١٩٥١ ، اختـــار البقاء والثبات امام المحن على ان يهرب مع (بيرغس) و (ماكلين) . ولقد مارس (موبين " بيتر") الضغط عليه خلال هذه الفترة للهرب . وأعلمني ان حياة المنفى في (موسكو) ستكون حياة لاتطاق بالنسبة اليه . فقد زار روسيا خلال سنوات الثلاثينات . كانت تلك البلاد رائعة

ومدهشة ومأساوية ، اما المكان الذي أثار اعجابه اكثر من غيره فقد كان الـ "هيرميتاج " رواق (غاليري) لينينغراد الرائع .

بعد عام ١٩٥١ تُرك (بلنت) وحيداً مع (فيلبي) وكان أقل قرباً وحميمية منه بالمقارنة مع ما كان عليه بالنسبة لـ (بيرغس) اذ ان (فيلبي) كان شخصية قوية ومسيطرة ، غير انه كان بحاجة الى (بلنت) الى حد بعيد لأن (بلنت) كان لا يزال باستطاعته سماع ما يجري عن طريق اصدقائه السابقين في (م آي ٥) وكان قادراً على ايصال نتف من الاخبار الى (فيلبي) وذلك حول تطورات القضية المتعلقة به . وقد اعتادا على اللقاء ببعضهما لمناقشة فرص بقائها في منصبيهما . وبدا (فيلبي) محروماً بدون عمله في (م آي ٦) ولم يكن متفهماً كثيراً لاهمية الفن والثقافة لدى (بلنت) حتى حينما كانت الشبكة تشدد من محاصرتها وانغلاقها عليهما معاً .

وقال لي (بلنت) :

" كان لي ، وكذلك لـ (كيم) وجهات نظر مختلفة في الحياة ، فقد كان لديه طموح واحد في الحياة هو أن يكون جاسوساً ، أما أنا فقد كانت لدي أشياء أخرى في نفسي ... " .

كان (بلنت) معجباً بـ (فيلبي) لكن ثمة جزءاً في نفسه كان يسكنه الخوف من قناعته المطلقة ووجهة نظره ذات البعد الواحد ، والتي لا تلين في الحياة . وقد كان (بلنت) بحاجة الى الحب والفن والى راحة الحياة في المؤسسة في النهاية ، في حين ان (فيلبي) كان يعيش حياته متنقلاً من سرير الى سرير ، وله موقف عربي من النساء ، ويحتاج فقط الى إثارة التجسس لتمده باسباب الحياة . وقد قال لي (ايساياه برلين) ذات مرة : " ان مشكلة انثوني تكمن في انه يريد الاصطياد من خلال استخدام كلاب صيد المجتمع ويهرب مع أرانب الشيوعيين " .

قال (بلنت) :

" ان (كيم) لم يكن متذبذباً على الاطلاق ... لقد بقي دائماً على ولائه واخلاصه حتى النهاية " .

ومع حلول نهاية عام ١٩٦٤ كنت غارقاً تحت ثقل المواد التي نجمت عن اعترافات (لونغ) و (كيرنكروس) و (بلنت) اضافة الى المهمة الضخمة التي تمثلت في تجميع واعادة فحص كافة المواد التي وصلت الى (م آي ٥) منذ عام ١٩٦٠ من مختلف الهاربين . وعند هذه المرحلة من العمل ، وصلني اخيراً التقرير الثاني الذي كتبه (سيموندز) عن قضية (ميتشل) .

ذات صباح وقبل موعد الانتخابات العامة التي كانت ستجري في شهر تشرين الاول عام ١٩٦٤ سلمتني سكرتيرة (هوليس) ملفاً سميكاً ، وطلبت مني ان اقدم تقريراً الى مكتب المدير العام بعد ظهر ذلك اليوم لبحثه معه . ولم تكن هناك سوى ساعات ثمينة من الوقت لقراءة التقرير ، ناهيك

عن دراسته . لقد اتبع (سيموندز) تعليمات (هوليس) بحماس ، فلم يناقش معي ، ولا مع (آرثر) أي شيء يتعلق بمحتويات التقرير خلال الشهور الثمانية التي استغرقها اعداد التقرير . كانت قوة الدفع في التقرير واضحة وضوحاً كافياً . فقد أعاد (سيموندز) تقييم قضية (ميتشل) على ضوء اعترافات (بلنت) وهذا ما لم يكن بين أيدينا عند إعداد التقرير الاول . وطبقاً لتقرير (سيموندز) فان القضية ضد (ميتشل) لم تكن قوية ، كما ان (سيموندز) نفسه لم يكن مستعداً للحكم على امكانية حدوث اختراقات أخرى حديثة ، وإن كان يشعر بان احتمال هذا الأمر قد أخذ بالتضاؤل على نحو ملحوظ .

وتسلم (آرثر) في ذلك الصباح ايضاً نسخة من تقرير (سيموندز) و قد أدرك أنه تم الالتفاف عليه ، وان قرار توزيع التقرير في وقت متأخر كهذا الوقت انما هو خدعة متعمدة لمنع القيام بأي هجوم مضاد . واخبرني انه يعتزم الالتزام بخط عدم التعليق – خلال الاجتماع – من أجل الحصول على الوقت الكافي لدراسة التقرير . وظل طوال الفترة الاولى من الاجتماع ملتزماً بالصمت ، يحترق من الداخل ببطء وهوجالس على جانب طاولة الاجتماعات .

بدأ (هوليس) الكلام بسرعة قائلاً :

" لا أرى ضرورة لاضاعة الكثير من الوقت . لقد قرأت هذه الورقة ، وبدت لي مقنعة الى حد بعيد ، وأرغب بسماع وجهات نظركم قبل اتخاذ أي قرار . وكما تعلمون ايها السادة ، فان هناك انتخابات على الأبواب ستجرى خلال فترة قصيرة ، وأرى ان من الافضل كثيراً للجهاز أن نقوم بحل القضية الآن حتى لا أكون مضطراً لتقديم تقرير موجز لأي رئيس وزراء قادم " .

وقد أدرك الجميع ما كان يعنيه ، اذ انه لم يكن يريد تقديم تقرير موجز الى الزعيم العمالي (هارولد ويلسون) الذي كان على ما يبدو سيلحق الهزيمة بحزب المحافظين في الجولة الانتخابية القادمة . وكان موقف (هوليس) بسيطاً تماماً : لقد تمكن كل من (لونغ) و (كيرنكروس) و (بلنت) من ربط الاطراف السائبة المفيدة * وسقطت قضية (ميتشل) وتم حل كل اشكال على نحو جيد . لقد أراد أن يغلق ملف القضية ، و أن يذكر في محضر الاجتماع أن قضية الاختراق قد تم صرف النظر عنها .

وسأل (هوليس) عن آراء الذين كانوا حول الطاولة ، وصدر في البداية القليل من التعليق على نحو مدهش . كانت قضية (ميتشل) قد عولجت بطريقة خرقاء من جميع الجوانب ، لدرجة ان بعضنا شعر بانها مثل عصي فريق الكريكيت بحاجة للدفاع عنها ، خاصة أنني و (آرثر) ساورتنا الآن شكوك قوية بان المجرم انما هو (هوليس) . وقلت ببساطة : اذا كان تقرير (سيموندز) الاول بمثابة اتهام ، فان هذا التقرير الأخير هو بمثابة الدفاع ، ولذلك ، فانني لا أستطيع أن أقبل حُكْمَ " غير مذنب " دون حدوث أي عملية استجواب ، وطلبت تسجيل وجهات نظري في محضر الاجتماع .

* يعني انهم برهنوا على براءتهم (المترجم)

وكتب (هوليس) ملاحظة صغيرة على مجموعة من الورق أمامه ، والتفت الى (كمنغ) الذي ألقى محاضرة عن الافتقار الى النظام والانضباط الذي ظهر خلال التحريات التي تمت في قضية (ميتشل) . وكان من الواضح لنا جميعاً بان قرار عدم اطلاعه على مجريات القضية قد عمل على تحطيم كبريائه واحترامه لذاته . وكان كل ما قاله (فيرنفال جونز) بان أفضل ما يمكن ان يقال عن قضية (ميتشل) هو انها قضية لا برهان على صحتها .

وقال (هوليس) يسأل :

" وأنت يا (آرثر) ؟ " .

رفع (آرثر) رأسه عن التقرير ، وقال :

" حسناً ، هناك احتمال ثالث . يمكن ان يكون هناك شخص يسيّر (ميتشل) كدريئة له " .

وساد صمت حول الطاولة . حدق هو و (هوليس) ببعضهما البعض برهة من الزمن . وكان كل مَن في الغرفة يدرك ما عناه (آرثر) بالضبط .

قال (كمنغ) من الطرف الآخر للطاولة :

" أود أن توضح هذه الملاحظة " .

وقلّب (سيموندز) صفحات تقريره بقلق ، كأنه كان يبحث ليرى ان كانت فرضية (آرثر) قد زحفت متسللة فيه دون أن يحس بها أحد .

وتابع (هوليس) حديثه من حيث توقف ، متجاهلاً تعليق (آرثر) وكأنه لم يسمعه :

" حسناً ، علينا أن نتخذ قراراً . لذلك أقترح ان نغلق ملف هذه القضية وأن نضمن الملف مذكرة بهذا المعنى " .

توقف قلمه فوق الملف ، ولم يعد (آرثر) يستطيع كبح جماح نفسه ، فانفجر بطريقته المعهودة قائلاً :

" منطقياً ، فانك لا تستطيع القيام بهذا . انك تتجاهل بالفعل كل ادعاءات (غوليتسين) عن وجود الاختراق . وهناك مسألة التسرب في قضية (كراب) وهناك ايضاً وثيقة التقنيات ، ونحن لا نعرف حتى الآن الى أي وثيقة يشير (غوليتسين) . ومهما كان وضع قضية (ميتشل) فمن غير الصواب تجاهل هذه الادعاءات " .

حاول (هوليس) ان يحرف الهجوم عن هدفه ، غير ان (آرثر) تابع هجومه ، اذ كان يعرف ان (هوليس) قد تجاوز حدود صلاحياته . واعترف (سيموندز) بانه لا يعرف سوى القليل جداً عن معلومات (غوليتسين) وبذلك فانه لا يستطيع ان يقدم رأياً حاسماً . وكان (فيرنفال جونز) ميالاً الى الموافقة على ان متابعة موضوع (غوليتسين) هو أمر فيه شيء من الحكمة . وهكذا ، شعر (هوليس)

بان زمام امور هذا الاجتماع قد أخذت بالافلات من بين يديه ، فألقى قلمه غاضباً وطلب من (باتريك ستيورات) القيام بمراجعة أخيرة لكافة حلقات (غوليتسين) المعلّقة ، وأمر – في الوقت نفسه – باغلاق ملف قضية (ميتشل) .

بعد الاجتماع ، اتصلت مع (فيرنفال جونز) وقلت له : ان مالا يطاق هو ان يقوم المدير العام بتكليف ضابط القيام بمهمة البحث دون استشارتي بصفتي رئيس قسم البحوث ، في الوقت الذي أصارع فيه كتلة المواد المنصبّة عليّ نتيجة قضية (بلنت) و (لونغ) و (كيرنكروس) اضافة الى مواد الهاربين في (واشنطن) .

وقلت : " ان الامور صعبة كما عليه الآن ... ولكن اذا قمنا بتقسيم العمل فان ذلك سيؤدي الى الفوضى والاضطراب " .

كـــان بوسع (فيرنفال جونز) رؤية المشكلة ، وكان النظام يقترب من درجة تحميله فوق ما يحتمل ، ووافق معي على اننا بحاجة الى زيادة التنسيق وليس التقليل منه . واقترحت ان نقوم بمحاولة تأسيس ما يشبه فريق عمل داخل الجهاز لدراسة كافة المادة المتعلقة باختراقات الاستخبارات البريطانية التي حصلنا عليها من خلال الاعترافات أو من المنشقين . وقال (فيرنفال جونز) انه سيرى امكانية ما يمكن فعله .

بعـــد ذلـك بفتـــرة قصيرة ، استدعاني الـــى مكتبه وأخبرني انه ناقش الموضوع بـرمته مـــع (ديك وايت) الذي وافق على وجوب تشكيل مثل هذه اللجنة . واستطاع (ديك) ان يقنع (هوليس) بذلك بعد جهد ، حيث أعطى موافقته على ذلك بفتور . وكانت اللجنة ستتشكل من ضباط (الفرع د) التابـــع لـ (م اي ٥) وقسم التجسس المضاد في (م آي ٦) وستقدم تقاريرهـــا الـــى المدير ، و (الفرع د) ورئيس قسم التجسس المضاد في (م آي ٦) وكان من المفروض ان أكون رئيسها خلال العمل . وأعطيت هذه اللجنة اسماً رمزياً هو (فلوينسي) .

وافتعل (هوليس) شجاراً حول تقرير (سيموندز) كذريعة لقص جناحي (آرثر) فعمل على تقسيم (امبرطورية د ١) التي كانت في طور الازدهار خلال تلك الفترة الى قسمين : (د ١) ومهمته معالجة أمور المعركة والعمليات و (د ١ / التحقيقات) ومهمته الاشراف على التحقيقات المتعلقة بالتجسس المضـــاد. وترك (آرثر) ليتولى مسؤولية القسم (د ١) مقطـــوع الرأس فـــي حين تمت ترقية (روني سيموندز) ليصبح مساعد المدير المسؤول عن (د ١ / التحقيقات) .

كانت تلك الخطوة ضربة قاسية لـ (آرثر) الذي كانت التحقيقات دماء حياته ، منذ أواخر سنوات الاربعينات ، والتي بذل فيها قصارى جهده منذ عودته عام ١٩٥٩ . وقد شعر بالاستياء والانزعاج لانه لم يطلب اليه ان يترأس لجنة (فلوينسي) على الرغم من انه كان يدرك ان هذا الأمر هو

مهمة بحوث خاصة بـ (د ٣) بشكل رئيسي . غير ان استبدال (سيموندز) به وفي دائرته ، سيما وان (سيموندز) كان أدنى رتبة منه ، وكان ينظر اليه خلال فترة طويلة على انه مرشده ومعلمه ، كان ذلك كحبة دواء مرة من الصعوبة بمكان ابتلاعها . وشعر (آرثر) ان تقرير (سيموندز) قد خانه ، اذ انه لم يتمكن من استيعاب حقيقة كيف ان (سيموندز) يقوم بكتابة تقريرين ، يبدو كل واحد منهما مناقضاً للآخر ، وخلال فترة زمنية قصيرة كهذه . وآمن ان (م اي ٥) ارتكبت خطأ فادحاً .

أصبح (آرثر) متهوراً و كأن دافع تدمير الذات الذي كان يجري دائماً عميقاً في نفسه قد سيطر عليه فجأة ، وكان مقتنعاً انه أصبح ضحية لمطاردته النشطة للاختراقات . ومن أجل ان تصبح الأمور اكثر سوءاً ، أعلن (هوليس) على نحو محدد ، انه على الرغم من ان القسمين ستتم ادارتهما بشكل منفصل عن الآخر ، الاّ ان (آرثر) سيكون له نوع من الاشراف على القسمين تقديراً له على خبرته ومعلوماته الواسعة . وكان هذا الترتيب غير معقول ولا بد ان يؤدي الى كارثة . وكان الرجلان يتشاجران بشكل مستمر ، إذ اعتقد (آرثر) ان الاشراف يعني التحكم في حين أراد (سيموندز) ان يعمل وفق هواه . وأخيراً ، وصلت الأمور الى حد الغليان حين اصدر (آرثر) أمراً الى (سيموندز) طلب منه فيه دعوة الضباط المشاركين في القضية الى مؤتمر ، فرفض (سيموندز) فأخبره (آرثر) انه بذلك يحول دون قيامه بتنفيذ عمله كمنسق ، فأجابه (سيموندز) انه يتدخل في عمله ، وقام بتقديم شكـوى خطـية الـى (كمنغ) الذي أحالهـا بـدوره الى (هوليس) موصياً بفصل (آرثر) على الفور ، فوافق (هوليس) على ذلك بحماس .

وتم بحث الموضوع في اجتماع المدراء التالي ، ولم يكن لـ (آرثر) من حلفاء في الاجتماع . فقد شعر الكثير من المدراء ان اسلوبه العنيف ، ومتجاوز الحدود أحياناً ، كان يهددهم . اما صديقه الوحيد بين وسط المدراء (بيل ماغان) الذي دافع عنه بغيرة وثبات حتى النهاية ، فقد كان غائباً حينما تم اتخاذ القرار .

وأذكر ان (آرثر) حضر الى مكتبي في ذلك اليوم الذي تم فيه اتخاذ القرار ، وكان هادئا هدوءاً فولاذياً ، وقال لي :

" لقد فصلوني عن العمل ، وأعطاني (روجر) مهلة يومين لاخلاء المكتب " . وللحقيقة فانه تم أخذه علـى الفـور الى (م آي ٦) بناء على اصـرار من (ديك وايت) علـى الرغـم من احتجاجات (هوليس) . وعلـى الرغـم من ان عمليـة الانتقال هذه قد حافظت لـ (آرثر) على تقاعده من الضياع ، الاّ ان حياته العملية توقفت ومُتي في عنفوانها .

لا أكاد أصدق هذا ، فها هـو أروع ضابط من ضباط التجسس المضاد في العالم ، رجل كان حينذاك يتمتع بصيت واسع لبراعته وخبرته ، ها هو الآن يفصل عن عمله لأتفه مشاكسة بيروقراطية .

كان هذا هو الرجل الذي بنى منذ عام ١٩٥٩ (د ١) وحوله من وحدة خاملة بكل معنى الكلمة الى وحدة تجسس مضاد فعالة وحديثة . كانت هذه الوحدة تفتقر الى العاملين تقريباً ، وهي حقيقة لا يمكن دحضها ، غير انها لم تكن غلطة (آرثر) .

وكانت نقطة ضعفه الوحيدة تكمن في سذاجته ، اذ انه لم يدرك الى أي مدى كان يصنع أعداء لنفسه خلال السنين . وكانت غلطته انه كان يعتقد ان التقدم يمكن ان يتم احرازه الى جانب الانجاز . كان رجلاً طموحاً ، ومن حقه ان يكون كذلك . غير ان هذا الطموح كان من نوع طموح القتال المتلاحم السخيف الذي يحدث بين الشركاء . لقد أراد ان يذبح التنينات ويحارب الوحوش في الخارج ، ولم يكن يستطيع ان يدرك لماذا لم يدعمه سوى القلائل من رؤسائه في تحقيق هذا الهدف البسيط . كان حاد المزاج موسوساً ، وغالباً ما تسيطر عليه الافكار الغريبة ، غير ان اخفاق (م آي ٥) في لجم حدة مزاجه ، واستغلال مواهبه العظيمة ، تعتبر واحدة من الاتهامات الدائمة التي توجه الى هذا الجهاز .

قال لي ليلة فصل عن العمل :

" ان الخروج من هذا القسم لهو أمر رائع بالنسبة لي " .

و لكنني كنت أعرف أنه لم يكن يقصد هذا بالضبط .

حاولت رفع روحه المعنوية ، غير انه كان مقتنعاً ان (هوليس) قام بهندسة كل الأمور لحماية نفسه ، وانه ليس أمامي سوى القليل للقيام به . وقد كانت لطخة الفصل القذرة ثمناً مراً يدفعه بعد انجازات السنـــوات العشـــرين الماضية التي تحققت . كان مدركـــاً لحقيقـــة ان حياته العملية قد تحطمت ، وان كل ما سعى من أجله - كمـــا حصل عـــام ١٩٥١ - سيُدمّر ، ولم أر شخصاً اكثر حزناً مـــن (آرثر) فـــي تلك الليلة التـــي غادر فيها المكتب . صافحنـــي ، وشكرني على كل ما فعلته من أجله ، وألقى نظرة على المكتب ، ثم قال :

" حظاً سعيداً " .

وخطا خارجاً لآخر مرة .

١٦

في الوقت الذي غادرنا (آرثر) فيه ، كنت غارقاً في اعادة بناء رئيسية لقسم البحوث (د٣) . فحين توليت أمر القسم ، لم يكن لدى القسم أي إدراك واضح للهدف من اقامته حسب الطريقة التي أردته ان يكون عليها . كنت مقتنعا ان هناك دوراً رئيسياً يمكنه القيام به اذا كانت (م آي ٥) تريد الوصول الى أساس المؤامرة التي حدثت خلال سنوات الثلاثينات . ان العمل الاستخباراتي – وخاصة جهاز التجسس المضاد – يعتمد على ذاكرته وعلى إحساسه بالتاريخ ، وبدون هذين العنصرين ، فمن المؤكد انه سوف يضيع . الاّ ان (م آي ٥) كانت عام ١٩٦٤ تنوء تحت حمل كتلة المعلومات المتناقضة التي كانت تتدفق من الهاربين و المنشقين ومن اعترافات الجواسيس . ان النهايات المفتوحة هي من طبيعة عمل الاستخبارات ، غير اننا كنا نشعر بالارتباك نتيجة ثقل المزاعم والادعاءات التي لم يتم حلها ، وكذلك الشكوك التي لا دليل عليها والموجودة في قسم السجلات ، والمتعلقة بسنوات الثلاثينات . وكنا بحاجة الى العودة الى الوراء ، الى تلك الفترة ، وان نقوم بعملية تدقيق فعالة و ايجابية لكل شخص من معارف (فيلبي) و (بيرغس) و (ماكلين) و (بلنت) و (لونغ) و (كيرنكروس) .

ومن الصعوبة بمكان اليوم ادراك مدى قلة ما كان معروفاً لدينا حتى نهاية عام ١٩٦٤ وخاصة فيما يتعلق بالوسط الذي كان الجواسيس يتحركون فيه ، على الرغم من الانشقاقات و عمليات الهروب التي حدثت عام ١٩٥١ . وكان الاتجاه السائد ميالاً نحو اعتبار الجواسيس بمثابة " التفاح الفاسد " وعدم اعتبارهم جزءاً من مؤامرة أوسع ولدت في ظروف خاصة خلال سنوات الثلاثينات . وانعكست تلك الثغرة الآخذة بالتوسع بين اولئك الذين كانوا يؤمنون ان الجهاز مخترق وبين الذين يناقضونهم هذا

الرأي ، انعكست على شكل انقسام مماثل بين اولئك الذين كانوا يشعرون أن مدى الاختراق السوفييتي فـــي سنـــوات الثلاثينات كـــان محدوداً ، وبين اولئك الذين كانـــوا يشعرون أن مداه كان واسعاً جداً ، واعتبروا الاسماء السرية الثمانية التي وردت في (فينونا) أفضـــل برهان على ما كانوا ينادون به . وخلال أواخر سنوات الخمسينات ، ازداد التوتر بين الجانبين حينما قاوم (هوليس) أي محاولة قام بها اولئك الاشخاص الذين هم على شاكلة (آرثر) لمعالجة المشكلة .

امـــا أسباب الفشـــل في مواجهة المؤامرة بشكل مناسب فقد كانت معقدة . فعلى مستوى بسيط ، تم احراز تقدم طفيف مع المشبوهين الرئيسيين : (فيلبي) و (بلنت) مما جعل من الصعوبة بمكان ايجاد تبرير للقيام بتحقيقات وتحريات واسعة . وكان أيضاً هناك الخوف من المؤسسة . ففي الوقت الذي حدثت فيه عملية الهروب ، كان معظم اولئك الذين كانوا أصدقاء لـ (بيرغس) و (ماكلين) قد أصبحوا شخصيات بارزة في الحياة العامة . ان عملية طرح اسئلة مربكة على شاب لم يتخرج من الجامعة بعد ، تختلف عن عملية طرح مثل تلك الاسئلة على قائمة طويلة من الموظفين المدنيين الذين يتبوأون مناصب تصل الى منصب سكرتير دائم .

ان صميم المشكلة يكمن في ضعف الارادة . فقد كان السياسيون ، وكذلك الادارات المتتالية في (م آي ٥) يخشون من حقيقة ان القيام بسلسلة أخرى من التحقيقات المكثفة سوف تعمل على حدوث عمليات هروب أخرى ، أو قد تكشف عن فضيحة كريهة داخل المؤسسة . واعتبرت خطوة كتلك بانها مخاطرة غير مقبولة خلال سنوات الخمسينات . يضاف الى ذلك ان قيام (م آي ٥) باجراء تحقيقات – قد تكون غيرمفيدة – كان سيضطرها الى الكشف عن بعض ما بين يديها من أمور . ان هذه المعضلة القديمة تواجه كافة أجهزة التجسس المضاد . ومن أجل ان يتم اجراء التحقيق ، لا بـــد لك مـــن ان تجازف بالاتصال مع بعض الاشخاص ، ومقابلتهم ، مما يعني زيادة مخاطر التسريب ، وانتشار أخبار القيام بالتحقيق ، وذلك كلما زاد اتساع مدى الاستفسارات التي تقوم بها . وتكون هذه المعضلة حادة ضمن اقصى حدودها – على نحو خاص – حينما تتم مواجهة مشكلة التحري عن عمليات التجنيد التي كان يقوم بها السوفييت في (اوكسفورد) و (كامبردج) خلال سنوات الثلاثينات ، اذ ان غالبية اولئك الاشخاص الذيـــن كنـــا نريد مقابلتهم كانـــوا لا يزالون يشكلون جزءاً مـــن مجمـــوعة مثقفي (اوكسبريدج) * محكمة الترابط ، والذين لا يشعرون – بالضرورة – بالولاء الى (م آي ٥) او الى سرية مستمرة لعملياتنا . وكان مما يثير المخاوف هو ان تنتشر أخبار نشاطاتنا كانتشار النار في الهشيم ، فنواجه بذلك المخاطر ، كما ان الادارات التي توالت على (م آي ٥) لم تكن راغبة في الامساك بالشوك . لذلك ، اخترنا القيام باجراء تحقيقات سرية ، في حيـــن ان التحقيقات العلنية كانت

* يعني بها (اوكسفورد) و (كامبردج) / المترجم

ستكون ذات فائدة اكبر .

وكان لهروب (فيلبي) واعترافات (بلنت) و (لونغ) و (كيرنكروس) أثرها في ازالة الكثير من هذه التحفظات ، على الرغم من أن مخاوف المؤسسة من اثارة فضيحة بقيت بنفس المستوى من الحدة الذي كانت عليه في السابق . ووافق (هوليس) على اجراء توسيع كبير في (د ٣) اذ أعطي هذا القسم مهمة بسيطة ، غير انها كانت كبيرة ، تمثلت في العودة الى سنوات الثلاثينات ، والبحث في الملفات عن الادلة التي يمكن ان ترشد الى جواسيس آخرين لا يزالون نشيطين في وقتنا الراهن ، أي القيام بتدقيق جيل ، وحل اكبر عدد ممكن من النهايات المفتوحة ، وتزويد الجهاز بتاريخ دقيق للمرة الأولى . اما الدليل الرئيسي الذي سار بموجبه قسمي (د ٣) فقد كان ملاحظة كان (غاي ليدل) قد ألقاها أمامي خلال واحدة من زياراته العديد التي قام بها الى المكتب بعد احالته على التقاعد ، فقد قال لي :

" انني متأكد من ان خمسين بالمائة من الجواسيس الذين ستلقي القبض عليهم خلال السنوات العشر القادمة توجد ملفات وقيود لهم في قسم السجلات الذي بامكانك متابعته " .

كنت متأكداً من انه محق فيما يقول ، وعدت أستذكر (هوتون) وتقرير زوجته عنه ، واستذكرت (بليك) والأدلة التي قدمها عنه بصورة مبكرة (سنيير) وايضاً استذكرت (فيلبي) و (بلنت) حيث كانت الدلائل موجودة غير انه لم تتم متابعتها بشكل جاد على نحو كاف .

وربما كان من اكثر ما أثار دهشتي انني حين قرأت ملف (كلاوس فوخس) اكتشفت – بعد القاء القبض عليه وبعد ان تمكنت (م آي ٥) من التعرف على اسمه ، وخلفيته الشيوعية ، وحتى رقم عضويته في الحزب – ان كل هذه المعلومات عنه كانت موجودة في سجلات الغستابو التي صادرتها (م آي ٥) عند انتهاء الحرب . ومع هذا ، فان هذه المعلومات لم تصل الى الضباط الذين كانوا مسؤولين عن التحري عنه . غير ان ضابطاً يدعى (ميشال سوربل) كان قد قام بين عامي ١٩٤٥ – ١٩٤٨ بالبحث في قضية (فوخس) وانه كتب في السجل ان (فوخس) لا بد وان يكون جاسوساً .

كانت هناك مواضع عديدة واضحة ، ومن الضرورة البحث عنها بين هذه الكتلة من الاوراق التي كانت ملقاة في قسم السجلات . فقد كانت هناك أولاً سجلات الغستابو ، الذي كان جهاز تجسس مضاد بالغ الفعالية ، وكان يعمل على نحو واضح ضد الاحزاب الشيوعية الاوروبية وأجهزة الاستخبارات السوفييتية . كانت لديه معلومات قيمة جداً حول تلك الامور ، وازدادت هذه المعلومات نمواً ، في الوقت الذي لم يكن لدينا فيه أي معلومات عن اوروبا بسبب ظروف الحرب . كما كان هذا الجهاز يمتلك معلومات استخباراتية لا تقدر بثمن عن اكثر شبكات التجسس الاوروبية أهمية : (روت كابيلي) أو (الاوركسترا الحمراء) . وقد كانت هذه الشبكات مجموعة من الشبكات غير

الشرعية المكتفية ذاتيا ، و تديرها الاستخبارات العسكرية السوفييتية في اوروبا المحتلة من قبل الالمان . وقد كانت شبكة (روت كابيلي) تدار بشجاعة ومهارة عظيمتين ، اذ انها كانت تنقل الى (موسكو) بواسطة الاتصال اللاسلكي أخبار تحركات الالمان العسكرية .

اما أعظم سجلات الغستابو أهمية بالنسبة للبريطانيين فقد كانت أوراق (هنري روبنسون) الذي كان عضواً قياديا في (روت كابيلي) في (باريس) و أحد عملاء (الكومنتيرن) الموثوقين . فقد ألقى الغستابو القبض عليه عام ١٩٤٣ ونفذ فيه حكم الاعدام . وعلى الرغم من انه رفض ان يتكلم شيئاً حتى قبيل موته ، الاّ انه تم العثور على بعض الاوراق المخبأة تحت ارضية منزله الخشبية ، والتي كشفت عن بعض انشطة الشبكة . وقد ادرجت في القائمة المكتوبة بخط اليد أسماء أربعين أو خمسين اسماً وعنوانا في بريطانيا ، مما يدل على ان (روبنسون) كان مسؤولاً ايضاً عن الاتصال مع شبكة (روت كابيلي) في بريطانيا . وبعد الحرب ، قامت (ايفلين ماك بارنيت) بالعمل المكثف على اوراق (روبنسون) الاّ ان الاسماء كلها كانت أسماء مستعارة ، في حين ان العناوين كانت إما صناديق بريد أو أنها عناوين دمرت أثناء الحرب . وقام ضابط آخر من (م آي ٥) ويدعى (ميشال هانلي) بمهمة بحث ضخمة في سنوات الخمسينات ، محدداً ومدونا هوية واسم كل عميل معروف في (روت كابيلي) . كان هناك ما يزيد على خمسة آلاف اسم . ومنذ ذلك الحين ، انقطع الأثر . واعتقدت انه ربما توجد أدلة بين هذه المواد قد توصلنا الى مكان ما .

وكان المكان الآخر الذي يمكننا البحث فيه هو سجلات استخلاص المعلومات من المنشقين والهاربين ، سيما وانه قد تم احراز تقدم سابق مع المنشقين الآخرين أمثال (غوليتسين) و (غولينيفسكي) ومع ذلك فقد كانت لا تزال هناك نهايات مفتوحة في المعلومات الاستخباراتية التي قدمها المنشقون قبل وأثناء الحرب . فقد قام (وولتر كريفيتسكي/ وهو ضابط رفيع المستوى في [ن . ك . ف . د] جهاز الاستخبارات السابق لجهاز الـ [ك ج ب] وهرب عام ١٩٣٧) باعلام (م آي ٥) مثلاً ان هناك جاسوس من اسرة محترمة وغنية ، تلقى تعليمه في (ايتون) و (اوكسفورد) والتحق بوزارة الخارجية . وافترض الجميع ان الشخص المعني هو (دونالد ماكلين) بالرغم من ان (ماكلين) كان قد تلقى تعليمه في (غريشام هولت) و (اوكسفورد) . ولما كانت هذه الاوصاف لا تنطبق عليه ، وبدلاً من مواجهة المشكلة ، تم حفظ هذه المزاعم في الملف ، ليتجمع عليها الغبار .

ثم كان هناك (قسطنطين فولكوف) وهو ايضاً ضابط رفيع المستوى في (ن . ك . ف . د) الذي اتصل بالقنصلية البريطانية في (استنابول) وعرض عليها الكشف عن أسماء جواسيس سوفييت يعملون في بريطانيا مقابل حصوله على أموال منا . وقدم الى أحد المسؤولين في السفارة

قائمة بالدوائر التي يعمل الجواسيس فيها حسب زعمه . ولكن من سوء حظه ، ان قائمته تلك استقرت على طاولة مكتب (كيم فيلبي) في مقر قيادة (م آي ٦) . كان (فيلبي) حينذاك رئيس قسم مكافحة التجسس السوفييتي في (م آي ٦) فعمل على اقناع مدير (الفرع ج) بالسماح له بالسفر الى تركيا لترتيب موضوع هروب (فولكوف) المزعوم ، فسمح له دون رغبة منه بذلك . ثم أرجأ (فيلبي) وصوله مدة يومين . ولم ير أحد بعدها ذلك الشخص الذي كان من المفروض ان يهرب ، على الرغم من ان الاتراك اعتقدوا ان (فولكوف) وزوجته سافرا بالطائرة وهما مربوطين على حمالة اسعاف . وكان من المعتقد أن (فيلبي) كان أحد الجواسيس الذين عناهم (فولكوف) . ومع هذا فقد كان هناك العديد من الجواسيس الآخرين الذين لم يتم اكتشافهم قط مثل ذلك الجاسوس الذي ادعى (فولكوف) انه كان يعمل في محطة (م آي ٦) في ايران .

وأخيراً ، كانت هناك مادة (فينونا) التي كانت – حتى ذلك التاريخ – من اكثر المعلومات الاستخباراتية التي يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بموضوع عمليات اختراق الأمن الغربي التي تمت في السابق . وبعد أن ترك (آرثر) الجهاز ، توليت العمل على برنامج (فينونا) وشرعت باجراء مراجعة أخرى كاملة للمادة ، حتى أتأكد إن كانت توجد هناك أدلة أخرى يمكن جمعها . وقد قادت هذه المراجعة الى أول قضية يكتشفها (د ٣) وكانت – لسخرية القدر – قضية فرنسية وليست بريطانية . لقد احتوت مادة (هاسب) الخاصة بالاستخبارات العسكرية الروسية والتي يعود تاريخها الى الفترة الواقعة بين ١٩٤٠ – ١٩٤١ على معلومات كثيرة حول اختراق السوفييت لحركات المهاجرين والحركات القومية المختلفة التي اتخذت من (لندن) مراكز قيادة لها خلال السنوات الأولى من الحرب . فعلى سبيل المثال ، كان للروس مصدر رئيسي في قلب جهاز الاستخبارات التشيكوسلوفاكية الحرة ، التي كانت تدير شبكاتها الخاصة بها في اوروبا الشرقية – التي كان الالمان يحتلونها – بواسطة المراسلين (السعاة) . وكان اسم المصدر السوفييتي هو (بارون) ومن المحتمل انه السياسي التشيكي (سيدليسيك) الذي لعب فيما بعد دوراً بارزاً في شبكة (لوسي) في سويسرا .

اما أخطر اختراق من حيث الأهمية بالنسبة لـ (م آي ٥) في تلك الفترة فقد كان في حكومة فرنسا الحرة التي يتزعمها (تشارل دي غول) الذي واجه سلسلة مستمرة من المؤامرات في (لندن) كان العقل المدبر لها نائبيه الشيوعيين : (اندريه لابارت / رئيس وزراء سابق) الذي كان مسؤولاً عن الشؤون المدنية ، والأميرال (موسيليبه) المسؤول عن الشؤون العسكرية . وبناء على تعليمات من (تشرشل) قامت (م آي ٥) في ذلك الوقت بمراقبة هذه المؤامرات عن كثب أثناء الحرب . وأوعز (تشرشل) بالقاء القبض على كل من (لابارت) و (موسيليبه) حينما توجه (دي غول) الى (داكار) لتحريرها لصالح (فرنسا الحرة) . ولكننا في عام ١٩٦٤ تمكنا من

تحليل شيفرة تظهر بشكل حاسم ان (لابارت) كان يعمل خلال هذه الفترة كجاسوس سوفييتي ، بل وحتى خلال الفترة التي كانت فيها اتفاقية (مولوتوف - فون ريبينتروب) سارية المفعول .

كذلك ، فان (فينونا / الولايات المتحدة) احتوت ايضاً على مادة تتعلق بالاختراق السوفييتي لـ (فرنسا الحرة) . ولم تتخذ (السي آي ايه) أي خطوة حول ذلك ، إما لأنهم اعتقدوا ان الزمن قد عفا عن هذه القضية ، وأصبحت قضية قديمة ، أو لأنه لم يكن لديهم مَن يمكنه الالمام بالتاريخ الفرنسي بشكل جيد . وحين قمت بدراسة تلك المادة ، وجدت ان سياسيا فرنسياً آخر يدعى (بيير كوت / وزير سلاح الجو في حكومة [دالادييه] قبل الحرب) كان هو الآخر جاسوساً روسياً نشيطاً .

أتى هذا الاكتشاف في وقت اشتد خلاله التوتر بين أجهزة الاستخبارات الفرنسية ونظيرتها البريطانية . وقد سرت روح العداء للفرنسيين داخل أوساط الاستخبارات البريطانية سريان النار في الهشيم . ان العديد من ضباط الجهازين معاً كانوا قد خدموا أثناء فترة الحرب ، وهم يتذكرون الاستسلام الفرنسي . وكان (كورتني يونغ) يدعي دائماً بانه تكونت لديه وجهات نظر أبدية عن الفرنسيين حين عاد من (دنكرك) في قارب . حتى (بلنت) وعلى الرغم من كل احترامه لفن ولاسلوب الفرنسيين ، فانه اتخذ موقفا يتصف بذم الفرنسيين فيما يتعلق بجبنهم .

ولم تتحسن العلاقات بين الطرفين مع وصول (أناتولي غوليتسين) الذي كان من بين معلوماته الاستخباراتية الهامة قضية الاختراق السوفييتي لجهاز الاستخبارات الفرنسية (سديس) الذي يماثل (م آي ٦) . وقد أفاد (غوليتسين) ان هناك شبكة من عملاء (سديس) ذوي المراتب العليا ويعرفون باسم (شبكة سابفير) . وبعد هروب (غوليتسين) بفترة قصيرة ألقى نائب رئيس (سديس) بنفسه من النافذة . وقد تمكن (انغلتون) من اقناع رئيس (السي آي ايه) بان يطلب من الرئيس (كيندي) الكتابة الى (دي غول) وتحذيره من مزاعم (غوليتسين) . غير ان (دي غول) كان يشعر ان الامريكيين والبريطانيين كانوا يحرضون (غوليتسين) للتشهير بالاخلاق الفرنسية . وبقيت هذه هـــي وجهة النظر الفرنسية الرسمية حتى بعد تقديم (غوليتسين) للمعلومات التي أدت الى القاء القبض على (جورج باك / مسؤول حكومي فرنسي على مستوى عال) وادانته عام ١٩٦٥ .

وحتى تزداد الامور سوءاً ، فان (د . س . ت / جهاز الاستخبارات الفرنسيـــة للتجسس المضاد) كـــان يتعاون مع (م آي ٥) في قضية عميل مزدوج يدعى (آير بابيل) وهو صناعي كيماوي يدعى (الدكتور جان بول سوبير) كان يدير عملاء يعملون لصالح الاستخبارات الالمانيـــة الشرقية والـ (ك ج ب) . غير ان استخبارات أمن الدولة البلجيكية تمكنت من تحويله الى عميل مزدوج . وقد أعلن أن اثنين من عملائه كانا يعملان كموظفين في شركة (كوداك) البريطانية ، حيث كانا يقومان بنقل تفاصيل الصفقات التجارية الحساسة اليه .

واحاط البلجيكيون (م آي ٥) علماً بالموضوع ، فتم اجراء تحقيق مكثف مع موظفي شركة كوداك : (الفريد روبرتس) و (غودفري كونواي) . كما أفاد (سوبير) البلجيكيين ايضاً عن عميل الماني شرقي غير شرعي يدعى (هيربرت شتينبريخر) كان يدير عدداً من العملاء داخل مصانع مجمعات الكونكورد الفرنسية . وقد تم نقل هذه المعلومات الى (د . س . ت) للتحقيق فيها بالتعاون مع (م آي ٦) .

ومما يؤسف لـــه ، ان القضيتين انتهتا بكارثة . فعلـــى الرغم مـــن انه تم القاء القبض على (كـــونواي) و (روبرتس) الاّ انه تمت تبرئتهما . والأسوأ من هذا كله – فيما يتعلق بالعلاقات الانكليزية / الفرنسية – هـــو ان عمليات الاستجواب التي تمت مع (شتينبريخر) كشفت النقاب عن ان (م آي ٦) قامت بتجنيد أحد رؤساء الشرطة الفرنسيين ، وتمتد مقاطعته التي يشرف عليها حتى الحدود الالمانية . وقد كان هذا العميل عميلاً " أبيض " أي ان (م آي ٦) قد تعمدت اخفاءه عن مضيفيهم الفرنسيين وكانوا يستخدمونه للتجسس على المواطنين الفرنسيين . من جهتهم ، فان الفرنسيين كانوا مجبرين على الاعتراف بأن عملاء (شتينبريخر) قد نقلوا الى الروس كل التفاصيل المتعلقة بالانظمة الالكترونية المتقدمة الموجودة على طائرة الكونكورد الانكليزية – الفرنسية ، وكانت النتيجة شجاراً فاضحاً .

اتصلت مع (انغلتون) و (لويس torديلا) من وكالة الأمن القومي ، وحصلت على موافقتهما لتزويد الاستخبارات الفرنسية للتجسس المضاد بمادة (فينونا) الاستخباراتية التي أثبتت ان (كوت) و (لابارت) جاسوسان سوفييتيان . كان هذان الرجلان قد أصبحا عجوزين ، غير انه كان لهما نشاطهما السياسي ، وبدا لي ان هذا الامر اجراء احتياطي معقول . وسافرت الى (باريس) في أوائل عام ١٩٦٥ ، وتوجهت الى مقر قيادة الاستخبارات الفرنسية للتجسس المضاد (د . س . ت) حيث استقبلني (مارسيل شاليه) نائب رئيس الجهاز . كان (شاليه) فرنسياً صغير الحجم ، نشيطاً وقد انضم الى (د . س . ت) بعـــد الحـــرب ، وخدم بشجاعة عظيمة فـــي صفوف المقاومة تحت رئاسة (جان مولين) وأفلت من محاولة الغستابو لاعتقاله ، وكان ذلك في اليوم الذي تم فيه اعتقال (مولين) نفســـه . وككل مقاتلـي حركـــة المقاومة الفـــرنسية القدماء ، كان (شاليه) يضع الوشاح القرنفلي اللون ، معتزاً بذلك بشكل واضح . كان محارباً عنيداً ضد الشيوعية ، وعلى الرغم من هذا ، فانه كان معجبا بـ (مولين) الشيوعي المخلص اكثر من اعجابه بأي رجل آخر في حياته . وقد تحادثت معه مرات عديدة حول موضوع المقاومة ، غير انه لم يكن يسعه حتى في سنوات الستينات مناقشة موضوع قائده السابق دون أن تغرورق عيناه بالدموع .

وأوضحـــت لـ (مارسيل) اننـــا حصلنـــا على معلومات جديدة تبين الدور الحقيقـــي الذي لعبه

(كوت) و (لابارت) وعرضت عليه حلول شيفرة مادة (فينونا) السرية .

وذهل مما رآه ، وتعهد على الفور بالقيام بالتحريات الكاملة .

سألته :

" ألا ترى أنهما مسننان جداً ، الآن .... ؟ " .

حدّق (مارسيل) بي بنظرة سريعة حادة ، وقال :

" ما لم تر السياسي الفرنسي يتحول لونه الى اللون الأخضر وهو في تابوته ، فانك لا تستطيع القول انه مسن جداً " . ومما يؤسف له ، أن (لابارت) توفي إثر نوبة قلبية بينما كان (مارسيل) يحقق معه وتُرك (كوت) ليموت بسلام . غير ان تبادل المعلومات هذا ، قد عمل على تخفيف التوتر الى حد بعيد بين (م آي ٥) و (د . س . ت) وجعل مني ومن (مارسيل) صديقين طوال ما تبقى من مدة عملنا .

في الليلة التي سبقت موعد رحيلي عن (باريس) دعاني (مارسيل) لتناول طعام العشاء . كان المطعم في مكان خفي ، غير ان طعامه كان ممتازاً . اما (مارسيل) نفسه فقد كان مضيافاً كريماً ، إذ قدم أفضل زجاجات النبيذ الأحمر ، متحفاً إياي بسلسلة من الحكايات اللاذعة عن المخاطر التي تواجه أجهزة الاستخبارات الغالية * أثناء عملها . وتناقشنا حول (فينونا) فتلهف لمعرفة مدى نجاحنا فيها . قال لي :

" لقد حققوا بعض النجاح معنا مؤخراً " ** .

وسرد لي كيف انهم اكتشفوا في غرفة الشيفرة داخل السفارة الفرنسية في (واشنطن) وجود مُصهِر (فيوز) كان قد تم تعديله ليصبح بمثابة جهاز ارسال .

قال وهو يتلمظ من طبق المحار المعد حسب الطريقة الفرنسية :

" لم تكن المواصفات غريبة ، وكان مداه مناسباً لمنزل الملحق العسكري الروسي الواقع عبر الطريق " . وانتصبت أذناي . لقد انتهت عملية (ستوكيد) الموجهة ضد شيفرات السفارتين الفرنسيتين في (لندن) و (واشنطن) منذ مدة قصيرة نهاية سريعة ، وكان ذلك حينما دخل فنيون فرنسيون الى السفارتين وهم يحملون رقائق معدنية وأنابيب نحاسية ، و بدأوا بتمشيط غرف الشيفرات . وكان من الواضح ان الروس ادركو أيضاً امكانية التقاط الاشعاع من آلات ضعيفة التغطية . وكنت أعتقد ان الفرنسيين لم يكتشفوا عمليتنا حتى الآن على الأقل .

لقد وجد (شاليه) ان الموضوع برمته مُسَلٍّ ، لدرجة انه عرض إرسال المصهر (الفيوز) الى

---

*نسبة الى بلاد الغال ويقصد الاستخبارات الفرنسية (المترجم)

** يقصد الروس (المترجم)

(ليكونفيلد هاوس) حتى نقوم بفحصه ، وطرح سؤالاً بشكل عرضي ، اذ قال مبتسماً :

" وأنت ايها العزيز (بيتر) هل يحالفك الحظ فيما يتعلق بالاشعاعات ؟ " .

أحسست للحظة بغصة من النبيذ الأحمر ، ثم قلت :

" ليس كثيراً " .

وملأ (مارسيل) كأسي ثانية ، وبد انه غير مصدق لكل كلمة من كلماتي التي قلتها . ومثل كل المحترفين ، انتقلنا للحديث عن أشياء أخرى ، ولم نعد لبحث القضية مرة ثانية.

لكن ، وعلى الرغم من الاستمتاع بالفاصل الفرنسي ، الاّ ان البحث في موضوع عصابة الخمسة كان من اكثر المهمات إلحاحاً والتي تواجه (د ٣) . وطلبت من (هوليس) ان يقوم بتعيين محققي (الفـــرع د ٨) فـي (د ٣) حتى اتمكن من استخدامهم في البرنامج المكثف للمقابلات مع كل معارف (فيلبي) و (بيرغس) و (ماكلين) و (بلنت) و (لونغ) و (كيرنكروس) . ووافق (هوليس) على ذلك . غير انه أصدر تعليمات بأن أقوم أنا شخصياً باجراء أي مقابلة تعتبر حساسة ، والتي تعنـــي عادة ان تكـــون مـــع أحد اللوردات أو مع واحد من الفرسان ، أو السياسيين ، أو كبار الموظفين ، أو جاسوس مشتبه به .

وقابلـــت مـــا يزيد مجموعه على مائة شخــص . امـــــا سياسيو حـــزب العمـــال أمثال (كريستوفر ماهيو) و (دينيس هيلي / وزير الدفاع حينذاك والذي رفض حتى مقابلتي) فقد كانوا غير راغبين بمناقشة ذكرياتهم عن الحزب الشيوعي البريطاني خلال سنوات الثلاثينات . غير أن آخرين أمثال المؤرخ (ايساياه برلين) والكاتب (آرثر مارشال) كانوا متعاونين الى حد مدهش ، وكانوا يقومون بمقابلتي بشكل منتظم من أجل مناقشتهم حول الاشخاص الذين عاصروهم في (اوكسفورد) و (كامبردج) . وقد أصر (برلين) على أن نلتقي في (نادي الاصلاح) حيث كان يعتقد ان هذا المكان مناسب تماماً للحديث عن (غاي بيرغس) باعتباره المكان الذي شهد اعظم انتصاراته .

وقد كانت لـ (برلين) نظرة ثاقبة حول المحيط الاجتماعي لـ (بيرغس) وخاصة باولئك الذين ظهر ان وجهات نظرهم قد تغيرت خلال السنين . وقدم اليّ مشورة جيدة حول كيفية قيامي بعمليات الاستجواب :

" لا تذهب لمقابلة (باورا) " . قال ذلك مشيراً الى (موريس باورا) استاذ الادب المشهور في جامعة (اوكسفورد) .

كان (باورا) شاذاً جنسياً ، اضافة لكونه صديقاً مقرباً من (غاي بيرغس) وكان على رأس قائمة الاشخاص الذين كنت أعتقد انهم سيقومون بمساعدتي .

وسألته :

" لماذا ؟ " . فأجابني :

" اذا أنت قمت بزيارته ، فانه سيذكر هذا على كل منصات جامعة اوكسفورد " .

أخذت بنصيحة (برلين) وتجنبت (باورا) .

أما (مارشال) أو " آرتيبه / كما كان معروفاً لكل شخص " فقد كان يعرف – على نحو عملي – كل شخص في (كامبردج) خلال سنوات الثلاثينات ، وخاصة شبكة الشاذين جنسياً في كليتي (كينغ) و (ترينيتي) . وكان (آرتيبه) يتمتع بذاكرة ضخمة فيما يتعلق بالأقاويل والمؤامرات ، والفضائح ، وكان الأهم من ذلك كله ، هو أنه كان يعرف مَن ينام مع مَن في شبكتي (بيرغس) و (بلنت) .

وكان (بلنت) ايضاً يحب الحديث عن جانب الفضائح في حياة جامعة (كامبردج) خلال سنوات الثلاثينات ، اذ انه كان يستمتع بالأقاويل ، ولا يمل أبداً من إخباري عن الوقت الذي صوت فيه ضد قبول (السّير ادوارد بلاي فير / الذي أصبح فيما بعد السكرتير الدائم في وزارة الدفاع) في (جمعية الرسل) . كان (بلنت) يرى ان (بلاي فير) غبي الى حد كبير . وبعد أن قابلت هذا الرجل (بلاي فير) فانني لا أستطيع مخالفة (بلنت) في حكمه عليه . اما أكثر قصصه طرافة ، فهي تلك المتعلقة بـ (غاي بيرغس) و بابنة أخ (تشرشل) المدعوة (كلاريسا تشرشل) . فعلى ما يبدو ، فان المشرفين السوفييت على (بيرغس) قد أناطوا به مهمة زواجه من (كلاريسا تشرشل) وذلك للحصول على غطاء آمن لنشاطاته التجسسية . وقد ارتاع (بيرغس) من المهمة لسببين : أولهما : انه شاذ جنسياً بشكل قوي ، وثانيهما : ان (كلاريسا تشرشل) لا تكاد تكون أجمل من عمها ، اضافة الى أن (جيمس بوب – هينيسي / الذي أصبح فيما بعد كاتباً مرموقاً) قد أصبح مفتوناً بها كما كان ذلك معروفاً .

غير ان (بيرغس) ما كان ليكون شيئاً إن لم يكن لعبة . وخلال شهر ، أخذ يطارد (كلاريسا تشرشل) مسبباً الازعاجات والفضائح على حد سواء ، بل ان (جيمس بوب – هينيسي) كان مستاء بشدة من اهتمام (بيرغس) بها .

وقد حضر ذات ليلة الى منزل (بيرغس) وهو يحمل مسدساً ، وهدد باطلاق النار عليهما معاً قبل ان يعمد الى الانتحار . لقد أعجب (بلنت) بالقصة التي كانت نهايتها سعيدة – بنظره ونظري – حينما تزوجت (كلاريسا تشرشل) من (انطوني ايدن) لتصبح فيما بعد (الليدي آفون) .

وسرعان ما أدركت أن عصابة الخمسة هي مركز سلسلة شبكات أخرى متحدة المركز ، وقد التزمت كل شبكة منها بالصمت ، وكانت كل شبكة ايضاً تواقة لحماية أسرارها من الغرباء . وكانت هناك أيضاً الشبكة السرية المكونة من الشاذين جنسياً ، حيث كان ولاؤهم لنوعياتهم يسبق ولاءهم لأي

التزامات أخرى . وكان هناك أيضاً العالم السري لـ (جمعية الرسل) حيث بقيت روابط إتّباع (الرسل) قوية مدى الحياة ، ثم كانت هناك شبكة اصدقاء (بيرغس) و (بلنت) الذين لم يكونوا جواسيس ، وانما كانوا يعرفون أو يخمنون بما كان يجري حولهم . لقد اشتركوا في السر ، وعملوا على حمايتهم لسنين عديـــدة ، وكانت كـــل شبكـــة تدعم الشبكات الأخـــرى وتجعل مهمة تحديد هويـــة القلـــب الداخلي اكثر صعوبة .

كان من الصعوبة بمكان عليّ أن لا أشعر بالكراهية تجاه الكثيرين من اولئك الذين قابلتهم . ومن المضحك بما فيه الكفاية انني لم أهتم بالجواسيس كثيراً ، اذ انهم قد اختاروا طريقهم ، وساروا فيه قدر استطاعتهم . غير ان اولئك الذين كانوا يقفون خارج محيط هذه العصابات كانوا مختلفين . وحينما قابلتهم كانوا متلفعين بالاحترام الذي أسبغته عليهم حياتهم اللاحقة . لكن غطرستهم وأصواتهم المثقفة كانت تخفي الشعور بالذنب ، وكذلك الخوف . كنت أنا المخطيء حينما أثرت الموضوع ، وليسوا هم . كان يجب ان يترك الموضوع جانباً ، هكذا كانوا سيقولون لي . لقد كنت مكارثياً ، وكانت الأمور مختلفة حينذاك . كان التجسس عملاً خاطئاً بالطبع ، ولكن ايضاً كانت هناك أسباب . فقد كانوا أفراد (جيـــل اللـــوتس) يتبعون أزياء (موضة) سياسية كما لو كانت كتالوج ملابس ، وهم لا زالوا ملتزمين – خلال سنوات الستينات – بأيمان الصمت التي أقسموها قبل ثلاثين سنة . و بدورهم شعروا بالكراهية تجاهي . لقـــد كنت مطلعاً على الجوهر السري للمؤسسة الحالية ، في وقت كانوا فيه شباباً وغير مبالين . عرفت فضائحهم ومؤامراتهم . كنت أعرف الكثير جـــداً ، وكانوا مدركين لحقيقة أنني أعرف ذلك .

كانت أولى مهمات (د ٣) اعادة فحص ودراسة دليل استقر دون أي عملية تحريات في الملفات منذ هروب (بيرغس) و (ماكلين) عام ١٩٥١ . وقد قدم هذا الدليل شخص يدعى (غورونوي ريز) الذي كان صديقا لكل من (بيرغس) و (بلنت) . قابلهـــم فـــي البدء خلال سنوات الثلاثينات فـــي (اوكسفورد) . وخلال فترة الحرب – حينما كان يعمل في الاستخبارات العسكرية – كان زائراً منتظماً لشارع (بينتينك) . وبعد وقوع عملية الهروب ، اتصل بـ (ديك وايت) الذي كان حينذاك رئيساً لقســـم التجسس المضاد ، وأخبره انه كان يعرف ان (بيرغس) كان عميلاً للسوفييت منـــذ مدة طويلة ، وادعى ان (بيرغس) حاول تجنيده قبل الحرب ، غير انه (ريز) تحرر من هذا الوهم بعد اتفاقية (مولوتوف – فون ريبينتروب) ورفض الاستمرار بأي علاقة سرية . وادعى (ريز) ايضاً ان كلاً من (بلنت) و (غاي ليدل) وضابطاً سابقاً في (م أي ٦) يدعى (روبين زيهنر) و (ستيوارت هامبشير / ضابط لامع في هيئة امن الاتصالات اللاسلكية) كانوا جميعهم شركاء في الجريمة . ولما كان (بلنت) جاسوساً سوفييتيا دون أدنى شك ، فان الاتهامات التي وجهت ضد الاشخاص الثلاثة

الآخرين كانت عارية عن الصحة .

لقد كره (ديك وايت) بشدة (ريز) واعتقد انه يلقي تهماً خبيثة كي يلفت الانتباه اليه ، إن لم يكن مشهوراً . كان الرجال الاربعة كلهم اصدقاء حميمين ، ولهذا السبب ، فانه وجد ان من الصعوبة بمكان مشاركة (آرثر) في شبهاته التي تدور حول (بلنت) . وبدت وجهة نظر (ديك) في (ريز) مؤكدة حينما كتب الأخير عام ١٩٥٦ سلسلة من مقالات مغفلة التوقيع في احدى الصحف التي تحظى بشعبية . وكانت حفلات الدعارة ، وقضايا التجسس عاملاً من عوامل ترويج الصحف خلال سنوات الخمسينات ، وكما هو الحال عليه اليوم . وقد أثارت مقالات (ريز) التي كانت تبحث بالتفصيل في بعض نشاطات (بيرغس) الشهوانية وانشطة اصدقائه المقربين منه ، أثارت ضجة كبيرة .

لكــن ، حينما أدلى (بلنت) باعترافاته ، فان لون شهادة (ريز) التي ادلى بها عام ١٩٥١ تغير . وأرتأيت ان من الحكمة اعادة النظر فيها ، وذلك لأقنع نفسي ان (ريز) لم يكن يكذب حينما ادعى انه تخلى عن كل الافكار المتعلقة بقضية السوفييت ، وذلك قبل الحرب . كان في البداية متردداً من الحديث اليّ ، واتهمتني زوجته باتباع تكتيك اسلوب الغستابو في محاولة مني لبعث الماضي بعد كل تلك السنين ، وقد عانيا معاً الى حد بعيد من مقالاته تلك التي كتبها في الصحيفة ، اذ انه عرف بانه كاتب المقالات ، وتم طرده من الحياة الاكاديمية ، وهاهما الآن يعيشان حياة متقشفة وبائسة منذ عام ١٩٥٦ ، وقد نبذتهما المؤسسة . وأخيراً ، وافق (ريز) على مقابلتي ، وسرد لي قصته مرة أخرى . لم يكن لديه أي برهان على أن أياً من اولئك الذين ذكر اسماءهم كانوا متآمرين ، غير انهم – كما أفاد – كانوا أصدقاء حميمين لـ (بيرغس) خلال فترة ما قبل الحرب الحرجة .

وكان الاتهام الموجه الى (غاي ليدل) محض عبث على نحو ملموس ، اذ كان كل شخص يعرفه – أو يعرف عنــه – مقتنعاً بانه (ليدل) كان موالياً ومخلصاً تماماً . وقد ترك وراءه مذكراته المعروفة بـ " زهرة الجدران " وذلك حينمــا تــرك العمــل في (م آي ٥) . ولــن يصــدق مَن يقــرأ هذه المذكــرات بانــه كان جاسوساً . غيــر ان الاتهامات التــي وجهت الى (روبين زيهنر) الذي خدم في (م اي ٦) في الشرق الاوسط تطابقت مع معلومات جاسوس (فولكوف) هناك .

قمت بدراسة الملف الشخصي الخاص بـ (زيهنر) . كان مسؤلاً عن التجسس المضاد في محطة (م آي ٦) في ايران أثناء فترة الحرب ، وكان ذلك عملاً صعباً وخطيراً ، اذ كانت خطوط سكة الحديد المتوجهة الى روسيا التي تحمل التموينات العسكرية الحيوية ، كانت تشكل أهدافاً رئيسية لعمليــات التخريب الالمانية . وكان (زيهنر) مدرباً تماماً للعمل ، اذ انه كان يتكلم اللهجات المحلية بطلاقة ، وقضى الكثير من وقته متخفياً يعمل في عالم مكافحة التخريب المظلم الذي يؤدي الى قطع الاعناق . ومع حلول نهاية الحرب ، أصبحت مهمته أخطر ، اذ ان الروس انفسهم كانوا يحاولون

السيطرة على سكة الحديد ، فكان على (زيهنر) ان يعمل خلف خطوط الروس ، معرضاً نفسه باستمرار لمخاطر خيانة عرب مؤيدين للألمان أو الروس . ومن الظاهر فان بقاء (زيهنر) على قيد الحياة ، أضفى مصداقية على مزاعم (ريز) .

وترك (زيهنر) العمل في الاستخبارات بعد الحرب ، وعمل استاذاً للغة الفارسية القديمة في جامعـــة (اوكسفورد) وحددت معه موعداً لمقابلته في (أول سولز) . ان الروابـــط التـــي تربـط بيـن (اوكسفورد) والاستخبارات البريطانية قوية ، وكانت تلك الزيارة بداية سلسلة من الرحلات الكثيرة التي كان يجب علي القيام بها الى تلك المدينة خلال السنوات الخمس التالية .

كـــان (زيهنر) ضئيل الجسم ، دقيقه ، مكسواً بالسحر المذهل للمعرفة الواسعة . صبّ لي كأساً ، وثرثر بسلاسة عن الزملاء القدامى في العالم السري . وتساءلت مستغرباً – وهو يثرثر – كيف يمكنني ان أطرح موضوع زيارتي بطريقة لبقة . وتوصلت الى انه ليست هناك أي طريقة لبقة .

وبدأت :

" أنا آسف يا (روبين) فهناك مشكلة ، اننا نتابع بعض المزاعم القديمة ، وأخشى ان يكون هناك بعض ما يتعلق بك " .

سخر في البداية . تتعلق به ؟ اعلن احتجاجه . لا بد وأن اكون مخطئاً بالطبع . هل قمت بتدقيق سجله ؟ أي ادعـــاءات ؟ ..

أخبرته عن (فولكوف) وعن الجاسوس في ايران .

انهار ، وعرفت حينذاك – من خلال رد فعله – ان (ريز) كان مخطئاً بشكل رهيب ، وتكمن وراء ذلك رغبة في الانتقام .

قال متردداً :

" لقد امضيت زهاء ستة من السنين في الصحراء ، وبقيت مدة سنتين بعد (يالطا) *حين عاد الجميع الى الوطن . لم يكرمني أحد ، غير انني اعتقدت انني حزت على شيء من الثقة على الأقل " .

وتكلم (زيهنر) بنوع من الحزن ، ودون حقد . فبعـــد كل ما فعله ، وكـل ما تعرض له من أخطار ، توجه اليه تهمة كهذه بعد مرور سنوات على ما قام به ، وقد جرحه ذلك من الاعماق . مسح دموعاً ترقرقت في عينيه ، ، وشعرت بالحقارة التي يشعر بها شرطي ينقل أخباراً سيئة لوالدين في الليل .

حيـــن هـــدأت نفـس (زيهـــنر) أصبح مثالاً للاحتراف ، وعرف بالطبع سبب مجيئي لزيارته . . راجـع حياتـــه العمليـــة مـــع (م آي ٦) وبحـــث فـــي ذاكرته عـــن أثر يدلـــه على هوية

* يالطا : اتفاقية تم عقدها بعد هزيمة الالمان (المترجم)

جاسوس (فولكوف) . تبادلنا الأحاديث لساعات من الزمن ، بينما كان ظل مسلة كنيسة (أول سولز) الممتد على المروج قد اخذ يتلاشى .

قال وهو يخبط بقدمه على الارض كما لو كان يشحذ ذاكرته :

" لا يمكنني التفكير ان رجلاً انجليزيا يمكن ان يكون هذا الجاسوس . لم يكن هناك الكثير منا ... ويمكنني ان أقسم نيابة عنهم انهم لم يكونوا جواسيس " .

واعتقد باحتمال كون هذا الشخص عميلاً اكثر من كونه ضابطاً . فقد اشتركت (م آي ٦) والـ (ك ج ب) في العملاء كثيراً خلال المراحل الأخيرة من الحرب ، وكانت امكانية ان يكون عميلاً مزروعاً أمراً واضحاً . كان هناك اسم رجل يدعى (رودي هامبرغر) تنطبق عليه أوصاف هذا العميل تماماً . فبعد ان قامت (م آي ٦) بتجنيده ، ألقى الروس القبض عليه ثم أطلقوا سراحه قبل ان يعاد توظيفه ثانية في (م آي ٦) . وتطابقت التواريخ تماماً مع الوقت الذي كان فيه (فولكوف) يطلع على الملفات في (موسكو) ، وبدا واضحاً ان (هامبرغر) قد أدخل ببساطة الى السجن ، وأنيطت به مهمة اكتشاف ما يمكنه اكتشافه عن مسؤوليه البريطانيين (كان [رودي هامبرغر] الزوج الاول لـ [سونيا] التي كانت عميلة غير شرعية في سويسرا وانجلترا) .

وافترقنا أنا و (زيهنر) ونحن أصدقاء ، لكنني كنت أشعر بالمرارة من السهولة التي أطلقت بها التهمة ، وبالغضب من اولئك الذين تركوا مثل هذه التهمة في بطون الملفات طوال هذه السنوات قبل ان يتقبلوا الأمر ، ويقوموا بايجاد حل لها . وفيما كنت أقود سيارتي عائداً الى (لندن) أخذت أتساءل عن تكلفة حل " النهايات المفتوحة " وفكرت : هل كان من العدل أن أقوم بالكشف عن هذه الأمور مرة أخرى ؟ ربما كان من الافضل – بعد هذا كله – ان أتركها في الملفات دون حل ، ودون أي أزعاجات .

في عيد الميلاد ، أرسل لي (زيهنر) بطاقة تهنئة ودية ، ولم تمض سنوات عديدة حتى توفي ، فأرسلت اكليلاً من الورود ، متلهفا لاصلاح الامور ، غير انني لم أستطع أن أنسى تلك النظرة التي ارتسمت على وجهه حينما سألته إن كان جاسوساً . ففي تلك اللحظة ، تداعى مهد (اوكسفورد) المتمدن من حوله ، وعاد الى خلف الصفوف مرة ثانية محاطاً بالاعداء وحيداً ، ومخدوعاً .

وكان آخر اسم ذكره (ريز) لي هو (السّير ستيوارت هامبشاير) . كان (هامبشاير) محلل شيفرة لامع أثناء فترة الحرب في جهاز هيئة امن الاتصالات اللاسلكية ، وأحد أفراد فريق النخبة الذي قام بحل رموز شيفرة الاستخبارات الالمانية ، والذي وضع أسس نظام الصليب المزدوج . وبعد انتهاء الحرب ، شغل منصباً في وزارة الخارجية قبل ان يتفرغ لشغل منصب اكاديمي بارز كفيلسوف في (اوكسفورد) و (برينسيتون) . لم يكن لدى (ريز) أي دليل على التهمة التي وجهها الى (هامبشاير) عام ١٩٥١ ، بل انها كانت مبنية على أساس واحد تمثل في انه كان على علاقة وطيدة مع (بيرغس)

خلال سنوات الثلاثينات . وقد عرفت من خلال المقابلات التي قمت بها ان (هامبشاير) كان يعتبر من قبل معاصريه بانه يساري عنيد على الرغم من انه لم يكن شيوعيا . وقد اصبت بالدهشة نتيجة اكتشافي ان أحداً لم يزعج نفسه ويقوم بمقابلته للتحري عما كان يعرفه عن (غاي بيرغس) .

ومع هذا ، فقد كانت هناك تعقيدات غير طبيعية في قضية (هامبشاير) . فعلى الرغم من مرور فترة طويلة على تقاعده من العالم السري ، الا ان سكرتير رئاسة الوزارة (بيرك تريند) قام باستدعائه ليقوم بمراجعة رئيسية لمستقبل قيادة الاتصالات الحكومية ، وذلك فيما يتعلق بازدياد تكلفة (سيغينت) منذ ان انتقلت وكالة الامن القومي الى عصر الاقمار الصناعية . وكان الامريكيون يضغطون على قيادة الاتصالات الحكومية للمشاركة في تكاليف الاقمار الصناعية الخاصة بمجالات التجسس . فقد ووجهت حكومة حزب العمال البريطانية التي تولت آنذاك الحكم حديثاً بمجموعة من الفواتير السنوية التي تزيد قيمتها على (١٠٠) ميلون جنيه ، الأمر الذي دفع (هارولد ويلسون) الى اصدار تعليمات الى (تريند) للقيام باجراء مراجعة للتاكد إن كانت تلك التكاليف مبررة . وطلب (تريند) مشورة (ديك وايت) الذي اقترح ان يقوم (هامبشاير) بالعملية في ضوء عمله السابق مع هيئة أمن الاتصالات اللاسلكية . وحينما تصفحت ملف (هامبشاير) ذهلت لاكتشافي انه لم يتم اجراء أي تحقيق معه على الرغم من ادعاءات (ريز) . فقد كتب (ديك وايت) الذي كان يعرف (هامبشاير) لمدة طويلة ، كتب – ببساطة – رسالة الى (هوليس) وتم حفظها في الملف ، وكان ذلك هو كل ما في الأمر .

استمرت عملية استجواب (هامبشاير) معظم طيلة السنة ، وكان خلال تلك الفترة على اتصال وثيق مع قيادة الاتصالات الحكومية ، إضافة الى الزيارة التي قام بها الى وكالة الأمن القومي واستغرقت مدة ستة أسابيع . وظهر العديد من القضايا في تقرير (هامبشاير) كان أولها : هل كانت بريطانيا – على ضوء التكاليف المتنامية – قادرة على الالتزام بحصتها من الاتفاقية الامريكية – البريطانية والتي تضمن لنا الكثير من المعلومات المتبادلة مع الامريكيين ؟ وكانت القضية الثانية قضية آنية الى حد بعيد ، تمثلت فيما اذا كانت بريطانيا ستختار القيام باطلاق اقمار صناعية للتجسس بالاشتراك مع الامريكيين ، وكانت النقطة الثالثة تكمن في السؤال المطروح حول الى أي مـــدى يجب ان تدعـــم قيـــادة الاتصالات الحكـــومية نشاطـــات (المجموعة المضادة) . وكانـت الاجابات باختصار : نعم ، لا ، ونعم ، اذ لم يكن باستطاعتنا ان نخسر تبادل المعلومات الامريكية – البريطانية ، غيـر اننا مـــن جهـــة أخـــرى كان بامكاننـــا ان نبقى ملتـــزمين بالاتفـــاق دون أن نقـــوم – بالضرورة – بتمـــويل اي تطـــور تقني بالجنيهـــات مقابـــل الدولار . اما فيما يتعلق بـ (المجموعة المضادة) فقد وافق عليها (هامبشاير) بقوة ، و إن كان قد طلب ادخال تغيير رئيسي عليها تمثل في الغاء (رافتر) المحمول جواً على أساس أن هذا لم يكن ليقدم معلومات تعادل قيمة

تكاليفه . وقد اعترضت على هذا في ذلك الوقت ، غير انني ادركت فيما بعد أن رأيه معقول اذا نظرنا اليه من زاوية اقتصادية ، سيما وان سلاح الجو الملكي – على أي حال – أخذ يمتعض من الطلبات التي كنا نتقـدم بهـا اليه . وقضيت أنا و (هامبشاير) فترة طويلة من الزمن ونحن نناقش فيها علاقة (م آي ٥) مع قيادة الاتصالات الحكومية . وقد مارست عليه ضغوطاً شديدة ليقترح تأسيس جهاز أمـن اتصالات لاسلكية جديد ليكون منظمة مستقلة عن قيادة الاتصالات الحكومية وتتم مراقبته من قبل (م آي ٥) وتكون مسؤولة لوحدها عن تتبع أثر اتصالات الجواسيس المحليين الذين يستخدمون أجهزة الاتصال اللاسلكية . كنت أعتقد – بعد ان عـرفت خلفيته – انــه ســيرحب بمثل هذه الفكرة ، كما أخبرته انها الوسيلة التي يمكننا من خلالها تأمين التسهيلات التي نحتاجها . غير انه لم يوافق على ذلك ، ليس من حيث المبدأ ، وانما من الناحية العملية للموضوع . وقد استنتج – وربما كان على حق – ان مثل هذه المبادرة ستواجه مقاومة عنيفة الى أقصى الحدود من قبل قيادة الاتصالات الحكومية و (م آي ٦) على السواء ، ولذلك ، فمن المحتمل ان لا يكتب لها النجاح .

اما قضية اجراء مقابلة معه (هامبشاير) حول المزاعم التي أدلى بها (ريز) فقد كانت خارج نطاق البحث تماماً الى حين اكتمال المراجعة ، غير انني في عام ١٩٦٧ حصلت على موافقة ، وسافرت الـــى جامعة (برينسيتون) في الولايات المتحدة الامريكية حيث كان (هامبشاير) يعمل هناك كأستاذ زائر. كنت أعرف (برينسيتون) جيـداً ، اذ انـنــي كنت أزورها مراراً حينما كنت أعمل كعالم . امــا (رودي كومبفنر / الذي اخترع انبوب الموجات المنتقلة ويقصد به صمام الراديو المستخدم في أغلب وصلات الموجات الميكروويفية) فقد سرد لي أفضل وصف لمعماريتها العجيبة . وقد أسماها " المعمار القوطي – الكوتسوولدي الزائف " .

تحدثت مع (هامبشاير) بعض الوقت عن ذكرياته مع (غاي بيرغس) فاخبرني – وهو يعود بذاكرته الى تلك الفترة – انه هو نفسه ربما كان هدفاً لـ (بيرغس) لتجنيده الاّ انه لم يدرك ذلك في تلك الفترة . و روى لي كيف سافر هو و (أنثوني بلنت) الى (باريس) معاً عام ١٩٣٥ ، و كيف تناولا طعام العشاء ذات مساء مع (جيمس كلوغمان) ومع الفنان (بن نيكولسون) . وبعد العشاء أدار (كلوغمان) دفة حديث مطول تم من خلالها اختبار معتقدات (هامبشاير) السياسية .

بعد بضعة شهور ، دعاه (بيرغس) لتناول طعام العشاء معه على انفراد في شقته في ميدان (تشستر) . وقد شرب كلاهما كثيراً . وفي ساعات الصباح الباكر ، طرح (غاي) عليه فكرة العمل من أجل السلام ، وقال : ان العمل خطير ، ولكنه يستحق مواجهة الأخطار . وجرى حديث مطول عن الجو الثقافي الذي كان سائداً في تلك الاوقات ، وعن التهديد النازي ، والحاجة الى تبني الكثير جداً من الخط الماركسي في الدراسات الاكاديمية . لقد اعتقد (هامبشاير) حينذاك ان هذا الكلام كان مقدمة

للدعوة الى الانضمام الى جمعية حوار ذات ميول يسارية ، وكانت تحظى بشعبية في أوساط الشباب من مثقفي (اوكسبردج) ولكن دون أن يطرح عليه أي عرض محدد ، وقال (هامبشاير) :

" حينمـا أستـذكر الاحـداث الماضيـة ، يبدو لي - مـن المحتمل - ان (بيرغس) كان يحاول تجنيدي " .

حيـن عدت الـى بريطانيا ، قمت بالتأكد مـن هـذه القضية من (بلنت) ، حيـث تذكـر عشاء (كلوغمان) واكد بانه كان يقوم بعملية استطلاع ، غير انه لم يعرف شيئاً عما طرحه (بيرغس) على (هامبشاير) ولم يستطع تحديد فيما اذا كان هـذا العشاء قد حدث خلال عام ١٩٣٥ أو ١٩٣٧ . لقد كانت التواريخ مهمة ، ففي عام ١٩٣٥ كان كل من (بلنت) و (بيرغس) لا يزالان مجرد عضوين في الحزب ، ولكن مع حلول عام ١٩٣٧ كانا قد اصبحا جاسوسين ، ولذلك فان أي عملية تجنيد تمت حينـذاك فانها كانت لصالح الروس . وأرسلت واحداً من عناصري لمقابلة (بن نيكولسون) . ولحسن الحظ ، فانه كان يحتفظ بمذكرات كاملة عن كل سنة من سنوات العمل ، فكان باستطاعته ان يحدد دون أي شك ان طعام العشاء ذاك كان في الواقع عام ١٩٣٧ .

وذهبت لمقابلة (ديك وايت) وأعطيته أوراق (هامبشاير) حتى يقوم بقراءتها . وكان مما أثار حيرتي هو انه لماذا لم يقم (هامبشاير) ابداً باعلام (م آي ٥) عما جرى بينه وبين (غاي بيرغس) بعد هروب (بيرغس) عام ١٩٥١ ؟ . وقد أكد (ديك وايت) ان (هامبشاير) لم يذكر أمامه أبداً هذا الأمر . وذهبت لمقابلة (هامبشاير) للمرة الثانية حينما عاد الى (لندن) . كان مرتبكاً الى حد ما ، وأخبرني أن اتصال (بيرغس) معه كان مشوشاً حتى انه لم يكن قادراً على التأكد من أهميته . اما بالنسبة لـ (بلنت) فانه لم يخطر بباله على الاطلاق ان يربط بين وجود (بلنت) على العشاء مع اتصال (بيرغس) به لتجنيده ، ولأن (بلنت) كان على علاقة شخصية جيدة مع أناس مثل (ديك وايت) و (غاي ليدل) أثناء الحرب ، فانه افترض بانه جدير بالثقة على نحو تام . وعلى أي حال ، فانه لم يكن هو الوحيد الذي يريد انهاء هذا الفصل .

وقد كان كل من(ديك وايت) و (هوليس) على درجة كبيرة من الارتباك عندما تم الكشف عن ان الرجل الذي كانا قد اختاراه لاجراء اكبر مراجعة سرية للاشتراك في المعلومات الاستخباراتية الانكليزية - الامريكية كان نفسه هدفاً للتجنيد للعمل مع السوفييت . فقد كانا يعرفان ان اتخاذ ترتيبات لاجراء تحقيق مع (هامبشاير) سيكون - على أقل تقدير ممكن - أمراً غير مناسب ومرغوب به في أعين الامريكيين ، خاصة خلال وقت كانوا يجمعون فيه على ما يرونه اتصال " رابطة المدرسة القديمة " مع الاستخبارات البريطانية . ولم يكن باستطاعتهما تحمل ذلك ، فتم دفن قضية (هامبشاير) بعناية ودقة الى الأبد .

وكانت عملية تجنيد (هامبشاير) الفاشلة مهمة ايضاً كونها تلقي الضوء على دور (جيمس كلوغمان) في عمليات التجنيد التي قامت بها الاستخبارات السوفييتية خلال سنوات الثلاثينات . فقد كان من الواضح أنه كان أداة لترتيب العشاء الاستطلاعي في (باريس) . وقد أخبرنا (كيرنكروس) ايضاً ان (كلوغمان) هو الذي قام بتجنيده .

وحتى ذلك الوقت ، فان (م آي ٥) كانت تميل الى الافتراض بان (كلوغمان) كان مجرد عضو حزبي نشيط مكشوف ، وليس عميلاً سرياً يقوم بتجنيد العملاء ، ومراقباً موهوباً في مجال اكتشاف هؤلاء العملاء . وكان من الواضح ان باستطاعة (كلوغمان) اخبارنا عن الكثير مما جرى خلال سنوات الثلاثينات ، وذلك اذا قمنا باقناعه أو بالضغط عليه من أجل الاعتراف . وكنت أدرك ان (كلوغمان) لن يوافق على أي اتصال مباشر مع (م آي ٥) ولذلك ، فاننا عقدنا صفقة مع (كيرنكروس) تمثلت في انه اذا حضر الى بريطانيا وقام بمواجهة (كلوغمان) وأقنعه بمقابلة (م آي ٥) والاعتراف بكل شيء ، فاننا سنسمح له بالعودة الى البلاد ، وأن يقيم فيها بشكل دائم .

ووافق (كيرنكروس) بابتهاج على العرض الذي قدمناه له وقام بزيارة (كلوغمان) في (لندن) . كان (كلوغمان) قد أصبح مسناً ، ومحارباً قديماً في حزب الطبقات ، ومشغولاً في كتابة تاريخ الحزب الشيوعي كشهادة أخيرة على ما قام به من اعمال في حياته . ضحك حينما طلب (كيرنكروس) منه مقابلة (م آي ٥) وقام بطرده حينما هدده (كيرنكروس) بانه سيكشفه إن لم يفعل ذلك . وفشلت المحاولة فشلاً ذريعاً وأجبر (كيرنكروس) على العودة الى المنفى . بعد ذلك بفترة قصيرة ، أخذ (كلوغمان) أسراره معه الى القبر .

كان هناك أيضاً عدد من الحزبيين الآخرين الذين كانوا لا يزالون على اخلاصهم وولائهم ، فرفضوا الاتصال بنا ، في حين ان (بوب ستيوارت) و (إديث تودور هارت) وكانا متورطين كمراسلين في عصابة الخمسة بين عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ ، قاما بالاتصال معنا غير انهما رفضا الكلام . كانا جنديين متضبطين ، وقد قضيا وقتاً طويلاً في العمل حتى أصبح من المستحيل تحطيمهما . ونادراً ما يدرك الجمهور مدى ضعف وضع (م آي ٥) في عمليات الاستجواب مع مثل هذا النوع من الناس ، فنحن لا نستطيع اجبار الناس على الكلام معنا ، سيما وأن كل شيء نقوم به تقريباً ، انما يعتمد على التعاون الا اذا كان هناك أمر اعتقال على وشك أن يصدر . فعلى سبيل المثال ، أخبرنا (بلنت) انه يعرف جاسوسين آخرين ، وقد تمكن من اكتشاف أحدهما بعد أن قام هذا الرجل بالاتصال مع (ليو لونغ) لتجنيده في الوقت الذي كان فيه (بلنت) مسؤولاً عن (لونغ) . وتعقد الوضع اكثر بسبب حقيقة أن (بلنت) كانت له علاقة بذلك الشخص المسؤول عن التجنيد ، على الرغم من أن أحداً منهما لم يخبر الآخر عما يخطط له فيما يتعلق بـ (لونغ) . ان هذين

الرجلين (الجاسوسين) اللذين لا زالا على قيد الحياة ، ويعيشان في بريطانيا اليوم ، كانا يعملان في برنامج الفانتوم خلال فترة الحرب ، مع انهما تركا عملهما ذلك للعمل في المجال الاكاديمي . وعلى الرغم من المساعي العديدة ، فان أيا منهما لم يوافق على مقابلتي لبحث قضية تورطه مع الاستخبارات الروسية . وكانت الخطوة الايجابية الوحيدة التي قمنا بها هي تحذير رئيس شرطة على مستوى عال كان على علاقة صداقة مع أحدهما فتوقفت تلك العلاقة .



بيتر رايت مؤلف الكتاب بعد تقاعده، والى جانبه زوجته لويز



جيمس انغلتون الرئيس السابق لقسم التجسس المضاد في وكالة الاستخبارات المركزية



ج. إدغار هوفر المدير السابق لمكتب التحقيقات الفيدرالي. وقد التقطت له هذه الصورة عام ١٩٦٧.



السير روجر هوليس، المدير السابق لشعبة م آي ٥ والذي يزعم المؤلف بانه كان عميلاً سوفييتياً.



السير انتوني بلنت: ضابط في (م آي ٥) خلال فترة الحرب، ومؤرخ، والقيّم على صور الملكة. ظهر لأول مرة امام الرأي العام بعد افتضاح امره عام ١٩٧٩ كجاسوس يعمل لصالح الروس.



دونـالد مـاكلين، دبلوماسي بـريطاني، وقـد هرب الى مـوسكو مـع بيرغس عـام ١٩٥١. التقطت لـه هذه الصورة مع ابنه عام ١٩٤٧.



غاي فرانسيس بيرغس، ضابط تنفيذي سابق في وزارة الخارجية البريطانية، وقد هرب مع دونـالد مـاكلين عام ١٩٥١.



هارولد (كيم) فيلبي. كان دبلوماسياً بريطانيا رفيع المستوى، ومن كبار ضباط الاستخبارات البريطانية قبل هروبه الى روسيا عام ١٩٦٣. وقد التقطت له هذه الصورة عام ١٩٥٥.

١٧

بعد مرور سنة على لقاءاتي المستمرة مع (بلنت) ظهر اتجاه واضح . لقد كنت قادراً على استخراج المعلومات منه بصعوبة مُعذِّبة ، كان اكثرها حديث وسادة جمعه من (غاي بيرغس) . وقد ادعـى انه تم اتصال بكاتب في صحيفة " التايمز " أقتفيت أثره ، فأكـد لـي أن (بيرغس) حاول تجنيده ، غير انه رفض ذلك متخوفاً من عواقب الامساك به . وحدد (بلنت) اتصالاً آخر جرى مع (توم ويلي) وكان يعمل كاتبا في وزارة الدفاع ، وهو متوف منذ زمن طويل . وقـد قـال (بلنت) أن (ويلي) اعتاد على السماح لـ (بيرغس) بالاطلاع على أي شيء يقع بين يديه . وعلـى الرغـم من أن (بلنت) وتحت الضغوط كان يدلي بالمزيد من المعلومات ، الاّ ان هذه المعلومات كانت تدور دائماً حول أشخاص إما أنهم كانوا في عداد الموتى ، أو تقاعدوا منذ مدة طويلة ، أو انهم أشخاص ليست لديهم أي معلومات سرية ، ولا يتعرضون لمخاطر اعترافاته .

وكنت أعرف ان (بلنت) يجب ان يكون عارفاً بأناس آخرين لم يتقاعدوا بعد ، ولديهم امكانية الوصول الى المعلومات ، وهؤلاء هم الاشخاص الذين كان يعمل على حمايتهم . ولكن كيف يمكنني ان أحدد هوياتهم ؟ وقررت وضع قوائم باسماء كل اولئك الاشخاص الذين ورد ذكرهم خلال المقابلات التي أجريتها ، وتم وصفهـم بأنهم ذوو ميول يسارية قبل الحرب ، او أولئك الذين شعر الاشخاص الذين اجريت المقابلات معهم انهم كانوا – على نحو محتمل – أهدافاً لاتصال (غاي بيرغس) بهم لتجنيدهم .

برز اسـم واحد من بين كل الأسماء الأخرى : (أليستر ووتسون) . فقد ذكر هذا الأسم كل من

(برلين) والكاتب (آرثر مارشال) وكذلك (تيس روتشيلد) . وقد أجمع كل هؤلاء على ان (ووتسون) كان ماركسيا متحمساً في (كامبردج) خلال سنوات الثلاثينات وعضواً في (جمعية الرسل) وصديقا حميما لكل من (بيرغس) و (بلنت) . وكما يستذكرون ، فان (بيرغس) كان شديد الاعجاب به خلال سنوات الثلاثينات ، وهذه اشارة تدل على احتمال ان يكون قد تم الاتصال معه .

بدأت القيام بتحريات عن خلفيته . لقد كنت أعرفه تماماً من خلال الحرب ، اذ كان يعمل في تلك الفترة عالما في مختبر بحوث الادميرالية ، وعاش - فعلا - مع شقيقي في (بريستول) مدة سنتين . في تلك الفترة لم اكن مهتما على الاطلاق بـ (ووتسون) . كان طويلاً ، ونحيلاً ، ذا وجه ذاوٍ يشبه وجه العنزة ، ويمشي مشية غريبة متصنعة على رؤوس أصابعه ، وكان يعتبر نفسه أحد المنظرين الفيزيائيين العظام في زمانه على الرغم من أن معظم زملائه كانوا يعتقدون ان مقدرته على التطبيق العملي كانت هزيلة . ولذلك ، فانه ارتكب العديد من الاخطاء الفادحة في المجال النظري . اما أنا فقد كنت أراه محتالاً الى حد ما .

كان (ووتسون) فاشلاً . وفي (كامبردج) كان ينظر اليه على انه طالب لامع ، ومن المقدر له ان يصل الى أعلى درجات الشرف الاكاديمية ، الى ان تم اكتشاف ان اطروحته تحتوي على جملة من الأخطاء الأساسية . وفشل في الحصول على منحة ، ثم عمل في الادميرالية البحرية عوضاً عن ذلك . وبعد أن عمل في المؤسسة البحرية للرادار والاشارات ، أصبح رئيس قسم بحوث انظمة الاكتشاف المضادة للغواصات في مختبر بحوث الادميرالية ، والتي كانت تعتبر واحدة من اكثر المهن سرية وأهمية في مؤسسة الدفاع التابعة لحلف شمال الاطلسي (الناتو) غير انها كانت وظيفة مغمورة خصوصاً بالنسبة الى شخص بشّر بعطاء كبير في شبابه .

وفي (كامبردج) كان (ووتسون) ماركسيا متحمساً ، ووصفه الكثير ممن أجريت معهم مقابلات بأنه كان " القسيس الاكبر " للنظرية الماركسية بين أوساط (الرُسل) . فللماركسية منطق جميل ، وجواب شامل لأي سؤال ، الأمر الذي سحره . وانجذب الى (رأس المال) كما انجذب الآخرون الى الانجيل ، فأخذ ينشر العقيدة الماركسية بين أصدقائه كقسيس فاشل ، وخاصة حينما بدأت آماله بالتلاشي فيما يتعلق بحصوله على عمل أكاديمي . وقد أقر (بلنت) فيما بعد ان (ووتسون) كان معلمه في الماركسية .

حين قمت بدراسة ملفه ، صدمت بحقيقة رحيله عن (كامبردج) التي بدت شديدة الغرابة ، اذ انها كانت متزامنة مع وقت (معاهدة ميونخ) حين بلغ السخط الراديكالي من المؤسسة الحكومية ذروته . وكان انتقال (بيرغس) و (فيلبي) الى اليمين في نفس الفترة . وكانت هناك نقطة أخرى ذات

أهميـة ، اذ أن (فيكتور روتشيلد) كتـب رسالة الى (ديك وايت) عام ١٩٥١ طالبه فيها ان يتم اجراء تحقيق مـع (ووتسون) بسبب ميوله الشيوعية خلال سنوات الثلاثينات . ولـم تتم متابعة اقتراح (فيكتور) على نحو لا يمكن تفسيره . ومنذ تلك الفترة ، تم التحقيق مع (ووتسون) مالا يقل عن ثلاث مرات متتابعة ، ودون اي اشارة الى خلفيته السياسية .

وقررت القيام بمحاولة لطرح اسم (ووتسون) على مسامع (بلنت) خلال اجتماعنا التالي . كنت أعرف ان طرح الموضوع مباشرة سيكون مضيعة للوقت ، ولذلك فانني قمت باعداد قائمة بأسماء أعضاء (جمعية الرسل) المعروفين بمن فيهم (ووتسون) وطلبت اليه ان يشير الى اولئك الذين كان يعرفهم ، أو الذين يشعر انهم مثار اهتمامي . واستعرض الاسماء المذكورة في القائمة ، ولم يأت على ذكر (ووتسون) .

وأخيراً سألته :

" وماذا عن (أليستر) ؟ " .

فقال (بلنت) بشكل حازم :

" لا ، لا علاقة له بالموضوع " .

وحان الوقت لمجابهة (بلنت) فقلت له انه كان يكذب ثانية ، وانه كان يعرف – كما كنت أنا أعرف – ان (ووتسون) كان صديقاً حميماً وزميلاً شيوعياً في (كامبردج) . وبدأت التقلصات العضلية اللاارادية تظهر على وجهه من جديد . واعترف قائلاً : نعم ، لقد كان ذلك صحيحاً ، كانا صديقين ، ولا يزالان يريا بعضهما بانتظام أثناء تناول وجبات عشاء الرسل وما شابه ذلك ، غير انه لم يقم بتجنيده ، كما ان (بيرغس) لم يجنده أيضاً حسب معرفته .

وأضـاف ، ان (أليستر) شخص مأساوي ، اذ ان حياته سارت بشكل خاطيء على نحو رهيب . لقد كان رجلاً يبشّر بالكثير من العطاء ، غير انه لم يحقق الاّ القليل جداً ، في حين ان اصدقاءه الذين لم يتخرجوا ، مثل (بلنت) نفسه و (تورينغ) قد بلغوا مراتب عالية ، ووصلوا الى مرتبة الخلود كما هو الأمر بالنسبة الى (تورينغ) .

وقال لي (بلنت) :

" لقد تعلمت النظرية الماركسية عند قدمي (أليستر) " .

وسألته :

" أعتقد انك تعرف أين يعمل " . فقال :

" في الادميرالية ، أليس كذلك ؟ " . فقلت :

" لقـد قلت لي انه ليس لديك أي معلومات أخرى يا (أنثوني) . لقد أخبرتني انك كنت تقول

لي الحقيقة ... " .

وأخذ (بلنت) يسّعر النار بعنف ، ثم قال بعد وهلة :

" لا أستطيع أن أكون (ويتاكر تشامبرز) " مشيراً الى الشيوعي الامريكي المشهور الذي استنكر عقيدته خلال سنوات الخمسينات ، وذكر أسماء زملائه السابقين بما فيهم (ألجير هيس) وذلك خلال جلسات علنية مثيرة أمام لجان الكونغرس . وتابع قائلاً :

" ان هذه هي المكارثية بعينها : ذكر الأسماء ، والابلاغ عن الناس ، ومطاردة الساحرات .. " .

فقلت :

" ولكن يا (أنثوني) هذا هو وضعك الآن ، ولذلك السبب منحناك الحصانة . لقد كان ذلك محض اختيارك ، وليس من المجدي ان تضع غطاء على رأسك ، فإن لم تشر باصبعك ..... " .

وصمت (بلنت) .. لقد مرت سنوات عديدة منذ عام ١٩٣٧ ، غير ان وطأة تلك السنوات لا زالت ثقيلة . وأخيراً ، قال :

" اظن انك ستوجه الانظار اليه " .

وكتبت تقريراً مطولاً في مطلع عام ١٩٥٦ ، وأوصيت من خلاله بضرورة اجراء تحقيق عاجل . وقدمت التقرير الى (هوليس) والى (فيرنفال جونز) عن طريق (أليك ماك دونالد) رئيس (الفرع د) الذي حل مكان (كمنغ) الذي تقاعد ، بعد أن أدرك في النهاية انه لن يصل الى منصب نائب المدير . كان (ماك دونالد) شرطيا هنديا سابقاً وحساساً ، متذوقاً للمأكولات الحائزة على جائزة الطهي ولكل أمور الحياة الطيبة الأخرى ، كارهاً للادارة المفرطة . كانت صحبته لطيفة غير ان العمل معه كان مثيراً للاعصاب .

ولم يحدث أي شيء خلال خمسة شهور ، وأخيراً ، وحينما حضرت اجتماع المراجعة السنوي لقسمي (د ٣) بحضور (هوليس) و (فيرنفال جونز) أثرت الموضوع . وسألت : لِمَ لم تتم الموافقة علـى اجراء تحقيق ؟ في البداية ، كـان هنـاك الكثير من الحديث عـن الأولويات ، وعـن المصادر المحدودة . وذكرتهما ان أساسيات عمل (د ٣) تتمثل في تقديم الدلائل الأساسية التي سيستخدمها (د ١ / التحقيقات) اذا كانت تلك الدلائل قوية بما فيه الكفاية لتضمن له هذا الاتجاه . وها هنا دليل قوي عن مشبوه يتمتع الآن بميزة الوصول الى أسرار (الناتو) . وأضفت قائلاً : انه اذا كانت الاجراءات ستسير على هذا النحو ، فانه يمكنهما اغلاق (د ٣) كلياً .

كان مـوقف (فيرنفال جونز) معقـولاً ، وكان (هوليس) فظاً ، واتخذ موقفاً دفاعياً ، وقد وقعـت الخطيئة ضمـن مستـوى (الفرع د) اذ ان القضيـة لم تحـظ بالأولـوية التي تستحقها - بطـريقة أو بأخرى - خلال فترة الفوضى والارتباك التي رافقت عملية تسليم الفرع من (كمنغ) الى

(ماك دونالد) . وأصدر (هوليس) تعلمياته ، وعندها بدأت القضية تنشط من جديد .

وتولى القضية (باتريك ستيوارت) من (د ١ / التحقيقات) . كان صديقاً عزيزاً ، وضابطا لامعاً ، ويتمتع بعقلية صافية غير معقدة ، اضافة الى كونه يتمتع بشجاعة شخصية عظيمة . كان قد أصيب بالكساح أثناء فترة الحرب ، غير انه واصل العمل في (م آي ٥) بالرغم من استخدامه للكرسي المتحرك الى ان اضطرته ظروفه الصحية الى التقاعد في سن مبكرة . تم وضع (ووتسون) تحت رقابة كاملة ، وسرعان ما تبين لنا ان كلاً من زوجته وابنته كانتا شيوعيتين في ذلك الوقت ، ومن خلال مجرى أحاديثه ، اكتشفنا بان (ووتسون) كان هو الآخر شيوعياً على الرغم من انه صرح انه لم يكن كذلك خلال التحقيقات التي اجريناها معه .

ومع ذلك ، فقد كان التحقيق محدوداً . وكان (ووتسون) على وشك القيام بزيارة مقررة الى الولايات المتحدة الامريكية للاطلاع على أحدث تقنيات انظمة الاكتشاف المضادة للغواصات التي انتجت هناك ، وقد أصرت الادميرالية على ان يتم الوصول الى قرار بشأن هذه القضية قبل سفره . واتخذنا قراراً بالقيام باستجوابه . وعلى مدار ستة أسابيع كان (ووتسون) يحضر كل يوم الى وزارة الدفاع حيث يتم استجوابه من قبل كبير محققي (م آي ٥) وهو (سيسيل شيب) الذي يشغل حالياً منصب نائب المدير العام .

بدأ (ووتسون) بالتصرف مثل موظف مدني رفيع المستوى لحقت به إهانة ما .

بأي حق نقوم باستجوابه ؟ يريد أن يعرف . غير ان هذا التصرف سرعان ما تلاشى حينما بدأ (شيب) قصته معه : .

– " هل يعرف (غاي بيرغس) ؟ "

– " بالطبع "

– " هل زار منزل (غاي بيرغس) ذات يوم ؟ "

– " نعم ، في بعض المناسبات "

– " مَن هم الذين التقى بهم هناك ؟ "

– " (غاي) و (أنثوني) ... "

– " هل هناك أحد آخر ؟ "

– " نعم ، شخص أجنبي ، انه لا يستطيع تذكر اسمه ... "

– " هل بامكانه وصف ذلك الشخص ؟ "

– " في البداية لم يتمكن . ثم استطاع ذلك فيما بعد . انه من اوروبا الوسطى . شعره داكن اللون ، أملس كما يعتقد " .

وبدا كأنه يشبه " أوتو" المشرف على عصابة الخمسة خلال أواخر سنوات الثلاثينات .

ثم سأله (شيب) :

" هل يعني اسم " أوتو" شيئاً بالنسبة لك ؟ " فأجاب (ووتسون) بحماس كلي :

" نعم ، كان ذلك هو اسم الرجل . ذلك صحيح (أوتو) ... " .

ولوهلة من الزمن ، واصل (شيب) عملية الاستجواب فيما يتعلق بمجالات اخرى غير انه عاد بعد ذلك الى " أوتو " . هل تقابل (ووتسون) معه مرة ثانية ؟ في البداية لم يتمكن (ووتسون) من استذكار ذلك ، ثم اعتقد انه ربما التقى به غير انه لا يستطيع ان يتذكر أي تفاصيل . وبعدها تذكر انهما اعتادا أن يلتقيا في الحدائق ، وتحت أعمدة الكهرباء عند زوايا الشارع ، وفي محطات قطارات الانفاق (المترو) . وسأل (شيب) :

– " هل قام باعطائك أي شيء ؟ "

– " لا ، وأنا متأكد من ذلك "

– " هل أعطيته أي شيء ؟ "

– " لا ، لا أعتقد ذلك " .

– " أخبرني يا سيد (ووتسون) لماذا كنت تلتقي به على تلك الطريقة ؟ لماذا لم تتم اللقاءات في منزلك أوفي مطعم ؟ " .

لا جواب .

صمت طويل ، طويل .

ثم قال بوهن :

" كنت مهتما باولئك الناس ... كنت أريد معرفة المزيد عن روسيا " .

وردّد (شيب) بسخرية محطّمة :

" كنت مهتماً بأولئك الناس ..." .

وفي اليوم التالي عرض (شيب) على (ووتسون) ثلاثين صورة فوتوغرافية كانت مفرودة على شكل مروحة فوق الطاولة الموجودة أمامه . كانت تحتوي على صور بعض أهم ضباط الـ (ك ج ب) الذين كانوا موجودين في بريطانيا منذ عام ١٩٤٥ . وسأله (شيب) :

" هل تعرف أيا من هؤلاء ؟ " .

حدق (ووتسون) في الصور ولمس باصبعه واحدة أو اثنتين بتردد . كان يتمتم مع نفسه بينما كان يفرزها ثم أعادها ، وجمعها في رزم ، ثم أعاد فردها ثانية ، وكانت كل كلمة من كلماته يتم التقاطها بواسطة ميكروفونات مخفية . ومن خلال اجاباته المتعلقة بـ " أوتو " كنا متأكدين ان (ووتسون)

كـان متخـوفاً أو مشتبهـا باننـا نمتلك دلائل ضـده ، ربمـا صـورة مراقبة له وهو يلتقي ضابط (ك ج ب) أو اعتـراف يشير اليه . وفي الليل حينما عاد الى منزله تمكنا من سماعه وهو يغمغم هناك ، وذلك من خلال نظام التسهيلات الخاصة الذي كنا قد زرعناه على هاتفه :

" لديهم شيء ما ... لديهم شيء ما ، ولكنني لا أعرف ما هو " .

بعد مرور بضع ساعات ، تمكن (ووتسون) من استخراج ثلاث صور فوتوغرافية . كانت الاولى صورة (يوري مودين / المشرف على فيلبي) والثانية هي صورة (سيرجي كوندراشيف المشرف على جورج بليك) والثالثة هي صورة (نيكولاي كاربيكوف / المشرف على فاسال) . واعترف (ووتسون) انه كان يلتقي بثلاثتهم بشكل منتظم ، وأحياناً بالقرب من مختبر بحوث الادميرالية في (تيدينغتون) خلال ساعات فترة الغذاء ، غير انه نفى ان يكون قد سلمهم أي أسرار . لقد أفاد (غوليتسين) انه كان يعرف انه يـوجد لدى (كاربيكوف) جاسوسان في سلاح البحرية ، أحدهما عالم بحري ، كما ان (كوندراشيف) كان لديه هو الآخر جاسوسان كان أحدهما (بليك) والآخر جاسوس في سلاح البحرية .

وانفعل (شيب) . هل يتوقـع منا حقاً ان نصدقه بأنه كان يقابل أربعة مشرفين من جهاز الـ (ك ج ب) لمجـرد الصدفة فقط ، وبدون أي سبب ؟ هل يعتقد اننا أغبياء ؟ سذَّج ؟ كان ذلك كله سراً ، أليس كذلك ؟ لقد كانت لقاءاته لقاءات سرية ، أليس كذلك ؟ كان جاسوساً ، ألم يكن كذلك ؟ كل الدلائل تشير الـى ذلك : صداقته مع (بيرغس) وماركسيته خلال سنوات الثلاثينات ، وشيوعيته الخفية ، والالتحاق بالعالم السري ، ولقاءاته مع الروس ، ألم تكن كلها تشير الى ذلك ؟ لقد حان وقت الاعتراف .

وتابع (شيب) مطاردته يومـاً إثر يوم : لنأخذ القصـة من بدايتها مرة ثانية – هكذا يقول (شيب) – وسيردد (ووتسون) نفس القصة التي لا تصدق . ان مـا يـدل على المحقق الجيد هو ذاكرته ، و (شيب) يتمتع بذاكرة كهذه ، مثل الفيل . لقد اختزنت ذاكرته كل الاختلافات ، وكل الاسقاطـات التي كانت ترد في رواية (ووتسون) ثم كـان يعمل على قذفها في وجهه بعد مرور ساعات ، وأحياناً بعد أيام . وتمسك (ووتسون) بروايته غير انه لم يتغاضَ عن أي شيء أبداً . كانت شفتا (ووتسون) ترتعشان ، وعلا الأحمرار وجهه ، وسال العرق عليه ، غير انه – مثل الملاكم المترنح من وقع ضربات خصمه – رفض الاستسلام .

بعد مرور ستة اسابيع علىُ عملية الاستجواب اليومية بدأ (ووتسون) يضعف على نحو واضح . كان يحضر الى جلسات التحقيق وقد خدّرته المهدِّئات التي تناولها ، متنقلاً بشرود ، وبدون هدف في الكلام ، لا يكاد يعي الاسئلة التي كانت تطرح عليه . وبدأ (سيسيل شيب) في غمرة من اليأس بطرح

موضوع الحصانة . فحتى ذلك الوقت لم نكن قد حصلنا على تصريح من النائب العام ، ولذلك ، فان (شيب) طرح موضوع الحصانة عليه كفرضية :

" اذا منحناك الحصانة ، هل سيغير هذا الأمر شيئاً من إفادتك ؟ " .

غير ان (ووتسون) كان قد ذهب بعيداً ، اذ بدا عليه انه لم يستطع حتى فهم العرض الذي تقدمنا به اليه ، وتم تأجيل التحقيق .

ولن يخفى على أي شخص سمع عمليات الاستجواب ، وقرأ نصوص التسجيلات بان (ووتسون) كان جاسوساً ، ومن المحتمل ، ان يكون كذلك منذ عام ١٩٣٨ . ومن وجهة نظري ، فان حصوله على حرية الوصول الى بحوث انظمة الاكتشاف المضادة للغواصات ربما جعلته من اكثر جواسيس (كامبردج) اضراراً بالبلاد . كان هناك ثمة تفصيل واحد عمل على حسم القضية على نحو خاص . فقد روى (ووتسون) قصة طويلة عن (كوندراشيف) . لقد قام بمقابلته غير انه لم يهتم به ، ووصف لنا (كوندراشيف) بشكل مفصل جداً اذ ان (ووتسون) ادعى ان (كوندراشيف) كان برجوازياً ، وكان يرتدي بنطلوناً من الفلانيلة * وسترة فضفاضة زرقاء اللون ، ويمشي مشية كلب البودل . وحدث بينهما شجار ، وانقطعا عن مقابلة بعضهما البعض .

وقد تطابق هذا الأمر تماماً مع إحدى حلقات (غوليتسين) الأولى ، اذ قال إن (كوندراشيف) قد أرسل الى بريطانيا لادارة جاسوسين مهمين غاية الأهمية ، أحدهما يعمل في سلاح البحرية ، والثاني في (م آي ٦) . وبالتأكيد ، فان جاسوس (م آي ٦) كان هو (جورج بليك) وافترضنا دائماً ان جاسوس سلاح البحرية هو (بليك) ايضاً لأنه كان يعمل هناك قبل انضمامه الى (م آي ٦) . وكان في حلقات (غوليتسين) شيء أخر ، اذ انه قال ان (كوندراشيف) تشاجر مع جاسوس سلاح البحرية ، لان الجاسوس اعترض على عاداته البرجوازية ، ورفض مقابلته . واستذكر (غوليتسين) انه نتيجة لذلك ، فان مقيم الـ (ك ج ب) السابق في (لندن) ، وهو (كوروفين) أجبر على العودة الى (لندن) ، ليحل محل (كوندراشيف) كمشرف على جاسوس سلاح البحرية ، والذي كان من الواضح انه (ووتسون) .

وبناء على اصرار (م آي ٥) تم نقل (ووتسون) في تلك الليلة من منصبه الذي يتيح له الاطلاع على الأسرار الى معهد رسومات المحيط ، حيث بقي يعمل هناك حتى تمت احالته على التقاعد . ونتيجة لعدم اعترافه ، اعتمدنا – لتبرير تصرفنا هذا قانونياً – على عدم اشارته الى خلفيته الشيوعية ، ولا الى انتماء زوجته وابنته في نماذج الاستقصاء التي قدمها عن نفسه . ولم يعترض على ذلك .

---

* الفلانيلة : نسيج صوفي ناعم ورقيق (المترجم)

بعد عمليات التحقيق التي تمت مع (ووتسون) قررت القيام بمحاولة أخرى لاختراقه فاتخذت اجراءات لترتيب مقابلة له مع (بلنت) في منطقة محايدة هي (فندق براون) في (لندن) . وكان هناك سببان لذلك ، أولهما : انني لم اكن متأكداً على الاطلاق من ان (ووتسون) قد فهم معنى الحصانة التي عرضناها عليه ، فأردت أن يوضحها (بلنت) له . والأمر الثاني : انني أردت حسم موضوع فيما اذا كان (ووتسون) عضواً في عصابة الخمسة أم لا ، وذلك اذا كان هذا الأمر ممكناً . لقد قال (غوليتسين) ان أعضاء العصابة كان يعرف كل واحد منهم الآخر ، وكان الجميع يعرفون أنهم جواسيس . وبقدر ما كان الأمر مهماً بالنسبة لـ (بلنت) فانه ادعى ان العصابة كانت مكونة من اربعة أعضاء فقط : (بيرغس) و(فيلبي) و (ماكلين) و(بلنت) نفسه اضافة الى مجندين آخرين أمثال (كيرنكروس) و (لونغ) اللذين كانا يعملان بشكل مستقل عن الشبكة المركزية .

وبدا (ووتسون) على انه أفضل من يشغل المركز الخامس في هذه الشبكة .

في البداية ، تردد (بلنت) كثيراً في القيام بهذه الخطة ، اذ انه توسّل اليّ حينما أثرت الموضوع معه في البداية ، وقال :

" لقد عانى (أليستر) بما فيه الكفاية " .

كنت قد قمت بترتيب لقاءات بين (بلنت) و متآمرين سابقين في عدة مناسبات . اما اللقاءات التي عقدت مع (لونغ) و (سترايت) فقد كانت مقابلات لطيفة ، وقد أخبر (بلنت) الجاسوس (سترايت) بأن كشفه له كان أفضل ما قام به . ولكن ، حينما اقترحت عليه ان يتصل مع (بارون زو بوتليتز) جاسوس (كلوب اوستينوف) أثناء فترة الحرب – وكان قد عاد الى المانيا الشرقية – ثار على نحو واضح . كان (زو بوتليتز) و (بلنت) عاشقين خلال فترة الحرب ، وذلك بعد ان قام (كلوب استينوف) باجلاء (زو بوتليتز) من هولندا ، واعادته الى بريطانيا .

وقد اصطحب (بلنت) في عام ١٩٤٥ (زو بوتليتز) الى المانيا الشرقية ، وبقيا على اتصال مع بعضهما منذ ذلك الوقت . وكان (زو بوتليتز) يعمل هو الآخر لصالح الروس قبل الحرب وبعدها من أجل تسهيل عودته الى الشرق ، وكنت مهتماً لمعرفة فيما اذا كان باستطاعته العودة الينا ثانية . طلبت من (بلنت) ان يكتب له رسالة يسأله فيها فيما اذا كان على استعداد لمقابلتي في (برلين) أو في (هلسنكي) . غير ان (بلنت) قال لي :

" ليس هذا الأمر عدلاً يا (بيتر) انه عمل قذر ، لقد قام بما فيه الكفاية من اجل هذه البلاد " .

لكن (بلنت) كان يعرف انه ليس باستطاعته أن يرفض ، فكتب الرسالة ، على الرغم من أن (زو بوتليتز) رفض عرضي ، الأمر الذي أثار ارتياح (بلنت) .

كان (ووتسون) مثل (زو بوتليتز) فهناك شيء يتعلق بمعرفة العلاقة بينهما ، الأمر الذي كان

يثير قلق (بلنت) بشكل عميق ، بعكس ما كان عليه الأمر مع (لونغ) أو (سترايت) أو الآخرين . فقد كانت هناك رغبة عميقة كامنة لحمايتهم ، وبأن ينكر علينا أي معرفة لنشاطاتهم ، اضافة الى وجود رغبة في اخفاء اعترافه . كما كان يخشى ان يظهر امامهم على انه الواشي بهم .

اصطحبت (بلنت) ذات مساء من (كورتوالد) وتوجهنا بالسيارة الى (فندق براون) حيث كان (باتريك ستيوارت) قد قام بحجز غرفة لنا جميعاً . كان هو و (ووتسون) بانتظارنا ، اما (بلنت) فقد كان يشعر بالقلق الشديد . قال لي حين وصلنا الى الفندق :

" آمل ان يكون لديك شيء ما لنشربه " .

حيا (ووتسون) و (بلنت) بعضهما بعصبية ، و هما متخوفان من أن تبدو أي حرارة في لقائهما امامي أو أمام (باتريك) . كان (ووتسون) ضعيفاً كشخص قد خرج من المستشفى لتوه . وأخيراً قمنا بملاطفته والتملق اليه ليخبرنا ثانية بقصة تعامله مع الروس . كانت القصة محزنة في غرفة التحقيق ، لكنها بدت اكثر سخافة هنا أمام (بلنت) .

تحدثا كلاهما معظم الوقت عن (كامبردج) وعن (أوتو) وعن الانتقال الى اليسار خلال سنـــوات الثلاثينات ، وقد صدمتني الطريقة التي انتهت اليها الآن مثالية وفعالية * سنوات الثلاثينات في جناح صغير في فندق ، مع وجود زجاجة من الويسكي و أخرى من (الجِن) . كانا يريدان تغيير العالم ، ولكنهما انتهيا الى تغيير نفسيهما .

قال (بلنت) :

" لقد انتهيت يا (أليستر) من هذا الآن ... " .

وتابع مردداً :

" لقد اعترفت ... ولا أزال هنا ... ليس هناك ما تخشى منه " .

غير ان (ووتسون) كان يصغي الى توسلات (بلنت) بشق النفس ، وكانا يتكلمان بهدفين متباعدين . كان (ووتسون) يشعر بالغيرة من (بلنت) الى حد كبير ، وكان من الواضح انه كان يغار منه لمدة ثلاثين سنة . وقد وصلت هذه الغيرة الى درجة واضحة من خلال هجوم مخمور ضد صديقه . كانت الخيانة – بالنسبة له – تبدو وكأنها قضية ثانوية . كان مهتماً الى حد بعيد بالحديث عن النقطة الخطأ التي بدأت منها مسيرة حياته التي انتهت الى ما هي عليه من فشل .

قال (ووتسون) موجها كلامه الى (بلنت) والدموع تترقرق في عينيه :

" لقـــد نجحـــت انت يا (أنثوني) نجاحاً عظيماً ، ومع هذا فأنا الذي كنت محط الأمل الكبير

---

* مـــذهب الفعاليـــة : مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الاجراءات الفعالة أو العنيفة (كاستعمال القوة لتحقيق الاغراض السياسية) (المترجم)

في (كامبردج) . كانت (كامبردج) كل حياتي ... ولكن كان عليّ ان اتجه الى العمل السري ، وها هو قد حطم حياتي الآن " .

ترك (بلنت) الطاولة ، وهو يشعر بالارباك والانزعاج . اتجه نحو خزانة الشراب المرجودة في الجانب الآخر من الغرفة . كان قد شرب نحو زجاجة كاملة من (الجِن) غير انه لا يزال بحاجة الى المزيد ... واتجهت نحوه ، وسألت :

" حسناً ... ؟ " .

توقف (بلنت) وقد تهدلت كتفاه من التوتر . قال ، وقد ومضت عيناه من الانفعال :

" أعتقد انك على حق ، أعتقد بانه لا بد أن يكون واحداً منا ، لكن لم أقم بتجنيده كما أن (غاي) لم يخبرني انه جنّده " .

لم يبق هناك المزيد من (الجِن) فصب (بلنت) لنفسه كأساً مترعاً من " الشَّري / خمرة اسبانية الاصل " وأضاف ماء الصودا ، وازدرده دفعة واحدة .

قال :

" افكر أحياناً بأنه من الأسهل دخول السجن " .

كان (فيكتور) و (تيس روتشيلد) عوناً دائماً للتحقيقات التي قام بها (د ٣) حول سنوات الثلاثينات ، اذ انهما قد عرفا الكثير جداً عن الشخصيات والعلاقات الخفية لتلك الفترة ، وغالباً ما كانا قادرين على اقناع أفراد عصابة الخمسة بمقابلتي ، والذين كانوا يرفضون ذلك حينما كان يحاول الآخرون اقناعهم . كما ان (فيكتور) كان قادراً على تقديم كمية لا بأس بها من المعلومات المهمة إليّ . فعلى سبيل المثال ، كانت إحدى المسائل التي تراود خاطري باستمرار بعد قضية (ووتسون) تتمثل في السؤال الذي يدور حول الى أي مدى كان علماء آخرون ، اضافة الى (ووتسون) اهدافاً لعمليات التجنيد . كان كل من (بيرغس) و (بلنت) و (فيلبي) و (ماكلين) ذوي ثقافة وتعليم كلاسيين ، غير انني كنت أتساءل فيما اذا كانت هناك شبكات قد تم تجنيدها – على سبيل المثال – في مختبر (كافيندش) التابع لجامعة (كامبردج) والذي يحظى بشهرة عالمية .

وحامت شكوكي حول العالم السوفييتي الشهير (بيتر كابيتزا) الذي يعرف بلقب (ابو القنبلة الذرية الروسية) . لقد حضر (كابيتزا) الى (كامبردج) خلال سنوات العشرينات على نفقة الجمعية الملكية البريطانية حيث قام ببناء مختبر حرارة قانون موند الملحق بمختبر (كافيندش) . وقد بقي (كابيتزا) على صلة وثيقة بالحكومة السوفييتية ، وخلال مناسبات عديدة لوحظ انه يستقبل ضباطا من الاستخبارات الروسية في غرفه . وخلال سنوات الثلاثينات – وقد تنبهتُ الى ازدياد حدة التوتر الدولي – أصرت الحكومة السوفييتية على عودة (كابيتزا) للعمل في روسيا ، وسمح له بأن يأخذ معه كافة

معداته . ومع هذا ، فانه بقي – قبل الحرب وبعدها – على اتصال مع العلماء البريطانيين ، وغالباً ما كان يستقبل اولئك الذين يزورون روسيا منهم في الفيلا الخاصة به ، والواقعة خارج (موسكو) في منطقة جميلة . وسرت اشاعات داخل أوساط (م آي ٥) ان (كابيتزا) كان يتمتع بموهبة اختيار المجندين الموهوبين في (كافيندش) لكن أحداً لم يتابع هذه القضية حتى النهاية ، ولم يتمكن أحد من معرفة مَن هم الذين نجح (كابيتزا) في تجنيدهم ، وكم كان عددهم ، وهل نجح حقاً في تجنيد أي شخص أم لا . وكانت هذه القضية واحدة أخرى من النهايات المفتوحة ، وقد تركت في الملفات تنز شكوكاً وشبهات .

اما الرجل الذي كان في وضع يمكّنه من معرفة المزيد عن (كابيتزا) وكان على علاقة صداقة معه ، وله اتصالات معه خلال وجوده في (كامبردج) فقد كان (لورد أدريان) الذي تعرف الى (كابيتزا) حينما كان الاخير في بريطانيا . وخلال سنوات الستينات ، كان (ادريان) يشغل منصب مستشار جامعة (كامبردج) ورئيس الجمعية الملكية . وعلى الفور ، قام (فيكتور) باعداد حفلة عشاء تمكنت خلالها من الالتقاء بـ (ادريان) . ومن هناك وجهت دفة الحديث بلطف ، نحو موضوع العالم الروسي .

كان (ادريان) متعاوناً معنا تعاوناً تاماً ، وتفهم معنى الشبهات التي كانت تدور حول (كابيتزا) تفهماً حسناً على الرغم من انه كان معجباً بانجازاته اعجاباً هائلاً .

وبدأ يذكر أسماء الأشخاص الذين كانوا على علاقة حميمة بـ (كابيتزا) : المزيد من الاسماء التي سيتم تدوينها في سجلاتي السوداء * ، والمزيد من الاسماء التي يجب ان يتم تدقيقها في قسم السجلات ، والمزيد من الاسماء التي يجب ان يتم اقتفاء أثرها واجراء مقابلات مع أصحابها ، وتقييمها ، وتبرئتها ، ثم ابعادها عن مجال المعلومات والاتصالات السرية في حالة قضية او قضيتين ، وكل ذلك من أجل ان نتأكد في النهاية من انه لم يفلت أي واحد من خلال الشبكة .

اما أهم مساعدة قدمها (فيكتور) فقد تمثلت باقناع (فلورا سولومون) بمقابلة (م آي ٥) للمرة الثانية . وقد عرفت خلال الجلسة التي جمعتها مع (آرثر) ان لديها من المعلومات اكثر مما قالت . فقد كان من الواضح انها كانت في معمعان أحداث منتصف سنوات الثلاثينات إمّا من خلال طرح الافكار (الالهام) أو من خلال المشاركة ، او من خلال قيامها بمهمة مراسل لعصابة الخمسة التي كانت حديثة العهد الى جانب صديقتيها (ليتزي فيلبي) و (إديث تودور هارت) . وقد رفضت بعد اجتماعها مع (آرثر) اجراء أي لقاء آخر مع (م آي ٥) . كانت تعاني من جنون الارتياب الروسي المعروف حول التآمر والخيانة . وكانت على قناعة باننا سنعمل على خيانتها ، ومن ثم زجها في

---

* السجل الاسود : كتاب يشتمل على لائحة باسماء الاشخاص غير المرغوب بهم (المترجم)

السجن ، أو انه سيتم اغتيالها على يد الروس مثلما حدث لـ (توماس هاريس) على حد اعتقادها ، وطلبت من (فيكتور) التدخل نيابة عني اذا كان باستطاعته ذلك ، وأخيراً – في منتصف عام ١٩٦٥ – وافقت على مقابلتي .

زمجرت قائلة :

" هل يعني اسم (دينيس بروكتور) شيئاً بالنسبة لك ؟ " .

بالفعل ، كان يعني لي شيئاً . كان (دينيس بروكتور) السكرتير الدائم لوزارة النفط و الطاقة في ذلك الوقت ، وقـد التحق بالخدمة المدنية خلال سنوات الثلاثينات ، حينما عمل كسكرتير خاص لـ (ستانلي بولدوين) . وخلال زياراتي المتعددة لـ (كامبردج) و (اوكسفورد) أشار حوالي عشرة أشخاص الى أن (بروكتور) كان يساريا بارزاً – على الرغم من انه ليس شيوعياً – خلال مرحلة ما قبـل تخرجـه مـن الجامعة . كانت فيه كل صفات مجنّدي (الكومنتيرن) : كان صديقاً حميماً لكل من (بيرغس) و (بلنت) و (فيلبي) و (ووتسون) وعضواً في (جمعية الرسل) .

كان هناك ايضاً شيء غريب آخر يتعلق بـ (بروكتور) وقد أثار حيرتي . فقبل وقت قصير من عمليات الهروب التي تمت عام ١٩٥١ ، ترك بشكل مفاجيء العمل في الخدمة المدنية ودونما أي سبب ظاهر ليعمل في شركة للشحن في (كوبنهاغن) . وفي عام ١٩٥٣ ظهر – بشكل مفاجيء أيضاً – مرة أخرى في (لندن) وعاود العمل في الخدمة المدنية .

سألت (فلورا) لماذا ذكرت اسم (بروكتور) ، فقالت :

" لقـد اعتـاد (كيم) علـى ان يعرض عليّ أناسه . كان يثمن رأيي عالياً . لم أنضم اليه مطلقاً ، غير انني اعتدت على اخباره برأيي في مجنّديه " . فسألتها :

" وماذا أخبرته عن (بروكتور) ... ؟ " . قالت :

" لقـد أتى بـه (كيم) ذات ليلـة عند موعد العشاء . لم أحبه . وأخبرت (كيم) انه ليس جيداً ، وأضفت : ان شخصيته ليست قوية ، فكيف سيتحمل الضغوط ؟ " .

كان (بروكتور) اسمـاً آخر تجنب (بلنت) ذكره أمامـي بشكل متعمد وواضح . ذهبت الى (هوليس) وطلبت تصريحاً لاجراء مقابلة مع (بروكتور) ، غير انه رفض ذلك متذرعاً بان مثل هذا الأمر سيسبب ضجة كبيرة في (الوايت هول) وهناك من المشاكل الكثيرة ما يكفي . وكان عليّ ان انتظر الى حين إحالته على التقاعد . وبعدها ، قال (هوليس) انها بضعة شهور فقط .

وتقاعد (بروكتور) وانتقل الى فرنسا ليعيش في بيت في احدى المزارع الواقعة في الريف الفرنسي الجميل خارج منطقة (أفينون) وبرفقته زوجته الثانية وأولاده . في شهر شباط من عام ١٩٦٦ سافرت الى فرنسا لزيارته .

كـــان لـ (بروكتور) مظهـــره المتميز ، وانف معقـــوف ، ويرتد خط رفيـــع من شعـــر رأسه الى الوراء ، وتبدو عليه مسحة رجل دين . حياني ببساطة ، وسحر ، وألفة يستقبل بها أفراد الطبقة العليا الانجليز زوارهم وهم بعيدون عن البلاد . وأوضحت له أن (م آي ٥) تراجع أحداث سنوات الثلاثينات ، وأضفت قائلاً :

" اننـــا نعمـــل علـــى اغـــلاق النهايات المفتوحـــة .. انت تعرف ذلك النوع من الاشياء".

تحدث (بروكتور) عن تلك الفترة بطريقة الاختزال التي يمارسها موظف في الخدمة المدنية ، ونادراً ما تحدث عن نفسه في البداية . وكنموذج للموظف في الخدمة المدنية كان يلاحظ بتواضع حياة الناس الآخـــرين ، وقراراتهم . ومن خلال تحفظه ، تمكنت من اكتشاف حماسه ، وكأنه كان يستذكر عالماً أفضل ، فسألته :

" وما هو شعورك تجاه الأمور التي جرت حينذاك ؟ " . قال وهو يبتسم لأسلوبي غير المباشر في الكلام :

" هل تعني ماذا كانت أفكاري السياسية ؟ ... حسناً ، من المفروض انك تعرف أنني كنت يساريا طوال حياتي " . فقلت

" حقاً ؟ " . فأجابني :

" أوه ، نعم ... ولكنني لم أكن شيوعياً على الاطلاق . لقد كانت رغبتي شديدة للعمل في الجهاز الحكومي ، ولذلك فانني لم أنضم الى الحزب ، اضافة الى كل ذلك ، فانه ليست لدي جرأة أناس أمثال (غاي بيرغس) الذي كان يجاهر بذلك " .

وسألته فيما اذا كان (غاي) قد اتصل به للعمل من أجل السلام ، أو من أجل (الكومنتيرن) أو أي شيء يشبه هذا . هز رأسه نافياً وقال :

" لا ، لا أعتقد ذلك ... لا ، لا أذكر شيئاً من هذا القبيل على الاطلاق " .

فقلت :

" لكن (غاي) كان يعرف آراءك السياسية ؟ " . فأجابني :

" لماذا ، نعـــم .. لقـــد كنا قريبين مـــن بعضنـــا جـــداً . (غاي) وأنـــا ، و (أنثـــوني) و (جمعية الرسل) انت تعرف ذلك ... " . وسألته :

" ألا تعتقد ان من المستغرب انه لم يحاول أبداً تجنيدك ؟ " .

توقف للحظة مفكراً ، ثم قال :

" أعتقد ذلك ، لقد ذكرت ذلك الآن ، في الواقع شعرت بالأهانة لانه لم يحاول ذلك ... " .

ضحك ، وضحكت أيضاً ، واقترح عليّ القيام بجولة على الاقدام قبل حلول موعد العشاء . كان

الطقس لا يزال شتاء ، غير ان الارض كانت قد بدأت تجف ، وكأن الربيع يستلقي تحت السطح مباشرة . تحدثنا عن أشياء أخرى : عن (انكلترا) والخدمة المدنية و عن الطريقة التي تغيرت بها الاشياء .

قال لي بينما كان ينظر الى الوراء باتجاه بيته الواقع عند اسفل الوادي :

" كما تعرف ، فان معظمنا قضوا حياتهم وهم يحاولون الهرب من سنوات الثلاثينات ... كنا جميعنا سعداء جداً حينذاك . كان عالَمنا ، غير اننا خسرناه عام ١٩٣٩ ، ومنذ ذلك الوقت ونحن نبحث عن الهرب ... " . وأشار الى بيته وقد أحاط به ضباب ما بعد الظهر وقال : " هذا هو هروبي " .

في ذلك المساء ، تناولنا طعام عشاء رائعاً ، وبعدها دخلنا الى غرفة مكتبه ، ومعنا شراب (البورت) واستطعت أن أرى انه اكتشف ان زيارتي تسبب التوتر له . كان يدرك انني سأعود الى موضوع (بيرغس) عاجلاً أو آجلاً .

بدا لوهلة وكأنه يغفو على شراب (البورت) ثم استيقظ والعرق يتصبب منه بغزارة . وبدأ يمسح جبهته بمنديله بعصبيـــة .

سألته بينما كنت أملأ كأسه للمرة الثانية :

" لماذا تعتقد ان (غاي) لم يزعج نفسه بالاتصال بك على الاطلاق ؟ " .

جرع (بروكتور) كأسه ثم ملأها مرة أخرى ، وقال بعد لحظة صمت :

" لقد كنت معجباً بـ (غاي) الى حد بعيد . وكما تعرف ، فان الناس ينسون كيف كان (غاي) موهوباً . انهم لا يتذكرون كيف كان قبل الحرب : المظهر ، الحيوية ، والذكاء . انهم يفكرون به فقط بعد تلك الفترة " .

لم أقل شيئاً ، وانتظرت منه أن يذيب صمته . وعاد ثانية ليتحدث باندفاع اكثر :

" كما ترى ، فلم تكن لدي أسرار اخفيها عنه . كلما واجهت مشكلة – بغض النظر عن سريتها – كنت أناقشها معه ، وكانت نصيحته صائبة دائماً . وأعتقد ان حقيقة القضية هي انه لم تكن هناك حاجة لـ (غاي) كي يقوم بتجنيدي فباستطاعته معرفة أي شيء يريده . وكل ما كان عليه القيام به هو طرح الاسئلة " .

سألته ، وأنا متلهف لأثقل الضغط عليه في حين كان يتكلم :

" وماذا عن عام ١٩٥١ ؟ " .

قال وهو يطرقع بلسانه : .

" لا ، لا ، لا .... لقد توصلتَ الى كل ذلك بشكل خاطيء .. لقد غادرتُ البلاد عام ١٩٥٠ لأسباب شخصية ، ولا يتعلق الأمر بهذا ، بل انه يتعلق بزوجتي الاولى (فاردا) . لقد انتحرت كما

تعرف عام ١٩٥١ " . سألته :

" هل رأيت (غاي) قبل رحيله ؟ " . فأجابني :

" كلا ، لكن زوجتي رأته قبل رحيله بنحو ستة أسابيع . فقد كانت هي ووالدها من المقربين اليه . كنت في (كوبنهاغن) في ذلك الوقت " . فقلت :

" وقتلت نفسها بعد ذلك ؟ " . قال :

" بعد ذلك بفترة ليست طويلة ، نعم ... " .

اعتدل في جلسته ، ونظر اليّ ، وكأنه أفاق من سكره فجأة ، وقال :

" افضل ان لا نتكلم حول هذا الموضوع اذا كنت لا تمانع في ذلك . وصدّقني انه ليس هناك اي اتصال ... " .

واسترخى في كرسيه ثانية مشعثا كقسيس جرد من ردائه الكهنوتي . ثم قال بهدوء :

" كانا حدثين مرعبين يسببان الصدمة ... بعد مرور سنة أو سنتين ، وحينما استعدت قواي ، استدعاني (ادوارد بريدجز) للعمل في الخدمة المدنية مرة ثانية ، وعدت الى انكلترا . (كان ادوارد بريدجز حينذاك السكرتير الدائم لوزارة المالية ورئيس الخدمة المدنية المحلية) .

لم اتمكن قط من اكتشاف السبب الذي دفع (فاردا) زوجة (بروكتور) الأولى الى الانتحار ، أو ما هو الأمر الذي تناقشت حوله مع (بيرغس) . وكان من الصعوبة بمكان اصدار حكم على (بروكتور) . وكنت ميالاً الى تصديق ادعائه بأنه لم يتم تجنيده رسميا ، مع أنني لم أصدق انه لم يكن لـ (بيرغس) أي دور في رحيله الى الدانمارك عام ١٩٥٠ . ومع هذا ، فقد كنت متأكداً - على أي حال - بانه شاطر (غاي) في كل سر من الاسرار التي كانت تمر عبر مكتبه خلال الفترة التي كان يعمل فيها سكرتيراً لـ (بولدوين) وحتى سنة ١٩٥٠ .

حينما التقيت مع (بلنت) في المرة التالية ، أخبرته بما دار بيني وبين (بروكتور) وقلت له مؤنبا اكثر مني غاضباً :

" لم تخبرنا عنه يا (أنثوني) .. " . وكان مما يزيد في انزعاج (بلنت) ان يشعر ان عملية الخداع قد جرت بين صديقين . وتابعت القول :

" لقد التزمتَ الصمت بشأنه كي تقوم بحمايته " .

نهض ، وسار باتجاه النافذة ، وحدق عبرها كما لو انه كان باستطاعته العودة الى الماضي والنظر اليه .

وسألته ثانية :

" ماذا عن (دينيس) ؟ " .

قال أخيراً :

" كل ما أستطيع قوله أن لا بد من انه كان أفضل مصدر لدى (غاي) غير انني لا أعرف ما الدور الذي كان يلعبه . وكل ما أعرفه انه كان لا يزال في الخدمة الحكومية " .

وتنهدت غاضبا ، وقلت :

" لكن كان بامكانك ان تخمن ....." .

أســـدل (بلنت) الستائــر ، وبدا كانه منزعج قليلا من الضجة والغبار والازياء في الخارج . ثم قال :

" ما لم تعش تلك الفترة يا (بيتر) فانك لن تستطيع فهمها ... " . قلت بغضب مفاجيء :

" أوه ، لقد عشتها يا (أنثوني) ... ربما كنت أعرف عن سنوات الثلاثينات اكثر مما ستعرف طوال حياتك ... انني اتذكر أبي وهو يدفع بنفسه الى حافة الجنون من كثرة الشراب لأنه لم يكن يستطيع الحصول على عمل ، واذكر انني خسرت تعليمي ، وانني فقدت عالَمي ، وكل شيء ... انني أعرف كل شيء عن سنوات الثلاثينات ... " .

كان أحد أهم الأشياء التي كشفت عنها تحقيقات (د٣) هو وجود شبكة (أوكسفورد) . ففي الماضي كانت عمليات التجنيد السوفييتية مرتبطة بجامعة (كامبردج) . لكن حينما بدأ (بلنت) ذلك اتضح ان كلاً من (بيرغس) و (جيمس كلوغمان) كانا قد جعلا من (اوكسفورد) هدفاً لهما بنفس الطريقة .

اما أول مصدر نشيط في شبكة (اوكسفورد) فقد كان زميلة (بلنت) في معهد (كورتوالد) المدعوة (فويبي بول) . وقـــد اعترف (بلنت) انها كانت مراسلته خلال سنوات الثلاثينات ، وكنت تواقاً لمقابلتها . كانت هي و (بلنت) على صلة حميمة لدرجة أنهما ألفا كتاباً مشتركاً عن (بيكاسو) .

وأخبرنـــي (بلنت) انهـا كانت مصابــة بمرض عصبي ، وهي على وشك الاصابة بانهيار عصبي ، واضاف أنها من المحتمل ان تصمت أو أن تسوء فيما اذا تحدثت اليها مباشرة . ولذلك ، فانه عمـــد الـــى تهيئة اتصـــال لي معهـــا ، وذلك من خلال عنصر آخر رفيع المستوى في (كورتوالد) وهي (أنيتا بروكنر) التي ستستلم الأسئلة مني ، وبدورها ستنقلها الى (بول) . وكان لابد من اللجوء الى الحيلة ، اذ تم إعلام (بول) ان عملية تحقيق جديدة متعلقة بسنوات الثلاثينات تجري الآن ، وان (أنثوني) يريد معرفة فيما اذا كان هناك أي شخص آخر ليقوم بتحذيره .

قالـــت (فـويبـــي بـــول) لـ (أنيتا بروكنر) انها اعتـــادت نقل رسائل من (أوتو) الى الشقيقين (بيتر فلود) و (برنارد فلود) . اما (بيتر) الذي كان يشغل منصب المدير السابق لمتحف

(فكتوريا وألبرت) فقد توفي ، في حين ان شقيقه (برنارد) كان عضو برلمان رفيع المستوى في حزب العمال . وأضافت (بول) ايضاً ان هناك امرأة شابة تدعى (جنيفر فيشر وليامز) كانت متورطة في الموضوع ، وألحت على (بروكنر) ان تتأكد من انه تم تحذير (آندي كوهن / وهو الدبلوماسي رفيع المستوى السير آندرو كوهين) لأنه كان عرضة للخطر . وكانت هذه الاسماء جميعها معروفة لي ، وكانوا جميعهم باستثناء [آندرو كوهن / الذي كان طالباً في (كامبردج) وعضواً في (جمعية الرسل) ايضاً] منتسبين الى نادي (كلاريندون) وهو ناد يساري يقوم بتقديم وجبات طعام العشاء وتدور فيه المناقشات ، وكان يقع في (اوكسفورد) خلال سنوات الثلاثينات ، ولكن هذا كان اول دليل قوي على ان النادي كان مركزاً لعمليات تجنيد الجواسيس السوفييت .

ومن المفارقات المثيرة للسخرية هو ان (جنيفر فيشر وليامز) كانت متزوجة من ضابط سابق ، كان يعمل في (م آي ٥) خلال فترة الحرب ، ويدعى (هيربرت هارت) وذلك خلال الفترة التي بدأ يطرح فيها اسمها ، ولذلك فانني قمت بزيارة زوجها في (اوكسفورد) حيث كان يشغل منصباً أكاديميا بارزاً كاستاذ للقانون ، وسألته فيما اذا كان باستطاعته الحديث مع زوجته نيابة عني . واتصل بها هاتفياً وأكد لها انه ليس هناك أي خطر على وضعها ، فوافقت على مقابلتي .

كانت (جنيفر هارت) امرأة سريعة الاهتياج ، تنتمي الى الطبقة الوسطى ، وأعتقد انها اكبر سناً من ان ترتدي تنورة قصيرة وجوارب شبكية بيضاء اللون كما كان الزي الشائع وقتها . سردت قصتها على نحو مباشر تماماً ، غير ان سلوكها كان سلوكاً متعالياً ورافضاً ، كما لو انها كانت تعتبر اهتمامي في الامور السياسية المتعلقة بالجناح اليساري خلال سنوات الثلاثينات كالنظر الى تنانير السيدات . وكان هذا بالنسبة لها امراً مبتذلاً ، وغير لطيف الى حد ما .

وقالت انها كانت عضواً علنياً في الحزب خلال سنوات الثلاثينات ، وقد اتصلت مع روسي ، كان يمكن – من خلال أوصافها له – التعرف عليه على انه (أوتو) . وقد أوعز لها (أوتو) بدخول مجال العمل السري ، واعتادت على مقابلته سراً في (كيو غاردنز) . وأخبرتنا انها كانت فقط جزءاً من الحزب السري ، وانها توقفت عن مقابلة (أوتو) حينما التحقت بوزارة الداخلية عام ١٩٣٨ حيث كانت تعمل في دائرة حساسة للغاية تقوم بمعالجة طلبات مراقبة الهواتف ، وأضافت أيضاً انها لم تطلع على الاطلاق على أي معلومات سرية .

وقالت أيضاً انه كان لها اتصالان آخران ، الاول : وكان مع (برنارد فلود) الذي قام بتجنيدها ، اما الاتصال الثاني : فقد كان مع الشخص الذي كان يديرها لفترة قصيرة ، والذي استطاعت التعرف عليه من خلال صورة فوتوغرافية ، وتم تحديده على انه (آرثر واين) الصديق

الحميم لـ (إديث تودور هارت) وزوجها ، والذي كان عضواً نشيطاً بين أوساط اتحاد النقابات قبل التحاقه بالخدمة المدنية .

لم يكـن لدي أدنـى شـك وأنـا أستمع الى (جنيفر هارت) ان هذه الشبكة كانت شبكة مستقلة ، اتخذت من (جامعة أوكسفورد) حصراً قاعدة لها ، غير ان اجراء تحقيقات واستقصاءات حولها هو أمر في غاية الصعوبة . فقد توفي فجأة (السِّير أندرو كوهن / الذي كان في (كامبردج) ثم أصبح دبلوماسياً) بسبب ازمة قلبية ، فتـم شطبه من القائمة وكان (بيتر فلود) قد سبقه الى عالم الموت ، غير ان شقيقه كان يبدو معقداً للآمال حينما عينه رئيس الوزراء (هارولد ويلسون) في منصب وزاري صغير في حكومة العمال . وقد طلب من (م آي ٥) ان تقوم بتزويده ببراءة ذمة أمنية . اعترضنا على ذلك ، وطلبنا تصريحاً لاستجواب (فلود) حول مزاعم (جنيفر هارت) . في تلك الفترة ، كان (ويلسون) قد فرض حظراً على القيام بأي عمليات استقصاء واستجواب تتعلق بنواب البرلمان ، غير انه حينما قرأ تقرير (م آي ٥) أعطى موافقته على اجراء المقابلة .

حينما بدأت المقابلة مع (فلود) كان موقفه غير عادي . فقد تعامل مع القضية وكأنها ليست بذات أهمية كبيرة ، وحينما شددت عليه حول رواية (جنيفر هارت) رفض تأكيد أو نفي قضية تجنيده لها . وكان يكرر :

" كيف لـي أن أنفي هذه القضية اذا كنت لا أستطيع أن أتذكر شيئاً عنها ؟ " . كنت قاسياً معه ، وكنت أعرف ان زوجته ، التي كانت مصابة بمرض رهاب الخلاء والاكتئاب ، كانت قد انتحرت مؤخراً ، غير ان (فلود) كان راغباً بانهاء المقابلة ، وقد أغراه منصبه الذي كان يشغله بذلك . وأوضحت له بعبارات لا تحتمل الخطأ بانه طالما كانت عملية تقديم المشورة المتعلقة ببراءة الذمة الامنية حوله هي من مسؤوليتي ، فانني لا أستطيع تبرئته حتى يقدم لي توضيحاً مقنعاً لقضية (هارت) . وظل يتذرع بضعف ذاكرته ، وانتهت الجلسة دون التوصل الى نتائج حاسمة ، وطلبت منه الحضور لاجراء مقابلة أخرى في اليوم التالي . ولم أحرز أي تقدم معه ، وظل مصراً على انه لا يتذكر شيئاً عن تجنيد (جنيفر) .

في اليـوم التالي تسلمت رسالة تفيد ان (فلود) قد انتحر مستخدماً في ذلك بطانية و مذكي غاز . ولم يمض طويل وقت ، حتى اتصل (بلنت) بي هاتفياً لينقل المزيد من الأخبار السيئة :

" لقد ماتت (فوبيي) ... " . فقلت :

"يا الهي ، كيف ؟ " . أجابني :

" لقد ألقت بنفسها تحت قطار الانفاق (المترو) .. " .

ثلاث وفيات ، اثنتان منها كانتا حالة انتحار وقعت ضمن مجموعة صغيرة من الناس ، في

الوقت الذي كنا نحقق فيه معهم بنشاط ، وبدا لي الأمر انه اكثر من مجرد كونه سوء حظ . وسرى الرعب في أوساط (م آي ٥) مخافة ان يتم ربط اسمها علناً بحوادث الوفيات هذه ، فتم ارجاء بقية العمل . اما الصحف فقد كانت لا تزال تتابع باصرار قضية دور (فيلبي) باعتباره (الرجل الثالث *) وقد اكتشفت للمرة الأولى المركز الرفيع الذي كان يشغله في (م آي ٦) . وبدأت الشائعات التي تتحدث عن تورط (بلنت) بالظهور في شارع (فليت) وبدأ نسيج الفضيحة يتعرض لمخاطر التنسيل . بقيت مشكلة (آرثر واين) الذي كان – مصادفة – على وشك الحصول على ترقية ليشغل منصب نائب سكرتير مجلس التجارة ، والذي كان هو الآخر بحاجة الى براءة ذمة أمنية .

سألني (فيرنفال جونز) :

" ماذا سنفعل ؟ " . فقلت :

" يجب ان نخبره اننا سنمنحه براءته اذا أخبرنا بالحقيقة عن الشبكة ، وإلاّ ، فلا براءة ... " . أجابني وهو يبذل جهداً ليبدو انه صدم بما قلت :

" لكن ذلك ابتزاز... " .

ولم أر في ذلك العرض الذي تقدمت به أي ظلم أو إجحاف ، وكما أخبرت (فيرنفال جونز) فانه لم ولن يقدر لي ان أكون دبلوماسياً أو سياسياً .

قال لي :

" كل عمليات الانتحار تلك ستعمل على تشويه صورتنا ... لسنا ذلك النوع من الأجهزة ..." .

وقد اكملت شبكة (اوكسفورد) تحقيقاتي المتعلقة بسنوات الثلاثينات . ومع نهاية سنوات الستينات كانت المهمة قد أنجزت فعلياً ، حينما كان اولئك المتورطون قد تقاعدوا ، أو كانوا على وشك ذلك . لقد استطعنا تحديد هوية كل عضو من أعضاء (عصابة الخمسة) وعدد آخر من الجواسيس ومن المشرفين عليهم . وقد تمكنا من معرفة كيف عملت الشبكة في أوقات مختلفة ، وكيف كانت طبيعة اتصالاتهم ، ومَن هم الاشخاص الذين يعتمدون عليهم ، والى مَن كانوا يتجهون طلباً للمساعدة . و تمكنا ايضاً من تحديد هوية جاسوس رئيسي لم نكن قد اكتشفناه في السابق ، و هو (ووتسون) اضافة الى مصدر رئيسي آخر للروس خلال الفترة الممتدة بين عام ١٩٣٥-١٩٥١ وهو (بروكتور) اضافة الى شبكة جديدة هامة في (اوكسفورد) . كان مجموع الاشخاص الذين تمكنا من تحديد هوياتهم – أحياء وأمواتاً – يبلغ نحو اربعين جاسوساً محتملاً . علاوة على

---

*الرجل الثالث : اشارة من المؤلف الى رواية (الرجل الثالث) المشهورة التي كتبها الروائي (غراهام غرين) وقد ترجمت هذه الرواية الى اللغة العربية ، وصدرت في عمان (المترجم)

ذلك ، فاننا دققنا بعناية سجلات عشرات الاشخاص في كل مجال من مجالات الحياة العامة في بريطانيا . وقد منحت غالبيتهم شهادة خلو من الامراض ، اما البعض الآخر الذي تبين بانه شيوعي أو متعاون مع الشيوعيين ، فقد تم نقلهم من مراكزهم التي تتيح لهم الاطلاع على الاسرار ، أو تم تشجيعهم على احالة انفسهم على التقاعد .

بالطبع ، فانه لا زالت هناك نهايات مفتوحة ، فـ (كلوغمان) أخذ أسراره معه ، و (أوتو) لم يتم التعرف عليه ، ولم تعرف نهاية (روت كابيلي) البريطانية . غير اننا عرفنا اكثر الامور أهمية على الاطلاق : عرفنا الى أي مدى امتدت هذه المؤامرة . عرفنا تاريخنا ، ولا حاجة لنا كي نخاف ثانية . كان موضوع التحقيق و التدقيق مع جيل أمراً مؤلماً ، ومن المؤكد ، انه كان سيكون أقل إيلاماً لو أن عمليات الاستجواب قد تمت في الوقت المناسب ، حينما كانت التجارب لا تزال حية . غير اننا طهّرنا الماضي ، وأصبح باستطاعتنا أخيراً العودة الى الحاضر ، دون أن ننسى انه يمكن ان يكون هناك أحفاد لأناس سنوات الثلاثينات .

١٨

بقيت هناك مسألة أخرى – خلال سنوات الستينات – لم تجد لها حلاً ، وربما كانت تلك المسألة من أهم المسائل الأخرى على الاطلاق ، تمثلت في السؤال التالي : هل يوجد خُلد داخل (م آي ٥) لم يتم اكتشافه ، أم لا ؟ استمـــر فريق عمل (فلوينسي) في بحث تاريخ اختراق الاستخبارات البريطانية ، في نفس الوقت – وبشكل مـــواز – للتحقيقات التـــي كـــان يقوم بها (د ٣) . ولم يعط (هوليس) لـ (فلوينسي) سوى القليل من الاهتمام لأنها لن تقدم تقريرها عن المهمة التي قامت بها الاّ بعد تقاعده الذي كان قد تقرر ان يبدأ في شهر كانون الاول من عام ١٩٦٥ . وكان لا يزال يعتبر موضوع الاختراق قد تم اغلاقه بعد الاجتماع الذي عقد لمناقشة التقرير الثاني لـ (سيموندز) في شهر تشرين الاول من عام ١٩٦٤ ، وأصدر أوامره الى ضباطه العاملين في قضية (ميتشل) بعدم مناقشة هذا الأمر حتى بين بعضهم البعض . وكان هذا الأمر مطلباً لا سبيل الى تحقيقه ، والسبب في ذلك ، هو ان الزيارة التي قام بها (هوليس) الى كل من الولايات المتحدة الامريكية وكندا في عام ١٩٦٣ ليقدم تقريراً الى (السي آي ايه) ومكتب التحقيقات الفيدرالي ، والشرطة الملكية الكندية باحتمال كون (ميتشل) جاسوساً ، قد سببت ضجة وذعراً ، كان الجميع يتوقعهما . وبعد فترة قصيرة من زيارة (هوليس) سافرت الى كندا ، إذ ان ميكروفونات عملية (ديوورم) التي كانت تمتد بهدوء وطمأنينة داخل جدران السفارة السوفييتية منذ عام ١٩٥٦ ، قد نزعت بشكل مفاجيء من قبل فريـــق رجال الأمن الروس . لـــم تجر أي عمليـــات تفتيش تمهيدية ، بـــل ان الروس كانوا يعرفـــون علـــى وجـــه الدقة اين كانت توجد الميكروفونـــات ، وقد سمعناهـــم وهم يقومون باستخراجها قبل ان

تصمت الخطوط .

وتساءلت الشرطة الملكية الكندية فيما اذا كان هناك احتمال بان يكون لـ (ميتشل) ارتباط بالعملية . وأخذ (جيم بينيت) الذي كان قد أصبح في تلك الفترة رئيس قسم التجسس المضاد في الشرطة الملكية الكندية يحاول استطلاع آرائي حول القضية . ولم يكن بالامكان ثنيه عن عزمه ، فتقدمت اليه بموجز مختصر يشير الى وجود اختراق على مستوى عال . وفي الحقيقة ، فانه كانت لدي وجهة نظر خاصة بي ، اذ كنت متأكداً من ان معلومات عن وجود ميكروفونات (ديوورم) قد افشيت الى الروس عام ١٩٥٦ ، سيما وانهم كانوا يرفضون استخدام الغرف المزروعة بالميكروفونات الاّ للأعمال القنصليــة العرضيــة فقــط . غير انــه كان من الواضح انهم لم يعرفوا المكان الصحيح للجهاز الا عام ١٩٦٤ فقط . وقد تزامن هذا الأمر على وجه التحديد مع الفترة التي جرى فيهــا التحقيق حـــــول (ميتشل) حيث تم الأخذ بعين الاعتبار الى حد كبير احتمال قيام (ميتشل) بافشاء سر (فلوينسي) عام ١٩٥٦ . فقد تسلم كل من (ميتشل) و (هوليس) ملفاً مفصلاً عام ١٩٥٦ يتضمن التفاصيل الكاملة لكيفية عمل نظام (ديوورم) . ومما لا شك فيه ان العملية قد أفشيت ، اذ انه لم يكن من الممكن للروس ان يقوموا بانتزاع الميكروفونات الاّ اذا تم اخبار رجال الامن عن المكان الذي تتوضع فيه الميكروفونات بغض النظر عما اذا كان (هوليس) أو (ميتشل) هو الذي قام بذلك . وعلى الرغم من مرور عشرين يوماً إلاّ انهم فشلوا في معرفة أماكنها على وجه الدقة ، مع انهم كانوا يعرفون المنطقة التي زرعت الميكروفونات بداخلها .

وانفجــر (فيرنفال جونز) في وجهي حينما سمع بانني تكلمت عن موضوع الاختراق في كندا ، غير انني أخبرته انه كان من المستحيل تجنب الحديث عن ذلك ، بعد الزيارة الفاشلة التي قام بها (هوليس) وان تجاهل المشكلة سيؤدي الى تفاقمها في أعين حلفائنا .

وكان الاهتمام بالأمر في (واشنطن) حاداً . وأذكر حفلة أقيمت في منزل (ميشال ماك كول) وهو الرجل الذي أصبح رئيس مكتب الأمن المحلي في (واشنطن) خلفاً لـ (هاري ستون) . انتحيت جانباً أنا و (انغلتون) وأخذ يطرح علي اسئلة كثيرة عن الوضع داخل (م آي ٥) . وقال :

" بحق الجحيم ، ما الذي جرى لكم ايها الفتيان .. يذهب (هوليس) الى هناك بقصة ملفقة عن (ميتشل) وعلى ما يبدو فانه لا يعرف أولويات القضية . لم يكن هناك تحقيق ، والآن يقول بأن لا شيء في الأمر ! ... " .

حاولت أن أتكلم معه حول القضية ، وأخبرته ان (ميتشل) بريء كما نعتقد ، وبقدر ما يعنيني الأمر ، وكذلك بالنسبة لـ (آرثر) فان المشبوه التالي هو (هوليس) . وسألته فيما اذا كانت لديه أي معلومات قد تساعد على فتح ملف القضية ، فقال ، انه سيرى ما يمكنه القيام به ، اذ ان ذلك الوقت

كان فتــرة عصيبــة بالنسبــة لـ (السي آي ايه) حيث كان قد تم اغتيال (كيندي) وتم تشكيل لجنة (وارين) للتحقيق ، كما كان (انغلتون) يضايقهم بمشاكله الخاصة .

وفي عام ١٩٦٥ بدا الأمن البريطاني في أعين الامريكيين سيئاً الى حد الكارثة وذلك للمرة الثانية . فقد أحاطت بكل من (م آي ٥) و (م آي ٦) سلسلة فضائح ونكبات تجسس خلال أربع سنوات متتالية ، اذ كشف النقاب أولاً عن أن (هوتون) قد أفشى أسرار أجزاء حيوية من أنظمة الاكتشاف المضادة للغواصات والتابعة لحلف شمال الأطلسي (الناتو) . وعلى الرغم من ان هذه القضية كانت انتصاراً لمقدرة (م آي ٥) الجديدة على التجسس المضاد ، الاّ انها أثارت الغضب الشديد فــي أوساط سلاح البحرية الامريكية ، التي كانت تكن العداء منذ مدة طويلة لنظيرتها البريطانية . وقد ظهر هذا العداء بشكل واضح خلال اجتماع مجلس الأمن القومي ، الذي عقد بعد فترة قصيرة من محاكمة (هوتون) وطلبت خلاله البحرية الامريكية بايقاف تبادل المعلومات والأسرار بين الامريكيين والبريطانيين بشكل كامل . غير ان كلاً من (جيم انغلتون) و (آل بلمونت) عارضا هذا الرأي القائم على تلك الذريعة ، وأحبطا العمل به ، اذ قال (بلمونت) بصوت جاف :

" الفرق الوحيد بيننا وبينهم هو أنهم يمسكون بالجواسيس ، أما نحن فلا .. "

غير ان ما قاله (بلمونت) لم يستطع أن يخفف من وقوع سلسلة الكوارث التي تلت ذلك . فقد تمت محاكمة (بليك) و ادانته عــام ١٩٦١ ، ملقيــاً بذلك ظلال الشك على كل عمليات (السي آي ايه) الاوروبيــة بما في ذلك عملية (نفق برلين) . وتـــم القاء القبض على (فاسال) في السنة التالية ١٩٦٢ ، وتبين مرة ثانية بان أسراراً بحرية ذات قيمة تتعلق بحلف شمال الاطلسي قد وصلت الى الشرق عن طريق جاسوس بريطاني . وفي كانون الثاني ١٩٦٣ هرب (فيلبي) في حين وقفت السلطات البريطانية صامتة وعاجزة . وظهرت دلائل أمنية أخرى تتعلق بموضوع (بروفومو) في السنة ذاتها حيث أشارت الى أن الروس حصلوا على الأسرار الذرية من (بروفومو) عن طريق (كرستين كيلير) وأخــذ مكتــب التحقيقــات الفيدرالــي هــذا الأمر مأخذ الجد . واعترف كل من (بلنت) و (لونغ) و (كيرنكروس) عــام ١٩٦٤ بينمــا انهارت قضايــا أخرى علــى شكل مخز في المحكمة . وكانت قضية (كوداك) واحدة من هذه القضايا . غير أن أسوأ هذه القضايا – وعلى نحو كبير – في عيون الامريكيين ، كانت قضية (مارتيللي) وذلك في مطلع عام ١٩٦٥ .

بدأت قضية (مارتيللي) عام ١٩٦٣ حينما ادعى (فيدورا) ان جهاز الـ (ك ج ب) يمتلك مصدر معلومات أجنبي داخل مؤسسة البحوث الذرية الانكليزية ، وأن هذا المصدر يعمل هناك منذ مدة تتراوح بين سنة الى سنتين فقط ، وهذا يعني ان (غوليتسين) لا يعرف عنه شيئاً ، الأمر الذي يعني بالتالي ان امكانية تحديد عدد المشبوه بهم محدودة جداً . وبعد القيام ببعض الخطوات الزائفة ، أصبح

التحقيق مقتصراً على (غويسيبي مارتيللي) الذي كان قد وصل الى مختبر (كولهام) في خريف عام ١٩٦٢ ، قادماً من مؤسسة بحوث الذرة الاوروبية . غير ان (مارتيللي) لم يكن مطلعاً على الأسرار الذرية ، وبالرغم من ذلك ، فقد استمر التحقيق ، لأنه من الممكن ان يكون قد حصل على اسراره من صديقة بامكانها الاطلاع على تلك الاسرار ، كما كان الأمر عليه بالنسبة لـ (هوتون) المتورط في قضية (لونسدال) حين كان في (بورتلاند) . وحينما وجدنا ان هناك صديقة لـ (مارتيللي) تمتلك حرية الاطلاع على الأسرار ، أصبح من المؤكد لنا ان (مارتيللي) مطلع هو الآخر على أسرار كان يجب ان لا يعلم عنها أي شيء .

ولم تبين التحريات التالية أي دليل يثبت أن (مارتيللي) كان قادراً على الحصول على أي أسرار . واكتشفنا أثناء قيامنا بتفتيش طاولة مكتبه في (كولهام) معلومات عن مواعيده كانت موجودة في درج مقفول في طاولة المكتب . كان (مارتيللي) في تلك الفترة غائباً في اوروبا يقضي اجازته هناك . ولدى عودته ، تم ايقافه في مطار (ساوث إند) . وقام (الفرع الخاص) باستجوابه ، حيث تعرف على (كاربيكوف) وأفاد بأنه روسي ، وانه على معرفة به . وضبطت بحوزته خريطة تبين ترتيبات مواعيده . ونتيجة لذلك ، فقد تم تفتيش منزله في (أبينغدون) فعثر على مواد تجسسية تحتوي علـــى لبادات مصغرة تستخدم لمرة واحدة كتلك التي تم ضبطها لدى (لونسدال) وقد تبين أن طبقة واحدة مـــن طبقات اللبادة قد تم استخدامها ، كما عثر على مفكرة فيها تفاصيل كيفية تحويل الأحرف ، ومن ثم الكلمات الى أرقام للبادة تستعمل لمرة واحدة من أجل تشفير الرسائل .

وعقد (هوليس) اجتماعاً مطولاً بحضور (ميتشل) لاتخاذ قرار حول ما يجب القيام به . غير ان العامل الحاسم تمثل في انه لم يتم العثور على أي دليل يثبت أن (مارتيللي) قد اطلع على أي أسرار ، أو أنه قام بارسالها الى أي جهة أجنبية . ان (قانون الاسرار الرسمية) قد احتوى على مادة تجرّم الاستعداد للقيام بأي عمل تجسسي . ولكـــن كـــان مـــن الصعوبة بمكان الى حد كبير اثبات أن (مارتيللي) كان يقوم بهذا العمل ، لأنه لم يوجد أي برهان يثبت أنه كان يقوم باجراء اتصالات سرية مع جهة أجنبية . وكان بامكان قيادة الاتصالات الحكومية ان تشهد بان لبادات الشيفرة التي تم ضبطها مشابهة لتلك اللبادات التي يستخدمها الجواسيس للاتصال بأسيادهم الروس ، غير ان القيادة لم تستطع اثبات ان (مارتيللي) قد قام بذلك ، وعلى النقيض مما جرى بالنسبة لقضية (لونسدال) . وكثيراً ما يعوز الفهم والوضوح بان شهادة قيادة الاتصالات الحكومية في قضية (لونسدال) هي التي أدت الى ادانة المدعى عليهم ، وانـــه بدون هـــذا الدليل لم تكن لتتم ادانة (لونسدال) والمرتبطين معه بل ، و لأطلق سراحهم ، أو لتم الحكم عليهم بشكل مخفف .

وأوضحـــت للادارة باعتباري خبيـــر (سيفينت) في (م آي ٥) بـــان الدليل الموجود بين يدي

(م آي ٥) ليس كافياً لاثبات حتى وجود النية لدى (مارتيللي) لايصال أسرار الى جهة أجنبية . اما الشعبـة القانـونية في (م آي ٥) فقد كانت متحمسة في محاولة منها لادانة (مارتيللي) حسب مادة " العمل التحضيري " الواردة في (قانون الاسرار الرسمية) وتطبيقها كسبب قانوني لمحاكمته وفقاً للقانون المذكور . ومارس كل من (هوليس) و (ميتشل) الضغط من أجل ان يتم تقديم (مارتيللي) الى المحاكمة ، الأمر الذي أثار دهشة ضباط التجسس المضاد المحترفين ، الذين كانوا يحضرون الاجتماع . وكانـت النتيجة ان المدعي العام أقام الدعوى ، الامر الذي ادّى الى الحاق الضرر والأذى بـ (م آي ٥) .

وجدت من الصعوبة بمكان – وحتى يومنا هذا – فهم السبب الذي أدّى الى تقديم (مارتيللي) الى المحاكمة ، الاّ اذا تذكر الانسان التاريخ الذي تمت فيه المحاكمة وهو الثاني من تموز عام ١٩٦٣ . كان هذا التاريخ هو الفترة التي وصلت فيها قضية (ميتشل) الى ذروتها . فقد بدا واضحاً ، انه كان من المناسب للروس ولـ (هوليس) كذلك في هذه الفترة التي تربط بين الحدثين ، ان يتلقى فرع التجسس المضاد في (م آي ٥) ضربة تطرحه أرضاً .

اما القضية الأخرى التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار هنا ، فهي قضية (فرانك بوسارد) . ففي مطلع عام ١٩٦٥ قدم (توب هات / عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي و عميل الاستخبارات العسكرية الروسية) صوراً لوثائق غاية في السرية صادرة عن وزارة التموين ، وتتعلق في مجال الاسلحة الموجهة ، اضافة الى جملة من الاسرار المهمة المتعلقة بالولايات المتحدة الامريكية . وكان من السهولة بمكان حصر عدد المشبوهين الى أدنى حد ، وتم وضعهم تحت جميع انواع المراقبة ، فتبين لنا أن أحد المشبوهين ، ويدعى (بوسارد) كان يقوم أثناء ساعة الغذاء – بين وقت وآخر – باستلام حقيبة من (مكتب الامتعة) في محطة (واترلو) ومن ثم يتوجه بها الى فندق في (بلومزبيري) حيث كان قد حجـز لنفسه غرفة تحت اسم مستعار . كان يبقى هناك وحيداً لمدة نصف ساعة تقريباً ، ثم يغادر المكان ، وهو يحمل الحقيبة ، ومن ثم يعيدها الى (مكتب الامتعة) ويعود بعدها الى العمل . خلال احدى المناسبات ، تمكنت (م آي ٥) من استلام الحقيبة من (مكتب الامتعة) وتم تفتيشها ، فوجد بداخلها كاميـرات تصوير وثائق ، وكاسيتات أفلام ، واسطوانتا حاكي مسجل عليها حوالي ثماني اغنيات روسية . تم نسخ الاغنيات الروسية ، وصـورت محتويات الحقيبة ، واعيدت كافة المحتويات الى الحقيبة ، التي أعيدت فيما بعد الى (واترلو) . واتصلت هاتفياً بقيادة الاتصالات الحكومية ، وأعطيتهم الاسطوانتين . واستغرق الأمر أقل من ساعة لتحدد قيادة الاتصالات بأن خمس نغمات قد تم بثها من اذاعـة بث روسية ، تـم تحديد موقعها وذلك بواسطة جهاز تحديد الاتجاهات ، بانها في منطقة (موسكو) ، وتبين بانها معروفة كمحطة ارسال تابعة للاستخبارات العسكرية الروسية .

وقررنا القاء القبض على (بوسارد) اثناء قيامه باستلام الحقيبة من (واترلو) وأثناء توجهه بها الى الفندق في المرة القادمة . وقد حدث هذا في الخامس عشر من شهر آذار عام ١٩٦٥ ، حيث تم القـاء القبـض عليـه اثنـاء قيامـه بتصوير وثائق ذات أهمية قصوى . وحين تمت مجابهته بحقيقة ان (م آي ٥) تعرف كل شيء عن النغمات في الاسطوانتين ، اعترف (بوسارد) بانه كان يقوم بتزويد الروس بوثائق سرية عـن طريق صناديق الرسائل الميتة ، وكان يستلم نقوداً مقابل ذلك ، وبنفس الطريقة . وأضاف ، أنه بعد تجنيده ، التقى بشخص روسي مـرة واحدة فقط خلال خمس سنوات تقريباً . وقال : ان اذاعة النغمات الفردية كانت تحدد له صناديق الرسائل الميتة التي يجب عليه ان يضع فيها المواد ، وأيا تلك التي يجب ان لا يستخدمها . وحصلت (م آي ٥) علـى كل ما تريده من أجل (القسم الاول) في النيابة . وفي العاشر من شهر ايار عام ١٩٦٥ حكم على (بوسارد) بالسجن مدة احدى وعشرين سنة .

وبما أننا الآن كنا على معرفة بأن (توب هات / مصدر المعلومات) كان عميلاً مزروعاً من قبل الروس ، فان السؤال هو : لماذا قرر الروس التخلي عن (بوسارد) ؟ من أجل ان نفهم القضية ، فانه لا بد لنا من معرفة عدة أمور ، أولها : ان الروس قد نجحوا في الحاق الضرر والأذى بـ (م آي ٥) عن طريق (فيدورا) وقضية (مارتيللي) عام ١٩٦٣ ، وهذا الأمر ، أدى بدوره الى تنامي الشكوك داخل أوســاط (م اي ٥) بأن (فيدورا) كـان مزروعاً . ففـي عـام ١٩٦٤ ، روى (توب هات) قصة لـ (م آي ٥) تحدث فيها عن تغطية تقنية للتنصت على مكتب رئيس الوزراء البريطاني ، والتي لا يمكن لمثل هذه التغطية ان تكون موجودة الاّ اذ ا كان لدى الروس انظمة ميكروفون معقدة تتفوق على ما نعرفه عنها نحن في الغرب ، ولم يكن لهذا الأمر أساس من الصحة ، اذ فشلت كل الجهود التي بذلت لاكتشاف مثـل هذا الجهاز المستعمل ، وأدى ذلك بالبريطانيين الى اعتبـار القصة ملفقـة ، وساورت (م آي ٥) ومكتب التحقيقات الفيدرالي الشكوك بحسن نية (توب هات) .

ان تقديم (توب هات) صوراً لوثائق بريطانية غاية في السرية ، لم يجعل من الصعوبة بمكان التصديق بأنه كان مزروعاً فقط (كان الناس يتساءلون : هل يمكن للروس ان يتخلوا عن مثل هذا المصدر ؟) وانما كانت له نتيجة أخرى تمثلت في ان الامريكيين – للمرة الثانية – ساورتهم الشكوك الكثيرة بالامن البريطاني ، والى انطلاق صرخة في الولايات المتحدة الامريكية تطالب بالتوقف عن اطلاع البريطانيين علـى أسرارهـم . والآن ، اذا أراد الـروس اختيار جاسوس للمخاطرة به ، فان (بوسارد) كان هو افضل اختيار : لم تكن له اتصالات مادية أو عملية مع الروس . وكان اتصاله اللاسلكي مع (موسكو) يتم من خلال أنغام بريئة ، ولو لم تقم قيادة الاتصالات الحكومية بتحليل مفصل لحركة الاتصالات ، لما عرفنا ، أهمية الاسطوانات ، ولما توفر الدليل لاثبات وجود اتصالات

بين (بوسارد) وجهاز الاستخبارات الروسية ، ولحكم عليه فقط بسبب استنساخه غير القانوني لوثائق سرية ، وهي جريمة فنية يعاقب عليها عقاباً طفيفاً بشكل نسبي . وهكذا ، للمرة الثانية ، فان المهارة الفنية والمهنية لقيادة الاتصالات الحكومية ولـ (م آي ٥) قد ضبطت الروس وهم متلبسين بالجرم . وكان لهذا النجاح أثران رئيسيان ، اذ تمكنت أجهزة الاستخبارات الامريكية من حماية المصالح البريطانية في الحكومة الامريكية ، كما أنها عملت على تعزيز الشكوك حول (توب هات) بدلاً من تقليلها .

لكن ، كان لا بد من طرح السؤال الأساسي : لماذا فكر الروس بأنه كان من الواجب عليهم ان يدعموا صدق (توب هات) ؟ فقد كان يعمل منذ نهاية عام ١٩٦٢ ، وبدون أي مصدر على مستوى عال في (م آي ٥) أو (السي آي ايه) أو مكتب التحقيقات الفيدرالي . ولم يكن هناك ما يجعل الشكوك تساور الروس بانه مشبـــوه . فـــي نهايـــة عـــام ١٩٦٤ ساورت (م آي ٥) شكوك كبيرة فيه . وكان (سوليفان / رئيس قسم الاستخبارات المحلية في مكتب التحقيقات الفيدرالي) الوحيد الذي ليست لـــديه أي مخـــاوف مـــن صـــدق (توب هات) ولم يكن (سوليفان) بالتأكيد جاسوساً روسياً . وفي (السي آي ايه) كان (انغلتون) فقط وواحد أو اثنان آخران من الذين يعملون معه عن قرب هم الذين تساروهـــم الشكـــوك حول (توب هات) . لكن الناس القلائل في (م آي ٥) الذين كانوا يعرفون عن (توب هات) لـــم يصدقـــوا بانـــه جاســـوس حقيقـــي ، وكان (هوليس) يعرف ان هؤلاء الناس يشكون كثيراً في (توب هات) .

وكانت هناك توترات أخرى ايضاً في ذلك التحالف . فقد كانت أوساط الاستخبارات الامريكية تشعر بعداوة عميقة ألغور لاستلام (هارولد ويلسون) وحكومة العمال السلطة عام ١٩٦٤ ، وكان السبب الكامن وراء ذلك يعود الى شعور معاد للعمال من ناحية ، والى التزام حكومة العمال بالتخلي عن مشروع صواريخ بولاريس من ناحية ثانية ، وهو التزام سرعان ما تنكّر له العمال .

منـــذ نهايـــة عام ١٩٦٣ وما بعد ، كان اكثر الأمور تهديداً – حينما قام (هوليس) بزيارته الى (واشنطن) – قضية (ميتشل) وكذلك المخاوف من ان تكون (م آي ٥) نفسها تعيش حالة اختراق عميـــق علـــى مستـــوى القمة أو ما يقرب من ذلك ، في حين ان اجهزة الاستخبارات السرية غير قادرة – في الظاهر– على مواجهة المشكلة . وقد أدت عملية فصل (آرثر مارتين) من الخدمة الى زيادة حدة شكوك الامريكيين الذين كانوا يعلمون انه تعهد باصطياد رجال (ستالين) الانكليز حيثما كانوا مختبئين ، وبدا الأمر بالنسبة للامريكيين وكأن فصله كان مؤامرة مدرسة عامة .

وفي منتصف عام ١٩٦٥ وصلت الأمور الى ذروتها ، حينما طلب الرئيس (جونسون) من المجلس الاستشاري الرئاسي للاستخبارات الخارجية تشكيل لجنة للقيام بمراجعة شاملة للأمن البريطاني . وكانـــت اللجنـــة تتألـــف مـــن كبـــار رجـــال الاستخبـــارات المتقاعدين ، ومن

المصرفيين ، والصناعيين ، والسياسيين ، من أجل تقديم النصح والمشورة للرئيس فيما يتعلق بتعزيز الأمن القومي . وقـــد أوكلت مهمة الاشراف علـــى هذه المراجعة التي هي غاية في السرية ، الى كل من : (غوردون غراي / وزير دفاع سابق في عهد الرئيس [ايزنهاور] وحاكـــم ولاية [كارولينا الشمالية] وسكرتير المجلس الاستشاري الرئاسي للاستخبارات الخارجية) و (جيرالد كوين / ضابط سابق على مستوى عال في مكتب التحقيقات الفيدرالي ، وقد أشرف على المجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية مدة خمسة عشر عاما) .

وصل كل من (غراي) و (كوين) الى (لندن) سراً وذلك في صيف عام ١٩٦٥ وشرعا في مراجعة العلاقات الاستخباراتية الانكليزية – الامريكية ، وعلى وجه الخصوص فعالية (م آي ٥) . كانت تلك المهمة حساسة للغاية ، ولم يكن أحد من رجال الاستخبارات البريطانية على علم بأن هناك مراجعة تجري . وكانت عملية المراجعة في أي بلد آخر تسمى اسماً اكثر خشونة ، وهو (التجسس) . وكانت معظم المواد الموجودة لدى (غراي) و (كوين) قد قام (كليفلاند كرام / ضابط [السي آي ايه] الذي يقـــوم بمهمـــة الارتباط والاتصـــال مع [م آي ٥] فـــي لندن) بتزويدهما بها . كان (كرام) ضابط (السي اي ايه) يتميز بالذكاء ورجاحة العقل ، وقد عمل في (لندن) لسنين عديدة ، فأصبح على دراية تامة بنقاط ضعف (م آي ٥) وقد اصطحب (غراي) و (كوين) الى (ليكونفيلد هاوس) وقيادة (م آي ٦) خـــلال مناسبـــات عديـــدة ، وقدمهمـــا علـــى أساس انهمـــا زملاء فقط . في هذا الوقت ، كان ضباط (السي آي ايه) الذين هم في منزلة (كرام) قد استطاعوا الوصول علناً الى كافة أجهزة الاستخبارات البريطانية ، ولذلك ، فانه كان من السهولة انطلاء الخدعة علينا .

سمعـــت عـــن مراجعـــة (غراي) و (كوين) لأول مرة حينما قمت بزيارة (واشنطن) عام ١٩٦٥ ، اذ أوجز لي (انغلتون) خلاصة محتويـــات التقرير الذي كان قد تم انجازه ، وصعقت . لقد قدم (غراي) و (كوين) نقـــداً هداماً لـ (م آي ٥) اذ ذكرا عـــدم كفاية حجم التجسس المضاد البريطانـــي ، وقالا بان العـــديـــد مـــن الضبـــاط الافـــراد المـــوهـــوبين خـــدعتهم مؤسسة فقيرة ، ونقص في الموارد . وانتقد التقرير بشكل خاص نوعية القيادة داخل (م آي ٥) التي يمارسها (هوليس) و (كمنغ) ومن ثم رئيس قسم التجسس المضاد . وقـــد استنتج (غراي) و (كوين) في النهاية أن (هوليس) قد فقد – على نحـــو واضح – ثقـــة كبار ضباطـــه (وهذا صحيح) اضافة الى ثقة مَن هم في مرتبته في (الوايت هول) وكان هذا صحيحاً ايضاً .

أثار هذا التقرير (انغلتون) وقال بانه (التقرير) سيشكل أسس علاقة جديدة بين أجهزة التجسس المضاد الامريكية والبريطانية ، وأضاف ان (السي آي ايه) تعتزم القيام باتصال مباشر مع (هارولد ويلسون) من خلال السفير الامريكي (دافيد بروس) في (لندن) لاطلاعه على ما تم التوصل

اليه . وقال :

" سيتغير كل شيء الآن ... سنعمل على تعزيز محطة (السي اي ايه) في (لندن) وسيعمل نصف اولئك الضباط المتواجدين هناك داخل (م آي ٥) بشكل مباشر . سنطلع على كل شيء ، وسنساعدكم حيثما امكننا ذلك " .

حينما سمعت عن تقرير (غراي – كوين) أصبحت في وضع لا أحسد عليه . فقد أوجز لي (انغلتون) التقرير بشكل سري ، غير انني – وبحكم الواجب – كنت ملزماً بتقديم تقرير عن وجود وثيقة كهذه ، وعن الاتصال المنوي القيام به مع (ويلسون) . كان طموح (انغلتون) واضحاً : كان يريد لـ (السي آي ايه) ان تلتهم (م آي ٥) بالكامل ، واستخدامها كمحطة خارجية لها . عدت الى (لندن) لأخبر كلاً من (هوليس) و (فيرنفال جونز) عن كل ما عرفت . كانت واحدة من المناسبات القليلة تلك اللحظات التي ظهرت فيها على (هوليس) علامة من علامات الصدمة ، فأمر بتدقيق السجلات . وخلال بضع ساعات ، تأكد له ان (غراي) و (كوين) قد زارا فعلاً كل مؤسسات أجهزة الاستخبارات البريطانية ، دون ان يعلنوا عن هدفهم الحقيقي .

وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم ، رأيت الرجلين خارجين الى سيارة كانت تنتظرهما أمام (ليكونفيلد هاوس) .

قال (فيرنفال جونز) مقطباً جبينه :

" شكراً على مساعدتك يا (بيتر) لا يمكننا ان نثق بان الامريكيين سيلعبون اللعبة حسب قواعدها " .

اعتقدت ان هذا الكلام ما هو الاّ كلام نفاق ، غير أنني رأيت أن من الافضل لي أن أبتعد عن نيران المدفعية التي بدأت تتزايد بسرعة . توجه (هوليس) و (فيرنفال جونز) لمقابلة وزير الخارجية ، والاحتجاج لديه على الانتهاك الصارخ للاتفاقية البريطانية – الامريكية ، ولم يكن من المعروف الى أين سيصل هذا الشجار .

مسكين (كليف كرام) فقد تم جَرُّه فوق الفحم . لقد عارض الاتصال مع (ويلسون) ومع هذا ، فقد أصر (انغلتون) و (هليمز) على انه هو الذي سرب المعلومات الى (جورج ويغ) المستشار الأمني لـ (ويلسون) . ولم يكن (هوليس) في حالة مزاجية تسمح له بقبول الاعذار . فقد تم اذلاله أمام كافة أجهزة الاستخبارات في (لندن) و (واشنطن) وتم تحذير (كرام) من انه سيتم طرده اذا قام بأي انتهاكات أخرى . وبعد أيام ، رأيت (كرام) يسير خلسة في الطابق الخامس في (ليكونفيلد هاوس) وبدا الخجل والارتباك عليه .

" لقد كدت ان تحاصرني " . قال ذلك وهو يبتسم نادماً وكان يعرف بان (السي آي ايه)

تحاول ذلك منذ مدة ، وقد تم امساكه متلبساً . كان تقرير (غراي - كوين) اتهاماً رهيباً لشغل (هوليس) منصب المدير العام لـ (م آي ٥) وكان يعرف ذلك . لكن الامريكيين عالجوا الأمر كله - وكما هو معروف عنهم دائماً - برشاقة ثور داخل دكان يبيع الخزف الصيني . فقد كان جوهر خطتهم مقصوداً تماماً : تزويد (م اي ٥) بكل الموارد المادية والبشرية التي تنقصها . وبالطبع ، فانه كانت لديهم حوافز أخرى ، اذ كانوا يريدون من (م آي ٥) ان تكون كزبون متوسل وليس كحليف ودود ، ومستقل في الوقت نفسه .

وانطلقت الاصلاحات من التقرير . فلأول مرة تعترف ادارة (م آي ٥) بالحاجة الى توسيع (الفرع د) بشكل كبير ، وان تترك الملاحق في المستعمرات القديمة ايضاً - مثل الفرع هـ - تذوي على كرمة العنب . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح (الفرع د) صاحب الحق الأول في كل الموارد ، وكان مما لا بد منه البحث عن ادارة جديدة لـ (الفرع د) . وتم ادخال (أليك ماك دونالد / رجل شرطة سابق في المستعمرات) الى (الفرع د) واذ تيقن (مالكولم كمنغ) من انه لن يصبح أبداً نائب المدير العام ، فانه اختار التقاعد في وقت مبكر .

وكانت المبادرة الهامة الأخرى التي نجمت عن هذا التقرير هي الاعتراف بضرورة وجود تقنية تضمن وجود تعاون أوثق بين أجهزة الاستخبارات الغربية . وكان هناك اتفاق رسمي بين قيادة الاتصالات الحكومية و وكالة الأمن القومي حول تبادل المعلومات فيما بينهما وذلك بموجب الاتفاق الانكليزي - الامريكي . لقد دأبت (السي آي ايه) و (م آي ٦) على تبادل تقييمات معلومات الاستخبارات الخارجية بينهما بشكل منتظم من خلال لجنة الاستخبارات المشتركة في (لندن) ومجلس الامن القومي في (واشنطن) . غير ان عمليات التجسس المضاد كانت لا تزال مرتبطة باللجنة الخاصة بها على نحو أساسي . وكثيراً ما تناقشت مع (انغلتون) حول أهمية ايجاد برنامج لتبادل المعلومات المتعلقة بالتجسس المضاد على نحو منتظم وبدون أي تحفظات .

فالكثير من المعلومات الخاصة بالتجسس المضاد كانت تتجاوز الحدود الاقليمية ، وخاصة حينما تأتي من المنشقين أو الهاربين . ولذلك ، فان الوصول الى ملفات كل بلد يعتبر أمراً أساسياً إن كنا نريد احراز التقدم في هذا المجال . لكن (انغلتون) كان رجلاً مستبداً ، وكان يرغب في استخدام تقرير (غراي - كوين) من اجل ممارسة الضغوط لشق طريق لتدفق المعلومات في اتجاه واحد . لكنه تحول أخيراً نحو الايمان بفوائد اقامة مثل هذا البرنامج لتبادل المعلومات بشكل واقعي . وأصبح يُعقد - باصرار منه - مؤتمر كل ثمانية عشر شهراً تقريباً يحضره كبار ضباط التجسس المضاد في الولايات المتحدة الامريكية ، وبريطانيا ، واستراليا ، وكندا ، ونيوزيلندة . وقد دعيت هذه المؤتمرات باسم (كازاب) .

وعقد المؤتمر الاول في (ملبورن) في استراليا في شهر تشرين الثاني ١٩٦٧ .

لم يكن تقرير (غراي - كوين) هو النقش الوحيد على ضريح حياة (هوليس) . فحينما اقترب موعد احالته على التقاعد ، كان شكل نتائج (فلوينسي) قد أصبح واضحاً . كان فريق العمل يتكون من (تيرينس ليكي) و (جيوفري هينتون) من قسم التجسس المضاد في (م آي ٦) اضافة الى (آرثر مارتين) حينما تم نقله في منتصف عام ١٩٦٥ . اما فريق (م آي ٥) فقد كان يتألف من (باتريك ستيورات) و (آن أور - إيوينغ) و (إيفلين ماك بارنيت / من د ٣) وبرئاستي . وكانت الوثائق ترسل مباشرة الى (أليك ماك دونالد) مدير (الفرع د) والى (كريستوفر فيلبوتس) رئيس قسم التجسس المضاد . كنا نجتمع كل يوم خميس في مكتبي ، أو في غرفة الاجتماعات في الطابق الخامس من (ليكونفيلد هاوس) .

كانت أعصابنا متوترة في البداية ، اذ كان كل فرد منا يدرك الأهمية المرعبة للمهمة الملقاة على عاتقه ، وهي مراجعة تفصيلية لكل ادعاء - على حدة - حول اختراق الاستخبارات البريطانية . وكان أول قرار اتخذته لجنة (فلوينسي) هو تغيير طريقة النظر الى موضوع الاختراق ، والتي كنت أنا و (آرثر) قد تبنيناها في قضية (ميتشل) . في عام ١٩٦٣ حينما عرضنا قضية الاختراق على (ديك وايت) اعتمدنا كثيراً على تحليلات الأشياء الغريبة و المتناقضات في قضايا العملاء المزدوجين وفي القضايا الفنية ، والتي تعرف في لغة الاستخبارات بـ " المظاهر " . وقررت لجنة (فلوينسي) ان تستغني عن كل هذه المظاهر . كنا نحس بانها مجرد غطاء لادعاءات خاصة بالاختراق ادعاها المنشقون والهاربون . كانت هذه دلائل اولية فركزنا عليها وحدها .

كانت المهمة الاولى هي القيام بفحص ومقارنة الادعاءات التي كانت ادعاءات مباشرة نسبياً وكان قد تم انجاز جزء كبير من العمل أثناء التحقيق حول (ميتشل) واستمرت بالحاح مني كجزء من برنامج (د ٣) العام للبحوث .

بعد مرور ستة شهور تمكنا من جمع ملف ضخم يتضمن قائمة كاملة بالادعاءات كافة ، ويبلغ مجموعها ما يزيد على مائتي ادعاء ، يعود بعضها في تاريخه الى الحرب العالمية الاولى ، ثم تم توزيع الادعاءات على مختلف الضباط الذين كانوا حول الطاولة . فأعطيت تلك التقارير الواردة من مصادر بولندية (مثل غوليتيفسكي) الى (تيرينس ليكي) وعالجت (ايفلين ماك بارنيت) الادعاءات القديمة الخاصة بـ (م آي ٥) وأخذ (باتريك ستيورات) مواد (غوليتسين) في حين أخذت أنا مواد (كريفيتسكي) و (فولكوف) و (فينونا) .

حالما تجمعت لدينا الادعاءات ، شرعنا بتقييمها ، وتفحصنا كل ادعاء بعناية ، واتخذنا قراراً حول صلاحيته ، أي اذا كنا مقتنعين بأنه صحيح . ففي بعض القضايا مثلا ، يمكن ان يكون منشق قد

أفـاد بوجـود جاسوس في (م آي ٥) أو (م آي ٦) لكننا كنا قادرين على اقناع أنفسنا بانهم كانـوا مخطئين . وحينمـا كنا نقتنـع أنفسنـا بأن ذلك الادعـاء كان صحيحاً ، فانه يوصف بانه " قائمة صحيحة " حسب لغة التجسس المضاد . ثم نقوم بتدقيق فيما اذا كان كل ادعاء يعزى الى جاسوس معروف مثل (فيلبي) أو (بيرغس) أو (بلنت) . فاذا كان الامر كذلك ، فانه تتم اعادة فحص الادعاء لنرى فيما اذا كان لا يزال صالحاً في ضوء أي معلومات استخباراتية من المحتمل ان تكون قد ظهرت بعد ذلك .

وكان تقييم الادعاءات يعتمد على نوعية سجلاتنا ، الأمر الذي جعلنا نواجه مشكلة كبرى مع أرشيف (م آي ٦) . فقد كان هذا الارشيف في حالة من الفوضى . فدائرة التجسس المضاد تحتفظ بسجلاتها الخاصة بها ، وكذلك هو الأمر بالنسبة لكافة الاقسام المقسمة جغرافيا . وكانت (م آي ٦) مصدراً للمعلومات ، وليست فاحصة لها ، ولم يعط الاّ القليل من الاهتمام لايجاد نظام فعّال لحفظ السجلات لديهم . وكان هذا هو السبب الرئيسي الذي يفسر – ببساطة – ترك العديد من الادعاءات دون ايجاد حل لها . وكان للتحريات التي قامت بها لجنة (فلوينسي) أثر جانبي تمثل في الاعتراف العام بضرورة تحسين قسم السجلات في (م آي ٦) . وأخيراً في عام ١٩٦٧ ترك (آرثر) العمل في التجسس المضاد ليتولى مسؤولية قسم السجلات في (م آي ٦) حيث قدم مساهمة كبرى الى الاستخبارات البريطانية من خلال اصلاح نظام السجلات برمته .

بعد القيام بعملية مراجعة شاملة ، تم ادراج كل واحد من الادعاءات المائتين في واحدة من المجموعات الست التالية :

أ) الادعاء المصنف على انه قائمة صحيحة ، ويعزى بشكل محدد الى جاسوس معروف .

ب) الادعاء المصنف على انه قائمة صحيحة ، ويعزى بشكل تقريبي الى جاسوس معروف .

ج) الادعاء المصنف على انه قائمة صحيحة ، ومن غير الممكن ان يعزى الى جاسوس معروف .

د) الادعاء الذي يصعب تصنيفه على انه قائمة صحيحة أم لا بسبب نقص في المعلومات .

هـ) الادعاء المشكوك فيه

و) الادعاء الذي ليس قائمة صحيحة ، أي مهمل .

في الوقت الذي أخذ (هوليس) يقترب فيه من الاحالة على التقاعد ، بدأت (فلوينسي) تكشف عن صورة جديدة تماماً لتاريخ الاستخبارات البريطانية . فالعديد من الادعاءات التي نسبت سابقاً الى جواسيس معروفين مثل (فيلبي) أو (بلنت) تبين من خلال التدقيق المفصل انها نسبت اليهم على نحو خاطيء . ووجدنا من بين المائتي ادعاء التي قمنا بفحصها ، أن ثمانية وعشرين ادعاء كانت مدرجة ضمن التصنيف (ج) ذي الاهمية القصوى : اي انها قوائم صحيحة لجواسيس لم يتم اكتشافهم بعد .

ومـــن بين الادعــاءات الثمانيـــة والعشـــرين ، كانـــت هنـــاك عشـــر ادعاءات هامة فعلاً ، وتتعلق بـ (م آي ٥) :

١ - ادعاء (فولكوف) عن " نائب الرئيس " المؤرخ في ايلول ١٩٤٥ .

٢ - ادعاء (غوزينكو) عن " إيلي " المؤرخ ايضا في ايلول ١٩٤٥ .

٣ - الادعاء حـــول خيانة (سكربكين) المؤرخ في عام ١٩٤٦ (المعلومات وردت من راستفوروف عام ١٩٤٥) .

٤ - ادعـــاء (غـــولينيفسكي) عـــن " عميل متـــوسط الدرجة " والمؤرخ بعد منتصف سنوات الخمسينات .

٥ - معلومات (غوليتسين) عن التحقيق في قضية (سكربكين) ومؤرخة ايضا عام ١٩٤٦ .

٦ - معلومات (غوليتسين) عن الخزنة الخاصة في مقر الـ (ك ج ب) لحفظ المواد الواردة من الاستخبارات البريطانية .

٧ - معلومات (غوليتسين) عن فهرس الملفات في مقر الـ (ك ج ب) المتعلق بالمواد الواردة من الاستخبارات البريطانية .

٨ - معلومات (غوليتسين) عن وثيقة " التقنيات " .

٩ - معلومات (غوليتسين) عن الترتيبات الخاصة لحماية الجالية السوفييتية في (لندن) .

١٠ - معلومات (غوليتسين) عن افشاء سر مهمة (كراب) للغوص .

وتعود تواريخ كل واحدة من ادعاءات (غوليتسين) الى الفترة الواقعة بين ١٩٦٢ - ١٩٦٣ .

اما الأمر المذهل حقاً فيما يتعلق بهذه القائمة ، فانه يكمن في الطريقة التي اتبعت ، حيث ســـارت وفـــق تـــرتيب زمني واضح يمتد بين عامي ١٩٤٢ - ١٩٦٣ . وعلى الرغم من ان معلـــومات (غوليتسين) هـــي أحـــدث المعلـــومات ، الاّ انها لم تكن محددة بشكل كاف لتشير باتجاه أي ضابط ، بعيداً عـــن حقيقـــة انهـــا تشير بوضوح الى اختراق على مستوى عال . غير ان حلقات (غوليتسين) الثلاث الاولى - حتـــى ولو كانـــت مـــؤرخة وتعـــود الى فتـــرة قديمة - فانهـــا قـــد حولت عمل (فلوينسي) وأشارت لأول مرة باتجاه (هوليس) .

١٩

كانت قائمة (قسطنطين فولكوف) أول حلقة بدأنا عملية التحقيق بها ، وقد كانت موضوع عملية تحريات مكثفة قـام بهـا القسم (د٣) لتعقب آثار الجاسوس الثاني الموجـود فـي وزارة الخارجيـة ، والذي ورد اسمه في تلك القائمة . وقررت ان يقوم (جيفري سادبيري) الضابط في قيادة الاتصالات الحكومية الذي أشرف على برنامج (فينونا) باعادة ترجمة الوثيقة كاملة ، اذ انه كان يتكلم اللغة الروسية بطلاقة . على أن الأهم من ذلك كله ، هو انه كان – ومن خلال برنامج فينونا – قد اعتاد نوعية اللغة التي كانت تستخدمها الاستخبارات الروسية أيام محاولة (فولكوف) الهرب ، في حين ان موظف السفارة البريطانية في تركيا الذي قام بالترجمة الاولى لم يكن كذلك .

وقد أثارت اهتمامي احدى النقاط المدونة في قائمة (فولكوف) بشكل خاص . فقد أشارت الترجمة الاولى الى معرفته بملفات ووثائق تتعلق بعملاء سوفييت على درجة كبيرة من الأهمية داخل احدى المؤسسات الهامة في (لندن) : " ومن خلال الحكم على أسمائهـم السرية ، يتبين ان عددهـم سبعة ، خمسة منهم في الاستخبارات البريطانية ، واثنان في وزارة الخارجية . وأنا أعرف – على سبيل المثال – ان أحد هؤلاء العملاء يقوم بمهام رئيس دائرة من دوائر التجسس المضاد البريطانية " .

حينما تم تجميع وتصنيف القضية الموجهة ضد (فيلبي) عام ١٩٥١ ، افترضت (م آي ٥) ان الجاسوس الأخير الذي أشار (فولكوف) اليه هو (فيلبي) الذي كان يقوم فعلاً عام ١٩٤٥ بمهام رئيس دائرة التجسس المضاد في (م آي ٦) المسؤولة عن مكافحة التجسس الروسي . ولما كنت على

معرفة كافية باللغة الروسية من خلال برنامج (فينونا) فقد تبين لي انه لم ترد في الترجمة الأولى كلمتان روسيتان همـا (أوتـديل وتعني قسم / وكذلك كلمـة ابرافالينييه وتعنـي مديـرية أو قسـم على مستوى عال) . وعلى أي حال ، فليس هناك مـن سبب لا يمكن دحضه حـول ان هذه النقطـة التي أوردها (فولكوف) لا تعني الاّ (فيلبي) فقط . فقد كان عدد الجواسيس داخل الاستخبارات البريطانية يبلغ خمسة جواسيس وأي من اولئك يمكن ان يكون (فيلبي) بكل بساطة .

بعد مرور بضعة أيام على تسليمي لـ (سادبيري) قائمة (فولكوف) اتصل بي هاتفياً ، وكان الانفعال بادياً في صوته ، حتى كاد ان ينسى ان يدير مشوش الصوت . قال : " الترجمة خطأ ، واللغة كلها من مصطلحات ن . ك . ف . د . يبدو ان الرجـل الذي كتبها هو علـى مستوى عـال . لقد كتبها بعنايـة كبيرة ، وهو يعتز بمهارتـه المهنية ومعرفتـه . ويجب ان تُقرأ الترجمـة الحقيقيـة : [وأنا أعرف – على سبيل المثال – أن أحد هؤلاء العملاء يقوم بمهام رئيس قسم في مديرية التجسس المضاد البريطانية] " . وتابع :

" لقد اعتقدت – في الواقع – ان منصب هذا الرجل مؤقت فهو (يقوم بمهام) ولا يشغل المنصب نفسه ، وهذا يشير الى انه نائب الرئيس أو شيء من هذا القبيل " .

وأجبته بحذر :

" أنا آسف " .

وصاح (جيوفري) من خلال الخط المشوش :

" لكن ، ألا ترى ان مديرية التجسس المضاد البريطانية هي (م آي ٥) وليست (م آي ٦) " .

كان المعنى واضحاً مثل البلّور . فـان كان (سادبيري) على حـق ، فان هذا الجاسوس لم يكن (فيلبي) وهـو ليس (بلنت) ايضـاً لأنه لم يكن نائب رئيس أي شيء قط . وكان هناك رجل واحد فقط هـو نائب رئيس مديرية التجسس المضـاد البريطانية بين ١٩٤٤ – ١٩٤٥ ، وكـان اسمـه (روجر هوليس) .

وكان الادعاء الثاني هو جاسوس (م آي ٥) التابع لـ (ايغور غوزينكو) وهو (إيلي) الذي رأيته أول مرة فـي دفتـر مـذكرات (آن لاست) وذلك خلال التحقيق في قضيـة (ميتشل) . وقامـت لجنة (فلوينسي) باعادة فحص قضية (إيلي) بشكل مفصـل . اما ما هو غير عادي فيما يتعلق بـ (ايلي) التابع لـ (غوزينكو) فقد تمثل في ان هـذه الحقيقة ظهرت في شهر ايلول ١٩٤٥ ، أي بالضبط ، في نفس الفترة التي ادعى فيها (فولكوف) عن " نائب الرئيس " وخلال الفترة التي قمنا خلالها بالاختراق الخطير لحركة اتصالات (فينونا) .

اما جـوهـر قصـة (غوزينكو) فقـد كان بسيطاً جداً . لقد قال انه يعرف بوجود جاسوس

في (م آي ٥) وانه عرف بهذا الأمر من خلال صديق له يدعى (لويبيموف) كان يعمل معه جنباً الى جنب في غرفة الشيفرة الرئيسية للاستخبارات العسكرية الروسية في (موسكو) عام ١٩٤٢ . كانت اتصـــالات (ايلي) تُعـــالج عن طريق صناديق الرسائل الميتة وكان احدها فتحة في شاهد احد القبور . كان ثمة جو روسي يحيط بـ (ايلي) كما قال (غوزينكو) وكان هذا الجو إما بسبب خلفيته الثقافية أو لأنه زار روسيا ، أو لانه يتكلم اللغة الروسية . وكان (ايلي) على درجة من الأهمية لأنه كان يستطيع نقل ملفات (م آي ٥) المتعلقة بالروس الموجودين في (لندن) .

وقد عرض (لويبيموف) على (غوزينكو) اجزاء برقيات وردت من الجاسوس الذي كان اسمه السري (ايلي) . وأفاد (غوزينكو) بأن برقيات (ايلي) حينما كانت تصل ، فانه كانت تتم معالجتها من قبل امرأة تكون موجودة في غرفة الشيفرة ، حيث تقرأ تحليل الشيفرة أولاً ، ثم تأخذ تلك الرسائل الى (ستالين) مباشرة حينما يكون الأمر ضرورياً . ودعوت (اسماعيل احميدوف / وهو ضابط في الاستخبارات العسكرية السوفييتية كان قد هرب الى الغرب مع نهاية الحرب) الى بريطانيا ، وسألته عن هوية تلك المرأة ، فقال انها تدعى (فيرا) وهي التي تقوم بادارة كل افراد الاستخبارات العسكرية السوفييتية غير الشرعيين في الغرب ، وكانت تعمل تحت إمرته مباشرة ، وإن كانت لم تشكف له أبداً عن هوية عملائها لأن الاجراءات الامنية تتطلب ذلك . أما (الكسندر فوت / الذي كان يعمل لصالح الاستخبارات السوفييتية كعميل غير شرعي في سويسرا أثناء الحرب قبل ان يهرب في أواخر الاربعينات) فانه وصف (فيرا) في كتابه " دفتر الجواسيس " بانها كانت المرأة المسؤولة عنه حين زار (موسكو) للتدريب عام ١٩٤٥ .

وكانـــت المشكلـــة الأولى فـــي قصة (غوزينكو) هي انه قد غير التفاصيل بعد كل تلك السنين منـــذ أن بـــدأ بسردها عام ١٩٤٥ . فقد أصبحت (خمسة م آي) (م آي ٥) والفرق هنا كبير . فنظريا ، ان (خمسة م آي) يمكن ان تكون القسم رقم ٥ من (م آي) وكان (فيلبي) يعمل عام ١٩٤٢ في القسم الخامس من (م آي ٦) . وكانت المشكلة الثانية المتعلقة بـ (غوزينكو) هي انه أصبح في منتصف سنوات الستينات مدمناً على الكحول على نحو لا رجعة عنه ، ولذلك ، فانه لم يعد بالامكان الاعتماد على ذاكرته فيما يتعلق باحداث وقعت قبل ما يزيد على عشرين سنة . وأرسلت الى الشـــرطة الملكية الكندية طالباً منها الاذن لمقابلة (غوزينكو) مرة أخرى ، غير ان الكنديين أخبرونا أن (غوزينكو) كان يثير المتاعب امام السلطات الكندية بسبب ادمانه على الكحول ، وإلحاحه المتواصل في طلب النقود . وكانوا يخشون أن يؤدي أي اتصال آخر الى اثارة المشاكل عن طريق نشره لهدف مقابلتي له .

سألت الشرطة الملكية الكندية فيما اذا كانت تتوافر لديهم الملاحظات الاصلية المتعلقة

باستخلاص المعلومات من (غوزينكو) باعتبار ان هذه الملاحظات هي أفضل دليل على ما قاله بدقة عن (ايلي) خلال الايام الأولى التي أعقبت هروبه . وقد تبين ان ضابط الشرطة الملكية الكندية الذي أشرف على استخلاص المعلومات من (غوزينكو) قد توفي منذ مدة طويلة ، ولم تكن الملاحظات التي استخلصها قد تم تصنيفها في ملفات ، وعلى الغالب ، فانها قد تعرضت للتلف .

غيــر ان الــدليل المــوجــود في ملفات الاستخبارات البريطانية قد عمل على تعقيد قصة (غوزينكو) اكثـــر . فحين هـــرب (غوزينكو) ســافر (بيتر دواير) وهو ضابط في (م آي ٦) من (واشنطن) الى كنـــدا ليشهـــد استجواب (غوزينكو) . كان (دواير) يرسل برقيات يومية الى (م آي ٦) في (لندن) يلخص فيها المعلومات التي حصل عليها من (غوزينكو) وكانت تتم معالجة هذه البرقيات من قبل رئيس قسم مكافحة التجسس السوفييتي في (م آي ٦) وهو (كيم فيلبي) الــذي كــان عليـــه - فـــي الاسبـــوع التالي - أن يــواجـــه المشكلـــة الملحة المتمثلة في اتصال (فولكوف / الذي حدث خلال ذلك الوقت) مـــع البـــريطانيين في تركيا . ومن حسن الحظ ، انه طلب من نظيره في (م آي ٥) وهو (روجر هوليس) الذهاب الـــى كندا لمقابلة (غوزينكو) عوضاً عنه . وتساءلنا : هـــل كـــان هـــذا الأمر مجـــرد صـــدفـــة ، أم انـــه عملية قد تم ترتيبها في ضوء معرفة (فيلبي) ان (هوليس) هو جاســوس ، وبامكـــانه الوثوق به من حيث امكانيته في تعكير المياه في قضية (غوزينكو) ؟ . ومع ذلك ، فاننا عرفنا من خلال برنامج (فينونا) بان الـ (ك ج ب) لم تكـــن على علم بوجود جاسوس للاستخبـــارات العسكـــرية الـــروسية في (م آي ٥) حيـــن قـــام (هوليس) بالسفر الى كندا ومقابلة (غوزينكو) . اما اكثر معلومة كانت في حوزة (غوزينكو) من حيث دقتها وأهميتها فقد كانت تتعلق باحتمال وجود جواسيس في برنامج تطوير الأسلحة الذرية ، وقد أسهب تقرير (هوليس) في هذه الناحية . اما الجاسوس (ايلي) المـــوجـــود في " خمســـة م آي " فقـــد كان عبارة عن ملاحظة وردت في أسفل الصفحة . وقد حكم (هوليس) على (غوزينكو) بان معلـــوماته عن تركيبة الاستخبـــارات البـــريطانية هي معلومات مشوشة . كان (غوزينكو) على خطأ ، فتم دفن الموضوع ، وبالطبع ، فان هذا الحكم كان خاطئاً .

ومع ذلك ، فان الدليل كان مسجلاً في ذهن (غاي ليدل) الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس قسم التجسس المضاد . ففي مذكراته ، كان قد تكهن بالهوية المحتملة للجاسوس (ايلي) . والغريب في الأمر هو أنني لم أعرف عن هذا الا بعد أن أحضرت لي سكرتيرته العجوز تلك المذكرات ، وطلبت مني الاحتفاظ بها ، بعد أن كان (هوليس) قد أوعز باتلافها . وتوقفت مرة أخرى للتفكير : هل هذا الامر هو مصادفة ، أم أن لدى (هوليس) سبباً آخر لاتلاف مذكرات (ليدل) ؟ .

في عام ١٩٦٥ عملنا على اختراق رسالة جديدة من برنامج (فينونا) حيث عملت هذه الرسالة

على تحويل تخمينات لجنة (فلوينسي) حول مزاعم (غوزينكو) عن (ايلي) الى قائمة صحيحة . فقد بدأ الاسبـــوع الـــوحيد لحركة اتصالات (فينونا) التي اخترقناها ، في الخامس عشر من ايلول عام ١٩٤٥ برسالة موجهة الى (كروتوف) تبحث – دون أي شعور بالذعر والهلع – الاحتياطات التي يجب عليـــه اتخاذهـــا لحمايـــة " ارغينتورا " التي لا تقدر بثمن ، وذلك في ضوء المشاكل التي يواجهها " الجيران " في كندا . وكان من الواضح ان هذا هو اشارة الى هروب (غوزينكو) الى كندا في الاسبوع الماضي . أما كلمة " الجيران " وكما كنا نعرف من قبل فانها تعني بلغة الـ (ك ج ب) الاستخبارات العسكرية الروسية التي يعمل (غوزينكو) لصالحها . ولم يكن لدى الـ (ك ج ب) أي سبـــب لاثارة مخافها مـــن امكانيـــة ان يكون أي من عملائها في بريطانيا قد أصبح عرضة للشبهة او للخطر بسبب (غوزينكو) . فالاستخبارات العســكرية الروسية لا تعرف أي شيء عن أسرار الـ (ك ج ب) وفي أي حال من الاحوال ، فان (فيلبي) موجود هناك لمراقبة اي تطورات غير متوقعة بشكل يومي .

ومع ذلك ، ومع حلول نهاية حركة اتصالات الاسبوع في الثاني والعشرين من ايلول أصبحت نغمة الرسائل تأخذ بالاختلاف بشكل ملحوظ . فقد اختفت النغمة المسترخية وصدرت تعليمات مفصلة ومدروسة الى (كروتوف) حول كيفية وجوب تعامله مع عملائه ، والتي كانت تتركز على " استخدام الاتصالات السريعة " والحد من الاجتماعات الى الحد الأدنى الممكن ، بمعدل مرة واحدة في الشهر اذا كان ذلك ممكناً .

اما السؤال الذي كنا بحاجة الى الاجابة عليه فهو : لماذا أصبح مركز (موسكو) متخوفاً جداً وبشكل مفاجيء من شهادة (غوزينكو) ؟ لقد هرب (غوزينكو) فعـــلاً في الخامس من أيلول ، أي قبل اسبوعين ، ومـــن المؤكد ان الاستخبارات العسكرية الروسية قامـت بتقدير الأضرار الناجمة عن ذلك ، واتخذت الترتيبات الوقائية الدقيقة لحماية أي معلومات يمكن ان يكون (غوزينكو) قد أفشاها . ومع حلول اليوم الثاني عشر من شهر ايلول ، كانت تفاصيل ما قاله (غوزينكو) الى الذين يقومون باستخلاص المعلومات منه في كندا ، كانت تتدفق من (بيتر دواير) الى (كيم فيلبي) فـــي مقر قيادة (م آي ٦) في (لندن) . ومع هذا ، فان الـ (ك ج ب) لم يشعر بالقلق المفاجيء الاّ بعد مرور اسبوع على ذلك .

امـــا الاجابـــة على ما ورد أعـــلاه ، فانها موجودة في ملفات (م آي ٦) المتعلقة بتلك الفتـــرة . ففي ١٨ – ١٩ ايلول ، وصلت برقية الى مكتب (فيلبي) وتتضمن أول وصف مفصل أدلى به (غوزينكو) عن جاسوس يحمل اسماً مستعاراً هو (إيلي) . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يطلع فيها (فيلبي) على أي اشارة تشير الى الجاسوس الموجود في " خمسة م آي " . وحينما قمنا

بفحـــص البـــرقية الاصلية خلال سنوات الستينات ، تبين لنا أنها كانت مطوية على شكل أربع طويات ، وقد اتسخت حوافها الاربع ، بحيث بدت وكأنها وضعت في جيبة داخلية ، وقد كتبت عليها حروف (هـ . أ . ر . ب) وهـــي الحروف الاولى من اسم (فيلبي) وكانت الكتابة مؤرخة بعد يومين من استلامه لها . ومن الـــواضح ، انـــه قام بأخذ الرسالة خلال هذين اليومين ليعرضها على الروسي الذي يشرف عليه في (لندن) . ولم نجد في الملف أي برقية أخرى تتعلق بـ (غوزينكو) قد تم التعامل معها بهذه الطريقة . وكان من الواضح أن هذه هي البرقية التي تسببت في اثارة مثل هذه المخاوف في حركة اتصالات نهاية الاسبوع في برنامج (فينونا) .

وطلبت مـــن قيادة الاتصالات الحكومية أن تقوم بتدقيق وتفتيش كافة حركات الاتصالات المتعلقة بالـ (ك ج ب) المتدفقة من (لندن) الى (موسكو) . ولم نتمكن من قراءة أي من هذه الاتصالات . اما النظائر التي تمكنا من الحصول عليها في برنامج (فينونا) فقد كانت تصل من الخط الآخـــر ، أي مـــن (موسكو) الى (لندن) . وقد أخبرني (سادبيري) ان الشيء الوحيد الذي تمكنت قيادة الاتصالات الحكومية من اكتشافه في حركة الاتصالات ، كان عبارة عن رسالة مرسلة بتاريخ ١٩ – ٢٠ ايلول وقد أخبرونا (قيادة الاتصالات) ان هذه الرسالة كانت لها الافضلية بسبب انها طغت علـــى كـــل الـــرسائل الأخـــرى في القناة . وكانت أهمية هذه الرسالة واضحة ، فقد ارسلت في اليـــوم التالي لاستلام (فيلبي) برقية (م آي ٦) المتعلقة بوصف (غوزينكو) للجاسوس (ايلي) في " خمسة م آي " . وبالفعل ، حينما قامت قيادة الاتصالات الحكومية باجراء تحليلات لتصنيف المجموعة لهذه الرسالة ، فانهم توصلوا الى انها كانت مرسلة بنفس الطول الزمني الذي استغرقته برقية (م آي ٦) المرسلة من كندا ، التي أخذها (فيلبي) من الملفات .

وحالما تأكد لنا ان (لندن) قد أرسلت رسالة لها الأولوية القصوى الى (موسكو) بدأنا البحث عن الرد على هذه الرسالة ، فوجدنا ان هناك رسالة لها الأولوية القصوى مرسلة على الخط بالاتجاه المعاكس : من (موسكو) الى (لندن) . غير اننا لم نتمكن على الاطلاق من قراءة هذه الرسالة الخاصة على نحو دقيق . كانت الرسالة مؤرخة مع نهاية حركة اتصالات الاسبوع بشكل متطابق ، ولكن بما أنها تحظى بالاولوية القصوى ، فانه تم استلامها في (لندن) بشكل مبكر اكثر من بقية الرسائل التي تمكنـــا مـــن قراءتها . ومـــع نهاية عام ١٩٦٥ قمت أنا و (سادبيري) بهجـــوم مبيت على هذه الرسالة ، مستخدمين في ذلك اسلوب التخمين غير المباشر ، فاعتبرناها رداً على رسالة تحتوي على المعلـــومات المتعلقـــة ببرقية (فيلبي) . وأخيراً ، تمكنا من اختراقها ، فتمت قراءتها على الشكل التالي : " تم الحصول على موافقة الرؤساء للتشاور مع الجيران حول معلومات (ستانلي) عن قضاياهم في كندا . معلومات (ستانلي) صحيحة " .

وأتذكر كيف كنت أجلس في مكتب (سادبيري) وأنا أشعر بالحيرة تجاه هذه الترجمة ، فهي لا تفيد أي معنى . وتساءلت فيما اذا كنا قد ارتكبنا غلطة ما ، غير ان (سادبيري) عمل على تدقيق الترجمة بالمقارنة مع الجانب الآخر من برنامج (فينونا) ، وقد أشارت حركة الاتصالات التجارية الى عدم وجود أي مجال للخطأ . لقد كان (فيلبي) خلال الفترة التي ارسلت فيها هذه الرسالة عميلاً على مستوى عال لدى الـ (ك ج ب) وفي الوقت ذاته كان رئيساً لقسم التجسس المضاد في (م اي ٦) خلال مرحلة هامة من السنوات العشر ، ومع ذلك ، فقد ظهر كما لو أنهم كانوا يشكون في معلوماته الاستخباراتية . لماذا كانت المعلومات بحاجة الى تدقيق ؟ وما هي الامور المتعلقة بمعلومات (ستانلي) التي أثارت كل هذا الاضطراب لدى الـ (ك ج ب) ؟ .

هناك تفسير واحد فقط لكل هذه الأمور الغريبة ، وهو انه لا بد وان الـ (ك ج ب) لم تكن على معرفة بجاسوس " خمسة م أي " الذي تشرف عليه الاستخبارات العسكرية الروسية . وهكذا ، فحين نقل اليهم (فيلبي) أخبار هذا الجاسوس والتهديد الذي يتعرض له نتيجة هروب (غوزينكو) فانه كان من الواجب على الـ (ك ج ب) الحصول على موافقة " الرؤساء " وهم المكتب السياسي ، كي يتشاوروا مع " الجيران " وهم الاستخبارات العسكرية الروسية ، وسؤالهم عما اذا كان لديهم بالفعل مثل هذا الرجل في (لنـــدن) . ولما اكـــدت الاستخبارات العسكرية الروسية للـ (ك ج ب) وجود هذا الجاسوس ، تأكد الـ (ك ج ب) من انه سيتم تشديد الاجراءات ومطاردات الجواسيس في (لندن) فأرسلت الرسالة لتؤكد صحة معلومات (ستانلي) وأتبعت بتعليمات عاجلة لتعزيز الاحتياطات الامنية .

ولكن مَن هو (ايلي) وأين كان يعمل ؟ . انه بالتأكيد ليس (فيلبي) أو (بلنت) لاننا كنا نعرف ان الاستخبارات العسكرية الروسية لم تقم في أي وقت من الاوقات بادارتهما . وسألت كل الروس الهاربين المـــوجـــودين في الغرب ما الذي تشير اليه عبارة " خمسة م آي " فأكد جميعهم انها تعني (م آي ٥) وليس القسم الخامس في (م آي ٦) أو أي شيء آخر . ومهما كان هو الشخص المـــدعو (ايلي) فانـــه لا بد له من حرية الوصول والاطلاع على الملفات المتعلقة بالروس ، مما يعني - ودون أي مجال للشك - ان مجال عمله هو في (الفرع ف) حيث تتم معالجة هذه المادة . والمسؤول الكبير في (الفرع ف) هـــو (روجر هوليس) ويتطابق تماماً مع المشبوه الذي حدده (فولكوف) بأنه " نائب الرئيس " .

و قضت لجنة (فلوينسي) سنوات وهي تحاول حل المعضلة الكامنة في ثلاثة خيوط متشابكة هي : " نائب الرئيس " الذي أشار اليه (فولكوف) و (ايلي) الذي ذكره (غوزينكو) والاسماء السرية الثمانية التي وردت في (فينونا) والتي تجمعت - الخيوط الثلاثة - معاً في ذلك الاسبوع من شهر ايلول عام ١٩٤٥ . هل هو (ميتشل) أم (هوليس) ؟ هل هما كلاهما أم أن هناك شخصين آخرين

غيرهما ؟ ان التشابهات بين هذه الخيوط غامضة وموحشة . ان " نائب الرئيس " و " ايلي " يشيران كلاهما الى نفس الشخصين ، غير ان الادعاء الاول أتى من الـ (ك ج ب) في حين ان الثاني كان من الاستخبارات العسكرية الروسية . وكانت (فينونا) تتضمن ثمانية أسماء جواسيس ، وأشارت قائمة (فولكوف) الى سبعة منهم في (لندن) : اثنان في وزارة الخارجية ، وخمسة في الاستخبارات البريطانية . وقد كان (ماكلين) في (واشنطن) لمدة سنة ، ولذلك فانه لا يمكن ان يكون أحد جاسوسي وزارة الخارجية ، ولكن من المحتمل ان يكون (بيرغس) أحدهما ، اذ كان يعمل في الدائرة الصحفية في وزارة الخارجية في ذلك الوقت المتعلق بالقضية . وكان اكبر احتمال بالنسبة للجاسوس الآخر هو " ايتون و اوكسفورد " التابع لـ (كريفيتسكي) والذي استخدمه (فيلبي) لابعاد نظر (م آي ٥) عن (ماكلين) حينما التفت الشبكة حوله عام ١٩٥١ .

ولكن ، ماذا بشأن الجواسيس الخمسة في الاستخبارات البريطانية ؟ كان أحدهم (فيلبي) و الآخر (بلنت) والثالث (كيرنكروس) وربما كان رابعهم (لونغ) جاسوس (فولكوف) نظرياً ، غير انه لم يكن في (لندن) في هذا الوقت ، ولم يكن من المحتمل ان يكون واحداً من الاسماء الثمانية التي وردت في (فينونا) لأنه كان في المانيا في شهر ايلول عام ١٩٤٥ . وبعد ذلك ، يبقى هناك جاسوس واحد وفقاً لما ادعاه (فولكوف) وهو " نائب الرئيس " اضافة الى أربعة أسماء سرية وردت في (فينونا) والتي يفترض ان يكون " نائب الرئيس " واحداً منها ، اضافة الى جاسوس (فولكوف) الآخر في وزارة الخارجية . اما فيما يتعلق بـ (ايلي) فلم يكن ثمة أثر له في أي مكان .

اما الادعاء الثالث الذي بحثته لجنة (فلوينسي) فقد كان قضية (سكريكين) . وقد أخبرنا عن هذه الادعاءات (يوري راستفوروف) السكرتير الثاني في السفارة الروسية في (طوكيو) والذي كان في الواقع برتبة مقدم في الـ (ك ج ب) . فقد اتصلت استخبارات سلاح البحرية مع (راستفوروف) في خريف عام ١٩٥٣ ، وبدأت التفاوض معه حول هروبه . وفي النهاية ، وافق (راستفوروف) على الهروب ، شريطة ان يؤخذ مباشرة الى إحدى المستعمرات البريطانية مثل (استراليا !) وليس الى بريطانيا . وأوضح ان سبب تردده في الذهاب الى بريطانيا كان بسبب معرفته ان الاستخبارات البريطانية كانت مخترقة على الرغم من انه لم يسهب في هذا اكثر .

وقد اتخذت دائرة استخبارات سلاح البحرية الترتيبات اللازمة لسفر ضابط الـ (ك ج ب) على متن طائرة نقل تابعة لسلاح الجو الملكي من (طوكيو) إلى (سنغافورة) حيث كان من المنوي تسليمه الى هيئة استخبارات الأمن لشؤون الشرق الاقصى ، وهي هيئة مشتركة من (م آي ٥) و (م آي ٦) . ولم يتم اعلام (راستفوروف) عن هذه الخطط . ولكن - لسوء الحظ - انه حينما وصلت الطائرة الى نهاية المدرج ، فانها لم تتمكن من الاقلاع بسبب هبوب عاصفة ثلجية على (طوكيو) . و بينما كانت

الطائرة تنتظر هدوء العاصفة ، كشفت ثرثرة طاقم الطائرة لـ (راستفوروف) ان الطائرة ستتـــجه الـــى (سنغافورة) وليس الى استراليا ، مما ادى الى اصابته بالفزع ، وهروبه من الطائرة ، ومن ثم توجه على الفور الى السفارة الامريكية ، وهرب اليهم بدلاً منا .

بعد مرور وقت على ذلك ، ذكرت (السي آي ايه) ان (راستفوروف) قد أعطى تفصيلات أخرى عن الاسباب التي دعته الى الاعتقاد بان الاستخبارات البريطانية كانت مخترقة . فقد أفاد أن صديقاً له يدعى الملازم (سكريكين) قد اتصل بالبريطانيين في منطقة الشرق الاقصى عام ١٩٤٦ وعــرض عليهم موضوع هربه . وقام باتخاذ ما يلزمه من ترتيبات للعودة الى (موسكو) لاحضار زوجته ، وليهرب معها خلال زيارته الثانية الى خارج البلاد . وحين عاد (سكريكين) الى (موسكو) كـــان قـــد تم اكتشافه من قبل الـ (ك ج ب) ، اذ اتصل به ضابطان من ضباطها ، وادعيا انهما من (م آي ٦) فكشف عن نفسه ، فحوكم ، ثم اعدم رمياً بالرصاص .

حينما نبحث عن (سكريكين) في قسم السجلات ، فاننا نجد له – فعلاً – ملفاً يتضمن صوراً عن تقــريري استخبــارات سلاح البحــرية في منطقة الشرق الاقصى المتعلقين بخطط (سكريكين) للهرب ، أحدهما مؤرخ في شهر أيار ١٩٤٦ ، والثاني في شهر تموز ١٩٤٦ . وقد تبين انه تم ربط التقريرين معاً بدبوس ، ومن ثم ارسلا من قبل استخبارات الأمن لشؤون الشرق الاقصى الى قسم المعلومات في (م اي ٥) حيث وصلا (لندن) خلال النصف الاول من شهر آب . وقد تمت معالجة التقرير من قبـــل (روجر هوليس) مساعد مدير (الفرع ف) ومن قبل ضابط مستجد أيضاً . فقد أوعـــز (هـــوليس) الى الضابط المستجد للقيام بفتح ملف ووضعه في قسم السجلات ، حيث بقي هناك ، إلـــى أن قـــــام (راستفوروف) بســـرد قصته عام ١٩٥٤ . وحينما تم استرجاع الملف ، فان (م اي ٥) عزت العملية بشكل تلقائي الى (فيلبي) .

حينما أعادت لجنة (فلوينسي) فحص القضية مرة ثانية ، فان حقائق جديدة قد شقت طريقها الى النور . ففي البداية ، وحينما هرب (غوليتسين) عام ١٩٦١ ، فانه سألنا ماذا نعرف عن قضيـــــة (سكريكين) وقال انه عمل على هذه القضية عام ١٩٤٦ حينما كان ضابطاً مستجداً في فرع التجسس المضاد في المديرية الرئيسية الأولى . واستذكر ان التقرير قد وصله من (لندن) وبالتأكيـــد ليـــس من الشرق الاقصى ، وكان ذلك في نهاية عام ١٩٤٦ حينما كان الثلج يغطي الارض في (موسكو) . و دون أن نحثه على الكلام ، روى (غوليتسين) قصة كيف ان اثنين من رجال الـ (ك ج ب) قاما بخــــداع (سكريكين) حينما تظاهرا بأنهما من ضباط (م آي ٦) . وقد طُلب الى (غوليتسين) ان يصف الوثيقتين اللتين رآهما ، ومن المثير للدهشة انه تمكن من ذلك بدقة . فقد قال ، ان الوثيقة الأولى كانت عبارة عن سبر غور (سكريكين) وتقييما لقيمته في حين كانت الثانية

خلاصــة لخططه المستقبلية ، بما في ذلك عنوان في (موسكو) للاتصال به . وقال (غوليتسين) ايضاً انــه كـان متأكـداً مــن ان الورقتين كانتا مثبتتين مع بعضهما بواسطة دبوس حينما قام العميل بتصويرهما .

والحقيقة الثانية التــي تبينت للجنة (فلوينسي) انه حينما قام (نيكولاس إيليوت) باستجـــواب (فيلبــــي) فـــي (بيروت) فـــان الأخيـــر سئل فيمـــا اذا كـــان قـــد وشى بـ (سكريكين) وقد أنكــر (فيلبي) بشدة ان يكون قد قام بذلك ، وانه لم يكن يعلم عن القضية ، حتى حينما أعطــي تفصيلات اكثــر عنها . وكان هذا أغرب ما في الأمر لاننا افترضنا ان من المثير بالنسبة الــى (فيلبي) ان يـــدعي شرف هذه القضية . ومن المحتمل ان يكون (فيلبي) قد قال الحقيقة هذه المرة .

وقمـــت باتخـــاذ ترتيبـــات من أجـــل القيام بعملية بحث كاملة لعملية التوزيع الكاملة لتقريري (سكريكين) لأرى فيما اذا كانت هناك امكانية ان يلقي هذا الأمر قليلاً من الضوء على القضية . وكانت النتائج مجدية تماماً ، إذ تبين ان تقرير شهر أيار قد أرسل الى استخبارات سلاح البحرية في (هونغ كونغ) وإلى استخبارات الأمن لشؤون الشرق الأقصى في (سنغافورة) والى دائـــرة استخبارات سلاح البحرية في (لندن) حيث عملوا على إدراج التقرير في قائمة الوثائق لديهم ، وقاموا بتوزيعه داخل اقسام المديرية ، كما قاموا بارسال نسخة روتينية الـــى قسم سلاح البحرية الموجود فـــي القسم (ر) فـــي (م آي ٦) ، وقام هؤلاء بدورهم بارساله الى (القسم ٥) الذي قام بتصنيفه . وقد أظهرت عمليات البحث المكثفة في سجلات (م آي ٦) ان (فيلبي) لم يكن مدرجاً على قائمة التوزيع على الاطلاق .

اما وثيقة شهر تموز ، فانها وزعت في نفس الاتجاه السابق باستثناء استخبارات الامن لشؤون الشرق الاقصى في (سنغافورة) . وعند هذه النقطة ، قرروا ربط التقريرين معاً ، وارسالهما بشكل روتيني الى (م آي ٥) حيث وصلا في الثامن من شهر آب . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تعرف فيها (م آي ٥) أي شـيء عن القضية ، وكان ذلك هو المكان الوحيد حيث تم ربط التقريرين مع بعضهما ، وهي الحقيقة التي تنسجم تماماً مع ما أورده (غوليتسين) . وأي شخص كان ذلك الذي وشى بـ (سكريكين) فانه لا بد ان يكون داخل (م آي ٥) وليس (م آي ٦) مما يعني استبعاد كل من (فيلبي) و (بلنت) اللذين كانا لتوهما قد تركا (م آي ٥) في السنة الماضية . وللمرة الثانية ، تشير أصابع الاتهام نحو (روجر هوليس) نائب مدير (الفرع ف) الذي عالج ملف (سكريكين) .

حالما توضح شكل ادعاءات لجنة (فلوينسي) بدأت تنفيذ أخطر مهمة توليت أمرها ، حيث بدأت القيام بتحرياتي " الحرة " الخاصة عن خلفية (هوليس) دون أن أحصل على أي تصريح . كان من

الـــواجب عليّ أن أكـــــون حـــذراً ، سيما وانني كنت مدركاً لحقيقة أن أي تسرب ، مهما كان ضيئلاً ، سيؤدي بشكـــل حتمي الى صرفي من الخدمة . سافرت الى (اوكسفورد) وقمت بزيارة مكتبة (بودليان) وهناك اكتشفت – من خلال سجلات الجامعة – ان (هوليس) لم يحصل على الشهادة الجامعية مطلقاً على الرغم من انه التحق بجامعة (اوكسفورد) في سنوات العشرينات . فقد ترك الدراسة – بشكل لا يمكن تفسيره – بعد خمسة فصول دراسية فقط ، وكان هذا الأمر يبدو غريباً بالنسبة لرجل تقليدي محافظ . ثم قمت بزيارة كلية (وورسستر) التي درس (هوليس) فيها ، وبحثت في السجلات هناك في محاولة لمعرفة هوية الشخص الذي كان يعيش معه في غرفته . في الفصل الرابع ، انتقل (هوليس) الى غرفة مستأجرة في ميدان (ويلنغتون) فقمت بالبحث في كشوفات جامعة (اوكسفورد) التي تحتوي على قائمة بعنوان كل طالب يقيم في (اوكسفورد) وذلك في محاولة مني لمعرفة اولئك الطلاب الذين كانوا يقيمون معه في البيت ، بل انني حاولت ذلك الأمر ايضاً في سجلات (جامعة غولفنغ) على أمل أن أجد هناك شيئاً يشير الى لغز شخصية (هوليس) .

ولما كنت أعمل دون أن يكون بين يدي سجل خدمة (هوليس) فانني اضطررت للعمل على نحو أعمى . وقد عرفت من خلال حديث سابق مع (هوليس) انه زار الصين ، ولذلك ، فانني تتبعت ذلك من خلال مكتب جوازات السفر بحثاً عن تواريخ وصوله الى بريطانيا ومغادرته لها . كما قمت باجراء استفسارات وتحريات حذرة عنه في (ستاندرد شارترد بانك) حيث كان قد عمل هناك قبل سفره الـــى الصين ، ولكن بغض النظر عن عنوان قديم كانت توجه اليه الرسائل من خلاله على مصرف في العاصمة الصينية (بكين) فانه لم تكن لديهم أي سجلات .

كنت أريد الحصول على دليل ما : عن حياة سرية ، أو صديق لا مبال ، أو اشارة الى أي نشاط سياسي واضح . ان كل رجل يمكن معرفته من خلال اصدقائه ، فبدأت برسم صورة لأولئك الاشخاص الذين كانت لهم علاقة مع (هوليس) خلال تلك السنوات الهامة الممتدة بين أواخر العشرينات وعلى امتداد سنوات الثلاثينات . كان هناك رجلان موضع الاهتمام بشكل خاص في (اوكسفورد) وهمـــا : (كلود كوكبيرن) و (موريس ريتشاردسون) . كان هذان الرجلان يساريين . وقد لفت انتباهي في قضية (كوكبيرن) حينما اطلعت على ملف (هوليس) ان (هوليس) قد احتفظ بالملف طوال فترة الحرب ، ولم يصرح بصداقته في ذلك الملف كما يتطلب العرف المعمول به في الجهاز . وتساءلت : هل لديه سبب يدفعه لاخفاء علاقته مع (كوكبيرن) الذي له اتصالات مكثفة مع (الكومنتيرن) ؟ .

وفي الصين كان الوضع مشابهاً لما كان عليه في بريطانيا . فقد كانت الصين خلال سنوات الثلاثينات قاعدة ساخنة للنشاط السياسي ، وأرضاً خصبة لعمليات التجنيد لصالح (الكومنتيرن) . وقـــد أخبـــرني (هيـــو وينتربورن) ان هناك ضابطاً متقاعـــداً برتبة عقيد كان على معرفة به في

(اليابان) ، وان هذا العقيد كان على معرفة بـ (هوليس) خلال وجوده في الصين ، حيث كان قد شاركه الاقامة في شقة واحدة لمدة سنة ، ورتب لي موعداً لزيارة هذا العقيد . كان (طوني ستابلز) ضابطاً عسكرياً فظاً من الطراز القديم ، وكان يتذكر (هوليس) بشكل جيد . وأخبرني أنه لم يعرف على الاطلاق مواقف (هوليس) السياسية ، غير انه كان يفترض دائماً انه يساري لأنه كان يختلط مع أناس أمثال (آغنس سميدلي) وهو صحفي يساري ، وعضو موهوب في (الكومنتيرن) اضافة الى صلته برجل آخر يدعى (آرثر إيورت) وصفه (ستابلز) بانه اشتراكي عالمي .

اما الشخص الآخر الذي قام (آرثر مارتين) بزيارته فهو (جين سيسمور) وقد كانت مسؤولة عـــن تشغيـــل (هـــوليس) فـــي (م آي ٥) قبل فترة الحرب . وقد نقلت أخيراً من (م آي ٥) الى (م آي ٦) وتزوجت من ضابط في (م آي ٦) وأصبحت تعرف باسم (جين آرتشر) . كانت امرأة ذكيـــة ومرعبة ، أشرفت على قسم البحوث المتخصص في القضايا الشيوعية ، وهو قسم قديم كان في (م آي ٦) . وقد اعتـــدت مقابلتها كثيراً من خلال عمليات الاستقصاء والتحري التي كان يقوم بها (القسم د ٣) وقد كانت متعاونة دائماً ، وأخبرتني ان عمليات التحقيق هذه كان يجب أن تبدأ قبل سنين عديدة . بعد ظهر أحد الايام طرحت عليها موضوع (ميتشل) و (هوليس) حيث ان الاثنين قد عملا معها عن قرب خلال فترة الحرب . وبما أن الايام قد جعلت من (جين) انساناً محنكاً فانها كانت تعرف بالضبط لماذا كنت افاتحها بهذا الموضوع . وسألتها :

" هل ستقولين ان من الممكن ان يكون أحدهما جاسوساً ؟ " . فأجابتني :

" كلاهما غير جديرين بالثقة ، ولكن إن كان لا بد من اختيار المرشح الاكثر ملاءمة لهذا ، فانني أختار (روجر) " .

وفي شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٥ ، اتصل بي (هوليس) هاتفياً ، وطلب مني الحضور الى مكتبه . لم يكن من المألوف بالنسبة له ان يبدو غير رسمي بالمقارنة مع ما بدا عليه ساعتها . فلم يسبق لي أن قمت بزيارة غرفة مكتبه دون أن تكون سكرتيرته موجودة . حياني بحرارة عند الباب ، وقال لي وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه :

" تعال واجلس " .

نفض الغبار الموجود على الصوفا بيده ، وجلس أمامي على كرسي الاستراحة وكان هذا الأمر أيضاً غـــريباً ، اذ انه اعتاد الجلوس على كرسي قائم الظهر . وكان متلهفاً كي يجعل اللقاء غير رسمي . تحدث معي عن تقاعده الوشيك ، فقال :

" وقت عصيب ، وراتب التقاعد لا يكفي ، وكل شيء محسوب .... " . فقلت :

" وما هي مشاريعك ؟ " . قال :

" أوه ، الى الـريف كمـا أعتقد ، فلدي مكان صغير هناك . التخلص من كل هذا ، قليل من الغولف ، وبعض النزهات على الاقدام ... وأشياء من هذا القبيل " .

وضحك ضحكة مجلجلة ، وتابع :

" من المضحك التفكير ان صورتي ستكون معلقة هناك خلال بضعة أسابيع " . قال ذلك ، وهو ينظر باتجاه الصور التي كانت تحدق به . كانوا كلهم رجالاً لهم مظاهر تختلف عن بعضهم البعض : هذا هـو (كيل) بهيئته العسكـرية الحازمـة وهـا هـو (بيتربيه) بـوقفته المنطـوية على نفسهـا ، و (سيليتوي) ذلك الشرطي المحدودب الكتفين ، وذلك هو (ديك) بفتنته الجذابة ، ومقدرته الشخصية الرقيقة .

واستدار (هوليس) ليصبح في مواجهتي ، وانحنى الى الامام ، وقد وضع يديه على ركبتيه . ومرة ثانية ، كان يبتسم مثل قطة الـ (تشيشاير) وقال لي :

" هناك سؤال واحد اريد أن أطرحه عليك يا (بيتر) قبل أن أرحل : اريد أن أعرف لماذا تعتقد انني جاسوس ؟ " .

كـان يجـب علي ان أفكـر بسرعة : اذا كذبت عليه وعرف بذلك ، فانني سوف أُفْصَل من العمل ، ولذلك ، فانني أخبرته الحقيقة .

جعـل (هـوليس) الأمـور تبـدو طبيعية ، فمنذ أن تناقشنا معاً حول (تيسلر) منذ عشر سنوات ، ونحن نهيء أنفسنا لمثل هذه المواجهة . والآن ، وقد تم كشف الاوراق ، بعد أن وضعت على الطاولـة بيننا كأشياء تعـوزها الحيـاة ، بدت الكلمات غير مناسبة أمام كل الشكوك التي تنامت سراً ، وزاولت النفوس من قبل . وقلت له :

" انها جميعها تستند على الادعاءات القديمة يا سيدي ... وعلى الطريقة التي سارت عليها الامور بشكـل خاطيء .. انت تعرف وجهات نظري فيما يتعلق بالفشل الذي حاق بنا خلال فترة ما بعد الحرب . انها مجرد عملية تطهير . في البداية كان (ميتشل) ، والآن أنت .. " . فقال :

" أوه ، نعم ، ولكن من المؤكد أنك تبحث في أشياء جديدة " . فأجبته :

" نعم ، الادعاءات القديمة يا سيدي " .

وعلـى امتـداد ساعـة من الزمن ، أخذت باستعراض قائمة (فولكوف) وعمليات إعادة الترجمة ، وادعاءات (غوزينكو) عن (إيلي) وتقرير (سكربكين) .

قال لي وهو يضحك برقة:

" حسناً يا (بيتر) لقد وضعت الأغلال في يدي ، أليس كذلك ؟ " .

حاولت أن أقاطعه ، غير انه رفع يديه ليسكتني ، وقال :

" كل ما أستطيع قوله هو أنني لست جاسوساً " . فقلت :

" ولكن هل هناك أي شيء محدد يا سيدي باستطاعتي أن أضعه أمام لجنة (فلوينسي) أي شيء على الاطلاق ؟ .. " . قال ، وقد بدا انه غير متأكد :

" يمكنني أن أنقب في ملاحظات استجواب (غوزينكو) ... وفعلاً ، وحتى أكون صادقاً ، فانني لا أذكر (سكريبكين) . و (فولكوف) ... " .

ونقر بقلمه المشحوذ على طرف مقعده ، وطرقع بأسنانه ، وقال :

" لا أظن انك صدقت (فولكوف) . لماذا كان يجب على (كيم) أن يقطع كل تلك المسافة الى تركيا ؟ كان عليه أن يتأكد أولاً " .

تنهد ، وكأن الأمر قد حدث منذ وقت طويل جداً ، وقال متسائلاً فجأة :

" انها مفيدة ، أليست لجنة (فلوينسي) كذلك ... ؟ " . فقلت :

" أظن هذا يا سيدي ، نعم . لقد جاءت في وقت متأخر " . فقال :

" نعم ، أظن انه لا بد لك من أن تفكر على ذلك النحو ... ان (ماك دونالد) ليس متأكداً تماماً ، حسناً ، انني أفترض انك تعرف ذلك .. " . قلت :

" انه يتسلم التقارير يا سيدي ، وأظن انه يقرأها " . فقال :

" أوه ، نعم ... انني متأكد اننا كلنا نقرأها ... انها رائعة .. كل ذلك التاريخ . انها جيدة دائماً لنسف أنسجة العنكبوت الموجودة داخل الانابيب " .

وابتسم ثانية ابتسامة قطة الـ (تششاير) وقال وهو ينهض عن كرسيه :

" حسناً ، أشكرك على صراحتك يا (بيتر) لا بد لي أن أتابع عملي . لقد كان من الجيد أن نثرثر ، على أي حال ... " . وخطا خطوات راسخة باتجاه طاولة مكتبه . ومثل ممثلين اثنين ، اتجه كل منا صوب ناحية ، وكأن دورينا قد انتهيا .

ولم أر (روجر هوليس) مرة أخرى . فخلال بضعة أيام كان المدير العام الجديد (مارتين فيرنفال جونز) يحل مكانه في غرفة المكتب . كان أول قرار اتخذه (فيرنفال جونز) هو نقل الصور الموجودة على الجدار ، ووضعها في مدخل غرفة المكتب . وحينما سألته عن سبب هذا القرار ، أجابني متمتماً على نحو غامض :

" لا أريد جمهوراً يراقب عملي " .

كان (فيرنفال جونز) رجلا قليل الكلام ، نال العديد من الترقيات في مجال عمله . كان ذا عزم وتصميم ، وكان يؤمن انه يواجه مشكلة رئيسية واحدة هي حسم الهجوم السوفييتي ، وبمعنى آخر عدد ضباط الاستخبارات الروسية المتواجدين في (لندن) أمام قواته المحدودة .

وقد اتسمت فترة عمله كمدير عام بحملته التي قام بها لتوسيع (م آي ٥) ولتخفيض عدد الشخصيات الدبلوماسية السوفييتية . وقد حالفه النجاح في القضية الأولى ، وفي النهاية حقق الانتصار في القضية الثانية .

كانت الأولوية القصوى لدى (فيرنفال جونز) هي مكافحة التجسس الروسي ، وحالما تولى مهام عملـه تغيرت طريقة تناول ومعالجة المشكلة بشكل كامل . فبينما كنت في الماضي أرى من الواجب عليّ أن أكـون لجوجاً مـن أجل الحصـول علـى الموافقـة على أي شيء ، فان الأمر اختلف مع (فيرنفال جونز) اذ كان باستطاعتي الاتصال هاتفياً به ، و الذهاب لمقابلته ، والحصول على القرار . وقد كان يدعم ويؤيد التحقيقات والاستجوابات التي كان يقوم بها (القسم د ٣) دون أي تحفظات ، ووافق على كافة المقابلات الهامة دون أي سؤال ، ولـم يكن لينفر من اصدار أحكام فـي القضايا المشابهة لقضيـة (ووتسون) و (بروكتور) . فاذا ما اقتنع بالدليل المتوافر ، فانه يتصرف وفقـاً له . ولـم يكن (فيـرنفال جونز) رجـل تعقيـدات . وفـي ظاهره يبدو نموذجاً للجنتلمـان الانكليـزي ، وتحت ذلك المظهر يمتد خط من الخشونة الأمر الذي جعل اصدقاءه من داخل (الوايت هول) يبدون قليلي العدد ، وهذا ما كانت تتطلبه طبيعة العمل في أجهزة الاستخبارات .

ومما يؤسف له بالنسبة لـي ، أنه عمل على تعيين (انطوني سيمكنس) كنائب له . ربما كـان (سيمكنس) هو الرجل الوحيد داخل (م آي ٥) الذي كنت اكرهه تماماً ، وكان هذا الشعور متبادلاً بيننـا تمـاماً ايضاً . وكنـت على يقين – حالمـا تـم تعيينه – انني سأواجه المتاعب . كان (سيمكنس) محامياً ، وقد دار بيننا نزاع قبل بضع سنوات حينما كان يشغل منصب المدير العام لـ (الفرع ج) الـذي أحـرز فيـه بعض النجاح . فقد طلب مني أن أترأس فريق عمل مشترك من (م آي ٥) و (م آي ٦) ووزارة الخارجية ، وقيادة الاتصالات الحكومية لمراجعة الأمن التقني في السفارة البريطانية فـي (موسكو) بعد الحريق الذي شب في غرفة اللاسلكي التي كانت تتولى عملية اعتراض الاتصالات اللاسلكية المحلية . وقد كان من الواضح من خلال التحقيقات التي أجريت ان الروس لم يتعمدوا فقط إشعال النار ، بل انهم ايضاً كانوا يتمتعون بحرية الوصول الى غرفة اللاسلكي في وقت من الأوقات ، وكان الروس يقومون كل ليلة بقراءة المعلومات التي يتلقاها جهاز الاستقبـال اللاسلكي ، وبهـذه الطريقـة تمكنوا من معـرفة ما كنا نعترض من اتصالاتهم . فقـد تمكن العمال الروس الذين كانوا يقومون بتنظيف السفارة من فك المزالج الموجودة على باب الأمن (والتي كانت مزيتة بشكل جيد) وكانوا يدخلون الى الغرفة بكل بساطـة .

وخلال الفترة التي جرت فيها عمليات الاستجواب ، تمكنت من حل لغز آخر كان قد ورد فـي قائمة (فولكوف) . فقد زعم (فولكوف) ان الروس تمكنوا من قراءة شيفرات وزارة الخارجية

البريطانية في (موسكو) . ومن المؤكد ان (ماكلين) قد أفشى أسرار كل الشيفرات التي كان باستطاعتــه الاطــلاع عليهــا في وزارة الخارجية ، لكن سجلات وزارة الخارجية أظهرت ان سفارة (موسكو) قد استخدمت لبادات تسعمل لمرة واحدة خلال وبعد الحرب مباشرة ولذلك ، فانه من غير الممكن ان يكون (ماكلين) مسؤولاً .

وباستذكاري لعملي على " الشيء " عام ١٩٥١ كنت على يقين من ان الروس كانوا يستخدمون نظام ميكروفون مخفي ، وقد عثرنا في فترة متأخرة على ميكروفونين مدفونين داخل طبقة الجص التي تكسو سقف غرفة الشيفرة . وخلال فترة الحرب ، كان هناك موظفان يقومان بشكل روتيني بمعالجة اتصالات اللبادة المستخدمة لمرة واحدة في السفارة ، حيث كان أحدهما يقوم بقراءة النص الواضح للرسالة أمام الشخص الآخر الذي يقوم بتشفيرها . كان الروس – ببساطة – يقومون بتسجيل النص الواضح وبشكل مباشر من خلال ميكروفوناتهم . ومن خلال العمل الجاد والرائع الذي قام به مختبر بحوث المباني ، تمكنا من التوصل الى معرفة ان التاريخ المحتمل لعملية زرع الميكروفونين داخل تلك الطبقة هو حوالي عام ١٩٤٢ حينما كانت السفارة في (كويبيشيف) .

وقد كشف تقرير فريق العمل عن وجود مستوى أمني غير عادي داخل السفارة ، يثير الرعب من حيث التقصير ، الأمر الذي دعا كل عضو من أعضاء اللجنة الى توجيه نقد شديد اللهجة ، طالب من خلاله بوضع ضابط من (م آي ٥) ليسهر بشكل مستمر على أمن السفارة . وقدمت التقرير الحاسم الى (فيرنفال جونز) الذي كان حينذاك نائب المدير العام ، حيث طلبت موافقته عليه ، قبل ارساله الى وزارة الخارجية . وقد اقترح (فيرنفال جونز) أن أقوم بعرض التقرير على (سيمكنس) من باب اللياقة باعتباره مدير (الفرع ج) المسؤول عن الأمن الوقائي ، سيما وان فريق العمل كان يغطي جزءاً من مهام هذا القسم من الناحية التقنية . وأرسلت الى (سيمكنس) نسخة من التقرير ودهشت – بعد مرور بضع ساعات – لتسلمي دعوة غاضبة الى مكتبه .

قال لي ، وكأنني اقترحت ارسال أداة من أدوات محاكم التفتيش كهدية الى (البابا) :

" لا يمكنك ارسال أي شيء كهذا الى وزارة الخارجية " . فسألته :

" لِمَ لا ؟ لقد آن الأوان كي يتم تفجير أبناء الحرام هؤلاء .. ان المكان كله خراب ! " .

فأجابني :

" حسناً ، أنا اسف . انها وزارة الخارجية . انها أهم دائرة من دوائر الدولة ، وليس من شأنك – بكل بساطة – ان ترسل اليهم تقارير كهذه ، ولا أقترح الموافقة عليه " .

ولدهشتي ، فانه شطب التقرير بالقلم الأزرق . أخذت التقرير الى (فيرنفال جونز) وعرضت

عليــه ما فعلــه (سيمكنس) فمــا كان منــه الاّ أن نَخَرَ * وطلب منــي اعادة طباعته ، وارساله دون أي تغيير . ثم قال بصوت هادر :

" وزارة الخارجية دموية ... لقد عانيت الكثر من المتاعب الدموية معهم " .

وأُرســـل التقـــرير ، كما تـــم ارسال ضابط شاب من (م آي ٥) يدعى (طوني موشن) الى (موسكو) ولكن ، منذ ذلك التاريخ تيقنت من أن (سيمكنس) قد أصبح عدواً لي مدى الحياة .

بعـــد مرور فترة قصيرة علــــى تولي (فيرنفال جونز) منصب (المدير العام) قام فريق عمل (فلوينسي) بتقديم التقرير الاول اليه ، والى (ديك وايت) باعتباره رئيس (م آي ٦) . كان التقرير مؤلفاً من قسمين : كان القسم الاول يتضمن قائمة بالادعاءات الثمانية والعشرين والتي كنا متاكدين من انها قوائم صحيحة ، ويمكن التحقيق فيها ، غير انه لا يمكن ان تنسب الى أي جاسوس معــروف . اما القســـم الثاني فقد تضمن ادعاءات كتبت على شكل سرد لقصص ، تبدأ مع ادعاءات (غوزينكو) حــول (ايلي) في عام ١٩٤٢ ، وتنتهـــي مـــع المعلـــومات التي ذكــرها (غوليتسين) عام ١٩٦٢ ، لتبين – الى حـــد ما – طبيعة الاختراق المستمر . لقد قدم هذا التقرير الى الرئيسين كليهما ، غير انه مرت ستة من الشهور قبل أن يعاد بحثه ثانية . وتم بعدها الطلب الينا اعادة تقديم ما توصلنا اليه ، مدرجين فيه فقط تلك المزاعم التي نشعر ان هناك امكانية لاجراء تحقيقات حولها ، وأن نوضح الشخص الاكثر احتمالاً – حسب حكمنا – الذي ينطبق عليه كل ادعاء .

وقرر فريق عمل لجنة (فلوينسي) ان (ايلي) الذي ذكره (غوزينكو) و " نائب الرئيس" الذي ذكره (فولكوف) يجب ان يتم التحقيق حولهما ، وانه بسبب تقارب المدة الزمنية بينهما فانه يجب أخذهما بعين الاعتبار معاً . وتمت طباعة اسم الشخص المرشح بشكل واضح في أسفل الصفحة . وبدون ذكر اللقب ، وبدون ذكر الرتبة ، كان الاسم هو (روجر هوليس) .

وكان الادعاء الثالث الذي أوردناه في تقريرنا هو ادعاء (غولينيفسكي) حول " عميل متوسط الدرجة " وكان هناك احتمال ان يسبب هذا الادعاء الضرر والأذى ، مثله في ذلك مثل الادعائين الأولين اللذين أشارا إلى (هوليس) . بدأت قصة " العميل متوسط الدرجة " في شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٣ . لقـد وافـق (غولينيفسكي/ والذي كان يعـرف سابقاً باسم سنيبر) في النهاية على مقابلـــة (م آي ٥) لتوضيح بعض تفاصيل الادعاءات التي أوردها في رسائله مغفلة الاسم التي أرسلهـــا من (بولندا) . كان (غولينيفسكي) غير راغب بمقابلة أي شخص من (م آي ٥) بشكل مباشر بسبب اخفاقنا في الامساك بـ (لامبدا ١ / جورج بليك) . ولكن حينما أصبح (بليك) في السجن ، فانه تم اجراء مقابلة بين (غولينيفسكي) ورئيس القسم البولندي الذي كان هو نفسه من أصل (بولندي) .

* نَخَرَ : أطلق صوتا يشبه صوت الخنزير (المترجم)

في الوقت الذي اجتمع فيه (غولينيفسكي) مع (م آي ٥) راودت الشكوك (السي آي ايه) بـــان (غولينيفسكي) قد أصبح على حافة الجنون ، اذ بدأت تسيطر عليه أوهام بأنه ينحدر من سلالة القيصر . لكن وعلى الرغم من هذا ، فانه استذكاره للمعلومات الاستخباراتية بقي كما هو من حيث الدقة ، الى حد يثير الدهشة . وفي صباح أحد الأيام ، خلال الفترة التي تم خلالها اجراء المقابلات معه ، أعلن (غولينيفسكي) ان لديه قصة لم يروها من قبل ، وقال إنه ذكر انه لم يروها من قبل بسبب ان البريطانيين تخبطوا في الكشف عن (بليك) ، لكنه كان يعرف عن وجود عميل متوسط الدرجة داخـــل (م آي ٥) .

وقال (غولينيفسكي) انه عرف عن العميل متوسط الدرجة لأنه هو وصديق آخر له ، اضافة الى رئيسه السابق قد تباحثوا بجدية خلال سنوات الخمسينات حول قضية الهروب الى الغرب . وكان اتخاذ قرار بالهرب الى بريطانيا أو الى الولايات المتحدة الامريكية أمراً صعباً . وقد اتفق الثلاثة على ان الهـــرب الـــى بريطانيا هـــو أفضل مكان للاقامة فيه بسبب وجود جالية كبيرة من المهاجرين البولنديين ، غير انه كان من الصعوبة بمكان الاتصال مع (م آي ٦) بسبب (لامبدا ١) .

واقترح (غوليتسين) على الشخصين الآخرين القيام بمحاولة للاتصال مع (م آي ٥) من خلال جالية المهاجرين في (لندن) التي كان يعرف انها تحت المراقبة المشددة من قبل.(الفرع د) . وقال رئيس (غولينيفسكي) ان هذه الخطة خطيرة على نفس المستوى ، لانه يعرف بان لدى الروس ايضاً جاسوس داخل (م اي ٥) .

لقد تم تجنيد هذا الجاسوس من قبل المديرية الرئيسية الثالثة في الـ (ك ج ب) المسؤولة عن القوات المسلحة . وقد سمح لهذه المديرية بالاحتفاظ بهذا العميل بسبب كونه على غاية من الأهمية بالنسبة لهم ، ولم ينقل الى المديرية الرئيسية الأولى ، أي على العكس مما هو متعارف عليه . لقد خدم العميل في الجيش البريطاني ، وكان برتبة ضابط حينما تم تجنيده . واعتقد (غولينيفسكي) ان عملية التجنيد قد تمت في اوروبا الشرقية ، وذكر اسم العقيد الروسي الذي يعمل في جهاز الـ (ك ج ب) والذي قام بعلمية التجنيد . وقد قام هذا العميل بتزويد الروس بمعلومات قيمة تتعلق بمكافحة التجسس البولندي ، ربما بسبب انه كان يعمل في القسم البولندي في (م آي ٥) .

وكانت هناك تفاصيل أخرى . ففي منتصف سنوات الخمسينات ، تمكن البريطانيون من تهريب رئيس الوزراء البولندي (هانكه) الى الغرب . وقد أدى ذلك الى القيام بعملية استجوابات وتحقيقات في (وارسو) أشرف عليهــا الجنرال (سيروف) رئيس جهاز الـ (ك ج ب) وقتذاك . لقــد فشلت الــ (ك ج ب) ولأسباب مـا ، فـــي الحصول علـــى تحذيــر سابـق عـن عمليـة التهريب . وقد علـــم (غولينيفسكي) ان سبـــب ذلك يعـــود الى أن العميـــل متوسط الدرجة كان " مُجَمّداً " خلال تلك

الفتـــرة ، إما لأنه كان موضع شكوك ، أو لأنه كان خارج البلاد ، ولم يكن باستطاعته اجراء أي اتصال ، أو – ببساطة – لأن أعصابه كانت متوترة . وكان من الواضح ان الجاسوس بقي " مُجمّداً " مدة سنتين الى ثلاث سنـــوات ، قبـــل أن يستأنف عمله في القسم البولندي في أواخر سنوات الخمسينات . وفيما بعد ، وحينما كان (غولينيفسكي) في (موسكو) عام ١٩٥٩ ، سأل أحد أصدقائه من المديرية الرئيسية الثالثة عن الشخص الذي كان مسؤولاً عن تجنيد العميل ، وفيما اذا كانت العملية لا تزال قيد التنفيذ . وقد أبدى صديقه دهشته لمعرفته بهذا الأمر ، ونصحه بالصمت ، اذ قال له :

" انها قضية غاية في السرية ، وأنصحك أن تنسى كل شيء عنها " .

كان ادعاء (غولينيفسكي) مفصلاً بشكل غيرمألوف ، ولكن بسبب ضغط العمل في التجسس المضاد منذ عام ١٩٦٣ ، وبسبب الشكوك حول مصداقية (غولينيفسكي) فانه لم يتم اجراء تحقيق وافٍ بهذه الادعاءات حتـى بدأت لجنة (فلوينسي) عملها . قمنا بتقسيم الادعاء الى سبعة مؤشرات منفصلة ، ووضعنا علامات لكل مرشح ينطبق عليه كل مؤشر من المؤشرات تلك . وقد تبين لنا أن هناك ثمانية أشخاص فـي (م آي ٥) تنطبق عليهـم – جزئياً – صفـة عميل متوسط الدرجة التي حددها (غولينيفسكي) غيـــر أن هناك شخصاً كان ينطبق عليه كل مؤشر من المؤشرات بدقـة . كان اسمه (ميشال هانلي) مدير (الفرع ج) وكان مرشحاً بقوة ليخلف (فيرنفال جونز) .

ولأنه كان الوحيد الذي تنطبق عليه الاوصاف " بشكل كامل " فان لجنة (فلوينسي) أوصت بالاجماع بان يتم التحقيق مع (هانلي) حول ادعاءات (غولينيفسكي) ، واطلق عليه اسم رمزي هـــو (هاربيت) .

ومرت ستة شهور أخرى قبل أن تتم مناقشة التقرير الثاني الذي أعدته لجنة (فلوينسي) نهائياً . وتمت الدعوة الى عقد اجتماع ثان بعد مرور ساعات قليلة على تقديم التقرير في غـرفة اجتماعات مكتب (فيرنفال جونز) وقـــد حضر هـذا الاجتماع اضافة لـي والى (فيرنفال جونز) كـــل مـــن : (آن أور – إيـــوينغ) و (باتـريك ستيـــورات) و (ايفليـن مـاك بارنيـــت) و (أنطوني سيمكنس) . كان من المفروض ان يكون الاجتماع مناقشة شاملة داخل أوساط (م أي ٥) لأن قضايا (فلوينسي) الثلاث المعلقة كانت تتعلق بـ (م أي ٥) اكثر من كونها تخص (م أي ٦) .

كان الاجتماع من نوعية الاجتماعات التي بدأت بهدوء ، اذ ان (فيرنفال جونز) قد وضع على الطاولة زجاجة من الويسكي ، وكانت الاضواء تلقي ظلالاً مثيرة عبر الغرفة . كان (فيرنفال جونز) يذرع الغرفة جيئاً وذهاباً ، وقد أطبق بعنف على غليونه بين أسنانه .

دار حول نفسه ، وسأل :

" هل انتم مصرون – حقاً – على القول ان هؤلاء هم المرشحون ؟ انتم تدركون مضاعفات ما

تقولون ؟ " . فقلت ، وقد هزتني قوة وعنف طريقته في طرح الموضوع :

" نعم بالتاكيد " . وتمتم وهو يقبض على الصفحات المتعلقة بـ (هوليس) :

" انه لأمر بشع ... لا تتوقع مني أن أقبل به " .

ورمى التقرير على طاولة المكتب . ثم قال :

" الى أين سينتهي هذا يا (بيتر) . لقد أرسلت لي ورقة تقول فيها بأن سلفي ، ومن المحتمل جداً خلفي ، هما جاسوسان . هل فكرت بالأمر بدقة ؟ هل توقفت للتفكير بالأضرار التي ستنجم فيما اذا تصرفنا وفقاً لهذه التوصيات ؟ ان الأمر سيحتاج الى حقبة من السنين كي نشفى من هذا ، حتى ولو لم يظهر شيء من هذا في النهاية " .

قلت :

" انني متمسك بما كتبناه يا (فيرنفال جونز) علاوة على ان هذا هو موقف كل عضو من فريق عمل لجنة (فلوينسي) وأستطيع أن اؤكد لك انه لو كان هناك مرشحون آخرون لكان قد تم عرضهم عليك " .

كان (سيمكنس) عند طرف الطاولة الآخر ، وكنت أشعر انه يكاد يتفجر من الغضب . كان يريد أن ينقض عليّ ويمزقني ، غير ان عملية الاستجواب كانت مهمة (فيرنفال جونز) والذي لم يكن يريد أي صرف للانتباه عن الموضوع . وقال لي :

" كنت تريد ان تدون هذا في السجلات منذ سنين ، أنت و (آرثر) أليس كذلك ؟ هل لديك أي فكرة عما سيفعل مثل هذا الأمر بـ (روجر) ؟ " . فقلت :

" لقد تكلمت معه حول هذا الموضوع قبل رحيله بفترة قصيرة ... كان هادئاً تماماً " .

أجفل (فيرنفال جونز) حينما سردت له مواجهتي الأخيرة مع (هوليس) وقال متجهماً :

" لا بد وانه كان رجلاً متين الاعصاب " .

وأخيراً ، رأى (سيمكنس) ان الفرصة قد سنحت له . بصق بصوت حاد ، في حين كانت أصوات حروف العلة التي تعلمها في المدارس الحكومية العامة تتمدد حتى نقطة الانكسار ، وقال :

" ببساطـــة ، انـــه لأمـــر فاضح ... ان كل شخص يعرف انك و (مارتين) تضمران الأذى لـ (روجـــر) . وها أنت تتنقل هنا وهناك ، توجه الانتقادات الى وزارة الخارجية والى هذا الشخص وذاك ، ثم تطلق الاتهامات ، وتنتشر الشائعات ، وتنفث السموم . انه عمل غير منضبط . واذا ما كان هناك انتقاد يوجه الى (روجر) فانما هو انتقاد لتركه إياك تتجاوز الحدود " .

أجبته ، وأنا أحاول – بصعوبة – أن أبقى لطيفاً :

" ان كل ما أريده هو الحقيقة يا (أنطوني) .. " . فقال :

" الحقيقة ! انك لا تعرف معناها . انت بحاجة الى القليل من الاحترام ! انه أمر فاضح ! لم يكد الرجل يخطو خـارج المكتب حتى أخذت تلطخ سمعته واسمـه ، رجـل خدم مدة ثلاثين سنة في الجهاز ، وقدم خدمات تفوق كثيراً كل ما ستقدمه طوال حياتك " .

ولحسن الحظ ، فان (باتريك ستيوارت) وقف الى جانبي ، وقال :

" كل ذلك حسن يا (انطوني) كما يبدو ، ولكنك لم تكد تطلع على الموضوع " .

أمسك بجانبي كرسيه المتحـرك ، وقـد تحولت مفاصل أصابعه وعظامه الى اللون الابيض وتابع (ستيورات) قائلاً :

" ان بعضنا لا زال يصارع هذه المشكلة منذ سنين . انها ليست قضية سهلة . وهي لا تبعث على السرور ، ولكننا جميعاً شعرنا انه من الواجب انجازها ، وكان أقل ما توقعناه – بعد ان أكملنا تقريراً صعباً كهذا – اجراء نقاش عقلاني قصير " .

ولكن (سيمكنس) كان مصراً على المضي قدماً في موقفه ، فقال :

" وماذا عن أمريكا ؟ لقد نفثت السم هناك . حينما سافرت أنا الى هناك ، كان كل ما أرادوا مناقشته هو الاختراق الدموي . ان هذا غير محتمل ... سنصبح اضحوكة العالم " . فأجبته بقوة :

" ألا ترى اننا اضحوكة العالم حينما يهرب (فيلبي) ويعترف (بلنت) ... ؟ " .

كـان (فيـرنفال جونز) يعـض على غليونه بقوة ، ويتوقف بين حين وآخر ليشعله بعود ثقاب ، كما لو انه لم يكن يصغي للشجار الدائر في حالة من المد والجزر . وبعد نصف ساعة ، قاطعنا قائلاً :

" حسناً ، ها هو قراري ، وأنا متأكد من انك ستوافق عليه يا (بيتر) . يجب علينا أن نقوم بحل مشكلة العميل متوسط الدرجة كقضية لها الأهمية القصوى باعتباره لا يزال هنا ، إن كان ثمة جاسوس كهذا " . وأومأت برأسي موافقاً . ثم ربت بقوة على الصفحة بظاهر يده ، وتابع قائلاً :

" حسناً ، أريد مراقبة (هانلي) اذ ان الاوصاف تنطبق عليه تماماً ، و الامريكيون يعرفون كل شيء عن الادعاء . لكنني أيضاً ، أريد ان تتم مراقبة الآخرين الذين لديهم نقاط عالية كذلك . أريـد أن يمتد عملكم الى أقصى الارض ، وبعـدها نخبر الامريكيين بذلك . اما بالنسبة للآخر * فانني لن أغير رأيي .. انه لأمر بشع " . قال كلماته الأخيرة تلك وهو يحملق بي .

وفض (فيرنفال جونز) الاجتماع ، وغادر الجميع القاعة تاركين اياه ينوء تحت وطأة همومه . كان مثل (البابا) الذي يحاول اجراء مصالحة بين الكنيسة المنقسمة على نفسها .

---

* الآخر : يقصد (هوليس) / المترجم .

٢٠

كان (هانلي) رجلاً ضخماً ، متورداً ، يوحي مظهره الخارجي بانه بلطجي ، في حين انه يخفي تحته رجلاً خجولاً . ومنذ ان تمت ترقيته ليشغل منصب مدير (الفرع ج) عام ١٩٦٠ بات هناك احتمال بان يصبح مديراً عاماً . فقــد كان سنه مناسباً – حوالي منتصف الاربعينــات – ويتمتع بعقليــة موظف مدني ، مما ساعد على ان ينال الحظوة لدى (الوايت هول) كما ان له مظهراً عسكــرياً ، الامــر الذي جعلـــه محبوباً لدى مجلس ادارة (م آي ٥) . وفـــي الوقت الذي بدأت فيــه التحقيقات حـــول قضيـــة (هارييت) كان بمثابة ولي العهــد ، اذ كان من المؤكد انه سيخلف (فيرنفال جونز) بعد احالته على التقاعد في أوائل سنوات السبعينات .

من الأمور التي تبعث الحزن والكآبة ، أن تقوم بمتابعة عملية تحقيق مع زميلك . لقد كان الأمر مختلفاً فيما يتعلق بـ (هوليس) و (ميتشل) ، اذ كانا شخصين بعيدين ، وعلى وشك التقاعد حينما ازدادت حدة الشبهات التي كانت تدور حولهما . اما في هذه القضية ، فقد كنت أنا و (هانلي) نعرف بعضنا معرفة جيدة . كنا متعاصرين ، و أصدقاء ، ولكن دون ان يذهب الخيال بالسامع الى مجالات اخـرى . فقد خدمنا سوية بشكل ودي في عدد من اللجان ، ولفترة امتدت على ما يزيد على عشر سنوات . كانت حياته العملية لا زالت تمتد أمامه ، في حين كان مستقبله بين يدي .

وقد أشرفت أنا و (باتريك ستيوارت) من القسم (د ١ / التحقيقات) بشكل مشترك على عملية التحقيق . كانت المهمة الاولى هي تقديم صورة كاملة لحياة (هانلي) . فبدأنا نعود القهقرى لنتتبع هذه الصورة من خلال خلفيته العائلية ، ودخوله الى الخدمة ، وحياته التي تلت ذلك . وقمنا باجراء

مقابلات مع عشرات الناس الذين كانوا على معرفة به ، وكان ذلك يتم تحت غطاء القيام بعملية استقصاء روتينية ايجابية .

اما الأمر الذي كان هو الاكثر صعوبة في قضية (هاربيت) فقد تمثل في ان هذه التحقيقات سرعان ما أظهرت ان (هانلي) عاش حياة طفولة مؤسية الى حد بعيد وذلك بعد انهيار حياة والديه الزوجية . لقد خلف هذا الأمر في نفسه مشاعر بالنقص ، امتدت الى أعمق أعماق نفسه ، الأمر الذي جعله – حسب ما ورد في سجل خدمته – بحاجة الى معالجة نفسية خلال سنوات الخمسينات حينما كان ضابطاً شاباً في (م اي ٥) وهي حقيقة صرح بها (هانلي) نفسه الى المكتب في ذلك الوقت .

ولم تكن حقيقة ان (هانلي) قد زار طبيباً نفسياً أمراً غير مألوف ، اذ ان العـــديد مـــن كبار ضباط (م اي ٥) كانوا خلال حياتهم العملية يستشيرون أطباء نفسيين ليساعدوهم في تحمل القيام بأعباء العمل السري . وكـان من المحتـم ان تعمـل تحقيقاتنـا علـى أن تنكأ جراح (هانلي) القديمة ، وذلك في حال كشفت هذه التحقيقات عن وجود حافز للتجسس عنده . وقد ناقشت هذه المشكلة مـــع (فيرنفال جونز) و (باتريك ستيورات) وانتهينا الى ان كتب (فيرنفال جونز) رسالة شخصية الى طبيب (هانلي) طالباً منه أن يتخلى عن اليمين الذي اقسمه للمحافظة على سرية المهنة . وقمت بزيارة الطبيب في شارع (هارلي) . كان الطبيب يعرف طبيعة مهنة (هانلي) ولم يتردد أبداً في أخبارنا أن (هانلي) كان شخصية قوية ، وحازمة ، تعلم ان يعيش مع العجز الذي أصابه في سن مبكرة . وسألت الطبيب فيما اذا كان يعتقد ان (هانلي) جاسوس ، فقال لي بقناعة تامة :

" بالتأكيد ، لا " .

ولم تكن هناك أي اشارة تدل على انه جاسوس ، وذلك خلال الفترة المبكرة من حيـــــاته . فـــي (اوكسفورد) وقبل فترة الحرب ، كان مثالاً للطالب اليساري المعتدل الواعي . وحينما اندلعـــت الحرب ، فانه بقي في (اوكسفورد) لمدة سنة للحصول على الدرجة الجامعية ، ومن ثم انضم الى فوج الكشافـــة في الأمن الداخلي برتبة ملازم أول ، وبقي هناك حتى عام ١٩٤٥ . كان ذلك العمل عملاً هاماً ، غير انه لم يكن مناسباً تماما لشخص يتمتع بمثل مواهب (هانلي) العقلية الجديرة بالاعتبار . لكن أي شخص كان يعرفه في ذلك الوقت ، لا بد وان يلاحظ لديه الشعور بالنقـــص المثـــير للانزعاج ، وافتقاره الى الطموح الناتج عن ذلك .

كانت أول نقطة في حياته أثارت اهتمامنا هي قراره الذي اتخذه عام ١٩٤٥ ، والمتمثل في الالتحاق بدورة دراسية سريعة لتعلم اللغة الروسية في مدرسة لغة الخدمات المشتركة في (كامبردج) والتي علمنا مـــن خـــلال عملياتنـــا ، وكمـــا أخبرنا (غوليتسين) انها كانت ميدان عمليات تجنيد لصالـــح الـ (ك ج ب) وإن لم يكن هناك أي دليل – حتى ولو كان صغيراً – على ان (هانلي) قد تورط

معهـــم . وكانت دورة تعليم اللغة الروسية هي أول فرصة أتيح لـ (هانلي) من خلالها الاتصال مع الروس . وبدءاً من تلك الفترة ، بــــدت حياته العملية مطابقة تماماً لادعاءات (غولينيفسكي) . بعد أن خدم فــــي (بودابست / حيث كان يخدم في لجنة استخبارات الحلفاء المشتركة مع ضابط من الـ [ك ج ب] ذكــر [غولينيفسكي] اسمه باعتباره الضابط الذي قام بتجنيد العميل متوسط الدرجة) عــاد (هانلي) الى (لندن) ، وأصبــح ضابط اتصــــال وزارة الحـــربية مـــع الملحـــق العسكـــري السوفييتي ، وتعامل بشكل أساسي مع مشاكل العائدين ، حيث بدأ خلال هذه الفترة بالتعاون مع (م آي ٥) . وحينما تم تسريحه من الخدمة في سنوات الاربعينات ، تقدم بطلب للعمل بـــدوام كامــل ، والتحــق هناك بصفة ضابط بحوث في القضايا الروسية . كانت أول مهمة قام بها هـــي تجميع فهرس لعملاء (روت كابيلي) والذي اكتشفت – بعد عقد من الزمن خلال عملي في القسم (د ٣) – انه عمل لا قيمة له .

وخلال سنتين ، انتقل (هانلي) الى القسم البولندي في (د ٢) وبدأت حياته العملية . سافر فـــي البداية الى (هونغ كونغ) لمدة سنتين ونصف السنة ، ثم عاد الى (الفرع هـ / قضايا المستعمرات) قبل ان يصبــح رئيـــس (القسم د ٢) ، وفـــي عـــام ١٩٦٢ ، أصبــح عـضو مجلــس ادارة باعتبــاره مـدير (الفرع ج) . كان حياته العملية حياة رجل يتقدم بزخم متزايد ، وإن كانت خلفيته توحي بصورة جانبية لجاسوسية محتملة . ها هنا رجل بطفولة مضطربة ، وبمشاعر عميقة الغور بعدم الشعـــــــور بالأمن ، يصبح على اتصال مستمر بالروس خلال وقت دقيق من أوقات حياته وذلك حين بــــدأ يخرج من قوقعته . ربما كان مثل (بليك) يحمل الروث على كتفه ، الامر الذي مكن الروس من اللعب – بمهارة – على مشاعر الكراهية الخفية الكامنة عنده ، حتى أثاروها ، وذروّها الى أن أصبحت خيانة .

وكانت المشكلة انني لم أصدق هذا ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لـ (باتريك) على الرغم من أن ادعاء (غولينيفسكي) ينطبق تماماً على ما ورد في الاوراق من حيث الظاهر . لقد كانت قضيته عكــس قضية (هوليس) حيث كنا مقتنعين غريزياً بان القضية ضده على الرغم من أن الاتصالات التي ذكرت في الاوراق كانت أضعف من ان يتم اثباتها .

اما بالنسبة لـ (هانلي) فان العديد من الدلائل الموجهة ضده اعتمدت على نظرية " روث على الكتف " . فقد كان منذ بدء حياته العملية في (م آي ٥) معروفاً بانه مغامر ، الأمر الذي جعل أقرانه ورؤساءه – على حد سواء – يكنّون له التقدير ، على الرغم من سلوكه المتغطرس دائماً . لقد تزوج من المكتب ، واستمتع بعلاقة حميمة ومخلصة مع زوجته ، اضافة الى وجود دليل الطبيب النفسي .

ان الجاســوسيــة تكــاد تكـــون جـــريمة لا دليــــل عليها ، حيث يكـــون للحــدس فيها

– لصالحها أو ضدها – دور كبير ليلعبه في متابعتها بنجاح . ان كل ما يكون بين يدي ضابط التجسس المضاد عادة – حينما يواجه المشتبه به – جملة أمور منها : خلفيته ، والتجربة ، ومجموعة من المصادفات التي تحتمل تأويلات كثيرة ، والتي – كما يقول ديك وايت – تقود الى الظهور ، أي : الى اللحظة التي تتراكم فيها كل الحقائق فوق بعضها لتؤدي الى استنتاج واحد . ولكن في حالة (هانلي) فان التجربة أدت الـــى طريق ، والحدس الى طريق آخر . وكان الطريق الوحيد المحتمل لحل القضية هو الاستجواب ، وحينما قدمنا التقرير الى (فيرنفال جونز) وافق على ذلك .

عند ذكر قضية الاستجواب ، يتخيل أغلب الناس جلسات مضنية تحت مصابيـــح كهربائية قـوية ، ورجالاً يرتدون القمصان ، يعملون على استنزاف طاقة مشبوه حرم من النوم من خلال استجوابات عدوانية ، إلى أن ينهار في النهاية منتحبا على الارض ليعترف بالحقيقة . غير ان الواقع هو على النقيض من هذا تماما . فعمليات الاستجواب في (م آي ٥) هي عمليات منظمة ، تجري عادة بين الساعة التاسعة والنصف صباحاً والخامسة بعد الظهر ، مع وجود استراحة لتناول طعام الغذاء .

فلماذا يدلي العديد من الجواسيس باعترافاتهم ؟ السر في ذلك هو انهم يريدون تحقيق التفوق على ذلك الرجل الذي يجلس عند الجهة الأخرى من الطاولة ، وقد كان هذا هو سر نجاح (سكاردون) كمحقق . فعلى الرغم من اننا سخرنا منه لسنوات عديدة لاحقة لرغبته في تبرئة مشبوهين اكتشفنا فيما بعد أنهم كانوا جواسيس ، الاّ أن (بلنت) وأعضاء آخرين في عصابة الخمسة كانوا يخشونه ، و إن كان تفـوقه في غرفة التحقيق لا يستند على أسس من الذكاء أو المقدرة الجسمانية . لقد عملت المعلومات المدمرة التي قدمها اليه كل من (آرثر مارتين) و (ايفلين ماك بارنيت) على اقنا ع أناس مثل (فوخس) بان (سكاردون) يعرف عنهم اكثر مما يعرفون عن أنفسهم . ولم تكن هذه المعلومات فقط هي التي عملت على تقديم المساعدة الى (سكاردون) ولكن ايضاً عمليات استراق السمع . ففي قضية (فوخس) كان (سكاردون) على قناعة ان (فوخس) بريء الى أن قام هؤلاء باعـــلامه أين كـــــان (فوخس) يكذب ، وقد مكنت هذه المعلومة (سكاردون) من تحطيم (فوخس) . غير ان (سكاردون) نفسه لعب دوراً هاماً ايضاً ، اذ انه لخص – بتصرفاته – قيم عالم الطبقة الانكليزية الحساسة : شاي ما بعد الظهر ، والستائر المخرمة ، حتى انه كان من المستحيل بالنسبة لاولئك الاشخاص الذين يقوم بالتحقيق معهم أن يروا فيه تجسيداً للظلم الرأسمالي . و هكذا ، فانهم كانوا يفقدون توازنهم منذ البداية .

غير ان كل هذا لم يتح ايجاد أي فرصة تكون موجهة ضد (هانلي) في حال كونه جاسوساً . كان رجلاً من داخل الجهاز ، وهو يعرف كافة الخدع تماماً . ومثل (فيلبي) فانه بامكانه معرفة كيف تتم ممارسة الضغوط . ولذلك ، فان أفضل طريقة للتعامل مع انسان محترف هي التعامل معه من خلال

عملية استقصاء شاملة ، ويتم ذلك من خلال إعداد بيان بحياة الشخص المشبوه ، وحياته العملية ، ثم تبدأ عملية استجوابه من خلال ذلك . فاذا ما تبين وجود حذف ، أو تغيير ، أو عدم دقة في هذه المعلومات ، فانه يتم عندها فحص هذه المعلومات بدقة . فاذا ما كان المشتبه به مذنباً ، فان الضغط عليه يمكن ان يؤدي الى ظهور المزيد من عدم الدقة ، حتى يتم البدء بكشف سيرة حياته السرية .

كانـــت تقنية (م آي ٥) نظامـــاً غير متكامل . ولكن ، وعلى غرار المحاكمة عن طريق المحلفين ، فانها تعتبر من أفضل ما تم استنباطه . فلها فضيلة اتاحة الفرصة أمام الانسان لتبرئة نفســه اذا لم يكن لديه شيء يخفيه ، واذا كانت لديه المرونة لتحمل التوتر ، وتبرئة نفسه . غير ان عيوبها ، تكمن في انها غالبا ما تُظْهِر تلك البقع القذرة الخفية في سجل حياة انسان بريء ، وذلك من خلال التحقـــيق المكثف ، الأمر الذي يجعل امكانية استمرار الانسان في عمله أمراً مستحيلاً . انها تشبه عدالة القرون الوسطى بعض الشيء : في بعض الاحيان ، يتم اثبات البراءة فقط علـــى حساب حياة الانسان العملية .

وقد تم اختيار (فيرنفال جونز) لاجراء التحقيقات بنفسه مع (هانلي) . كان يدرك ان ذلك الأمر سيكون مواجهة صعبة ، وان مصير (هانلي) سيكون في النهاية على يديه ، اضافة الى انه كان يشعر انه من الظلم اسناد هذه المهمة إلى أي ضابط آخر . وقد ضمن أن أقوم أنا و (باتريك) بمراقبة التحقيق كاملاً من غرفة عمليات القسم (د ا) في (ليكونفيلد هاوس) .

في صباح أحد الايام ، تم استدعاء (هانلي) الى مكتب (فيرنفال جونز) و أحيط علماً انه يوجد ادعاء ضده ، والمطلوب منه ان يخضع لاستجواب فوري . وتمت عملية الاستجواب في غرفة مكتب المدير العام ، وبوجود ميكروفونات موضوعة على الطاولة . وتم تسجيل الاستجواب في الغرفة التي كنا نتواجد فيها أنا و (باتريك) لمراقبة العملية . وعلى امتداد اليوم الأول تحدث (فيرنفال جونز) مـــع (هانلي) عن حياته . وقد تبين ان (هانلي) صادق تماماً في كل ما قاله ، لدرجة ان ذلك كان يسبب الألم له أحياناً . ولم يتملص من أي سؤال ، ولم يُخْفِ أي تفاصيل تتعلق بحياته ، أو بأسراره الدفينة . وفي اليوم الثاني عُرِضَتْ عليه ادعاءات (غولينيفسكي) . غير انه لم يصدم ولا بشـــكل مـــن الاشكال ، اذ وافق على أن الاوصاف تنطبق عليه تماماً ، الاّ انه أوضح بكل هدوء انه لم يكن جاسوساً على الاطلاق ، وانه لم يتصل به أي روسي أو أي شخص على الاطلاق في أي مرحلة مـــن مراحل حياته ، على الرغم من انه كان يلتقي مرة في الاسبوع على الاقل خلال وجوده في (بودابست) مع الضابط الروسي ، الذي تم الادعاء عليه بانه أقام اتصالاً معه .

واثبتت عملية استجواب (هانلي) انه على الرغم من أن الخدمة السرية هي مهنة الخداع والغش والمؤامرات ، الاّ ان العديد من الرجال الذين يمارسونها هم شخصيات استثنائية . فها هنا رجل فخور

بنفسه ، ويعتد بانجازاته ، وبتلك الانجازات التي يشعر أنها ستتحقق مستقبلاً ، يستدعى ذات صباح ليجتاز تجربة قاسية ، فتتم تعرية حياته جزءاً فجزءاً ، وسنة بعد سنة ، إلى أن تصبح روحه في النهاية عارية تماماً ، في حين انه يدرك تماماً ان زملاءه المجهولين كانوا يتعقبون كـل خـطوة مـن خطواته ، فيتنصتون عليه في البيت ، والمكتب ، وها هم يستمعون الآن اليه . كان التوتر والاجهاد اكبر من أن يتحمله أكثر الرجال . ولا يمكن لأي انسان يستمع الى ذلك الاستجواب ان تساوره الشكوك في صدق هذا الرجل و لو للحظة . كان (هانلي) صلباً ، وأظهر للجهاز ان باستطاعته العمل ، فقد مشى في وسط النار ، وخرج منها سالماً دون أذى .

في تلك الليلة ، ذهبت وبصحبتي (فيـرنفال جـونز) و (باتريك ستيوارت) الـى نـادي (اوكسفورد) و (كامبردج) الذي كنت عضواً فيه ، وذلك كي نتباحث في موضوع عملية الاستجواب . جلس (فيرنفال جونز) في زاوية ، وبين يديه كأس كبير من الويسكي . كانت عيناه غائرتين كما هي عادتهما حين يكون متوتراً . وسأل باحساس متبلد :

" هل انت راضٍ الآن ؟ " . وأجبته موافقاً :

" انه بريء " .

وهز (باتريك) رأسه موافقاً بصمت . ثم تابع (فيرنفال جونز) :

" بالطبع ، فانك ستخبر لجنة (فلوينسي) .... ؟ " .

في تلك اللحظة ، دخل (هانلي) بشكل غير متوقع . فقد كنا أنا وهو أعضاء فـي نـفـس النادي ، وكنا نلتقي هناك في مناسبات متعددة ، غير انني لم أتوقع على الاطلاق ان يحضر الى هناك بعد وقت قصير من محنته . كنا نجلس في زاوية منعزلة ، ومر أمامنا دون أن يلحظنا ، كان يجر ساقيه كأنه يعيش صدمة . اما لون وجهه المتورد فقد أضحى أبيض مثلما الورقة .

بعـد اغلاق ملف استجواب (هارييت) طلب منـي (فيرنفال جونز) أن اقوم بزيارة الـى (السي آي ايه) واعلامهـم ان (م آي ٥) تعتبـر ان (هانلي) بـريء من ادعـاءات (غولينيفسكي) . وكانـت هذه المهـمة حساسـة الى أبعد الحدود . فـقد كانت (السي اي ايه) ثائرة نتيجة قضيتي (ميتشل) و (هوليس) كما انها كانت على علم تام بادعاءات (غولينيفسكي) وبحقيقة أن (هانلي) هو الشخص الاكثر ملائمة لهذه الادعاءات تقريباً . وقد كان من الامور الرئيسية ضـرورة الحفـاظ على التحالف القائم معهم ، من خلال عدم ابقاء مجال للشك حول صحة ما توصلنا اليه .

لم تكن علاقة (فيرنفال جونز) على نحو خاص مع الامريكيين تسير بشكل جيد ، وكان يفضل ان يتم التعامل معهم من خلال (ميشال ماك كول) ومن خلالي . وقد كان السبب في ذلك يعزى الى

كراهيته لـ (انغلتون) من جهة ، ومن جهة أخرى الى الشعور المعادي للامريكانية الذي تكنه الطبقة الانجليزية المتوسطة العليا . وكان (ديك وايت) يمتلك نفس الشعور المتميز . ولم يكن أي منهما رجلاً ثريا ، بينما (هيلمز) و (انغلتون) نادرا ما كانا يخفيان حقيقة انهما كانا يتقاضيان مبالغ كبيرة مقابل مهمات مشابهة .

وكان لدى الرجلين سبب لعدم الثقة بالامريكيين ، اذ ان (فيرنفال جونز) لم يغفر على الاطلاق لكل من (هيلمز) و (انغلتون) موقفهما من قضية (غراي وكوين) في حين ان (ديك) كان يتشاجر دائما مع المجموعة العسكرية الامريكية حينما كان يشــرف علــى التجسس المضاد في اوروبا عند نهاية الحرب ، ولم يسامحوه مطلقا على موافقه . وحينما تقاعد (سيليتوي) عام ١٩٥٣ حاول الامريكيون – بغباء – الحيلولة دون تعيينه في منصب المدير العام .

وفــي النهــايـــة ، كــان هنــاك اختــلاف أساسي فيما يتعلق بالرؤية . فقد كان كل من (فيــرنفال جونز) و (ديك وايت) يعتبران نفسيهما كخدم للتاج ، وأن خدماتهما هي جزء من تركيبة (الوايت هول) المنــظمة ، والتــي لا تحدد بزمن ، وكانا من داخل الجهاز ، في حين ان (هيلمز) و (انغلتــون) و (هوفر) غرباء عنه . وكان هناك شيء من القسوة واللاقانونية فــي مجتمع الاستخبــارات الامريكية ، اذ انهم كانوا يخشون وقوع كارثة في المسقبل ، وكانوا يريدون دائماً ان يحافظوا على المسافة التي تفصل بينهم وبين الامريكيين ، الأمر الذي جعل عبء الارتباط ينزل بشكل محتوم على اكتاف ضباط مثلي .

سافرت الى (واشنطن) في عام ١٩٦٨ لأطلع (انغلتون) على نتائج قضية (هارييت) فعقد بيننا اجتماع شبيه بلقاء رجال الاعمال . وأوضحت له مراحل عملية الاستجواب ، وأعلمته اننا توصلنا بالاجماع الى أن (هانلي) بريء . ثم اصطحبني (انغلتون) لمقابلة (ديك هيلمز) وشرح له طبيعة مهمتي . قــــال (هيلمز) انــــه لا يرغب بسماع أي شيء آخــر ، وانني اذا قلت لـــــه أن (هانلي) بــريء ، فانه سيقبل كلمتي دون اي شروط . غير ان براءة (هانلي) لم تعمل الاّ على حل القليل جدا من الامور .

بعد ان غادرنــا (هيلمز) قــال لــي (انغلتون) انــه يــود التباحث معــي حــول قضيــة كــــون (غولينيفسكي) جاســوساً مـــزروعا . فقـــد كان (هارييت) مناسبــا تماما لما ادعاه (غولينيفسكي) مما يجعل من غير الضروري حتى لشخص مستريب الاعتقاد بان الـ (ك ج ب) قد تعمدت زرع الادعاء لاثارة الشكوك حــول (هانلي) والنيــل مــن مصداقيتــه . وقد ساورت الشكوك كلا من (انغلتون) و (هــيلمز) مـــن ان (غولينيفسكي) قد وقع تحت سيطرة الروس ثانية قبل هروبه بفترة قصيرة . ومن خلال تكرار التحليل للمعلومات الاستخباراتية التي كان قد أدلى بها ، تبين

ان هناك تغييراً واضحا في نوعية المعلومات ، بحيث انتقلت من كونها أموراً بولندية ولتصبح امورا روسية ، كما لوحظ ان الروس كانوا يتعمدون تزويده بمسحوق الباريوم حول معلوماتهم الاستخباراتية من اجل تجنب حدوث أي ثغرات في معلوماته . وقد شاركت (م آي ٥) الامريكيين في هذا الرأي ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي أدى الى تجاهل قصة (غولينيفسكي) حول عميل متوسط الدرجة طوال هذه المدة الطويلة . وقد وضعت تبرئة (هارييت) علامة استفهام حول صحة العميل متوسط الدرجة وصحة المعلومات التي ادلى بها (غولينيفسكي) وخاصة بعد هروبه . فقضية العميل متوسط الدرجة لم تظهر الاّ في شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٣ ، في حين ان (غولينيفسكي) كان قد هرب عام ١٩٦١ . والآن ، ومن أجل أن يقوم الـ (ك ج ب) بفبركة القصة على النحو الذي تمت عليه فانه لا بد لهم من الاطلاع على سجل خدمة (هانلي) . وكان الشخص الوحيد الذي يستطيع القيام بذلك بحكم منصبه هو (روجر هوليس) .

ولكن ، اذا كانت قد تمت إعادة (غولينيفسكي) أو كان بمثابة عربة نقل لا تدرك ما الذي تحمله ، من أجل تقديم المعلومات المضللة ، فان السؤال المطروح هو : ما هي المعلومات الأخرى التي تحتفظ بها (م آي ٦) و (السي اي ايه) في بولندا ، والتي كانت تعد منذ الحرب أعظم مجال مثمر باستمرار بالنسبة للغرب فيما يتعلق بعمليات الكتلة الشرقية ؟ . لقد قمت ببعض الاعمال الاساسية حول هذا الموضوع خلال التحقيق في قضية (هارييت) .

وكان مما أثار الرعب أنني اكتشفت ان كافة العملاء الذين تشرف عليهم و تديرهم (م آي ٦) كانوا – وعلى امتداد فترة طويلة – يلتقون في شقة استأجرها سكرتير محطة (م اي ٦) في (وارسو) وقد عقد هناك ما يزيد على تسعين اجتماعاً . وقد تكهنت بان من المحتمل ان يكون السبب الذي يقف وراء اخفاق الـ (ك ج ب) والاستخبارات البولندية – من حيث الظاهر – في اكتشاف هذه السلسلة المذهلة من الاجتماعات انهم يقومون بزرع عملاء مزيفين بيننا . وثارت مشاكل وشكوك (م آي ٦) للمرة الثانية حول موضوع (بينكوفسكي) .

لقد سيطر علينا اعتقاد مفاده ان اولئك الهاربين ، قد تم ارسالهم لخداع أجهزة مكافحة التجسس الغربية خلال تدفق سيول المهاجرين المفاجئة في مطلع سنوات الستينات . وكان رأي (غوليتسين) الأساسي ان الـ (ك ج ب) قام بشن حملة من المعلومات المضللة بشكل منظم ، وان الهاربين المزيفين سيرسلون الى الغرب من أجل التشكيك بمصداقيته . وعلى الفور تقريباً ، وصل (يوري نوسينكو) الى عتبة باب (السي آي ايه) وبدا وكأنه يحرّف العديد من الدلائل التي قدمها (غوليتسين) عن الاختراق السوفييتي للاستخبارات البريطانية والامريكية .

وقد أوقع (نوسينكو) وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه) في اضطراب ، اذ أخبرهم

انه رأى الملف المتعلق بـ (لي هارفي اوزوولد) الذي زعم انــه اغتال الرئيـــس (كينــدي) . وادعـــى (نوسينكـــو) انه ليس لـ (ك ج ب) علاقــة بعملية الاغتيال ، وانهــا لـــم تجر أي اتصـــال مع (اوزوولد) خــــلال وجـــوده في روسيا ، على الرغم من أنه كان يعمل في قاعدة طائـرات التجسس (يو ٢) الســرية جـــداً قبل هـــروبــه بوقت قصير . وقد رأى العديد من ضباط (السي آي ايه) ان قصة (نوسينكو) مدروسة زيادة عن اللزوم ، وخاصـــة حينما اكتشفـــوا انه يكـــذب حول رتبته ، ووضعه في الـ (ك ج ب) . ولكن ، لماذا أُرسل ؟ لقد شرعت (السي آي ايه) فـــي محاولـــة لتحطيم (نوسينكو) مستخـــدمة أساليب الضغط الجسماني ، والسجن ، وهو ما لم تكن (م آي ٥) تسمح به . غير انهم لم يتمكنوا من الاقتراب من حل هذا اللغز الاّ في عام ١٩٦٧ .

وازدادت حـــــدة الشكـــوك حــــول مصـــدري مكتـــب التحقيقات الفيدرالي المتمثلين فـــي (تـــوب هـــات) و (فيدورا) اللذيـــن كانا يقـــومان بارســـال المعلومات ، فـــي حين كانا لا يزالان في منصبيهما ، على الرغم من انهما كانا يرفضان الكشف عن مصادرهما . لقد ارسلا الى الامـــريكيين معلـــومات عن (نوسينكو) ادعيا فيها انه صادق ، وذلك في محاولة منهما لطمأنة الامريكيين ، بل وصـــل الأمـــر بهما الـــى حد تأييد ادعاء (نوسينكو) فيما يتعلق برتبته المزيفة . ولكن ، اذا كان كل من (توب هات) و (فيـــدورا) دجالين ، فما هي الدلائل التي قدماها فيما يتعلق باختراقات الأمن البريطاني ؟ .

لقد قدم (فيدورا) المعلومات السرية التي قادتنا الى (مارتيللي) على الرغم من أن ذلك أدى الى تلك المحاكمة المشؤومة ، وتبرئته فيما بعد . وأرسل (توب هات) الى الامريكيين صوراً لوثائق تتحدث بالتفصيل عن نظام توجيه الاسلحة الامريكية والتي ادعى ان السوفييت كانوا يحصلون عليها من مصدر في بريطانيا . وبعد التحقيق ، تمكنا من اعتقال (فرانك بوسارد) الذي كان ضابطاً في فرع الصواريخ الموجهة في وزارة الطيران ، اذ تم اعتقاله ، عام ١٩٦٥ ، وحكم عليه بالسجن لمدة واحد وعشرين سنة . فاذا كان (توب هات) و (فيدورا) عميلين مزروعين ، فان هذا يعني ان الروس كانوا على استعداد للقيام بالتضحية بعملاء ، لهم أهميتهم من أجل ايجاد جو من الثقة بهذين الرجلين . ومما يجب أخذه بعين الاعتبار ، اننا لولا مهارة قيادة الاتصالات الحكومية لكان من المحتمل بالنسبة لنا ، أن لا نتمكن من الحصول على الدليل الذي يثبت ان (بوسارد) كان يعمل لصالح الاستخبارات العسكرية الروسية .

كنـــا نقـــف فـــي مكـــان وصفـــه (انغلتـــون) بانـــه " تيـــه المرايـــا " فالهاربـــــون مزيفـــون ، والاكاذيب حقائق ، والحقائق أكاذيب ، في حين ان انعكاسات كل ذلك تتركك مذهولاً ومرتبكاً . كانـــت فكرة الهاربين فكـــرة مـــن الصعوبـــة بمكـــان قبولهـــا ، الاّ اذا قرأت كتب

التاريخ ، وتعلمت من خلالها ما الذي فعلته (م آي ٥) في نظام الصليب المزدوج على امتداد فترة الحرب . صحيح ان هذه النظرية أصبحت الآن قديمة ، ولكن هناك بضعة من ضباط الاستخبارات كانوا قد عاشوا خلال تلك الاعوام من سنوات الستينات ، والذين لا يقتنعون اننا كنا خلال تلك الفترة ضحية نوع من أنواع التآمر السوفييتي حول الهاربين . وقد يناقش البعض قضية فيما اذا كان السوفييت قد نجحوا في ذلك ، او يجادل البعض الآخر في مدى حجمها ، ولكن القلائل جداً هم الذين تساورهم الشكوك في ان مثل هذه اللعبة تجري الآن . علاوة على ذلك فان هذه اللعبة ، لن تجري الاّ اذا كان لدى الروس مصدر جيد في (م آي ٥) يقوم بتغذيتهم بالمعلومات الاستخباراتية المتعلقة بهذه اللعبة .

وبعــد مــرور عشــرين سنــة ، فان الوصول الى حقيقة هذه السنوات لا يزال أمراً مستحيلاً : (غولينيفسكي) و (بينكوفسكي) و (نوسينكو) و (فيدورا) و (توب هات) . كل هذه القضايا تحمل علامــات تدخّل بشكل أو بآخر . ولا أعني بكلامي هذا ، ان كل واحد منهم كان هارباً مزيفاً بشكل متعمد ، على الرغم من أن (توب هات) و (فيدورا) كانا كذلك ، كما ان مكتب التحقيقات الفيدرالي قد توصل الى هذه النتيجة خلال سنوات السبعينات ، وبعد ان تقاعدت بفترة طويلة . واعتقد انه تم استخدامهم في اوقات مختلفة : (بينكوفسكي) للتأثير على مقدرتنا لتفهم تكنولوجيا الصواريخ السوفييتية ، و (نوسينكو) للتأثير على الموقف الامريكي فيمــا يتعلق بقضية اغتيال (كيندي) امــا (غولينيفسكي) و (فيدورا) و (توب هات) فانهم كانوا – كما اعتقد – جزءاً من محاولة مستمرة لصدع التحالف الاستخباراتي الامريكي – البريطاني الهام جداً ، وأيضاً ، من أجل دعم خدعة انجاز السوفييت للصواريخ بعيدة المدى حتى منتصف سنوات السبعينات .

ولنأخــذ بالاعتبار توقيت المعلومات الاستخباراتية الرئيسية الواردة من اولئك الهاربين . فقــد أدلى (غولينيفسكي) بمعلومات عن العميل متوسط الدرجة في نهاية عام ١٩٦٣ ، أي بعد مرور ثلاث سنوات تقريباً على هروبه . وقد جاء ذلك ، في الوقت الذي كان فيه (هوليس) يقوم بزيارة (واشنطن) لاطلاع مكتب التحقيقات الفيدرالي و (السي اي ايه) على نتائج التحقيقات في قضية (ميتشل) . ولذلك ، فانه لن يكون هناك شيء أفضل من إحداث صدع أخير في العلاقات بين الاستخبارات الامريكية والبريطانية ، يتمثل في الاعلان عن وجود جاسوس في (م اي ٥) لم يتم اكتشافه . ولحسن الحظ ، فان شكوك (انغلتون) حول (غولينيفسكي) قد عملت على ان لا يكون للقصة أثر كبير كذلك الاثر الذي يمكن ان يكون لها دون وجود تلك الشكوك ، بل انها – في الحقيقة – عملت على تقوية الشبهات الامريكية – الانكليزية حول كل من (غولينيفسكي) و (هوليس) .

بعــد ذلك مباشــرة ، اتصــل (فيــدورا) بالامــريكيين ، وقدم اليهم المعلومات التي أوصلتنا الى (مارتيللي) . وكانت عملية اكتشاف جاسوس نووي آخر كفيلة بخلق اقصى ما يمكن من التوتر بين

(لندن) و (واشنطن) مع أن الـ (ك ج ب) لم يحلم علي الاطلاق بان تقوم (م آي ٥) بالتصرف على النحو السيء الذي تصرفت به .

بعـــد مـــرور بضعـــة شهـــور ، وكأن الأمر جزء من حملة منسقة ، قادنا (توب هات) الى (بوسارد) . وللمرة الثانية ، فان تكنولوجيا الاسلحة الامريكية كانت ضمن هذه القضية ، مما كان يعني تلقائياً ان القوات المسلحة الامريكية ستقوم بدور فعال في الاحتجاج ضد الضعف البريطاني . وحين قمنا بتقييم الضرر الذي لحق بنا عن طريق (بوسارد) ، استنتجنا بان انظمة التوجيه الامريكية المتقـــدمة ، كان قـد تم افشاء أسرارها كلها . وقـد أرسل (باتريك ستيورات) نسخة من التقرير الى (انغلتون) وارفق بها مذكرة من كلمة واحدة هي " النجدة " .

ومن حسن حظ بريطانيا ، انه كان باستطاعة (انغلتون) ان يحمينا من الهجمة الشرسة . غير انها كانت مطاردة عن قرب ، والقليل من يدرك اليوم ان التبادل أخذ يصل مرحلة الانهيار شيئاً فشيئاً في مطلع سنوات الستينات اكثر منه في أي وقت آخر منذ الحرب .

وفي الليلة التي سبقت عودتي الى (لندن) ذهبت أنا و (انغلتون) لتناول طعام العشاء في مطعم صيني صغير في (الاسكندرية) حيث يتناول ابنه الطعام هناك بشكل دائم . وقد كان هذا المطعم أحد الاماكن المفضلة لدى (انغلتون) حينما كان يحس بالحاجة الى الحديث . قال لي : هنا يمكننا التأكد من الخلوة ، فالصينيون لا يسمحون للروس بالدخول .

كان (انغلتون) في ذروة قوته ، على الرغم من أن التوتر والاجهاد قد أخذا يبدوان عليه . فعلى امتداد سنوات كان يشن حرباً بيروقراطية خفية ضد القسم السوفييتي في (السي آي ايه) من أجل ضمـــان استقلال وتوسع امبراطوريته للتجسس المضاد . وقد كان ناجحاً الى حد يتجاوز كل التوقعات ، كما انه تمكن من أن يفرض (فيتو) مؤثراً على كل العمليات وعلى هيئة الموظفين داخل الـــوكالة . وسيطر على النشاط الاسرائيلي ، في حين انه عمل على تنشيط محطة (السي آي ايه) في (تل أبيب) . وقد عمل على ضمان ان تمر من خلاله شخصيا كافة الاتصالات المهمة مع الاستخبارات البريطانية ، متجاهلاً بذلك محطة (لندن) ، بل انه نجح في ايجاد شيفرة تجسس مضاد تكون خاصة به ، ومستقلة عن اتصالات (السي آي ايه) التي زعم بأنها غير مأمونة ، على الرغم من اننا جميعاً كنا نؤمن أن السبب الحقيقي وراء ذلك هو رغبته في بناء الامبرطورية .

اما أبرز انجازاته ، فقد كان سلسلة مؤتمرات (كازاب) . كان أفضل وألمع وأعلى ضباط الاستخبارات الغربية يجتمعون مرة كل ثمانية عشر شهراً لمناقشة جدول العمل المتمثل في : التهديد الســـوفييتي ، ودور التجسس المضـــاد ، ووضع سيناريوهات لقرارات مستقبلية . وحسب ما كان يعتقده (انغلتون) فان موتمرات (كازاب) ، وهو أمر معقول ، كانت أول خطوة حاسمة لايجاد قيادة

استخبارات غربية موحدة ، قادرة على تحدي الكتلة السوفييتية .

كانت مؤتمرات (كازاب) مناسبة تماماً لمزاج (انغلتون) حيث كان يبدو دائماً مستريحاً تحت ظل أمنهـا الكامل ، والجـو الـذي تم تفتيشه الكترونياً ، وذلك لمعالجة الأمور الغامضة اللانهائية المتعلقة بـ " تيه المرايا " . وقد قمت بدعم و تأييد هذه الاجتماعات بشكل كامل ، لما لها من أهمية قصوى .

كانـت المقامرة دائماً ميزة رئيسية لمؤتمرات (كازاب) وكانت كل جلسة يومية تنتهي عادة بلعبة بوكر ، كان (انغلتون) يتفوق بها ، على الرغم من أنني كنت قادراً في بعض الاحيان على " أخذه الى المنظفين " . وكان سباق الخيل ايضاً ترفيه عرضي . واذكر في (كازاب) نيويورك الذي عقد في أواخـر سنوات الستينات وأوائل سنوات السبعينات ، كيف ان (جيم أنغلتون) أصبح وكيل مراهنات (كازاب) لسباق (واشنطن) العالمي للخيل ، مصوراً الخيل من كافة أنحاء العالم ، والتي كانت ستشارك في سباق ما بعد ظهر أول يوم . وقبل بدء الاجتماع ، طلبت من (انغلتون) أن يضع مبلغ مائة دولار امريكي على أنف الحصان البريطاني ، الذي كان فارسه (ليستر بيغوت) والذي سبق له ان امتطـى الحصان الفائز في السنة الماضية . ولم يكن الحصان البريطاني علـى درجة كبيرة من الجودة ، غير أن رجال (م آي ٥) و (م اي ٦) كانوا تواقين لأن يراهم الناس وهم يرفعون العلم حتى في اكثر الغرف سرية ، وسرعان ما راهنوا فيما بينهم على خمسمائة دولار أمريكي .

بعد ظهر ذلك اليوم ، وفيما كان (انغلتون) يقدم تقريراً مطولاً عن تقنيات التضليل السوفييتي طويلة المدى ، كانت غالبية عقول البريطانيين – على الأقل – متجهة نحو ميدان السباق . وبعد مرور ساعـة ، دخلـت سكـرتيرة (انغلتون) وسلمته بعصبية ورقة ، مكونة من قصاصتين . جاء في الأولى : " كم تريد مقابل بيتك يا (جيم) ؟ " وكانت الثانية تقول " فاز الحصان البريطاني ! " .

وصاح (أنغلتون) :

" يا للمسيـح ! لقـد نسيت أن أسحـب الرهان ، وقد فاز ذلك الحصان البريطاني اللعين بنسبة ١١ الى ١ " .

في تلك الليلة ، وبينما كنا على متن طائرة مروحية صغيرة تابعة لـ (السي آي ايه) في طريقنا الى (واشنطن) زحف (انغلتون) متنقلاً في أرجاء الطائرة ، وهو يدفع ديونه من فئة المائة دولار من محفظة ضخمة .

قال وهو يدفع لي حصتي :

" التضحيات التي أقوم بها من أجل الغرب ... " .

غيـر ان الـدعاية لـم تستطـع أن تخفي حقيقة أنه كان يصنع عداوة ضده في كافة

أقسام (السي آي ايه) : فـــي القسم السوفييتي ، بين أوساط المدراء الآخـرين الذين يشعرون بالغيرة من قوتـــه ، وبـــين اوساط اولئك الضباط الذين أثر على ترقيتهـــم بشكل عكســـي . كان يشعر بالأمــان حينما كان (هيلمز) مديراً ، غيـــر ان حـــرب فيتنام كانت تعمل بسرعة على تغيير وجه الوكالة ، وكان نموذج التجمع السياسي للوفاق الـــــدولي قد بدأ يحطم أساسيات الشكوك الناتجة عن الحرب الباردة التي كانت امبراطوريته تقوم عليها .

ها هـــو (بيل هارفي) أحد محاربي الحرب الباردة القدماء قد رحل ، وقد دفع الى التقاعد بسبب الادمان على الكحول . وكان (انغلتون) ايضاً يتعاطى المشروبات باكثر مما هو مناسب بالنسبة له ، ولم يعد يبدو عليه الشحوب فقط ، وانما التلف . وتغيرت حالته النفسية ايضاً ، فقد أصبح منطوي التفكير بشكل متزايد ، وأصبحت دعابته تتلاشى شيئاً فشيئاً ، وبدا كتوماً وعدوانياً ، وضعفت ثقته في الناس الذين كانوا يتحولون ضده اكثر واكثر .

كان تعاطي المشروبات ، والتدخين ، والصيد هي الامور الرئيسية التي تجعل (انغلتون) يشعر بالراحة والتحرر . وقد أخبرني (باري رسيل جونز) عن دهشته حينما اكتشف – أثناء مرافقته له في رحلة صيد سمك في لسان نهر يمتلكه في ولاية إيداهو – ان (انغلتون) كان قد دفن مئات من زجاجات الـ (جاك دانييل) تحت الماء ، وبمسافة مائة ياردة بين الزجاجة والاخرى حتى لا ينقطع من الخمرة . اما في (واشنطن) فانه وجد الراحة في زراعة النباتات السحلبية الغريبة (وكانَ خبيراً عالمياً بها) وفـــي القيـــام بصناعـــة الجلود يدوياً ، ودق الذهب وتطريقه ، أو صنع أشراك للسمك لاصدقائه والمعجبين به .

تحدثت أنا و (انغلتون) حتى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وقمنا بفحص ودراسة كل سيناريو محتمـــــل لعمليات الهروب . مَن هو الحقيقي ، ومَن هو الزائف ؟ مَن الذي هرب فعلاً ، ومَن هو الذي أُرسل ؟ وانغرزت السطور مثلما الشَّعر في ذهن الطفل . كنا كلانا على نفس المِخْلَعَة *، وكنا نعتمد الى حـــد بعيـــد على وضـــــع الفرضيات الصحيحة عن الهاربين : بالنسبة اليه ، اغتيال رئيس جمهوريته ، وبالنسبة لي ، الخطوة التالية في علمية اصطياد الخُلْدْ . وأخيراً ، عدنا مشياً على الاقدام باتجاه (٤٤ شارع بردج) . كان (انغلتون) قد أوقف سيارته خلف نصب اوكيناوا التذكاري بالقرب من المقبرة الوطنية . كان (انغلتون) وطنيا الى درجة كبيرة في تلك الطريقة الامريكية الفريدة التي تعبر عن نفسها فـي احترام العَلَم ، ورمـوز التراث الوطني ، مثل : نصب أوكيناوا التذكاري الذي كان يسحره . توقف لينظر الى الخلف باتجاه النصب ، في حين كانت السيارات تمر مسرعة من خلفنا وهي تسير على الشارع العريض .

---

* المخلعة : أداة تعذيب قديمة يمط عليها الجسم (المترجم)

تمتم قائلاً :

" هـــــذا من عمل (كيم) .. " . كانت واحدة من المرات القليلة التي سمعته أثناءها يذكر صديقه القديم (فيلبي) .

اذا كانـــت هناك مـــؤامرة لخداع الغرب من خلال استخدام الهاربين في بداية سنوات الستينات ، فقد كنــا فريســة سهلة لذلــك . فعلـــي امتداد تلـك السنـوات كانـــت هناك سياسة متعمدة في (لندن) و (واشنطن) للقيام بكل ما يمكن القيام به من أجل اجتذاب الهاربين . فقد كان ينظر الى هؤلاء على انهم بمثابة الســـلاح السري الذي باستطاعته أن يعطل الالة السلـــسة في ميدان (دجرجنكسي) . وعلى نحو جزئي ، فان هذه السياسة تمت من خلال الاحساس بالذنب ، اذ ان الهاربيـــن الأوائـــل أمثال (غوزينكو) و (فون بتروف) لم يحصلوا على المكافأة التي كان يجب يحصلـــوا عليهـــا لقـــاء خدماتهم ، وشعروا بالمرارة من المعاملة التي تلقوها . لقد دُفعت لهم أجورهم ولم يعد هناك مَن يبالي بهم ، وكان يتوقع منهم أن يسيروا حياتهم بانفسهم قدر استطاعتهم . وقد أخفق معظمهم في ذلك . وكان هنـــاك أيضـــاً الشعور بالذنب فيما يتعلق بالترتيبات الامنية التي أدت الــــى وفاة كل من (فولكوف) و (كريفيتسكي) ، وقـــد أصبحنا نخشى من انه ما لم يتم بذل جهود محسوسة لتبيان فوائد ومنافع الهروب ، فان من المحتمل ان تصـــــل الاحاديث الــــى الشرق ، الأمر الذي سيعمل على تثبيط همة كل مَن يحاول القيام بأي اتصال هناك .

ففي الوقت الذي وصل فيه (غوليتسين) أصبحت تلك السياسة اكثر صلابة ، وتم اصدار تصريح باستخدام أي وسيلة من شأنها ان تعمل على تأمين عمليات الهروب ، بدءاً من دفع المبالغ الهائلة ، ولكن مع استخدام أساليب أخرى ، وأتذكر على وجه الخصوص عملية بدأت في منتصف سنوات الستينات كان المتورط فيها ضابطا على مستوى عال من الـ (ك ج ب) ويدعى (سيرجي غريغوفين / وهو اسم مستعار) وتوضح المدى الذي كنا على استعداد للذهاب اليه . كان (غريغوفين) معـــروفاً لدينا لانه خدم في الدانمارك . وكانت الاستخبارات الدانماركية تحذرنا باستمرار حول هويته ، ومن ضمن هذه المعلومات الاستخباراتية انه مشهور في مصاحبة النساء . وتم توزيع تقرير المصدر على القسم (د٤) وهو القسم المتخصص بمتابعة العملاء في (الفرع د) وتم الايعاز لهم بضرورة متابعة طيش (غريغوفين) سيما وانه قد ترك زوجته في (موسكو) .

ان أي روسي – خاصة ضابط الـ (ك ج ب) – يعتبر من قبل قسم الأمن في الـ (ك ج ب) مثيراً للمتاعب وذلك اذا ما ضبط بعلاقة مع النساء في الغرب ، وقد يؤدي ذلك الى بروز مشاكل واضحة . بعد مرور عام على ذلك ، تلقى القسم (د ٤) أول أشارة . فقد دأب أحد عملائه – وهو موظف على مستوى عال في صحيفة الديلي ميرور – على الالتقاء بـ (غريغوفين) في حفلات عشاء

كانت تقام بين وقت وآخر . وقد أخبرته احدى صديقاته ، ان (غريغوفين) على علاقة باحدى صديقاتها ، كانت قد قامت بتعريفها على الروسي . وقام القسم (د ٤) بوضع القضية أمام الاجتماع الاسبوعي الذي يعقد مع القسم (د ١ / العمليات) وتـــم الاتفاق علـى تشــديد المراقبة . وطلب من المشرف على العميل ان يقوم بتشجيع عميلته على مراقبة سير العلاقة الغرامية النامية .

أخيراً ، انتهت علاقة (غريغوفين) مع تلك الفتاة ، وحينما التقى في المرة التالية مع المرأة التي عرفتهما ببعضهما ، سألها فيما اذا كانت لديها صديقات أخريات . وسرعان ما تأكد لـ (د ١) ان هذه هي فرصتنا . فاذا ما تمكنا من تقديم فتاة من فتياتنا الى (غريغوفين) فهذا يعني اننا سنكون في وضع جيد ، للبدء في عملية ايقاعه في الفخ . وتم تقديم الخطة الـــى (فيرنفال جونز) الذي وافق عليها ، على الرغم من ان العملية بقيت سراً ، ولم يتم اطلاع وزارة الخارجية عليها ، على أساس ان هناك احتمالاً بان ترفضها . وتم الايعاز الى القسم (د ٤) لتقديم امرأة مناسبة لهذا العمل . كان لدى القسم (د ٤) فتيات من مومسات الطبقة العليا ، اللواتي يتم استخدامهن لعمليات الايقاع في الفخ . وأخيراً ، تم تقديم احداهن الى (غريغوفين) في احدى الحفلات . التهم الطعم تماماً ، وسرعان ما ارتبط معها بعلاقة .

وبدأت الأحداث تتصاعد نحو الذروة ، حيث تم وضعه تحت مراقبة مشددة وقمنا بتحليل كافة الاحتمالات . وكان واضحاً لنا من خلال عملية المراقبة ، ان اهتمام (غريغوفين) بالفتاة كان منصباً على الناحية الجنسية ، فتبين لنا ان الفرصة ضعيفة للعب على أوتار قلبه ، ولذلك ، فلا بد أن يكون الطعم اكثر مباشرة .

ان خطط الهروب معقدة ، وتحتاج الى أسابيع من التخطيط الدقيق المحكم . تم استئجار غرفة في البداية ، ووضعت فيها مرآة مزدوجة ، وكاميرا تصوير . اضافة الى ذلك ، فقـــد تم اتخاذ ترتيبات لا يجاد منازل مأمونة ، وترتيبات نقل جيدة لحماية (غريغوفين) فيما اذا وافق على الهروب . كانت لديــه عائلــة في (موسكو) فتـــم تدقيق أحوالها في حال مساومته على اخراج اسرته أيضاً من هناك .

وأخيـــراً ، حـــــل اليـــوم الموعود . قام القسم (د ١) بنفسه بالاشراف على العملية . وصل (غريغوفين) والفتاة ، وأتحنـــا لانفسنـــا مـــدة عشر دقائق لتصويرهما في الفراش معاً ، قبل ان يقـــوم القسم (د ١) و اثنان مـــن ضبـاط (م آي ٥) الاشـــداء بفتـــح الباب ، مستخدمين في ذلك أحد مفاتيح (ليسلي جاغر) .

قال ضابط القسم (د ١) :

" أخشى أن تكون إحدى فتياتنا " في حين هربت الفتاة عبر الباب .

بدا (غريغوفين) مذهولاً للحظة من الزمن ، بينما أشار ضابط القسم (د ١) الى المرآة .

نظر ضابط الـ (ك ج ب) باتجاه المرآة برهة ، وفهم كل شيء . ثم قال :

" انني دبلوماسي .. و أطلب محادثة السفارة ... لدي جواز سفري .... " .

حاول الوصول الى ملابسه ، في حين كان أحد رجالنا يقف فوقها .

قال ضابط القسم (د ١) :

" ليس سلوكك بسلوك دبلوماسي " . وانحنى أرضاً ، ثم رمى الى الروسي العاري بملابسه الداخلية . وعاد الى العمل ثانية ، اذ قال :

" لنواجه الأمر ، فقد انتهيت يا (غريغوفين) . سيعيدونك الى (موسكو) اذا علموا بالأمر ... " .

وترك الفكرة لتغوص في داخله ، ثم تابع :

" يبدو انك مناسب على نحو اكبر للغرب . نحن نعرف هذا ، وتأكدنا منه . أربع سنوات في امريكا ، وثلاث في الدانمارك ، والآن في (لندن) . انك لا تريد العودة بأي حال من الأحوال ، أليس كذلك ؟ لماذا لا تأتي الينا ؟ سنعتني بك ، وسيكون لك راتب تقاعد جيد ... ستكون بأمان .... " .

رفض الروسي عرضنا بهزة من يده ، وطلب مرة ثانية أن يتحدث مع السفارة . وعلى مدار ساعتين ، حاول ضابط القسم (د ١) اقناع الروسي . وقال له : فكّر في المستقبل . وأوضح له ايضاً انه سيتم تجريده من امتيازاته ، ويعاد الى (موسكو) على نحو شائن ليعمل في مركز ناء كئيب في (سيبيريا) ولن يكون هناك المزيد من عمليات تبديل العملة الصعبة ، ولن تكون هناك أيضاً رحلات الى ما وراء البحار .

و مافتيء (غريغوفين) يردد :

" أنا دبلوماسي . أطالب بمحادثة سفارتي " .

كان يشبه طياراً من طياري الحرب العالمية الثانية وقد وقع في الأسر ، مردداً فقط اسمه ، ورتبته ، ورقمه العسكري . كان جندياً قوياً . وفي النهاية أدركنا أنه لن يكون هناك أي هروب . أعدنا ثيابه اليه ، ورميناه على الرصيف بالقرب من (كينسنغتون بارك غاردنز) . وهكذا ، ضاعت سدى شهور من التخطيط ، وسنوات من الصبر والانتظار .

وفي صباح اليوم التالي ، تم تسليم السفارة الروسية رزمة بنية اللون ، مغفلة التوقيع ، ومعنونة باسم السفير شخصياً ، وكانت تحتوي على صور (غريغوفين) وهو في الفراش . وفي ذلك المساء ، شاهد رجال (الفرع الخاص) ضابط الـ (ك ج ب) وهو يتوجه برفقة

حرس الى طائرة (الايروفلوت) . وأرسلنا تقريراً بما حدث الى محطة (م آي ٦) في (موسكو) وأشرنا عليهم بابقاء عيونهم على الرجل ، وذلك اذا ما أعاد التفكير مرة ثانية وحاول الاتصال بهم . غير اننا لم نسمع من (غريغوفين) شيئاً آخر .

وكثيراً ما كانت عمليات الهروب تمتزج بالطابع المأساوي ، غير انه لم تكن هناك عملية هروب محزنة كما كانت عليه قضية شاب يدعى (ناديينسكي) وهو هارب غيّر رأيه . كان يعمل في قسم الشحن التابع للوفد التجاري السوفييتي ، وقــد تمكنا من تحديده منذ وقت مبكر على انه ضابط فــي الـ (ك ج ب) . كان رجلاً هادئاً ، وكان ادعاؤه الوحيد للحصول على الشهرة هو أن زوجته تمت بصلة القرابة الــى مسؤول سوفييتي على مستوى عال في المكتب السياسي . وقــد لفت انتباهنا للمرة الأولى ، حينما رآه أفراد قسم المراقبة وهو يلتقي بفتاة في حديقة (لندن) .

وانصبت كل الجهود في البداية على الفتاة ، فتتبع المراقبون أثرها ، وتم التعرف عليها على أنها سكرتيرة في احدى الوكالات الحكومية الصغيرة ، وانه ليس لها اطلاع على المواد السرية . وتوجه (ميشال ماك كول) لمقابلة الفتاة ، وسألها لماذا كانت تلتقي بمسؤول سوفييتي ، فأقنعته ان (ناديينسكي) ليس له أي اهتمام بها فيما يتعلق بأغراض التجسس ، وان هناك علاقة غرامية تربط بينهما ، وليست لديها أي فكرة عن تورطه مع الـ (ك ج ب) وأضافت انه يختلف كثيراً عن الصورة الموجودة في ذهنها حول الروس ، فقد كان رومانسياً ، ويعاني من الخوف الى حد ما ، ويتكلم باستمرار عن تكوين حياة جديدة لنفسه في الغرب .

وللمــــرة الثانية ، يلتقي القسمان (د ١ / العمليات) و (د ٤) لدراسة أفضل سبل العمل . وقررنا ان نطلــب من الفتاة متابعــة علاقتهــا معــه بشكل طبيعــي ، فــي حين أخذنا نخطط للاتصال بـ (ناديينسكي) . وكان من الواضح ان العملية لا يمكن تأجيلها لفترة أطول . كانت الفتاة تنوء تحت ضغط كبير ، وبدا ان من المحتمل انها ستخون نفسها خلال فترة قريبة . لكن الجائزة كانت كبيرة . فعلى الرغم من ان (ناديينسكي) كان ضابطاً برتبة متوسطة ، الا انه كان من المؤكد ان زملاءه اختاروه للعمل في مركز (لندن) اذ ان له قيمة دعائية هائلة . وكانت هذه الفترة ، هي فترة هروب (سفيتلانا) ابنة (ستالين) وكنا ندرك مدى الاحراج والارباك الذي سيعانيه الروس نتيجة هروب أحد أقرباء السياسيين ذوي المراتب العليا ، وطلبه اللجوء الى الغرب .

فــي يــــوم الأحــــد التالي ، كان (ناديينسكي) سيقوم بزيارة (هاروتش) للقيام بعمل رسمي ، وكان يصطحب بعض البحارة السوفييت الى سفينتهم التي كانت ستبحر تلك الليلة ، وتقدم بطلب روتيني للحصول على تصريح من وزارة الخارجية لمغادرة منطقة الثمانين كيلو متراً المخصصة لكافة دبلوماسيي الكتلة الشرقية . جلس (ماك كول) في سيارته خارج أرصفة (هاروتش) ومعه فريق

من المراقبين ، وانتظر ظهور (نادييسكي) . بينما كـــان (نادييسكي) يمر بهم ، ناداه (ماك كول) باسمه ، فتردد للحظة . قال له (ماك كول) هامساً :

" نحن نعرف عن الفتاة ... ونعرف انك تود البقاء هنا .. اركب السيارة بسرعة ، وسيكون باستطاعتنا ان نتحدث " .

نظر (نادييسكي) في اتجاهي الشارع ، وانتهز الفرصة ، ثم اندس في المقعد الخلفي للسيارة . قاد (ماك كول) السيارة مباشرة الى منزلي في (اسكس) . قدمنا له الشاي ، وحاولنا أن نتحدث معه كثيراً . ها هو الطائر بين أيدينا الآن ، غير ان من المهم أن لا نثير فزعه .

حينما تكيف (نادييسكي) مع الجو المحيط به ، بدأت الحديث قائلاً :

" لقد سمعت انك ترغب بالانضمام الينا .... ؟ " . أومأ براسه بعصبية في البداية ، ثم بحزم بعد ذلك . سألته :

" نعتقد انه قد وقع عليك الاختيار من قبل زملائك ؟ " . جرع الشاي وقال بانكليزية جيدة :

" هل تعني الـ (ك ج ب) ؟ " . فتابعت قائلاً :

" نحن نفترض هذا " . فانفجر قائلاً ، والمرارة تبدو عليه :

" ليس لك خيار ... اذا كانـــوا يريـــدونك أن تعمـــل معهـــم ، فانهم يأمرونك بذلك بكل بساطة ... ليس لك خيار ... " .

تحدثت معه عن الترتيبات التي يمكننا القيام بها ، إذ سنوفر له الحماية ، والأمان ، والراتب التقاعدي – وربما فيما بعد – العمل . وربما سيكون هناك لقاء مع الفتاة ، ولكن عليه بعد ذلك ان يعمل بجد لبضعة شهور .

قال :

" العمل لصالح الأمن البريطاني ... أنا أعرف " . وابتســـم نصف ابتسامة . كان يعـــرف اللعبـــة ، سواء وقع الأختيار عليه أم لا .

في مساء ذلك اليوم ، أخذنا (نادييسكي) بالسيارة الى منزل مأمون بالقرب من (ويمبلدون) كما تم وضع حراس مسلحين داخل البيت معه . بعد مرور اثنتي عشرة ساعة ، تلقت وزارة الخارجية طلباً من السفارة السوفييتية تستفسر فيه عما اذا كان لدى الوزارة أي معلومات تتعلق بمكان وجود دبلوماسي معين كان قد اختفى أثناء عودته من زيارة روتينية الى (هارويتش) .

كانت الدائرة الشمالية في وزارة الخارجية على تحذير مسبق بموضوع هروب (نادييسكي) اذ ان نائب المدير العام آنذاك (فيرنفال جونز) قد أعلمهم بذلك ، وتعاملت وزارة الخارجية مع هذه القضيـــة بنفـــس الطريقة التي تعاملت بها مع كافة القضايا ، التي يبدو انها تسبب الازعاج

للروس ، كموضوع يجب ان يتم تجنبه مهما كان الثمن . وعلى الفور ، قاموا بارسال أحد المسؤولين الى المنزل المأمون الذي يوجد بداخله (ناديينسكي) لاجراء مقابلة معه . وتم سؤاله فيما اذا كان قد أقدم على هذا العمل بمحض اختياره ، وفيما اذا كان يرغب بمحادثة أي شخص من السفارة السوفييتية . وقد أكد ان قراره كان بمحض اختياره ، وانه لا يرغب بالتحدث الى أي روسي ، ونقلت وزارة الخارجية الأخبار الى السفارة السوفييتية .

وعلى الفور ، شوهدت زوجة (ناديينسكي) وهي تغادر البلاد الى (موسكو) . وفـــي اليوم التالـي ، طلبت السفارة السوفييتية من وزارة الخارجية البريطانية اتخاذ الترتيبات اللازمة ، التي تمكن زوجة (ناديينسكي) مـــن التحدث مع زوجها بواسطة الهاتف من الاتحاد السوفييتي . فـــي البداية ، لم يرغب (ناديينسكي) بالحديث معها ، وكنا غير سعداء تماماً لهذه المحاولة الصاخبة لممارسة الضغط على رجل ينوء تحت عبء الاجهاد والتوتر . غير أن وزارة الخارجية البريطانية أصرت على تطبيق البروتوكول .

كانت هذه المكالمة واحدة من العديد من المكالمات التي أصر الروس على اجرائها خلال الايام الاربعة التالية . كانت غالبية المكالمات من زوجته ، في حين ان المكالمات الأخرى كانت من قبل اقربائه الذين أخذوا يتوسلون اليه ، وهم يذرفون الدموع لاعادة النظر في قراره . قالوا له :

" فكر بنا ... فكر بالدمار وبالفضيحة التي ستلحق بنا " .

وبدأ (ناديينسكي) يذوي على نحو ظاهر . و وقع خلاف في (الوايت هول) بين وزارة الخارجية و (م آي ٥) . كان ما نريد معرفته هو لماذا سمحت وزارة الخارجية بهذه المكالمات ، في حين ان الروس لم يسمحوا لنا أبداً بالاتصال مع رجالنا ، مثل (غريفيل واين) حينما تم اعتقالهم في (موسكو) . غير أن وزارة الخارجية – ودون كبير اعتبار لأولوياتنا ، ودون أن تبدي أي اهتمام بمصالح (ناديينسكي) – تمسكت بدقائق التجارة الدبلوماسية ، وقالوا :

" لا نستطيع انكار الاتصال الأسري الانساني " .

وفي اليوم الرابع ، قال لنا (ناديينسكي) انه قرر العودة . فقد سبب هروبه الكثير من المشاكل لعائلته . حاول (ماك كول) ان يوضح له مخاطر ذلك ، ولكن دون جدوى . كان يشبه المريض على طاولة العمليات ، يتأرجح بين الحياة والموت ، وها نحن الآن نحس به ، وهو ينسل مبتعداً عنا بلطف . سألته حينما رأيته آخر مرة قبل عودته بوقت قصير :

" هل انت متأكد من انك تريد العودة ؟ " . فأجابني دون أن يظهر أي عاطفة :

" لم يعد هناك أهمية لما أريده . انني أقوم بواجبي تجاه أسرتي " .

كانت حتمية القضاء والقدر هي ملجأ (ناديينسكي) الأخير . فقد كان واحداً من ضحايا الحرب

الباردة العديدين المجهولين ، وتمتد حياته تحت أرجل الجيشين السريين الكبيرين المواجهين لبعضهما البعض غرباً وشرقاً .

ولكن ، اذا كانت غلطتنا تكمن في اننا تعثرنا في متاهة شبكة العلومات الاستخباراتية التي زودنا بها الهاربون ، فاننا بحاجة ملحة الى مخرج . وقد اختار (انغلتون) بطريقة عمياء الايمان بـ (غوليتسين) ليقوده الى الأمن والسلامة . وقد يبدو من المعقول - بطريقة من الطرق - ان نلتفت الى المهندس المعماري الذي صمم متاهة الشبكة لمساعدتنا في ايجاد مخرج لنا . ولكن ، على الرغم من أنني بدأت كمعجب متحمس بـ (غوليتسين) وكافة نظرياته ، الاّ انني مع نهاية سنوات الستينات بدأت أشك فيه .

كانت المشكلة تكمن في هوس (غوليتسين) بفكرة " اسلوبيته " وسيطرتها عليه . وقد زعم انه اذا أتيحت لــه فرصة الاطلاع على ملفات أجهزة الاستخبارات الغربية ، فان ذلك سيعمل على تنشيط ذاكرته ، الأمر الذي سيمكنه من الوصول الى الجواسيس .

كانت النظرية تقول : بمـــا ان الكثير من المعلومات الاستخباراتية التي رآها فــي ميـــدان (دجرجنسكي) قد تم تنقيحها ، وبكلمات أخرى ، قد تم تمويه المصدر الذي وردت منه بهدف حماية هوية العميل ، الذي كان يقوم بتزويد الـ (ك ج ب) بها ، فان (غوليتسين) اذا ما قرأ الملفات ، فانه يمكن ان يكون قادراً علــى التقاط بعض النقاط المألوفة للمعلومات التـــي رآها في قسم السجلات فـــي الـ (ك ج ب) .

كانت هناك طريقتان للعب مع (غوليتسين) تتمثل احداهما في قبول اسلوبه ، والسماح له باملاء كامل سياسة التجسس المضاد ، في حين ان الطريقة الأخرى ، كانت الاستمرار في المهمة الصعبة المتمثلة في محاولة استخلاص نتف الحقائق منـــه ، مثل انواع المعلومات التي تحتويها الملفـــات التي رآها ، والموضع التقريبي للعميل ، وأشياء اخرى من هذا القبيل ، وجميعها امور يمكن ان يتم التحري عنها من خلال أساليب التجسس المضاد التقليدية .

وحيثما نجحت أجهزة التجسس المضاد في الحصول منه على هذه الانواع من المعلومات الــرئيسية الحقيقيـــة ، كان (غوليتسين) معيناً لا ينضب من التعاون . وبهذه الطريقة تتبين كيفية قيامنا بوضع يدنا في النهايـــة على (فاسال) وكيـف كــان باستطاعة (مارسيل شاليه) التعرف على (جورج باك) ، والأمر نفسه بالنسبة لمعلومات (غوليتسين) الاستخباراتية السياسية ، وحيثما تمسك بما رآه وسمعه ، كان مؤثراً ، ويمكن تصديقه . فعلى سبيل المثال ، ليس هناك من شك في انـــه حضر مـــؤتمر (شيليبين) المشهور، والذي تم خلاله تأسيس المديرية (د) المسؤولة عن عمليات التضليل الاعلامي . ولكن ، حيثما كان (غوليتسين) ينتفع مما كان يعرفه لوضع نظريات عريقة ، كبرنامجه

العظيم للتضليل الاعلامي ذي مدى الاربعين عاما ، وحيثما حاول أن يطابق الاحداث التي وقعت بعد هروبه مع نظرياته - كما فعل بالنسبة للنزاع الصيني / السوفييتي - فانه كان مسبباً للكوارث .

وسرعان ما ابتعد أغلب المؤمنين بـ (غوليتسين) في (م آي ٥) وأنا واحد منهم عـن نظرياته المربكة ، وكفوا عن التمسك الشديد بأساليبه . وبقي مواليا له (آرثر) فقط ، وبعض الضباط المستجدين أمثال (ستيفن دي مويراي) الذي كان مسؤولاً عن (غوليتسين) خلال قيامه بعمله كضابـط اتصال لـ (م آي ٦) في (واشنطن) في أوائل سنوات الستينات .

لكن الوضع في (واشنطن) كان مختلفاً تماماً . فقـد ابتلع (انغلتون) صنارة وخيط وغاطـس " الاسلوبية " فسمح لـ (غوليتسين) ان يسرح بحرية بين ملفات (السي آي ايه) مختاراً الخونة على نحو عشوائي ، وهو غير قادر على الأغلب ان يبرر قراراته على أي أساس ، سوى على أوهـى الأسس . وكانـت النتيجـة مأساوية ، وقادت الى أسوأ الاحكام المفرطة في الخطأ في مجـال التجسس المضاد ، ووقعت مجموعة من ضباط (السي آي ايه) ذوي الرتب العالية - من أبرزهم [داف مورفي] رئيس القسم السوفييتي - في دائرة الشبهات ، وتحطمت خياتهم العملية . و في النهاية أصبح الوضع سيئاً بالنسبة لضباط عديدين مختلفين ، والذين أصبحوا مشبوهين نتيجة معلومات (غوليتسين) الرئيسية ، الى درجة ان (السي آي ايه) قررت ان الطريقة الوحيدة لازالة الشكوك هي حل القسم السوفييتي ، والبدء ثانية بضباط جدد تماماً . كان مـن الواضح ، انها طريقة للخروج من متاهة الشبكة ، غير انه لم يكن بالامكان تبرير الضرر الذي أصاب معنويات الوكالة برمتها .

وعلى الرغم من أن (م آي ٥) تفادت التصرفات المتطرفة التي تصرفتها (السي آي ايه) الاّ انها ظلت تتعامل مع (غوليتسين) على نحو سيء . وقد سمح له بأن يرى نفسه انه مهم جداً . كان يجب ان يعامل كل الهاربين من على مسافة بعيدة ، وجعلهم يكسبون رزقهم بالعمل ، وتقديم أقل ما يمكن من التغذية الاسترجاعية لهم ، حتى لا يقيموا أهميتهم ، ويضعونها في مستوى باقي انشطة جهاز الاستخبارات . ومنذ زيارته الاولى الى بريطانيا عام ١٩٦٣ ، فتحنا لـ (غوليتسين) قلوبنا ، وكنت مسؤولاً عن ذلك كأي شخص آخر . وفي حين كانت قضية (ميتشل) لا تزال جارية ، شاركت أنا و (آرثر) فيها مع (غوليتسين) بعد الحصول على موافقة كل من (هوليس) و (فيرنفال جونز) . وقد اختار هو الاسم الرمزي للقضية وهو (سبيترز) تيمنا باسم ضابط استخبارات تشيكي مشهور وقديم . لقد كان يعرف منذ البداية اننا نقوم بمطاردة جاسوس على مستوى عال ، ومن المحتم انه قام بتلوين المعلومات الاستخباراتية التـي قدمها لنا . وخلال شهور التوتر والهستيريا مـن عام ١٩٦٣ تقريبـاً وفيما كانت رائحة الخيانة تفوح في كل ممر ، كان من السهل أن نرى كيف كانت مخاوفنا تتغذى على

نظرياته .

لم يكن هناك أي شك في انه كان يعرف عن كثير من الاختراقات في الغرب . و السجلات في بريطانيا ، و النرويج ، وفرنسا ، تبرهن على ذلك ، غير اننا لم نكن قادرين – ونحن نعمل بسرعة – على الحصول على نسخة غير مشوهة من كل معلوماته الرئيسية ، وأنا متأكد ان هذا الامر لا زال يكلف الغرب ثمناً باهظاً .

أخيراً ، انقلبت الظروف ضد (غوليتسين) عام ١٩٦٧ . فقد دعي لالقاء خطاب في أول مؤتمر (كازاب) في (مبلورن / استراليا) . وكان كل الحاضرين ينتظرون ظهوره بلهفة ، اذ ان الكثير من افكاره قد تدفقت خلال السنوات الخمس الماضية . وكان (غوليتسين) مغروراً كما هي عادته ، وانطلق يلقي خطاباً مطولاً عن الفشل الذي حاق بأجهزة الاستخبارات الغربية ، وذلك كي يفسر أفكاره على نحو صحيح . ثم أعلنها مدوية :

" أنا أعلم عن وجود جواسيس آخرين ، فلماذا لا ترغبون بالتعاون معي ؟ " .

وأكد على نحو خاص ، على بريطانيا ، وعلى الاختراقات العديدة التي ادعى انها لا تزال غير معروفة ، والتي كان باستطاعته وحده ان يحدد موضعها . كان (فيرنفال جونز) يبتسم الابتسامة التي احتفظ بها للاشخاص المملين ، اذ كان يكره ان ينشر غسيله الوسخ أمام الناس . واخيراً ، نفد صبره ، وقال يسأله :

" ما الذي تريده ؟ " . فأجابه (غوليتسين) :

" الملفات .... الاطلاع على ملفاتكم " . فقال (فيرنفال جونز) :

" حسناً ، يمكنك الاطلاع عليها .. على أي شيء تريده ، وسنرى إن كان لديك شيء لتقدمه الينا " .

وصل (غوليتسين) في ربيع عام ١٩٦٨ ، ولقد مارست عليه ضغوطاً كي يأتي مباشرة ، غير ان الفصل كان شتاء في (لندن) وأخبرني – وهو مكتئب – بانه رأى الكثير من الثلج في حياته . قدمنا له سكناً في منزل مأمون بالقرب من (برايتون) . وعاش (ميشال ماك كول) وزوجته معه في البيت لتدبير امور البيت ، و مؤانسته . وكنت آتي اليه كل اسبوع من (ليكونفيلد هاوس) ومعي حقيبة مليئة بالملفات ليقوم بدراستها .

حين قمت بتسليمه المواد أول مرة ، حذرته من ان انه لا يمكنه الاحتفاظ بأي ملاحظات ، اذ انني كنت ، ومعي (فيرنفال جونز) نخشى ان يكون الحافز وراء " اسلوبيته " تلك ، هو رغبته في ان يتمكن من تجميع الكثير من المعلومات الاستخباراتية من كل أجهزة الاستخبارات الغربية قدر الامكان لغرض غير معروف . وأجابني رداً على تحذيري له :

" بالطبع ، فانني أفهم هذه الأمور يا (بيتر) فأنا محترف " .

ولمدة أربعة شهور ، طاف (غوليتسين) فـــي اكثر ملفـــات (م آي ٥) سرية ، وكــــان (ميشال ماك كول) يذهب كـــل شهر الى مصرف (غلين ميلز) ويسحب مبلغ عشرة آلاف جنيه نقـــداً ، ويضعها في حقيبة صغيرة ، ويحضرها الى (غوليتسين) ولكن ، مقابل كل هذا المال ، كان هناك القليل مما قدمه (غوليتسين) . واكتشف (فيرنفال جونز) انه كان مخادعاً . كانت هناك بعض الامور المفيدة طبعاً ، اذ انه قام بدراسة (فينونا) واستطاع أن يملأ مجموعات قليلة من خلال استغلال معرفته باجراءات الـ (ك ج ب) . وقضى وقتاً طويلاً وهو يدرس ملفات مدرسة لغة الخدمات المشتركة في (كامبردج) باحثاً في ملفات الطلاب المرشحين ليرى إن كان هناك مَن يلفت نظره . وأجرينا اختبارات حتى على صوت بعض اولئك الذين أثاروا اهتمامه على نحو خاص ، لنرى فيما إذا كان باستطاعة (غوليتسين) اكتشـــاف انهم كانوا قد التقطـوا كلمـــات روسية من المشرفين عليهم في الـ (ك ج ب) وذلك من خلال تعابيرهم التي يستعملونهـــا . كـــان ذلك عملاً فنيـــاً ، غيـــر انه لم يؤد الى نتيجة ، فقررنا في النهاية أن آمن شيء يمكننا القيام به هو إغلاق المدرسة .

اما في المجال الحاسم – فيما اذا كان باستطاعته ان يلقي أي ضوء على مشكلة الاختراق – فانه فشل في ذلك تماماً . فقد ملأ فراغ بعض التفاصيل في ادعاء (سكريكين) وكانت عنده نظرية واحدة غريبة بشكل كامل . لقد قضى عدة أسابيع وهو يقوم بدراسة حركة اتصالات (فينونا) ليرى فيما اذا كان باستطاعته مساعدتنا في تحديد هوية الاسماء السرية غير المعروفة . وكان هناك اسمان أثارا اهتمامه على نحو خاص ، وهما (ديفيد) و (روزا) . وقد عرفنا من خلال رسالة استطعنا حل رموزها بانهما يعملان معاً على نحو واضح : ربما زوج وزوجته ، أو أخ وأخته . طلب (غوليتسين) ملفات ضباط (م آي ٥) الذين خدموا في الوقت الذي تم فيه التقاط حركة اتصالات (فينونا) . وفي أحد الايام أعلن ان الجواب لديه .

قال على نحو غامض مشيراً باصبعه ككاشف السحرة إلى ملفين على الطاولة أمامه :

" جاسوساكم هنا ... لقـــد كشفتهما اسلوبيتي " . وكنت أعرف الملفين تماماً ، فقد كانا لـ (فيكتور) و (تيس روتشيلد) .

قلت له :

" لا تكن سخيفاً الى هـــذه الدرجة يا (أناتولي) . ان (فيكتور) أحد أفضل أصدقاء هـــذا الجهاز ... بحق الجحيم ، كيف توصلت الى ذلك الاستنتاج ؟ " . قال :

" انهما يهوديان ... ان (دافيد) و (روزا) هما اسمان يهوديان ... " .

بدا كلامه لي كنغمة الـ (ك ج ب) المعادية للسامية ، ولم أستطع منع نفسي من التفكير بان هذا

المكان لو كان (السي آي ايه) وكنت أنا (انغلتون) لأصبح كل من (فيكتور) و (تيس) في قائمة الجواسيس على نحو مؤكد ، دون وجود تفسير لهذا على أساس متين .

كانت المشكلة الأساسية لأسلوبية (غوليتسين) هـــو انه فسّر الملفات كما لو كان يزال فـــي الـ (ك ج ب) . وكان سيبحث عن عمليات سارت سيراً خاطئاً ، أو عن غلطات يمكن أن تعزى الى ضابط واحد .

كان سيسأل :

" اين ذلك الرجل الآن ؟ " . وكنت سأجيبه :

" انه في نفس الوظيفة " .

و لا يقول (غوليتسين) شيئاً لبضعة أيام ، ثم لا يلبث ان يعلن انـــه متأكد مـــن أن الرجـــل خائن ، فأسأله :

" ولكن لماذا يا (أناتولي) ؟ " . فيجيب :

" لأن الفشل في أوساط الـ (ك ج ب) يعني جنحة خطيرة . لن يثق بك أحد ، الأمر الذي سيجعل الانسان غير سعيد ، وربما فكر بعدها بالانشقاق " .

لم يفهم قط ثقافة الغرب . ولأنه دُفع دفعاً نحو الهروب بسبب ان حياته العملية قد دمرت بعد زيارته المجهضة لـ (ستالين) فانه افترض ان أي انسان في الغرب سيتصرف بنفس الطريقة .

وقد اعتدت دائماً أن أقول له :

" لكن الأمر ليس على تلك الشاكلة في الغرب . اننا لا نتصرف على ذلك النحو هنا . ان هذا يحدث في مكتب التحقيقات الفيدرالي فقط " .

سيبدو (غوليتسين) خاوياً ، فهو رجل يكاد يكون خالياً من روح المرح .

قلت له :

" اسمع يا (أناتولي) : لقد قمنا بدراسة هذه الملفات لمدة عشرين سنة ، ولا نعرف بعد من هم الجواسيس ، و تخميناتك لا تساعدنا على الاطلاق " .

نظر اليّ ، ثم الى الملف ، وكانه أراد أن يجعلني أشعر بالذنب لتشكيكي فيه ، كان سيزمجر :

" ما الذي تعرفه يا (بيتر) ... انك لم تكن هناك في ميدان (دجرجنسكي) كما كنت أنا " .

ولكن ، ومع كل غروره وطمعه ، فانه كان انساناً أصيلاً ، وخاصة حينما بدت عليه مسحة الحزن الفجائية الموجودة لدى كل الروس . وأذكر أنني أريته ذات مرة ، بعد ظهر أحد الايام ملف (فولكوف) . وحينما قـــرأ قصة محاولة ذلك الرجل للهروب ، والذي انتهى ملفه على طاولة مكتب (فيلبي) بـــدأ بالبكاء .

سألني بألم ، وهو مدرك تماماً انه لولا العناية الالهية لواجه هو (غوليتسين) نفس المصير :

" كيف يمكنكم ان تكونوا لا مبالين الى هذه الدرجة يا (بيتر) " ؟ .

وشعرنا أنا و (ماك كول) بالارتباك والخجل ، اذ لم يكن لدينا عذر لنقدمه .

ومع انتهاء فترة اقامته ، أخذت جلساتي معه تتحول الى خطب خاوية مملة ، تدور حول المعلومات المضللة ، وإعادة ذكر المعلومات الموجودة في سجلاتنا . كان ظلَّ رجل أسر أفضل العقول في عالم التجسس المضاد بذاكرته الفوتوغرافية ، وعينه التي لا تخطيء في التقاط التفاصيل . وقبل أن يرحل ، سلمنا مخطوطاته المطبوعة على الآلة الكاتبة ... تلك المخطوطات هائلة الحجم ، والتي عمل بكد لاعدادها بنفسه ، وقد طبعها على آلة كاتبة محمولة من نوع (أوليفيتي) قديمة و بأصبع واحد . وقال لي : بانها الدراسة الدقيقة و الحاسمة لنظرية المعلومات المضللة . وقمت بتسليمها الى قسم السجلات ، اذ ان الوقت الذي كنت أهتم خلاله بكل كلمة يقولها قد ولّى منذ زمن بعيد ، ولم أزعج نفسي حتى بقراءتها .

رأيت (غوليتسين) مرة أخرى في (نيويورك) في الشتاء التالي . فقد تناولنا طعام الغذاء في مطعم ايطالي قرب (السنترال بارك) . كان اللقاء مناسبة محزنة . اما (غوليتسين) نفسه فقد كان لا يزال يتحدث عن خططه لتأسيس معهد لتدريس التضليل الاعلامي والمعلومات الرئيسية التي اكتشفها . ومع هذا ، فانه كان يعرف بأنه قد انتهى . فقد أدى الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا الى وصول طوفان من الهاربين الى الغرب ، أمثال (فورليك) و (أوغست) اللذان كانت معلوماتهما أقل طموحاً ، ولكنها أسهل هضماً . كان يعرف انه جريدة يوم أمس ، واظن انه كان باستطاعته معرفة أنني كنت أسخر منه .

وفي الفترة الأخيرة ، كان (غوليتسين) يعاني من مأساة . فقد أصبحت ابنته – التي كانت موضع شغفه وحبه – فريسة للانحراف الغربي الى أقصى الحدود (الادمان على المخدرات) ، ثم لم تلبث ان انتحرت . كانت ضربة رهيبة وموجعة ، ولام (غوليتسين) نفسه على هذا .

بعد أن تناولنا طعام الغذاء ، سرنا عبر المتنزه المركزي (السنترال بارك) تحت أشعة الشمس الشتوية الرائعة . أراد مني أن أزور مزرعته في ولاية (نيويورك) لكنني أعلمته بانه يجب عليّ أن أعود الى (لندن) . ولم يبق هناك سوى القليل مما يمكن قوله .

وحين اقتربت ساعة الفراق ، سألته :

" هل تفكر بالعودة الى الوطن ؟ " . وأجابني بعد فترة صمت غير عادية :

" أوه ، لا ، انهم لن يغفروا لي قط " .

نادراً ما كان (غوليتسين) يتحدث عن روسيا ، لكن كان من الواضح انها كانت تعيش في ذهنه

دائماً ، وسألته :

" هل تشعر بالحنين الى الوطن ؟ " . فقال :

" أحيانا ... " .

ودّعنا بعضنا ، وكنـــت أسمع صوت قدميه تسحقان الثلج الذي كان يسير فـــوقه . وككـــل الهاربين ، كان (غوليتسين) يشعر بالبرودة .

٢١

مع عدم تمكن (غوليتسين) من التقدم خطوات أخرى في موضوع الاختراق ، فان (م آي ٥) حوصــرت فـــي منتصف المتاهـــة . اما البحث عن الجاسوس عالي المستوى – الذي اعتبرت لجنة (فلوينسي) ان (السِّير روجر هوليس) هو المشتبه به الى حد كبير – فقد توقف منذ عام ١٩٦٦ ، من أجل ان يتركز الاهتمام على مطاردة العميل متوسط الدرجة . ومع حصول (هانلي) على البراءة ، فانه لم يكن أمامنـــا أي طريق واضح لنواصل السير فيه ، فهل نتخلى عن البحث عن العميل متوسط الدرجة ، ونعتبر ان قصة (غولينيفسكي) مزروعة ؟ أم هل نواصل البحث عن مرشحين آخرين ، والذين كان عدد منهم مناسبًا تمامًا لانطباق المعلومات عليهم مثل انطباقها على (هانلي) ؟ . اذا اعتبرنا ان قصة (غولينيفسكي) عن العميل متوسط الدرجة قصة مزروعة ، فهل يمكننا اعتبارها بمثابة شَرك للفت انتباهنا بعيداً عن عميل آخر متوسط الدرجة ، أو عن جاسوس عالي الرتبة ؟ هل هذان الجاسوسان موجودان أم أن أيا منهما ليس له وجود ؟ . وبدا من الواضح ، ان عدم القيام بأي عمل هو أمر مستحيل ، اذ ان حالنا حال الممثلين في المآسي الاغريقية : لم يكن امامنا من خيار حقيقي سوى الاستمرار في توسيع تحرياتنا، ونفث السموم الى مسافة أبعد في الممرات .

اما أقوى المشتبه بهم ، التالي ، فقد كان (غريغوري ستيفنس / اسم مستعار) وهو ضابط انبساطي * موهوب ، يتمتع بروح مرح خبيثة . وكان ٦٠ ٪ من ادعاء (غولينيفسكي) ينطبق عليه . كانـت خلفيتـــه البولـنديـة أقـوى مــن خلفيــة (هانلي) اذ انه كان نصف بولندي بالمولد وترقى ليشغل

* الانبساطي : الشخص الذي يتجه انتباهه وأشواقه كلية أو شبه كلي نحو ماهو خارج عن الذات (المترجم)

وظيفة (هانلي) القديمة كرئيس للقسم البولندي في (م آي ٥) . وقد ساعدته معرفته بلغة ، وحضارة ، وتاريخ بلاده الأم ، على النجاح العظيم . ومن المفارقات ، أو ربما مما يبعث على التشاؤم ، هو ان (ستيفنس) كان الضابط الذي قابل (غولينيفسكي) عام ١٩٦٣ ، و أول من سمع قصة العميل متوسط الدرجة . فهل كانت هذه المقابلة كزيارة (هوليس) لـ (غوزينكو) ؟ أم أنها كانت مجرد مصادفة أخرى ؟ .

وكان (ستيفنس) مثل (هانلي) ايضاً فيما يتعلق باللباس العسكري ، كما كان هناك اتصال مع أحد ضباط الـ (ك ج ب) الذي ادعى (غولينيفسكي) بانه هو الذي قام بعملية التجنيد . وقد حضر كلاهما مؤتمر يالطا عام ١٩٤٥ ، فكان (ستيفنس) بصفة مترجم عسكري عُيِّنَ لمساعدة (ستالين) في عملية الترجمة الى اللغة الانكليزية حتى تشكى (ستالين) بانه يتكلم الروسية بلكنة بولندية .

وعلى غرار (هانلي) فان (ستيفنس) خضع لمعالجة نفسية . ومرة اخرى قمت بزيارة سرية الى شارع (هارلي) . وفي حين ان (هانلي) كان قد أعلم طبيبه بطبيعة مهنته ، الاّ ان (ستيفنس) لم يشر الى ارتباطه بالأمن القومي .

قال الطبيب :

" لم اكن أرى انه على قدر كاف من الاتزان لشغل هذا النوع من العمل "

فسألته بشكل عرضي :

" أتجده جديراً بالثقة ؟ " فأجابني :

" انه ذكي جداً . غير انني ارى بان ذكاءه أحياناً يقوده الى أن يضل طريقه " .

فسألته :

" ماذا تعني ؟ " . فقال :

" لديه لمسة (وولتر ميتي) . لا أظن بامكانك ان تعتمد دائما على ما يقوله " .

وكلما أمعنت النظر في القضية ، كلما ازدادت شكوكي فيما اذا كان (ستيفنس) قد تم تجنيده في يوم من الايام منذ البداية . وبدا لي من الصعب قول هذا . فقد كان ضابطاً جيداً ، ورجلاً له قيمته لدى جهاز الاستخبارات ، ولكن اذا أثبت التحقيق أي شيء في النهاية ، فانه كان من الواجب ان لا يسمح لهذا الرجل بالانضمام الى الجهاز . وكانت المشاكل النفسية هي مجرد جزء صغير فقط من القضية . اما القلق الحقيقي فقد كان ناجماً من خلفيته البولندية . وطبقا لما ورد في سجل خدمته ، فانه كان قد قام بزيارة بولندا بشكل منتظم بعد حصوله على تصاريح من الجهاز لقضاء اجازات خاصة هناك لرؤية اقربائه . اما عمه – والذي كان على صلة وثيقة به – فقد كان عضواً نشيطاً في الحزب الشيوعي البولندي ، وكانا يتقابلان من وقت لآخر في (لندن) . وقد كانت قضية (ستيفنس)

تمثل مشكلة واضحة ، اذ ان جهاز الاستخبارات كان يرفض – بشكل روتيني – طلب أي شخص يتقدم للعمل فيه فيما اذا كانت لعائلته أدنى علاقة بالحزب الشيوعي البريطاني . اما حقيقة مشاركته في عملية التحري عن العميل متوسط الدرجة ، فانها جعلت موضوع الدفاع عنه يبدو اكثر صعوبة . فقد كـــان مـــن الضرورة بمكان بالنسبة له ، ومن أجل تبرئة نفسه ، ان يخرج نظيفاً من تحقيق منهك للقوى . وبما ان نصف عائلته كانوا يعيشون خلف الستار الحديدي ، فان القيام بعملية تحقيق كافية كان أمراً مستحيلا .

وسار التحقيق الى أقصى ما يمكنه الوصول اليه ، فتم استدعاء (ستيفنس) للتحقيق معه حيث قمت أنا و (جيم باتريك / وهو ضابط أعور يعمل في [د ٣] كمحقق) بالتحقيق معه .

كان (ستيفن) يتوقع – نصف توقع – ان يتم استدعاؤه ، وذلك منذ أن سمع (غولينيفسكي) وهـــو يتكلـــم لأول مرة عن عميل متوسط الدرجة ، له ارتباطات بولندية . وقد قام بدور هجومي ضار ، وبدور دفاعي ، بشكل متناوب . وكان يحدق بعصبية في عيني كأنه كان يقنعني انه يقول الحقيقة . وقد وافق على ان الادعاء كان ينطبق عليه تماماً ، كما قبل حقيقة ان شخصاً له خلفيته كان مجال عملية تجنيد غريبة لمنظمة مثل (م آي ٥) .

قال :

" كنت أدهش دائماً حينما يتنبه الكل الى الجانب البولندي مني ... افترض أنني سأفشل عند اجراء تحقيق معي الآن ، أليس كذلك ؟ " . فأجبته :

" لا أعـــرف ، ولكـن إن كان هذا سيشكل اي عزاء ، فانني لن اكون الشخص الذي سيقرر ذلك ، سيكون (فيرنفال جونز) " .

وكان من الواضح انه أحس بانه أياً كان الطريق الذي سيسلكه التحقيق ، فانه لن يربح . وعلى النقيـض مـــن (هانلي) فانـــه لـن يكـون بوسعه أن يأمل حقاً بان يمشي من خلال النار دون أن يصاب بأذى .

كانـــت قد انقضـــت علينا ثلاثة أيـــام ، حين مشى ببرود داخل الغرفة في صباح أحد الايام وجلس في مواجهتي عند الطاولة .

قال :

" لقد حان الوقت كي أقول لك شيئاً ... لقد قررت أن أعترف ... " .

نظـــرت الى (جيـــم) الذي بدأ على الفور بتدوين ملاحظات . كان ذلك مجرد احتراز اضافي فقد كانت كل الجلسات مسجلة على أشرطة تسجيل . وتابع قائلاً :

" نعم ، فقد كنت أريد ذكر هذا لأحد الاشخاص منذ سنين . انت على حق ، فأنا الجاسوس

الذي تبحثون عنه " .

يـــدا انه ينهار أمامنا ، واهتزت كتفاه كما لو كان يبكي . ومرت برهة من الزمن ، قبل ان يرفع رأسه ، وينظر اليّ مباشرة . وسألته :

" هل تعني هذا حقاً يا (غريغ) ؟ " . قال :

" لديك شاهد ، أليس كذلك ؟ " . قلت :

" انت تعرف انه يجب عليك ان تقدم بيانا الى الفرع ؟ " .

أومأ برأسه ، وملت على (جيم) اذ طلبت منه أن يخبر رجل أمن المدير العام (توم روبرتس) لترتيـــب حضـــور (الفرع الخاص) على الفور . جلست أنا و (ستيفنس) في مواجهة بعضنا البعض ، وقد تراكمت الملفات والأسئلة أمامنا على نحو كبير .

قال ثانية بصوت واضح :

" كل هذا صحيح يا (بيتر) " .

أخبـــرته أن مــــن الافضــــل لـــــه أن لا يقول أي شيء قبل حضور (توم روبرتس) . عـــاد (جيـــم باتريك) الـــى الغرفة ، وجلسنا لبضع ثوان أخرى ، والصمت يلفنا ، ثم رأيت كتفي (ستيفنس) تهتزان ثانية . ظننت للحظة انه كان يبكي ، و ربما كان على وشك ان ينهار عصبيا . فغالباً ما يحدث هذا الأمر .

وحدثت نفسي :

" اللعنة ... كان من الواجب عليّ ان أطلب الى طبيب المكتب ان ينتظر هنا ... " .

وفجأة ، بدأ يضحك بصوت هادر ، وقال :

" لقد صدقتموني حقا ، أليس كذلك ؟ " .

وللحظة ، شعرت بدفقة حارة من الارتباك ، ثم قلت :

" لست متأكدا من أنني أفهم ... " .

قال ، وقد علا الاحمرار وجهه فجأة بعد أن انتهت النكتة :

" تريدون جاسوساً ، أليس كذلك ؟ لقد رأيت أن أقدم لكـم جاسوساً . كنت سأُفرمُ على أي حال . أنا أعرف ذلك ! " .

أجبته :

" لا أعتقد انه يجب علينا ان نبحث هذه القضية هنا ... سيصل (توم روبرتس) الى هنا في غضون دقائق ، وبامكانك ان تشرح الأمر كله الى (فيرنفال جونز) " .

وطبقـــا لكـــل ما أعرفه من معلومات ، فان ذلك كان اعترافا حقيقياً ، كان يحاول التراجع

عنـــه ، على الرغم من انني أعرف (ستيفنس) معرفة كافية ، تجعلني أصدق انه كان يمزح . ومع هذا ، فانه كان يقوم بعمل غبي ، فقد تلاشت أي فرصة لبقائه سالماً بعد انتهاء التحقيق .

و فزع (فيرنفال جونز) حين سمع ما حدث . كان محامياً ، وكان يكن احتراماً شديداً لأحكام عمليات (م آي ٥) .

سألني حين عدت الى مكتبه :

" ما الذي تراه ؟ هل كان الاعتراف مزيفاً ، ام انه تراجع عنه ؟ " . فقلت :

" أنت تعرف وجهات نظري . أنا متأكد من انه بريء ، لأنني اعتقدت منذ البداية ان الادعاء بوجود جاسوس من الدرجة المتوسطة هو ادعاء زائف . وكل ما أعتقده هو ان نوبة جنون عارمة قد مرت في ذهنه " .

نخــر (فيرنفال جونز) فلم تكن حكايات المنشقين الزائفين لتلقى أي ترحاب من قبل رجل له صلابته . وسأل :

" ألا تعتقد بأنه لفق القصة كلها ، أعني : قصة (غولينيفسكي) ؟ " .

وأخبرته أننا تأكدنا من دقة عمل أشرطة التسجيل قبل التحقيق . وقلت :

" بل انننــي طلبــت مـــن (ستيفنس) ان يقـــوم بالتحقــق من الترجمـــة أوه ، لقد قال (غولينيفسكي) انها صحيحة " .

تمتم وهو يمضغ غليونه :

" لا أدري كيف يمكننا ابقاءه بيننا ، فمن الواضح ان الرجل غير متزن . والشي البولندي فيه غريب ايضا ، من ذلك النوع الذي يكتب في الصحف " .

وأشار لي بالخروج .

وخلال ساعة ، انتهت حياة (غريغوري ستيفنس) العملية من الجهاز . فقد قضى عشر دقائق مع (فيرنفال جونز) قاده بعدها (توم روبرتس) الى الرصيف ، خارج (ليكونفيلد هاوس) . ولم يتح له الوقت الكافي ، لاخراج أوراقه من طاولة مكتبه .

بعد مرور بضعة أيام ، جاء (آرثر) لرؤيتي . فقد مرت فترة طويلة لم نر بعضنا خلالها منذ أن غادر (م آي ٥) . لقد تقدم في السن ، وبدا أقل اندفاعاً مما كان عليه في السابق ، رغم ان الماضي كان لا يزال يمسك به . أراد أن يعرف قصة (ستيفنس) . فقد كانا صديقين في (الفرع د) في الايام الخوالي ، وكان (آرثر) الذي يكبره كثيراً في السن ، يكن له مودة أبوية .

سألني :

" هل كان يجب عليكم ان تفعلوا هذا ؟ " .

أخبرته عن قصة العميل متوسط الدرجة ، والاعتراف الذي تراجع عنه ، والارتباك والقلق الذي سيطر علينا جميعنا . ثم سألته :

" ما الذي يمكننا فعله غير هذا ؟ كيف كان يمكننا ان نطلب من (الوايت هول) ان يقوموا بتحقيقاتهم ، ثم نغض ابصارنا عن انفسنا ؟ " .

كان (آرثر) يعرف اننا محقون في ذلك ، غير ان الثمن كان يصبح أعلى بكثير باستمرار .

قال بهدوء :

" انها قضية تسممنا جميعنا " .

لقـــد تسبـــب رحيل (غريغوري ستيفنس) عن المكتب بالكثير من المرارة . فقد كان ضابطاً محبوباً ، وكان من الطبيعي ، بل ومن المحتم ايضا ، أن يوجه اللوم لي . لم يكن أحد – باستثناء قلة مـــن كبـــار الضبـــاط – يعرف السياق الذي أدى الى اجراء التحقيق معه : التاريخ الطويل لاختراق (م آي ٥) المشتبه به على مستوى عال ، واعتراف (بلنت) والسر الرهيب لاستنتاجات (فلوينسي) التي ألمحت الى (السّير روجر هوليس) ومطاردة العميل متوسط الدرجة .

وانتشـــرت الاشاعـــات فـــي ارجاء المكتب حول ان القسم (د ٣) كان يقوم بعملية تطهير في المكتب ، وان ضباطاً مثل (غريغوري ستيفنس) كانوا من ضحاياه وانتشر حديث عن (الغستابو) في حين أخذ صغار الضباط يتجنبونني في المقصف . وأصبح الحديث غير الرسمي مع كثير من زملائـــي نادراً . اما نحن – اولئك الضباط الذين شاركنا في موضوع الاختراق – فقد أصبحنا في عزلة ، وخاف الجميع منا ، بل اننا فقدنا ثقتهم بنا وعلى مستوى واحد .

وكان الحال كذلك في (م آي ٦) . فبعد مرور سنين من الاهمال ، تم تعيين رئيس جديد للاستخبارات المضادة ، وهو (كريستوفر فيلبوتس) وكان ذلك في منتصف سنوات الستينات في الفترة التي أخذت فيها لجنة (فلوينسي) بالظهور تقريبا . نظر (فيلبوتس) الى كل النوايا والاهداف كأشبـــاح مـــن النظـــام القديم للاستخبارات البريطانية . فقد كان بطل حرب ساحر ، و لوع بشراب (الجن) الوردي ، وبربطات العنق قوسية الشكل . لكنه كان نظامياً حازماً . وكان يرى ان الاسطبلات القـــذرة بحاجـــة الـــى عمليـــة تنظيـــف إثـــر هروب (فيلبي) . وكانت المراجعة الدقيقة لاجراءات الأمن ، وللافراد العاملين ، شرطاً مسبقاً لعودة احترام الذات لجهاز استخبارات كان لا يزال يستعيد قـــواه مـــن جـــراح (فيلبي) والسويس والقائد (كراب) بالرغم من الجهود القصوى التي كان يبذلها (ديك وايت) . اما اولئك الذين لم يكن باستطاعتهم ان يقدموا وصفا يحظى بالرضى لخلفياتهم ، فقد كان عليهم أن يرحلوا . لقد كانت ضرورات الأمن القومي تتطلب ذلك ، وكانت الفائدة – بلا شك – ستعود على الدولة على المدى البعيد .

وقد ساند (فيلبوتس) لجنة (فلوينسي) دون تحفظات ، وبدأ برنامجه الخاص بعمليات التقصي والتحقيق داخل (سنشوري هاوس) . وقد أُجْبِر ثمانية من كبار الضباط – على الاقل – على الاستقالة مع بداية نظام (فيلبوتس) الجديد . فقد تم إجبار ضابط – على سبيل المثال – على الرحيل حينما تـم اكتشـاف ان لـه علاقـة طويلة مع (ليتزي فريدمان) دون التصريح عن ذلك الى المكتب . كانت (ليتزي فريدمان) هي زوجة (فيلبي) الاولى ، وكان من المؤكد تقريبا ، انها الشخص الذي قام بتجنيده من أجل القضية السوفييتية . هناك ضابط آخر على مستوى عال ، كان عليه أن يعاني لانه كـان عضواً فـي الحزب الشيوعـي البريطاني خلال سنوات الثلاثينات . ولم يكن العديد من الضباط الذين درسوا في مدرسة لغات الخدمات المشتركة قادرين على تفسير بعض المتناقضات في خلفياتهـم ، فاختـاروا الرحيـل . بل انه تم التحقيق حتى مع (نيكولاس ايليوت / الذي كان يساند (فيلبي) لفترة طويلة وحتي قيامه في النهاية بالسفر الى [بيروت] للحصول على اعترافه) وذلك للتاكد مما اذا كان (فيلبي) قد حاول استخلاص معلومات منه . ولكن ، وبعد سلسلة من التحقيقات الطويلة ، تمكن (ايليوت) من اقناع المحقق (ارثر مارتين) بانه كان بريئاً .

لم تكن أي حالة من هذه حالة خيانة . لكن كان قد تم التخلي عن قواعد التدقيق منذ وقت طويل في نادي عالم الاستخبارات ، حتى انه حينما حان وقت الحساب ، كان الامر فجائيا ومؤلما . وقد وجه الكثير من اللوم فيما يتعلق بعمليات التطهير التي جرت داخل (م اي ٦) الى (م آي ٥) ، والى أناس أمثال (باتريك ستيوارت) ومثلي على نحو خاص . وقد شعر الكثيرون ان (م اي ٥) كانت تنتهز فرصة هروب (فيلبي) لتحقق نوعا من التعادل في نقاط فوز قليلة قديمة .

ولـم أكـن أحظـى بشعبيـة داخـل بعـض اقسام (م آي ٦) منذ قيامي بعملية مراجعة لقضية (بينكوفسكي) . غيـر ان قضيـة (إيليس) هي التي أكسبتني حقاً عداوة حرس (م آي ٦) القدامى ، تلـك العداوة التي لن تخمد أبداً ، وهي عداوة أضعها بمثابة وشاح على صدري لتدل على عظمة الانجاز .

أثارت قضية (إيليس) الخلاف بين (م آي ٥) و (م آي ٦) لفترة طويلة ، لا تقل عن مدة الخلاف التـي تركتهـا قضيـة (فيلبي) . وقد بدأت القصة بعد هروب (بيرغس) و (ماكلين) حينمـا أخـذت (م آي ٥) باعـادة تحليل المعلـومات الاستخبـاراتية التي أدلى بهـا الهارب (وولتر كريفيتسكي) . وقد لفتت احـدى حلقاته الانتباه الـى مهـاجر روسي ابيض يقيم في (باريس) واسمه (فلاديمير فون بتروف) الذي – كما ادعى كريفيتسكي – كان عميلاً مهماً للدائرة الرابعة في الاستخبارات العسكرية الروسية خلال فترة ما قبل الحرب ، و له مصادره الجيدة في كل من بريطانيا والمانيا ، حيث كان يعمل كعميل مزدوج لصالح الألمان والروس .

كــــان اهتمــــام (م اي ٥) منصبــاً علـــى معرفة من هي تلك المصادر . و لذلك فقد تمت دراســة ملف (فــون بتروف) وتبين وجــود سلسلة مــن تقارير استخلاص المعلومات التي حصل عليها ضباط الاستخبــارات الالمانيــة عنـــد نهاية الحــرب . وقد اكد ضباط الاستخبارات الالمانية ان (فون بتروف) كان يدار من قبلهم على انه عميلهم ، على الرغم من انهم – بالطبع – لم يكونوا يعرفون انه يعمل ايضاً لصالح الروس . وقد أشار العـــديد الى ان (فون بتروف) يمتلك مصادر داخل الاستخبارات البريطانية بامكانهــــا الحصــول علــى أوامرنــا عـــن المعركة ، اضـــافة الى تفاصيــل العمليات الحيوية ، مثـــل عمليات التنصـــت علـــى الهاتـــف السري الذي كان يربط بين (هتلر) وسفيره فـــي (لندن) المدعـــو (فون ريبينتروب) بل ان أحد ضباط الاستخبارات الالمانية تذكر اسم مصدر (فون بتروف) على انه (الكابتن ايليس) وهو استرالي ، وزوجته روسية ، ويتقن عدداً من اللغات بشكل جيد .

كان (تشارلز " ديكي " إيليس) وقتذاك ضابطاً رفيع المستوى في (م آي ٦) تمت ترقيته مـؤخـــراً من مشرف على قضايا الشرق الاقصى في (م آي ٦) ليصبح مسؤولاً عن كافة العمليات التي تتـــم فـــي أمريكا الشمالية والجنوبية . التحق بـ (م آي ٦) خلال سنوات العشرينات ، و أقام في (باريس) حيث كان مسؤولا عن تجنيد العملاء من اوساط الجالية الروسية البيضاء المهاجرة . وخلال هذه الفترة قام بتجنيد عميل له صلة مع (فون بتروف) .

كانت الجالية الروسية المهاجرة قبل الحرب بمثابة بالوعة لولاءات تدور الشكوك حولها ، وحينما طرحت (م آي ٥) استفساراتها حول (ايليس) فان (م آي ٦) رفضت أي احتمال في ان يكون جاسوساً ، بل انهم اصروا على ان الاحتمال الاكثر هو ان (فون بتروف) كان يعمل لصالح (إيليس) وليس العكس ، وبأنه كان يكذب كي يحمي نفسه . على أي حال ، فان (إيليس) كان قد اختار لنفسه التقاعد المبكر ، وكان يخطط للعــودة الى استراليـــا . امـــا (ديك وايت) الذي كان قد عين حديثاً في (م آي ٥) ، ولم يكن يريد ان تتفاقم حدة التوتر لتصل الى نقطة اللاعودة فيما يتعلق بقضية تراكم الشكوك حول (فيلبي) ، فقد وافق على وضع القضية على الرف ، حيث استقرت هناك لتُفْسد في قسم السجلات ، حتى توليت مسؤولية القسم (د ٣) .

حينما تولـــى (فيلبوتس) منصب رئيس الاستخبارات المضادة ، اتصلت به باعتباري رئيس لجنة (فلوينسي) وسألتـــه فيمـــا اذا كـــان علـــى استعـــداد للموافقـــة علـــى القيام باجراء تحقيق مشـــترك بيـــن (م آي ٥) و (م اي ٦) حول موضوع (إيليس) من أجل حل القضية نهائيا . ذهـــب لمقابلة (ديك وايت) الذي أعطـــى موافقتـــه ، وبدأت العمـــل مـــع ضابط استخبارات مضادة شاب في (م آ ي ٦) يدعى (بوني بانشيف) .

كانت الصعوبة الحقيقية في قضية (ايليس) هي محاولة تحديد فيما اذا كان يعمل لصالح الروس أو الألمان ، أو لكليهما معاً . وفي وقت مبكر من التحقيق ، حصلنا على تأكيد لقصة ضابط الاستخبارات الالمانية ، وذلك حينما تتبعنا عملية تمت خلال فترة ما قبل الحرب جرت للتنصت على خط الاتصال بين (هتلر) و (فون ريبينتروب) . كان الضابط المسؤول عن العملية هو (إيليس) . وكان السؤال يدور حول ما اذا كان يقوم بتزويد (فون بتروف) بالمعلومات وهو يعرف بانه جاسوس روسي ، ام فيما اذا كان قد افترض انه يعمل لصالح الالمان فقط .

كان أول ما أقنعني ان (إيليس) كان على الدوام جاسوساً روسيا ، هو اكتشاف توزيع تقرير ضابط الاستخبارات الالمانية ، الذي يدعي فيه ان مصدر (فون بتروف) البريطاني هو الكابتن (إيليس) . وقد ارسل التقرير بشكل روتيني الى (كيم فيلبي) في مديرية الاستخبارات المضادة . وقد كتب على الهامش : " من هو هذا الرجل ؟ ... لا اجراء آخر " وذلك قبل دفن التقرير في الملفات .

كان مكتب (ايليس) على بعد بضعة أبواب في الممر ، غير انه بدا لي – في ذلك الوقت – ان الامر سهو مشكوك فيه ، قام به (فيلبي) الصقري العينين .

كان ذلك فقط هو أول اتصال من الاتصالات المثيرة للاهتمام بين (فيلبي) و (إيليس) وخلال سنة من تعرض (فيلبي) للشبهات ، قام (إيليس) بالتقاعد المبكر ، متذرعاً بسوء حالته الصحية ، وسافر الى (استراليا) ليعمل مستشاراً لهيئة الاستخبارات و الأمن الاسترالية الخارجية . وخلال وجوده هناك ، أعلمه الاستراليون ان (فلاديمير بتروف / من رجال [بيريا] وقد اختار الاقامة في الغرب على ان يبقى في [موسكو] منتظراً فرصته هناك) على وشك ان يهرب . وعلى الفور تقريبا ، عاد (إيليس) الى بريطانيا ، واتصل مع (كيم فيلبي) على الرغم من ان (موريس أولدفيلد) حذره من القيام بذلك بشكل خاص . لم يعرف أحد ما دار بينهما من حديث ، غير ان (بتروف) أصبح منذ ذلك الوقت ، موضع شك في (استراليا) وحين لاحظ ان الخطر يهدده من قبل السفارة السوفييتية ، فانه هرب بدقة غير متوقعة ، وذلك قبل ساعات فقط من وصول اثنين من ضباط الـ (ك ج ب) قادمين من (موسكو) لاعادته الى بلاده . لم تكن أسباب سفر (إيليس) من استراليا بتلك السرعة واضحة ، غير انني كنت أعتقد دائماً انه ظن ان (بتروف) الذي كان على وشك ان يهرب هو نفسه (فون بتروف) الذي كان يعمل معه خلال سنوات العشرينات ، والذي كان لا بد انه يعرف سر خيانته .

وبحثنا في سجله خلال فترة الحرب . لقد قضى معظم أيام الحرب في الولايات المتحدة الامريكية ، وهو يعمل نائباً لـ (السير وليم ستيفنسون / رجل يدعى الجريء) في مكتب تنسيق الأمن

البريطاني . وقد أظهرت بعض أجزاء برنامج (فينونا) الامريكي ان السوفييت كانوا يديرون عدداً من العمـــلاء داخـل مكتب تنسيق الأمـن البريطاني ، غيـر اننا لم نستطع ان نتأكد من وجود علاقة بين (إيليس) وكل واحد من تلك الاسماء السرية ، على الرغم من قيامنا بعملية تحليل مضنية للتأكد من هذا الامر .

وبدأت البحث في سجلات الماضي للحصول على أدلة محددة أخرى ، تربط (إيليس) بالسوفييت خـــلال فترة ما قبل الحرب . في ذلك الوقت كنت أقوم بدراسة تلك الفترة كجزء من برنامج بحوث القسم (د ٣) وأعيد قراءة السيرة الذاتية لـ (اليزابيث بوريتسكي) التي تحمل عنوان (شعبنا) وتدور حول حياتها كـزوجـــة لـ (لودفيك بوريتسكي / المعروف ايضاً باسم ايغناس رايس) وهو أحد " اللاشرعيين العظام " وقد عمل الى جانب (كريفيتسكي) كمشرف على عملاء المديرية الرابعة للاستخبارات العسكرية الروسية ، وقتل بعد ان رفض العودة الى (موسكو) وهرب . كنت قد قرأت الكتاب أولاً بترجمتـــه الانكليزية ، غيـر اننـي درستـــه هـــذه المـرة بالنـص الفرنســي الأصلــي المعنون بـ " Les Notres " فلاحظـــت وجـود جملـة استثنائيـة لـم تظهـر فـي الطبعة الانجليزية ، اذ ان (اليزابيث) قالت انه كان يوجد لـ (لودفيك) في أواخر سنوات العشرينات ، عميل على مستوى عال داخل جهاز الاستخبارات البريطانية .

وسافـــرت الى (باريس) عـــام ١٩٦٦ لمقابلـة السيدة (بوريتسكي) وهي امرأة سليطة اللسان ، وقد حافظت على ذكرى زوجها بغيرة ، وبقيت تشك بكل عملاء الامبريالية الغربية . داورت حول الموضوع لوهلة ، ثم ذكرتها بالمقطع المذكور في الكتاب . بالتأكيد ، فانني أجازف حينما أقول بانهـــا ذكـــرت تلك التواريـــخ علـــى نحـــو خاطـــيء ، وان مـــن المفتـــرض ان يكـون ذلك العميل هو (فيلبي) ؟ . غضبت مني ، وصرخت بي متهمة إياي بالجهل ، وسخرت قائلة :

" لـــم يكـــن العميل هو (فيلبي) . لقد أدار (لودفيك) العميل في (امستردام) عام ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، وكان (فيلبي) مجرد تلميذ مدرسة حنيذاك " .

سألتها ، وأنا أحاول أن أخفي انفعالي :

" هل تعتقدين ان باستطاعتك التعرف على ذلك الرجل ؟ " .

بدأت تراوغ في الاجابة ، وانها لا تزال على ولائها لشعبها " Les Notres " وانها لا تستطيع ابداً أن تدلي بأي معلومات ، فقلت لها :

" أوه ، كلا .. فليس الأمر كذلك ، اننا بحاجة الى معلومات من أجل سجلاتنا فقط " .

وأخـــرجت مـــن حقيبتـــي عشـــرين صورة فوتوغرافية . كان بعض هذه الصور صوراً وهمية والبعض الآخر صور زملاء زوجها المعروفين ، وكان احدهم (إيليس) حيث كان تاريخ صورته

يعود الى منتصف سنوات العشرينات . وأشارت الى كل اولئك الذين كانت قد عرفتهم ، وكان (إبليس) منهم . وقالت :

" انني لا أعرف اسم هذا الرجل ، لكنني متأكدة من انه مألوف لدي " .

وسافرت من (باريس) الى (امستردام) بالباص لاقابل هناك امرأة تدعى (السيدة بييك) وهي أرملة رجل هولندي يدعى (هنري بييك) كان عميلاً للسوفييت ، وقام بتجنيد العديد من الجواسيس في بريطانيا خلال فترة ما قبل الحرب ، بما فيهم (جون هيربرت كنغ) وهو موظف شيفرة في وزارة الخارجية . وقد اقترحت (السيدة اليزابيث بوريتسكي) أن أقوم بزيارة (السيدة بييك) فلربما كان بامكانها ان تلقي بعض الضوء على تلك الصورة التي أشارت اليها . كانت (السيدة بييك) امرأة من نفس الطينة ، ومن الواضح انه قد تم تحذيرها بوصولي الوشيك . وقد أشارت هي الاخرى الى صورة (إبليس) غير انها رفضت الافصاح عن السبب .

وكانت هناك معلومة رئيسية أخرى فقط . فقد ذكرت (اليزابيث بوريتسكي) في كتابها ، كيف ان (ريتشارد سورغ) العميل السوفييتي غير الشرعي العظيم الذي تمكن في النهاية من تأسيس واحدة من أهم شبكات التجسس في تاريخ الصين واليابان خلال الحرب العالمية الثانية قد سافر الى بريطانيا خلال أواخر سنوات العشرينات . لقد كانت مهمته على غاية من الخطورة لكنها أعلمتني انها لا تعرف المزيد من التفاصيل ، وحاولت اقناعي ان لا أقوم بزيارة (كريستيان) أرملة (سورغ) التي كانت تقيم في أحد معاهد التعليم العليا للاناث بالقرب من (نيويورك) ، فأرسلت برقية الى (ستيفن دي موبراي) الذي كان يقيم آنذاك في (واشنطن) بصفة ضابط ارتباط لـ (م آي ٦) وطلبت منه القيام بزيارتها .

لقد وضعت (كريستيان سورغ) القطعة الأخيرة في أحجية الصور المتقطعة ، لكنها تركت الصورة دون تحديد تام على نحو مزعج . كانت تتذكر مهمة (سورغ) تماماً ، وقالت بانها كانت لزيارة عميل مهم جداً ، على الرغم من انها لم تعرف شيئاً عن هويته ، وقد تذكرت شيئاً واحداً فقط : لقاء في زاوية أحد شوارع (لندن) . فقد ذهبت هي و (ريكي) معاً لمقابلة هذا العميل ، غير انه طلب منها أن تقف في الخلف ، وأن تقوم بتغطيته في حال وقوع أي متاعب . وقد سألها (ستيفن) فيما اذا كان بامكانها ان تتعرف على الرجل ، فأفادت بانها رأت الرجل ، ولكن ليس بدرجة كافية . وعرض عليها الصور ، فقالت :

" يبدو هذا الرجل مألوفا ، ولكن ليس باستطاعتي ان اكون متيقنة من هذا ، بعد مرور ما يزيد على أربعين سنة " . وكانت الصورة هي صورة (إبليس) .

وفي النهاية ، تم اجراء التحقيق مع (إبليس) . كان قد أصبح مسناً ، وادعى سوء الحالة

الصحية ، ولذلك فانه تم الايعاز لي ، والى (بوني بانشيف) بان ندير الجلسات بلطف زائد . وعلى مدار أيام عديدة ، أنكر (إيليس) كل شيء ، ثار ، وعزا الأمر الى زملاء غيورين . لكن ، وحينما قمنا بتقديم الدليل ، وهو تقرير ضابط الاستخبارات الالمانية ، وأسماء الاشخاص الذين كانوا على معرفة بعملية التنصت على هاتف (هتلر) فانه بدأ يضعف .

بعـــد تناولـــه طعـــام الغـــذاء في يوم الجمعة ، عاد الى غرفة التحقيق المعروفة بالغرفة رقم ٥٥ الموجودة في قبو وزارة الحربية القديمة . كان يحمل ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة ، وهي عبـــارة عـــن نوع من الاعتراف الهـش . فقد ادعى انه عانى من المشاكل خلال سنواته الاولى في (م آي ٦) اذ أرسل الى الميدان بلا تدريب ، وبلا أموال ، وبدأ يقدم معلومات تافهة – عبارة عن نتف مـــن المعلومات عن خطط (م آي ٦) – الى عميله (زيلينسكي) – وهو صهره – الذي كان على اتصال مع (فون بتروف) لكي يحصل على المزيد من المعلومات الاستخباراتية مقابل ذلك . وادعى ان زوجتـــه كانت مريضة ، وانه كان بحاجة الى المال ، فوافق على تزويد (زيلينسكي) بالمزيد من المعلومات .

كان اعتراف (إيليس) غامضاً في بعض جوانبه ، ليخفي نوعية المعلومات الاستخباراتية التي قدمها ، والى أين ذهبت هذه المعلومات . ولذلك ، فاننا طلبنا منه ان يوضح ذلك أثناء التحقيق . وقد اعترف بانه قدم خطط أوامر المعركة التفصيلية الخاصة بالاستخبارات البريطانية ، اضافة الى إفشاء سر الاتصالات الهاتفية التي كانت تجري بين (هتلر) و (فون ريبنتروب) حتى على الرغم من ان هذه المعلومات قد وصلت الى الالمان عن طريق (فون بتروف) . وقد وصل جزء من معلومات الاستخبارات الالمانية عن طريق (ستيفنس) و (بيست) اللذين اعتقلهما (الغستابو) عند الحدود الالمانية – الهولندية من خلال الخدعة . كان باستطاعتنا ان نتحدث اليهما بعد الحرب ، وقد قالا انهما ذهلا أثناء استجوابهما من مدى المعلومات التي كانت بحـوزة الاستخبارات الالمانية عن (م آي ٦) . وقـــد سألت (إيليس) عن تاريخ آخر اتصال له مع المهاجرين الروس ، فاعترف ان ذلك كان في شهر كانون الاول من عام ١٩٣٩ وذلك بعد نشوب الحرب .

كـــان (إيليس) رجـــلا ، فاســـداً ، خبيثـــاً ، جلـس هناك مجرداً من رتبته ، وكان شاحب الوجه ، وبدينا ، غير انني لم أسمع منه أي اعتذار . كنت أتفهم المدى الذي يصل اليه انسان باختياره للسوفييت عن طريق الاقتناع الايديولوجي ، أما أن يبيع زملاءه للالمان مقابل بضعة جنيهات في زمن الحرب ؟ وأخبرته أنه لو تم القاء القبض عليه عام ١٩٣٩ – ١٩٤٠ لكان قد تم اعدامه شنقاً .

اعتقـــد (إيليس) بشكل واضح ان التحقيق معه قد انتهى ، ولكنه في الواقع ، كان قد بدأ فقط . وقلنا له اننا نريد معرفة ارتباطاته مع السوفييت . اضطرب امامنا لحظة ، ثم صد الهجوم .

صاح قائلاً :

" أبداً ، لم يحصل ذلك قط مع الشيوعيين ... " .

واصطحبناه في اليوم التالي عبر سلسلة غريبة من الأحداث : رحلته الى استراليا ، وعودته السريعة الى بريطانيا ، وتصادف ذلك مع هروب (بتروف) غير انه أنكر كل شيء حتى حينما كنا نمسك به في الكذب المتكرر عن أعماله حتى تقاعده . ولم يغير رأيه حتى بعد ان عرضنا عليه الحصانة الرسمية . ولكن ، كانت تساورني شكوك قليلة حول علاقته مع السوفييت .

وكتبت أنا و (بانشيف) التقرير عن القضية ، وذكرت فيه ان (إيليس) قد قام – حسب رأينا – بالتجسس لصالح الالمان ، بما في ذلك أثناء فترة الحرب ، وأننا نعتقد كذلك ، انه كان عميلاً للاستخبارات الروسية لمدة طويلة ، حتى تم ابعاده عن الاطلاع على الامور السرية . ووافق (كريستوفر فيلبوتس) على هذا التقرير دون أي تحفظ ، وقدم الى (ديك وايت) ونائبه (موريس اولدفيلد) .

كان (أولدفيلد) رجلاً خجولاً ، وطيباً ، وله معرفة مدهشة بمبادىء الاستخبارات المضادة على الرغم من انه كان يحكم بشكل سيء على الشخصيات . ففي البداية ، ساورته الشكوك حول صحة اعترافات (إيليس) إلى ان قام (بوني بانشيف) بلعب دور حاسم في عملية تغيير موقفه . لكن ، حتى بعد قيامنا بكشف النقاب عن خائن له أهمية كبرى ، فانني أحيانا كنت أشعر انني الذي يجب ان يوجه اللوم اليه . وقد كان (أولدفيلد) يحتقر أجواء الخوف والرعب التي ولدتها عمليات التطهير التي قام بها (فيلبوتس) كنتيجة لاجراءات التقصي والتحقيق ، وبذل جهداً كبيراً لتغيير تفكير (ديك) . وقد بدا ان اعتراف (إيليس) لم يؤثر على تفكيره تأثيراً شديداً . كان هذا الأمر – بالنسبة اليه – أمراً قد حدث منذ زمن بعيد ، ومن الافضل أن يتم نسيانه .

وفيما كانت الاجواء ضد التحقيقات قد بدأت تصفو في أواخر سنوات الستينات ، كنت أريد بائساً ان يتم توزيع استنتاجات لجنة (فلوينسي) على نحو واسع داخل جهازي الاستخبارات . كنت متأكداً من ان تلك هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع من خلالها استرجاع موافقة البعض من أجل مواصلة العمل . في تلك اللحظة ، لم يكن الناس يعرفون أي شيء عن القضايا ، وبدت لهم انشطتنا على انها مكارثية عمياء . وأصبح القسم (د ٣) قسماً كبيراً لدرجة انه ضم لجنة (فلوينسي) وبحوث (د ٣) في سنوات الثلاثينات . ومن المحتم ، ان كبار الضباط الآخرين قد كرهوا الدعوة لاعطاء الأولوية له فيما يتعلق بالمصادر ، وبالأفراد العاملين فيه ، ولما لم يكن باستطاعتهم الحكم على أهمية العمل الذي نقوم به ، فان كراهيتهم ازدادت . واتهمت بانني أشك في كل شخص ، و كان (فيرنفال جونز) يدافع عني ، اذا كانت الهجمات علنية . وفي احدى المناسبات ، التفت الى

الشخص الذي كان يهاجمني ، وقال له : " ان من صميم عمل (بيتر) ان يكون شكوكاً " وكان بوسعي الاحساس بتزايد عدد أعدائي كما كان الأمر عليه مع (انغلتون) . لقد كان إحساساً غريبا ، فبعد مرور سنين على كوني صياداً ، أصبحت أشعر فجأة أنني أصبحت الطريدة .

و وصلـــت الأمـــور الـــى ذروتها عام ١٩٦٩ حينما عقد المؤتمر السنوي الذي حضره كبار ضباط (م آي ٥) في (كلية سنينغدال للخدمة المدنية) في (بيركشاير) . فقد شن عدد من الضباط هجمات قاسية عليّ ، وعلى أشخاص آخرين في (د ١ / التحقيقات) اضافة الى هجومهم على العمل الذي كنا نقوم به . وسألـــوا : ما الذي أنجـــزه القسم (د ٣) ؟ وتحدثوا عن روابط الثقة التي انفصمت عراها بين الضباط الزملاء بسبب أجواء الشك ، وأضافوا ، ان الرجال الابرياء يعانون من هذا . فقلت :

" أي رجال أبرياء ؟ انها كذبة . مَن ؟ اذكروا اسماءهم ! " .

كانـــت يـــــداي مغلولتين ، ولم اكن أستطيع الكلام لا في العموميات ولا في الخصـــــوصيات ، وأجبرت على الدفاع عن نفسي من خلال التركيز على فكرة ان كل حركة نقوم بها – فيما يتعلق بقضية من القضايا – كانت تحوز على موافقة (فيرنفال جونز) شخصياً . ولكن ، دون ان يتم ايضاح ذلك التاريخ الطويل لعمليات البحث عن الاختراق ، فانهم لن يستطيعوا فهم ما يجري .

بعد ذلك ، طلبت من (فيرنفال جونز) القيام بنشر ورقة تتضمن انجازات لجنة (فلوينسي) وشرحت نوعية الاشياء التي يمكننا توزيعها على هؤلاء الضباط السبعين الكبار : موجز عن الادعاءات المتواصلة حول وجود اختراق منذ الحرب ، بما في ذلك ما قد عزي الى جواسيس معروفين حيثما كان ذلك ممكنا ، مشيرين الى العدد الكبير من الادعاءات التي لم يتم حلها بعد وقد رفض (فيرنفال جونز) مجرد التفكير بهذا الأمر ، وقال :

" إن أنا فعلت هذا يا (بيتر) فانه سيحطم قلب الجهاز ، ولن نستعيد عافيتنا قط " .

فقلت :

" ان هـــؤلاء الناس لا يعرفون حتى ان (بلنت) كان جاسوساً . كيف يمكنهم ان يتعاطفوا مع عملنا ، ويقومون بتأييده ، إن لم نخبرهم بأي شيء ؟ " .

قال :

" من وجهة نظري ، من الافضل أن لا يعرف احد بهذا الأمر على الاطلاق ! " .

فسألته :

" كيف يمكننا ان نستمر بعملنا إذن ؟ هناك شباب يدخلون الجهاز كل سنة . انهم يستمعون الى الاشرطة المسجلة ، ويقرأون تاريخ المكتب ، وهم لا يعرفون شيئاً عن هذا ، وهو أهم موضوع . كيف

يمكنك ان تجعلهم يعيشون الكذبة ؟ قد لا تفعل أي شيء من هذا الاّ اذا واجهت الأمر كله ، وبينت للناس ما لدينا من خلال التوضيح لهم كيف حدث كل هذا ، ثم تقول لهم : ايها الناس ، انظروا .. هذه هي الثغرات ، ولذلك ، فانه كان لابد من ان نستمر بالعمل " .

ولم يوافق (فيرنفال جونز) على أي من هذه النقاط . وقد مرت لحظات من حياته بقي خلالها ثابتاً على رأيه ، لا يتغير . وكانت هذه اللحظة واحدة منها ، مع أن لحظات ثباته تلك لم تكن كثيرة حقاً . وسألته أخيراً :

" وماذا بشأني ؟ كيف يمكنني ان أستمر في المكتب وأنا أواجه مثل هذا المستوى من العداوة ؟ " .

وأصبح فولاذيا بشكل مفاجيء ، وقال :

" هذا هو الثمن الذي عليك ان تؤديه مقابل جلوسك هنا لتحكم على الناس " .

في عام ١٩٦٨ ، وبعد تبرئته ، تم تعيين (ميشال هانلي) كرئيس لقسم التجسس المضاد . ومنذ الاحداث الجارحة التي وقعت في السنة الماضية ، نادراً ما كنت أنا و (هانلي) نتبادل الكلام . لم يقل شيئاً قط ، غير انني كنت أعرف انه كان يلومني على اصداري قرار بالتحقيق معه . وحينما تولى منصبه ، فانه لم يضيع أي فرصة لقص جانحيّ . وكان ذلك من خلال قمعي أمام الناس في البداية ، اذ كان يقول ساخراً :

" أوه يا (بيتر) .. انها نظرية أخرى من نظرياتك المجنونة " .

ثم أصبح هجومه اكثر ضراوة ، وأخذ يقلص عدد العاملين ، والمصادر المالية عن (د ٣) حيثما كان ذلك ممكناً . في البداية دافعت عن قسمي ، وذهبت الى (فيرنفال جونز) لاستعادة الافراد ، والموارد المالية . غير انني بعد وهلة ، بدأت أتساءل فيما اذا كان ذلك يستحق ان يقاتل المرء من أجله . وكانت مهمة البحث في القسم (د ٣) على وشك ان تستكمل اذ ان موضوع الاختراق على مستوى عال ، هو الموضوع الوحيد الذي بقي دونما حل ، وقد وضع على الرف لمدة تزيد على ثلاث سنوات ، ولم يكن هناك سوى مؤشر بسيط لاعادة بعثه من جديد . لقد بدأ الارهاق نتيجة العمل المستمر بالتأثير على صحتي ، فبدأت افكر بالتقاعد وبحبي الأول : الزراعة .

وقررت ان من الواجب عليّ – على الاقل – ان أواجه (هانلي) شخصياً قبل أن أتخلى عن العمل . ذهبت لمقابلته ، وسألته بصراحة عن السبب الذي يجعله يحاول ان يطردني من الجهاز فادعى انه ليس هناك أي اضطهاد ، وان كل ما في الأمر ، هو ان القسم (د ٣) قد كبر اكثر من اللازم ، وان هناك شكاوى متزايدة مفادها ان بعض مهمات القسم الأقل بريقاً ولكن الاكثر أهمية ، مثل تقييم الوزراء من الناحية الامنية ، وما شابه ذلك ، قد تم اهمالها . وأجبته :

" حسنًا ، أعطني ضابطاً للعناية بالامور الكتابية إذن " . ولكنه رفض ذلك .

وقلت معترفاً :

" أعرف انني رجل ادارة سيء ، لكن هل انت متأكد من ان السبب الحقيقي لهذا لم يكن بسبب أنك تشعر بالضغينة ضد هذا النوع من العمل ؟ " .

علا الاحمرار وجهه . لقد عرف ما كنت أقصده ، غير انه أنكر ان تكون تجربته هي التي تلوّن حُكْمَه . وقلت :

" اعتقد انك تظن انني كنت وراء اجراء التحقيق ، ولكن هل قرأت الملف ؟ " .

وتم التغلب على الصعوبة الأولى ، حيث عدت الى مكتبي ، وأخرجت الملف الخاص المتعلق بالتحقيق مع (هارييت) و أريت (هانلي) كل شيء : طريقة بروز قضية البحث عن العميل متوسط الدرجة من خلال تقرير لجنة (فلوينسي) ثم وضع قضية اصطياد الجاسوس رفيع المستوى على الرف ، واستجوابات (د ٣) وقضيتا (ووتسون) و (بروكتور) ، ثم التحريات ، وزيارة طبيبه .

قال وهو يقوم بدراسة الملفات :

" لم أدرك هذا قط " .

فقلت له بمرارة :

" نحن الذين طلب الينا القيام بهذا العمل القذر ، والآن ، وحينما أنجزنا معظمه ، يريدون ان يرموا به تحت السجادة ، ونسياننا ، ونسيان هذه الاشياء التي قمنا بها " .

كان للاطلاع على عبء الاسرار الرهيبة التي يحملها القليلون على اكتافهم ، تأثير عميق على (هانلي) اذ أدرك انه لم يمر بتجربة من هذا النوع قط ، وان معرفته الوحيدة عن (الفرع د) كانت تعود الى تاريخ شغله منصب رئيس القسم البولندي في سنوات الخمسينات . ومن أجل ان يجعل عمل (الفرع د) ناجحاً ، فانه كان لا بد له من مرشد ، فاستدعاني الى مكتبه ذات يوم ، وأوضح لي مشكلته . كان صريحاً و مباشراً تماماً ، وقد احترمته لهذا . كان لا يزال يريد أن يحل القسم (د ٣) . فقد انتهى عمله الماموثي* تقريبا كما أخبرني ، وقال انه يريد ان أصبح مستشاره الشخصي في عملية اعادة تنظيم (الفرع د) برمته ، والتي كان يخطط لها . كان لابد لي من القاء نظرة على كل ورقة ، وان أطلع على كل القضايا في (الفرع د) ، مع موجز اقدمه له حول معرفتي الدقيقة بالسنوات الخمسة عشر الماضية ، كمرشد له في عمله . لم اكن قد نقلت من (الفرع د) كما حدث لبقية الضباط ، ولم أنل أي ترقية كما وعدني بذلك (ديك وايت) عندما التقيت به من أجل

* نسبة الى الماموث وهو فيل ضخم منقرض ، وهي اشارة الى العمل الضخم الذي كان القسم يقوم به (المترجم)

تعييني ، ولكنني لم أجبر قط على ممارسة لعبة الكراسي الموسيقية ، متنقلاً بين دائرة وأخرى كل سنتين . لقد كان (الفرع د) حياتي ، اذ كنت أعرف كل قضية ، وكل ملف ، وكان عرض (هانلي) عادلاً ، فقبلته على الفور .

لكن ذلك ، كان سيترك مشكلة الاختراق دونما أي حل .

وقلت :

" من الذي سيواصل القيام بذلك العمل ؟ لا يمكننا ان نترك الأمر يفلت ثانية ، والاّ فان ركاماً من القضايا غير المحلولة سيتجمع " .

لقد كنت مقتنعاً لمدة تزيد على سنة ، باننا كنا نحتاج الى آلية رسمية للنظر في كامل مسألة الاختراق الداخلي . وكانت مشكلة الستينات تكمن في انه لم يكن يوجد في جهاز الاستخبارات دائرة يمكن ان تجري التحقيق في الادعاءات بوجود اختراق . فكل لجنة لها اختصاصها . ولم يكن للجنة (فلوينسي) أي وضع رسمي ، بل كانت مجرد فريق عمل . ولم يكن العمل يجري بسهولة داخل (د ١ / التحقيقات) لأن عمله الصحيح كان يتمثل في الاختراق الذي تم خارج الجهاز . ان الافتقار الى هذه الآلية هو الذي ساهم في خلق الاتهامات بوجود (الغستابو) في المكتب . وقد كان يُنظر الينا على اننا أناس نقوم بمتابعة التحقيقات خارج القنوات العادية . وكان هذا الأمر داخل تنظيم يعتمد على الهرمية الوظيفية كما هو الحال في (م آي ٥) يشكل مشكلة عويصة . وفي حال وجود قسم متخصص ، فان الجهاز سيكون قادراً على رؤية الادارة تقدم كامل تأييدها . وبكلمات أخرى ، فان هذا يضفي عليه الشرعية .

وكان هناك عامل آخر يعتمل في ذهني ، اذ انني كنت أعرف ان موضوع الاختراق على مستوى عال إذا أريد حله ، فان ذلك لن يتم الاّ اذا أتيح لعقول جديدة ان تطلع على المشكلة . فقد أصبح الموضوع خلال السنوات العشر الماضية مقتصراً على شخصيات معينة : أنا و (آرثر) بشكل أساسي . وقد نظر الينا على اننا رجال نكن الضغينة ، أو كرجال مهووسين وغير قادرين على فهم أي تفسير آخر ، سوى ان (هوليس) مذنب وجاسوس . لقد حاولت التأثير على (هانلي) وعلى (فيرنفال جونز) متنقلاً في ردهتيهما بعنف ، محاولاً اقناعهما بانشاء قسم كهذا ، وتعيين موظفين فيه ليست لهم أي علاقة لا بي ، ولا بـ (آرثر) ولا بالاحداث الرهيبة التي تمت خلال السنوات العشر الماضية .

كانت الشكوك تساور (هانلي) ، اما (فيرنفال جونز) فقد تمسك بالفكرة ، وطلب من (هانلي) ان يضعها ضمن خططه . ومع نهاية عام ١٩٦٨ اكتملت عملية اعادة التنظيم ، واصبح (الفرع د) هو (الفرع ك) الذي تم تقسيمه الى وحدتين منفصلتين : (ك X) ومهمتها القيام

باعمال التحقيقات ، ولها مديرها في مجلس الادارة ، والوحدة (ك Y) المسؤولة عن المعركة والعمليات ولها مديرها الخاص ايضاً . وقد اندمجت الوحدة (ك Y) مع (د ١ / التحقيقات) وقسم كبير من (د ٣) القديم حيث كونت هذه الوحدة ثلاثة أقسام : (ك ١) و (ك ٢) وهما قسمان متخصصان بالسوفييت وبالعملاء التابعين لهم ، و (ك ٣) الذي هو الآن قسم أبحاث ، وقد حل محل القسم (د ٣) ليقوم بتقديم الخدمات الى اقسام البحث والتحقيق ، والى (ك ٧) وهي وحدة جديدة مسؤولة فقط عن التحقيق في ادعاءات اختراق اجهزة الاستخبارات . اما الوحدة (ك Y) فقد ضمت (ك ٤) المسؤول عن أوامر المعارك ، و (ك ٥) قسم العمليات وادارة العملاء و (ك ٦) الذي يفترض به ان يكون مسؤولاً عن كافة التقييمات الامنية وعن تصنيف الملفات الخاصة ، والمعلومات الوزارية المختصرة ، والفهارس الخاصة ، وجمع السجلات التي كانت تحت اشرافي في (د ٣) .

كان (دنكام واه) أول ضابط يتم تعيينه رئيساً للقسم (ك ٧) . و لقد كان هذا الاختيار موفقاً ، فهو ضابط عقلاني ، متزن التفكير ، وكان دقيقاً في تفكيره دائماً . وحالما يصل الى قناعة وقرار ، فانه يصبح قوي التأثير في تبرير سير عمله المقترح . اما حياته العملية فقد عانت من غلطته الفاحشة التي تمثلت في تبرئة (هوتون) بعد ان تقدمت زوجته بشكوى ضده قبل عشر سنوات . غير ان عمله الشاق - و كان بعضه في فريق عملي في سفارتنا في موسكو - قد منحه فرصة كبرى ، وكان القسم (ك ٧) هو تلك الفرصة بالتأكيد . وقد دعمه في شغله لهذا المنصب ضابط سابق في سلاح البحرية وله نفوذه هو (جون داي) . وقد تشددت في نصيحتي بان لا يعين أي شخص كان قد تورط في موضوع الاختراق حتى هذا التاريخ في (ك ٧) .

التقيت مرة واحدة مع (دنكام واه) حيث قمت بتسليمه كل ما هو موجود في خزنتي مما له علاقة بلجنة (فلوينسي) : كافة سجلات التحقيقات الحرة الخاصة التي قمت بها حول خلفية (هوليس) ، وتحليلاتي عن قضية (لونسدال) وبعض ما يتعلق بالعميل متوسط الدرجة . وحينما سلمته هذه الاشياء ، أدركت عندها فقط مدى العبء الذي كانت تشكله كل تلك الصناديق الخضراء الصغيرة طيلة تلك السنين .

قلت له :

"خذ ، انها مشكلتك الآن ... شكراً لله " .

لقد كان لدي القليل من الاعمال التي علي ان أقوم بها مع (ك ٧) خلال الايام الاولى ولم يكن (دنكام واه) ولا (جون داي) يريدان ان اكون قريبا منهما ، حتى لا يتحيزا ، و من أجل ان لا تتأثر حرية مناورتهما ومصداقيتهما ، وقد فهمت ذلك . وقدمت (جون داي) الى (بلنت) الذي تحدث ثانية عن المسألة التي تتمثل في سبب سماح الروس له بالرحيل عن (م آي ٥) عام ١٩٤٥ . كان

(بلنت) يظن دائما ان هذا الموضوع غريب ، وكان يقول :

" أظن لو أنهم مارسوا الضغط عليّ ، لكان من المحتمل أن أبقى في العمل لفترة قصيرة على الأقل . لقد كنت أحب عملي ، وكنت أعبد (غاي ليدل) و (ديك وايت) وكنت أتوقع أن بامكاني أن أتابع فني ... لكنهم لم يطلبوا مني هذا " .

لم يستطـــع (بلنت) ان يلقي ضوءاً على قضية فيما اذا كان قد تم وضع بديل عنه في المكتب ام لا ، على الرغم من انه كان يعرف بأن ذلك هو ما كان يهمنا . وعرضنا عليه رسالة (فينونا) مع الاسماء السرية الثمانية ، لكنها لم تعن له شيئاً وكان كل ما لديه من معلومات ، هو انه تناول طعام الغذاء مع (غاي بيرغس) و (غراهام ميتشل) في نادي الاصلاح . كان من الواضح انها جلسة أخرى من جلســـات الاستطلاع ، غير ان (بلنت) ادعى انه لا يعرف فيما اذا كـــان (غاي) قـــد اتصــل مـــع (ميتشل) فعـــلاً بهدف تجنيده . وعلمت بعد ذلك بوقت قصير ان (جون داي) أجرى تحقيقاً مع (ميتشل) أخيراً ، واقتنع تماماً بان الرجل بريء . وكمـــا كنت أشك دائما ، حامت الشبهات حول (هوليس) .

ومرت فترة طويلة لم أسمع خلالها أي شيء ، إلى ان حضر (جون داي) لرؤيتي ذات يوم و قد أحضر معه أول تقرير أعده قسم (ك ٧) عن موضوع الاختراق على مستوى عال . وقد استنتج التقرير على نحو جازم ، بأن (هوليس) كان اكثر المرشحين احتمالاً ، وأوصى باجراء تحقيق واستجواب فوريين معه .

قال (جون داي) بعد أن قرأت التقرير :

" لقد اعتقدتُ دائما بانك ترى الحُمر تحت الأسرّة ، لكنني أردت أن أخبرك أنني اعتقد بانك كنت محقاً منذ البداية " .

لم يكن لي مفر هذه المرة ، وكذلك الأمر بالنسبة لـ (فيرنفال جونز) ولذلك الرجل الذي يرتدي البـــذلة الســـوداء ، ويلعـــب الغولف اثناء فترة تقاعده الهادئة في قرية (سومرست) التابعة لمنطقة (كالكوت) .

٢٢

لو أن حياتي العملية تُوِّجت بتحقيق أي انتصار ، لكان الأمر جميلاً ، ولو انه تم حل اللغز ، لكان الأمـر جميلاً أيضـاً . و مع هذا ، فانه من الافضل ان يكـون ذلك الرجل بريئاً على ان تتواصل الشكوك . لكن العالم السري ليس بسيطا الى هذه الدرجة ، وتبقى الظلال في النهاية كثيفة كما كانت في السابق ، تلف الحقيقة .

في صباح أحد أيام عام ١٩٦٩ ، سلكت طريقي صاعداً الى غرفة عمليات صغيرة ، كانت تستخدم في السابق كمكاتب للقسم (د ٣) . همست السماعات الموجودة فوق طاولات المكاتب بهدوء بينما كان فنيو (ا ٢) يقومون بفحص الميكروفونات المزروعة في البيت الآمن التابع لنا ، والواقع في شارع (ساوث أودلي) . كان الوضع بالنسبة لهم بمثابة يوم آخر ، وتحقيق آخر ، في حين انه كان يعني بالنسبة لي الفصل الأخير من مسرحية امتدت على مدار عشر سنوات . كان يوجد على الطاولة ملف يوازي حجم دليل الهاتف السميك . وكتبت على الغلاف كلمة واحدة غريبة ، هي " درات " وتعني الاسم الرمزي لـ (هوليس) . لقد انبثق هذا الاسم أمامي قبل سنتين ، وذلك حينما كنت أقوم باستجواباتي الخاصة بالقسم (د ٣) في غرفة مكتب صغيرة في (الفرع ب) الذي كان يقوم باطلاق الأسماء الرمزية . حينذاك ، ضحكت من الأمر ، وبدا اسم " درات " أمراً سخيفاً ، ولم اكن لأدرك على الاطلاق ما هي الآلام التي سترتبط به .

كانت (آن أور – ايونغ) ضابطا تمتاز بالدقة التامة ، وقد ترقت من مديرية التنصت والتدوين الى القسم (د ٣) لتعمل بوظيفة ضابط بحوث ، وذلك قبل ان تلتحق بـ (ك ٧) . وكانت قضية (ك ٧)

تشبـه تمامـاً حالة الاستجوابات الخاصة التي قمت بها بشكل خاص ومستقل في عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ، وإن كانـت – بالطبـع – مفصلـة بشكل اكثر ، إذ انهم كانوا على اطلاع على سجل خدمة (هوليس) وقاموا بتتبع و مقابلة معاصريه في (اوكسفورد) وفتشوا في سجلات (الفرع الخاص) الخاصة بـ (شنغهاي) . غير انه لم يتم العثور في النهاية على أي برهان . وأخيراً ، وكما هو الأمر دائماً ، أصبح الأمر موضوع وقضية اقتناع .

تم ارسال مغلف أبيض يحمل دعوة موجهة الى (هوليس) للعودة الى المكتب ، وكان ذلك قبل بضعة أيام مـن التحقيق ، في حين انـه كـان قد تم وضع الخطط النهائية . وبالطبع ، فقد وقع شجار . فقد افترضنا انه سيتم وضع (هوليس) تحت المراقبة المستمرة طوال فترة التحقيق ، خشية أن يصاب بالهلع – كما حدث مع [بليك] – الأمر الذي سيدفعه الى القيام بخطوة جديدة ، تتمثل في الاتصـال بمسـؤوليه الروس ، في حال وجود أناس كهؤلاء . غير ان (فيرنفال جونز) لم يفعل شيئاً من هـذاالقبيـل ، ولم يبد أي أسباب ، وإن كنا ندرك من خلال تعابير وجهه انه لن يغير رأيه ، بل ان (هانلي) اعترض على هذا ، مشيراً الى أن (فيرنفال جونز) كان على اطلاع كامل على المعلومات جميعها . لكن (فيرنفال جونز) نفسه كان يشعر انه قد دُفع الى ركن ضيق حينما صادق على اجراء التحقيق ، وان هذا التحقيق كان بمثابة آخر إهانة يمكن ان يوجهها الى سلفه ، وهو ليس على استعداد لتوجيه أي إهانة أخرى له .

وتم الطلب الى (جون داي) للقيام باجراء المقابلة ، في حين كنت أنا و (آن أور – ايونغ) سنقوم بالاستماع الى المقابلة ، وذلك كي نقدم تحليلاً للقضية في حين كانت عملية التحقيق لا تزال جارية . اما (فيرنفال جونز) فقد كان يعرف انه كان ملزماً بالموضوع كي يكون الخيار عادلاً ، وقد تيقن – بعد سنوات عديدة من التأخير – بانه يجب أن يراه الآخرون ، وهو يتيح الفرصة للجنود .

فتح أحد الأبواب في شارع (ساوث أودلي) وأدخل (هوليس) .

وبصوته المألوف الذي كان لا يزال قوياً بعد كل تلك السنين ، سأل (هوليس) :

" أين تريدونني ؟ " .

وبدأ (جون داي) يشرح له اجراءات المقابلة ، فقال (هوليس) :

" نعـم ، وأنا علـى معـرفة بالاجـراءات . . . لكنني سأحتـاج الى ورقة وقلم رصاص اذا سمحتم . ." .

حاولت أن أتخيل المشهدفي تلك الغرفة الواقعة في شارع (ساوث أودلي) اذ كان بامكاني رؤية (هوليس) وهو يجلس هناك معتدل القامة ، واعتقدت انه سوف يشتاق الى مكتبه . وبالطبع ، فان أقلام الرصاص ستكون أساسية ، وسيكون – بالطبع ايضا – قد رسم ابتسامة قطة التششاير وتساءلت :

هل سيشعر بالاذلال ؟ هل سيخاف ؟ وساورتني الشكوك بذلك على نحو ما ، فالعاطفة لم تكن شيئاً يمكن ان يكون له أي ارتباط بها . ولقد تذكرت شيئاً اعتاد دائماً أن يقوله لي :

" انك عاطفي جداً يا (بيتر) حيال الموضوع " .

وكنت أبذل قصارى جهدي للسيطرة على انفعالي .

وبدأ (جون داي) بالحديث عن تفاصيل روتينية تتعلق بحياة (هوليس) العملية ، وسني حياته المبكرة . وكان (هوليس) يعرف الاجراءات ، فأخذ يجري مسابقاً عملية استخلاص المعلومات ، والاستجواب .

قال (جون داي) :

" سنتمهل قليلاً إن لم يكن لديك مانع " .

وبدا على (هوليس) شيء من الانزعاج ، اذ قال :

" ان هذا شاق قليلا إن سمحت لي بقول هذا ، لا بد انك ستجد هذه المعلومات في سجل خدمتي في الجهاز " .

ولم يكن (جون داي) ليخشى شيئاً ، فقال :

" أظن ان من الافضل ان نتابع الاجراءات الآن إن لم يكن لديك مانع " .

وسرد (هوليس) قصة بسطية ، اذ قال انه غادر موطنه لأنه أدرك بانه لم يكن متدينا ، غير انه ادعى بان (اوكسفورد) لم تكن ملجأ كي يهرب اليه ، اذ كانت تذكره بنشأته الدينية ايضاً . وقال :

" أردت الابتعاد ، والقيام بشيء ما فيما يتعلق بحياتي في العالم الخارجي . كان طموحي الوحيد هو أن أقوم بلعب الغولف ، وقد ادركت في وقت مبكر في (اوكسفورد) بانني لن أستطيع ان اكون لنفسي على الاطلاق أي سيرة حياة فيما يتعلق بذلك ، ففكرت بالرحيل " .

كان الشرق الاقصى يجتذبه دائماً ، وجال بخاطره في البداية أن يسافر مع بعض الأصدقاء ، وكان (موريس ريتشاردسون) أحدهم . غير ان الخطة فشلت . وقال (هوليس) وهو يستذكر ذلك ، بانه كان سعيداً لهذا الفشل ، فقد كان بينهما القليل من الأمور المشتركة ، حتى يصبح بالامكان ان يكونا رفيقي سفر جيدين .

سحرته الصين ، وقابل هناك ، بالطبع ، الشخص اليساري الغريب ، غير ان ذلك كان حينها شيئاً طبيعيا . فالكل كان يعرف ان (آغنس سميدلي) كان يسارياً ، وكان الحال كذلك في (اوكسفورد) إذ كان على علاقة ودية مع (موريس ريتشاردسون) و (كلود كوكبرن) اللذين كانا يوصفان بانهما ورديين على أحس حال .

وقال بان صحته كانت تشكل مشكلة مستمرة ، فقد أصابه السل خلال هذه الفترة ، وأجبره هذا

المرض على العودة الى اوروبا في النهاية ، فسافر عائداً عن طريق (موسكو) . قال :

" أردت أن أرى كيف كانت (موسكو) . كانت مكاناً رهيباً ، قذراً ، ومثيراً للكآبة . لم يبتسم أحد . وقد أثار المثقفون ضجة كبيرة حول هذا المكان ، غير أنني كرهته " . وسأله (جون داي) :

" هل قابلت أحداً هناك ؟ " . فقال :

" في الحافلات والقطارات . . من ذلك النوع من المقابلات ، غير انني لم أقابل أحداً على نحو مغاير لهذا ، فأنت لا تقابل الروس كما تقابل الناس في بلاد أخرى كالصين مثلاً " .

وخـــلال فترة الغذاء ، التقيت أنا و (آن أور – ايونغ) و (جون داي) و (فيرنفال جونز) في (ليكونفيلد هاوس) . كان عرض (هوليس) هادئاً ، وليست فيه أي ثغرة .

قالت (آن أور – ايونغ) :

" إن استمر على هذا النحو ، فانه سيبريء نفسه " .

بعد الغذاء ، عدنا لبحث قضية عودته الى بريطانيا . تلاشى التركيز فجأة . ومع أن طريقة الحديث كانت لا تزال متماسكة ، غير ان التفاصيل كلها اختفت . لم يستطع ان يتذكر أين عاش ، و مَن هم الناس الذين قابلهم ، وما هي الخطط التي كانت لديه . ومع ذلك ، فقد كانت لديه كل الاجابات في الاستجواب ، وكنا نعرف ما الذي كان يفعله . فمثلاً ، كان قد عاش في وقت متأخر في بيت مجاور لمنـــزل ضابط في (م آي ٦) يدعى (أرتشي ليال) الذي كان صديقا حميماً لـ (غاي بيرغس) . ولكن ، وعلى الرغم من انـه كان من المفـروض ان يكـون كل منهما قد قابل الآخر مرات عديدة ، الاّ ان (هوليس) لم يكن يحمل أي ذكريات عنه اطلاقاً . لقد تلعثم (هوليس) لمدة ساعة او اكثر ، الى أن وصل الى نقطة في حياته العملية ، حيث انضم الى (م آي ٦) قبل الحرب . وفجأة ، عادت دقة الوصف الى كلامه ، مثلما اختفت على نحو مفاجيء .

وفي تلك الليلة ، التقى أعضاء فريق الاستجواب للمرة الثانية في نادي (اوكسفورد و كامبردج) ليتحاوروا حول جلسة اليوم .

سألت :

" ماذا عن هذه السنة الشاحبة ؟ " .

وضع (فيرنفال جونز) غليونه على الطاولة بسأم ، وقال :

" لقد أخطأت في فهم ذلك " .

وأخبـــرنا ان (هـــوليس) كـــان فـــي حالـــة من الفوضى والاضطراب ابان عودته من الصين ، وكانت صحته سيئة ، ولم يكن لديه أي فرصة عمل ، ولا آمال مستقبلية . ولم يبد أن هذا الامر قد دفع (فيرنفال جونز) الى التفكير بان ذلك الوضع كان من الممكن ان يجعل من (هوليس) هدفاً

سهلاً لعملية التجنيد ، اذ كان يمضي وقته متسكعاً ، وكانت تلك مرحلة في حياته ، أراد ان ينساها منذ مدة طويلة . وقال (فيرنفال جونز) بان من المدهش انه لم يستطع ان يتذكر اين كان يعيش ، فعلقت على ذلك قائلاً :

" حسناً ، انها حالة عقلية غريبة جداً ان يبدأ بتقديم طلب للعمل في (م آي ٥) و (م آي ٦) وهو في تلك الحالة " .

وكنت جاداً في قولي هذا ، وإن كان قد بدا ساخراً ، فصاح (فيرنفال جونز) :

" بحق الله يا (بيتر) " .

ثم كف عن الكلام فجأة ، اذ انه كانت لا تزال هناك جلسة أخرى .

وفي اليوم التالي ، جلس (هوليس) مرة ثانية ، وقال بلهجة أبوية :

" هل نحن جاهزون ؟ " .

انتظر (جون داي) صامتاً . كانت تلك لمسة رقيقة ، وقد ذكرتْ (هوليس) بانه ليس في موقع المسؤولية هذه المرة .

بدأ (جون داي) الكلام حول قضية أخرى ، فقال :

" أريد أن أسألك ثانية عن ملف (كلود كوكبرن) " .

كانـــت هــذه القضيــة قد برزت في صباح اليوم السابق . وذكر (هوليس) بانه كان صديقاً لـ (كلود كوكبرن) في (اوكسفورد) ، فسئل عن سبب عدم اشارته الى ذلك في ملف (كوكبرن) كما هــو مفــروض على أي ضابط في (م آي ٥) أن يفعل فيما اذا عرض عليه ملف أي شخص له معرفة به . تجنب (هوليس) الاجابة على السؤال ، وقال انه لم تكن هناك أي تعليمات في ذلك الوقت تتطلب من الضابط ان يقوم بتسجيل صداقاته الشخصية في الملفات .

وكانت تلك كذبة ، وعلى الرغم من كونها كذلك ، الاّ انها كانت صغيرة فقد كان التقرير يحتوي على ملحق كامل ، يثبت بان موضوع تسجيل الصداقات في ملفات (م آي ٥) قبل الحرب ، كان اجراء معمولاً به ، وكان من المفروض ان (هوليس) على علم بتلك التعليمات .

وبــدأ (داي) يتحــدى (هــوليس) حول جوابــه في اليوم السابق . لماذا كذب ؟ . لم يكن (هوليس) من النوع الذي يتلعثم أو يتردد . وسادت فترة صمت قصيرة ، ثم اعترف بخطأه . لقد أقر بذلك ، وأورد لذلك سببا آخر . فقد كان يعرف أن (كوكبرن) كان مثار اهتمام جهاز الاستخبارات كشخص يساري بارز ، وعميل لـ (الكومنتيرن) . ولأنه كان قد عاد لتوه ، وكان يريد أن يشغل منصباً فــي (م آي ٥) فانـــه اختــار ان يتجــاهل التعليمــات والانظمة ، خشية ان ينظر الى صداقته مع (كوكبرن) على انها نقطة سوداء ضده ، وقال :

" انا متأكد من انني لم أكن لا أول ولا آخر ضابط يخالف تلك القاعدة على نحو خاص " .

وضغط عليه (داي) :

" وماذا بشأن أصدقاء آخرين ؟ ماذا بشأن (فيلبي) . هل كنت صديقا له ؟ " .

قال :

" ليس الأمر كذلك حقا . فقد كان يشرب الخمرة كثيراً ، و كانت بيننا علاقات عمل جيدة ، وليس هناك ما هو اكثر من هذا " . فسأله :

" و (بلنت) ؟ " . قال :

" كذلك كان الأمر معه الى حد.ما ، وخاصة أثناء الحرب . كنت أعتقد انه كان موهوبا جداً . ولكنني اكتشفت غير ذلك بعد ان ترك الجهاز . والآن ، فاننا نتقابل من وقت الى آخر في محل (ترافلرز) حيث نتبادل حديثاً قصيراً ، وأشياء من هذا القبيل. انه يحب القال والقيل " .

أما (غوزينكو) و (فولكوف) و (سكربكين) فقد مر ذكرهم بسرعة ، فـ (غوزينكو) لا يمكن الاعتماد عليه ، وهو لا يزال يشك بان (إيلي) موجود فعلاً . اما حول رحلته الى كندا ، فانه لم يكن هناك أي ضرر في ارسال الملف اليه من قبل (فيلبي) وقال :

" لقد كنت خبير الشؤون السوفيتية المعترف به في تلك الفترة ، ومن الطبيعي ان يرجع (فيلبي) اليّ فيما يتعلق بهذا ، خصوصاً ، وان الموضوع كان قضية تتعلق بـ (الكومنوولث) " .

" و (فولكوف) ؟ " . فقال (هوليس) :

" ليس هناك من سبب يدعوني الى تكذيب (فيلبي) . كان يرى نفسه بانه هو جاسوس (فولكوف) . . . فلماذا يذهب بعيداً لحماية شخص آخر ؟ " .

وتخللت حديثه لهجة المدير العام لمرة واحدة فقط ، وذلك حين بدأ (جون داي) يسأله عن الأحداث التي وقعت في مطلع سنوات الستينات . فقد سئل عن سبب طرده (آرثر مارتين) فظهرت نبرة خشنة في صوته :

" كان غير منضبط تماماً ، ولم أكن أعرف بما كان يقوم به من عمل . خذ قضية (بلنت) مثلاً . فقد اتفقنا على تقديم عرض لحصانة رسمية فيما يتعلق بالاحداث التي وقعت قبل عام ١٩٤٥ ، فيذهب (مارتين) ويعرض عليه حصانة " كارت بلانش " الامر الذي يثير غضب المدعي العام ، وغضبي كذلك . لم يكن هناك ما يضبطه ويقيده . وكان هو و (رايت) مشغولين في ايجاد : " غستابو " له امتيازات ، وكان لا بد من اتخاذ خطوة لايقاف هذا . انني غير آسف على هذا ولو للحظة واحدة ، وأرى بان ما قمت به له ما يبرره تماماً خلال تلك الظروف ، وكان لا بد ان يحدث ذلك في وقت سابق " .

وسأله (جون داي) لماذا لم يسمح باستجواب (ميتشل) في عام ١٩٦٣ ، فأجابه :

" ان سبب هذا الامر موجود في الملفات ، فرئيس الوزراء لم يصادق على هذا " . فسأله :

" هل طلبت منه الإذن بذلك فعلاً ؟ " . أجاب (هوليس) بنزق :

" طبعاً ، فقد طلبت إذنا لذلك " . واعترض (داي) قائلاً :

" لكنه لا يتذكر حدوث مثل ذلك اللقاء بينكما " . فقال (هوليس) :

" ذلك سخف ! كان الموقف حرجاً ، اذ كانت فضيحة (بروفومو) على أشدها خلال تلك الفترة ، وكان لا بد من النظر بعين الاعتبار الى قضية تبادل المعلومات مع الامريكيين . ان أي فضيحة أخرى كانت ستعمل على اسقاط الحكومة ، ولذلك فان قضية استشارة الحكومة كانت امراً هاماً " .

كانت عملية الاستجواب تشبه لعبة الملاكمة الوهمية * فقد تحرك (داي) وانقض على (هوليس) بلكمة ، غير انه لم يصب الهدف . فهو لم يتمكن من الوصول الى مسافة قريبة كافية من خصمه لمنازلته على طريقة قتال الشوارع : التماسك بالأيدي ثم تسديد الضربات ، ليضطره في النهاية الى الاعتراف . فقد مضى الوقت سريعاً . كان الموضوع قديماً ، و قديماً جداً ، الى درجة انه كان يصعب اكتشاف الحقيقة .

مع انتهاء فترة ما بعد الظهر ، بقيت هناك بعض الاسئلة الروتينية فقط لتسجيلها في الملف . وسأل (داي) :

" هل قمت بايصال معلومات رسمية الى أي شخص غير مسموح له بالحصول عليها خلال أي مرحلة من مراحل عملك ؟ " . أجاب (هوليس) بحزم :

" لا " .

" وهل اتصلت من أي شخص – على نحو سري – لايصال معلومات اليه ؟ " .

" إطلاقاً " .

و صرّت الكراسي حين نهض (هوليس) . و ودّعنا ، وكان يقصد ذلك تماماً . وسافر الى (سومرست) ليعود الى ممارسة لعبته في الغولف ، والى كوخه . لقد غادر غرفة الاستجواب كما دخلها : مجهول الطوية ، ولغزاً ، ورجلاً رزيناً على نحو واضح ، مع شيئ من المرح والقذر . الطاغية الذي يشعر بالقلق الكاسح .

وقابلنا (فيرنفال جونز) مرة ثانية في نادي (اوكسفورد وكامبردج) في تلك الليلة . كان يخيم على الطاولة جو من الاستسلام ، اذ كنا على ثقة باننا لم نصل بالقضية الى الهدف المنشود . غير اننا جميعا كنا نشعر – وبنفس الدرجة ، وبشيء من اليقين – ان الشكوك التي تلف القضية كافية كي تبقيها حية . اما (فيرنفال جونز) فقد كان صامتاً ، وكان يشعر ان التحقيق قد وطد ايمانه بـ (هوليس)

---

* الملاكمة الوهمية : ملاكمة يتدرب فيها الملاكم مع مدربه (المترجم)

وثقته به . ثم قال :

" آمل ان ننتقل الى أشياء أخرى " .

وأغلقت القضية ثانية . ولم يكن هناك أي شيء – حتى عملية التحقيق مع هوليس – بامكانه ان يردم الهوة العميقة التي فصلت بين اولئك الذين كانوا يؤمنون ان الاختراق قد وقع فعلاً ، وبين اولئك الذين أخذوا أخيراً يشكون بوجوده أمثال (فيرنفال جونز) . ولم أكن لأستطيع منع نفسي من تذكر كل السنوات الضائعة ، تلك السنوات التي كان من الممكن ان يكون التحقيق قد جرى أثناءها : سنوات الاهمال والتسكع دون هـــدف ، السنوات التي تراكم الغبار خلالها على الملفات ، وحينما كانت التقارير تسير سيرها الطبيعي دون ان تجد لها إجابة ، تلك السنوات التي منعنا الخوف من المجهول من معرفة الحقيقـــة . ولم يكن هناك ما يستطيع مساعدتنا في حل القضية الآن سوى فرصة اختراق منشق هارب ، أو شيفرة وتحليلها . وسيطر علينا شعور من اليأس نتيجة الفشل : الفشل والضياع ، ورغبة بالهرب والنسيان . وحين ننظر الى الماضي ، فانني أرى أن تقاعدي كان قد بدأ منذ تلك الليلة التي كنت أسافر فيها بالقطار عائداً الى موطني في (اسكس) . أما ما تلا ذلك ، فقد كان – على الأغلب – عبارة عن تحركات هنا وهناك فقط .

وقد أشارت عملية التحقيق مع (هوليس) الى نهاية عقد من الزمن ، وبدخولنا في عقد جديد . وستكون فترة سنوات السبعينات هي سنوات الحساب ، حينما تعرضت جيوش الغرب السرية في النهاية الى أضواء الإعلام ، و العلنية اللافحة ، على نحو مؤلم . فقد كان كل من الشرق والغرب يخوضان معركة ليلية على امتداد ثلاثين عاماً ، وقد أخفتها و حمتها التقاليد والضرورة . غير ان الأسرار ، أخذت تظهر للعيان خلال أربع من السنوات .

ومن المفارقات ، ان بداية سنوات السبعينات كانت بداية حسنة بالنسبة لـ (م آي ٥) اذ أننا حصلنا في النهاية على هارب كنا نثق به ، وكان اسمه (اوليغ ليالين) . فقد قام بتجنيده أفضل ضابطيـــن من ضباط (م آي ٥) وهما (هاري وورتون / من يورك شاير) و ضابط آخر يتمتع بجرأة واسعة هو (طوني بروكس / ضابط سري سابق في م آي ٦) . وكان (طوني) قد عمل مع زوجته في فــرنسا وبقيا على قيــد الحيـــاة . اما العمليـــة هـــذه فقـــد كان يـــديرها رئيس (ك Y) وهـــو (كريستوفر هيربرت) وهـــو ضابط هادىء يمكـــن الاعتماد عليـــه . كـــان (ليالين) على علاقة مع فتاة ، وحينما اتصل به (وورتون) و (بروكس) قال بانه يرغب في الهرب ، واستطاعا اقناعه بالبقاء في مكانه ، فقدم الى (م آي ٥) وخلال ستة شهور ملخصـــا تفصيليا لتعليمات الـ (ك ج ب) المتعلقة بمعركة (لندن) . كان مجرد ضابط صغير في الـ (ك ج ب) وله علاقة بمديرية التخريب . لكن أي خرق يمكن احداثه في درع الـ (ك ج ب) هو أمر لا يقدر بثمن .

حالما بدأت قضية (ليالين) أدركنا بأن تلك هي أفضل اختبار لنا للتأكد فيما اذا كان لا يزال في (م آي ٥) أي اختراق على مستوى عال : إذا نجا (ليالين) فاننا خالون من الشوائب . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩٦٦ و ١٩٦٧ على الاقل ، لم يكن لدينا أي دليل يثبت تدخل الروس في عملياتنا . كانت لدينا خمس قضايا تجسس ، وقضية (ليالين) وتم طرد الدبلوماسيين الروس المائة وخمسة ، وقد استمرت كل قضية من هذه القضايا نحو ستة شهور على الاقل . لكن ، وحتى نهاية عام ١٩٦٥ ، كانت كل قضية – ولمدة عشرين سنة ، أو ما يزيد على ذلك – ملطخة " بأصابع الروس اللزجة " . ولا بد ان نلاحظ ان (هوليس) كان قد تقاعد في نهاية عام ١٩٦٥ . وكان عشرة من الاشخاص فقط هم الذين يعلمون بهذا السر ، ولا يعلمه أحد من خارج المكتب ، باستثناء (دينيس غرين هيل) السكرتير الدائم في وزارة الخارجية . كان (غرين هيل) صديقا حميماً لـ (م آي ٥) وكانت علاقتي معه علاقة دافئة . كان قد تعلم في كلية المطران في (ستورتفورد) مع (ديك وايت) ومعي . وقد تعاملت معه في موضوع عملية (ستوكيد) الفرنسية ، غير اننا بدأنا بالعمل مع بعضنا بشكل مكثف اكثر حينما توليت أمر القسم (د ٣) وقدمت لزملائه الدبلوماسيين الكبار معلومات أمنية على نحو روتيني .

وسرعان ما بدأ توتر عيش حياة مزدوجة يظهر على (ليالين) . وقام كل من (بروكس) و (وورتون) بايجاد منازل مأمونة يمكن لـ (ليالين) ان يقابل صديقته فيها لممارسة الحب معها . كانت اجراءات وترتيبات هذه الزيارات شاقة ، اذ انه في كل مرة كانت تتم فيها هذه اللقاءات ، كان يتعين على واحد منهما أن يجلس خارج الغرفة ليراقب ما يدور في الداخل خوفاً من وجود أي علامة تشير الى وجود نوع من الخيانة . وبدأ (ليالين) يتناول المسكرات بكثرة ، ولكن حينما تقرر ارساله عائداً الى (موسكو) قررنا ان نضع نهاية لمحنته . كان (ليالين) نفسه بمثابة لعبة مناسبة للعودة الى روسيا ، ليستمر في التجسس من مكانه هناك ، غير اننا استنتجنا انه لن يبقى حيا هناك . كان (ليالين) مرتبطاً بالوفد التجاري ، وليست لديه أي حصانة دبلوماسية . ولذلك ، فاننا قررنا القاء القبض عليه ببساطة حينما يكون سائراً في منطقة الجمارك في مطار (هيثرو) ووضعه تحت الأمر الواقع .

وعلى الفور تقريبا ، فان كافة خططنا قد فشلت . فقد كنت موجوداً في (لندن) خلال ذلك الاسبوع ، وفي احدى ليالي شهر شباط ١٩٧٠ ، وفي الساعة الثالثة صباحاً ، تلقيت مكالمة هاتفية من الضابط المناوب ، الذي قال :

" تعال بسرعة ، اننا نريد الوصول الى خزنتك الحديدية " .

ارتديت ملابسي بسرعة ، وركبت سيارة أجرة متوجها الى المكتب ، حيث وجدت (طوني بروكس) بانتظاري هناك . وقال لي :

" نريد حقيبة الادوية المضادة للسموم ، فلقد تم تسميم (ليالين) . لقد تم القاء القبض عليه وهو يقود سيارة بحالة سكر قبل ساعات ، وهو الآن موجود في سجن شارع مارلبورو ! " .

فتحت خزنتي ، وأعطيته اسطوانة صغيرة تشبه حقيبة ادوات صغيرة ، كان الدكتور (لاديل) من (بورتون داون) قد أعطانيها قبل عشر سنوات عند نهاية عملي كضابط علمي . وكانت الحقيبة تحتوي على مضادات لكل أنواع السموم المعروفة ، والتي يستخدمها الـ (ك ج ب) . وكنا نضع الحقيبة الى جانب كل هارب لمدة اربع وعشرين ساعة في اليوم ، وفيما عدا ذلك ، فانها كانت تبقى في خزنتي . ولم يهتم أحد بابقائها قريبة منه .

وبسرعة شرحت الى (بروكس) الاعراض الأساسية لغاز الأعصاب ، أو التسمم السريع ، وأخبرته بكيفية استعمال المضاد . واندفع الى السجن لحماية (ليالين) في حين ايقظت نائب رئيس (الفرع الخاص) من نومه ، وطلبت اليه تحذير شارع (مارلبورو) من هوية السكير الموجود في الزنزانة لديهم . وفي أثناء ذلك ، فان الدائرة القانونية في (م آي ٥) طلبت الى وزارة الداخلية ، والى المدعي العام الحصول على حصانة لـ (ليالين) من تهمة السكر ، موضحين ان هناك مخاطرة جادة لاغتياله في حال تقديمه الى محاكمة علنية .

وكان هروب (ليالين) بنجاح بمثابة فرصة نادرة لـ (م آي ٥) . فمنذ أن أصبح (فيرنفال جونز) مديراً عاماً ، كان يراوده حلم تغيير ميزان القوى الراجح ضده . فقد كان يعرف ان المشكلة الرئيسية التي تواجه (م آي ٥) كانت مشكلة التفوق الهائل في عدد ضباط الاستخبارات السوفييت في (لندن) . وقد ناضل خلال سنوات الستينات ليجعل وزارة المالية توافق على توسيع مقدرة مكافحة التجسس التابعة لـ (م آي ٥) غير انهم كانوا يرفضون ذلك دائماً . وكان قادراً على توفير مبالغ معينة من خلال اعادة توجيه مصادر مالية داخليا لصالح (الفرع د) لكنهم (الضباط الروس) كانوا يتفوقون علينا من حيث العدد بنسبة تزيد على ثلاثة الى واحد . وفيما كان (ادوارد هيث) على رأس السلطة ، قدم (فيرنفال جونز) عرضاً بتقليص عدد ضباط الاستخبارات الروسية ، ذاكراً اسماءهم مرتبة حسب الأهمية ، وكان ذلك قبل ان يظهر (ليالين) الى الوجود . وكان رد فعل (هيث) ان قال : " اقذفوا بالجميع الى الخارج " . واحتجت وزارة الخارجية والكومنوولث . لكننا كنا غير راغبين بالقيام بمثل هذا العمل لأننا كنا بحاجة الى وجود عدد من الضباط هنا لاستخدامهم كرد على الروس إن هم قاموا باتخاذ عمل انتقامي . ومع ذلك ، فانه تم التوصل الى اتفاق بيننا وبين وزارة الخارجية والكومنوولث بحلول شهر آذار عام ١٩٧١ . فقد تم تأجيل العمل حتى فصل

الخريف ، لأن (ليالين) قد ظهر على مسرح الأحداث ، ولم نكن نريد إثارة ضجة الا بعد أن يهرب أو أن يعود الى وطنه .

وأثنـــاء عمليـــات استخلاص المعلومات منه ، قام (ليالين) بتعريفنا على عشرات من ضباط الـ (ك ج ب) النشطين المتسترين بغطاء دبلوماسي . وكان معظم هؤلاء معروفين لدينا من قبل ، و ذلك من خلال برنامج تحليل الحركات الذي ساهمتُ في عملية ايجاده في اوائل سنوات الستينات الى جانب كل من (آرثر مارتين) و (هال دوين ديتماس) .

كان احتساب قوة الـ (ك ج ب) عملاً مثيراً للخصام دائماً ، ولكنه كان من صميم التقدير العقلي للتهديد الذي تشكله الاستخبارات المعادية . وحين بدأت بادارة القسم (د ٣) قمت بسلسلة من التحليلات لقـــوة الســـــوفييت عـــام ١٩٤٥ ، معتمـــداً في ذلك على المعلومات التي حصلنا عليها من (فينونا) . وعلى الرغم من اننا تمكنا من تحليل جزء صغير فقط من حركة الاتصالات ، الاّ ان قيادة الاتصالات الحكومية تمكنت من تقييم العدد الاجمالي للجواسيس النشطين في بريطانيا بما يقدر بين ١٥٠ - ٣٠٠ جاسوس (وقد تم هذا التحليل الاحصائي من خلال استخدام اسلوب استنبطه أحد محللي الكتابة السرية الكبار ، وهو [آي . جي . غود]) . ومع حلول سنوات الستينات ، وعن طريق اجـــراء تحليل تقريبي لـ (فينونا) ومن خلال مقارنة معلومات قدمها لنا هاريون ، اضافة الى معلومات (بلنت) و (كيرنكروس) مع سجلات جوازات السفر ، أصبحنا على ثقة بانه كان في (لندن) عام ١٩٤٥ حوالي (٤٥ - ٥٠) ضابط استخبارات روسي ، من بينهم حوالي (٢٥) مشرف عملاء . و من خلال تقسيم هذا العدد على عدد الجواسيس الذين أشير اليهم في (فينونا) فانه باستطاعتنا الحصـــول علـــى عدد وسطي مقداره حوالي (٨ - ٩) جواسيس يعملون تحت قيادة كل مشرف عمـــلاء ، وهـــذا يتطابـــق بالضبط مع حركة اتصال (فينونا) للاسبوع الاول ، التي أشارت الى ان (كروتوف) كان يدير ثمانية جواسيس .

اما القضية الحقيقية فقد أصبحت الآن هي قضية الى أي مدى يمكن ان ينطبق هذا على الاوقـــات الحاليـــة . مع أواخر سنوات الستينات ، أثبت برنامج تحليل الحركات انه كان يوجد ما بين (٤٥٠ - ٥٥٠) ضابط استخبارات روسي نشيط في بريطانيا . ولكن كم هي النسبة المئوية من بين هؤلاء الضباط الذين كانوا يشرفون على العملاء ؟ فاذا كنا افترضنا ان عدد مشرفي العملاء بقي ثابتاً على مـدار العشـرين سنة ، أي ما يعادل خمسة وعشرين ، وان الباقي كانوا هناك ليقدموا تغطية لهؤلاء ، والقيام بعمليات المراقبة المضادّة ، والأمن الداخلي ، والتحليلات ، فان هذا يعني اننا لا نزال نواجه مشكلة كبيرة ، اذ كان هذا الأمر يعني ان هناك حوالي مائتي جاسوس نشيط يعملون في بريطانيا حالياً . فاذا أخذنا عدد مشرفي العملاء بانه ازداد بنفس النسبة مع ارتفاع العدد الاجمالي

لضباط الاستخبارات ، فان الوضع سيكون أكثر خطراً : أي اكثر من ألف جاسوس ! والغالبية العظمى من اولئك الجواسيس سيكوتون من مستوى الاتصال الهابط بين الحزب الشيوعي ، واتحادات المهن المختلفة وحتى لو كان ١ ٪ منهم اختراقات من مستوى (هوتون) و (فاسال) فان الدلالات تكون بمثابة كارثة .

وكلما عرضتُ هذه التحليلات على وزارة الداخلية لادخالها في التهديد الروتيني ضد البلاد ، ثار خلاف . وكان (جون آلين / وهو محام سابق ، وترقى بسرعة في القسم ك) يعترض على تحليلاتي باستمرار . فقد قال :

" لا يمكنك قول ذلك ، لا يمكن ان يكون في (لندن) هذا العدد الهائل من ضباط الاستخبارات . . لن تصدق وزارة الداخلية هذا ! " .

وأزال هروب (ليالين) كل الاعتراضات تلك ، إذ انه أكد ما توصل اليه برنامج تحليل الحركات بأن حوالي اربعمائة وخمسين ضابط استخبارات يقيمون في (لندن) واكد على ان نسبة مئوية منهم كانوا مشرفي عملاء نشيطين . وقد برهن على نحو لا يقبل الشك ، بأن برنامج تحليل الحركات كان صحيحاً تماماً ، وان الاحصائية التي أعددتها كانت سليمة . وكان الظاهر بان الزيادة في العدد لم تكن تبين جواسيس الدرجة الدنيا . ووضع (فيرنفال جونز) وهو مصمم بشكل لم أره عليه طوال حياتي وهو يتابع أي شيء ، وضع القضية امام وزارة الخارجية ، مطالبا بالقيام بعملية طرد جماعية لعدد كبير من الدبلوماسيين الروس . وفي النهاية ، وافق (تيد هيث) ووزير الخارجية (أليك دوغلاس هيوم) بعد ان اتصلا بحذر عن طريق وزارة الداخلية مع وزير الخارجية السوفييتي (ألكسي كوسيغين) طالبين من الروس القيام بسحب بعض ضباط استخباراتهم دون ضجة اعلامية وعلنية ، غير ان ذلك الطلب رفض بحزم .

وظهرت عملية طرد الدبلوماسيين كأنها انقلاب رائع في جميع أنحاء عالم الاستخبارات الغربية ، فتلقينا برقيات التهنئة من كافة رؤساء أجهزة الاستخبارات . وكان ذلك اعظم انتصار يحققه (فيرنفال جونز) . وقد زاد من حلاوة هذا الانتصار ان عدم تسرب هذه الخطة الى الروس برهن على ان اختراق (م آي ٥) على مستوى عال هو قضية قد انتهت تماماً ، بغض النظر عما كانت حقيقة الأمر عليه في الماضي .

وساند (انغلتون) عملية الطرد دون أي تحفظ ، واعترف بانه كان يريد منذ وقت طويل القيام بهندسة شيء مشابه لهذا في (واشنطن) . غير ان (هنري كيسنجر) كان يعارض هذا الأمر بحزم . وأخبرني (انغلتون) بان (كيسنجر) قد انفجر غاضبا عندما علم بعملية طرد الروس من بريطانيا . فقد كان يتابع على نحو يائس عمية الوفاق مع الاتحاد السوفييتي ، وارسل مذكرة الى

(السي آي ايه) قائلاً بغضب : انه لو كان يعلم بهذا الاقتراح ، لكان استخدم كل قوة في يده لتحطيم هذا الأمر . ومن حسن الحظ أن (السي آي ايه) كانت قادرة على ان تذكر بصدق انها لم تكن تعرف شيئاً عن الخطة .

لكن (انغلتـــون) كانـــت تساوره شكــوك عميقة حول (ليالين) . وبعد هروب هذا الأخير ، قام (انغلتون) بزيارة سرية الى (لندن) . كان يبدو أسوأ مما كان عليه في السابق . فقد استهلكه الدور السري والصعب الذي التزم بلعبه ، ورأى نفسه كأنه (كاساندرا) * إذ أخذ يبشر بانهيار وانحلال الغـــرب . وكان يـــرى بان (ليالين) كان مزروعاً ، وقد أخبرنا بكل هذا خلال اجتماعنا معه في شارع (مارلبورو) . قلت له :

" أوه يا (جيـــم) . . ان (ليالـيـــن) ليـــس بهــــذا الحــــجم الكبير . . انه أحد سفاكي الـ (ك ج ب) . ما هي المعلومات المضللة التي يحتمل ان يقدموها من خلاله ؟ " .

أحس (انغلتون) اننا خناه ، فلم نكن قد أخبرناه عن (ليالين) حينما كنا نقوم بادارته وهو لا يزال في مكان عمله . وقال لنا بقسوة ، ان الهدف من اتفاقية المعلومات بين الولايات المتحدة وبريطانيا هو تبادل المعلومات الاستخباراتية الكاملة بين الطرفين . غير ان صبرنا على (انغلتون) كان ينفد بسرعة في (لندن) عام ١٩٧٠ ، وكان (موريس أولدفيلد) يكن عداء لا يخفيه لكل أفكاره ونظرياته . وقد بدأ يثير العداء نحوه حتى داخل (م آي ٥) .

وقد عرفنا فيما بعد المدى الذي كان (انغلتون) على استعداد للوصول اليه لاثارة الشكوك حول (ليالين) . وفيما كنا نقوم باستخلاص المعلومات منه ، كنا نرسل – على نحو روتيني – خلاصات معلـــوماتنا الاستخبـــاراتية التي تضم معلوماته الى مكتب التحقيقات الفيدرالي ، ليقوم بتوزيعها على (السي آي ايه) ومجلس الامن القومي ، وحتى رئيس الجمهورية .

بعد بضعة شهور ، أخذ (جي . ادغار هوفر) اجازة في (فلوريدا) وانتهز فرصة الاتصال بالرئيس (نيكسون) اثناء قضائه اجازة في منزله الواقع في جزيرة (بيسكاين) الواطئة . وقال له :

" كيف ترى التقارير البريطانية المستقاة من مصدرهم (ليالين) يا سيدي الرئيس ؟ " .

أجابه (نيكسون) :

" أي تقارير ؟ " .

وتبين انه لم يتسلم اي تقارير من هذا النوع .

---

* كاساندرا : هي احدى بنات بريام ملك طروادة ، وأخت باريس ، وقد أسرها اغامنون حين دمر الاغريق طروادة . وكانت لها مقدرة عجيبة علـــى التنبـــؤ بالغيب ، وجاء ذكرها في إلياذة و أوديسة هوميروس ، وفي انياذة فرجيل ، وفي ثلاثية اسخيلوس المسرحية (المترجم)

وحينما تحرى (هوفر) الأمر مع (كيسنجر) تبين ان هذا الأخير لم يتسلمها كذلك ، فاتصل مـــع (السي اي ايه) وطلـــب القيـــام باجراء عملية بحث كاملة ، حيث عثر على التقارير في خزنة (انغلتون) . وتبين ان (انغلتون) استنتج ان (ليالين) انما كان استفزازاً ، ورفض بكل بساطة توزيع التقاريـــر . وقـــام (تـــوم كاراماسينس) مـــديـــر التخطيط في (السي آي ايه) بتوجيه لوم شديد ، فكان ذلك بداية انهيار سلطة (انغلتون) .

وكان انهيار (انغلتون) قـد بـدأ فـي وقـت أبكـر من هذا ، وذلك أثناء نشوب العداء حول (غوليتسين - نوسينكو) . فقد كانت فكرة ان (نوسينكو) مزروع تشكل قناعة تامة لدى (انغلتون) حيث ان ذلك قد أمّن اولية (غوليتسين) بين كل الهاربين الذين وصلوا في أوائل سنوات الستينات . واذكر انني ذكرت لـ (انغلتون) عام ١٩٦٧ بعد أول مؤتمر (كازاب) انني سأسافر عائداً الى بريطانيا عن طريق الولايات المتحدة ، وكانت ابنتي تعيش في (بوسطن) وكنت أفكر انني سأقوم بعمل ما أثناء زيارتي الشخصية . وحالما أخبرت (انغلتون) بانني سأقوم بزيارة (واشنطن) فانه أصبح عدوانيا تماماً ، وقال : انه ليس من حقي ان أقوم بزيارة (واشنطن) الاّ اذا كان هو في المدينة . ففي ذلك الوقت ظننت ان قلقه نابع من علاقته بالاسرائيليين . فقد كان الوضع الشرق - أوسطي في حالة هيجـــان ، وكـــان (انغلتون) يقوم بحماية علاقته مع جهاز الاستخبارات الاسرائيلية (الموساد) بغيرة ، وبشكل دائم . كان يعرف مدى صداقتي الحميمة مع (فيكتور روتشيلد) وحاول كثيراً ان ينهي هذه العلاقة . وكتب الى (فيرنفال جونز) في إحدى المناسبات ، محاولاً قطع هذه العلاقة بحجة انها تدخل في علاقة (السي آي ايه - الموساد) . غير ان (فيرنفال جونز) عامل هذه الرسالة بالاحتقار الذي تستحقه .

الاّ ان ضيـــق (انغلتـــون) لم يكـــن له علاقة باسرائيل ، وقد عرفت الحقيقة . فقبل مؤتمر (كازاب) كان قد تم التوصل - من خلال تحقيق داخلي قامت به (السي آي ايه) وأداره ضابط يدعى (بروس سولي) - الى استنتاج مفاده ان (نوسينكو) كان هارباً حقيقيا على نحو مؤكد تقـريبا ، علـى الرغـم مـن انه لم يستطيع ان يقدم تفسيراً لتناقضاته الغريبة في قصته . ولم يكن (انغلتـــون) قـد أخبـر البـريطانيين بهـذه الحقيقـة علـى الرغم من أهميتها فيما يتعلق بمعلومات (نوسينكو) و (غوليتسين) . وكان من الواضح انه كان متخوفا من إذا انني قمت بزيارة (واشنطن) فانني قد أسمع عن تقرير (سولي) من خلال قناة اخرى .

وقد بدأت أحداث كهذه تدمر مصداقية (انغلتون) ، اذ ان أحداث (نوسينكو) و (ليالين) قد زعزعت ايمان حتى الذين عرفوه على خير وجه ، ودافعوا عنه لمدة طويلة . وبدأت تساورنا الشكوك حول ما اذا كانت المصادر السرية التي ادعى (انغلتون) بانه يصل اليها موجودة بالفعل ، أو ربما كانت بعد

كل هذا مجرد لعبة الثلاث ورقات .

وتلقى (انغلتون) عام ١٩٧٠ اكبر الضربات كلها ، وذلك حينما فقد ضابطه الاداري ، والرجل الثانـــي الفعال (جيم هنت) . كان (هنت) رجلاً صلباً ، وقد تعامل مع هوس (انغلتون) بشك متوازن . فقد كانت قدماه على أرض صلبة ، وكان يدير الاحداث ، وكان (انغلتون) مثلي اداريا لا أمل منه ، في حين كان (هنت) يقوم بتأمين توزيع الاوراق ، والاجابة على الاستفسارات ، والقيام بالاعمال الروتينية اليومية ، والتي تعتمد عليها خدمة الاستخبارات الفعالة . وبدون (هنت) فان (انغلتون) أصبح سفينة لا مرساة لها ، تنجرف ببطء نحو القاع .

ولم يكن هروب (ليالين) وعملية طرد مائة وخمسة من الدبلوماسيين الروس العلامات الوحيدة التي تدل على ان فجراً جديداً قد بدأ يبزغ على الاستخبارات البريطانية في سنوات السبعينات . وبعد انتخاب (ادوارد هيث) كرئيس وزراء عام ١٩٧٠ ، تم تعيين (فيكتور روتشيلد) رئيساً للجنة مراجعة السياسة المركزية (دبابة التفكير) . ولم يكن هناك أي رجل مناسب لهذا المنصب اكثر منه . فقد توافرت لدى (فيكتور) الصفات الصحيحة للوحي والراديكالية التي تحقق وحدة سياسية متحدية أرادها (هيث) . لقد جاءت دعوته لـ (فيكتور) لشغل المنصب في الوقت المناسب . وأستطيع القول انه بدأ يشعر بالملل ونحن نقترب من نهاية سنوات الستينات . ولم يكن يُكِنُّ أي اعتبار لـ (هارولد ويلسون) ولم يكن لديه أي دور في الحياة العامة . وقد أبقى على اتصالاته مع الاستخبارات البريطانية ، مستغلاً صداقته مع شاه ايران ، ومشرفاً على عدد من عملاء (ديك وايت) في الشرق الاوسط ، وعلى وجه الخصـــوص السيد (ريبورتر) الذي لعب دوراً حاسماً ، في عمليات (م آي ٦) في سنوات الخمسينـــات . كـان ذلك المنصـب مثيـراً ، لكنـه كان يتوق الى شغـل منصب يعتبر بمثابة تحد حقيقي ، وكانت (دبابة التفكير) هي ما كان يريده بالضبط .

وكرئيس لـ (دبابة التفكير) اهتم (فيكتور) بالأمن اهتماماً كبيراً ، وقد شجعه (هيث) على القيـــام بهذا ، الأمر الذي أثار المزيد من غضب وزارة الداخلية ، وعلى وجه الخصوص السكرتير الـــدائم ، الذي كان يتمتـــع بنفوذ واسع في تلك الفترة وهو (فيليب آلين / وهو الآن اللورد آلين أبيدايل ، وعضو لجنة الأمن) . اما (فيكتور) فقد أصبح بالفعل (لورد ويغ) حكومة (هيث) . وحالما أصبح داخل مكتب رئاسة الوزراء ، قام بتشكيل فريق عمل مع (ديك وايت) الذي كان قد عين أخيراً كمنسق لاستخبارات رئاسة الوزراء بعد تقاعده من (م آي ٦) مباشرة . وباجتماعهما معاً ، فانهما قدما للاستخبارات البريطانية افضل صورة لها منذ فترة ما بعد الحرب .

وكان أروع انجاز قام به (فيكتور) لصالح (م آي ٥) هو ايجاد خليفة لـ (فيرنفال جونز) . فلم يكن هذا الأخير محبوباً في (الوايت هول) في أي وقت من الاوقات ، وكان سيد نفسه زيادة عن

اللزوم ، واكثر سرية حتى بالنسبة لقلعته السرية تلك . ومن الطبيعي ان يكون من حق المدير العام الراحل أن يختار خليفته ، غير ان وزارة الداخلية ، وعلى وجه الخصوص (فيليب آلين) قررت ان الوقت قد حان كي تقوم هذه الوزارة بممارسة سلطتها مع اقتراب موعد تقاعد (فيرنفال جونز) عام ١٩٧٢ . وكـان (الين) علـى قناعـة بـوجـوب تعيين رجل من خارج الجهاز . فقد كانت الشكوك تساوره في (م آي ٥) وكان يخشى ان تكون قد أصبحت مستودعاً للفضائح . وكان يعرف فقط القليل من التفاصيل السطحية عن مدى الاضرار الكاملة التي لحقت بالبعض نتيجة لمطاردات الخُلد . غير انه كان يعرف عن (بلنت) و (لونغ) وكان يعرف ما يكفي لاثارة قلقه . وكان قد أبدى انزعاجه بما بدا له من استخدام الحصانة التي تمنح الى الفرسان ورجال الشهامة ، وكذلك المعيار السيء لادارة (م آي ٥) . كان يـريد أياد تكون أمينة على دفة توجيه المؤسسة : شخص يمكنه ان يخبره بما يجري ويمكنه الوثوق به .

وتقاعد (سيمكنس) أخيراً ، وكان ذلك من دواعي ارتياحي ، وذلك قبل حوالي السنة من موعد تقاعد (فيرنفال جونز) المقرر . وحل مكان (سيمكنس) مباشرة (ميشال هانلي) . كان (هانلي) فيما يتعلق باهتمامات (آلين) بالموضوع شخصيا تعوزه الخبرة الكافية ، و الاستقلالية التي تكفي لشغل قمة هذا المنصب . أما مرشح (آلين) المفضل فقد كان (السّير جيمس واديل) نائب وزير الداخلية ، والمسؤول عن شؤون الشرطة والأمن ، اضافة الى قيامه بعمليات الارتباط والاتصال اليومي بين (م آي ٥) ووزارة الداخلية . كان (واديل) موظفاً رفيع المستوى ، و يمكن الاعتماد عليه ، وقد أضاع فرصة الوصول الى منصب سكرتير دائم بأي طريقة من الطرق . وكان (آلين) يريد تعيينه كمدير عام لجهاز الأمن باعتباره قدم له خدمات كثيرة ، وأظهر له الولاء التام .

وفي داخل أوساط (م آي ٥) نظر باهتمام بالغ الى امكانية تعيين (واديل) ، اذ انه كان شخصا مدققا جداً ، يصر على وضع النقطة الأخيرة ، والفاصلة في طلبات تصاريح التفتيش . وكان يفتقر الى خبرة ضابط الاستخبارات كي يحوز على احترام كبار الضباط . وشعر الكثيرون من أن عمليـة تـرشيحـه هـي مـن ضمـن اهتمامـات ومصلحة (الوايت هول) وان ذلك سوف يعيد جهـاز الاستخبارات الى الـوراء عقداً من الزمن ، وبنفس الطريقة التي سبب بها تعيين (ريني) كرئيس لـ (الفرع ج) – قبل بضعة سنوات من ذلك – هبوطا هائلاً في معنويات (م آي ٥) .

وكان هنـاك اعتبار آخر ايضا بالطبع . فقد كانت هناك الكثير من الأسرار التي احتفظت بها (م آي ٥) ولم تكشفها لأسيادها السياسيين والعاملين في الخدمة المدنية ، وكان آخر ما يريده أي شخـص فـي (م آي ٥) في تلك المـرحلة هو أن تصل القصة المتفجرة المتعلقة بمطاردة الخُلد الى (الوايت هول) .

اما اول مـــرة سمعـــت خلالها عن مشكلة الخلافة ، فقد كانت في أواخر عام ١٩٧١ حينما ذكر (فيرنفال جونز) ذلك . وقد اخبرني انه مصمم على ايقاف تولي (واديل) رئاسة الجهاز ، وقال انه اتصل مع (ديك وايت) طالباً منه المساعدة . غير ان الوضع بدا كئيباً . وكانت لجنة تتألف من سكرتيرين دائمين برئاسة سكرتير رئاسة الوزراء ، ومرتبطة بلجنة أختيار تعيينات المناصب العليا قد زكت ترشيح (واديل) . وعلى الرغم من ان (فيرنفال جونز) كان قد اقترح اسم (هانلي) الاّ انه لم يتلق أي رد اطلاقاً . فقد كان جديداً جداً ، وتعوزه الخبرة ، كما ان كبار الموظفين لا يعرفون عنه الاّ القليل . وسألني (فيرنفال جونز) :

" هل هناك مايمكنك القيام به مع صديقك القوي ؟ " .

قال ذلك ، مشيراً بطريقته المعتادة الى (فيكتور) .

في تلك الفترة كنت ألتقي مع (فيكتور) مرة في الاسبوع ، وعلى نحو غير رسمي ، وكنت ألقاه أحيانـــا فـــي غرفته في مكتب رئاسة الوزراء ، وفي غالبية الأحيان في منزله . وخلال زيارتي التالية لـــه ، أثـــرت موضوع الخلافة . كانت تلك القضية تمتلك كافة العناصر الصحيحة التي تشعل خيال (فيكتور) الذي يعج بالمؤامرات والسرية .

أخبـــرني أن (ديك وايت) أعلمه عن الوضع ، وانه أيد تعيين (هانلي) لشغل المنصب . وكان (ديك) قد فكر في بداية الأمر ان يقوم بدعم تعيين (موريس أولدفيلد) . اما (السّير جون ريني) والذي كان تواقا للتخلص من الرجل الذي يدير (م آي ٦) بفعالية ، على الرغم من انه هو نفسه كان الرئيس الفعلي ، فانه قد اقترح اسم (أولدفيلد) . الاّ ان هذا الأخير صرح بانه كان يفضل الاّ يشغل هذا المنصب ، وأن ينتظر فرصة أخرى ليشغل منصباً كمدير لـ (الفرع ج) وذلك عند تقاعد (ريني) . وقـــد تقاعـــد (ريني) بالفعل في وقت مبكر ، بعد الاعلان عن ان ابنه قد أدين بتهمة تعاطي المخدرات ، وقد خلفه (أولدفيلد) حينذاك .

وسألني (فيكتور) :

" هل يريد الجهاز (هانلي) ؟ " .

وغالبا ماكان يستخدمني كاداة لسبر غور الجهاز ضد رأي الادارة ، فقلت :

" بالتأكيد " . فقال :

" هل لديك شيء ضده ؟ " .

وأخبرته بقضية (هاربيت) . وعلى الرغم من ان (فيكتور) كان على علم سابق بالشكوك التي تســـاورني حـــول قضية الاختراق ، وانني بحثت معه قضيتي (هوليس) و (ميتشل) فان قضية ان (هانلي) كان موضع شكوك لدي كانت شيئاً جديداً بالنسبة اليه .

وأخبرته أنني مقتنع تماماً ببراءة (هانلي) وان هذا هو موقف الامريكيين ايضا . وأعلمته ان الجهاز يقف وقفة المستميت ضد تعيين (واديل) وبأن متاعب خطيرة ستظهر – دون أدنى شك – إن تم تعيينه في هذا المنصب . وأضفت :

" اننا بحاجة الى كل مساعدة يمكننا الحصول عليها يا (فيكتور) " .

أجابني بعد لحظة صمت ، وقد بدت هيئته كهيئة موظف كبير مسؤول :

" لن يحب (تيد) هذا " .

ثم رمى بالحجاب غير المناسب جانبا ، وعاد الى طبيعته التآمرية ، الاكثر ملاءمة له . وتمتم :

" لنر ما يمكننا القيام به " .

ثم طلب مني اتخاذ ترتيبات لعقد لقاء بينه وبين (هانلي) في أقرب فرصة .

كنت أنا و (هانلي) قد عملنا على اقامة علاقة عمل معقولة خلال تلك الفترة ، وكانت قضية (هارييت) حاجزاً تحول دون دفء العلاقة بيننا ، غير انه تعامل معي بطريقة مستقيمة ، وحاولت ان اكون متعاوناً قدر الامكان ، مرشداً اياه في تنقله خلال العشرين سنة الماضية من مهنة مكافحة التجسس وكأنني سائق ماهر ، مشيراً الى المناظر الجميلة ليعجب بها ، ومتجنبا المطبات . كنت أعرف بانه سيشمخ بأنفه حينما أخبره بلقائي مع (فيرنفال جونز) و (فيكتور) فقد كانت هناك آثار من الاشتراكية تحيط بـ (هانلي) والتي تظهر عليه حين يتكلم عن انجازه العمل نتيجة لقدراته ، وليس نتيجة لشبكة من الوساطات ومن الكبار . لكن الطموح في النهاية هو أفضل سيد للانسان ، فوافق على ان يذهب معي الى شقة (فيكتور) الفخمة في (جيمس بلايس) . شربت كأساً ، وانسحبت بلباقة لأذهب الى النادي ، حتى اتيح لهما حرية الكلام . وفي اليوم التالي ، اتصل (فيكتور) هاتفيا بي ، وقال :

" انه اختيار حسن . . . لا بد أن نلتقي الليلة ونضع خططنا " .

في تلك الليلة ، و أثناء شربنا لخمرة الكلاريت الفرنسية الرائعة ، وضعنا خطة الحملة التي سنقوم بها . كان من الواضح ان (ديك وايت) قد فشل في الضغط على زملائه من كبار الموظفين ، أو على (تيد هيث) من اجل ان يقوموا باختيار مرشحه ، سيما وان (ديك وايت) نفسه غالبا ما تعوزه الثقة بنفسه حينما يتعلق الأمر بأمر من أمور الموظفين ، ولا يكون قادراً على استجماع نباهته للضرب على الطاولة . لم يكن ذلك اسلوبه على الاطلاق بالطبع ، ولا ريب في ان فشله في حياته العملية كان بسبب عجزه عن اختيار التعيينات الجيدة . وغالباً جداً ما كانت عاطفيته أو استقامه رأيه يخونانه . فقد رفع رتبة كل من (هوليس) و (كمنغ) في (م آي ٥) الى أعلى مما يستحقان ، وعجز عن اصدار أوامر حازمة باجراء عملية تطهير ضرورية في (م آي ٦) بعد هروب (فيلبي) الاّ بعد أن فات

الأوان . وكان الامر كذلك فيما يتعلق بـ (هانلي) . فقد كان يعرف ما هو الافضل بالنسبة للجهاز ، غير انه بدا غير قادر على الامساك بالقُرّاص ، وان يتصرف .

ومن الانصاف أن نذكر بانه لم يكن يتمتع بعلاقات جيدة مع (ادوارد هيث) اذ ان اسلوبيهما لم يكونا متشابهين . فقد كان (ديك وايت) يعبد (هارولد ماكميلان) وكان الرجل العجوز العظيم يكن احتراماً كبيراً لرئيس استخباراته . وكان على علاقة حسنة أيضاً مع (هارولد ويلسون) . فقد كانا يشتركان في ميزة مرونة العقل ، وقدّر (ويلسون) اسلوب (ديك) الواثق و المريح في الامور المزعجة كقضية روديسيا حق قدره . غير ان (هيث) كان رجلاً متسلطاً ، مستبداً برأيه ، وغريباً تماماً عن كل ما واجهه (ديك) من قبل ، فوجد نفسه عاجزاً – وعلى نحو متزايد – عن وضع طابع شخصيته على رئيس الوزراء .

راجعت مع (فيكتور) كافة الخيارات ، وأخذنا بعين الاعتبار – عند إحدى المراحل – فيما اذا كان بامكاننا ترشيح (فيكتور) نفسه كمرشح بديل . وقد كنت أعرف سراً بانه كان يسعى لشغل هذا المنصب منذ سنين عديدة، الاّ انه كان يدرك انه اكبر سناً من ان يشغل هذا المنصب ، على الرغم من ان تعيينه فيه كان سيكون تعيينا رائعاً ، ويحظى بشعبية من الجميع . وعلى أي حال ، فان (دبابة التفكير) كانت تحديا حقيقياً لرجل يتمتع بآفاقه العلمية .

وناقشنا قضية حشد الدعم من قبل الاوساط العلمية ، وقررنا بأن على (فيكتور) الاتصال بأناس مثل (السّير وليام كوك) للحصول على دعم (هانلي) . وأخبرني (فيكتور) بانه سيعمل على ترتيب اجتماع آمن مع (هيث) . وقال :

" ليس من الجيد ان يتم رفع الأمر الى رقم ١٠ * على نحو رسمي . فحالما يرى (روبرت آرمسترونغ) ، ذلك الأمر أو يسمع به ، فان ذلك سرعان ما سيصل الى نواب الوزارة الدائمين " .

كان (روبرت آرمسترونغ) السكرتير الرئيسي الخاص لـ (هيث) وهو اليوم سكرتير رئاسة الوزراء ، ورئيس الخدمة المدنية الوطنية . وقد كان شخصية رئيسية في عملية الصراع على السلطة ، لانه لم يكن هناك شخص آخر له اتصال دائم ووثيق مع (هيث) اكثر منه . وكانت أي اشارة ذات طبيعة توحي بالالتماس يتقدم بها (فيكتور) سترسل بالتأكيد الى لجنة نواب الوزراء . ولذلك ، فقد قرر (فيكتور) ان أفضل خطة عليه القيام بتنفيذها هي أن يتصل مع (هيث) في اللحظة التي لا يكون فيها هذا الأخير تحت الحراسة ، أي حين لا يكون (آرمسترونغ) موجوداً . وكانت أفضل فرصة لذلك هي مؤتمر (دبابة التفكير) التالي ، والذي سيعقد في عطلة نهاية الاسبوع بعد

* رقم ١٠ : يقصد به مقر رئاسة الوزراء البريطانية الواقع في ١٠ داوننغ ستريت (المترجم)

أسابيع ، وسيكون مخصصاً لـ " لعبة الداما " . قال لي :

" سأصطحـــب (تيد) في نزهة على الاقدام في الحديقة ، حيث لا يستطيع (روبرت) سماعنا ، وسألوي أذنه . . . " .

عندما حدث ذلك ، كنت قد بدأت أرى (روبرت آرمسترونغ) كثيراً ، وكنت حينذاك أقوم بمراجعة (فينونا) الامريكية . وكان هناك اسم سري معين ، وغير معروف ، قد بدأ يثير اهتمامي على نحو خاص . وقد ظهر هذا الاسم في حركة الاتصالات على انه " العميل رقم ١٩ " . وكان من الواضح ان هذا " العميل رقم ١٩ " كان عميلا سوفييتيا على درجة من الأهمية ، اذ انه تمكن من نقل تفاصيل سلسلة من المحادثـــات الهامـــة جـــداً التي جرت أثناء الحرب بين (تشرشل) و (روزفلت) خلال محادثات (ترايدنت) التي جرت في شهر حزيران ١٩٤٣ .

كان الامريكيون قد افترضوا ان " العميل رقم ١٩ " هو (ادوارد بينيز) رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابق ، والذي كانت مكافأته على عمله كأداة للسوفييت طيلة حياته هي الاطاحة به عن السلطة بشكل مخز عام ١٩٤٨ . كان (بينيز) قد حضرمحادثات (ترايدنت) وكان معروفاً تماماً بانه قناة معلومات استخباراتية لصالح الروس . ومع ذلك ، وحينما نظرت في نص الرسالة نفسها ، بدأت الشكوك تساورني تماماً بهذا التفسير . فقد كانت معلومات المحادثات التي يرسلها " العميل رقم ١٩ " عبارة عن مناقشات غير رسمية على نحو واضح بين (تشرشل) و (روزفلت) حول الخطط الخاصة بالجبهة الثانية ، وخاصة حول التحركات البحرية والمتعلقة بأمور الشحن . وقد جال بخاطري فجأة بان من غير المحتمل ان يكون قد سمح لـ (بينيز) بحضور هذه المحادثات ، سيما وان تشيكوسلوفاكيا لم يكن لديها أي سفن على الاطلاق ، لأنها بلاد محاطة بالارض اليابسة من جميع الجهات .

وبدأت أتساءل فيما اذا كان من المحتمل ان يكون " العميل رقم ١٩ " هو شخص أقرب الى الوطن . وكانت المهمة الاولى تتمثل في تحديد مكان أي سجل من السجلات البريطانية المتوافرة عن الاجتماعات التي عقدت بين (تشرشل) و (روزفلت) خلال محادثات (ترايدنت) لأرى فيما اذا كنت سأستطيع ان أجد سجلاً للاجتماع الخاص ، الذي أشار اليه " العميل رقم ١٩ " ومن ثم ان أجد قائمة باسماء الاشخاص الذين حضروا ذلك الاجتماع ، إن كان الامر ممكناً .

وكانت عملية البحث عن شبح محادثات (ترايدنت) أغرب تجربة خضتها خلال حياتي العملية . قام (فيكتور) بترتيب عقد لقاء لي مع (روبرت آرمسترونغ) الذي كان متعاوناً الى درجة كبيرة . كان موظفاً رفيع المستوى ، وسريع الصعود في سلم الترقيات ، وقد رشح من قبل لشغل منصب سكرتير رئاسة الوزراء في المستقبل . ولأنه كان بحاجة لدعم الاستخبارات للوصول الى هذا المنصب ، فانه كان تواقاً لاقامة علاقات ودية ، فاندفع على نحو صبياني بمهمة البحث في (١٠ داوننغ ستريت) عن أي

سجلات متوافرة . غير اننا وبعد أسابيع عديدة ، عدنا بخفي حنين .

واقتــرح (آرمستــرونــغ) ان أقــوم بالاتصــال مع اللــورد (اسماي / رئيس اركان تشرشل السابق) ومع (السّير جون كولفيل) سكرتيره الخاص السابق . غير انهما لم يكونا حاضرين في هذه المناقشات الخاصة ، على الرغم من انهما تذكرا محادثات (ترايدنت) . وحاولت مع (ماري تشرشل) غير انها هي الأخرى لم يكن لديها أي سجلات ايضاً . ورتب (آرمسترونغ) عقد لقاء بيني وبين (مارتين غيلبرت) مؤرخ (تشرشل) . وكان احد سكرتيري (تشرشل) الخاصين يحتفظ بسجــل عــن ارتباطات (تشرشل) اليومية أثناء شغل هذا الأخير منصب رئيس الوزراء . وكانت لدى (غيلبرت) كل المجلدات الخاصة بهذه السجلات . ربما كان هنا سجل . وحددت لـ (غيلبرت) التاريخ المتعلق بالأمر ، فبحث في المذكرات المفهرسة . وقال :

" يا اله السموات ! إن مذكرة ذلك التاريخ خالية." .

وهكذا ، فان البحث عن " العميل رقم ١٩ " قد غاص في الرمل ، وبقي حتى هذا اليوم لغزاً لم يتم حله .

وترافـق الصـراع حول خلافة (فيرنفال جونز) مع الفترة التي وصلت فيها عملية البحث عن " العميـل رقـم ١٩ " الى أوجهــا ، فاقترحت على (فيكتور) ان أقوم أنا - وليس هو - بسبر غور (روبرت آرمستــرونغ) حــول هذا الامر . فقد كان من الأهمية بمكان ان يبقى وضع (فيكتور) محايــداً ، لكن أحداً لا يستطيع أن يلومني على فتح جبهة موضوع الخلافة . وفي زيارتي التالية الى (١٠ داوننغ ستريت) أشرت اشارة خفيفة الى المخاوف التي تسود في (م آي ٥) فابتسم .

وقال :

" لقد جمعت الاوراق ضدكم ، ولا أظن ان من المجدي السير بهذه القضية قدماً " . وأخبرته بان الرجال الحكماء اذا كانوا مصممين على ترشيح (واديل) فانهم بذلك يرتكبون غلطة . وقلت له :

" لم نكن في أي يوم من الايام موظفين في الخدمة المدنية ، وسيغرق (واديل) في هذا المنصب حتى أذنيه . . . وسيقوم بدوره في هذا المنصب ، متقيدا بالقوانين اكثر من اللازم " .

وخان (آرمسترونغ) نفسه قليلا ، واخبرني بما كنت أعرفه سابقاً ، من ان السكرتيرين الدائمين يدعمون (واديل) . فقلت بمرارة :

" يريدون مكافأته فقط ، ولا يستطيعون ايجاد وظيفة رفيعة المستوى له في أي وزارة أخرى "

ضحك (آرمسترونغ) وقال :

" أوه ، لا ، لسنا على ذلك النحو من التآمر يا (بيتر) " .

والتقيت مع (فيكتور) بعد بضعة أسابيع ، وكان قد تمكن من مقابلة (هيث) تحت أشعة

الشمس في مؤتمر لعبة الداما ، وأخبـره عن المقاومة القوية داخل (م أي ٥) لتعيين شخص من الخارج . وكان (هيث) متعاطفاً ، غير انه أوضح أنه لا بد ان يكون لديه سبب وجيه حتى يرفض مشورة الخدمة المدنية التي صدرت عنهم بالاجماع . غير ان (فيكتور) تمكن في النهاية من اقناعه بلقاء المرشحين كل على انفراد .

كانت تلك عملية اختراق رئيسية ، فقد كنا جميعنا على ثقة بان (هانلي) سيترك انطباعاً عن قـوة شخصيته لدى (هيث) في حين ان ضعف شخصية (واديل) لن يكون في مصلحة الأخير بالتأكيد . وحين علم (هانلي) بالأمر ، تغيرت تصرفاته ، اذ كان يرى ان الأحداث تسير لصالحه. لذلك فقد دخل الى غرفة مكتبي بعنجهية ، وأخبرني بانه سقابل رئيس الوزراء في اليوم التالي . وقال :

" لا أحتاج الى أي تعليمات منكم ، شكراً جزيلاً " .

وظننت ان الاعلان عن التعيين سيصدر بسرعة . غير ان الايام مرت ، ولم نسمع شيئاً ، وكانت الهوائيات منصوبة خارج قرية (الوايت الهول) لالتقاط اشارة النتيجة ، وكنت أدقق في كل زيارة أقوم بها الى وزارة الداخلية في آخر لعبة التعيينات التي تمت . لكن ، لم يكن هناك أي خبر سوى اللازمة التي تتردد باستمرار : " لن يقبل (فيليب آلين) بـ (هانلي) مقابل أي ثمن " .

في نهايـة الاسبوع ، سافـرت أنا وزوجتـي الـى (دولغيلو) في (ويلز) لشراء أبقار في مزاد للمزرعة التي اشتريناها حديثاً في (كورنوول) كي نقضي فيها أيام التقاعد . فمنذ التحقيق مع (هوليس) وبعد رحيلي عن القسم (د ٣) بدأت أخطط للعودة الى حياة الزراعة ، والى مستقبل أقل ألماً ، بعيداً عن الممرات الهامسة ، وجبال الاوراق الخاصة بـ (م أي ٥) . وكانت (الوايت هول) هي آخر ما يخطر ببالـي ، عنـدما كـان المزايدون يقعقعون في حركتهم ، وهم يتكلمون بلهجة ويلزية لا يمكن اختراقها (فهمها) . وكانت الثيران والابقار الصغيرة تصفع لتدخل وتخرج من الحلبة الصغيرة المزدحمة ، وأصحابها يصيحون ، ويصفرون ليبقوا حيواناتهم في حالة يقظة .

وفجأة ، تناهى اليّ صوت من خلال مكبرات الصوت :

" هل يتفضل السيد (رايت) من (لندن) بالحضور الى المكتب لتلقي مكالمة هاتفية . . " .

زاحمـت من أجـل شق طريقي عبر الشرفة المزدحمة بمئات المزارعين الويلزيين المزدحمين بشـدة ، وكل منهـم يشـرئب بعنقـه ليـرى ما يجـري في الحلبة . أخيراً ، وصلت الى المكتب الصغير ، والتقطت سماعة الهاتف . كان المتحدث هو (فيكتور) اذ قال :

" هل تعرف ما الذي فعله اللوطيون الآن ؟ " . فقلت :

" ما الذي تتحدث عنه يا (فيكتور) ؟ " . قال :

" لقد قاموا بتبديل الخيل . . انهم يريدون تعيين شاب يدعى (غراهام هاريسون) فهل يعني

هذا الاسم لك شيئاً ؟ " . صحت قائلاً :

" لن يقبلوا به على الاطلاق . . فقد كان صديقا لـ (بيرغس) و (ماكلين) " .

وتذكرت فجأة أين أنا . لكن لم يكن هناك داع للقلق ، اذ ان الكاتب الموجود في الغرفة تابع عمله الاداري في أرقامــه ، غيــر منتبه الى الحديث . وأخبرت (فيكتور) انني سأتصل به حال عودتي الى (لندن) .

كان (فرانسيس غراهام هاريسون) نائب سكرتير أيضاً في وزارة الداخلية . وعلى الرغم من انه لم يكن هناك مايشير الى انه كان جاسوساً ، الاّ انه كان صديقا مقربا من (غاي بيرغس) كما كان عضواً في جماعة (اوكسفورد) التي ضمت (جنيفر هارت) و (آرثر واين) . وكان تعيين رجل لــــه علاقـــات علـــى ذلك النحـــو أمراً بشعاً اذا جـاز لـــي استخــدام تعبير (فيرنفال جونز) . وقلت لـ (فيكتور) ان الجهاز لن يقبل هذا التعيين اطلاقاً .

في مطلع الاسبوع التالي ، اتصل (فيكتور) بي ، وقال :

" سيصدر اعلان في الغد ، وأظن انه سيسرك . . " . قلت :

" كيف عرفت بهذا ؟ " . قال :

" أمسكت بأذن (ديك) وأخذته لمقابلة (تيد) . وقد أخبرناه كلانا ان تمرداً سيحصل ما لم يتم تعيين (هانلي) وتفهم الرجل الوضع " .

واستدعى (فيرنفال جونز) عدداً من كبار الضباط ليخبرنا انه تم تعيين (هانلي) أخيراً . وقال لي (فيرنفال جونز) بوقار :

" لقد كانت حملة صعبة ، غير انني كسبتها في النهاية " .

وأجبته بصراحة :

" انني سيعد جداً لسماع هذا يا سيدي " .

وقبل ان يتقاعد (فيرنفال جونز) بفترة وجيزة ، التقيت به في اجتماع قصير ، تمت خلاله مناقشة الوضع الخطير الذي يكاد يتفجر في شمال ايرلندا . ومن الواضح ان ذلك الوضع سيكون المشكلة الرئيسية التي ستواجه خليفته . كان يخشى من ان ذلك سيعمل على تهديد كل ما كان قد فعله منذ عام ١٩٦٥ لبناء مقدرة (م آي ٥) لمكافحة التجسس . وقد طلب من وزارة الخزانة الحصول على مزيد من الموارد المالية ، غير انها رفضت ذلك . كانوا قد طلبوا من (فيرنفال جونز) ان ينقل مصادر مالية من بند مكافحة التجسس الى بند مكافحة الارهاب ، اذ ان طرد الدبلوماسيين الروس البالغ عـــددهم مائـــة وخمسة قد أزال خطر الـ (ك ج ب) لمدة جيل كامـل ، حسبما تصوروا ذلك . اما (فيرنفال جونز) فقد كان يرى ان الرضى عن الذات ، هو الطريق الذي سيؤدي الى خسارة المكتسبات

التي حققها تماماً . بدا (فيرنفال جونز) تعباً ، فقد كان يتوق الى رفع العبء عن كاهله . كـــان رجلاً قليل الكلام ، غيـر انني كنــت أشعر انه كان يود ان يتكلم . كان مسروراً لتركه منصبه كما قال ، فقد اختفت متعة العمل كله . وكان يشعر بالقلق على وضعه المالي ، فعلى الرغم من حياته التي توحي بجو السادة الاّ انه لم يكن ثرياً . كان يملك بيتاً في (هامبستيد) لكن ابنته كانت شابة ، وكان من الواجب عليه ان يعلّمها . وقد تكلم بمرارة عن اضطراره لبيع نفسه في السوق كمستشار للأمن في الوقت الذي كان يجب عليه فيه ان يتقاعد لمزاولة هواية مراقبة الطيور الجميلة . (وقد أصبح بالفعل مستشار الصناعات الكيماوية الامبراطورية : آي . سي . آي) .

سألني وهو يقوم بتنظيف غليونه ، ويمصه ، وينظفه بعصبية الى حد ما :

" حسناً ، كيف ترى ما قمت به ؟ " . فسألته :

" هل تريد أن تعرف بصدق ؟ " . أوما برأسه موافقاً ، فقلت :

" لقد وصلت الى القمة في معالجتك لموضوع المشكلة الروسية ، غير انني لا أرى انك قمت بايجاد نوع من العلاقة والاتصال الصحيح مع الضباط العاديين " .

بدا مجروحاً من هذا الكلام على نحو يثير الدهشة ، وقال :

" كان يجب ان تعلمني عن هذا " .

لقد أحببت (فيرنفال جونز) على الدوام ، وأظن ان معظم كبار الضباط كانوا هم الآخرين يكنون له الحب ايضاً . لم يكن مضحكا على الاطلاق ، على الرغم من انه كان يرى عبثية حياته ومهنته . وسأذكر دائماً سفرتي معه الى استراليا لحضور مؤتمر (كازاب) الاول عام ١٩٦٧ . فحين اقتربنا من حاجـــز جـــوازات السفـــر كانت هناك مجمـــوعة من مسؤولي هيئة الأمن والاستخبارات الاسترالية ، بانتظارنا ، لاستقبالنا عند الجانب الآخر . سلّم (فيرنفال جونز) جواز سفره .

تشدق ضابط جوازات السفر مشيراً الى قيد المهنة في جواز سفر (فيرنفال جونز) وقال :

" ما هذا ؟ " .

كانت كلمة " سيّد " مسجلة في خانة المهنة ، فقال (فيرنفال جونز) باسلوبه الارستقراطي :

" تلك هي مهنتي . . ليست لدي مهنة أخرى . أنا سيّد . أليس لديكم أسياد هنا ؟ " .

وقف الاسترالي ، حتى بان طوله الكامل . غير انني – ولحسن الحظ – تمكنت من لفت انتباه مسؤولي هيئة الامن والاستخبارات الاسترالية ، الذين سارعوا الى معالجة الوضع ، ودفعوا بنا بسرعة الى الجهة الأخرى . وقد ظل (فيرنفال جونز) مشرقاً وسعيداً ، بقية طوال اليوم ، كما لو كان قد حقق وحده نصراً عظيماً لفريقه في المباراة .

كان (فيرنفال جونز) يدير المكتب بروح من الديمقراطية المنتخبة . فاذا كنت ضابطا عالي

الرتبة ، وكنت من الموثوق بهم ، فان بابه يكون مفتوحاً لك دائما ، بل انه يرفع الكلفة . ومع هذا ، فانه ظل بعيداً عن الضباط الشباب ، الأمر الذي جعله مغمض العينين عن الاستياء الذي كان ينتشر .

لقد حزن القليلون في (الوايت هول) على تركه العمل . وعند وصول النزاع حول خليفته الى الذروة ، تقدم بعرض كي يبقى في منصبه مدة سنة أخرى ، كي يتيح المزيد من الوقت امام (هانلي) للقيـــام بـــدور نائب له . غير ان وزارة الداخلية لم توافق على هذا . كان يقول الحق ، وكان السياسيون ، والموظفون المدنيون يكرهونه لصراحته هذه . كما كان يحتفظ بالأسرار ، ولذلك فانه كان موضع خوف وشكوك .

وخلال سنة ، ترك (ديك وايت) الخدمة ايضاً ، ففقدت الاستخبارات البريطانية بذلك أهم اثنين من منفذي سياستها . ومن الصعوبة بمكان ان لا يقدر المرء مساهماتهما حق قدرها . فقد كانا شخصين ، يتمم كـل منهمـا الآخـر على نحــو متكامل : كان (ديك وايت) مفسر استخبارات حاذق ، و ملطفا للمشاعر في (الوايت هول) و (دوانتغ ستريت) في حين كان (فيرنفال جونز) رجلاً خشنا ، يرسل التحذيرات ، وينقل الأخبار السيئة .

وقد كنت – خلال عشرين سنة – على خلاف معهما حول موضوع واحد ، وهو : الاختراق على مستـــوى عال . وسيحكم التاريخ ، انهما لم يكونا قط على استعداد لدفع عجلة الموضوع بقوة الى الأمـــام . ولـذلك ، فانهمـا سمحا للقــرارات ان تمضـــي ، ولكن دون ان تكون على مستوى من الحسم ، وبأن تفســـد القضية ، الأمر الذي أدّى الى حدوث أضرار اكثر مما كان يمكن ان تكون عليه لو كان الوضع غير ذلك . لكن – ومن جانب آخر – فان ما ساهما به كان هائلاً . لقد أصبحا صلة الوصل بين العالمين : القديم والجديد ، وفرضا احترام اجهزة الاستخبارات البريطانية في جميع انحاء العالم .

٢٣

بدا (هانلي) قلقا حين انتقل الى مكتب المدير العام في البداية . فقد كان يعرف ان تعيينه قد أثار الكثير من الجدل ، الامر الذي دفعه لأن يتحرك بحذر اكبر مما لو كانت طريقة تعيينه قد تمت على غير تلك الصورة . وقد أراد ان يدخل السرور الى قلب اسياده السياسيين في (الوايت هول) وأن يطمئنهم ، فقام بتسويات ما كان رجل اكثر اطمئنانا يقوم بها ، وهو في منصبه ذاك .

كان (هانلي) رجلاً ذكيا ، ومتفوقا على (فيرنفال جونز) عقلياً ، غير انه كان يفتقر الى قوة الشخصية التي عرف بها (فيرنفال جونز) . ولم أكن لأثق به كما كان الأمر عليه مع سلفه . اما ابتعادي عن المكتب فقد بدأ حالما غادره (فيرنفال جونز) . وبدأ الجهاز يتغير ، وكانت تلك السنوات الاربع الأخيرة بمثابة وداع طويل لذلك المكتب .

كانت التغييرات طفيفة في البداية : أشياء سخيفة كإحجام (هانلي) عن عرضه على زملائه لنقلهم في سيارته التي يقودها سائق خاص ، وذلك على النقيض من (فيرنفال جونز) . ثم أخذت تلك التغييرات تبرز على نحو أوضح ، فقد تم نقل المكاتب من (ليكونفيلد هاوس) الى شارع (مارلبورو) ثـــم الى الاماكن الكئيبة في شارع (غوور) فاقترحت على (هانلي) الانتقال الى موقع يمتاز بالخضرة – الى (شلتنهام) على سبيل المثال – غير انه أصر على بقائنا في (لندن) . ثم بدأ يرقّي رتب رجاله . كانوا صغار السن ، و أذكياء ، غير انهم كانوا موظفين مدنيين : رجال أمن اكثر منهم رجال سلاح . وبدأت أدرك أن جيلاً منا كان يندثر . وعلى الرغم من كل الاختلاف بيننا ، فان كل اولئك الذين كانت لهم علاقة بعملية اصطياد الخُلْد الكبير – دون أي اعتبار للجانب الذي كانوا ينتمون اليه –

كانوا يختفون بسرعة . وهكذا ، فان عصر الرجال ذوي القدرات المتوسطة ، قد أخذ يحل مكان عصر الابطال .

بعد أن تسلم (هانلي) منصبه بفترة وجيزة ، استدعاني ليتحدث معي حول منصبي ، وقال :

" انني أثـق بـك يا (بيتر) وطالما بقيت أنا في هذا المنصب ، فانه سيكون لك عمل تقوم بـه هنا . . ." . قال لي ذلك ، مشيراً الى الكراهية المتزايدة التي أحاطت بسنيّ الاربع الأخيرة في القسم (د ٣) .

واضاف انه يعتقد ان من الواجب علي أن أترك عملي كمستشار لـ (الفرع ك) وأن أعمل معه شخصياً . قال لي :

" أريدك أن تأتي لتعمل مستشاراً خاصاً لي لشؤون التجسس المضاد . ستكون غرفة مكتبك بجوار غرفة مكتبي ، وستطلع على كل ورقة ، كما كان الامر عليه في السابق . غير انني أريدك ان تبحث لي عن مشاكل جديدة . لا أريدك ان تبقى محاطاً بالقضايا الحالية لـ (الفرع ك) . اريدك ان تنظر الى الأمام " .

ووضعنا برنامج عمل جديد ، كان بعضه مما كنت أميل اليه ، في حين كانت أجزاؤه الاخرى على النقيض من ذلك . كان يريد مني أن استمر في متابعة برنامج (فينونا) ووافق على انه يجب ان نبادر الى القيام ببحث شامل ، وفي جميع أنحاء العالم ، عن اي حركة اتصالات باقية.

وأرادني أن أبحث في قضية ايرلندا ، فقال :

" انني بحاجة الى احدى افكارك النيرة يا (بيتر) . ابحث عما يمكنك القيام به " .

أراد مني أن أعمل في فريق عمل الكومبيوتر الذي كان يخطط لادخال سجلات (م اي ٥) في عصر الكومبيوتر ، وهي قفزة الى المستقبل ، من المقرر لها ان تتحقق في منتصف سنوات السبعينات . ولقد أثار القسم (د ٣) بصيرتي على نحو خاص في موضوع استخدام السجلات لمتابعة آثار المعلومات الرئيسية ، وأراد مني ان اطبق هذه التقنيات على اساس استخدام الكومبيوتر .

واعتقدت في البداية ، ان ايرلندا ربما تتيح لي فرصة عيش جديدة ، فقمت برحلتين الى هناك . وقد ذكرتني ايرلندا بقبرص . كان هناك نزاع عنيف لا يمكن حله ، وقد زادته حدة سياسة بريطانية متـذبذبة . ففي الوقت الذي ذهبت فيه الى هناك ، كانت الحكومة تعلن للعالم أن الوضع آخذ في التحسن . وأمضيت مدة اسبوعين وأنا أقوم بمراجعة سجلات كل عمليات التفجير التي جرت خلال ما يزيد على فترة اثني عشر شهراً . ورسمت رسماً بيانيا ، وتوصلت الى نتيجة مفادها ان أوزان الانفجـارات التـي تنفـجر كانـت تتخذ منحى متصاعداً بحدة . فأي وضع متحسن من ناحية الأمن ! لكن الذي حدث ، هو ان الجيش والسياسيين رفضوا مواجهة الواقع ، تماماً كما كان الحال

عليه في قبرص .

وكانت التوصية الرئيسية الوحيدة التي تقدمت بها ، هي ان نقوم بوضع نظام تنصت على خطوط هواتف الجمهورية الايرلندية . كانت الخطوط عبر الحدود مغطاة تغطية جيدة ، لكن اتصالات الجيـــش الجمهـــوري الايرلندي الهامة كانت تتدفق في الاتجاهين من الساحل الغربي للجمهورية الى (دبلن) . وابتكرت خطة لاستقبال الموجات القصيرة (الميكروويف) من على عليّة السفارة البريطانية في (دبلن) مستخدماً في ذلك جهازاً لا يزيد حجمه على حجم صندوق شحن (طرد) . غير ان وزارة الخارجيـــة رفضـــت الخطة ، على الرغم من موافقة (م آي ٥) . وكانت هذه الفترة هي التي أدت الـــى توقيـــع ما يعرف باتفاقية (سنينغدال) . كانت وزارة الخارجية تخشى من امكانية تسرب الخطة ، وأوضحت لهم ان الدرس الأساسي المستخلص من القضية القبرصية ، يتمثل في عدم الاستقرار الكامن في الحلول السياسية التي يتم التفاوض حولها ، دون تأمين امتياز الأمن الحاسم . ولكنهم لم يصغوا لي . ولذلك ، فانني لم أدهش حينما انهارت اتفاقية (سنينغدال) .

وأصبت بالاحباط نتيجة اخفاق خطة (دبلن) وبدا الأمر لي بمثابة مقياس للمدى الذي وصلت اليه سيطرة البيروقراطيين . كان بامكاننا ان نعالج هذا الأمر قبل عشرين سنة دون أن يثير هذا أي قلق لدينـا . واقترحت دراسة امكانية القيام بزراعة مفجرات مفخخة في اماكن الجيش الجمهوري الايـرلندي . كان تلك الخطة تتماشى مع أعمال (م آي ٦) ومماثلة لنفس الخطوط العملية التي قمنا بها ، كخطة قبرص ، لزرع سماعات زائفة على اتصالات (غريفاس) لكن ادارة (م آي ٥) تخوفت من ذلك ، ورفضت المضي في بحث الخطة .

وقيل لي :

" تلك جريمة " . فقلت :

" إن أناساً أبريا، يقتلون ويشوهون كل يوم . أي سياسة تتوقعون من الشعب البريطاني ان يطلب منا اتباعها ؟ " .

كان الوضع في ايرلندا جزءاً واحداً فقط من عملية تحول حاسمة داخل (م آي ٥) نحو الاهتمامات الداخلية . فقد أدى تزايد الروح العسكرية بين أوساط الطلاب في سنوات الستينات الى تنامـــي الروح العكسرية الصناعية في أوائل سنوات السبعينات . وكان لاضراب عمال المناجم عام ١٩٧٢ ، وما تلا ذلك من توقف العمل في صناعة السيارات ، أثر عميق على تفكير حكومة (هيث) . وأصبح للنشاط الاستخباراتي حول عمليات التخريب المحلي الأولوية القصوى .

كان هـــذا المجال هـــو اكثر المناطق حساسية ، والتي يمكن لمدير عام (م آي ٥) الدخـــول فيه ، وهو يحتاج الى رجل قوي ليحافظ على استقلاليته ، واستقلالية الجهاز . وكان (هانلي) نتيجة

ظــروف تعيينــه غيــر ملائم للتعامل مع هذا الضغط . فبينما كان (فيرنفال جونز) بطل استقلال (م آي ٥) على الدوام ، قرر (هانلي) القيام بما يريد أسياده ، فشرع يزودهم – كمصدر محترف – بالمعلومات الاستخباراتية المحلية قدر المستطاع .

كان (الفرع ك) هو أعظم فروع (م آي ٥) الذي تفتخر الشعبة به بشكل تقليدي ، في حين كــان (الفــرع ف) أســوأها ، حيــث يبتعــد عنــه الضباط الاذكياء ، ويــديره مدمن خمر ودود ، بتكاسل وتثاقل . غير ان (هانلي) كان يصب الموارد المالية والبشرية في (الفرع ف) ويحجبها عــن (الفرع ك) وبــذلك ، فقــد ضاعــت مجموعة من ضباط التجسس المضاد اللامعين بما فيهم (ميشال ماك كول) ضياعاً تاماً .

امــا أهــم مــؤشــر علــى هــذا التغيير فقد حدث بعد تقاعدي ، وذلك حينما تم تعيين (السّير جون جونز) مديراً عاماً عام ١٩٨١ . فقد كان النجم الصاعد لـ (الفرع ف) في عملية اعادة التنظيم الجديدة التي قام بها (هانلي) . وحينما حصل على أعلى منصب ، أصبح أول مدير عام يصــل الى هذا المنصب – بعد هوليس – دون وجود أي خبرة شخصية لديه في شؤون التجسس المضاد . كان رجل (الفرع ف) منذ البداية وحتى النهاية ، ونظر الى تعيينه على انه التغيير الحاسم في مركز الثقل في (م آي ٥) .

فــي وقت مبكر من شغل (هانلي) منصب المدير العام ، دعى الى عقد اجتماع لكبار ضباط (الفــرع ا) و (الفرع ف) لبحث الشكل المتغير لاولويات (م آي ٥) وقد بديء الاجتماع بعرض قــدمــه (هانلــي) تحــدث فيه عن مناخ التخريب الذي يسود البلاد ، وتنامي – ما عبر عنه بقوله – " اليسار المتطرف الواسع " . وقال ان رئيس الوزراء ، ووزارة الداخلية لم يدعا له مجالاً للشك بانهما يريدان بذل جهد كبير في هذا المجال . ثم أحال الكلمة الى (دافيد رانسوم / ضابط طموح وشاب في الفرع ف) حيث لخص نشاطات وبنية عدد كبير من المجموعات اليسارية المنقسمة على بعضها مثل حزب العمال الثوري ، وحزب العمال الاشتراكي .

كــان (هانلــي) يحب الندوات ، فاستمر الاجتماع منعقداً طيلة معظم النهار . وقد أراد موظفو (الفرع ف) تخفيف القيود التي تتحكم باستخدام أجهزة التنصت على الهواتف ، وفتح الــرسائل ، و إقامة علاقة أوثق مع مكتب البريد . فقد كان العدو منتشراً في كل مكان ، واتصالاته واسعة ، وكنت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيعون من خلالها احكام قبضتهم على المشكلة . وكان (جون جونز) محامياً قويا ، وادعى ان (الفرع ف) يحتاج الى كل المصادر التقنية الحالية الموضوعة تحت تصرف (الفرع ك) . ولم تعد عملية ادارة العملاء حيوية لتكون الوسيلة الرئيسية للتغطية . وكبداية ، فانه لم يكن ليستطيع ان يزرع ضباطه داخل هذه المجموعات اليسارية لان الكثير

منهم يعيشون حياة مختلفة ، وكانت هناك تضحيات لن يقدم عليها حتى أي ضابط من (م آي ٥) من أجـل بلاده . وفيمـا اذا قـام بتجنيـد عملاء من ناحية اخرى ، فانه سيتعرض لمخاطر الانكشاف علنا ، وإثارة الفضائح . وكان الحل الوحيد هو استخدام مصادر تقنية كبيرة ، وقد تبين لي من خلال تعابير وجه (هانلي) ان هذا الأخير موافق على ذلك .

من جهتي ، فانني دفعت بفكرة أهمية العملاء الى الأمام ، وقلت لـ (هانلي) فيما بعد ، ونحن على انفراد :

" استخدم العملاء اذا أردت مراقبة هذه المجموعات ، وستختزن المشاكل للمستقبل إن انت استخـدمت كـل مصادرنا التقنية ضدهم . وفي النهاية ، لا يمكن الثقة بمكتب البريد مثل ثقتنا برجالنا ، فلا بد لهذا ان يسير نحو الخطأ " .

اما الوضع مع فريق عمل الكومبيوتر فقد كان مشابهاً تماماً . وسرعان ما ادركت ان الاهتمام الـرئيسي لـ (الفـرع ف) في فريق عمل الكومبيوتر ، هو تأسيس حلقات كومبيوتر واسعة الانتشـار ، وعلـى نحو رئيسي الاتصال مع كومبيوتر التأمين الوطني في (نيوكاسل) . في الماضي ، كان باستطاعتنا الحصول على المعلومات من سجلات التأمين الوطني دائماً في حال رغبتنا بذلك فعلا ، وكان لدينا ضابطان مزروعين هناك ، وتحت تغطية جيدة ، وكان بالامكان الاتصال بهما للوصول الى ملفاتنا . لكن عملية تأسيس حلقة كومبيوتر مباشرة ، كانت شيئاً مختلفاً تماماً .

ولم أكن الوحيد بين الحرس القدامى المعادين للسوفييت ، والذين انزعجوا من هذه التطورات . وقد كان بوسعنا ان نرى ان كل ما عملنا على تحقيقه وانجازه يتبدد بمطاردة هذه المجموعات اليسارية الصغيرة . لكن الأهم من هذا كله ، هو ان الانتقال الى جيل الكومبيوتر كان بمثابة اشارة الى انتهاء دور الضابـط الفردي . ومن الآن فصاعداً ، سنصبح معالجي بيانات ، نفحص عشرات آلاف الأسماء بضغطة زر .

كـانت الفكـرة العاطفيـة المتسرعة التي سمعتها اكثر فاكثر خلال تلك السنوات القليلة الماضية هي : " لقد ولّت أيام المرح " .

اما (هانلي) فقد كان غير قادر على استيعاب الصعوبات التي كان يضع نفسه أمامها . وكان من السهل الاعتقاد اننا تمتعنا بموافقة الرأي العام حين اخترقنا بيت الدبلوماسيين السوفييت . غير ان عملية مراقبة شاملة لنسبة كبيرة من السكان ، قد أثارت اكثر من علامة استفهام ، ولاحت لنا في الافق عبارة " الأخ الاكبر " .

وقد نظر محنكو الفرع (د) الى مجموعات مثل حزب العمال الثوري ، وحزب العمال الاشتراكي ، وحملة نزع السلاح النووي ، كقطع لا علاقة لها الى حد بعيد بموضوع لعبة الصورة

المقطعة . وكان من المؤكد ان ابقاء المراقبة عليهم هو أمر ضروري ، لكننا كنا على قناعة تامة بانهم لم يكونوا الاهداف الرئيسية لهجوم الـ (ك ج ب) وانما كان الهدف أجهزة الاستخبارات ، والخدمة المدنية . وعلى نحو متزايد في سنوات الستينات ، أخذت ثروة من المعلومات المتعلقة باختراق اتحادات العمال ، وحزب العمال ، بالتدفق على ملفات (م أي ٥) وذلك من خلال الهاربين التشيكيين المدعوين (فروليك) و (أوغست) بشكل أساسي . فقد ذكرا أسماء سلسلة من سياسيي حزب العمال ، وقادة اتحادات العمال كعملاء للكتلة الشرقية . وكان ذكر بعض هؤلاء مستنداً على أساس سليم ، كما هو الأمر عليه مع عضو البرلمان (ويل أوين) الذي اعترف بانه تلقى آلاف الجنيهات خلال عشر سنوات ، مقابل تقديم معلومات الى ضباط الاستخبارات التشيكية . غير انه حصل على البراءة حينما تمت محاكمته عام ١٩٧٠ ، بسبب انه لم يكن باستطاعته الوصول الى أي معلومات يمكن القول عنها انها سرية ، ولأن الهارب التشيكي لم يتمكن من تقديم دليل وثائقي لما قاله في المحكمة .

وكان (توم دريبرغ) عضو برلمان آخر ، ذكر اسمه من قبل الهاربين التشيكيين وقد ذهبت انا نفسي لمقابلته ، فاعترف أخيراً بانه كان يقوم بتقديم معلومات الى مشرف عملاء تشيكي مقابل الحصول على المال . وواصلنا الاتصال مع (دريبرغ) لفترة ، غير اننا لم نجد لديه ما يثير اهتمامنا غير مجموعة من المعلومات القليلة التي تتحدث عن هفوات أعضاء حزب العمال ، ونزواتهم .

وكانت آخر قصة ذكرها تتعلق باحدى المناسبات التي أعار فيها شقته لوزير في مجلس الوزراء ، حتى يتمكن ذلك الوزير من محاولة اقامة علاقة في سرية تامة . وكان (دريبرغ) مصمماً على معرفة هوية المرأة التي كانت تتلقى هبات الوزير ، فقام بتفتيش الشقة في احدى الامسيات ، بعد ان أخلاها الوزير ، فوجد رسالة موجهة الى امرأة كانت عضوا بارزاً في حزب العمال . وادعى (دريبرغ) انه ارتاع من اكتشافه هذا ، وبحث الموضوع مع الوزير المعني ، مقترحاً عليه بان يكون اكثر حذراً ، خشية ان تصبح أنشطته في ذلك الموضوع مكشوفة . ولذلك ، فان من المؤكد ان (دريبرغ) كان يقوم بتزويد اصدقائه التشيكيين بنفس القصص ، أي ان اهتمامه بأسرار حزب العمال كان يبدو فارغاً ، وهذا هو أقل ما يمكن ان يقال عنه .

اما (جون ستونهاوس) وهو عضو برلمان آخر ، فقد ادعى الهاربان التشيكيان انه كان يعمل لصالحهما . غير ان اعتراضات (م آي ٥) سحبت بعد أن تمت مقابلته بحضور (هارولد ويلسون) .

كان هذا هو السياق الذي شكل العلاقات المشحونة بين (م أي ٥) ورئيس الوزراء طيلة هذه الفترة . لقد كتب الكثير عن (هارولد ويلسون) و (م آي ٥) لكن بعض ما كتب كان غير دقيق تماماً . الاّ ان القصة بدأت – حسبما يعنيني الأمر – بالموت المبكر لـ (هيو غيتسكل) عام ١٩٦٣ . فقد كان

هذا الرجل سلف (ويلسون) كرئيس لحزب العمال ، وكنت أعرفه شخصيا ، وأعجب به اعجابا كبيراً . وقد التقيته هو وعائلته في نادي (بلاك ووتر سيلنغ) . وكما أذكر ، فانه قال لي قبل شهر من وفاته بانه سيـذهب الى روسيا .

بعـد وفاتـه ، اتصـل طبيبـه مع (م آي ٥) وطلـب مقابلـة شخـص من داخل الجهاز ، فذهب (آرثر مارتين) لمقابلته باعتباره رئيس مكافحة التجسس الروسي . وأوضح الطبيب بانه كان منزعجاً من طريقة موت (غيتسكل) اذ انه توفي نتيجة مرض يدعى (تقرح السل الجلدي) الذي يهاجم أعضاء الجسم . وأضاف الطبيب ان هذا المرض نادر الحدوث في المناخات المعتدلة ، وانه ليس هناك أي دليل على ان (غيتسكل) كان في أي مكان مؤخراً بحيث يمكن القول انه قد التقط فيه عدوى المرض .

واقترح (آرثر مارتين) ضرورة ذهابي الى (بورتون داون / مختبر الكيماويات والاحياء الدقيقة التابع لوزارة الدفاع) . ذهبت الى هناك ، وقمت بمقابلة الدكتور (لادل) المسؤول في مختبر الحرب الكيماويـة ، وطلبـت رأيه . قال لي : ان احداً لا يعرف كيف تنتقل عدوى السل الجلدي الى أي انسان ، فقد كانت هناك شكوك بان هذا المرض يمكن ان يكون شكلاً من أشكال الفطريات ، ولم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفية امكانية قيام شخص بنقل عدوى المرض الى شخص آخر . وعدت ، وكتبت تقريري ، مستخدماً تلك التعابير .

وكان التطور التالي حينما أخبرنا (غوليتسين) وبشكل مستقل انه اتصل خلال السنوات الأخيـرة مـن خدمتـه مع الدائرة ١٣ ، والمعروفة بدائرة القضايا الرطبة في الـ (ك ج ب) وهي الدائرة التـي كانت مسؤولة عن تنظيم عمليات الاغتيالات . وقال : انه قبل ان يترك الخدمة علم بان الـ (ك ج ب) كانـت تخطـط لعمليـة اغتيال سياسية على مستوى عال في اوروبا ، وذلك حتى يرفعوا " رَجُلَهُم " الى المنصب الأعلى . لم يعرف اي بلد هو المعني بالأمر ، وكشف لنا أن رئيس الدائرة ١٣ كان رجلاً يدعى الجنرال (رودين) الذي قضى في بريطانيا سنين عديدة ، وعاد الى الاتحاد السوفييتي ليترقى في السلم الوظيفي ، حتى تولى ذلك المنصب (رئيس الدائرة ١٣) لانه كان على معرفة جيدة بالساحة السياسية في انكلترا .

ولم نعرف الى أين نتوجه بعد ذلك ، لأن (لادل) قال بانه من غير المعروف كيف يصاب الانسان بهذا المرض . واستشرت (جيم انغلتون) فيما يتعلق بالمشكلة ، فقال : انه سيحصل على بحث من أوراق علمية روسية ، ليرى ان كانت هناك أي اشارة فيها عما يعرفه الروس عن هذا المرض . وبعد شهر أو اكثر ، أرسل الينا ورقة عن السل الجلدي قام بترجمتها عن مجلة علمية روسية . كان تاريخ الورقة يعود الى بضعة سنين قد خلت . وذكر (انغلتون) بانه لم تكن هناك أي اوراق أخرى في الادبيات

الـروسية يمكنهـــم ان يعثـروا عليها . وقد وصفت الورقة استعمال مادة كيماوية خاصة اكتشفها الروس ، تسبب الاصابة بالسل الجلدي للفئران التي تجرى التجارب عليها . ومع ذلك ، فمن غير الممكن ان تكـــون هـــذه المادة – على نحو خاص – قد استعملت لقتل (غيتسكل) لان الكميات المطلوبة لاحـــداث السل الجلدي كانت كبيرة ، وكان لا بد أن تعطى باستمرار . أخذت الورقة الى (لادل) فأكد – وهو مندهش من مجال خبرة السوفييت – انه لا يبدو ان يكون قد تم تسميم (غيتسكل) بواسطة القهوة والبسكويت . لكنه أشار الى انه قد مر على اصدار هذه الورقة سبع سنوات ، وان الروس لو استمروا بالعمل في تلك التجارب فانه من الممكن ان يكونوا قد عثروا على شكل افضل بكثير من المادة الكيماوية قد يحتاج الى جرعات أصغر بكثير ، أو ربما تعمل حقنة واحدة بشكل كاف . وأخبرني ، انه ليس هناك من طريقة لاثبات هذا ، دون القيام بأعمال علمية كثيرة ، وكان مختبر (بورتون داون) غير قادر على القيام بالعمل الضروري لانه كان يعمل فوق طاقته .

وقـــلت انـنـــي سأحمـــل القضية معي ، وأناقشها مع ادارتي . وكتبت مرة اخرى وصفاً لما قاله (لادل) واكـــدت دقتـــه معه شخصياً . وبعد ان عدت الى (م آي ٥) ناقشنا المشكلة بعمق في المكتب ، وتم الاتفاق على ان شيئاً لن يكون من المستطاع القيام به الاّ اذا كان لدينا دليل آخر لاستعمال الروس مثل هذا المخدر لاغتيال الناس . وخلال السنوات القليلة التالية ، بحثت عن أي دليل وطلبت من (لاد ل) بان يبحث عنه ايضا . وليس هناك من داع للقول انه لم يكن لدينا أي مثال آخر عـــن شخـــص كان سيموت نتيجة للسل الجلدي . مع ذلك ، فان كان هناك تسرب على مستوى عال في (م آي ٥) لصالح الروس ، فلا بد انهم قد أعلموا عن شكوكنا ، وأنا متأكد من انهم لن يدعوا اي حالة اخرى لتقع في طريقنا .

في أثناء ذلك ، أصبح (هارولد ويلسون) رئيساً للوزراء . وكان من المحتم ان يلفت (ويلسون) انتباه (م آي ٥) . فقد كان رئيس الوزراء يعمل لصالح مؤسسة تجارية شرقية – غربية ، وقام بزيارات عديدة الى روسيا . أما (م آي ٥) التي كانت على علم بان شيئاً لن يمنع الـ (ك ج ب) من اصطياد وتأطير الزوار ، فقد كانت مهتمة بان يعي تماماً المخاطر التي يعرض نفسه لها من خلال تفاهمه مع الروس . وحين خلف (ويلسون) سلفه (غيتسكل) كزعيم لحزب العمال ، كان ثمة مصدر احتكاك آخر بينه وبين (م آي ٥) . فقد بدأ يحيط نفسه برجال الاعمال الاوروبيين الشرقيين المهاجرين ، وكان بعضهم قد خضعوا لعمليات استجواب من قبل (م آي ٥) .

بعد أن أصبح (هارولد ويلسون) رئيسا للوزراء عام ١٩٦٤ ، قام (انغلتون) برحلة خاصة الى انكلترا لمقابلة (فيرنفال جونز) الذي كان يشغل منصب رئيس التجسس المضاد . وقد جاء (انغلتون) ليعرض علينا بعض المعلومات السرية التي حصل عليها من مصدر لم يكن ليذكره . وقد ادعى ذلك

المصدر – حسب رواية (انغلتون) – ان (ويلسون) كان عميلاً سوفييتيا . وقال : انه سيقدم لنا دليلاً ومعلومات مفصلة بشكل واسع ، إن نحن تكفلنا بابقاء المعلومات داخل (م آي ٥) وبعيداً عن الدوائر السياسية . وكان الاتهام غير معقول تماماً ، لكن لم يكن لدينا أي خيار سوى ان نأخذ الخبر على محمل الجد ، لاننا نعرف ان (انغلتون) هو رئيس قسم التجسس المضاد في (السي آي ايه) . وليس من المدهش ان تكون ادارة (م آي ٥) قد انزعجت بشدة من الطريقة التي أوصل بها (انغلتون) معلوماته . وبعد دراسة الأمر ، رفضت الادارة قبول تقييدات (انغلتون) على استخدام تلك المعلومات . ونتيجة لذلك ، لم تذكر أي معلومات أخرى . ومع ذلك ، فقد تم تسجيل اتصال (انغلتون) معنا في ملفات تحت اسم رمزي هو (أوتشيف) .

بعد ان تقاعد (هوليس) واصبح (فيرنفال جونز) المدير العام ، ذهبت الى (فيرنفال جونز) وقلت له بانني سأقوم بزيارة الولايات المتحدة ، وسألته إن كان لا بد لي ان أناقش (انغلتون) فيما يتعلق بمعلومات (أوتشيف) على أمل ان أحصل على تفاصيل اكثر ، فقال لي : يمكنني ذلك ، غير انه أصر على انه لا يمكننا ان نقدم لـ (انغلتون) أي ضمان عن أي معلومات يقدمها الينا . واتصلت مع (انغلتون) في (واشنطن) وقدّم لنا عرضاً قديماً . فقد صدرت عنه تمتمات خافتة عن " اجتماعات خفية " مع الروس . لكن ، وحين تشددنا طالبين تفاصيل عن الموضوع ، فاننا لم نتلق أي تفاصيل . وكنت أعرف من خلال تجارب مريرة ان (انغلتون) كان قادراً – مقدرة كبيرة – على تلفيق دليل حين لا يكون هناك أي دليل .

غير ان قضية (أوتشيف) لم تكن سوى هجوم مضلل لتحويل الانتباه . ففي نهاية سنوات الستينات ، وصلت معلومات الى (م آي ٥) تفيد بأن من المؤكد وجود اختراق سوفييتي في حزب العمال . فقد وصل الهاربان التشيكيان : (فروليك) و (أوغست) أولاً الى الغرب ، وذكرا أسماء سلسلة من أعضاء البرلمان في حزب العمال ، واتحادات العمال ، الذين كانوا مجنّدين ناجحين . ثم تلقينا اكثر المعلومات خطورة من قبل (أوليغ ليالين) . وبينما كان (ليالين) لا يزال في مكانه ، اخبر (م آي ٥) عن صديق له يدعى (فايغاوكاس) . كان هذا الأخير ضابط (ك ج ب) ويعمل تحت غطاء الوفد التجاري السوفييتي في (لندن) . وقد أخبرنا (ليالين) ان (فايغاوكاس) ادعى أمامه انه كان على اتصال مع رجل يدعى (جوزيف كاغان) وهو مهاجر من جمهورية ليتوانيا السوفييتية ، كان صديقا حميماً لـ (هارولد ويلسون) . وقد ساعد (كاغان) في عملية تمويل مكتب (ويلسون) الخاص ، كما كان قد أعاره طائرة خلال الانتخابات ، كما تم التقاط العديد من الصور التي تظهر (ويلسون) وهو يرتدي المعاطف الواقية من المطر ، التي كان (كاغان) يصنعها في مصنع يقع بالقرب من (ليدز) .

كان من المحتم ان (م آي ٥) كانت تواقة جداً لاكتشاف فيما اذا كان لـ (كاغان) أي علاقة

مـــع (فايغاوكاس) . ووضعنـــاه تحـــت رقابـــة مكثفة ، كما حاولنا تجنيد عملاء داخل مصنعه . ثم انتهزنا فرصة مناقشة الموضوع مع الرجلين بعد طرد الدبلوماسيين السوفييت المائة وخمسة . واتصل (هارولد ويلسون) الذي لم يكن قد تسلم رئاسة الوزراء حينذاك ، مع (السّير آرثر يونغ) رئيس شرطة مدينة (لندن) ومستشار إحدى شركات (كاغان) . وقد طلب (ويلسون) ان يقابل أحداً من (م آي ٥) لانه كان يرغب في مناقشة موضوع (كاغان) . وقد اعتقد (فيرنفال جونز) بان هـــذا الاتصال هو أمر غريب ، غير انه وافق على ان يرسل (هاري وورتون) الذي كان يتعامل مع (ليالين) . وعـــرض (وورتون) على (ويلسون) معلومات (ليالين) الموجزة عن تعامل (كاغان) مع (فايغاوكاس) كما يدعي . وأخبره (ويلسون) بفظاظة انه لا يعرف شيئاً عن هذا ، وبانه لم يناقش مع (كاغان) أي أمور سرية في أي وقت من الاوقات . وقد اعترف (كاغان) نفسه فيما بعد بانه كان يلتقي مع (فايغاوكاس) ليلعبا الشطرنج ، غير انه انكر بشدة أن تلك المقابلات قد تضمنت أي أعمال تجسسية .

وفسّـــر (ويلسون) موقف (م آي ٥) انه محاولة قاسية لتلطيخ سمعة حزب العمال ، وسمعته هـــو . لكن ، وحال وصول حكومة المحافظين الى السلطة ، فانهم بدأو النظر الى الموضوع باهتمام عظيم ايضاً . وقد اعتاد (فيكتور) ان يتشكى لي من نوعية تقارير المعلومات الاستخباراتية التي كان (١٠ دوانتغ ستريت) يتسلمها من (الفرع ف) وقال :

" انهـم يشمـــرن عـــن سواعدهم دوماً استعداداً للقتال ، ألا تستطيع ان تقدم لنا شيئاً أفضل ؟ " .

وعلمنا في عام ١٩٧٢ أن (هيث) أصيب بالرعب أثناء اجتماع رئاسة الوزراء بسبب حديث سمعه من (جاك جونز) و (هيو سكانلون) زعيما اتحاد العمال القويان في مطلع سنوات السبعينات . وقال (فيكتور) :

" لقد اعتقد (تيد) انهما يتكلمان كالشيوعيين ، وقد سألت (الفرع ف) فيما اذا كان لديهم اي شيء ، ولكن لم يكن لديهم أي شيء أساسي بالطبع " .

وقد عرف (فيكتور) من خلال الشائعات ، ان الهاربين التشيكيين الجديدين ، كانا يقومان بتقديم معلومات عن عمليات تخريب يقوم بها حزب العمال ، واتحاد العمال ، وبدأ يضغط عليّ طلبا للتفاصيل . وطلبت منه أن يرسل لي مذكرة رسمية ، وسأقوم أنا بما يمكنني القيام به . وفي وقت متأخر من اليوم نفسه ، تسلمت مذكرة (فيكتور) .

بدأت مذكرة (فيكتور) باسلوبه المتعاد : " ان رئيس الوزراء متلهف لأن يرى . . . " .

وأرسلت مذكرة (فيكتور) الى (فيرنفال جونز) ليرشدني ، فأعادها اليّ مع رسالة مكتوبة

بخط اليد في الهامش : " أخبره بما يريد ان يعرف " .

سحبت الملفات ، وبدأت أؤلف بصبر موجزاً مطولاً عن المعلومات الاستخباراتية التي قدمها (فروليك) و (أوغست) . لم أقدم أي استنتاجات ، لكنني لم أترك شيئاً دون ان أعمل على ذكره .

وانقض (الوايت هول) برمته مرعداً فوق رأسي ، فاستدعاني (جون هنت) سكرتير رئاسة الوزراء ، وسألني فيما اذا كنت مدركاً لما أقوم به من ايصال معلومات عن حزب المعارضة الى أيدي حزب الحكومة في وقت حرج كهذا .

ودافعت عن نفسي بأقصى ما لدي من قوة . لم تكن المسألة مسألة سياسة . فقد طلب رئيس هيئة مراجعة السياسة المركزية معلومات موجزة ، وقدمتها له ، ووافق على هذا الأمر المدير العام لجهاز الاستخبارات ، وبذلك ، فان الخطيئة ليست خطيئتي اذا كانت المعلومات غير مستساغة او محرجة ، وقلت :

" اذا رفضنا توزيع معلومات استخباراتية لانها مربكة ، فانه لن يكون لدينا سوى هدف ضئيل في ارسالنا لأي شيء على الاطلاق " .

ودعمني كل من (فيرنفال جونز) و (فيكتور) باخلاص خلال هذا العمل ، وراق الشجار الذي دار حول هذا الموضوع لـ (فيكتور) فألف سلسلة من المذكرات الرائعة التي طارت واتخذت طريقها الى (الوايت هول) مدافعاً عن حق اجهزة الأمن في تقديم معلومات استخباراتية يطلبها (١٠ شارع داوننغ) . و استشاط (فيليب آلين) غضباً لتجاهل دور وزارة الداخلية على نحو واضح ومهين ، ورفض الكلام معي لعدة سنين . كما انه أرسل لـ (فيكتور) ملاحظة موجزة ومهذبة ، أراني اياها وهو في حالة من المرح . فقد أرعد اليه (آلين) مهدداً :

" ابتعد عن العشب " .

بعد ظهر أحد الايام ، وعند وصول الشجار الى ذروته ، كنت في غرفة (فيكتور) في مكتب رئاسة الوزراء ، حين أطل (تيد هيث) برأسه من الباب .

قال (فيكتور) :

" رئيس الوزراء ، أظن انه لا بد لك من أن تقابل (بيتر رايت) . انه احدى الظواهر الطبيعية الغريبة في (الوايت هول) . . " .

نظر (هيث) في اتجاهي ، وسألني أين أعمل ، فقلت :

" في جهاز الأمن يا سيدي " .

فنخر بصوته . ثم قال (فيكتور) بمرح :

" ان (بيتر) مسؤول عن التقرير المتعلق بالتخريب ، والذي يسبب المشكلة هذه الأيام " .

وثبتني (هيث) بتحديقة فولاذية ، ثم قال محملقاً :

" يجب الاّ تتدخل في السياسة ، فهناك آلية للتعامل مع مثل هذا النوع من القضايا " .

استدار ، وخرج .

قلت :

" يا للمسيح يا (فيكتور) " .

أجابني (فيكتور) :

" لا داعي للقلق ، ان (تيد) يكون دائماً على هذا النحو . . سأتحدث اليه فيما بعد " .

واتصل (فيكتور) بي هاتفياً في اليوم التالي ، وأخبرني ان (هيث) التهم التقرير في تلك الليلة ، وانه سأله بدهشة :

" هل هذا صحيح يا (فيكتور) ؟ " . وحينما أخبره ان الأمر صحيح ، ضاعف من حملته ليبقى في السلطة .

لكن ما تجدر الاشارة اليه هو ان طلبات الحصول على المعلومات الاستخباراتية لم تكن جمعيها شــرعية . فقــد دعاني (فيكتور) في إحدى الأمسيات ، لتناول الشراب في أحد المحلات في ساحة (سانت جيمس) . وقال لي :

" هناك رجل أرى أنه لا بد لك من مقابلته . انه صناعي ثري " .

كنت أناقش مع (فيكتور) موضوع تقاعدي في ذلك الوقت ، اذ انني علمت عام ١٩٧٢ ، ان الوعد الذي قطعته (م آي ٥) على نفسها عام ١٩٥٥ لتقديم راتب تقاعدي لي ، لم يتم احترامه . ومن أجل أن انضم الى الجهاز ، فانني كنت مجبراً على التخلي عن خمس عشرة سنة من حقوق راتبي التقاعدي نتيجة عملي في الادميرالية البحرية . ففي ذلك الوقت ، كان (كمنغ) قد تحدث بكلام معسول عن دفعات غير محسوبة من الراتب ، وعن الوسائل التي يستخدمها الجهاز لحل هذه المشاكل . ولكن مع (م آي ٥) الجديدة الباهتة ، فان الاتفاق الشفهي مع السادة المهذبين كان شيئاً من الماضي . فطبقاً للقواعد ، لم يكن لدي أي حق تقاعدي ، على الرغم من ان كل عالم انضم الى أجهزة الاستخبارات بعدي (حوالي ٥٠ ضابطاً) كان قادراً على تحويل تقاعده ، وكان ذلك نتيجة لضغوطي التي مارستها لاحقاق الحق على نحو كبير .

كانت لطمة مـريرة ، وقد أثرت علي كثيراً لتنغيص السنوات القليلة الأخيرة المتبقية لي في الجهاز . وكان من المحتم ان أفكر بامكانية العمل الأمني : لم أستسغه كثيراً ، غير انه بدا لي كطريقة مستقـــرة لدعم راتبي التقاعدي المستنزف . وفي البداية ، ناقشت مع (فيكتور) قضية انضمامي الى (ن . م . روتشيلد) لكن (هانلي) لم يكن سعيداً بالاقتراح . هكذا ، وحين سمع (فيكتور) بأن رجل

الاعمال هذا كان يبحث عن شخص للقيام بأعمال الأمن ، اقترح عليّ مقابلته .

شعرت بنفور فوري من الرجل ، فقد كان من الواضح انه كان متطلعاً ومتلهفاً للكسب والرقي الاجتماعي . وتكلم بحرية وهو يشرب عن حاجته الى المشورة والارشاد من قبل شخص " مطلع على معلومات سرية لا يعرفها الكثيرون " دون ان يحدد تماماً ما الذي يريده ، ولا المبلغ الذي سيكون على استعداد لدفعه مقابل هذا . واخيراً ، اقترح أن أتناول معه طعام الغذاء – اضافة الى بعض الزملاء – في فندق (لندن) لمناقشة اقتراحه بتفصيل أوسع .

كان زملاؤه بضعة من الرجال المتداعين للسقوط . فقد كانوا رجالاً تقاعدوا من مخلتف فروع الاستخبارات ومؤسسات الأمن ، وقد انقضت سنوات عمرهم ، وخلفوها وراءهم . وكان هناك آخرون ايضاً ، أغلبهم رجال أعمال ، بدت الاثارة والانفعال عليهم لوجودهم في نفس الغرفة كجواسيس ، ولم يكونوا يبالون كم من السنين قد مضى عليهم بعد أن ولّى زمانهم .

وفي هذه اللحظة ، تطرق الرجل الذي سيصبح صاحب العمل ، والذي ساكون موظفاً لديه الى الموضوع مباشرة ، فبدأ حديثه قائلاً :

" اننا نمثل مجموعة من الناس الذين يشعرون بالقلق تجاه مستقبل البلاد " .

كانت تبدو عليه ملامح (انغلتون) في ليلة سيئة . وقال انهم كانوا مهتمين بالعمل لمنع عودة حكومة العمال الى السلطة ، واضاف :

" ان هذا يمكن ان يعني نهاية كل الحريات التي نعرفها ونتمسك بها " .

وأومأ الآخرون برؤوسهم .

وسألته :

" وكيف ترى انني أستطيع مساعدتك ؟ " .

" بالمعلومات ، نريد معلومات ، وانني متأكد من ان لديك المعلومات " .

سألته :

" ماالذي تسعى اليه ؟ " . فقال :

" أي شيء عن (ويلسون) سيكون مفيداً . وهناك الكثير من الناس الذين سيدفعون بشكل جيد عن أي معلومات من ذلك الصنف " .

وهممت بالقول :

" لكنني عضو فاعل في جهاز الأمن . . . " .

لوّح بيده بقوة ، وقال :

" تقاعد في وقت مبكر . يمكننا ترتيب شيء " .

ومثلت الـــدور حتـــى المساء ، غير انني لم أعطهم أي شيء وفي اليوم التالي ذهبت لمقابلـه (هانلي) وأخبرته بما حدث ، واقترحت أن أستمر في مراقبة انشطة المجموعة كعميل ، غير ان (هانلي) رأى ان الحذر أفضل سياسة . وقال :

" اترك هذا يا (بيتر) . . انها لعبة قذرة ، وانت خارجها تماماً " .

كان (هانلي) يعرف القليل عن المعلومات التي جمعناها عن (ويلسون) وحزب العمال خلال سنوات الستينات ، فشجعته على دراستها . وكانت الانتخابات على الابواب ، فقلت له بان من المناسب ان يقوم بقراءتها .

قال حين قرأ الملفات :

" انها تشبه (فلوينسي) فهناك الكثير من الدخان ، ولكن القليل من النار " .

ومع ذلك ، فقد وافق على ان من الحكمة إعادة فحص المعلومات . وكان (انغلتون) قد بدأ بشكل خاص يضايقنا باستمرار حول (ويلسون) فأخبرت (هانلي) بأن من حسن التصرف ان يبدو وكأنه يقوم بشيء ما .

وحين وصلت الامور الى ذروتها السياسية في اوائل عام ١٩٧٤ ، وذلك مع انتخاب حكومة عمالية أقلية ، كانت (م آي ٥) تقوم بجمع معلومات ، ستتسبب – في حال تسربها – في فضيحة سياسية ذات عواقب وخيمة ، وستؤدي الاخبار التي تتحدث عن انه تم استجواب رئيس الوزراء الى استقالته . ولم تكن هذه النقطة خافية عن عيون بعض ضباط (م آي ٥) .

في بعد ظهر أحد الايام ، كنت في غرفة مكتبي ، حين دخل اثنان من زملائي ، وكانا مع ثلاثة أو أربعة ضباط . أغلقت الملف الذي كنت أعمل به ، وسألتهم عما يمكنني تقديمه لهم من خدمة .

قال أعلاهم رتبة :

" نحن نعرف انك قمت باعادة فتح قضية (ويلسون) " . فقلت له :

" وأنت تعرف انه لا يمكنني الحديث عن ذلك " .

وشعرت بشيء من العجز ، غير انني لم استمتع كثيراً لكوني محاصراً في غرفة مكتبي . .

قال واحد من الضباط الصغار :

" ان (ويلسون) عنصر تهديد دموي . وقد حان الوقت لكي يعرف الناس الحقيقة " .

لـــم تكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها تلك العاطفة الخاصة . فقد التهبت المشاعر في (م آي ٥) خـــلال عـــام ١٩٦٨ . وقد كانت هناك جهود لمحاولة اثارة المتاعب امام (ويلسون) حينذاك ، اذ ان صاحب صحيفة (الديلي ميرور) وهو (سيسيل كنغ) الثري جداً ، والمتنفذ ، والذي كان عميلاً لنا منذ مدة طويلة ، أوضح انه سينشر أي خبر قد تهتم (م آي ٥) في أن تسربه اليه . كان

ذلك جزءاً من انقلاب (سيسيل كنغ) اذ كان على قناعة من انه سيسقط حكومة العمال ، ويستبدل بها حكومة ائتلافية يقودها (اللورد ماونتباتن) .

وأخبرت (فيرنفال جونز) عام ١٩٦٨ بان المشاعر ملتهبة ، لكن رد فعله كان فاتراً ، وقال :

" يمكنك اخبار اي شخص لديه أفكار عن تسريب معلومات سرية بانني لا أستطيع فعل شيء لانقاذه " .

كان يعرف ان الرسالة ستصل .

لكن الوضع عام ١٩٧٤ ، كان اكثر خطورة . كانت الخطة بسيطة : ففي أثناء حملة الانتخابات نتيجـة لمستـوى عـدم الاستقرار في البرلمان ، والتي لا بد ان تجري خلال بضعة شهور ، كانت (م آي ٥) سترتب عملية تسريب تفاصيل منتقاة من المعلومات الاستخباراتية الى رجال صحافة متعاطفيـن معنا ، عن شخصيات قيادية في حزب العمال ، على ان يكون (ويلسون) منها على نحو خاص . وباستغـلال علاقاتنا مع الصحافة ومع مسؤولي الاتحاد ، فسيتم نشر خبر مما تحتويه ملفات (م آي ٥) وحقيقة ان (ويلسون) يعتبر خطراً على الأمن .

وتمت استشارة المكتب ، ووافق على الخطة نحو ثلاثين ضابطاً . وكان لا بد من ارسال صور طبق الاصل من بعض الملفات ، وتوزيعها على الصحف الخارجية بواسطة اللاسلكي ، وكان لا بد ايضاً ان يثـار الموضـوع في البرلمان للوصول الى أقصى أثر ممكن . وكانت هناك نسخة كربون من رسالـة (زينوفييف) هـي التـي عملت الكثير على اسقاط حكومة (رامساي ماكدونالد) الاولى عام ١٩٢٨ .

قال احدهم :

" سنخرجه ، سنخرجه هذه المرة " .

وسألتهم:

" لماذا أنتم بحاجة إليّ ؟ " .

قالوا :

" حسناً ، انت لا تحب (ويلسون) اكثر منا . . . اضافة الى انك تستطيع الوصول الى أحدث الملفات زمناً . . . موضوع (غيتسكل) وكل ما تبقى منه " . فقلت :

" لكنها موجودة في خزنة المدير العام " . قالوا :

" نعم ، ولكنك تستطيع نسخها " . فقلت :

" انني بحاجة الى بعض الوقت كيف أفكر بالأمر . . لا بد أن أفكر كثيراً بذلك قبل أن أخطو خطوة كهذه . . لا بد أن تمهلوني بضعة أيام " .

أغـرتني الفكـرة فـي البـدايـة ، فالشيطـان يعمـل نيابة عن الايدي العاطلة عن العمـل ، وكنـت أزجـي الـوقت قبـل ان أتقاعد . ان خطة مجنونة كهذه كان لا بد لها ان تغريني . . وأحسست بدافـع لا يقـاوم يدفعنـي للقيام بها . فقد بدت البلاد على حافة كارثة . لم لا نـدفعها (الخطـة) دفعـة خفيفة ؟ علـى أي حـال ، كنـت أحـمل عبء الكثيـر جـداً من الأسـرار الـى درجـة ان تخفيـف الحمـل قليـلاً ، كان يمكـن ان يجعـل الأمور أسهل عليّ .

وكان (فيكتور) هو الذي تكلم معي لأخرج من هذه اللعبة ، اذ قال :

" انني لا أحب (ويلسون) اكثر منك ، لكنك ستنتهي أشلاء إن انت سرت في هذا الطريق " .

وكان على حق . فلم يكن قد بقي لي اكثر من سنة لأترك العمل ، فَلِمَ أحطم كل شيء في لحظة جنون ؟ .

بعد بضعة أيام أخبرت زعيم المجموعة انني لن أحضر الملفات . وقلت له :

" انني أود مساعدتكم ، غير انني لا أستطيع المجازفة . فلدي نصف راتب تقاعدي فقط ، وأنا لا أستطيع فقدانه كله " .

وأصبح بعض الاشخاص العاملين معهم يكنون العداوة لي تماماً ، واستمروا يرددون انها كانت الفرصة الأخيرة لتثبيت * (ويلسون) .

وقالوا :

" حالما تتقاعد فاننا لن نحصل على الملفات أبداً " .

غير انني كنت قد عقدت العزم ، ولم تكن حتى توبيخاتهم ، ووصفهم لي بالجبن ، لتستطيع زعزعتي .

وعلـى امتـداد بقية عام ١٩٧٤ وبداية عام ١٩٧٥ واصلت البقاء خارج البلاد لأطول مدة ممكنـة ، مطـاردا حركة اتصالات (فينـونا) في جميع انحاء العالم . وعلى الرغم من ان قضية (ويلسون) الكاملة لم تظهر الى الوجود قط ، فانه كان من الواضح ان الشباب كانوا يدفعون خطتهم بنشاط الى الأمام قدر استطاعتهم . فلا غرو بعد ذلك ان يدعي (ويلسون) انه كان ضحية مؤامرة ! .

في صيف عام ١٩٧٥ ، تناولت طعام العشاء مع (موريس أولدفيلد) في (لوكيتس) وقد كنا نلتقـي باستمـرار لتناول طعام العشاء . كان رجلاً وحيداً . ولم يكن يحب شيئاً اكثر من حبه للاشاعات ، والقيل والقال في نهاية النهار . وكان قد وصل أخيراً الى قمة (م آي ٦) بعد محاولتين فاشلتين ، وقـد سـررت من أجله . كان (موريس) رجلاً طيباً ، غير انه كان ميالاً الى التدخل في كل

---

* أي التغلب عليه حسب قوانين المصارعة (المترجم)

شيء . وفي تلك الليلة، شعرت ان شيئاً ما يعتمل في ذهنه .

فقد حول مجرى الحديث نحو (ويلسون) . وسأل : كم هو مدى اشتعال المشاعر هناك ؟ فقد كان يتابع سماع كل أنواع الاشاعات .

وكنت غير واضح في موقفي أمامه ، حينما قلت :

" ان غالبيتنا لا يحبونه ، فهم يرون انه حطم البلاد " .

كـــان من الواضح ان (موريس) مشغول بالموضوع ، فقد عاد اليه مراراً وتكراراً ، وقال أخيراً :

" انك لا تخبرني بالحقيقة . . " . فقلت :

" لست معك يا (موريس) . . " . فقال في لهجة تغيرت على نحو مفاجيء :

" لقد استدعيت من قبل رئيس الوزراء يوم أمس . كان يتكلم عن مؤامرة . وكان من الواضح انه سمع ان رجالكم يتجولون في المدينة مثيرين المشاكل من حوله ، ومن حول (مارسيا فولكندر) وحول الشيوعيين في رقم ١٠ " .

و أوغل في كلامه بعيداً ، كما لو ان الامر كله كان مثيراً لنفوره . وعاود القول من جديد :

" انـــه مـــوضـــوع خطير يا (بيتر) . انني أريد أن أعرف كل شيء . انظر الى ما يحدث في (واشنطن) بشأن موضوع (ووترغيت) . سيحدث الشيء نفسه إن لم نكن حذرين " .

طلبت كأساً أخرى من (البراندي) وقررت اعلامه عن كل شيء أعرفه . وحينما انتهيت من وصف خطط الصيف الماضي ، سألني إن كان (هانلي) على معرفة بذلك ، فقلت :

" لا . . اعتقدت ان من الافضل ان يُنسى الأمر كله " . فقال :

" أريدك ان تعود الى المكتب غداً ، وان تخبره بكل شيء " .

وترنّح (موريس) صاعداً الى سريره ، وقال من خلف كتفه :

" لا تقلق " . فقلت :

" لن أقلق ، فلم يبق لي سوى بضعة شهور لترك العمل ! " .

حين قابلت (هانلي) صباح اليوم التالي ، شحب لونه . لقد كانت الشكوك تساوره بأن المشاعر كانت تلتهب ضد (ويلسون) في المكتب . لكنه الآن ، يعرف ان نصف العاملين لديه كانوا غارقين حتى أعناقهم في مؤامرة للتخلص من رئيس الوزراء . وكنت في أوقات كهذه ، أشعر انني مسرور لأنني لم أتسلق سلم السلطة التنفيذية قط .

ومن المفارقات ، أن أول رد فعل له ، كان الغضب على (موريس) إذ قال :

" (موريس) الدموي ! يدس أنفه في عملنا ! " .

وحين هدأ ، سألني عن الاسماء .

أخبرته بالاسماء كلها . فبعد ان وصلت الى ذلك الحد ، لم اكن لأستطيع ان أرفض . وبينما كنت أحل بكرة خيوط الأسماء ، شعرت فجأة بما شعر به (بلنت) وهو في نفس الموقف : فليس من السهل وضع القناع على الوجه ، والاشارة بالأصبع .

سألت (هانلي) :

" ستعتني بهم ، أليس كذلك ؟ " . فأجابني :

" سيكون هناك استجواب بالطبع " .

وتركت العمل قبل ان تنتهي قصة (ويلسون) ولم نناقش الأمر أنا و (هانلي) مرة ثانية أبداً . وقد سمعت ان أحد أعضاء لجنة الأمن قد تم استدعاؤه ليجري تحقيقا خاصاً لمكتب رئاسة الوزراء . وقد ذكر ان (هانلي) قام باجراء عدد من التغييرات ، وفي مجال التجنيد على وجه الخصوص ، بهدف رفد (م آي ٥) بدماء جديدة ، وهذا ما يفسر ظاهريا الرسالة السرية التي استلمتها من (ميشال هانلي) بعد ان تقاعدت ، وذهبت الى استراليا ، بعد وقت قصير .

كتب لي :

" سيسرك ان تلاحظ ان المؤسسة قد اجتازت امتحاناتها الاخيرة بنجاح ، وانها تسير على خير ما يرام ! " .

بعد مدة قصيرة ، استقال (ويلسون) . وكما اعتدنا أن نقول دائما في المكتب :

" السياسيون يأتون ويذهبون ، لكن جهاز الأمن يستمر في عمله الى الأبد " .

وانفجرت الخرائب المحطية بـ (هارولد ويلسون) في الوقت الذي بدأت فيه قضية (هوليس) تومض بضعف عائدة الى الحياة عام ١٩٧٤ . فقد بقيت قضيته مدفونة منذ التحقيق معه عام ١٩٦٩ . وتجددت آمالي بأن يقوم (هانلي) باحياء القضايا حين يتولى زمام الأمور . لكنني سرعات ما رأيت انه تبنى وجهة النظر القائلة بان الكلاب النائمة يجب ان تبقى كذلك . فقد كانت تراوده رغبة قوية بان يضع جروح الماضي خلف ظهره ، وكان متلهفا ان يبقيني بعيداً عن التحقيقات الجارية ، وعن قضايا (الفرع ك) قدر الامكان .

ودأب على القول حينما كنت أطرح المسألة :

" لدي عقل متفتح " .

أصبح الخوف من الفضيحة أهم اعتبار يؤثر على كل شخص مسؤول عن اضطرابات سنوات الستينات ، في الوقت الذي تزايد فيه اليقين بان المشكلة ستصل الى نهايتها مهما كانت طبيعتها . وناقشت (فيكتور) حول ما اذا كنت هناك امكانية لاعادة فتح القضية .

كان يقول :

" الوقت ليس هو الوقت المناسب الآن . . لا بد أن ننتظر الفرصة المناسبة لنا ، وسأبحث عن طريقة لاثارة الموضوع مع (تيد) . ولكن ، ليس الآن . سينتهي الأمر بنا الى تعريض منصب (هانلي) للخطر ، فالأمر كله لا زال له قوة وتأثير كبيران . لا بد أن ندع بعض الوقت يمر " .

ووصل الخوف من الفضيحة الى ذروته . كانت هناك ظنون عام ١٩٧٥ بأن (بلنت) كان يعاني من مرض السرطان ، وانه من المحتمل أن يموت . فاتصل (فيكتور) بي مرة أخرى ، وسألني إن كنت اعتقد ان (بلنت) من المحتمل ان يترك وصية أخيرة ، أو شهادة لتنشر عند موته ، ناسفاً الغطاء ، وكاشفاً القضية كلها . كثيراً ما سألت (بلنت) حول هذا ، لكنه كان ينكر دائماً قيامه بأي استعدادات . غير ان خيوطاً من نوازع انتقامية كانت في نفسه لم اكن أثق فيها اطلاقاً .

كان (فيكتور) يعرف أكثر من أي شخص خارج الموسسة الضرر الذي يمكن أن يلحقه (بلنت) . فقد كان الضرر الذي ألحقته فضيحة (بروفومو) بآخر حكومة محافظة يسيطر على (فيكتور) و (هيث) وكانا متخوفين من ان باستطاعة (بلنت) ان يطيح بهما بنفس الطريقة . لم تكن المشكلة مشكلة حصانة ، اذ ان هناك الاحتمال الرهيب لامكانية ذكر اسماء زملائه من المتآمرين – أحياء وأمواتا – اضافة الى فرصة امكانية قراره بترك سجل اكثر دقة و تفصيلا عن أيام الثلاثينات المزدهرة . فهناك اكثر من حفنة من الأشخاص الذين ستتعرض سمعتهم للفضيحة اذا نشرت نزوات حياتهم الجنسية في شارع (فليت) في ذلك الوقت ولن يكون أقلهم رئيس الوزراء السابق (انطوني ايدن) .

أخيراً ، ضغط (فيكتور) عليّ كي أقدم له موجزاً كاملاً عن الاضرار التي يمكن ان يلحقها (بلنت) بهم إن هو ذكر كل شيء . حين كنت في القسم (د ٣) كتبت اوراقاً مختلفة لوزارة الداخلية عن عصابة الخمسة ، لكنها كلها كانت غير مرضية . و أصرت الدائرة القانونية في (م آي ٥) على استبعاد اسماء مثل (بروكتور) و (ووتسون) بسبب عدم وجود دليل على ذلك .

وجادلت قائلاً :

" ليست تلك هي النقطة الرئيسية . يجب ان نقدم لوزارة الداخلية المعلومات الاستخباراتية . ذلك هو عملنا . . فان نحن قمنا بغربلة معلوماتنا ، وحذفنا منها ما نعتقد بانه صحيح باعتبارنا لا نستطيع اثبات ذلك ، فسنكون قد فشلنا في تأدية واجبنا " .

وافق (فيكتور) على وجهة نظري بالكامل ، واكد على ضرورة ان يكون تقريري كاملاً قدر الامكان . لذلك ، فانني عمدت الى جمع التاريخ الكامل لعصابة الخمسة ، وبينت بصعوبة الكيفية التي كانت تتم بها الاتصالات . وكان في القائمة أربعون اسماً . وبعد بضعة أسابيع اجتمعت

مع (روبرت آرمسترونغ) حول " العميل رقم ١٩ " فشكرني على الوثيقة .

وقال بحرارة :

" انه عمل رائع . . . معلومات استخباراتية حقيقية ، ليست كمسوّدات العاملين في الخدمة المدنية ، والتي تصلنا على نحو طبيعي من جهاز الأمن " .

وفي هــذه الفترة ، وصل خبر يفيد ان (آرثر) و (ستيفن دي مويراي) يمارسان ضغوطا من وراء الكواليس لاعــادة فتــح القضية ضــد (هوليس) . كان (آرثر) قد تقاعد ، وكانت حيــاة (دي مويراي) العمليــة في حالة انحدار . فقد عمل على ان يصبح غير محبوب تماماً داخل (م آي ٦) خلال نهاية سنوات الستينات من خلال دعمه لـ (غوليتسين) ونظرياته التي لم تكن تلاقي صدى في نفوس الآخرين . كان مرشده (كريستوفر فيلبوتس) الذي خدم تحت إمرته في (واشنطن) وأعــاده (فيلبوتس) الى الخدمة في التجسس المضاد . غير ان (فيلبوتس) تقاعد عام ١٩٧٠ ، وترك (دي مويراي) مكشوفاً . وكان (ديك وايت) مصمماً على ان يتخلص منه إن كان ذلك ممكناً . غير ان (موريس أولدفيلد) اقترح بان فترة عمل يقضيها في مالطا ، ستكون أفضل حل لمشكلته .

حين عاد (دي مويراي) عام ١٩٧٢ ليجد ان قضية (هوليس) قد وضعت على الرف ، أخذ ينشط للعمل . وقد خشي كل من (أولدفيلد) و (هانلي) من ان يفكر في قضية إيصال مخاوفه عن الاختــراق الســوفييتي الــى نائب في البرلمان . وكان (آرثر) يطور اتصالاته بالبرلمان . فبعد تقاعده ، ذهب للعمل هناك كموظف كاتب للتعويض عن راتبه التقاعدي . وثارت المخاوف من أن يقرر العمل على اخبار بعض اصدقائه الجدد عن جروح السنوات العشر الأخيرة .

ولم يكن (هوليس) هو مثار اهتمام (دي مويراي) الوحيد . فقد كان يعتقد ايضاً ان نظام رؤساء أجهزة الاستخبارات في المؤسسة كلها يعتمد على محاباة الأقرباء ، ويؤدي الى كارثة محتملة . وكانت وجهة نظره ، ان أي جاسوس حين يتسلل الى قمة مؤسسة ، يكون في موقع قوي يسمح له بتعيين زملائه الخونة ليلتحقوا به .

وقــد أثار (أولدفيلد) موضوع (دي مويراي) اثناء احدى جلساتنا الهادئة لتناول طعام العشاء . وسأل :

" ألا تستطيع كبح جماحه ؟ " .

وأوضح ان (هانلي) ينظر الى الأمر على هذا النحو أيضاً . كما كانت لدى (أولدفيلد) أسباب شخصية للرغبة في إبقاء قضية (هوليس) مدفونة . كان قد أبعد عن اعلى منصب في (م آي ٦) حين عــاد (ديك وايت) لكنــه كان يأمل على نحو يائس في ان تسنح له فرصة الوصول الى منصب رئيس (الفرع ج) في الجهاز .

وقـد أخبرته ان الشكوك تساورني في ان اتمكن في النهاية من ان أؤثر تأثيراً قويا عليه ، وعلى (آرثر) . فقال :

"نعم ، ولكنهما لا يعرفان ما تعرفه . انهما لا يدركان مدى حساسية الأمور فأي فضيحة تثار الآن ستسدد لنا لطمة خطيرة " .

كان (موريس) المسكين شفافاً جداً لدرجة انه يمكنك ان تقرأ طموحه من خلال وجهه ، كما تقرأ كتاباً . وقبل ان يحل المساء أخذ يتكلم عن المستقبل ، فقال :

" طبعـــاً ، إن ترك (ريني) العمل ، وأتيحت الفرصة لي ، فانني لن أرغب في البقاء مدة طويلة . . .

وتلاشى صوته . كنت أعرف انه يريدني ان أوصل الرسالة .

بعد بضعة أسابيع ، تناولت طعام الغذاء مع (ستيفن) وحاولت اقناعه ان الوقت لم يحن بعد لدفع القضية الى الأمام . وقلت :

" هناك أمور تحدث ، لكنني كنت أعرف أنها تبدو وكأنها ساكنة . . غير ان هناك طرقاً عديدة لسلخ جلد القطة . كل ما نحتاجـــه الوقت المناسب " . لم يكن مقتنعاً . فقد كان يرى انني كنت في جيب (هانلي) ولم يخف هذا الامر ، ويجعل منه سراً .

في الحقيقة ، كنت لا أزال آمل أن يؤدي البحث في (فينونا) والذي سمح (هانلي) به الى ظهور دلائل حيوية لصالح القضية . ربما كان هناك المزيد من حركة الاتصالات قد نعثر عليها في خزنة مغبرة ، فتقدم الينا نظائر لفتح أبواب الاسماء السرية الضائعة .

وقد ظهر أخيراً اختراق صغير في حركة الاتصالات القائمة حالياً ، الأمر الذي أدّى الى تغذية الامل في نفوسنا . كان (جيفري سادبيري) يعمل على جزء من معلومات (هاسب) لم يكن قد تم اختراقه حتى ذلك الوقت . وقد كشفت تحاليل الكومبيوتر المتقدمة بان حركة الاتصالات الخاصة هذه هي ليست (فينونا) الحقيقية . ولم يتبين انه تم تشفيرها باستخدام لبادة تستعمل لمرة واحدة . وقد توصل (سادبيري) من خلال التوزيع العشوائي للمجموعات الى استنتاج مفاده ان عملية التشفير تمت من خلال استخدام دليل من نوع ما .

وبدأنا التفتيش في المكتبة البريطانية ، فوجدنا في النهاية كتاباً عن الاحصاءات التجارية منذ سنوات الثلاثينات بدا بانه مناسب تماماً . وتم اختراق وحل كمية هائلة من حركة اتصالات (هاسب) خلال ليلة واحدة . كانت حركة اتصالات الاستخبارات العسكرية السوفييتية مشابهة للكثير ما حللناه في السابق . غير انه كانت هناك سلسلة من الرسائل التي كانت قيمتها لا تقدر بثمن . وكانت الرسائل مـــرسلـــة مــــن قبل عميل للاستخبارات السوفييتية العسكـــرية وهـــو من النـــوع المقيـــم ، ويدعى

(سيمون كريمر) الى مركز (موسكو) وصف فيها اجتماعاته مع مشرفة جواسيس تابعين للاستخبارات العسكرية السوفييتية هي (سونيا) والمعروفة بالاسم السري (روث كوتشينسكي) .

وكان اتصال (سونيا) قد تم استبعاده خلال سنوات الستينات لانه كان أضعف مما يكن الاعتماد عليه . فقد مالت (م آي ٥) الى الاعتقاد بالقصة التي ذكرتها من أنها جاءت الى بريطانيا هرباً من النازية والحرب ، وانها لم تصبح نشيطة في العمل مع الاستخبارات الروسية ، الاّ عندما تطوع (كلاوس فـوخس) بتقديم خدماته عام ١٩٤٤ . وقد أنكرت قيادة الاتصالات الحكـومية بشدة ان تكون (سونيا) قـد تمكنـت فـي أي وقت من الاوقات من ارسال رسائلها اللاسلكية من بيتها الواقع قرب (اوكسفورد) خلال الفترة الممتدة بين ١٩٤١ – ١٩٤٣ .

لكـن رسائل (كريمر) حطمت بشكل كامـل ذلك الاعتقاد السائد . وقد بينت هذه الرسائل ان (سونيا) قد ارسلت فعلاً الى منطقة (اوكسفورد) من قبل الاستخبارات الروسية ، وانها كانت تدير خلال عام ١٩٤١ شبكة من العملاء . وقد احتوت حركة الاتصالات على تفاصيل عن الدفعات التي كان تدفعها الى هؤلاء العملاء ، إضافة الى أوقات و مدة استمرار اذاعاتها في جهازها اللاسلكي الخاص . فكرت بمرارة بالطريقة التي كان يمكن ان تؤثر بها هذه المعلومات الجديدة على التحقيق مع (هوليس) لو أننا حصلنا عليها عام ١٩٦٩ .

حالما تمـت معرفة هذا ، تأكدت اكثر من السابق ، بان (ايلي) موجود حقاً ، وانه يدار من قبل (سونيا) في (اوكسفورد) وان سر هويته الشخصية موجود في ارسالها ، والذي فقد طوال كل تلك السنوات السابقة ، وعلى نحو لا يمكن تفسيره . وكان الأمل الوحيد ، هو السفر في أنحاء العالم بحثاً عن أي علاقة تدل على ما اذا كانت حركة اتصالاتها قد التقطت في مكان آخر .

وخلال السنوات الاربع الممتدة بين عامي ١٩٧٢ – ١٩٧٦ ، قطعت مسافة ٣٧٠٠٠٠ كيلو متراً بحثاً عن (فينونا) جديدة ، وعن بث (سونيا) لرسائلها . ففي فرنسا ، أخبرتني الاستخبارات الفرنسية انه ليس لديهم أي معلومات ، على الرغم من ان (مارسيل) أعلمني انه متأكد من انهم التقطـوها . وقـد يكون من المحتمل ان أحد عملاء (سابفير) قد اتلفها منذ مدة طويلة . وفي المانيا ، اعترفوا بجهلهم التام حول الموضوع . وكان الحال نفسه في ايطاليا ، في حين رفضت اسبانيا تلقي طلبنا ، ودراسته ، الاّ بعد أن نقوم باعادة (جبل طارق) اليهم . و قضيت الشهور وأنا أتجول في مكاتب البرق في كندا بحثاً عن آثار ملفات اتصالات تلكس هناك . لكن لم يكن هناك أي شيء . وفي (واشنطن) أدّى بحث مكثف الى لا شيء . لقد كان مما يحطم القلب أن أعرف بأن ما أردت معرفته كان موجوداً في وقت من الأوقات ، وبانه جمع في ملفات ، وتم تخزينه ، لكنه تسرب من بين اصابعنا بطريقة ما ، واختفى .

في عام ١٩٧٤ ، بدأت أنا و (هانلي) القيام باستعدادات لمؤتمر (كازاب) التالي ، والذي كان على وشك ان يعقد في (لندن) في شهر أيار . واخبرته بانه قد يواجه ضغوطاً من الامريكيين والكنديين ليحصلوا على تصريح حول قضية (هوليس) . فقد كنا نجحنا في ايقاف ذكر أي تعليق منذ التحقيق معه . غير ان (انغلتون) كان مصمماً على ان يكون لديه شيء في السجلات .

وسألني (هانلي) :

" ما الذي سأقوله لهم ؟ " .

وطلبت منه أن يجعل المسألة عائمة ، فقلت :

" اذكر الوقائع لهم . . كانت هناك سلسلة ادعاءات قديمة ، وكان هناك عدد من المرشحين تنطبق عليهم هذه الادعاءات ، وكان (هوليس) أحدهم ، بل وربما ، كان افضلهم . لكننا في النهاية ، وعلى الرغم من تحقيقنا معه ، لم نتمكن من الوصول الى استنتاج مؤكد " .

كان مؤتمر (كازاب) لعام ١٩٧٤ صرخة بعيدة عن الاجتماعات ذات المعنويات العالية والتي انعقــدت خــلال سنــوات الستينات . فقــد اختفــى العديد من الوجوه من حول الطاولة : ذهــب (سبراي) و (جيم بينيت) من الشرطة الكندية ، وكان (بينيت) نفسه مشبوها أثناء مطاردة سرية جرت داخل الشرطة الكندية ، وكنت طرفاً فيها على نحو ما [وأنا أعتقد أن (بينيت) على الرغم من سلــوكه الغــــريب أثنــاء التحقيــق لم يكــن جاسوساً] كمــا ذهــب (هيلمز) ايضاً ، في حين ان (انغلتون) كان يعيش – وبشكل واضح – آخر أيامه . وكانت فضيحة (ووترغيت) في (واشنطن) في ذروتها ، وكانت الخزانة المليئة بهياكل (السي آي ايه) العظمية تنفتح ببطء * .

وأدلى (هانلي) ببيانه القصير عن قضية (هوليس) وقوبل بصمت ، اذ ان غالبية الموجودين قد عانوا هم أنفسهم من نفس الجراح ، وكانوا يعرفون مدى الألم والضرر الذي يمكن ان تحدثه قضية كهذه . وانتهى (هانلي) وبدبلوماسية الى دعوة الاجهزة الممثلة في الاجتماع لتقديم تقييماتها عن الاضرار مهما كانت طبيعتها ، والتي يرون بانها ضرورية على ضوء بيانه . كان شرك (الوايت هول) الكلاسيكي : حدِّد الطريق الوعر ، ولكن دع الرجال الآخرين يصلون الى الاستنتاج الحاسم .

ورأيت (انغلتون) مرة واحدة فقط في (واشنطن) بعد اجتماع موتمر (كازاب) في نهاية السنـــة . كـــان على معرفة بانه يتعرض لضغوط قوية للخروج من الخدمة . فقد اعتزم مدير جديد هو (وليام كولبي) على ازاحته من منصبه ، اذ تشاجر (انغلتون) و (كولبي) حول مسلكية التجسس المضاد في جنوب شرق آسيا لسنين عديدة . وحين أصبح (كولبي) مديراً ، سنحت الفرصة له للتخلص

---

* يعتمد المؤلف هنا على المثل الانكليزي الشهير : [هيكل عظمي في الخزانة] ويعني بذلك الفضيحة التي لم يكشف سرها ، ولا بد له من ان ينكشف في يوم من الايام (المترجم)

منه حينما نشرت صحيفة (نيويورك تايمز) قصة تظهر (انغلتون) على انه العقل المدبر لبرنامج مراقبة البريد المحلي الشامل . وخلال بضعة أيام ، استقال (انغلتون) وكل رجاله .

حيـــن التقيــت (انغلتون) كان ثائراً . وحين عرف ان كبار ضباطه العاملين معه يتركون الخدمة ، أخذ يشتم قائلاً :

" مائتا سنة من التجسس المضاد ، تلقى وراء الظهور " .

وكـــان مـــن الواضح ان قصة (نيويورك تايمز) كان الطلقة الاولى في هذه الحـــرب . وخلال ستة شهـــور ، غـــرقت (السي آي ايه) فـــي خليط مشـــوش من جلسات مجلس الشيوخ للاستماع الى الشهـــادات وفضـــح الأمور . وكانت السنة التي بدأ فيها الحساب هي عام ١٩٧٤ . وبدأت في كل من كندا ، واستراليا التحقيقات في المظالم الماضية : المزعومة و الحقيقية التي مارستها أجهزة استخباراتهم . كنا المنبوذين العصريين : مكروهون ، وغير موثوق بهم ، ومطاردون أيضاً .

وارتاع كل من (أولدفيلد) و (هانلي) من سير الأحداث خارج انكلترا ، فقد كانا يخشيان اكثر من أي شيء آخر ، هو ان تتدفق الفضائح وتصب في أجهزتهم . وقد أدركا ايضاً ، ان حكومة العمال التـــي تم انتخابها مؤخراً قد تظهـــر استعدادها لتشجيع مثل هذه التطورات . وفي هذا السياق ، اعتـــزم (ستيفن دي موبراي) أخيراً بانـــه لا بد له من أن يعمل . ففي منتصف عام ١٩٧٤ ، اتصـــل بصديـــق لـــه يدعـــى (فيليب دي زولويتا) السكـــرتير الخـــاص السابـــق لـ (أليك دوغلاس هيوم) حيـــن كـــان الأخيـــر رئيساً للوزراء ، ولخص له مخاوفه من امكانية اختراق (م آي ٥) ومن الطريقة التي تتم بها عملية تعيين رؤساء الاجهزة . واقترح عليه (زولويتا) الاتصال مع (السّير جون هنت) سكرتير رئاسة الوزراء الجديد . وبعـــد ان أخبـــر (مـــوريس) بانه لم يعد يستطيع منع نفسه ، قام (دي موبراي) بترتيب موعد مع (١٠ داوننغ ستريت) .

وزأر (هانلي) ذات صباح :

" ما الذي يفعله ذلك الدموي (دي موبراي) ؟ " .

كانت تلك أول مرة أسمع فيها الخبر . وتابع قائلاً :

" ان (مـــوريس) الدمـــوي يتـــدخل ثانية . كيـــف يـــدع أحد ضباطه يخطر متجولاً حول شـــارع (داوننغ) وينشـــر كـــل ملابسنـــا الداخليـــة دون أن يحصل على إذن مني . . . ان هذا لا يحتمل " .

وأخبرت (هانلي) انني أرى ان هذا الأمر كان حتميا ، ففي النهاية كان (دي موبراي) مغرماً على الدوام بالقيام باتصالاته متجاوزاً (م آي٥) و (م آي ٦) ، واننا يجب ان نحمد الله على ان الاتصال كان مع شارع (داوننغ) وليس من خلال عملية استجواب برلماني .

وكانت النتيجة إعادة نظر : مناورة كلاسيكية . ففي الوقت الذي يبدون فيه شديدي الأمل ، فانك ترى بعد ذلك مباشرة انهم مُصَمِّمون على الوصول الى الحل الذي يرغب به اولئك الذين قاموا بالاستجواب . وكان هذا الاستجواب سيتم بواسطة (اللورد تريند) سكرتير رئاسة الوزراء السابق . وكان لا بد ان تكون لديه كل الاوراق ، والوقت الكافي الذي يحتاجه ليقرر أيا من الاعتقادين يمكن تصديقه .

كان (تريند) قد ظهر اول مرة في (ليكونفيلد هاوس) في أواخر عام ١٩٧٤ ، وكان قد أعطي غرفة مكتب ، وسكرتيرة ، وخزنة ، وترك وحيداً في الطابق الخامس . بعد بضعة أسابيع ، اتصل بي هاتفيا ، وطلب اليّ الحضور الى غرفته .

بدا شخصية (اوكسفوردية) تقليدية ، ورجلاً جمالي المظهر ، بجبهة واسعة ، وشعر أشيب مشقر .

بدأ الحديث قائلاً :

" لا أريـــد أن اتكلم عن القضية . انني أريد أن أكوّن صورة للكيفية التي سار العمل بموجها في القضية ، ومن ثم سأنطلق ، وأدرس ، وأرى الناس ، ثم سأراك ثانية في النهاية " .

سُتفت المجلدات العشـــر لمجموعة عمل (فلوينسي) على المكتب امامه ، وقضينا باقي الصباح ، ونحن نطلع عليها .

وأراد ان يعرف ، فسألني :

" كيف بدأت كلها ؟ " .

كان سؤالاً كثيراً ما طرحته على نفسي ، وأنا أجلس في المساء منقباً في تلك الملفات نفسها . كيـــف بدأت ؟ هل بدأت عام ١٩٤٥ ؟ هل بدأت حين ترك (بلنت) الخدمة ؟ ام حين قام (فولكوف) و (غوزينكو) باتصالاتهما ؟ ربما بدأت في وقت مبكر جداً حينما خطا رجل نحيل مصاب بالسل ، نازلاً من سفينة قادمة من الصين ، وحاول الحصول على عمل في الاستخبارات البريطانية . أو ربما بعد ذلك بفتـــرة ، بفتـــرة طـــويلة حينما أخبرنا (تيسلر) عن وجود جاسوس في (م آي ٥) أو حينما تكلم (غوليتسين) عن الجواسيس : عن مئات وآلاف منهم في كل مكان ، أم كانت قضية (ميتشل) هي اللحظة الحاسمة ، المرة الأولى التي بحثنا خلالها ، ولم نستطع العثور على جاسوس بيننا ؟ كيف يمكن ان تحـــدد اللحظة التي يصبح فيها الخطر وجوداً محسوساً ؟ انها هنا . . . انها هنا دائماً ، منذ البداية ، وحتى النهاية .

بدت ملفات (فلوينسي) بعيدة على نحو غريب . لقد تراكمت خلال ساعات عمل خفية . فقد سُجلت محاضـــر من كـــل دائـــرة سرية بحذر ، متتبعين توزيع هذه الوثيقة ، وتلك ، وتم تحليل كل

ادعاء ، وأعطي لكل مشبوه اسماً رمزياً . وفي نهاية الملف الأخير ، كان هناك المحضر الشهير موقعاً بخط يدي ، معطيا اسماء اولئك الذين سيتم التحقيق معهم على نحو عاجل .

وسأل (ترِيند) خلال اكثر من مناسبة عن سبب التأخير في معالجة القضايا ، وأوضحت له :

" انـــه لأمـــر صعب أن يُذكر بأن ذلك الرجل الذي عملت معه لسنين طويلة ، والذي أعطاك عملك ، والذي أعطيته عملاً له ، هو جاسوس . ذلك ما اكتشف كل من (ديك وايت) و (فيرنفال جونز) ان من الصعب جداً فهمه . . . ولذلك السبب ، فاننا كتبنا أسماء رمزية منذ البداية لتجريد كل شيء من شخصيته " .

قال (ترِيند) :

" تماماً . . . " . فقلت :

" انـــت تعـــرف ان قرارات (فلوينسي) قـــد اتخذت بالاجماع ، ولم يكن هذا قراري وحدي . . لقد كنا ستة أشخاص ، وكان تفكيرنا جميعنا واحداً " .

تمتم (ترِيند) بصمت وهو ينظر الى تبادل وثائق غير مؤذية في الملف :

" آه نعم " .

بـــدا (ترِيند) مهتماً بالعميل متوسط الدرجة ، وقد طلب مني أن أوضح له كيفية معالجتنا للادعاء ، والنظام الذي اتبعناه لوضع العلامات لكل مرشح من المرشحين الاربعة والثلاثين المشتبه بهم .

وقضيـــت بضع ساعات وأنا أشرح (فينونا) . لقد سحرته لعبة الصور المقطوعة ، غير الكاملة ، والجهنمية ، والتي أوحت بالكثير من الوعود ، وكشفت عن القليل جداً .

وســـردت له كيفية توصلنا الى تحديد الهويات ، وان (ستانلي) و (هيكس) و (جونسون) هم (فيلبي) و (بيرغس) و (بلنت) على نحو مؤكد تقريبا ، على الرغم من انه لا يزال هناك مجال للشـــك . وكان (ستانلي) هو (فيلبي) لانه تمت الاشارة الى ان مسؤولية ادارته كانت الشؤون المكسيكية ، و ان (هيكس) هو (بيرغس) لأن هناك رسالة من مركز (موسكو) تعلم (كروتوف) ان يطلب من (هيكس) أن يقصر تقاريره على وقائع صلبة ، وأن يحذف النظريات منها .

قلت ضاحكاً ، وقد دهشت للحميمية التي أشرت بها الى رجل لم اقابله الاّ على الورق :

" ذلك هو (بيرغس) على وجه الدقة " .

وسأل (ترِيند) :

" وجونسون ؟ " . قلت :

" هنا توجد شكوك . . . فهنا اشارة . . . " .

وسلمته ورقة من (فينونا) مزينة باشرطة رسالة ورقية ، وتابعت :

" يمكنك أن ترى ان (جونسون) يسافر الى الخارج ، وهو أمر ينطبق على تنقلات (بلنت) . فقد ذهب الى ايطاليا في نهاية الاسبوع الذي تم فيه استلام الرسالة . لكن الغريب في الأمر الى حد ما ، أن يظهر (كروتوف) وكأنه لا يعرف بخطط (جونسون) . لقد سألت (بلنت) عن هذا ، فكان جوابه انه أخبر (كروتوف) عن رحلته الوشيكة قبل ستة أسابيع من القيام بها " .

وسأل (تريند) :

" هل يمكن ان يكون (جونسون) شخصاً اخر ؟ " . فقلت :

" ان الضابط الوحيد الذي قام برحلة مفاجئة الى الخارج في نهاية هذا الاسبوع ، هو الضابط (درات) . . . آسف ، أعني (هوليس) وذلك حينما ذهب الى كندا لمقابلة (غوزينكو) " .

قال :

" و . . . ؟ " . قلت بهدوء :

" انني أشك بذلك ، أشك بهذا بطريقة ما . أظن أن (جونسون) هو (بلنت) وكان يضللنا عن عمل الستة أسابيع . فـ (جونسون) مرتبط ارتباطاً وثيقاً بـ (هيكس) و (ستانلي) حتى انه لا يمكن ان يكون أي شخص آخر غير (بلنت) . ومع ذلك ، فهناك ثلاثة أسماء سرية أخرى لم تزل غير محددة الهوية ، وأي واحد منها يمكن ان يكون (هوليس) " .

لقد أثار (تريند) لدي انطباعاً جيداً ، فهو سريع البديهة ، ودقيق التفكير ايضاً ولم يكن ليتحاشى المرور بين النقاط المتعددة . وخرجت من اجتماعنا الاول ، وأنا أشعر انني شُويتُ بطريقة هادئة وصبورة . غير ان ما أثار قلقي هو انه تلقى تدريبا في مجال الخدمة المدنية ، ولم تكن لديه خلفية ضابط استخبارات ، فهل سيكون باستطاعته الخروج بنوع الاحكام التي يفترض بها أن تؤدي الى حل كتلة المعلومات الاستخباراتية المتناقضة هذه ؟ انه لا يمتلك الخلفية ، ولا طريقة الحكم على قوة القضية ضد (هوليس) مقابل قوة القضية ضد جواسيس آخرين ، مثل (فيلبي) و (بلنت) و (بليك) . ان سنين من الخبرة في العالم السري تستطيع فقط ان تخلق عند الرجل حدساً من ذلك النوع .

كان (تريند) يتمتع بسمعة عالية داخل أوساط (م آي ٥) وكانت غالبية العاملين هناك يفضلونه على (نورمان بروك) سكرتير رئاسة الوزراء السابق ، والمعروف بأن هناك هاجساً يستحوذ على تفكيره . كنت و (نورمان بروك) أعضاء في نفس النادي ، ودأبت على الحديث اليه من وقت لآخر بعد أن أحيل على التقاعد . وكان حريصا على ألاّ ينتقد خلفه ، لكنه كان يوحي دائماً بانطباع مفاده ان الأمور كانت تعالج في هذه الايام على نحو أسوأ كثيراً من معالجتها في أيامه . اما (تريند) فقد كان يمتاز عليه بهدوئه ، وحارب وزارة المالية ببسالة نيابة عن الاجهزة السرية خلال سنوات الستينات .

واستمر (تريند) يعمل في (ليكونفيلد هاوس) مدة سنة اخرى . وكنا نتقابل في الممرات من وقـــت لآخر . لم يكن يتكلم كثيراً ، واستدعيت لمقابلته ثانية في أواخر عام ١٩٧٥ ، وكنا قد انتقلنا مؤخراً من (ليكونفيلد هاوس) الى مكاتب شارع (غوور) الكئيبة .

أراد أن يتكلم عن الادعاءات . كان يظن انها كلها قديمة جداً حين تسلخ لحمها عن عظامها .

قلت :

" طبعاً ، غير ان ما يترك انطباعاً في الذهن هو تطابق تواريخ الادعاءات . فقد جاءت كلها في وقت واحد بالضبط . انه لأمر غريب تماماً " .

قـــال (تريند) ان (غوليتسين) لم يبد انه يقود الى اي مكان ، وكان التعبير الذي استعمله هو " ليس متعاوناً " . ووافقته على ذلك ، من حيث ان (غوليتسين) لم يعطنا شيئاً متعلقا بقضية الاختراق على مستوى عال لنتحراه . كما وافقت على انه كان – في افضل الحالات – مؤشراً على حصول ذلك الاختراق .

ورفض (تريند) ايضاً قصة العميل متوسط الدرجة . ووافق قائلاً :

" تلك قضية صعبة جداً . . . ومن المستحيل أن لا نبحثها ، غير انني ارى أن من الصحيح أن نبعدها عن أذهاننا الآن " .

وبدأ من جديد ، بعد أن قلّب ملفا متعلقا بالموضوع ، وعدّل نظارته ، وقال :

" والآن ، فولكوف " .

وسألني : ألا أكـــون متشدداً في تغيير اتجاه هجوم الادعاء ، بعد ان قمت باعادة ترجمة الوثائق ؟ فقلت :

" لا أرى سببا لذلك ، فهناك فعلاً طريقتان لمتابعة العمل في مثل هذه القضايا ، احداهما : تخمين ما يعنيه الادعاء ، والى أين يقود ، ومدى الجدية التي يجب ان ننظر بها اليه . اما الطريقة الثانية فهي تبني المنهج المدرسي ، وتحليل كل شيء تحليلاً دقيقاً وصارماً ، ثم اقامة البناء علميا على تلك القاعدة الصخرية " .

قال (تريند) :

" ثم هناك (ايلي) . أرى انك بحثت القضية مع (احميدوف) لكنك لم تتابعها ، أليس كذلك ؟ لا يوجد في حركة الاتصالات (ايلي) " .

أجبته :

" لكننـــــي لـــم أتوقـــع وجـــوده في حركة الاتصالات . ان (ايلي) غير شرعي فاذا كـــان ذلك هـــو وضعـــه ، فان اتصـــالاتـــه ستكـــون غير شرعية ، ولن تتم من خلال

السفــارة . لو عثــرنا علـــى حـــركة اتصــالات (ســونيا) فانني متأكد من انني سأعثر على (ايلي) لكننا لا نستطيع " .

قال :

" ألا زلت ترى ان (ايلي) هو (هوليس) ؟ " .

قلت :

" بالتأكيد القاطع " .

قال :

" ولم يثر أي شيء الشكوك عندك منذ ذلك الوقت ؟ "

قلت :

" لا ، وإن وجد شيء فانه قد زاد من قناعتي " .

تنهد (تريند) بصبر ، وعاود القول :

" ولكنه لا يمتلك خلفية ايديولوجية " . فقلت :

" ولكن هناك الصين " .

" آه ، نعم ، الصين " .

وتلاشى صوته .

كان (تريند) محترفاً حتى النهاية ، ولم أستطع قط ان اكتشف ما كان يعتمل في نفسه من مشاعــر . ومــن المــؤكد ، انه أثار فيّ انطباعاً مفاده انه كان يرى ان قضية الاختراق هي قضية قوية ، ولم يفصح عما في ذهنه سوى اشارة عابرة الى حقيقة انه يشك بأن (هوليس) هو المرشح المشتبه به بشكل صحيح .

ولم أعرف من خلال (هانلي) طبيعة استنتاجات (تريند) . فلم يناقش الموضوع قط ، وأظن ان تقرير (تريند) كان قد اكتمل بعد أن تركت الجهاز في شهر كانون الثاني عام ١٩٧٦ . وكل ما حدث فقط هو ان السيدة (مارغريت تاتشر) ملأت الثغرة الأخيرة ، حينما خاطبت مجلس العموم البريطاني عام ١٩٨١ قائلة : ان (اللورد تريند) قد توصل الى استنتاج مفاده ان (هوليس) لم يكن عميلاً للاستخبارات الروسية ، وانه يؤمن ببراءة الرجل ، **كايماني أنا بخيانته** * وكما يؤمن شخص آخر بالله أو بالمامــون ** . وكمــا أدرك الآن ، فــان وجهة نظر رجل واحد ليست بذات أهمية فـــي النهاية ، فالوقائع فقط هي التي ستكشف السر الأبدي .

---

* الكلام هنا لمؤلف الكتاب (المترجم)

* شيطان الجشع وحب المال (المترجم)

وفيما كنت اقترب من شهوري الأخيرة في المكتب ، أحسست بموجة من التعب . ولم أعرف إن كان من الواجب عليّ ان أبقى في انكلترا ، وأقاتل ، أو أن أقلل من خسائري ، وأهرب . لقد ساءت صحتي ، وكان راتبي التقاعدي يثير السخرية . ولكن ، كانت لي ذكرياتي .

بعد ظهر أحد الايام ، وكان الوقت يقترب من عيدالميلاد ، قدت سيارتي - وبرفقتي فيكتور - متوجهين للمرة الأخيرة الى بيته الريفي في (كامبردج) . كان تبادل الحديث صعباً ، فهناك الكثير من الاشياء التي هي بحاجة للحديث عنها ، وكان في داخلي الكثير جداً من الاشياء المضغوطة التي تنتظر ان تنطلق .

سألني :

" ما الذي ستفعله ؟ " .

قلت :

" أوه ، لا أعرف ، ربما استراليا " .

مرّت حقول الارض المستنقعية المبللة بسرعة امام السيارة . ومن بعيد كان باستطاعي ان أحس باقتراب أبراج (كامبردج) .

بعد وهلة من الزمن ، قال (فيكتور) :

" تريد ان يتم اقناعك بالذهاب ، أليس كذلك ؟ " .

قلت :

" أظن هذا " .

كنت مكتئباً . كنت في الجانب الخاسر . وقد تم الاصلاح في اجهزة الاستخبارات البريطانية ، وأفسحت الكاثوليكية الطريق أمام البروتستانتية ، وكانت حروبي حروب الماضي .

قال (فيكتور) :

" يجب ان تذهب يا (بيتر) . إذهب الى الشمس ، وحسّن صحتك . . حسّن لياقتك البدنية ، ودع شخصاً آخر يتحمل التوتر . لقد قمت بعمل كان من الواجب ان يقوم به ثلاثة رجال " .

وهدر محرك السيارة .

قال لي :

" ان مشكلتك يا (بيتر) انك تعرف الكثير جداً من الأسرار " .

ايضاحات

شعبة م آي ٥ : جهاز الأمن البريطاني (كانت سابقا القسم رقم ٥ في الاستخبارات العسكرية) وهي تشبه مكتب التحقيقات الفيدرالي الامريكي (ف . بي . آي) غير انها تقوم باعمال التجسس المضاد . ومهمتها الرئيسية هي المحافظة على الأسرار البريطانية ، وحمايتها من الجواسيس الأجانب ، والحيلولة دون وقوع عمليات التخريب المحلية ، وسرقة أسرار الدولة .

شعبة م آي ٦ : جهاز الاستخبارات السرية البريطانية (كانت سابقا القسم رقم ٦ في الاستخبارات العسكرية) . وهي مؤسسة مدنية تشبه وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية (سي . آي . ايه) . ومهمتها الرئيسية جمع المعلومات الاستخباراتية خارج بريطانيا ، والقيام بالمهمات ذات الطبيعة الاستراتيجية الأخرى .

الوايت هول : شارع في (لندن) حيث تتوضع فيه مكاتب الحكومة الرئيسية .

الفرع د : فرع التجسس المضاد في (م آي ٥) .

القسم د١ : رئاسة مكافحة التجسس الروسي في (الفرع د) .

المراقبون : (افراد قسم المراقبة / ووتشرز) : ضباط (الفرع ا) التابع لـ (م آي ٥) . وتكمن مهمتهم في القيام باعمال المراقبة المرئية ، وتحديد هوية الاشخاص الذين يشكلون خطراً على الأمن .

د س ت : جهاز التجسس المضاد الفرنسي ، ويشبه (م آي ٥) .

مكتب التحقيقات الفيدرالي الامريكي (ف . بي . آي) : مهمته الرئيسية القيام باعمال التجسس المضاد المحلية في امريكا .

وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية(سي . آي . ايه) : مهمتها الاساسية القيام باعمال التجسس والاستخبارات خارج الولايات المتحدة الامريكية ، وهي تعرف هناك أيضاً باسم (الشركة) .

حركة الاتصالات : اشارات الاتصالات اللاسلكية ، التلغراف ، واشارات موريس ، والتي تتضمن عادة رسائل أصلية غير زائفة .

شارع فليت : شارع الصحافة

المحتويات

بيتر رايت

صائد الجواسيس

صباح يوم ١٩٨٩/٦/٤ نشرت الصحف العربية والعالمية على صدر صفحاتها الأولى، أنباء تتحدث عن ان (موسكو) اكتشفت وجود اجهزة تنصت داخل مبنى البعثة التجارية السوفييتية في (لندن) وكذلك داخل بيوت يستخدمها المسؤولون السوفييت هناك.

وفي الوقت ذاته، اعلنت بريطانيا عن اكتشافها لشبكة تجسس سوفييتية تعمل داخل بريطانيا ويتكون اعضاؤها من عدد من الدبلوماسيين السوفييت العاملين في (لندن).

تُرى: هل هذه هي اول حادثة من نوعها؟ وما هي حقيقة حرب اجهزة التنصت التي دارت بين مختلف اجهزة الاستخبارات الغربية؟

(بيتر رايت) في كتابه هذا (صائد الجواسيس) الذي حاولت الحكومة البريطانية منع نشره، يكشف لنا جذور تلك الحرب، وقصة الصراع بين الاستخبارات البريطانية ونظيرتها الروسية... تلك الحرب التي عاش المؤلف احداثها منذ سنوات الاربعينات وحتى اليوم، فاستحق بذلك لقب (صائد الجواسيس) من خلال عمله كضابط على مستوى عال، وكنائب لمدير عام الشعبة (م آي ٥) التابعة لجهاز الاستخبارات البريطاني.

الغلاف: زهير أبو شايب



الأهلية للنشر والتوزيع